رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم من كلمات الشيخ الأكبر

محيي الدين محمد ابن العربي الطائي الحاتمي

الجزء الرابع

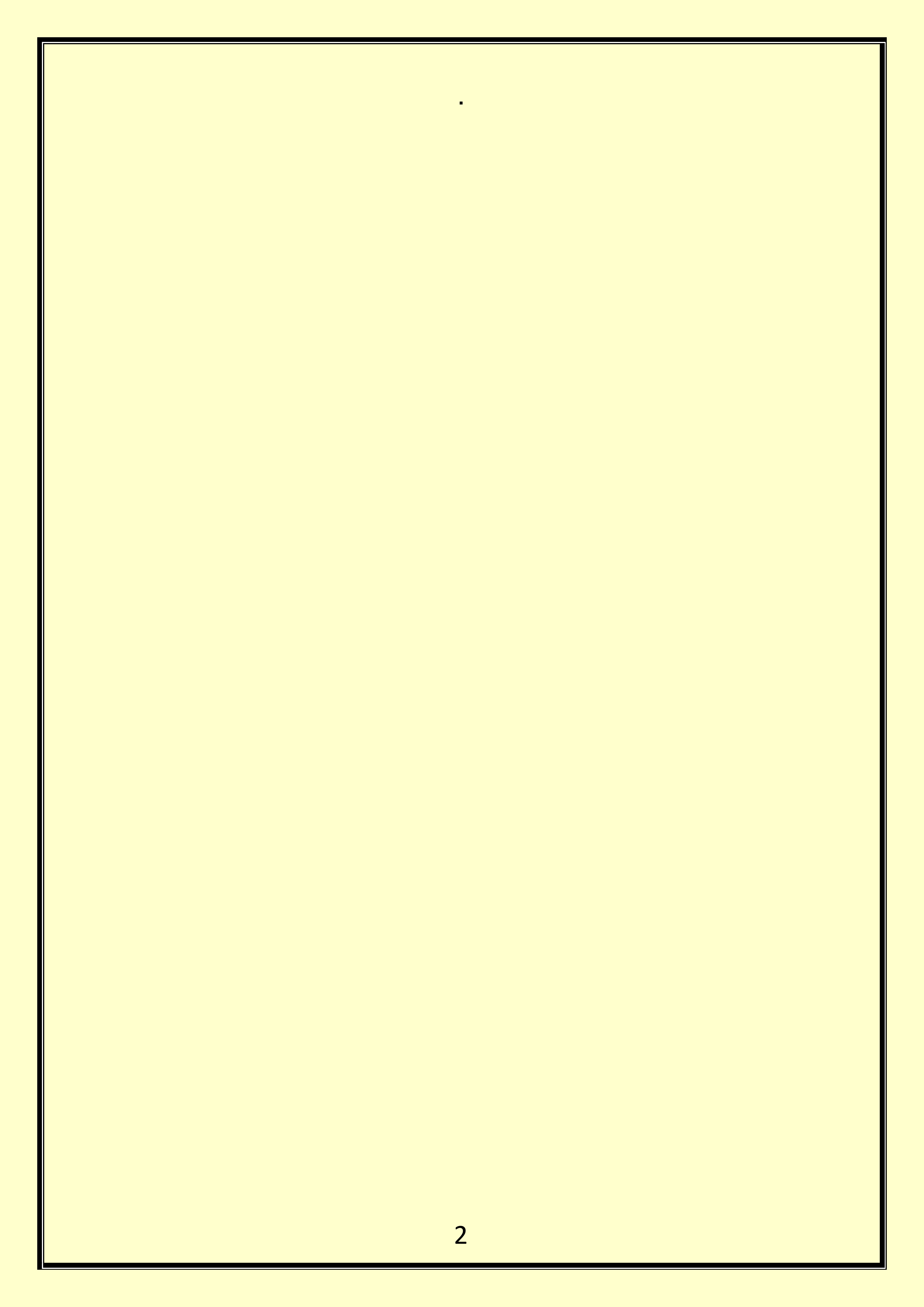
جمع وتأليف

أ. محمود محمود الغراب

وعلى هامشه إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن

للشيخ الأكبر

محيي الدين محمد ابن العربي الطائي الحاتمي



الجزء الرابع

(40) سورة غافر مكيّة

[سورة غافر (40) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)

« غافِرِ الذَّنْبِ »بنسبة اليسير إليه« وَقابِلِ التَّوْبِ »لمن يرجع إليه من المخالفة ، ولو رجع ألف مرة في كل يوم فهو تائب« شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ »لما تجلى الحق في شديد العقاب ، تجلى في الطول الأعم المؤيد بغافر الذنب وقابل التوب ، ولم يجعل للشديد العقاب مؤيدا ، ومن شدته في ذلك أعقب أهل النار حسن المآب »لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ »هذا هو التوحيد الثامن والعشرون في القرآن وهو توحيد الصيرورة ، وهو من توحيد الهوية ، وهو على الحقيقة مقام الإيمان ، لأن المؤمن من اعتدل في حقه الخوف والرجاء ، واستوت فيهما قدماه ، فلم يحكم فضله في عدله ، ولا عدله في فضله- إشارة وتنبيه - لم يجعل للشديد العقاب مؤيدا وذلك للدعوى في الشدة ، فوكل إلى ما ادّعاه فهو غير معان ، ومن لم يدع فهو معان ، فلما جاء بالشدة في العقاب ولم يجيء في الطول مثل هذه الصفة ، لهذا شد أزره بغافر الذنب وقابل التوب ، فأشار إلى ذوي الأفهام من عباده بإعانة ذي الطول بغافر الذنب وقابل التوب على الشديد العقاب إلى ترك الدعوى ، فإن الشديد في زعمه أنه لا يقاوم ، ولو علم أن ثمّ ما يقاومه ما ادعى ذلك ، فنبه تعالى عباده على ترك الدعوى فيكون الحق يتولى أمورهم بنفسه ، وعصمهم في حركاتهم وسكناتهم ليقفوا عند ذلك ، ويعلموا أنه الحق .

[سورة غافر (40 : (الآيات 4 إلى 7]

ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (4) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (5) وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (6) الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ(7)

ص 03

[استغفار الملائكة للمؤمنين :]« الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا »هؤلاء الملائكة من ملائكة التسخير ، أثنى الله عليهم بأنهم يسبحون بحمد ربهم استفتاحا إيثارا لجناب الله ، ثم بعد ذلك يستغفرون ، وهو الذي يليق بهم تقديم جناب الله ، فسخرهم الله لنصرة المؤمنين إذا أذنبوا وتوجهت عليهم أسماء الانتقام الإلهية ، وتوجهت في مقامات تلك الأسماء أسماء الغفران والعفو والتجاوز عن السيئات ، فتقول الملائكة – كما أخبرنا الله بقوله :(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ)
أيضا تصلي عليكم بما شرع لها من ذلك - مستغفرة في حق المؤمن العاصي غير التائب« رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً »اتكالا على علم الله فيما قصدوه من ذلك الكلام ، أدبا مع الله سبحانه ، حيث أنه استحق جناب الله أن يغار من أجله ، ويدعى على من عصاه ولم يقم بأمره وما ينبغي لجلاله ، فإن الملائكة أهل أدب مع الله فقالوا: " رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً " بقولك (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)
وهؤلاء العصاة من الداخلين في عموم لفظة
[كل] فقام هذا الصنف من الملائكة في مقام الأدب ، الذي حكم عليهم بهذا القول إيثارا للجناب الإلهي على الخلق ، ولهذا قدموا وأخروا فيما أخبر الله عنهم في قوله« رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً »وأخروا أيضا قولهم« وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ »وفيه روائح طلب المغفرة للمسيئين ، لأن الله ما علق المغفرة إلا بالذنب ، حيث علّقها ، وقدمت الملائكة الرحمة على العلم لأنه تعالى أحب أن يعرف
وقال(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (وأما قولهم [علما]
فمن قوله تعالى(أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)وهذا تعريض تنبيه على أن الحق بهذه المثابة ، كما أخبر عن نفسه ، وقدمت ذكر الرحمة على العلم في دعائها لموضع حاجة العباد إليها ، وأدبا مع الله ، فإن الله قدمها في العطاء على العلم ،
فقال لما ذكر عبده خضر :(آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا) قدمت

ص 4

الملائكة الرحمة ، وسكتت عن ذكر العصاة في دعائها ، فإن الله وسع كل شيء رحمة وعلما ، وهو القائل (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) ولم يجر للغضب ذكر في هذه السعة الإلهية والرحمانية ، فلا بد من مآل العالم إلى الرحمة ، لأنه لا بد للعالم من الرجوع إلى الله ، فإنه القائل(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)فإذا انتهت رجعته إليه عاد الأمر إلى البدء والمبدأ والمبدي ، والمبدأ رحمة وسعت كل شيء ، والمبدئ وسع كل شيء رحمة وعلما ،
فعرف الأمر في عوده في الرحمة ، فيأمن من تسرمد العذاب على خلق الله ، فمن علم سعة الله علم سعة رحمته فلم يدخلها تحت الحجر ولا قصرها على موجود دون موجود ، فمنتهى علمه سبحانه منتهى رحمته فيمن يقبل الرحمة ، وكل ما سوى الله قابل لها بلا شك ،
ولولا سبق الرحمة الشاملة العامة الامتنانية لتسرمد العذاب على من ينفي رحمة الله من هذه السعة التي ذكر الله فيها ، ولكن سبق الرحمة جعله أن يبدو له من الله من الرحمة به مع هذا الاعتقاد ما لم يكن يحتسبه ، فما آخذه الله بجهله ، لأنه صاحب شبهة في فهمه ، فعين بصيرته مطموس ، وعقله في قيد جهله محبوس ،
ثم دعت الملائكة لمن تاب من المؤمنين بقولهم : « ربنافَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ »فصرحوا بذكرهم لما كان هؤلاء قد قاموا في مقام القرب الإلهي بالتوبة ، وقرعوا بابها في رجعتهم إلى الله ، والملائكة حجبة الحق ، فطلبوا من الله المغفرة لهم لما اتصفوا بالتوبة ، فقدموا الدعاء بالمغفرة للذين تابوا واتبعوا سبيل الله ،
والله يقول :(ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ)وأي إحسان أعظم ممن تاب واتبع سبيله .
ثم إن الملائكة لما عرفت أن بين الجنة والنار منزلة متوسطة وهي الأعراف ، فمن كان في هذه المنزلة ما هو في النار ولا في الجنة ، وعلمت من لطف الله بعباده أنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ،
فقالت :« وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ »فالملائكة أهل علم وأدب ، فإنهم علموا أصل الأدب الإلهي الذي طلبه الحق من عباده ، فوقفوا على مقصود الحق من خلقه الخلق ، وهو إنما خلق الخلق له تعالى ، وإنه أعطى كل شيء خلقه ، فما أعطاه إلا ما يصلح أن يكون له تعالى ، ولو لم يكن الأمر كما وقع لتعطل من الحضرة الإلهية أسماء كثيرة لا يظهر لها حكم ،
قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : [لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون ، فيستغفرون فيغفر الله لهم] فنبه أن كل أمر يقع في العالم إنما هو لإظهار حكم اسم إلهي ، ثم قالت الملائكة .

[سورة غافر (40) : آية 8]

رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(8)

ص 05

»رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ » أي لا تنزلهم في الأعراف
« وَمَنْ صَلَحَ »الواو هنا بمعنى مع ، يقولون مع من صلح« مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »أدبا مع الله ، فلم تقل إنك أنت الغفور الرحيم ، ثم زادت الملائكة في نصرتها للملائكة الموكلين بقلوب بني آدم وهم أصحاب اللمات ، ينصرونهم بالدعاء على أعدائهم من الشياطين ، أصحاب اللمات الموكلين المسلطين على قلوب العباد ، المنازعين لما تلقي الملائكة على قلوب بني آدم في لماتها ، فقالوا : -

[سورة غافر (40) : آية 9]
وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)
« وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ
- **الوجه الأول** - نصرة للملائكة على الشياطين
- **الوجه الثاني** - اعلم أن للمغفرة درجتين :
الواحدة ستر المذنبين عن أن تصيبهم عقوبة ذنوبهم ،
والدرجة الأخرى سترهم عن أن تصيبهم الذنوب ،
وهذا الستر هو ستر العصمة ، فقال تعالى في الستر الواحد :(وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ)
وقال في الستر الآخر في المغفرة :« وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ »أن تقوم بهم فإنه أتم في العناية ، وما ثم للمغفرة ستر آخر ، فالستر الحائل بين المذنب والعذاب ، ستر كرم وعفو وصفح وتجاوز ، والستر الحائل بين العبد والذنب ستر عناية إلهية واختصاص وعصمة ، يوجب ذلك خوفا أو رجاء أو حياء ، كما جاء في صهيب [نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه]
ثم تلطفت الملائكة في السؤال بقولهم« وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ »يعني القيامة والمعصومين من وقوع السيئات منهم أي يوم تقيه« فَقَدْ رَحِمْتَهُ »وهو قولهم(وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً)فجاء ما ذكروه في الوسط بين هذين ، كأنه إيثار للجناب الإلهي« وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ».

[سورة غافر (40 : (الآيات 10 إلى 11]
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ) (10قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ) (11

ص 6

إن الله سيذكّر عباده يوم القيامة بما شهدوا به على أنفسهم في أخذ الميثاق فيقولون :« رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ ، وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ، فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ؟ »

[« قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ . . . » الآية :]
أي كما قبلنا حياة بعد موت ، وموتا بعد حياة مرتين ، فليس بمحال أن نقبل ذلك مرارا ، فطلبوا من الله أن يمن عليهم بالرجوع إلى الدنيا ليعملوا ما يورثهم دار النعيم ، وحين قالوا هذا لم يكن الأمد المقدر لعذابهم قد انقضى ، ولما قدر الله أن يكونوا أهلا للنار ، وأنه ليس لهم في علم الله دار يعمرونها سوى النار ، قال تعالى :(وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ)ليدخلوا النار باستحقاق المخالفة .

[سورة غافر (40) : آية 12]
ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12)
فهو تعالى« الْعَلِيِّ »الظاهر إلى عباده بنعوت الجلال« الْكَبِيرِ »ليعلم العبد أنه محل للتوفيق ونقيضه ، وأنه لا حول ولا قوة إلا باللّه على ما أمر به ونهى عنه ، فالحكم للّه العلي الكبير - راجع سورة سبأ آية 23 .

[سورة غافر (40) : الآيات 13 إلى 15]
هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (14) رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (15)
« رَفِيعُ الدَّرَجاتِ »
[« رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ . . . » الآية]
فالرفعة له سبحانه بالذات ، وهي للعبد بالعرض ، وجعل له سبحانه درجات يظهر فيها لعباده ، فإن لكل اسم من الأسماء الإلهية مرتبة ليست للآخر ، والمراتب لا تتناهى وهي الدرجات ، وفيها رفيع وأرفع ، وما ثمّ رتبة إلا رفيعة ، وتقع المفاضلة في الرفعة ، ودرجات الحق ليست لها نهاية ، لأن التجلي فيها وليس له نهاية ، ومن جهة أخرى

ص 07

فإن قوله« رَفِيعُ الدَّرَجاتِ »إنما ذلك على خلقه ، فبالرتبة علم الفاضل والمفضول ، وبها ميز بين الله والعالم ، وبها ظهرت حقائق ما هي عليه الأسماء الإلهية من عموم التعلق وخصوصه« ذُو الْعَرْشِ »

- الوجه الأول - ومن هذه المنزلة تنزل النبوة ، ينزلها رفيع الدرجات ذو العرش على العبد ، بأخلاق صالحة ، وأعمال مشكورة حسنة في العامة ، تعرفها القلوب ، ولا تنكرها النفوس ، وتدل عليها العقول ، وتوافق الأغراض ، وتزيل الأمراض ، فإذا حصل العبد في تلك المنزلة من رفيع الدرجات ذي العرش ،

ونظر الحق من هذا الواصل إلى تلك المنزلة نظر استنابة وخلافة ، ألقى الروح بالإنباء من أمره على قلب ذلك الخليفة المعتنى به ، فتلك نبوة التشريع ،

وهي قوله تعالى :« يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ »فالإنذار أبدا مقرون بنبوة التشريع

- الوجه الثاني - « رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ »لما كان العلم تحيا به القلوب ، كما تحيا بالأرواح أعيان الأجسام كلها ، سمى العلم روحا ، تنزل به الملائكة على قلوب عباد الله وتلقيه وتوحي به ،

مثل قوله تعالى: (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ)فهذا نزول للروح بالواسطة ، ولله إلقاء للروح من غير واسطة في حق عباده أيضا ، فأما إلقاؤه ووحيه به فقوله :« يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ »

وقوله :(وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا)

وأما قوله تعالى :« عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ »جاء بمن وهي نكرة ، فالروح بينه تعالى وبين من شاء من عباده بالبشارة والنذارة ، فإذا نزل هذا الروح في قلب العبد بتنزيل الملك أو بإلقاء الله ووحيه ، حيي به قلب المنزل عليه ، فكان صاحب شهود ووجود ، لا صاحب فكر وتردد ، ولا علم يقبل عليه دخلا فينتقل صاحبه من درجة القطع إلى حال النظر ، فالعبد المجتبى إما يعرج فيرى ، أو ينزل عليه في موضعه « لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ »فجاء بما ليس بشرع ولا حكم ، بل بإنذار ، فقد يكون الولي بشيرا ونذيرا ، ولكن لا يكون مشرعا ، فإن الرسالة والنبوة بالتشريع قد انقطعت ، فلا رسول بعده صلّى الله عليه وسلّم ولا نبي ، أي لا مشرع ولا شريعة ؛ واعلم أن الأرواح النورية المسخرة - لا المدبرة - تنزل على قلوب العارفين بالأوامر والشؤون الإلهية والخيرات بحسب ما يريده الحق بهذا العبد ، فترقيه بما نزلت به إليه ترقية وتخليصا إلى الحجاب الأقرب من الحجب البعيدة ، إلى أن يتولاه الله بارتفاع الوسائط ،

وهو قوله تعالى في هذه الآية« يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ »

أما قوله تعالى في سورة النحل : (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ

ص 08

بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) ولم يقل هو ، فكان الروح هو الملقى من عند الله إلى قلوب عباده ، ويكون أمر الله هو الذي ألقاه ، ويكون ذلك الروح صورة قوله (لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)
فارتفعت الوساطة إذ كان عين الوحي المنزل هو عين الروح ، وكان الملقي هو الله لا غيره ، فهذا الروح ليس عين الملك ، وإنما هو عين المألكة ،
ومثل هذا الروح لا تعرفه الملائكة لأنه ليس من جنسها ، فإنه روح غير محمول ، ليس نورانيا والملك روح في نور ، وأما الملائكة فقد يكونون ممن اختص بهم الرسل
وهو قوله تعالى :(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ)فهو رسول الرسول ، وأما تنزل الأرواح الملكية على قلوب العباد ، فإنهم لا ينزلون إلا بأمر الله الرب ، وليس معنى ذلك أن الله يأمرهم من حضرة الخطاب بالإنزال ، وإنما يلقي إليهم ما لا يليق بمقامهم في صورة من ينزلون عليه بذلك ، فيعرفون أن الله قد أراد منهم الإنزال والنزول بما وجدوه في نفوسهم من الوحي الذي لا يليق بهم ، وأن ذلك الوحي من خصائص البشر ، ويشاهدون صورة المنزل عليه في الصور التي عندهم تسبيحها [يا من أظهر الجميل وستر القبيح]
للستور التي تسدل وترفع ، فيعرفون من تلك الصور من هو صاحبها في الأرض ، فينزلون عليه ويلقون إليه ما ألقي إليهم ؛ فعلوم الغيب تنزل بها الأرواح على قلوب العباد ، فمن عرفهم تلقاهم بالأدب وأخذ منهم بالأدب ، ومن لم يعرفهم أخذ علم الغيب ولا يدري ممن ، كالكهنة وأهل الزجر وأصحاب الخواطر وأهل الإلهام ، يجدون العلم بذلك في قلوبهم ولا يعرفون من جاءهم به ، وأهل الله يشاهدون تنزل الأرواح على قلوبهم ، ولا يرون الملك النازل إلا أن يكون المنزل عليه نبيا أو رسولا ،
قال تعالى :(يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ)
فالولي يشهد الملائكة ولكن لا يشهدها ملقية عليه أو يشهدون الإلقاء ويعلمون أنه من الملك من غير شهود ، فلا يجمع بين رؤية الملك والإلقاء منه إلا نبي أو رسول ، وبهذا يفترق ويتميز النبي من الولي ، أعني النبي صاحب الشرع المنزل ،
وقد أغلق الله باب التنزل بالأحكام المشروعة ، وما أغلق باب التنزل بالعلم بها على قلوب أوليائه ، وأبقى لهم التنزل الروحاني بالعلم بها ، ليكونوا على بصيرة في دعائهم ، إلى الله بها ، كما كان من اتبعوه وهو الرسول ،
ولذلك قال :(أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) فهو أخذ لا يتطرق إليه تهمة عندهم. وأما كيفية الإلقاء فموقوفة على الذوق وهو الحال ، ولا بد أن يكون قلب الملقى

ص 09

إليه مستعدا لما يلقى إليه ، ولولاه ما كان القبول ، وليس الاستعداد في القبول ، وإنما ذلك اختصاص إلهي ،
يقول صلّى الله عليه وسلّم فيمن حفظ القرآن : [إن النبوة قد أدرجت بين جنبيه] وهو من استظهر القرآن ، فله ذوق الإنزال على قلبه من تنزل الروح به وهو استظهار القرآن ، أي أخذه عن ظهر ، فهذا التنزل مستمر فيمن شاء الله من عباده ، وهو تنزل القرآن على قلوب الأولياء ، ما انقطع مع كونه محفوظا لهم ولكن لهم ذوق الإنزال .

[سورة غافر : (40)آية 16]

يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (16)

لأنه لم يبق مدع - كان يدعي الألوهية - موجودا ، فإنه تعالى لم يجعل سبيلا إلى رؤيته في هذه الدار لحصول دعاوى الكون في المرتبة الإلهية ، وبظهوره تعالى في الآخرة لا يجرأ أحد يدعيها ، فإن في الدار الآخرة يظهر حكم الجبر فلا يبقى منازع هناك أصلا ويكون الملك هناك لله الواحد القهار ، وتذهب الدعاوى من أربابها .
[خائنة الأعين :]

[سورة غافر (40) : الآيات 17 إلى 19]

الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (17) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ (18) يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ (19)

أي يعلم أنها خيانة وكيف هي خيانة ، ولم يقل : يعلم ما أشارت به الأعين وما أومأت ، فإن المشار إليه يعلم ذلك فلا يكن مدحا ، ولكن لا يعلم كل أحد أنها خيانة إلا من أعلمه الله بذلك ، فهي في الخير خيانة محمودة ، وفي الشر خيانة مذمومة ، وما زالت عن كونها خيانة في الحالين ، وخائنة الأعين لا يسلم منها ، وغاية أن يسلم منها من سلم في الشر ، وأما في الخير فإنهم ربما اتخذوها في الخير طريقا محمودة ، فيومئ الكبير في حق الحاضر إلى بعض من يمتثل أمره أن يجيء إليه بخلعة أو بمال يهبه لذلك الحاضر ، يكون ذلك إيماء بالعين لا تصريحا باللفظ ، من غير شعور من يومئ في حقه بذلك الخير ، وإنما سميت خائنة عين

ص 10

لأن الإفصاح عما في النفس إنما هو صفة الكلام ، ليس هو من صفة العين ، وإن كان في قوة العين الإفصاح بما في النفس بالإشارة ، ولكن إنما لها النظر ، والذي عندها من صفة الكلام إنما هو أمانة بيدها للكلام ، فإذا تصرفت في تلك الأمانة بالإيماء والإشارة لمن تومئ إليه في أمر ما ، فقد خانت الكلام فيما أمنها عليه من ذلك ، فلهذا سميت خائنة الأعين ، فوصفت بالخيانة ، والخيانة التصرف في الأمانة ، فإن الأمانة ليست بملك لك ، وإنك مأمور بأدائها إلى أهلها ، فإذا اقتضى الحال الأمر بخير أو شر في حق شخص ، وفي قوة العين الإفصاح عن ذلك لمن يشير إليه به ، فعلمت أن ذلك صفة الكلام فلم تفعل ، وردت تلك الأمانة إلى اللسان فنطق ، فقد أدت هذه العين الأمانة إلى أهلها ولم تخن فيها ، قيل للنبي صلّى الله عليه وسلّم في فتح مكة ، لما وقف بين يديه رجل ممن كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يريد قتله ، فلما قضى حاجته منه وانصرف ،

قال النبي صلّى الله عليه وسلّم : [لم لم تقتلوه حين وقف بين يدي ؟

[فقال له أصحابه] هلا أومأت إلينا بطرفك [فقال صلّى الله عليه وسلّم] ما كان لنبي أن تكون له خائنة عين]

ولا تقع خائنة العين في الخير وإن كان خيرا من نبي ، وسببه أن لا تعتاده النفس ، فربما تستعمله في الشر لاستصحابها إياه في الخير ، إذا كانت النفس من طبعها أن تسترقها العادة ، وبعد أن بينا لك هذا الأمر ، فتحفظ من خائنة الأعين ما استطعت أن تفعلها مع الحضور ، فإنك لست بمعصوم ،

فإن قلت : قد أشارت من شهد لها بالكمال ، ومنعت من الكلام ، وهي مريم إلى عيسى عليه السلام أن يسألوه عن شأنه ؛ قلنا : بعد ذلك نالت الكمال لا في ذلك الوقت ، ألا ترى زكريا عليه السلام قيل له :(آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً)

والرمز ما يقع بالإشارة ، فإن الإشارة صريحة في الأمر المطلوب ، بل هي أقوى في التعريف من التلفظ باسم المشار إليه في مواطن يحتاج المتكلم فيها إلى قرينة حال ، حتى لو قال شخص لآخر : كلم زيدا بكذا وكذا ، وزيد حاضر ، احتمل أن يفهم السامع زيدا آخر غير هذا ، والمتكلم إنما أراد الحاضر ، فإذا ترك التلفظ باسمه وأشار إليه بيده أو بعينه فقال : كلّم هذا ، مشيرا إليه ، كان أفصح وأبعد من الإبهام والنكر ، والحرف إنما هو لفظ مجمل يحتمل التوجه فيه إلى أمور .

[سورة غافر (40) : الآيات 20 إلى 27]

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20)

ص 11

أَ وَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (21) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (22)
وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (23)
إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (24)
فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (25) وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (26) وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ(27)

لا يتكبر على الأمثال إلا من جهل أنهم أمثال ، فكما لا يتكبر الشيء على نفسه ، كذلك لا يتكبر على أمثاله ، ومن لم يتكبر على خلق الله فقد أعطاهم حقهم الذي وجب لهم عليه ، كما أعطاه الله خلقه الذي لم يكن إلا به .

[سورة غافر (40) : الآيات 28 إلى 32]
وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا

ص 12

قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ (29) وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (31) وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ(32)

وهو عندما يفر الناس خوفا من جهنم ، وفرقا لعظيم ما يرون من الهول يوم القيامة ، حين يجدون الملائكة صفوفا لا يتجاوزونهم ، فتطردهم الملائكة وزعة الملك الحق سبحانه وتعالى إلى المحشر ، وتناديهم أنبياؤهم : ارجعوا ارجعوا ، فينادي بعضهم بعضا ، فذلك يوم التناد .

[سورة غافر (40) : آية 33]
يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (33)
أي تلجئون إليه ، ففكر في يوم القيامة وهو له ، وما يلقى الناس فيه .

[سورة غافر (40) : الآيات 34 إلى 35]
وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (34) الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)
[« كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ » :]
« كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ »وهذا من رحمة الله الخفية ، فإنه طبع على قلب كل من ظهر في ظاهر لقومه بصفة الكبرياء والجبروت ، وما جعل ذلك في قلوبهم بسبب

ص 13

طابع العناية ، فهم عند نفوسهم بما يجدونه من العلم الضروري أذلاء صاغرون لذلك الطابع ، فما دخل الكبرياء على الله قلب مخلوق أصلا ، وإن ظهرت منه صفات الكبرياء فثوب ظاهر لا بطانة له منه ، فالله يطبع على قلب كل متكبر جبار أن يدخله كبرياء إلهي أصلا ، إذ لا ينبغي ذلك الوصف إلا لمن لا يتقيد وهو الحق تعالى ،

فلا يدخل القلب الكبرياء والجبروت وإن ظهر بهما ، فإن الإنسان يعرف في قلبه أنه لا فرق بالأصالة بينه وبين من تكبر عليهم وتجبر ، فلا يدخله كبر وإن ظهر به ، فإنه مجبول على الذلة والافتقار والحاجة بالأصالة ، لا يقدر أن ينكر هذا من نفسه ؛ وذلك يعني أن الطابع الإلهي يمنع أن تدخل هذه الصفات القلب ،

فيظهر المدعي في ظاهره الكبرياء والجبروت على من استحق من قومه - إما في زعمه وتخيله ، وإما في نفس الأمر - وهو في قلبه معصوم من ذلك الكبرياء والجبروت ، لأنه يعلم عجزه وذلته وفقره لجميع الموجودات ،

وأن قرصة البرغوث تؤلمه ، والمرحاض يطلبه لدفع ألم البول والخراء عنه ، ويفتقر إلى كسيرة خبز يدفع بها عن نفسه ألم الجوع ، فمن صفته هذه كل يوم وليلة ، كيف يصح أن يكون في قلبه كبرياء وجبروت ؟!

وهذا هو الطابع الإلهي على قلبه فلا يدخله شيء من ذلك ، فإن الاسم الغيور ختم على كل قلب أن تدخله ربوبية الحق نعتا له ، فما من أحد يجد في قلبه أنه رب إله ، بل يعلم من نفسه أنه فقير محتاج ذليل .

وأما ظهور ذلك على ظاهره فمسلّم ، وجعل الله لهذه الصفات مواطن يظهر فيها بهذه الأوصاف ولا يكون مذموما ، وجعل لها مواطن يذمه فيها ، جاء في الخبر قوله تعالى [الكبرياء ردائي والعظمة إزاري من نازعني واحدا منهما قصمته].

فالكبرياء والعظمة من النعوت التي غار الله عليها أن تكون لغير الله فحجرها ، ولذلك قال :« يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ »فلا يدخل مع هذا الطابع قلب كون من الأكوان تكبر على الله ولا جبروت لأجل هذا الطبع ،

فعلم كل من أظهر من المخلوقين دعوى الألوهية كفرعون وغيره ، وتكبر وتجبر ، كل ذلك في ظاهر الكون ، وهذا الذي ظهرت منه صفة الكبرياء مطبوع على قلبه أن يدخل فيه الكبرياء على الله ، فإنه يعلم من نفسه افتقاره وحاجته وقيام الآلام به من ألم جوع وعطش وهواء ومرض ، التي لا تخلو هذه النشأة الحيوانية عنه في هذه الدار ،

وتعذر بعض الأغراض أن تنال مرادها ، وتألمه لذلك ، ومن هذه صفته من المحال أن يتكبر في نفسه على ربه ، فهذا معنى الطابع الذي طبع الله على قلب المتكبر الذي يظهر لكم به من الدعوى

ص 14

" الْجَبَّارُ " بجبركم على ما يريد ، فلا يتكبر على الله فيما بينه وبين الله أحد من خلق الله هذا محال وقوعه ، والقدر الذي وقع عليه التحجير الظاهر ، عليه وقع الذم لمن انتهكه وأضافه إلى نفسه ، وكذبوا على الله فيه ،

فلا يدخل قلب إنسان الكبر على الله ، ولكن يدخله الكبر على خلق الله ، وهو الذي يزال منه ، وحينئذ يدخل الجنة ، فإنه لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من كبر على غير الله حتى يزال ، وأما على الله فمحال ، فإن الله قد طبع على القلوب التواضع له وإن ظهر من بعض الأشخاص صورة الكبرياء على الله ،

وهو الذي جاءت به الوسائط وهم الرسل عليهم السلام من الله لا على الله ، فإنه يستحيل الكبرياء من المخلوق عليه ،

لأن الافتقار ذاتي ولا يمكن للإنسان أن يجهل ذاته :

العلم أفضل ما يقنى ويكتسب *** والعلم أزين ما حلّى النفوس به

بالعلم يطبع رب العالمين على *** قلب العبيد فلا كبر يحل به

لأنه يجد الأبواب مغلقة *** بفطرة هو فيها أو مكسبه

قل كيف شئت فإن الأمر يقلبه *** ولا تخف من غوي في تطلبه

وكيف يدخل كبر من حقيقته *** فقر وعجز وموت عند منتبه ؟

شخص يرى قرصة البرغوث تؤلمه *** إلى مكاره يلقى في تقلبه

فالحس يعلم هذا من يقوم به *** لدى إقامته أو حال مذهبه

« كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ »فهو المتكبر سبحانه الجبار ، والعبد إذا اتصف بما تناقض حقيقته من أوصاف العظمة والكبرياء التي تستحقها الربوبية ، يقع في سخط الله ، فلهذا قال صلّى الله عليه وسلّم : [أعوذ بك منك] أي أن أكون متكبرا جبارا ، فهو يستعيذ من كبريائه أن يقوم به بكبريائه سبحانه .

لقد طبع الله القلوب بطابع *** من الطبع حتى لا يداخلها الكبر

وكيف يكون الكبر في قلب عاجز *** ذليل له من ذاته العجز والفقر

[سورة غافر (40) : الآيات 36 إلى 37]

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (36) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبابٍ(37)

ص 15

حكى الله لنا ما قاله فرعون على المعنى ، فإنه قال ما قال بلسان القبط ، ووقعت الترجمة عنه باللسان العربي والمعنى واحد .

[سورة غافر (40 : (آية 38]
وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (38)
فإنه نظر بنور الإيمان الذي وهبه الله إياه فأشهده الأمور كما هي عليه في نفسها ، وكشف له عن الحق ورزقه اتباعه ، وكشف له عن الباطل ورزقه الاجتناب عنه .

[سورة غافر (40) : الآيات 39 إلى 40]
يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (39)
مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (40)
[" مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها . . . » الآية :]
اعلم أن صورة عملك مقدار للجزاء الذي عيّنه الحق لك عليه ، سواء كان ذلك العمل محمودا أو مذموما ، فإن أدخل الله العمل المذموم ميزان الجزاء فإنه لا يزيد عليه في المقدار وزن ذرة أصلا ، هذا إذا أقام الوزن عليه بالجزاء ، وكان عذابه في النار جزاء على قدر عمله لا يزيد ولا ينقص ، لا في العمل ولا في مقدار الزمان ، والإصرار من الأعمال المنهي عن عملها ، ولا يزيله إلا التوبة ، فإن مات عليه خيف عليه ولا يقطع ، وإذا أدخل الحق صورة العمل الصالح الميزان ووزنه بصورة الجزاء رجحت عليه صورة الجزاء أضعافا مضاعفة ، وخرجت عن الحد والمقدار ، منة من الله وفضلا ،
وهو قوله تعالى :« مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها »
وقال في الأخرى :« وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ »
وهو قوله تعالى :(مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها)ولم يجعل للتضعيف في الخير مقدارا يوقف عنده ، بل وصف نفسه بالسعة
فقال :(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ ، وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ).

ص 16

[سورة غافر (40) : الآيات 41 إلى 42]

وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42)

فإن الفكر أراهم الحق باطلا فحققوه ، فاجتنبوا الحق واتبعوا الباطل ، ولا علم لهم بذلك أن الباطل في جبلة كل أحد اجتنابه ، فكان مؤمن آل فرعون يدعو أهل الشرك إلى التوحيد ، فيقول إذا دعاهم إلى ذلك ودعوه إلى ما هم عليه « ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ »
واعتبار هذه القصة في دعوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أهل الشرك إلى التوحيد ، أنهم قد أثبتوا بكونهم مشركين عين ما دعاهم إليه هذا الرسول ،
وهو ما أثبت الشريك وهم قالوا : (إنما ندعوهم لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى)
فأثبتوا له سبحانه وتعالى التعظيم والمنزلة العظمى التي ليست لشركائهم ، وهم علماء بما دعاهم الرسول إليه ، فلما دعاهم دعاهم بحالهم ولسانهم ، من حيث ما أثبتوا عين ما دعاهم إليه ، وزادوا الشريك الذي لا علم لمحمد صلّى الله عليه وسلّم به وهو قوله :« ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ».

[سورة غافر : (40) الآيات 43 إلى 44]

لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (44)

[« وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ . . . » الآية :]
قال الله عزّ وجل لنبيه صلّى الله عليه وسلّم أن يقول لقومه حين ردوا دعوته« فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ »وهو من فاض ، ولا يفيض حتى يمتلئ بالفيض زيادة على ما يحمله المحل ، وذلك أن المحل لا يحمل إلا ما في وسعه أن يحمله ، وهو القدر والوجه الذي يحمله المخلوق ، وما فاض من ذلك - وهو الوجه الذي ليس في وسع المخلوق أن يحمله - يحمله الله ، فما من أمر إلا وفيه للخلق نصيب ولله نصيب ، فنصيب الله أظهره التفويض ، فينزل الأمر جملة واحدة وعينا واحدة إلى الخلق ، فيقبل كل خلق منه بقدر وسعه ، وما زاد على ذلك وفاض انقسم الخلق فيه على قسمين :
فمنهم من جعل الفائض من ذلك إلى

ص 17

الله تعالى فقال :« وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ »وينسب ذلك الأمر إلى نفسه ، لأنه لما جاءه ما تخيل أن يفضل عنه وتخيل أنه يقبله كله ، فلما لم يسعه بذاته رده إلى ربه ، ومنهم من لم يعرف ذلك فرجع الفائض إلى الله من غير علم من هذا الذي حصل منه ما حصل ، فهو إلى الله على كل وجه ، وما بقي الفضل إلا فيمن يعلم ذلك ، فيفوض أمره إلى الله فيكون له بذلك عند الله يد ، ومنهم من لا يعلم ذلك فليس له عند الله بذلك منزلة ولا حق يتوجه ،
قال تعالى :(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (واعلم أن العبد القابل أمر الله لا يقبله إلا باسم خاص إلهي ، وأن ذلك الاسم لا يتعدى حقيقته ، فهذا العبد ما قبل الأمر إلا بالله ، من حيث ذلك الاسم ، فما عجز العبد ولا ضاق عن حمله ، فإنه محل لظهور أثر كل اسم إلهي ،
فعن الاسم الإلهي فاض لا عن العبد ، فلما فوضه بقوله :« وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ »
ما عيّن اسما بعينه : وإنما فوضه إلى الاسم الجامع ، فيتلقاه منه ما يناسب ذلك الأمر من الأسماء في خلق آخر . وغاية العارفين أنهم يعلمون بالجملة أن الظاهر في الوجود والواقع إنما هو في قبضة الحكمة الإلهية ، فيزول عن العارف التسخط والضجر ، ويقوم به التسليم والتفويض إلى الله في جميع الأمور ، كما جاء« وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ »هذا هو حكم الحكمة لمن عقل عن الله ، فلا تجعل زمامك إلا بيد ربك ، فإن له كما قال يدين ، فكما أنه أخبرك أن يده بناصيتك اضطرارا ، فاجعل زمامك بيده اختيارا ، فتجني ثمرة الاختيار والاضطرار بجمعك بين اليدين ؛ ولا شك ولا خفاء أن من ألقى زمامه بيدك ، وفوض أمره إليك - وإن لم يتكلم - فقد خاطبك بأفصح الألسنة أن تسلك به طريق الصلاح والأصلح ، لما جلبت عليه النفوس من جلب المنافع ودفع المضار .

[سورة غافر (40) : الآيات 45 إلى 46]
فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (46)
اعلم أن الله سبحانه إذا قبض الأرواح من هذه الأجسام الطبيعية - حيث كانت - والعنصرية ، أودعها صورا جسدية في مجموع الصور الذي هو قرن من نور ، وفي تلك

ص 18

الصور قوم فرعون يعرضون على النار غدوة وعشية ولا يدخلونها ، فإنهم محبوسون في ذلك القرن وفي تلك الصور ، ويوم القيامة يدخلون أشد العذاب ، وهو العذاب المحسوس لا المتخيل الذي كان لهم في حال موتهم بالعرض ، ففي البرزخ يكون العرض ، وفي الدار الآخرة يكون الدخول ، فقال تعالى »: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ »يريد خاصته لأنهم هم الذين تولوا عذاب بني إسرائيل ، قال تعالى :(وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ)ثم قال تعالى »: أَشَدَّ الْعَذابِ »في مقابلة سوء ، وقرئ بكسر الخاء ، فقد يمكن أن يقال لبني إسرائيل يوم القيامة ذلك ليولوهم أشد العذاب بأنفسهم كما فعلوا هم بهم في الدنيا حين ساموهم سوء العذاب . وآل الرجل أهله وخوله وأنصاره وأتباعه .

[سورة غافر (40) : الآيات 47 إلى 57]

وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (47) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ (48) وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (49) قالُوا أَ وَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (50) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (51)

يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (53) هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (54) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ (55) إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56) لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (57)

ص 19

-الوجه الأول- [« لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ »]
يريد في المعنى ، فإن أكبر هنا للمفاضلة ، وليس إلا أن السماوات والأرض هما الأصل في وجود الهيكل الإنساني ونفسه الناطقة ، فالسّماوات ما علا ، والأرض ما سفل ، فهو منفعل عنهما ، فإن الإنسان والعالم الكبير يشتر كان في العالمية ، فليس للعالم على الإنسان درجة من هذه الجهة ، ولكن الدرجة التي فضل بها السماء والأرض على الإنسان هما أن الإنسان منفعل عن السماء والأرض ومولد بينهما ومنهما ، والمنفعل لا يقوى قوة الفاعل ، فالناس في رتبة الانفعال عن حركة الأفلاك وقبول التكوين الذي في العناصر ،
فكان المراد المعنى لا الجرمية ، فإن الجرمية غير معتبرة هنا ، فمن طريق المعنى أن نسبة الأرض والسماء إلى جانب الحق أكبر من خلق الناس من حيث ما فيهم من سماء وأرض ، فإنها في السماء والأرض معنى وصورة ، وهما في الناس معنى لا صورة ، والجامع بين المعنى والصورة أكبر في الدلالة ممّن انفرد بأحدهما ،
لذا قال تعالى :« وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ »ذلك مع الاشتراك في الدلالة والعلامة على وجود المرجح ، ويدل ذلك على أن بعض الناس يعلم ذلك ، فالقليل من الناس من يعلم أن خلق السماوات وهي الأسباب العلوية لوجود الإنسان ، والأرض وهي الأسباب السفلية لوجود الإنسان ، أكبر من خلق الناس قدرا ، لأن لها نسبة الفاعلية وللناس نسبة الانفعال ، فإنه ما من أحد إلا وهو يعلم حسا أن خلق السماوات والأرض أكبر في الجرم من خلق الناس ، فما ثمّ إلا انفعال الجسم الطبيعي عنهما لا غير . فأراد الحق بهذه الآية المنزلة ، فإن الجرم يعلمه كل أحد ، ولهذا يصدر عن حركات السماوات والأرض أعيان المولدات والتكوينات ، والإنسان من حيث جرمه من المولدات ، ولا يصدر من الإنسان هذا ، وطبيعة العناصر من ذلك ، فلهذا كانا أكبر من خلق الإنسان ، إذ هما له كالأبوين ، فلهما درجة الأبوة فلا يلحقهما أبدا ، فرفع الله مقدارهما ، والإنسان من الأمر الذي ينزل بين السماء والأرض ، ولا يمنع ذلك من أن الإنسان الكامل أكمل نشأة ظهرت في الموجودات ، لأن الإنسان الكامل وجد على الصورة لا الإنسان الحيوان ، والصورة لها الكمال ، ولكن لا يلزم من

ص 20

هذا أن يكون هو الأفضل عند الله ، فذلك لله تعالى وحده فإن المخلوق لا يعلم ما في نفس الخالق إلا بإعلامه إياه ، ولكن ما تفطن الناس لقوله تعالى :« أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » من كونهم ناسا ، ولم يقل أكبر من خلق آدم ولا من الخلفاء ، فإنه ما خلق على الصورة من كونه من الناس ، إذ لو كان كذلك لما فضل الناس بعضهم بعضا ، ولا فضلت الرسل بعضهم بعضا ، ففضل الصورة لا يقاومه فضل ، فالإنسان عالم صغير ،

والعالم إنسان كبير مختصره الإنسان الصغير ، لأنه موجود أودع الله فيه حقائق العالم الكبير كلها ، فخرج على صورة العالم ، فكان قليل من الناس يعلم ذلك

- **الوجه الثاني -** هذه الآية تدل على شرف الجماد على الإنسان لمعنى خلقها الله عليه وخلقه فيها ، أترى هذا الكبر في الجرم وعظم الكمية ؟

هيهات لا والله ! فإن ذلك معلوم بالحس ،

وإنما ذلك لمعنى أوجده فيها لم يكن ذلك للإنسان يعطيه العلم بالمراتب ومقادير الأشياء عند الله تعالى ، فنزل كل موجود منزلته التي أنزله الله فيها ، ومن هذا المعنى إبايتها لحمل الأمانة عندما عرضت عليها عرضا ، فكان خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس في المنزلة،

فإنهن كن أعلم بقدر الأمانة من الإنسان ، فبهذا أيضا كن أكبر من خلق الناس في المنزلة من العلم ، فإنهن ما وصفن بالجهل كما وصف الإنسان ، وكذلك لما أمرتا بالإتيان أمر وجوب ، فإن لم يجئن جيء بهن على كره ، قالتا (أَتَيْنا طائِعِينَ) لعلمهن بأن الذي أمرهن قادر على الإتيان بهن على كره منهن

-إشارة لطيفة -

إن خلق الإنسان وإن كان عن حركات فلكية هي أبوه ، وعن عناصر قابلة وهي أمه ، فإن له من جانب الحق أمرا ما هو في آبائه ولا أمهاته ، من ذلك الأمر وسع جلال الله تعالى ، إذ لو كان ذلك من قبل أبيه الذي هو السماء أو أمه التي هي الأرض أو منهما ، لكان السماء والأرض أولى بأن يسعا الحق ممن تولد عنهما ، فاختص الإنسان بأمر أعطاه هذه السعة التي ضاق عنها السماء والأرض ، فلم تكن له هذه السعة إلا من حيث أمر آخر من الله ، فضل به على السماء والأرض ، وهذا الأمر هو خلقه على الصورة

قال صلّى الله عليه وسلّم : [إن الله خلق آدم على صورته]

فكل واحد من العالم فاضل مفضول ، فقد فضل كل واحد من العالم من فضله ، لحكمة الافتقار والنقص الذي هو عليه كل ما سوى الله ، فإن الإنسان إذا زها بهذه السعة وافتخر على الأرض والسماء جاءه قوله تعالى :« لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ »وإذا زهت السماء والأرض بهذه الآية على الإنسان جاء قوله : [ما

ص 21

وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي] فأزال عنه هذا العلم ذلك الزهو والفخر وعنهما ، وافتقر الكل إلى ربه ، وانحجب عن زهوه ونفسه .

[سورة غافر (40) : آية 58]
وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ (58)
المسئ من أتى بما يسوء وإن كان جزاء ، فمسيء المسئ ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، إلا أن هذا الاسم مقصور على الخلق دون الحق أدبا أدبنا به الحق .

[سورة غافر (40) : الآيات 59 إلى 60]
إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (59) وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (60)
أمرنا الحق بهذه الآية أن ندعوه فقال :« وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي »
ثم قال تعالى :« أَسْتَجِبْ لَكُمْ » [« وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي » :]
اعلم أن العبد لا يكون مجيبا للحق حتى يدعوه الحق إلى ما يدعوه إليه ،
قال تعالى :(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي) كذلك رأيناه تعالى لا يستجيب إلا بعد دعاء العبد إياه كما شرع ، فقال تعالى :« وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ »فاشترك العبد والحق في القضية ، من كون الحق يجيب العبد إذا دعاه وسأله ، كما أن العبد يجيب أمر الله إذا أمره ، وإجابة الحق إيانا فيما دعونا به على ما يرى الإجابة فيه ، فهو أعلم بالمصالح منا ،
فإنه تعالى لا ينظر لجهل الجاهل فيعامله بجهله ، وإنما الشخص يدعو والحق يجيب ،
فإن اقتضت المصلحة البطء أبطأ عنه الجواب ، فإن المؤمن لا يتهم جانب الحق ،
وإن اقتضت المصلحة السرعة أسرع في الجواب ، وإن اقتضت المصلحة الإجابة فيما عيّنه في دعائه أعطاه ذلك ،
سواء أسرع به أو أبطأ ، وإن اقتضت المصلحة أن يعدل مما عيّنه الداعي إلى أمر آخر أعطاه أمرا آخر لا ما عينه ، فما جاز الله لمؤمن في شيء إلا كان له فيه خير ،
فإياك أن تتهم جانب الحق فتكون من الجاهلين ، ثم قال تعالى :« إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي »
يعني بالعبادة هنا عين

ص 22

الدعاء ، والدعاء مخ العبادة ، أي من يستكبر عن الذلة إليّ والمسكنة ، فإن الدعاء سماه عبادة ، والعبادة ذلة وخضوع ومسكنة« سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ »وهو البعد عن الله ، فإن جهنم سميت به لبعد قعرها ،« داخِرِينَ «أي أذلاء ، فوصفهم الحق بأنهم لا يخرجون عن العبودية ، وأن الذلة حقيقتهم

[إشارة : من لم ير أن يكون عبدا لي فإنه سيكون عبدا لطبيعته]

-إشارة - من لم ير أن يكون عبدا لي كما هو في نفس الأمر ، فإنه سيكون عبدا لطبيعته التي هي جهنم ، ويذل تحت سلطانها ، كما هو ليس هو في نفس الأمر ، فترك العلم واتصف بالجهل ، فلو علم لكان عبدا لي وما دعا غيري ، كما هو في نفس الأمر عبد لي ، أحب أم كره ، وجهل أو علم ، وإذا كان عبدا لي بدعائه إياي ولم يتكبر في نفسه أن يكون عبدا لي عند نفسه ، أعطيته التصريف في الطبيعة ، فكان سيدا لها وعليها ، ومصرفا لها ومتصرفا فيها ، ومن استكبر عن عبادتي ولم يدعني في السراء وكشف الضر ، تعبدته الأسباب فكان من الجاهلين ، وأما إذا فعلوا ما أمروا به من دعاء الله جازاهم الله بدخول الجنة أعزاء

-تحقيق [: المآل إلى الرحمة مع التخليد في جهنم]

-إن الله تعالى لما اتصف بالغيرة ، ورأى ما يستحقه من المرتبة قد نوزع فيها ، ورأى أن المنسوب إليهم هذا النعت وهذا الاسم لم يكن لهم فيه قصد ولا إرادة ، من فلك وملك ومعدن ونبات وحيوان وكوكب ، وأنهم يتبرءون ممن عبدهم يوم القيامة ، قضى الله حوائج من عبدهم غيرة ، ليظهر سلطان هذه النسبة ، لأنهم ما عبدوه لكونه حجرا ولا شجرا ، بل عبدوه لكونه إلها في زعمهم ، فالإله عبدوا ، فما رأى معبودا إلا هو ، ولهذا يوم القيامة ما يأخذهم إلا بطلب المعبودين ، فإن ذلك من مظالم العباد ، فمن هناك يجازيهم الله بالشقاء لا من حيث عبادتهم ، فالعبادة مقبولة ، ولهذا يكون المآل إلى الرحمة مع التخليد في جهنم ، فإنهم أهلها ، وقد اجتمعوا معنا في كوننا ما عبدنا هذه الذات لكونها ذاتا بل لكونها إلها ، فوضعنا الاسم حقيقة على مسماه ، فهو الله حقا لا إله إلا هو ، فلما نسبنا ما ينبغي لمن ينبغي سمانا علماء سعداء ، وأولئك جهلاء أشقياء ، لأنهم وضعوا الاسم على غير المسمى فأخطئوا ، فهم عباد الاسم ، فراعى الحق سبحانه قصدهم حيث أنهم ما عبدوا إلا الله لا الأعيان ، فصيرهم في العاقبة إلى شمول الرحمة بعد استيفاء حقوق المعبودين منهم ، ولذلك جعله من الكبائر التي لا تغفر

-رقيقة- [: ما سبق العلم به كائن ، ولا ينجي حذر من قدر]

-لما كان الحق له حضرة الإطلاق عن التقييد ، ففي موطن يقول سبحانه :ادْعُونِي؛ وفي موطن يعرفنا بأنه قد قضى القضية ، وما يبدل القول لديه ، وما سبق العلم به فهو كائن ، ولا ينجي حذر من قدر ، قلت بيتين

ص 23

فيهما رمز حسن وهما :إذا قلت يا الله قال لم تدعو ؟
*** وإن أنا لم أدع يقول ألا تدعو ؟
فقد فاز باللذات من كان أخرسا *** وخصص بالراحات من لا له سمع

[سورة غافر (40) : آية 61]
اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (61)
فعين الشكر عين النعم ، ومن النعم دفع النقم ، كم نعمة للّه أخفاها شدة ظهورها ، واستصحاب كرورها على المنعم عليه ومرورها ، وهم في غفلة معرضون ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، بل لا يشعرون ، بل لا يشكرون .

[سورة غافر : (40) آية 62]
ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62)
هذا هو التوحيد التاسع والعشرون في القرآن وهو توحيد الفضل ، وهو من توحيد الهوية ، لأنه جاء بعد قوله(إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ (فيكون هذا التوحيد شكرا لما تفضل به الله على الناس ، فإن الخالق مع المخلوقين حيث كانوا لا يفارقهم ، لأنّ مستند الخلق إنما هو للاسم الخالق استنادا صحيحا لا شك فيه ، وإن كان هذا الاسم يستدعي عدة معان يطلبها ، أعني الاسم الخالق بذاته ، لكل معنى منها أثر في المخلوق لا في الخالق ، فالخالق لهذه المعاني كالجامع خاصة ، وأثرها في المخلوق لا فيه .

[سورة غافر (40) : الآيات 63 إلى 65]
كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَالسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ) (64هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ(65)

ص 24

[التوحيد الثلاثون في القرآن ، توحيد الحياة ، وهو توحيد الكل :]
هذا هو التوحيد الثلاثون في القرآن وهو توحيد الحياة ، وهو توحيد الكل ، وهو من توحيد الهوية الخالصة ، والحياة شرط في كل مسبح ، وما من شيء من العالم إلا وهو مسبح بحمده ، فتوحيد الحياة توحيد الكل ، ولا ثناء أكمل من الثناء بالأحدية ، فإن فيها عدم المشاركة ، فالتوحيد أفضل الثناء ، وهو لا إله إلا الله ، فلهذا قلنا : إنه توحيد الحياة وتوحيد الكل ، وهو إخلاص التوحيد لله من الله ومن العالم .

[سورة غافر (40) : الآيات 66 إلى 67]
قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (66) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67)
[لما كان المطلوب من خلقنا عبادة الله قرب إلينا الطريق بأن خلقنا من الأرض :]
خلق الله الإنسان من تراب الأرض ، أنزل موجود خلق ، ليس وراءها وراء ، ولما أراد الله أن يخلقنا لعبادته قرب الطريق علينا ، فخلقنا من تراب في تراب ، وهو الأرض التي جعلها الله ذلولا ، والعبادة الذلّة ، فنحن الأذلاء بالأصل ، لا نشبه من خلق نورا من النور وأمر بالعبادة ، فبعدت عليهم الشقة لبعد الأصل مما دعاهم إليهم من عبادته ،
فلو لا أن الله أشهدهم بأن خلقهم في مقاماتهم ابتداء لم ينزلوا منها ،
فلم يكن لهم في عبادتهم ارتقاء كما لنا ، ما أطاقوا الوفاء بالعبادة ، فإن النور له العزة ما له الذلة ،
فمن عناية الله بنا لما كان المطلوب من خلقنا عبادته أن قرّب إلينا الطريق بأن خلقنا من الأرض ، التي أمرنا أن نعبده فيها ، وجعل تعالى هذه الأرض محلا للخلافة ،
فهي دار ملكه ، وموضع نائبه الظاهر بأحكام أسمائه ، فمنها خلقنا وفيها أسكننا أحياء وأمواتا ، ومنها يخرجنا بالبعث في النشأة الأخرى ، حتى لا تفارقنا العبادة حيث كنا دنيا وآخرة ، وإن كانت الآخرة ليست بدار تكليف ولكنها دار عبادة .

[سورة غافر (40) : الآيات 68 إلى 85]
هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(68)

ص 25

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَبِما
أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (71)
فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72)
ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73) مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ
قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ (74) ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما
كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75) ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76)
فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (77)
وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَما كانَ
لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ (
78) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ (79)
وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80)
وَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ
عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا
يَكْسِبُونَ (82)
فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ

ص 26

مِنَ الْعِلْمِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (83) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (85)

[« فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا . . . » الآية :]
إن الإنسان ولد على الفطرة ، وهو العلم بوجود الرب أنه ربنا ونحن عبيد له ، والإنسان لا يقبض حين يقبض إلا بعد كشف الغطاء ، فلا يقبض إلا مؤمنا ، ولا يحشر إلا مؤمنا ، فلا يموت أحد من أهل التكليف إلا مؤمنا عن علم وعيان محقق ، لا مرية فيه ولا شك ، من العلم بالله والإيمان به خاصة ، هذا هو الذي يعمّ ، غير أن الله تعالى لما قال :« فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا »ولا بأس أشد من الموت ، فما بقي إلا هل ينفعه ذلك الإيمان أم لا ؟ فما آمنوا إلا ليندفع عنهم ذلك البأس ، فما اندفع عنهم ، وأخذهم الله بذلك البأس ، فما رفع العقوبة عنهم إلا من اختصه الله ، وما ذكر أنه لا ينفعهم في الآخرة ،
ويؤيد ذلك قوله تعالى: (فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا) حين رأوا البأس(كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا)
فهذا معنى قولنا« فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ »في رفع البأس عنهم في الحياة الدنيا كما نفع قوم يونس ، فما تعرض إلى الآخرة ،
أما الاستثناء هنا فلا حكم على الله في خلقه ، وأما نفع ذلك الإيمان في المآل فإن ربك فعال لما يريد ، ومع هذا فإن الله يقيم حدوده على عباده حيث شاء ، ومتى شاء ، فقوله تعالى :« سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ »هو موضع استشهادنا ، فحقت كلمة الله وجرت سنته في عباده ، أن الإيمان في ذلك الوقت لا يدفع عن المؤمن العذاب الذي أنزله بهم في ذلك الوقت ، إلا قوم يونس ، كما لا ينفع السارق توبته عند الحاكم فيرفع عنه حد القطع ، ولا الزاني مع توبته عند الحاكم ، مع علمنا بأنه تاب بقبول التوبة عند الله ، وحديث ماعز في ذلك صحيح أنه تاب توبة لو قسمت على أهل المدينة لوسعتهم ؛ ومع هذا لم يدفع عنه الحد ، بل أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم برجمه ، كذلك كل من آمن بالله عند رؤية البأس من الكفار ، إن الإيمان لا يرفع البأس عنهم مع قبول الله إيمانهم في الدار الآخرة ، فيلقونه ولا ذنب لهم ، فإنهم ربما لو عاشوا بعد ذلك اكتسبوا أوزارا ، فالرجعة إلى الله عند رؤية البأس وحلول العذاب نافعة في الآخرة

ص 27

وإن لم يكشف عنهم العذاب في الدنيا ، وما اختص قوم يونس إلا بالكشف عنهم في الحياة الدنيا عند رجعتهم ، فيكون معنى قوله« فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا »يعني في الدنيا ، فإن الله يقول :(وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)فقول الله تعالى في هذه الآية كلام محقق في غاية الوضوح ، فإن النافع هو الله ، فما نفعهم إلا الله« سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ »يعني الإيمان عند رؤية البأس غير المعتاد ، وليس في الآية أن بأس الآخرة لا يرتفع ، ولا أن الإيمان لا يقبل ، وإنما في الآية أن بأس الدنيا لا يرتفع عمن نزل به إذا آمن في حال رؤيته ، إلا قوم يونس :« وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ »فثبت انتقال الناس في الدارين في أحوالهم من نعيم إلى نعيم ، ومن عذاب إلى عذاب ، ومن عذاب إلى نعيم من غير مدة معلومة لنا ، فإن الله ما عرفنا ،
إلا أنا استروحنا من قوله تعالى :(فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)أن هذا القدر مدة إقامة الحدود .

(41) سورة فصّلت مكيّة

[سورة فصلت (41) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (2) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)

[شمول الرحمة ومراتب العالم ومآله :]

لما جمع الله بالرحمة المركبة القرآن في الكتب لا في الصدور ، فإنه في الصدور قرآن ، وفي اللسان كلام ، وفي المصاحف كتاب ، وضع ذلك الاسم المفصل عن أمر المدبر ، فإنه متقدم عليه بالرتبة ، فلهذا له الحكم في التفصيل بالقوة وللمفصل بالفعل ، فإن الله تعالى جمع بالرحمة المركبة الكتب ، وأنزل كل كتاب سورا وآيات ، والرحمة المركبة من الرحمن الرحيم ، فإن الرحمن له عموم الرحمة ، والرحيم له الرحمة الخاصة الواجبة ، فهي مركبة من رحمة عامة وهي التي وسعت كل شيء ، ومن رحمة خاصة وهي الرحمة التي تميز بها من اصطفاه الله واصطنعه لنفسه من رسول ونبي وولي ، ثم قال :« كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ »وجعله

ص 28

كتابا لضم حروفه بعضها إلى بعض ، وضم معانيه إلى حروفه ، مأخوذ من كتيبة الجيش ، وهو كتاب مبسوط للرحمة ، لأنه منها نزل كما قال تعالى : (تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) وقد قال تعالى في ذلك (كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)
وهنا قال تعالى :« قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » فإحكام الآيات وتفصيلها لا يعرفه إلا من آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ،
وصورة الحكمة التي أعطاها الحكيم الخبير لأهل العناية ، علم مراتب الأمور وما تستحقه الموجودات والمعلومات من الحق الذي هو لها ،
وهو إعطاء كل شيء خلقه إعطاء إليها ، ليعطي كلّ خلق حقه إعطاء كونيا بما آتانا الله ، فنعلم بالقوة ما يستحقه كل موجود في الحدود ،
ونفصله بعد ذلك آيات بالفعل لمن يعقل كما أعطانيه الخبير الحكيم ، فننزل الأمور منازلها ونعطيها حقها ، ولا نتعدى بها مراتبها ،
فتفصيل الآيات من المفصّل إذا جعلها في أماكنها بهذا الشرط - لأنه ما كل مفصّل حكيم - دليل على أنه قد أوتي الحكمة وعلم إحكام آياته ،
ورحمته بالآيات والموجودات التي هي الكتاب الإلهي وليس إلا العالم - فإن العالم كله كتاب مسطور في رق منشور ،
وهو الوجود - دليل على علمه بمن أنزله وليس إلا الرحمن الرحيم ، وخاتمة الأمر ليست سوى عين سابقتها ، وسوابقها الرحمن الرحيم ، فمن هنا تعلم مراتب العالم ومآله أنه إلى الرحمة المطلقة ، وإن تعب في الطريق وأدركه العناء والمشقة ،
فمن الناس من ينال الرحمة والراحة بنفس ما يدخل المنزل الذي وصل إليه وهم أهل الجنة ، ومنهم من يبقى معه تعب الطريق ومشقته ونصبه بحسب مزاجه ، وربما مرض واعتل زمانا ثم انتقل من دائه واستراح وهم أهل النار الذين هم أهلها ،
ما هم الذين خرجوا منها إلى الجنة فمستهم النار بقدر خطاياهم مع كونهم أماتهم الله فيها إماتة ، فإن أولئك ليست النار منزلا لهم يعمرونه ويقيمون فيه مع أهليهم ،
وإنما النار لهؤلاء منهل من المناهل التي ينزلها المسافر في طريقه حتى يصل إلى منزله الذي فيه أهله ، فهذا معنى الحكمة والتفصيل ، فمن كشف التفصيل في عين الإجمال علما أو عينا أو حقا فذلك الذي أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وليس إلا الرسل والورثة خاصة .

[سورة فصلت (41) : الآيات 4 إلى 5]
بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (4) وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (5)

ص 29

الكنّ بيت الطبيعة ، فالقلب مشغول بأمه ما عنده خبر بأبيه الذي هو روح الله ، فلا يزال في ظلمة الكنّ وهي حجاب الطبيعة ، فهو في حجابين كنّ وظلمة ،
فهو يسمع ولا يفهم ، كما قال الله فيهم(وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ)
أي لا يفهمون فهنا قال الكفار« وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ »فكانت قلوبهم في أكنة مما يدعوها الرسول إليه خاصة ، لا أنها في كنّ ، ولكن تعلقت بغير ما تدعى إليه ،
فعميت عن إدراك ما دعيت إليه فلا تبصر شيئا« وَفِي آذانِنا وَقْرٌ »فطابق ذلك قول الله : إنهم صم ، فلم يسمعوا ، والوقر هنا هو ثقل الأسباب الدنياوية التي تصرف عن الآخرة« وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ »إن كان الوقر طخاء ، فهو قساوة قلبه أن يؤثر فيه قبول ،
ما يخطر له حديث النفس من النظر والإصغاء إلى هذا الداعي الذي هو الشارع ، قال بعضهم ذلك لمحمد صلّى الله عليه وسلّم ، يعنون بالحجاب هنا الأكنة« فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ »
- الوجه الأول - أي اعمل في رفع ذلك إننا عاملون في رفع ذلك ،
في حق من يحتمل صدقه عندهم ، فإنهم اعترفوا أن قلوبهم في أكنة مما يدعوهم إليه ، فما جحدوا قوله ولا ردوه كما اعتقد غيرهم ممن لم يقل ذلك ،
ولا ندري ما آل إليه أمر هؤلاء ، فإنا نعلم قطعا أن الرسول يعمل في رفع الغطاء عن أعينهم بلا شك ،
ولذا قال في الآية التالية (وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ) ولم يقل : وويل لكم ،
فهذا يدل بقرينة الحال أنهم عاملون في رفع الحجاب وإخراج قلوبهم من الأكنة ، وإنما كثر الأكنة لاختلاف أسباب توقفهم في قبول ما أتاهم به ، فمنهم من كنّه الحسد ، وآخر الجهل ، وآخر شغل الوقت بما كان عنده أهم حتى يتفرغ منه ، والكل حجاب-
-الوجه الثاني - « وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ »أي هو منّا« وَفِي آذانِنا وَقْرٌ »أي هو منّا ،« وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ »أي هو منّا« فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ »فقال الله تعالى :(وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ)وهو العمل الذي قالوه وطلبوه -إشارة وموعظة : [القلب مرآة مصقولة]
-اعلم أن القلب مرآة مصقولة ، كلها وجه لا تصدأ أبدا ، فإن أطلق يوما عليها أنها صدئت كما قال عليه السلام : [إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد - الحديث] وفيه أن جلاءها ذكر الله وتلاوة القرآن ، ولكن من كونه الذكر الحكيم ، فليس المراد بهذا الصدأ أنه طخاء طلع على وجه القلب ، ولكنه لما تعلق واشتغل بعلم الأسباب عن العلم باللّه ، كان تعلقه بغير الله صدأ على وجه القلب ، لأنه المانع من تجلي الحق إلى هذا القلب ، لأن الحضرة الإلهية متجلية على الدوام ، لا يتصور في حقها

ص 30

حجاب عنا ، فلما لم يقبلها هذا القلب من جهة الخطاب الشرعي المحمود ، لأنه قبل غيرها ، عبّر عن قبول ذلك الغير بالصدإ والكن والقفل والعمى والران وغير ذلك ، وإلا فالحق يعطيك أن العلم عنده ، ولكن بغير الله في علمه وهو بالله في نفس الأمر عند العلماء بالله ، فالقلوب أبدا لم تزل مفطورة على الجلاء مصقولة صافية ، فكل قلب تجلت فيه الحضرة الإلهية من حيث هي ياقوت أحمر ، الذي هو التجلي الذاتي ، فذلك قلب المشاهد المكمل العالم ، الذي لا أحد فوقه في تجل من التجليات ، ودونه تجلي الصفات ، ودونهما تجلي الأفعال ، ولكن من كونها من الحضرة الإلهية ، ومن لم تتجل له من كونها من الحضرة الإلهية فذلك هو القلب الغافل عن الله تعالى ، المطرود من قرب الله تعالى ، فانظر وفقك الله في القلب على حد ما ذكرناه .

[سورة فصلت : (41) الآيات 6 إلى 7]
قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (7)
لا يجوز أخذ الزكاة من كافر ، وإن كانت واجبة عليه مع جميع الواجبات ، إلّا أنه لا يقبل منه شيء ممّا كلّف به إلا بعد حصول الإيمان به ، فإن كان من أهل الكتاب ففيه عندنا نظر ، فإنّ أخذ الجزية منهم قد يكون تقريرا من الشارع لهم دينهم الذي هم عليه ، فهو شرع لهم ، فيجب عليهم إقامة دينهم ، فإن كان فيه أداء زكاة وجاءوا بها قبلت منهم ، وليس لنا طلب الزكاة من المشرك ، وإن جاء بها قبلناها ، وهي لا تجزي عن أهل الذمّة إذا أخرجوها - مع كونها واجبة عليهم كسائر جميع فروض الشريعة - لعدم الشرط المصحح لها ، وهو الإيمان بجميع ما جاءت به الشريعة ، لا بها ولا ببعض ما جاء به الشرع .

[سورة فصلت (41) : الآيات 8 إلى 9]
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8) قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (9)
[فصل في خلق الأرض :]
فصل في خلق الأرض : الأرض أول مخلوق من الأركان ، ثم الماء ، ثم الهواء ، ثم النار ، ثم السماوات ، وأخبر تعالى عنها بأمور تقضي أنها تعقل ، فوصفها بالقول والإباية ، وقال

ص 31

لها وقالت له ، ونعتها بالطاعة والأخذ بالأحوط ليدل بذلك على علمها وعقلها ، وجعلها محلا لتكوين المعادن والنبات والحيوان والإنسان ، وجعلها حضرة الخلافة والتدبير ، فهي موضع نظر الحق ، وسخر في حقها جميع الأركان والأفلاك والأملاك ، وأنبت فيها من كل زوج بهيج ، من كل ذكر وأنثى ، وما جمع لمخلوق بين يديه سبحانه إلا لما خلق منها ، وهي طينة آدم عليه السلام خمرها بيديه ، وهو ليس كمثله شيء ،
وأقامها مقام العبودية فقال :(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا) وظهر عن هذه الأرض من العالم المولدات إلى مقعر فلك المنازل ، وهذا الركن لا يستحيل إلى شيء ، ولا يستحيل إليه شيء ، وإن كان بهذه المثابة بقية الأركان ،
ولكنه في هذا الركن أظهر حكما منه في غيره ، فهي الذلول التي لا تقبل الاستحالة ، فيظهر فيها أحكام الأركان ولا يظهر لها حكم في شيء ، تعطي جميع المنافع من ذاتها ، هي محل كل خير ، فهي أعز الأجسام ، لا تزاحم المتحركات بحركتها ،
لأنها لا تفارق حيّزها ، يظهر فيها كل ركن سلطانه ، وهي الصبور القابلة الثابتة الراسية ، سكّن ميدها جبالها التي جعلها الله أوتادا لما تحركت من خشية الله ، آمنها الله بهذه الأوتاد فسكنت سكون الموقنين ،
وهي الأم التي منها أخرجنا وإليها نعود ومنها نخرج تارة أخرى ، لها التسليم والتفويض ، هي ألطف الأركان معنى ، وما قبلت الكثافة والظلمة والصلابة إلا لستر ما أودع الله فيها من الكنوز ، لما جعل الله فيها من الغيرة ، فحار السعادة فيها فلم يخرقوها ،
ولا بلغوا جبالها طولا ، أعطاها صفة التقديس فجعلها طهورا في أشرف الحالات ، وذلك عند الاضطرار ، لما أقامها مقامه ، مثل الظمآن يرى السراب فيحسبه ماء فإذا جاءه لم يجده شيئا ، يعني ماء ووجد الله عنده ، فما وجد الله إلا عند الضرورة ،
كذلك طهارة الأرض لا تكون إلا لفاقد الماء على ما كان من الأحوال ، فانظر ما أشرف منزلها ، ثم أنزلها منزلة النقطة من المحيط ، فهي تقابل بذاتها كل جزء من المحيط ، وينظر إليها كل جزء من المحيط ، فكل خط منها يخرج إلى المحيط على السواء والاعتدال ،
لأنها ما تعطي إلا بحسب صورتها ، وكل خط من المحيط إليها يقصد ، فلو زالت زال المحيط ، ولو زال المحيط لم يلزم زوالها ، فهي الدائمة الباقية في الدنيا والآخرة .
واعلم أن الله تعالى قد جعل هذه الأرض بعد ما كانت رتقا كالجسم الواحد - كما كانت السماء - ففتق رتقها وجعلها سبعة أطباق ، كما فعل بالسماوات ، وجعل لكل أرض استعداد انفعال لأثر حركة فلك من أفلاك السماوات وشعاع

ص 32

كوكبها ، فالأرض الأولى وهي التي نحن عليها للفلك الأول من هناك ، ثم تنزل إلى أن تنتهي إلى الأرض السابعة والسماء الدنيا ،
ولذلك قال عليه السلام فيمن غصب شبرا من الأرض [طوقه الله به من سبع أرضين] لأنه إذا غصب شيئا من الأرض ، كان ما تحت ذلك المغصوب مغصوبا إلى منتهى الأرض ، ولو لم تكن طباقا بعضها فوق بعض لبطل معقول هذا الخبر ،
وكذلك الخبر الوارد في سجود العبد على الأرض : طهّر الله بسجدته إلى سبع أرضين ، وقال تعالى :أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً، أي كل واحدة منهما مرتوقة ،
ثم قال :(فَفَتَقْناهُما) يعني فصل بعضها عن بعض حتى تميزت كل واحدة عن صاحبتها ،
كما قال :(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)الظاهر يريد طباقا
ثم قال :(يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)أي بين السماوات والأرض .

[سورة فصلت (41) : آية 10]
وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (10)
"وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها »قدّر الله في هذه الأرض الأولى أقواتها فجعلها ذات مقدار ، فلن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، والأرزاق في تقديرها بوجهين :
الوجه الواحد كمياتها ، والثاني أوقاتها ، فأعطى الحق مقادير أوقات الأقوات وموازينها ، فإن القوت لكل من لا يقوم له بقاء صورة في الوجود إلا به ، ومن هذه الأقوات عين الوحي الذي في السماء ، فالقوت في الأرض كالأمر في السماء ، وتقدير القوت في الأرض كالوحي في السماء ، وهو عينه لا غيره ، فأوحى في كل سماء أمرها ، وهو تقدير أقواتها ، وقدر في الأرض أقواتها ، فالرزق الذي في الأرض ما تقوم به الأجسام ، والذي في السماء ما تقوم به الأرواح ،
وهو قوله تعالى :(وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ) وكل ذلك رزق ليصح الافتقار من كل مخلوق ، وينفرد الحق بالغنا « فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ »
أي في أربعة آلاف سنة ، كل يوم من الأيام ألف سنة عنده ، وخلق الله الأرض وقدر فيها أقواتها علما ، لأنه قال بعد ذلك ، ثم استوى ، فجاء بثم التي تؤذن بالبعدية ، فبعد أن دارت السماوات بكواكبها ، فتق الأرض بما أخرج فيها ومنها من معدن ونبات وحيوان ، فكان إيجادا عند دوران الأفلاك بعد تقدير.

ص 33

[سورة فصلت (41) : آية 11]
ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (11)
جاء بكلمة ثم بعد خلق تؤذن غالبا أن الثاني بعد الأول بمهلة ، وهو زمان خلق الأرض وتقدير أقواتها في أربعة أيام من أيام الشأن ، يومان لشأنها في عينها وذاتها ، يوم لظهورها وشهادتها ، ويوم لبطونها وغيبتها ، ويومان لما أودع فيها من الأقوات الغيبية والشهادية ، ثم كان الاستواء الأقدس الذي هو القصد والتوجه إلى فتق السماوات وفطرها ، فقال تعالى :« ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ »فالاستواء هنا بمعنى القصد ، فإن القصد هو الإرادة وهي من صفات الكمال« وَهِيَ دُخانٌ »أي أن أصلها الدخان ، وهي اليوم سماوات ، كما أن آدم خلقه الله من تراب أي أصله ، وهو لحم ودم وعروق وأعصاب
[طاعة السماء والأرض للأمر الإلهي :]
« فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً »
-الوجه الأول - لأمر حدّ لهما ، أي أجيبا إذا دعيتما لما يراد منكما مما أمنتما عليه أن تبرزاه ، فإن الله تعالى ما خلق شيئا في الكون إلا حيا ناطقا ، جمادا كان أو نباتا أو حيوانا ، في العالم الأعلى والأسفل ،
مصداق ذلك قوله تعالى :(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)
ولما كان الأمر هكذا ، جاز بل وقع وصح أن يخاطب الحق جميع الموجودات ويوحي إليها ، من سماء وأرض وجبال وشجر وغير ذلك من الموجودات ، ووصفها بالطاعة لما أمرها به ، وبالإباية لقبول عرضه ، وأسجد له كل شيء ، لأنه تجلى لكل شيء ، وأوحى إلى كل شيء بما خاطب ذلك الشيء به ،
فقال للسماء والأرض« ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ »لأنها علمت أنها إن لم تجب مختارة جبرت على الإتيان ، فجيء بها كما جيء بجهنم ، فالسماء والأرض آتيتان أبدا ، فلا يزالان متحركتين ، غير أن حركة الأرض خفيّة عندنا ، وحركتها حول الوسط لأنها أكر ، والسماء أتت طائعة عند أمر الله لها بالإتيان ، وأمر الأرض فأتت طائعة لما علمت نفسها مقهورة ، وأنه لا بد أن يؤتى بها بقوله « أَوْ كَرْهاً » فكانت المرادة بقوله تعالى :" أَوْ كَرْهاً "
-الوجه الثاني – " فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً "
أي تهيأ القبول ما يلقى فيكما« قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ »فإنه كان أمرا لا عرضا ، فتعين عليهم الإجابة طوعا ، أو كرها ، أي على مشقة ، لمعرفتهم بعظيم ما أوجب الله عليهم ، فأتوا طائعين ، فلما أتيا طائعين وتهيئا لقبول ما شاء الحق أن يجعل فيهما ،

ص 34

مستسلمين خائفين فقدّر في الأرض أقواتها وجعلها أمانة عندها ، حمّلها إياها جبرا لا اختيارا ، وأوحى في كل سماء أمرها وجعل ذلك أمانة بيدها تؤديها إلى أهلها ، حمّلها إياها جبرا لا اختيارا

- الوجه الثالث - لما أمرت السماء والأرض بالإتيان أمر وجوب ، فإن لم يجئن جيء بهن على كره . فقالتا أتينا طائعين لعلمهن بأن الذي أمرهن قادر على الإتيان بهن على كره منهن ، فقلن أتينا طائعين ، فالإتيان حاصل ، والطوع في معرض الاحتمال إن يكن صدقن في دعواهن ، فإن كان الحق القائل فما كذبا بل صدقا ، وإن كان القول بالواسطة فيحتمل ما قلناه

- الوجه الرابع - تدل هذه الآية أن الله تعالى ما أوجد كل ما عدا الثقلين ولا خاطبهم إلا بصفة القهر والجبروت ، فإن قوله« كَرْهاً »كلمة قهر حيث أتت ، لذا بادرتا« قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ .«

[سورة فصلت (41) : آية 12]

فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)

[" وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها " :]

فلما قضاهن سبع سماوات في يومين أوحى في كل سماء أمرها ، فإن الحق سبحانه جعل بين السماء والأرض التحاما معنويا وتوجها لما يريد سبحانه أن يوجده في هذه الأرض ، من المولدات من معدن ونبات وحيوان ، وجعل الأرض كالأهل ، وجعل السماء كالبعل ، والسماء تلقي إلى الأرض من الأمر الذي أوحى الله فيها كما يلقي الرجل الماء بالجماع في المرأة ، وتبرز الأرض عند الإلقاء ما خبأه الحق فيها من التكوينات على طبقاتها ، وقوله تعالى« فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها »فذلك الأمر هو الذي ينزل إلى أرضه بما أوحى الله فيها ، فهو ينزل من كل سماء إلى أرضه في قوله تعالى :(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)

فجعل في كل سماء ما يصلح تنفيذه في الأرض من هذا الخلق ، ومن أمرها ما أودع الله في حركات الكواكب واقترانها وهبوطها وصعودها في بيوت نحوسها وسعودها ، فعن حركاتها وحركات ما فوقها من الأفلاك حدثت المولدات ، فأودع الله في خزائن الكواكب التي في الأفلاك علوم ما يكون من الآثار في العالم العنصري من التقليب والتغيير ، والكواكب مسخرة من الله أمينة على ما يحدثه في العالم ،

وهو قوله تعالى :(وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ)

ص 35

فكما سخّر الرياح والبحار ، هكذا سخّر الكواكب ، فالأمر هو ما تنتجه الحركات الكوكبية ، لأن الله ما جعل سباحتها في الأفلاك باطلا ، بل لأمور أودعها الله تعالى في المجموع ، فيها وفي حركاتها وفي قطعها في البروج المقدّرة في الفلك الأقصى ، فهي تؤدي في تلك السباحة ما أمنت عليه من الأمور التي يطلبها العالم العنصري والتي لها آثار فيه ، ولذلك فإن الفلك عندنا متحرك حركة إرادية كتحرك الإنسان في الجهات ، لأنه يعقل ويكلّف ويؤمر ، فهو متحرك بالإرادة ليعطي ما في سمائه من الأمر الإلهي الذي يحدث أشياء في الأركان والمولدات ، فحركة الفلك ما تعرف سوى ما تعطيه في الأركان من التحريك ، وشعاعات كواكبها بما أودع الله فيها من العقل والروح والعلم في أشخاص كل نوع من المولدات على التعيين ، من معدن ونبات وحيوان وجن ، وملك مخلوق من عمل أو نفس ، بقول من تسبيح وذكر أو تلاوة ، وذلك لعلمها بما أودع الله لديها مما ينفرد به الكوكب ومما لا ينفرد به ، فإن كل كوكب يعطى في الدرجة الفلكية على انفراده من الحكم ما لا يعطيه إذا اجتمع معه في تلك الدرجة كوكب آخر أو أكثر ، فذلك الذي يحدث من الاجتماع خارج عن الأمر الذي تنفرد به كل سماء ، والأمر هو ما يعطيه من الآثار في العالم ، كما تعطى كل آلة للصانع بها ما عملت له ، والصنعة مضافة للصانع لا للآلة .

واعلم أن هذه النشأة الإنسانية قبل أخذ الميثاق كانت مبثوثة في العناصر ، ومراتبها إلى حين موتها التي يكون عليها في وجود أعيان أجسامها معلومة معينة في الأمر المودع في السماوات ، لكل حالة من أحواله التي تتقلب فيها في الدنيا صورة في الفلك على تلك الحالة ، قد أخذ الله بأبصار الملائكة عن شهودها ، مكتنفة عند الله في غيبه ، معيّنة له سبحانه ، لا تعلم السماوات بها مع كونها فيها ، وقد جعل الله وجود عينها في عالم الدنيا في حركات تلك الأفلاك ، فهذا من أمرها ، وشأنها حفظ هذه الصور إلى وصول وقتها ، فتعطيها مراتبها في الحياة الدنيا تلك الصورة الفلكية من غير أن تفقد منها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهذه الصور كلها موجودة في الأفلاك التسعة ، وجود الصورة الواحدة في المرايا الكثيرة المختلفة الأشكال ، فمن أعطي في ذلك الموطن شهود نفسه ومرتبته حكم على نفسه بها ،
وهنا شاهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نبوته فقال : [كنت نبيا وآدم بين الماء والطين] فكان له التعريف في تلك الحالة ، وأعطى الحق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما لم يعط غيره من وحي أمر السماوات في طالع مولده ، فمن الأمر

ص 36

المخصوص بالسماء السابعة : لم يبدل حرف من القرآن ولا كلمة ، ولو ألقى الشيطان في تلاوته ما ليس منها بنقص أو زيادة لنسخ الله ذلك ، وهذا عصمة ، ومن ذلك الثبات ما نسخت شريعته صلّى الله عليه وسلّم بغيرها ، بل ثبتت محفوظة ، واستقرت بكل عين ملحوظة ، ولذلك تستشهد بها كل طائفة ،
ومن الأمر المخصوص بالسماء السادسة : خصّ صلّى الله عليه وسلّم بعلم الأولين الآخرين ، والتؤدة والرحمة والرفق ، وكان بالمؤمنين رحيما ، وما أظهر في وقت غلظة على أحد إلا عن أمر إلهي ،
حين قيل له (جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)
ومن ذلك ما حلل الله له من الغنائم ، وجعلت له الأرض مسجدا وطهورا ، ومن الأمر المخصوص بالسماء الخامسة : السيف الذي بعث به والخلافة ، واختص بقتال الملائكة معه منها ، فإن ملائكة هذه السماء قاتلت معه صلّى الله عليه وسلّم يوم بدر ،
ومن هذه السماء أيضا بعث من قوم ليس لهم همة إلا في قرى الأضياف ، ونحر الجزر والحروب الدائمة وسفك الدماء ، ومن ذلك النصر بالرعب فهو من السماء الخامسة ،
ومن الوحي المأمور به في السماء الرابعة : نسخه بشريعته جميع الشرائع ، وظهور دينه على جميع الأديان عند كل رسول ممن تقدمه وفي كل كتاب منزل ، فلم يبق لدين من الأديان حكم عند الله إلا ما قرر منه ، فبتقريره ثبت ، فهو من شرعه وعموم رسالته ، وإن كان بقي من ذلك حكم ، فليس هو من حكم الله إلا في أهل الجزية خاصة ، ومن هذا الأمر من هذه السماء بعث وحده إلى الناس كافة ،
فعمت رسالته ، ومن الوحي المأمور به في السماء الثالثة المختص بمحمد صلّى الله عليه وسلّم : أنه ما ورد قط عن نبي من الأنبياء أنه حبّب إليه النساء إلا محمد صلّى الله عليه وسلّم وإن كانوا قد رزقوا منهن كثيرا ، كسليمان عليه السلام وغيره ، فكان صلّى الله عليه وسلّم يحبهن بكون الله حببهن إليه ، ومن هذه السماء حب الطيب ، وكان من سنته النكاح لا التبتل ، وجعل النكاح عبادة للسر الإلهي في الإنتاج ،
فهذا الفضل زاد فيه بنكاح الهبة ، ومن الأمر الموحى في السماء الثانية : إعجاز القرآن ، والذي أعطيه صلّى الله عليه وسلّم من جوامع الكلم من هذه السماء تنزل إليه ، ولم يعط ذلك نبي قبله ، ومن أمر هذه السماء ما خصه الله به من إعطائه إياه مفاتيح خزائن الأرض ، ومن الوحي المأمور به في السماء الأولى وهي الدنيا التي تلينا : كون الله خصه بصورة الكمال ، فكملت به الشرائع ، وكان خاتم النبيين ولم يكن ذلك لغيره صلّى الله عليه وسلّم ، فبهذا وأمثاله انفرد صلّى الله عليه وسلّم بالسيادة الجامعة للسيادات كلها ، والشرف المحيط الأعم صلّى الله عليه وسلّم ، وبهذا قد نبهنا على ما حصل له في مولده من بعض ما أوحى الله به في كل سماء من أمره.

ص 37

ألا بأبي من كان ملكا وسيدا *** وآدم بين الماء والطين واقف
فذاك الرسول الأبطحي محمد *** له في العلى مجد تليد وطارف
أتى بزمان السعد في آخر المدى *** وكانت له في كل عصر مواقف
أتى لانكسار الدهر يجبر صدعه *** فأثنت عليه ألسن وعوارف
إذا رام أمرا لا يكون خلافه *** وليس لذاك الأمر في الكون صارف

ومن الأمر الموحى في السماء السابعة التي أسكنها الخليل عليه السلام من حيث العموم : عين الموت ومعدن الراحة ، وسرعة الحركة في ثبات وطرح الزينة ،
ومن الأمر العام الموحى في السماء السادسة التي أسكنها الحق روحانية موسى عليه السلام : حياة قلوب العلماء بالعلم ، واللين والرفق ، وجميع مكارم الأخلاق ، ومن الأمر العام الموحى في السماء الخامسة مسكن هارون عليه السلام : إهراق الدماء والحميات ،
وهو من أثر الاسم الإلهي القهار ، فإنه الممد لها ، ومن الأمر الموحى في السماء الرابعة التي أسكن فيها قطب الأرواح الإنسانية إدريس عليه السلام : تقسيم الحكم الإلهي في العالم ، ومن الأمر الموحى في السماء الثالثة التي أسكنها روحانية يوسف عليه السلام : إظهار صور الأرواح والأجسام والعلوم في العالم العنصري ، ومن الأمر الموحى في السماء الثانية التي أسكنها الحق عيسى عليه السلام : كل ما ظهر في العالم العنصري من الآثار الحسية والمعنوية ،
وما يحصل للعارفين في قلوبهم من ذلك ، ومن الأمر الموحى في السماء الأولى التي أسكنها روحانية آدم عليه السلام ، وله كل حكم يظهر في العالم يوم الاثنين روحا وجسما ، وسرعة ظهور الأثر في الكون لسرعة حركة هذا الفلك وكوكبه ،
ولذلك كان الإنسان سريع التغيير في باطنه ، كثير الخواطر ، يتقلب في باطنه في كل لحظة تقلبات مختلفة ، فإن الحق تعالى لما قضى السبع سماوات في يومين من أيام الشأن أوحى في كل سماء أمرها ، فأودع فيها جميع ما تحتاج إليه المولدات من الأمور ،
في تركيبها وتحليلها وتبديلها وتغييرها وانتقالها من حال إلى حال بالأدوار والأطوار فإنه من الأمر الإلهي المودع في السماوات من الروحانيات العلية ،
فبرز بالتحريكات الفلكية ليظهر التكوين في الأركان بحسب الأمر الذي يكون في تلك الحركة وفي ذلك الفلك ، فإن السماوات كلها قد جعلها الله محلا للعلوم الغيبية المتعلقة بما يحدث الله في العالم من الكائنات ،
جوهرها وعرضها ، صغيرها وكبيرها ، وأحوالها وانتقالها ، وما من سماء إلا وفيها علم

ص 38

مودع بيد أمينها ، وأودع الله نزول ذلك الأمر إلى الأرض في حركات أفلاكها وحلول كواكبها في منازل الفلك الثامن ، وجعل لكواكب هذه السماوات السبع اجتماعات وافتراقات ، وصعودا وهبوطا ، وجعل آثارها مختلفة ،
وجعل منها ما يكون بينه وبين كواكب أخر مناسبة ، وجعل منها ما يكون بينه وبين كواكب أخر منافرة ، لا أنهم أعداء ، وإنما ذلك لحقائق خلقهم الله تعالى عليها ، يقضي بذلك ويشغلهم بطاعة ربهم وتسبيحه ، لا يعصون الله ما أمرهم ، كما جاء في خلق مالك خازن النار أنه ما ضحك قط ، بخلاف رضوان الذي خلق من سرور وفرح ،
وكلاهما عبدان صالحان مطيعان ليس بينهما عداوة ولا شحناء ، غير أن الآثار هنا في العالم الأسفل تنبعث عن تلك الحقائق ، وعندنا أغراضنا قائمة ، فيقع بيننا التحاسد والعداوة ،
والأصل من ذلك ، وأما عدم المنافرة بين المتناسبين منها ، فهو أن أوجد الواحد على خلاف ما أوجد الآخر لا على ضده ، فكل ضد خلاف ، وما كل خلاف ضد ،
فإن وكيل السماء السابعة يضاد وكيل السماء السادسة ، حتى أن ما يعمله صاحب السماء السادسة إذا صار وقت الحكم فيه للملك الموكل في السماء السابعة أفسد ما أصلحه صاحب السماء السادسة ، كما يفعل أيضا صاحب السادسة إذا أصلح ما يفسده صاحب السابعة ، وكل ملك ما عنده أنه يفسد ، وإنما يقول في فعله أنه أصلح ، من حيث أنه امتثل فيه أمر ربه ، وأدّى ما أمّن عليه ، وهو الأمر الذي ذكر الله تعالى أنه أوحى في السماوات ، فإذا أنست بهذا القدر وعلمت أنه لا يطعن في العقد ، وإلا فأية فائدة كانت في قول الله تعالى :(وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ)فبما ذا سخرها يا أخي في هذا وأشباهه ؟
أليس الله قد سخر العالم ببعضه لبعض ؟
فقال : (وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا)
وقال :(وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) فذكر أن في السماء أمورا مسخرة لنا مثل الأرض ، فلا يقدح في عقيدة مسلم كونه يعلم ما أوحى في السماء من أمرها وفيما ذا سخرها عالمها ، ولو كان ذلك لاطرد في الأرض وفي السماء ، ونحن في كل زمان نهرب إلى الأسباب التي نصبها الله لنا وعرفنا بها على جهة أنها مسخرة ، لا على أنها فاعلة ، نعوذ بالله ، لا أشرك به أحدا ، وإنما كفّر الشارع من يعتقد أن الفعل للكواكب لا لله ،
وأن الله يفعل الأشياء بها ، هذا هو الكفر والشرك ، وأما من يراها مسخرة وأن الله أجراها حكمة فلا ، بل من جهل ما أودع الله فيها وما أوحى

ص 39

الله فيها من الأمور ورتب فيها من الحكم فقد فاته خير كثير وعلم كبير ، وما ذا بعد الحق إلا الضلال .
ولما فتق الله السماوات من رتقها ودارت كانت شفافة في ذاتها وجرمها ، حتى لا تكون سترا لما وراءها ، أدركنا بالأبصار ما في الفلك الثامن من مصابيح النجوم ، فيتخيل أنها في السماء الدنيا ، والله يقول :« وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ »
ولا يلزم من زينة الشيء أن يكون فيه ، وأما قوله« وَحِفْظاً »فهي الرجوم التي تحدث في كرة الأثير لإحراق الذين يسترقون السمع من الشياطين فجعل الله لذلك شهابا رصدا وهي الكواكب ذوات الأذناب ، ويخترق البصر الجو حتى يصل إلى السماء الدنيا فلا يرى من فطور فينفذ فيه فينقلب خاسئا وهو حسير أي قد أعيا ، وجعل في كل سماء من هذه السبعة كوكبا سابحا وهو قوله تعالى :« كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » فتحدث الأفلاك بحركة الكواكب لا السماوات ، فتشهد الحركات من السبعة السيارة أن المصابيح في الفلك الثامن وزينا السماء الدنيا لأن البصر لا يدركها إلا فيها فوقع الخطاب بحسب ما تعطيه الرؤية
لهذا قال :« زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ » ولم يقل خلقناها فيها وليس من شرط الزينة أن تكون في ذات المزين بها ولا بد فإن الرجل والخيل من زينة السلطان وما هما قائمان بذاته« ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »بالفتق والرتق فإن الله تعالى لما خلق الأفلاك وعمرها بالأملاك وقدر للكواكب السبعة السيارة فيها منازل تجري فيها إلى أجل مسمى تعين الزمان بجريانها وسباحتها وخلق المكانة قبل الأمكنة ومد منها رقائق إلى أمكنة مخصوصة في السماوات السبع والأرض ثم أوجد المتمكنات في أمكنتها على قدر مكانتها وجعل إمضاء الأمور التي أودعها السماوات في عالم الأركان عند سباحة الجواري وجعلهم نوابا متصرفين بأمر الحق لتنفيذ هذه الأمور التي أخذوها من خزائن البروج في السنة بكمالها وقدر لها المنازل المعلومة التي في الفلك المكوكب وجعل لها اقترانات وافتراقات كل ذلك بتقدير العزيز العليم
[إشارة : مقارنة البنية الإنسانية بالسماوات والأرض]
-إشارة - لما كملت البنية الإنسانية وصحت التسوية ، وكان التوجه الإلهي بالنفخ العلوي في حركة الفلك الرابع من السبعة ، وقبل هذا المسمى الذي هو الإنسان لكمال تسويته السر الإلهي الذي لم يقبله غيره ، وبهذا صح له المقامات ، مقام الصورة ومقام الخلافة ، فلما كملت الأرض البدنية ، وقدّر فيها أقواتها ، وحصل فيها قواها الخاصة بها من كونها حيوانا نباتا ، كالقوة الجاذبة والهاضمة والماسكة والدافعة والنامية والمغذية ، وفتقت طبقاتها السبعة ، من جلد ولحم وشحم وعرق وعصب

ص 40

وعضل وعظم ، استوى السر الإلهي الساري فيه ، فنفخ النفخ الروحي إلى العالم العلوي من البدن ، وهو بخارات تصعد كالدخان ، فتق فيها سبع سماوات : السماء الدنيا وهي الحس ، وزينها بالنجوم والمصابيح مثل العينين ، وسماء الخيال ، وسماء الفكر ، وسماء العقل ، وسماء الذكر ، وسماء الحفظ ، وسماء الوهم ،

وأوحى في كل سماء أمرها ، وهو ما أودع في الحس من إدراك المحسوسات - ولا نتعرض للكيفية في ذلك للخلاف الواقع فيها ، وإن كنا نعلم ذلك فإن علمنا لا يرفع الخلاف من العالم - وفي الخيال من متخيلات المستحيلات ، وفي العقل من المعقولات ،

وهكذا في كل سماء ما يشاكلها من جنسها ، فإن أهل كل سماء مخلوقون منها ، فهم بحسب مزاج أماكنهم ، وخلق في كل سماء من هذه السبعة كوكبا سابحا في مقابلة الكواكب السيارة ، تسمى صفات ،

وهي الحياة والسمع والبصر والقدرة والإرادة والعلم ، كل يجري إلى أجل مسمى ، فلا تدرك قوة إلا ما خلقت له خاصة ، فالبصر لا يرى سوى المحسوسات المبصرات ، وينحسر فينقلب خاسئا ، فإنه لا يجد قطرا ينفذ فيه ، والعقل يثبت هذا كله ، يشهد بذلك الحركات الفلكية التي في الإنسان ، وذلك بتقدير العزيز العليم .

[سورة فصلت (41) : آية 13]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ (13)

جاء الجبار من رؤساء الجاهلية إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال له : يا محمد أتل علي مما جئت به حتى أسمع ؛ فتلا عليه حم السجدة ، فلما وصل إلى قوله تعالى :« فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ »وهما من العرب وحديثهما مشهور عندهم بالحجاز ، فلما سمع هذه الآية ارتعدت فرائصه واصفر لونه وضرط من شدة ما سمع ومعرفته بذلك ، وقال : هذا كلام جبار .

[سورة فصلت (41) : الآيات 14 إلى 17]

إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (14) فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ) (15فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ (16) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ(17)

ص 41

إن الله ما جعل في العالم هدى لا يصح أن يعود عمى ، فإنه أبان لمن أوصله إليه ، فما اتصف بالعمى إلا من لم يصل إليه الهدى من ربه ،
ومن قيل له : هذا هدى ؛ لا يقال إنه وصل إليه حتى يكون هو الذي أنزل عليه الهدى وحصل له العلم بذلك ، فإن هذا لا يكون عنده عمى أبدا ، فما استحب العمى على الهدى إلا من هو مقلد لأبناء جنسه ، فالعمى يوافق طبعه والهدى يخالف طبعه ، فلذلك يؤثره عليه .

[سورة فصلت (41) : الآيات 18 إلى 20]
وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (18) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (20)
« شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ »وهما من النشأة الباطنة« وَجُلُودُهُمْ »من النشأة الظاهرة ، فما من شخص يروم مخالفة حق إلا ونشأتاه تقولان له : لا تفعل أيها الملك ، ولا تحوجنا أن نكون سببا في هلاكك ، فإن الله إن استشهدنا شهدنا ، ونحن رعيتك ولا حركة لنا إلا بك ، فلا تحركنا إلا في أمر يكون لك لا عليك ، فإن الأعضاء كالآلة للنفس الناطقة المخاطبة المكلّفة بتدبير هذا البدن ، وأنت المسؤول عن إقامة العدل فيهم ، فأنت تعلم من خطاب الشارع جميع ما يتعلق بكل عضو مكلف : وهي العين والأذن واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب.

ص 42

[سورة فصلت (41) : آية 21]
وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21)
[نطق الجلود وسبب تسميتها جلودا :]
" وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ " إذا شهدت عليهم« لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا » فتقول الجلود« أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ » فعمت ، فإن الدار الآخرة هي الحيوان ، ينطق فيها كل شيء ، فكانت الجلود أعلم بالأمر ممن جعل النطق فصلا مقوما للإنسان خاصة ، وعرّى غير الإنسان عن مجموع حده في الحيوانية والنطق ، وسميت الجلود بهذا الاسم لما هي عليه من الجلادة ،
لأنها تتلقى بذاتها جميع المكاره من جراحة وضرب وحرق وحر وبرد ، وفيها الإحساس ، وهي مجنّ النفس الحيوانية لتلقي هذه المشاق ،
فما في الإنسان أشد جلادة من جلده ، ولهذا غشاه الله به ، ولما كانت الجلود شهداء عدول فهي مقبولة القول عند الله ، وكانوا في الدنيا غير راضين بما كانت النفس الناطقة الحيوانية تصرفهم فيه ، زمان حكمها وإمارتها عليهم وعلى جميع جوارحهم ،
من سمع وبصر ولسان ويد وبطن وفرج ورجل وقلب ، فأخبر تعالى عن بعض الناس المشهود عليهم أنهم يقولون لجلودهم« لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ »يعني بالشهادة عليكم« الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ »فإن الأصل في الأعيان الصمت ، فكل عين سوى الله خاصة لا نطق لها ، وما من شيء ينطق إلا والله أنطقه ، واختلف المنطوق به ، فثمّ نطق - أي منطوق به - يتعلق به مديح ، وثمّ منطوق به يتعلق به ذم ، وثمّ منطوق به يتعلق به تجوز لتواطؤ جعله الله في العالم ، وثمّ منطوق به على ما هو المدلول عليه في نفسه ، فهو إخبار عن حقيقة ، وما ثمّ إلا ما ذكرنا ، فنطق المدح شهادة أولي العلم بتوحيد الله ، ونطق الذم قول القائل :إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ، ونطق الحقيقة(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ (ونطق بالتجوز(وَما تَعْمَلُونَ)وما ثمّ قائل إلا الله ، ولا منطق إلا الله ، وما بقي إلا فتح عين الفهم لتنطيق الله ، من حيث أنه لا ينطق إلا بالصواب ، فكل كلام في العالم فهو إما من الحكمة أو من فصل الخطاب ، فالكلام كله معصوم من الخطأ والزلل ، إلا أن للكلام مواطن ومحال وميادين ، له فيها مجال رحب تتسع ميادينه ، بحيث أن تنبو عن إدراك غايتها عيون البصائر ، فيا ولي لا تكن الجلود أعلم بالأمر منك مع دعواك أنك من أهل العقل والاستبصار ، فهذه الجلود علمت نطق كل شيء ، وأن الله منطقه بما شاء ، والجلد من حيث

ص 43

هو شاهد لا يعذب بل متنعم .

[سورة فصلت (41) : آية 22]
وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (22)
أي هذا لا يمكن الاستتار منه ، لأنكم ما تعملون الذي تأتونه من المنكرات إلا بالجوارح ، فإنها عين الآلة تصرفونها في طاعة الله أو معصيته ، فلا يتمكن لكم الاستتار عما لا يمكنكم العمل إلا به ، والجسد كله من حيث طبيعته طائع لله مشفق ، وما من جارحة منه إذا أرسلها العبد جبرا في مخالفة أمر إلهي إلا وهي تناديه : لا تفعل ، لا ترسلني فيما حرّم عليك إرسالي ، إني شاهدة عليك ، لا تتبع شهواتك ؛ وتبرأ إلى الله من فعله بها ، وكل قوة وجارحة فيه بهذه المثابة ، وهم مجبورون تحت قهر النفس المدبرة لهم وتسخيرها« وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ »فمن علم أن كل شيء ناطق ناظر إلى ربه لزمه الحياء من كل شيء حتى من نفسه وجوارحه ، ومن كان مشهده هذا استحى من الموجودات كل الحياء في خلوته كما يستحي في جلوته ، فإنه في جلوة أبدا ، لأنه لا يخلو عن مكان يقلّه وسماء تظلّه ، ولو لم يكن في مكان لاستحى من أعضائه ورعية بدنه ، فإنه لا يفعل إلا بها ، فإنها آلاته وإنه لا بد أن تستشهد فتشهد ، ولا يستشهد الله إلا عدلا« وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ »هذا خطاب لمن يعتقد أن الله لا يعلم الجزئيات خاصة ثم قال :

[سورة فصلت (41) : آية 23]
وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (23)
« وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ »أي يقينكم »الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ »أي أهلككم ، لأنهم ظنوا أن الله لا يعلم كثيرا مما يعملون ، فعاد وبال ذلك عليهم ، فعذبهم الله بأعمالهم ، فظنهم أرداهم لأنهم ظنوا محالا ، وهو نفي العلم عن الله ببعض أعمال العباد« فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ »والخسران ضد الربح ، وهو نقص من رأس المال ، لما كان الأمر تجارة اتصف بالربح والخسران ، قال تعالى :(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ)ويقول الله

ص 44

تعالى : [أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرا] فحسن الظن إذا غلب على العبد أنتج له السعادة ، كما أن سوء الظن بالله يرديه ، ومن جمع همته على ربه أنه لا يغفر الذنب إلا هو ، وأن رحمته وسعت كل شيء ، كان مرحوما بلا شك ولا ريب .

[سورة فصلت (41) : الآيات 24 إلى 26]
فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24) وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (25) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26)
" وَالْغَوْا فِيهِ »حتى لا يسمعوا دعاء ، فلا يرجعون ولا يعقلون ، لأنه بلسانهم نزل .

[سورة فصلت (41) : الآيات 27 إلى 30]
فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (28) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30)
[تنزل الملائكة على البشر :]
« إِنَّ الَّذِينَ قالُوا »من أي شرع كان إذا كان له الزمان والوقت« رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا »على طريقهم الذي شرع الله لهم المشي عليها« تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ »وهذا التنزل هو النبوة العامة لا نبوة التشريع ، تتنزل عليهم بالبشرى« أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا »فإنكم في طريق

ص 45

الاستقامة »وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ »هذه الآية نص في نزول الملك على الأولياء ، وأن نزول الملك ليس من خصائص النبوة فقط ، فإن الله قال في أهل الاستقامة القائلين بربوبية الله إن الملائكة تتنزل عليهم بالبشرى من الله بأنهم من أهل السعادة والفوز وبالأمان ، كل ذلك في الحياة الدنيا ، ومن هنا تتنزل الأملاك على قلوب الأولياء ، وفيه أقول :

إذا نزل الروح الأمين على قلبي *** تضعضع تركيبي وحنّ إلى الغيب

فأودعني منه علوما تقدست *** عن الحدس والتخمين والظن والريب

ففصلت الإنسان نوعين إذ رأت *** يقوم به الصفو النزيه مع الشوب

فنوع يرى الأرزاق من صاحب الغيب *** ونوع يرى الأرزاق من صاحب الجيب

فيعبد هذا النوع أسباب ربه *** ويعبد هذا خالق المنع والسّيب « 1 »

فهذا مع العقل المقدس وصفه *** وهذا مع النفس الخسيسة بالعيب

ولعلك يا ولي ، إذا سمعتني أقول : تنزل الروح الأمين على القلب ، تنكر وتقول : أوحي بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؟ !

لا تفعل أعاذنا الله وإياك من وحي كل شيطان غوي ، إنما هو عبارة في العامة عن اللمة الملكية ، وفي الخاصة عن الحديث ، كما ورد في صحيح الحديث ، وفي القديم والحديث ، قال خير البشر : [إن من أمتي محدّثين ، وإن منهم عمر]

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام في قلب العبد : إنه يتصرف بين لمة الملك ولمة الشيطان ؛ ثم كنّى عن هذا التصريف والتقليب بالإصبعين ، وأضافهما إلى الرحمن ؛ فما زالت الملائكة تتعاهد القلوب ، بأسرار الغيوب ، وهي التي تأمرك بالطاعة ، والتزام السنّة والجماعة ، حين تأمرك الشياطين بلمتها ، فإن لم تسمع لها ، أمرتك بالتسويف أو الموافقة ، وتتنوع تنزلات الغيوب ، بتنوع استعدادات القلوب ، ولا تظن أيها الخليل ، أنني أعني بالروح الأمين جبريل ، فإن الملائكة كلهم أرواح أمناء على ما أودعها الله من أصناف العلوم الموقوفة على التوصيل ، تارة بالإجمال وتارة بالتفصيل ، ولا بد أن يكون صاحب التنزلات الغيبية عارفا بالمتنزلات وأصنافها (الخواطر وأجناسها) ، وعالما بالروائح وأنفاسها ، فلا يتصور إنكار بعد ما قررناه من اللمة والحديث ، إلا من معاند خبيث ، متعنا الله وإياكم بنتائج الأذكار ،

---

(1)السيب : العطاء.

ص 46

وعصمنا وإياكم من أغاليط الأفكار ، وقدّس قلوبنا من دنس التعصب والإنكار ، على ما يظهر من المتقين الأبرار ، من غوامض العلوم والأسرار . فقد قال لهم هؤلاء المبشرون من الملائكة .

[سورة فصلت (41) : آية 31]

نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (31)

" نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا »أي نحن كنا ننصركم في الحياة الدنيا ، في الوقت الذي كان الشيطان يلقي إليكم بلمته العدول عن الصراط الذي شرع لكم المشي عليه ، فكنا ننصركم عليه باللمة التي كنتم تجدونها في وقت التردد بين الخاطرين ، هل يفعل أو لا يفعل ؟

نحن كنا الذين نلقي إليكم ذلك في مقابلة العدو ، ونحن أيضا أولياؤكم« وَفِي الْآخِرَةِ »بالشهادة لكم أنكم كنتم تأخذون بلمتنا وتدفعون بها عدوكم ، فهذه ولايتهم في الآخرة ، وولايتهم أيضا بالشفاعة فيهم فيما غلب عليهم الشيطان في لمته ، فيكون العبد من أهل التخليط فتشفع الملائكة فيه حتى لا يؤاخذ بعمل الشيطان ، فهذا معنى قوله« وَفِي الْآخِرَةِ »

[الإرادة والشهوة :]

" وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ »من شهادتنا لها وشفاعتنا فيها في هذا الموطن« وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ »من الدعة ، وتدل هذه الآية على أن نشأة الآخرة طبيعية مثل نشأة الدنيا ، لأن الشهوة لا تكون إلا في النفوس الطبيعية ، يقول الحق في الآخرة إن لأهل السعادة ما تشتهي نفوسهم ، ولم يقل ما تريد نفوسهم ، والشهوة إرادة ، لكن لما لم يكن كل مراد يشتهى ، لم تكن كل إرادة شهوة ، فإن الإرادة تتعلق بما يلتذ به وبما لا يلتذ به ، ولا تتعلق الشهوة إلا بالملذوذ خاصة ، فأخذوا الأعمال بالإرادة والقصد ، وأخذوا النتائج بالشهوة ، فإن اللّه تعالى كساهم حلة الصفة الربانية ، فأعطى كل واحد منهم أن يقول للشيء كن فيكون ، وهذا سر وجود الغنى في الفقر ، ولا يشعر به كل أحد ، فإنه لا يقول لشيء كن فيكون حتى يشتهيه ، ولهذا قال تعالى :« وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ »فما طلب إلا ما ليس عنده ليكون عنده عن فقر لما طلب ، لأن شهوته أفقرته إليه ودعته إلى طلبه ، ليس ذلك المشتهى طلبه ، وعنده الصفة الربانية التي أوجبت له القوة على إيجاد هذا المشتهى والمطلوب ، فقال له : كن ؛ عن فقر بصفة إلهية ، فكان هذا المطلوب في عينه ، فتناول منه ما لأجله طلب

ص 47

وجوده ، وليس هو كذا في حق الحق ، لأن الله لم يطلب تكوين الموجودات لافتقاره إليها ، لأنها مشهودة له تعالى في حال عدمها ووجودها ، والعبد ليس كذلك ، فإنه فاقد لها حسا في حال عدمها .

[سورة فصلت (41) : آية 32]
نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32)
« نُزُلًا »بشهادتنا وشفاعتنا حيث قبلها ، فأسعدكم الله بها« مِنْ غَفُورٍ »فستركم في كنفه« رَحِيمٍ »وأدخلكم في رحمته .

[سورة فصلت (41) : آية 33]
وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33)
إنما يدعى إلى الله من لم يكن عنده في الصفة التي يدعى إليها ، ولا أبعد من شياطين الإنس والجن ، فما يتقرب المتقرب إلى الله من أهل الدعاء إلى الله ، بأولى من رد من شرد عن باب الله وبعد إلى الله لينال رحمته ، فإن الرسل ما بعثت بالتوحيد إلا للمشركين وهم أبعد الخلق من الله ، ليردوهم إلى الله ويسوقوهم إلى محل القرب وحضرة الرحمة .
[سبب إسلام بعض فصحاء العرب] :
يروى من الاخبار في سبب نزول هذه الآية ، أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من المشركين من فصحاء العرب ، وقد سمع أن الله قد أنزل عليه قرآنا عجز عن معارضته فصحاء العرب ،
فقال له : يا رسول الله هل فيما أنزل عليك ربك مثل ما قلته ؟ فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : وما قلت ؟
فقال الأعرابي قلت :
وحيّ ذوي الأضغان تسبي عقولهم *** تحيتك القربى فقد ترقع النفل « 1 »
وإن جهروا بالقول فاعف تكرما *** وإن ستروا عنك الملامة لم تبل

---

(1)النفل : الأعطيات.

ص 48

فإن الذي يؤذيك منه استماعه *** وإن الذي قد قيل خلفك لم يقل
فأنزل الله تعالى" وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ "الآية
فقال الأعرابي : هذا والله هو السحر الحلال ، والله ما تخيلت ولا كان في علمي أن يزاد أو يؤتى بأحسن مما قلته ، أشهد أنك رسول الله ، والله ما خرج هذا إلا من ذي إلّ . يقول الله تعالى :« ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »من الإحسان يعني قوله(وَأَصْلَحَ)من قوله تعالى(فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ)السيئة« فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ».

[سورة فصلت (41) : آية 35]
وَما يُلَقَّاها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)
« وَما يُلَقَّاها »يعني هذه الصفة« إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا »
[« وَما يُلَقَّاها » :]
وحبسوا أنفسهم عن أن يجازوا المسئ بإساءته إساءة ، ولو علم الناس قدر ما نبهنا عليه في هذه المسألة ، ما جازى أحد من أساء إليه بإساءة ، فما كنت ترى في العالم إلا عفوا مصلحا ، لكن الحجب على أعين البصائر كثيفة ، وليست سوى الأغراض واستعجال التشفي والمؤاخذة ، ولو نظر هذا الناظر لمّا أساء هو على الله ، في رد ما كلفه به ، وركوبه الخطر في ذلك ، وإمهال الحق له وتجاوزه عنه في هذه الدار ، حتى يكون هو الذي يكشف نفسه ، حتى تقام عليه الحدود ويرمي نفسه في المهالك ، كما قال الصاحب : ستر الله عليه لو ستر على نفسه ؛ في المعترف بالزنا ، مثل هذا الأعرابي الذي سبق الإشارة إليه عرفوا إعجاز القرآن ، أترى يا ولي يكون هذا الأعرابي فيما وصف به نفسه بأكرم من الله في تحمل الأذى وإظهار البشر والمخالفات عن العقوبة ، والعفو مع القدرة ، وتهوين ما يقبح على النفس ، والتغافل عمن أراد التستر عنك بما يشينه لو ظهر به ؟ بل الله أكرم منه ، وأكثر تجاوزا ، وعفوا وحلما وأصدق قيلا ، فإن هذا القول من العربي وإن كان حسنا ، فما يدري عند وقوع الفعل ما يكون منه ، والحق صادق القول بالدليل العقلي ، فما يأمر بمكرمة إلا وهي صفته التي يعامل بها عباده ، ولا ينهى عن صفة مذمومة لئيمة إلا وهو أنزه عنها :
إذا رأيت مسيئا يبتغي ضررا *** فداره ثم لا تظهر له خبرا
وادفع أذاه بما توليه من حسن *** وامنن عليه ولا تعلم به بشرا
فإن ذلك إكسير وقوته *** أن تقلب العين والأجساد والصورا

ص 49

يرجع عدوك صديقا فتأمنه *** ولا تخف منه إضرارا ولا ضررا
وما يلقاها إلا صابر وله *** حظ من العلم لمّا أمعن النظرا

[سورة فصلت (41) : الآيات 36 إلى 37]
وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36) وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37)
لما كانت حاجة الخلق إلى الليل ليسكنوا فيه ويتخذوه لباسا يحول بينهم وبين عين الناظرين ، وإلى النهار ليتسببوا فيه في تحصيل أقواتهم ، ورأوا أن الشمس يكون النهار بطلوعها ويكون الليل بغروبها ، نسبوا وجود الليل والنهار إليها فعبدوها ، وهم الشمسية ، فقال تعالى :« وَمِنْ آياتِهِ »الضمير يعود على الله« اللَّيْلُ وَالنَّهارُ »وإن حدث عن الشمس فما هو من آياتها بل هو من آياتي ،
ثم قال« وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ »فإذا كانت عبادتكم للشمس والقمر لما ظهر عنها من علل ، فأنا خالق هذه الآيات دلالات عليّ« لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ »فاسجدوا لله الذي خلقهن ، فجمع الليل والنهار والشمس والقمر في الضمير ،
وغلب هنا التأنيث على التذكير ، لأن الليل والنهار والشمس والقمر منفعلون لا فاعلون ، وجمعهن جمع من يعقل من المؤنث ، ينبه بذلك أيضا على نقص الدرجة التي تنبغي للذكورية ، ولم يقل خلقهم حتى لا يعظم قدرهم بتغليب التذكير عليهم ، فإن العرب تغلب المذكر على المؤنث في كلامها ، تقول :زيد والفواطم خرجوا ،
ولا تقول : خرجن ، فإن الله الذي خلقهن أولى بأن تعبدوه منهن ، لأن مرتبة الفاعل فوق مرتبة المنفعل ، فالحق أولى وأحق أن يعبد ممن له النقص من طريقين ، من كونه مخلوقا ومن كونه مؤنثا .

[سورة فصلت : (41) آية 38]
فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ(38)

ص 50

" فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ »يعني العلماء بالله من الملائكة »يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ »وهم أعلم بالله منكم ، فلو كان ما اتخذتموه من هؤلاء آلهة لكانت الملائكة أولى بالسجود لهن منكم ، لعلمكم أنهم أعلم ، فهم يسجدون لله « وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ » لا يملون من غير سآمة ولا فتور ،
فإن حقيقة نشأتهم تعطي ذلك ، وهي العبادة الذاتية ، وهي عبادة سارية في كل ما سوى الله ، وقد خلق الله الملائكة وهم عمار السماوات والأرض لعبادته ، فما في السماء والأرض موضع إلا وفيه ملك ، ولا يزال الحق يخلق من أنفاس العالم ملائكة ما داموا متنفسين ، فالملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون في غير ليل ولا نهار وهم لا يسأمون ، فكفى بالبشرية نقصا - وفي موضع هذه السجدة خلاف ،
فقيل عند قوله :« إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ »وقيل عند قوله :« لا يَسْأَمُونَ »فمن سجدها عند« إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » جعلها سجدة شرط ، ومن سجدها عند قوله « لا يَسْأَمُونَ »جعلها سجدة نشاط ومحبة ، وهي سجدة الاجتهاد وبذل المجهود فيما ينبغي لجلال الله من التعظيم ، والالتذاذ به .

[سورة فصلت (41) : الآيات 39 إلى 40]
وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40)
هذا وعيد ، أي قوله تعالى« اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ ».

[سورة فصلت (41) : الآيات 41 إلى 42]
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (41) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42)
« تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »على من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . وانظر ما أحكم القرآن وما فيه من العلوم لمن رزق الفهم فيه ، فإنه الوحي المعصوم المقطوع بصدقه ،

ص 51

الذي »لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ »فتصدقه الكتب المنزلة قبله »وَلا مِنْ خَلْفِهِ »ولا ينزل بعده ما يكذبه ويبطله ، فهو حق ثابت ، وكل تنزل سواه في هذه الأمة وقبلها في الأمم فيمكن أن يأتيه الباطل من بين يديه ، فيعثر صاحبه على آية أو خبر صحيح يبطل له ما كان يعتمد عليه من تنزيله ، ويأتيه من خلفه أي لا يعلم في الوقت بطلانه لكن قد يعلمه فيما بعد ، والأنبياء عليهم السلام ما قالت على الله ما لم يقل لها ، ولا أخرجت ذلك من نفوسها ، ولا تعملت فيه ، بل جاءت به من عند الله ،
كما قال تعالى: " تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »بما هو حامد بلسان كل حامد وبنفسه ، وبما هو محمود بكل ما هو مثني عليه وعلى نفسه ، فإن عواقب الثناء تعود عليه.

[سورة فصلت (41) : الآيات 43 إلى 44]

ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (43) وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (44)

« أَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ «العجمي بالوضع بالأصل أقدم من العربية ، ويجمعهما الكلام ، والعبارة المعجمة متقدمة« قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً »أي بيان« وَشِفاءٌ «والشفاء من الرحمة ، وحضرة الشفاء هي التي تنيل أصحاب الأغراض أغراضهم ، وكونه شفاء فكفاتحة الكتاب وآيات الأدعية كلها .

[سورة فصلت (41 : (الآيات 45 إلى 46]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ) 46)

ص 52

" مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ »فنحن نطلب الحق لنا لا له ، فإن الله تعالى غني عن العالمين«
وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ »فلله الحجة البالغة .

[سورة فصلت (41) : الآيات 47 إلى 53]
إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48) لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (50) وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (51)
قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (52)
سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(53)
[» سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ [: « . . .
هذه الآية جمعت الخلق والحق ، لأن كل حقيقة تعقل للحق لا تعقل مجردة عن الخلق ، فهي تطلب الخلق بذاتها ، فلا بد من معقولية حق وخلق ، لأن تلك الحقيقة الإلهية من المحال أن يكون لها تعلق أثري في ذات الحق ، ومن المحال أن تبقى معطلة الحكم ، لأن الحكم لها ذاتي ، فلا بد من معقولية الخلق سواء اتصف بالوجود أو العدم ، وعلى ذلك فللآية عدة

ص 53

وجوه

- **الوجه الأول -** أحالنا الحق في العلم به على الآفاق وهو ما خرج عنا ، وعلى أنفسنا وهو ما نحن عليه وبه ، فإذا وقفنا على الأمرين معا ، حينئذ عرفناه وتبين لنا أنه الحق ، وذكر الحق الآفاق أولا حذرا عليك أن تتخيل أنه قد بقي في الآفاق ما يعطي من العلم ما لا تعطيه نفسك ، وحتى إذا عرفت عين الدلالة منه على الله ، نظرت في نفسك ، فوجدت ذلك بعينه الذي أعطاك النظر في الآفاق ، أعطاك النظر في نفسك من العلم بالله ، فلم تبق لك شبهة تدخل عليك ، لأنه ما ثمّ إلا الله وأنت وما خرج عنك ،

وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :

[من عرف نفسه عرف ربه]

فإنه صلّى الله عليه وسلّم علم أن النفس جامعة لحقائق العالم ، فجمعك عليك حرصا منه ، حتى تقرب الدلالة فتفوز معجلا بالعلم بالله فتسعد ، فإنه لو خرج الإنسان عن غيره ما خرج عن نفسه ، فمن خرج عن نفسه وعن العالم فقد خرج عن الحق ، ومن خرج عن الحق فقد خرج عن الإمكان والتحق بالمحال ، ومن حقيقته الإمكان لا يلحق بالمحال وذلك قوله تعالى :« حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ »

- **الوجه الثاني -** ذكر الله تعالى النشأتين بقوله« سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ »فذكر نشأة صورة العالم بالآفاق ، ونشأة روحه بقوله« وَفِي أَنْفُسِهِمْ »ليعلموا أن الإنسان عالم وجيز من العالم ، يحوي على الآيات التي في العالم (راجع سورة الرعد الآية - 3 -)

وقدّم الله رؤية الآيات في العالم كالذي وقع في الوجود ، فإنه أقدم من الإنسان ، فالذي يريه الله الآيات يريه آيات العالم قبل آيات نفسه لأن العالم قبله ، ثم بعد هذا يريه الآيات التي أبصرها في العالم في نفسه ، فلو رآها أولا في نفسه ثم رآها في العالم ، ربما تخيل أن نفسه رأى في العالم ، فرفع الله عنه هذا الإشكال بأن قدم له رؤية الآيات في العالم« حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ »وتبين له ذلك ، والعالم على صورة الحق ، والإنسان على صورة الحق ، فالإنسان عالم صغير والعالم إنسان كبير ، والآيات هي الدلالات له على أنه الحق الظاهر في مظاهر أعيان العالم ، فظهور الحق فيه هو الذي تبين له بالآيات ، وهو عثورهم على وجه الدليل وحصول المدلول ، ولذلك ذكر تعالى أنه يريهم آيات ، ما جعل ذلك آية واحدة ، فهذه صفة أهل الاعتبار والنظر المأمور به شرعا ، فما يفرغون من نظر في دليل بعد إعطائه إياهم مدلوله ، إلا ويظهر الله لهم دليلا آخر ، فيشتغلون بالنظر فيه إلى أن يوفي لهم ما هو عليه من الدلالة ، فإذا حصلوا مدلوله أراهم الحق دليلا آخر ، هكذا دائما ، ولهذا تمم تعالى في

ص 54

التعريف »أَ وَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ »من الأعيان »شَهِيدٌ »على التجلي فيه والظهور ، يعني أن يكون دليلا على نفسه ، وأوضح الدلالات دلالة الشيء على نفسه بظهوره ، ولذلك ذكر الرؤية ، والآيات للتجلي ، فيتبين لهم أنه الحق ، يعني ذلك التجلي الذي رأوه علامة ، أنه علامة على نفسه ، فيتبين لهم أنه الحق المطلوب

- الوجه الثالث - دليلك على الحق نفسك والعالم ، وهو قوله تعالى« سَنُرِيهِمْ آياتِنا »أي الدلالة علينا« فِي الْآفاقِ » وهو ما خرج عنهم« وَفِي أَنْفُسِهِمْ »وهو ما هم عليه ، وما كثّر الله لنا الآيات في العالم وفي أنفسنا - إذ نحن من العالم - إلا لنصرف نظرنا إليه ، ذكرا وفكرا وعقلا وإيمانا وعلما وسمعا وبصرا ونهى ولبا ،

وما خلقنا إلا لنعبده ونعرفه ، وما أحالنا في ذلك على شيء إلا على النظر في العالم ، لجعله عين الآيات والدلالات على العلم به مشاهدة وعقلا ، فإن نظرنا فإليه ، وإن سمعنا فمنه ، وإن عقلنا فعنه ، وإن فكرنا ففيه ، وإن علمنا فإياه ،

وإن آمنّا فبه ، فهو المتجلي في كل وجه ، والمطلوب من كل آية ، والمنظور إليه بكل عين ، والمعبود في كل معبود ، والمقصود في الغيب والشهود ، لا يفقده أحد من خلقه بفطرته وجبلته ، فجميع العالم له مصلّ ، وإليه ساجد ، وبحمده مسبّح ، فالألسنة به ناطقة ، والقلوب به هائمة عاشقة ، والألباب فيه حائرة ، يروم العارفون أن يفصلوه من العالم فلا يقدرون ، ويرومون أن يجعلوه عين العالم فلا يتحقق لهم ذلك ، فهم يعجزون ، فتكلّ أفهامهم ، وتتحير عقولهم ، وتتناقض عنه في التعبير ألسنتهم« حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ »

فالعالم كله مرآة الحق ، وعندما يتحقق المتحققون بمحبة الله عزّ وجل ، ما يرون في العالم إلا صورة الحق ، ظهر فيه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، فالآيات هنا دلالات أنها مظاهر الحق ، فما ألطف سريان الحق في الموجودات ، فجميع الأشياء مظهر الحق ومجلاه

- الوجه الرابع - « سَنُرِيهِمْ آياتِنا »وهي الدلالات وهو ما هم عليه« فِي الْآفاقِ »
فما ترك شيئا من العالم ، فإن كل ما خرج من العالم عنك فهو عين الآفاق ، وهي نواحيك« وَفِي أَنْفُسِهِمْ »فأبان تعالى لنا في هذه الإحالة على أحسن الطرق في العلم به ،
قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [من عرف نفسه عرف ربه]
وقال : [أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه] والنفس بحر لا ساحل له ، لا يتناهى النظر فيها دنيا وآخرة ، وهي الدليل الأقرب ، فكلما ازداد نظرا ازداد علما بها ، وكلما ازداد علما بها ازداد علما بربه« حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ »لا غيره ، فلو علمت نفسك علمت

ص 55

ربك ، كما أن ربك علمك وعلم العالم بعلمه بنفسه ، وأنت صورته ، فلا بد أن تشاركه في هذا العلم ، فتعلمه من علمك بنفسك ، إذ كان الأمر في علم الحق بالعالم علمه بنفسه ، فمن رحمة الله تعالى بالإنسان أن أشهده أولا نفسه ، فرأى في نفسه قوى ينبغي أن لا تكون إلا لمن هو إله ، فلما حقق النظر بعقله ، ونظر إلى العوارض الطارئة عليه بغير إرادته ، ومخالفة أغراضه ، ووجد الافتقار في نفسه ، علم قطعا أن عين وجوده شبهة ، وأن هذه الصفات لا ينبغي أن تكون إلا لمن هو إله ، فنفى تلك الألوهة التي قامت له من نفسه ، ثم إنه لما أمعن النظر وجد نفسه قائما بغيره ، غير مستقل في وجوده ، فأوجب وأثبت بعد أن نفى ، فقال : لا إله إلا الله ؛

وهو قوله صلّى الله عليه وسلّم : [من عرف نفسه عرف ربه] فانظر ما ألطف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأمته ، وما أحسن ما علمهم وما طرّق لهم ، فنعم المدرس والمطرق ، جعلنا الله ممن مشى على مدرجته حتى التحق بدرجته ، آمين بعزته

- الوجه الخامس - اعلم أن الله لما سوّى جسم العالم ، وهو الجسم الكل الصوري ، في جوهر الهباء المعقول ، قبل فيض الروح الإلهي الذي لم يزل منتشرا غير معين ، إذ لم يكن ثمّ من يعيّنه ، فحيي جسم العالم به ، والعالم إنسان كبير ، وهو ليس كذلك إلا بوجود الإنسان الكامل الذي هو محمد صلّى الله عليه وسلّم ، ومرتبته صلّى الله عليه وسلّم من العالم مرتبة النفس الناطقة من الإنسان الكامل ، الذي حاز درجة الكمال بتمام الصورة الإلهية في البقاء والتنوع في الصور وفي بقاء العالم به ،

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [من عرف نفسه عرف ربه] إذ كان الأمر في علم الحق بالعالم علمه بنفسه ، وهذا نظير قوله تعالى :« سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ " فذكر النشأتين ، نشأة صورة العالم بالآفاق ونشأة روحه بقوله :« وَفِي أَنْفُسِهِمْ »فهو إنسان واحد ذو نشأتين" حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ " للرائين « أَنَّهُ الْحَقُّ » أي أن الرائي فيما رآه الحق لا غيره

- الوجه السادس - لما نصب الحق الأدلة عليه ، نصبها في الآفاق على وجوده خاصة ، فما نابت الآفاق في الدلالة عليه بما جعل فيها من الآيات منابه لو ظهر للعالم بذاته ، فخلق الإنسان الكامل على صورته ، ونصبه دليلا على نفسه لمن أراد أن يعرفه بطريق المشاهدة ، لا بطريق النظر الفكري الذي هو طريق الرؤية في الآفاق ، وهو قوله تعالى :« سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ »ثم لم يكتف بالتعريف حتى أحال على الإنسان الكامل حتى قال :« وَفِي أَنْفُسِهِمْ »وهنا قال :« حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ »أي أن ذلك المرئي هو الحق ، فالآيات دلالات عليه وعلينا ، وكذلك
ص 56

نحن أدلة عليه وعلينا ، فإن أعظم الدلالات وأوضحها دلالة الشيء على نفسه ، فالتدبر من الله عين التفكر من المفكرين منا ، وبالتدبر تميز العالم بعضه من بعضه ومن الله ، وبالتفكر عرف العالم ذلك ،

ودليله الذي فكّر فيه هو عين ما شاهده من نفسه ومن غيره ، فإذا انكشفت الحقائق فلا ريب ولا مين ، وبان صبحها لذي عينين ، كان الاطلاع ، وارتفاع النزاع ، وحصل الاستماع ، ولكن بينك وبين هذه الحال مفاوز مهلكة ، وبيداء معطشة ، وطرق دارسة ، وآثار طامسة ، يحار فيها الخرّيت ، فلا يقطعها إلا من يحيي ويميت ، لا من يحيا ويموت ، فكيف حال من يقاسي هذه الشدائد ويسلك هذه المضايق ؟

ولكن على قدر آلام المشقات يكون النعيم بالراحات ، وما ثم بيداء ولا مفازة سواك ، فأنت حجابك عنك ، فزل أنت وقد سهل الأمر ، فمن علم الخلق علم الحق ، ومن جهل البعض من هذا الشأن جهل الكل ، فإن البعض من الكل فيه عين الكل من حيث لا يدري ، فلو علم البعض من جميع وجوهه علم الكل ، فإن من وجوه كونه بعضا علم الكل ، ولذا كثرت الآيات واتضحت الدلالات ، ولكن الأبصار في حكم أغطيتها ، والقلوب في أكنتها ، والعقول مشغولة بمحاربة الأهواء ، فلا تتفرغ للنظر المطلوب منها« أَ وَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ »

<u>إشارة إلى ما خلق عليه الإنسان الكامل الذي نصبه دليلا أقرب على العلم من طريق الكشف والشهود</u> ، فقال أهل الشهود كفانا ، فما عرف الحق إلا الإنسان الكامل ، فإنه بنفسه عرفه ، وأما الإنسان الحيوان فعرفه بعقله بعد ما استعمل فكره في النظر في آيات الآفاق ، بمشاهدة التنزيه دون التشبيه الذي أعطته المماثلة بالصورة ، وأما الأنبياء عليهم السلام فقد وصفوا الحق بما شهدوه ، وأنزل عليهم بصفات المخلوقين ، لوجود الكمال الذي هو عليه الحق ، وما وصل إلى هذه المعرفة بالله لا ملك ولا عقل إنسان حيواني ، فإن الله حجب الجميع عنه ، وما ظهر إلا للإنسان الكامل ، الذي هو ظله الممدود ، وعرشه المحدود ، وبيته المقصود ، الموصوف بكمال الوجود ، فلا أكمل منه ، لأنه لا أكمل من الحق تعالى ، فعلمه الإنسان الكامل من حيث عقله وشهوده ، فجمع بين العلم البصري الكشفي وبين العلم العقلي الفكري ، فمن رأى أو علم الإنسان الكامل الذي هو نائب الحق فقد علم من استخلفه ، فإنه بصورته ظهر ، وما أنكر الحق من أنكره في الآخرة أو حيث وقع الإنكار ، إلا لما تقدمهم من النظر العقلي ، وقيدوا الحق ، فلما لم يروا ما قيدوه به من الصفات ، عند ذلك أنكروه ،

ص 57

ألا تراهم إذا تجلى لهم بالعلامة التي قيدوه بها عند ذلك يقرون له بالربوبية ، فلو تجلى لهم ابتداء قبل هذا التقييد لما أنكره أحد من خلقه ، فإنه بتجليه ابتداء يكون دليلا على نفسه ، فلهذا قلنا في الإنسان الكامل : إنه نائب عن الحق في الظهور للخلق لحصول المعرفة به على الكمال الذي تطلبه الصورة الإلهية ، والله من حيث ذاته غني عن العالمين .

- **الوجه السابع**– "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا »يعني الآيات المنزلة« فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ »
[ما المقصود بالتفسير الإشاري ؟ أقسام العالم ونظائره في الإنسان :]
فكل آية منزلة لها وجهان : وجه يرى في النفس ووجه يرى فيما خرج عن النفس ، فالوجه الذي في النفس يسميه أهل المعرفة إشارة ، ولا يقولون في ذلك إنه تفسير ، فيقولون : تفسير من باب الإشارة ، وإن كان ذلك حقيقة وتفسيرا لمعانيه النافعة ، ويردون ذلك إلى نفوسهم ، مع تقريرهم التفسير في العموم وفيما نزل فيه من الوجه الثاني كما يعلمه أهل اللسان الذي نزل الكتاب بلسانهم ، فعم به سبحانه عند أهل المعرفة الوجهين فإن العوالم أربعة : العالم الأعلى وهو عالم البقاء ، ثم عالم الاستحالة وهو عالم الفناء ، ثم عالم التعمير وهو عالم البقاء والفناء ، ثم عالم النسب ، وهذه العوالم في موطنين ، في العالم الأكبر وهو ما خرج عن الإنسان ، وفي العالم الأصغر وهو الإنسان ، فأما العالم الأعلى ، فالحقيقة المحمدية وفلكها الحياة ، نظيرها في الإنسان اللطيفة والروح القدسي ، ومنهم العرش المحيط ونظيره من الإنسان الجسم ، ومن ذلك الكرسي ، ونظيره من الإنسان النفس ، ومن ذلك البيت المعمور ، ونظيره من الإنسان القلب ، ومن ذلك الملائكة ونظيرها من الإنسان الأرواح والقوى ، ومن ذلك زحل وفلكه ، ونظيره من الإنسان القوة العلمية والنفس ، ومن ذلك المشتري وفلكه ، نظيرهما القوة الذاكرة ومؤخر الدماغ ، ومن ذلك الأحمر وفلكه ، نظيرهما القوة العاقلة واليافوخ ، ومن ذلك الشمس وفلكها ، نظيرهما القوة المفكرة ووسط الدماغ ، ثم الزهرة وفلكها نظيرهما القوة الوهمية والروح الحيواني ، ثم الكاتب وفلكه نظيرهما القوة الخيالية ومقدم الدماغ ، ثم القمر وفلكه نظيرهما القوة الحسية والجوارح التي تحس ، فهذه طبقات العالم الأعلى ونظائره من الإنسان - وأما عالم الاستحالة - فمن ذلك كرة الأثير وروحها الحرارة واليبوسة ، وهي كرة النار ، ونظيرها الصفراء وروحها القوة الهاضمة ، ومن ذلك الهواء وروحه الحرارة والرطوبة ، ونظيره الدم وروحه القوة الجاذبة ، ومن ذلك الماء وروحه البرودة والرطوبة ، نظيره البلغم وروحه القوة الدافعة ، ومن ذلك التراب وروحه البرودة

ص 58

واليبوسة ، نظيره السوداء وروحها القوة الماسكة ، وأما الأرض فسبع طباق ، أرض سوداء ، وأرض غبراء ، وأرض حمراء ، وأرض صفراء ، وأرض بيضاء ، وأرض زرقاء ، وأرض خضراء ، نظير هذه السبعة من الإنسان في جسمه ، الجلد والشحم واللحم والعروق والعصب والعضلات والعظام

- **وأما عالم التعمير** - فمنهم الروحانيون ، نظيرهم القوى التي في الإنسان ، ومنهم عالم الحيوان نظيره ما يحس من الإنسان ، ومنهم عالم النبات ، نظيره ما ينمو من الإنسان ، ومن ذلك عالم الجماد ، نظيره ما لا يحس من الإنسان - وأما عالم النسب - فمنهم العرض نظيره الأسود والأبيض والألوان والأكوان ،

ثم الكيف نظيره الأحوال مثل الصحيح والسقيم ، ثم الكم نظيره الساق أطول من الذراع ، ثم الأين نظيره العنق مكان للرأس ، والساق مكان للفخذ ، ثم الزمان نظيره حركت رأسي وقت تحريك يدي ،

ثم الإضافة نظيرها هذا أبي فأنا ابنه ، ثم الوضع نظيره لغتي ولحني ، ثم أن يفعل نظيره أكلت ،

ثم أن ينفعل نظيره شبعت ، ومنهم اختلاف الصور في الأمهات كالفيل والحمار والأسد والصرصر ، نظير هذا القوة الإنسانية التي تقبل الصور المعنوية من مذموم ومحمود ، هذا فطن فهو فيل ، هذا بليد فهو حمار ، هذا شجاع فهو أسد ، هذا جبان فهو صرصر أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ، وهو إحسان الله ، فهو رؤية عباده في حركاتهم وتصرفاتهم ، فشهوده لكل شيء هو إحسانه ، فإنه بشهوده يحفظه من الهلاك

- **خلاصة وتحقيق** - لما تحير العارفون فيه فيقولون في وقت : هو ، وفي وقت : ما هو . وفي وقت : هو ما هو ، فلا تستقر لهم فيه قدم ، ولا يتضح لهم إليه طريق أمم ، لأنهم يشهدونه عين الآية والطريق ،

فتحول هذه المشاهدة بينهم وبين طلب غاية الطريق ، إذ لا تسلك الطريق إلا إلى غاياتها ، والمقصود معهم وهو الرفيق ، فلا سالك ولا سلوك ،

فتذهب الإشارات وليست سواه ، وتطيح العبارات وما هي إلا إياه ، فلا ينكر على العارف ما يهيم فيه من العالم ، وما يتوهمه من المعالم ، ولولا أن هذا الأمر كما ذكرناه ، ما أحب نبي ولا رسول أهلا ولا ولدا ، ولا آثر على أحد أحدا ، وذلك لتفاضل الآيات ،

وتقلب العالم هو عين الآيات ، وليست غير شؤون الحق التي هو فيها ، وقد رفع بعضها فوق بعض درجات ، لأنه بتلك الصورة ظهر في أسمائه ، فعلمنا تفاضل بعضها على بعض بالعموم والخصوص ، فهو الغني عن العالمين ، وهو القائل(وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)فأين الخالق من الغني ؟

ص 59

وأين القابض منه والمانع ؟
وأين العالم في إحاطته من القادر والقاهر ؟
فهل هذا كله إلا عين ما وقع في العالم ، فما تصرف رسول ولا عارف إلا فيه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وذلك لأن من الناس من في أذنه وقر وعلى بصره غشاوة ، وعلى قلبه قفل وفي فكره حيرة ، وفي علمه شبهة وبسمعه صمم ، وو الله ما هو هذا كله عند العارف إلا للقرب المفرط(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ)ولهذا هام في العالم العارفون ، وتحقق بمحبته المتحققون ، ولهذا قلنا فيه في بعض عباراتنا : إنه مرآة الحق ، فما رأى العارفون فيه إلا صورة الحق ، وهو سبحانه الجميل ، والجمال محبوب لذاته ، والهيبة له في قلوب الناظرين إليه ذاتية ، فأورث المحبة والهيبة .

[سورة فصلت (41) : آية 54]
أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)
« أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ »فإنه تعالى أبان لنا في هذه الإحالة عن أحسن الطرق في العلم به ، فتبين لنا أنه الحق ، وأنه على كل شيء شهيد ، وقال في حق من عدل عن هذا النظر بالنظر فيه تعالى ابتداء« أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ »فلو رجعوا إلى ما دعاهم إليه من النظر في نفوسهم ، لم يكونوا في مرية من لقاء ربهم [من عرف نفسه عرف ربه] ثم تمم وقال :« أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ »
- **الوجه الأول** - وأراد هنا شيئية الوجود لا شيئية الثبوت ، فإن الأمر هناك لا يتصف بالإحاطة ، فكل ما سوى الله لا يمكنه الخروج من قبضة الحق ، فهو موجدهم ، فارجع بالنظر والاستقبال إلى ما منه خرجت ، فإنه لا أين لك غيره ، وانظر فيه تجده محيطا بك مع كونه مستقبلك ، فقد جمع بين الإطلاق والتقييد
- **الوجه الثاني** - لما كان ظهور الحق في الآيات وفي الأنفس هو الذي تبين له بالآيات تمم وقال :« إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ »من العالم« مُحِيطٌ »والإحاطة بالشيء تستر ذلك الشيء ، فيكون الظاهر المحيط لا ذلك الشيء ، وصار ذلك الشيء وهو العالم في المحيط كالروح للجسم ، والمحيط كالجسم للروح ، الواحد شهادة وهو المحيط الظاهر والآخر غيب وهو المستور بهذه الإحاطة وهو عين العالم ، ولما كان الحكم للموصوف بالغيب في الظاهر الذي هو الشهادة ، وكانت أعيان شيئيات العالم على استعدادات في أنفسها ، حكمت على الظاهر فيها بما تقتضيه حقائقها ، فظهرت صورها في المحيط وهو الحق ، فقيل عرش وكرسي وأفلاك

ص 60

وأملاك وعناصر ومولدات وأحوال تعرض ، وما ثم إلا الله
- **الوجه الثالث** -« أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ »أي له في كل شيء إحاطة بما في ذلك المعلوم عليه ، إذا كانت الباء بمعنى في.

(42) سورة الشّورى مكيّة

[سورة الشورى : (42) الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) عسق (2) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4)
تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5)

[استغفار الملائكة لمن في الأرض ودلالته على شمول الرحمة :]

« وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ »
قال صلّى الله عليه وسلّم : [كل أمر لا يبدأ فيه بحمد الله - أو قال بذكر الله - فهو أجذم] أي مقطوع عن الله ، وإذا كان مقطوعا عن الله فإن شاء قبله وإن شاء لم يقبله ، وإذا بدئ فيه بذكر الله فكان موصولا به غير مقطوع ، أي ليس بأجذم ، فذكر الله مقبول ، فالموصول به مقبول بلا شك ، فمن علم الملائكة أنهم يسبحون بحمد ربهم استفتاحا إيثارا لجناب الله ، والرب المصلح ، ولا يرد الإصلاح إلا على فساد ، وما ذكر عنهم أنهم يسبحون بحمد غيره من الأسماء الإلهية ، لعلمهم أن المتوجه على العالم إنما هو الاسم الرب ، إذ كان الغالب على عالم الأرض سلطان الهوى ، وهو الذي يورث الفساد ، ثم بعد تسبيحهم بحمد ربهم« يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ »مطلقا ، من غير تعيين مؤمن من غيره ، فإن الأرض جامعة ، فدخل المؤمن وغيره في هذا الاستغفار ، فهذا الصنف من الملائكة أنزل المغفرة موضعها ، فإن الله ما علّق المغفرة إلا بالذنب حيث علقها ، ما قالوا مثل الصنف الآخر من الملائكة الذي حكى الله عنهم أنهم يستغفرون للذين تابوا ، فتنوعت مشارب الملائكة ، كما قالوا :(وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ)فلله ملائكة يستغفرون لمن في الأرض ، ولله ملائكة يستغفرون للذين آمنوا ، وجعل الله الاضطرار في العباد ، فإذا

ص 61

رجعوا إلى الحق في حوائجهم من غير توبة التقريب كما قال :(إِنَّكُمْ عائِدُونَ (في القرب ، فعادوا كما قال ، فتعاين الملائكة ذلك الرجوع بالصورة ، فيستغفرون لمن في الأرض فيجاب الدعاء ، فإذا كان الرجوع بتوبة التقريب استغفر لهم الذين يستغفرون للذين آمنوا ، فما أعم الرحمة في الدنيا وما أخصها في الآخرة ، لله مائة رحمة جعل منها واحدة في الدنيا ، فعمت هذا العموم على الانفراد ، ورحم الناس بها بعضهم بعضا ، فإذا كان يوم القيامة أضاف هذه الرحمة إلى التسعة والتسعين ورحم بها الخلق ، ووقعت بها الشفاعة وما عمّت هذا التعميم ، فانظروا هذا المعنى وتحققوه ، وكل الناس يحار فيه إلا من عرف أن التصرف للرحمة ، وغيرها إنما هو بحكم الموطن لا بنفسها ، فهنا السر الذي يحصل به العلم ، ثم إن الله بشر أهل الأرض بقبول استغفار الملائكة بقوله :« أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »ولم يقل الفعال لما يريد ، ومن هذا استروحنا مآل عباد الله إلى الرحمة وإن سكنوا النار ، فلهم فيها رحمة لا يعلمها غيرهم ، وربما تعطيهم تلك الرحمة أن لو شموا رائحة من روائح الجنة تضرروا بها ، كما تضر رياح الورد والطيب بأمزجة المحرورين .

[سورة الشورى (42) : الآيات 6 إلى 7]
وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6) وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7)
« وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ »الجمع ظهر في ثلاث مواطن ، في أخذ الميثاق ، وفي البرزخ بين الدنيا والآخرة ، والجمع في البعث بعد الموت ، وما ثمّ بعد هذا الجمع جمع يعم ، فإنه بعد القيامة كل دار تستقل بأهلها ، فلا يجتمع عالم الإنس والجن « 1 » بعد هذا الجمع أبدا ، فإذا ظهر الحق لعباده فتولى الفصل بينهم بحكمه بنفسه - وهو العزيز العليم - فإذا فصل وحكم وعدل وأفضل ، جعلهم في الفصل فريقين »فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ »
وهو الفريق السعيد في دار كرامته ، دار الثواب والنعمة ، وقيّم تلك الدار رضوان ، فإنها دار رضوان

---

(1)يعني مؤمنيهم وكافريهم.

ص 62

"وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ »وهو سجن الرحمن ، دار العذاب والنقمة ، وقيّمها مالك ومعناه الشديد ، يقال ملكت العجين إذا شددت عجنه .

[سورة الشورى (42 : (الآيات 8 إلى 9]

وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (8) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9)

[نسبة الولاية إلى الحق تعالى :]

« فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ »الولي هو الناصر . واعلم أن نعت الولاية لا ينسبها الله لنفسه إلا بتعلق خاص للمؤمنين خاصة والصالحين من عباده ، وذلك من حيث أنّها النصر ، ولكن الولاية من الله - من حيث هي ولاية - عامة في مخلوقاته من حيث ما هم عبيده ، وبهذه الولاية تولاهم في الإيجاد ، ومن ذلك المشركون ، فمن عموم ولايته أن تولاهم بالوجود في أعيانهم ، وبحفظ الوجود عليهم ، وبتمشية أغراضهم ، وتولاهم بما رزقهم مما فيه قوام عيشهم ومصالحهم عموما ، ووفق من وفق منهم بولايتهم لوضع نواميس جعلها في نفوسهم من غير تنزل ، الذي هو الشرع ، فوضعها حكماء زمانهم وذوو الرأي منهم العلماء بما يصلح العالم ، فتولاهم سبحانه بأن قرر في أنفسهم ما ينبغي أن تكون به المصلحة لهم ، مراعاة لكل جزء منهم ، فإن كل جزء من العالم مسبح لله تعالى من كافر وغير كافر ، فإن أعضاء الكافر كلها مسبحة لله ، ولهذا يشهد عليه يوم القيامة جلده وسمعه وبصره ويده ورجله ، غير أن العالم لا يفقهون هذا التسبيح ، وسريان هذه العبادة في الموجودات ، وهذا من توليه سبحانه ، ثم إنه تولاهم بإنزال الشرائع الصادقة المعرّفة بمصالح الدنيا والآخرة ، ثم تولاهم بما أوجد من الرحمة فيهم التي يتعاطفون بها بعضهم على بعض ، في الوالدين بأولادهم في تربيتهم ، وبالأولاد على والديهم من البر بهم والاعتماد عليهم ، وبما جعل من شفقة المالكين على مماليكهم ، وعلى ما يملكونه من الحيوانات ، وتولى الحيوان بما جعل فيهم من عطف الأمهات على أولادها في كل حيوان يحتاج الولد إلى تدبير أمه ، وتولاهم بالأغراض ليهون عليهم المشقات ، ويسمى مثل هذا تسخيرا ، فيخرج الشخص لنيل غرضه فيما يزعم ، وهو من حيث التولي الإلهي ما خرج إلا في حق الغير ، وهو يتوهم أنه في حق نفسه ، وذلك

كله لأنه تعالى جعل الوجود كله ناطقا بتسبيحه ، عالما بصلاته ، فلم يتولّ الله إلا المؤمنين ، وما ثمّ إلا مؤمن ، والكفر عرض عرض للإنسان بمجيء الشرائع المنزلة من أجل التعريف بما هي الدار الآخرة عليه

[نصيحة : الولي الله ، فلا تجالس غيره]

-**نصيحة -** الولي الله ، فلا تجالس غيره ، ولا تتحدث إلا معه ، فإنه يسمع عباده ، فأسمع الله ، فإنك إن أسمعت غيره فقد أسأت الأدب معه ، ألا ترى أن الإنسان إذا أقبل على كلامه جليسه فأسمع غيره أخجله ؟ وإذا أخجله لم يأمن غائلته ، وأهون غائلته أن يقطع به في الموضع الذي يحتاج إليه فيه .

[سورة الشورى (42) : آية 10]

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (10)

من رحمة الله بعباده أن جعل حكم ما اختلفوا فيه إلى الله ، من حيث أنّ الأسماء الإلهية هي سبب الاختلاف ، ولا سيما أسماء التقابل ، يؤيد ذلك قوله« ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي »لأنه ليس غير أسمائه فإنه القائل(ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ)ولم يقل بالله ولا بالرحمن ، فجعل الاسم عين المسمى هنا ، كما جعله في موضع آخر غير المسمى ، فلما قال« ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي »والإشارة بذا إلى الله المذكور في قوله« فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ »فلو لم يكن هنا الاسم عين المسمى في قوله الله لم يصح قوله ربي والخلاف ظهر في الأسماء الإلهية فظهر حكم الله في العالم به ، فيحكم على الخلاف الواقع في العالم بأنه عين حكم الله ، ظهر في صورة المخالفين.

[سورة الشورى (42) : آية 11]

فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)

[أنزل الله تعالى الشرائع على أمزجة العالم المختلفة ليعم الفضل الجميع :]

اعلم أنه لما اختلفت الأمزجة كان في العالم العالم والأعلم ، والفاضل والأفضل ، فمنهم من عرف الله مطلقا من غير تقييد ، ومنهم من لا يقدر على تحصيل العلم بالله حتى يقيده بالصفات التي لا توهم الحدوث وتقتضي كمال الموصوف ، ومنهم من لا يقدر على العلم بالله حتى يقيده بصفات الحدوث ، فيدخله تحت حكم ظرفية الزمان وظرفية المكان والحد

64

والمقدار ، ولما كان الأمر في العلم بالله في العالم في أصل خلقه وعلى هذا المزاج الطبيعي ، أنزل الله الشرائع على هذه المراتب ، حتى يعمّ الفضل الإلهي جميع الخلق كله ، فأنزل« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »وهو لأهل العلم بالله مطلقا من غير تقييد ،
وأنزل قوله تعالى :(أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)(وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ)(وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)و(اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)و(فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ) (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)
وهذا كله في حق من قيده بصفات الكمال ، وأنزل تعالى من الشرائع(الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى)(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ)(وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ)و(تَجْرِي بِأَعْيُنِنا)و(لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا)
وهذا في حق من قيده بصفات الحدوث ، فعمت الشرائع ما تطلبه أمزجة العالم ، ولا يخلو المعتقد من أحد هذه الأقسام ، والكامل المزاج هو الذي يعم جميع هذه الاعتقادات ، ويعلم مصادرها ومواردها ولا يغيب عنه منها شيء ، فإن ذات الحق وإنّيته مجهولة عند الكون ، ولا سيما وقد أخبر جل جلاله عن نفسه بالنقيضين في الكتاب والسنة ،
[التنزيه والتشبيه بقوله تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ : «]
فشبّه في موضع ونزه في موضع ب« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »، وشبه بقوله »وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »فتفرقت خواطر التشبيه وتشتت خواطر التنزيه ، فإن المنزه على الحقيقة قد قيده وحصره في تنزيهه وأخلى عنه التشبيه ، والمشبّه أيضا قيده وحصره في التشبيه وأخلى عنه التنزيه ، والحق في الجمع بالقول بحكم الطائفتين ، فلا ينزه تنزيها يخرج عن التشبيه ، ولا يشبّه تشبيها يخرج عن التنزيه ، فلا تطلق ولا تقيد ، لتميّزه عن التقييد ، ولو تميّز تقيّد في إطلاقه ، ولو تقيّد في إطلاقه لم يكن هو ، فهو المقيّد بما قيّد به نفسه من صفات الجلال ، وهو المطلق بما سمى به نفسه من أسماء الكمال ، وهو الواحد الحق الجلي الخفي ، لا إله إلا هو العلي العظيم ، وتميزه تعالى إنما هو بأنه لا يتصف بصفات المحدثات على الوجه الذي يتصف به المحدث الممكن ، لأنه ليس كمثله شيء ، فلا يعرف العبد ربه إلا بالسلوب ، فإن الله تعالى لا يتصف بالحصر ولا بالحد ، ولا يتميز بذلك عندنا ،
فقوله تعالى: " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »ثناء بالتنزيه للذات ، فهو كمال ذاتي ، فإن للذات الغنى المطلق عن العالمين ،" وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »ثناء بالكمال الإلهي لطلب المسموع والمبصر ، فإن الكمال الإلهي بالفعل هو في نفوذ الاقتدار في المقدورات ، ونفوذ الإرادة في المرادات ، وظهور أحكام الأسماء الإلهية ، والكمال الذاتي للذات الغنى المطلق عن هذا كله ، يقول

ص 65

بعض العلماء في التوحيد : إن الحق يعطي المناسبة من وجه ولا يعطي المناسبة من وجه ، ويقول جماعة من العلماء بنفي المناسبة جملة واحدة ، ومذهبنا أنا بحسب ما يلقي إلينا في حق نفسه ، فإن خاطبنا بالمناسبة قلنا بها حيث خاطبنا ، لا نتعدى ذلك الموضع ونقتصر عليه ، وإن خاطبنا برفع المناسبة رفعناها في ذلك الموطن الذي رفعها فيه لا نتعداه ، فيكون الحكم له لا لنا ، هذا هو الذي نعتمد عليه ، فقوله« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »على زيادة الكاف رفع للمناسبة الشيئية ، لأنه ما ثمّ موجود لا يغيب له عين ولا يحصره أين إلا الله ، وتمام الآية « وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » إثبات للمناسبة ، والآية واحدة والكلمات مختلفة ، فلا نعدل عن هذه المحجة فهو أقوى حجة ،

قال تعالى :« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » فنفى ، فإن الحقائق ترمي بالتشبيه ، لأن الجوهر ما هو عين الصورة ، فلا حكم للتشبيه عليه ،

ثم قال :« وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »فأثبت التشبيه إثباتا للصور ، والآية تقتضي عموم الإثبات في عين النفي وفيما بعده إذا جعلت الكاف للصفة ، ويؤيد هذا النظر الخبر ،

وهو قوله عليه الصلاة والسلام : [إن الله خلق آدم على صورته] ونفى مماثلته في حال اتصافه بهذا الوصف ، فالحق سبحانه هو الواحد الكثير ،

فأين التنزيه من التشبيه والآية واحدة ؟

وهي كلامه عن نفسه على جهة التعريف لنا بما هو عليه في ذاته ، ففصل بليس وأثبت بهو ، فهو الواحد بذاته ، الكثير بأسمائه وصفاته ،

وقد وصف الله نفسه بالتعجب والضحك والفرح والتبشبش وأشباه هذه الصفات الخلقية ، **ووصف نفسه بليس كمثله شيء فيها** ، فمن الأدب أن تنسب إليه تعالى ما نسبه إلى نفسه وإن ردّته الأدلة العقلية ،

فإن الدليل العقلي أيضا قد علّمنا أن بعض الكون لا يعرفه على حد ما يعرف نفسه ، فهو المجهول المعروف ،

لا إله إلا هو ، فإن النعوت التي أحالتها الأدلة العقلية ، وجاءت بصحتها الألفاظ النبوية والأخبار الإلهية ، يبطل اتصاف الحق بها من حيث حقيقة ذلك الوصف للممكن ،

فلم يبق إلا الاشتراك في اللفظ ، إذ قد بطل الاشتراك في الحد والحقيقة ، فلا يجمع صفة الحق وصفة العبد حد واحد أصلا ، فبطل ما قالوه وطردوه شاهدا وغائبا ، فلم يكن قولنا في الله إنه عالم على حد ما نقول في الممكن الحادث إنه عالم ،

من طريق حد العلم وحقيقته ، فإن نسبة العلم إلى الله تخالف نسبة العلم إلى الخلق الممكن ، ولو كان عين العلم القديم هو عين العلم المحدث لجمعهما حدّ واحد ذاتي ، أعني العلمين ، واستحال عليه ما يستحيل على مثله من حيث ذاته ، ووجدنا الأمر

ص 66

على خلاف ذلك ، وعلى ذلك نقول في هذه الآية« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »إنها أصل في التنزيه لأهله ، وأصل في التشبيه لأهله ، من وجه التنزيه نزه سبحانه نفسه أن يشبهه شيء من المخلوقات ، أو يشبه شيئا بقوله« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »فأعلم بأنه لا يستوي الحق والخلق »وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »فأبهم ، فحيّر العقول والفهوم بين الإعلام والإبهام ، ففي هذه الآية نفى التشبيه المفهوم منه على زيادة الكاف أو فرض المثل ، إذ كان لا يستحيل فرض المحال ، فإن بعض العلماء يرى في ذلك أنه لو فرض له مثل لم يماثل ذلك المثل ، فأحرى أن يماثل هو في نفسه ، فما حظ العقل من الشرع مما يستقل به دليله إلا« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »على زيادة الكاف ، لا على إثباتها صفة ، ومن وجه التشبيه فإن الكاف كاف الصفة ما هي زائدة كما يرى بعضهم ، وتدل عند بعضهم على نفي المثل عن المثل المحقق ،

وهو معنى قوله صلّى الله عليه وسلّم : [إن الله خلق آدم على صورته] في بعض وجوه محتملات ، فجعله مثلا ثم نفى أن يماثل ذلك المثل فقال« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »أي ليس مثل مثله شيء ، فالكاف في« كَمِثْلِهِ »على وجهين : وقتا على زيادة الكاف ، ووقتا على كونها صفة لفرض المثل ، وهو مذهبنا والحمد لله ، فإذا كان حرف الكاف زائدا كان المقصود منه نفي مثلية المرتبة ،

قال الله عزّ وجل :(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ)فما له مثل ، إذ لو كان له مثل لم يصح نفيه ، فإنه ما نفى إلا المرتبة ، ما نفى مثلية الذات ، وما عيّن التفاضل في الأمثال إلا المراتب ، فلو زالت لزال التفاضل ، فمن ذاته يقبل الصور ، ومن مرتبته لا يقبل المثل ، وإذا كانت الكاف للصفة فمعناه ليس مثل مثله شيء ، فنفى وأثبت ،

وهو قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [إن الله خلق آدم على صورته] فظهر في الوجود صورتان متماثلتان ، كصورة الناظر في المرآة ، ما هي عينه ولا هي غيره ، لكن حقيقة الجسم الصقيل مع النظر من الناظر أعطى ما ظهر من الصورة ، ولهذا تختلف باختلاف المرآة لا بالناظر ، فالحكم في الصورة الأكبر لحضرة المجلى لا للمتجلي ،

كذلك الصورة الإنسانية في حضرة الإمكان ، لما قبلت الصورة الإلهية لم تظهر على حكم المتجلي من جميع الوجوه ، فحكم عليها حضرة المجلى وهي الإمكان ، بخلاف حكم حضرة الواجب الوجود لنفسه ، فهذا المقدار والشكل الذي لا يقبله الواجب ، وهو الناظر في هذه المرآة ، فهو من حيث حقائقه كلها هو هو ، ومن حيث مقداره وشكله ما هو هو ، وإنما هو من أثر حضرة الإمكان فيه ، الذي هو في

ص 67

المرآة تنوع شكلها ، في نفسها ومقدارها في الكبر والصغر ، فقال تعالى في حق الإنسان الكامل« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »أي ليس مثل مثله شيء ، أي من هو مثل له بوجوده على صورته لا يقبل المثل ، أو لا يقبل الموجود على الصورة الإلهية المثال ، فعلى اعتبار الكاف زائدة يكون نفي المثلية عن الحق من جميع الوجوه ، لما أثر المحل المتجلى فيه في الصورة الكائنة ، من الشكل والمقدار الذي لا يقبله المتجلي من حيث ما هو عليه في ذاته وإن ظهر به ، فذلك حكم عين الممكن في وجوده ،

[المثلية اللغوية والعقلية :]

وعلى اعتبار الكاف كاف التشبيه نفى المثلية عن الصورة التي ظهرت ، فلم يماثلها شيء من العالم من جميع وجوه المماثلة ، فإن المثلين اللغويين لا يلزم من وصف كل واحد منهما بالمثلية لصاحبه المماثل له الاشتراك في صفات النفس ، لأن المثلية لغوية وعقلية ، فالعقلية هي التي يشترك بها في صفات النفس ، واللغوية بأدنى شبه بأمر ما يكون مثلا له في ذلك الأمر ، فيكون للمثل حكم مثله من حيث ما هو مثله فيه وقابل له ، وما ثمّ بين العبد الإنسان الكامل والحق في« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »إلا قبول لجميع الأسماء الإلهية التي بأيدينا ، وبها صحت خلافته وفضل على الملائكة ، فالخليفة إن لم يظهر فيمن هو خليفة عليه بأحكام من استخلفه وصورته في التصرف فيه ، وإلا فما هو خليفة له ،

فالمثلية الواردة في القرآن لغوية لا عقلية ، لأن المثلية العقلية تستحيل على الله تعالى ، إذ دل دليل الشرع على أنه« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »من جميع الوجوه ، فكل ما تصورته أو مثّلته أو تخيلته فهو هالك ، والله بخلاف ذلك ، هذا عقد الجماعة إلى قيام الساعة ، وأما الدليل العقلي فلا يقول بالمثلية أصلا ،

فقال تعالى: " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ " فأتى بكاف الصفة في نفي المماثلة عن المثل المفروض ، ولها عموم النفي حين تقترن بها حال مخصصة ، إذ قصارى الناظر في ذلك التوقف حتى يرى ما تعطيه قرائن الأحوال فيها ، وهذه آية صاحب الدليل العقلي ، لكنه جاء هذا النفي والإثبات للمثلية باللسان العربي ، والمماثلة في اللسان على غير المماثلة التي اصطلح على إطلاقها العقلاء أرباب النظر ، فيحتاج العاقل أن يتكلف دليلا على أن الحق أراد المماثلة العقلية ، ولا دليل يطلب من صاحب اللسان فيها ، فإنه بلسانه نزلت وعلى اصطلاحه ، ومثل هذا لا يدرك بالقياس ولا بالنظر ، فإنه يرجع إلى قصد المتكلم ، ولا يعرف ما في نفس المتكلم إلا بإفصاحه عما في نفسه ،

وقد قال تعالى :(وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ) والعربي لا يعرف المماثلة العقلية ولا ينكرها إذا

ص 68

سمعها ، وكل لفظ ورد في وصف الله تعالى معرى عن لفظة المثل وحرف كاف الصفة ، فقد تعرى عن أدوات التشبيه ، ولحق بالألفاظ المشتركة . واعلم أن كاف الصفة لا فرق بينها وبين لفظة المثل ، وإن كان لهذا الحرف مواطن من جملتها موطن الصفة ، فإذا وردت في موطن الصفة في اللسان وهو أن تقول : زيد كعمرو ، فإن العرب لا تريد إلا الإفادة ، فمن المحال أن تجيء بمثل هذا وتريد أنه يماثله في الإنسانية - وهي المماثلة العقلية - وإنما تريد أنه كعمرو في الكرم مثلا ، أو في الشجاعة أو في الفصاحة أو في العلم أو في الحسن وما أشبه ذلك ، مما دل عليه الحال بقرينته عند السامع ، لتقع له الفائدة ، فإذا قال »: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »فلا بد أن يقول فيما ذا ؟

أو يدل عليه قرينة الحال في المجلس ، ولا سيما وقد أردف نفي المماثلة بقوله :« وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »وهاتان صفتان محققتان في المخلوق ، فلا بد أن تحقق ما نفى ، وأن يعلم هل هي كاف الصفات أو غيرها مما يطلبه اللسان منها بما وضعها له ؟ فإن كانت كاف صفة هنا فما نفى إلا مماثلة المثل أن يماثل ،

فأثبت المثل له بالهاء التي في« كَمِثْلِهِ »وهي ضمير يعود على الحق ، ومعلوم أن المثل ليس عين مماثله ، ولو كان عين من هو مثل له ما كان مثلا ، لا عقلا ولا شرعا ، فوجود المثل عين إثبات الغير بلا شك ، فإن عمت المماثلة فهي العقلية بلا شك ولا ينكرها اللسان ،

وإن خصت فهي لما خصت له حقيقة لا مجازا ، مثل زيد كالبحر لاتساعه في العلم أو في الجود ،

ومن العلماء من جعل الكاف في« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »زائدة ، فإن كانت جاءت لمعنى فما هي زائدة ، فإن ذلك المعنى الذي سيقت له لا يظهر ولا يحصل إلا بها في نفس المخاطب ، فانتفى أن تكون زائدة ، فإن الله ما خلق شيئا باطلا ولا عبثا ، والزائد لغير معنى إنما هو عبث ، والعرب من المحال أن تجيء بزائد لغير معنى ،

فإذا جاءت بهذا الحرف جاءت به لمعنى ، فهو لما جاءت به ، فإن المتكلم لا يجيء بالكلمة فيما يقوله النحوي زائدة إلا لقصد التوكيد ، فإذا زالت زال التوكيد ، فإذا ما هي زائدة ،

فإن الكلام المؤكد ما استقل دونها وما يقوم مقامها ، فإذا أكد تعالى نفي المثل فما هي زائدة ،

فجعل تأكيد نفي المثل في مقابلة من أثبت المثل فرضا ووجودا في زعمه ، والصحيح في هذه الكاف أنها كاف الصفة بقرائن الأحوال ،

أي لو فرض له مثل لم يماثل ذلك المثل ، فأحرى أن لا يماثل ، فهو أبلغ في المعنى في نفي المماثلة في اللسان ،

ثم نقول في قولنا بقرائن الأحوال لكون الحق ما وصف الإنسان الكامل إلا بما

ص 69

وصف به نفسه ، فنفى مماثلة الإنسان الكامل أن يماثله شيء من العالم ، ويعضد هذا قوله إنه خلق آدم على صورته ، فهذا خبر يقع به الأنس للنفس ، فما في العالم زائد لغير معنى ، لأنه ما فيه عبث ولا باطل ، بل كل ما فيه مقصود لمعنى ،
فأتى بكاف الصفة - ما هي الكاف زائدة كما ذهب إليه بعض الناس ممن لا معرفة له بالحقائق حذرا من التشبيه - فنفى أن يماثل المثل غير من هو مثله ، فنفي المثل عن مثل المماثل ، نفي المثل عن المماثل ، أي ليس مثل مثله شيء ، وما مثله إلا من خلق على صورته ، فنفى سبحانه أن يماثل المثل فهو أحق .

واعلم أنه لا جامع بين العبودية والربوبية بوجه من الوجوه ، وأنهما أشد الأشياء في التقابل ، فإن المثلين وإن تقابلا فإنهما يشتركان في صفات النفس ، وكل ضدين أو مختلفين من العالم فلا بد من جامع يجتمعان فيه إلا العبد والرب ،
فإن كل واحد لا يجتمع مع الآخر في أمر ما من الأمور جملة واحدة ، فالعبد من لا يكون فيه من الربوبية وجه ، والرب من لا يكون فيه من العبودية وجه ، فلا يجتمع الرب والعبد أبدا ، فكما لا يكون العبد ربا لأنه لنفسه عبد ، فإن الرب لذاته هو رب ، فلا يتصف العبد بشيء من صفات الحق بالمعنى الذي اتصف بها الحق ، ولا الحق يتصف بما هو حقيقة للعبد ، وغاية صاحب الوهم أن يجمع بين الرب والعبد في الوجود ، وذلك ليس بجامع ، فإني لا أعني بالجامع إطلاق الألفاظ ،
وإنما أعني بالجامع نسبة المعنى إلى كل واحد على حد نسبته إلى الآخر ،
وهذا غير موجود في الوجود المنسوب إلى الرب والوجود المنسوب إلى العبد ، فإن وجود الرب عينه ، ووجود العبد حكم يحكم به على العبد ، ومن حيث عينه قد يكون موجودا وغير موجود ، والحد في الحالين على السواء في عينه ، فإذا ليس وجوده عينه ، ووجود الرب عينه ،
فقال تعالى »:لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »على وجوه كثيرة ، قد علم الله ما يؤول إليه قول كل متأول في هذه الآية ، وأعلاها قولا ، أي ليس في الوجود شيء يماثل الحق ، أو هو مثل الحق ، إذ الوجود ليس غير عين الحق ، فما في الوجود شيء سواه يكون مثلا له أو خلافا ، هذا ما لا يتصور ، فإن الله هو عين الوجود ، وإن أعيان الممكنات على حالها ، ما تغير عليها وصف في عينها ، فإن قلت : فهذه الكثرة المشهودة ؟

قلنا : هي نسب أحكام استعدادات الممكنات في عين الوجود الحق ، والنسب ليست أعيانا ولا أشياء ، وإنما هي أمور عدمية بالنظر إلى حقائق النسب ، فإذا لم يكن في الوجود شيء سواه فليس مثله شيء ، لأنه ليس

ص 70

[وحدة الوجود ، وجود الحق عينه :]
ثمّ ، فإنّ أعيان الممكنات ما استفادت إلا الوجود ، والوجود ليس غير عين الحق ، لأنه يستحيل أن يكون أمرا زائدا ليس الحق ، لما يعطيه الدليل الواضح ، فما ظهر في الوجود بالوجود إلا الحق ، وهو واحد ، فليس ثم شيء هو له مثل ، لأنه لا يصح أن يكون ثمّ وجودان مختلفان أو متماثلان ، فإن الحق له التقدم على الخلق بالوجود من جميع الوجوه بالمكانة والرتبة ، فكان ولا مخلوق ، وهذا تقدم الوجود ، وقدّر وقضى وحكم وأمضى إمضاء لا يرد ولا يقضى عليه ، فهذا تقدم الرتبة ،
فوجب التأخر عن رتبة الحق من جميع الوجوه ، فلا يجتمع الخلق والحق أبدا في وجه من الوجوه ، فالعبد عبد لنفسه ، والرب رب لنفسه ، فالعبودية لا تصح إلا لمن يعرفها ، فيعلم أنه ليس فيها من الربوبية شيء ، والربوبية لا تصح إلا لمن يعرفها ،
فيعرف أنه ليس فيها من العبودية شيء ، ولما علمنا أنه من تأخر عن أمر فقد انقطع عنه ، علمنا أن كل واحد قد تميز في رتبته عن الآخر بلا شك ، وإن أطلق على كل واحد ما أطلق على الآخر ، فيتوهم الاشتراك وهو لا اشتراك فيه ، فإن الرتبة قد ميزته ،
فيقبل كل واحد ذلك الإطلاق على ما تعطيه الرتبة التي تميز بها ، فإنا نعلم قطعا أن الأسماء الإلهية التي بأيدينا تطلق على الله وتطلق علينا ، ونعلم قطعا بعلمنا برتبتنا وبعلمنا برتبة الحق ، أن نسبة تلك الأسماء التي وقع في الظاهر الاشتراك في اللفظ بها إلى الله غير نسبتها إلينا ، فما انفصل عنا إلا بربوبيته ، وما انفصلنا عنه إلا بعبوديتنا ،
فمن لزم رتبته منا فما جنى على نفسه ، بل أعطى الأمر حقه ، فينبغي للعبد أن لا يقوم في مقام يشم منه فيه رائحة ربوبية ، فإن ذلك زور وعين جهل ، وصاحبه ما حصل له مقام العبودة كما هو الأمر في نفسه
[أمهات المطالب الأربعة وما يصح أن يسأل بها عن الحق] :
-مسئلة - <u>أمهات المطالب أربعة ،</u> وهي :
هل ، سؤال عن الوجود ،
وما ، وهو سؤال عن الحقيقة التي يعبر عنها بالماهية ،
وكيف ، وهو سؤال عن الحال ،
ولم ، وهو سؤال عن العلة والسبب ،
واختلف الناس فيما يصح منها أن يسأل بها عن الحق ، واتفقوا على كلمة هل ، فإنه يتصور أن يسأل بها عن الحق ، واختلفوا فيما بقي ،
فمنهم من منع ومنهم من أجاز فيقال للجميع من المتشرعين المجوزين والمانعين : كلكم قال وما أصاب ،
وما من شيء قلتموه من منع وجواز إلا وعليكم فيه دخل ، والأولى التوقف عن الحكم بالمنع أو بالجواز ،
هذا مع المتشرعين ، وأما غير المتشرعين من الحكماء فالخوض معهم في ذلك لا يجوز ، إلا إن أباح الشرع ذلك أو أوجبه ، وأما إن لم يرد في الخوض فيه معهم نطق
ص 71

من الشارع فلا سبيل إلى الخوض فيه معهم فعلا ، ويتوقف في الحكم في ذلك ، فلا يحكم على من خاض فيه أنه مصيب ولا مخطئ ، وكذلك فيمن ترك الخوض ،
إذ لا حكم إلا للشرع فيما يجوز أن يتلفظ به أو لا يتلفظ به ، يكون ذلك طاعة أو غير طاعة ، وأما العلم النافع في ذلك أن نقول : كما أنه سبحانه لا يشبه شيئا كذلك لا تشبهه الأشياء ، وقد قام الدليل العقلي والشرعي على نفي التشبيه وإثبات التنزيه من طريق المعنى ،
وما بقي الأمر إلا في إطلاق اللفظ عليه سبحانه ، الذي أباح لنا إطلاقه عليه في القرآن أو على لسان رسوله ، فأما إطلاقه عليه فلا يخلو إما أن يكون العبد مأمورا بذلك الإطلاق ، فيكون إطلاقه طاعة فرضا ،
ويكون المتلفظ به مأجورا مطيعا ، وإما أن يكون مخيرا فيكون بحسب ما يقصده المتلفظ ، وبحسب حكم الله فيه ، وإذا أطلقناه فلا يخلو الإنسان إما أن يطلقه ويصحب نفسه في ذلك الإطلاق المعنى المفهوم في الوضع بذلك اللسان ،
أو لا يطلقه إلا تعبدا شرعيا على مراد الله فيه ، من غير أن يتصور المعنى الذي وضع له في ذلك اللسان ، كالفارسي الذي لا يعلم اللسان العربي وهو يتلو القرآن ولا يعقل معناه وله أجر التلاوة ، كذلك العربي فيما تشابه من القرآن والسنة ،
يتلوه أو يذكر ربه به تعبدا شرعيا على مراد الله فيه ، من غير ميل إلى جانب بعينه مخصوص ، فإن التنزيه ونفي التشبيه يطلبه ، فالأسلم والأولى في حق العبد أن يرد علم ذلك إلى الله في إرادته إطلاق تلك الألفاظ عليه ،
ومن ذلك أن الحق تعالى لا يتقيد وجوده مع وجود العالم بقبلية ولا معية ولا بعدية زمانية ، فإن التقدم الزماني والمكاني في حق الله ترمي به الحقائق في وجه القائل به على التحديد ، اللهم إلا إن قال به من باب التوصيل ، كما قاله الرسول صلّى الله عليه وسلّم ونطق به الكتاب ، فإذا تقرر ذلك لم يبق لنا أن نقول :
إلا أنّ الحق تعالى موجود بذاته لذاته ، مطلق الوجود ، غير مقيد بغيره ، ولا معلول عن شيء ، ولا علة لشيء ، بل هو خالق المعلولات والعلل ، والملك القدوس الذي لم يزل ، والعالم موجود بالله تعالى لا بنفسه ، ولا لنفسه ، مقيد الوجود بوجود الحق في ذاته ، فلا يصح وجود العالم البتة إلا بوجود الحق ، وإذا انتفى الزمان عن وجود الحق وعن وجود مبدأ العالم ، فقد وجد العالم في غير زمان ، فلا نقول من جهة ما هو الأمر عليه : إن الله موجود قبل العالم ، إذ قد ثبت أن القبل من صيغ الزمان ولا زمان ، ولا إن العالم موجود بعد الحق ، إذ لا بعدية ، ولا مع وجود الحق فإن الحق هو الذي أوجده ، وهو فاعله ومخترعه

ص 72

ولم يكن شيئا ، ولكن كما قلنا ، الحق موجود بذاته ، والعالم موجود به ، فإن سأل سائل ذو وهم : متى كان وجود العالم من وجود الحق ؟

قلنا : متى سؤال زماني ، والزمان من عالم النسب ، وهو مخلوق لله تعالى ، لأن عالم النسب له خلق التقدير لا خلق الإيجاد ، فهذا سؤال باطل ، فانظر كيف تسأل ؟

فلم يبق إلا وجود صرف خالص لا عن عدم ، وهو وجود الحق تعالى ، ووجود عن عدم عين الموجود نفسه ، وهو وجود العالم ، ولا بينية بين الوجودين ، ولا امتداد إلا التوهم المقدر الذي يحيله العلم ولا يبقي منه شيئا ، ولكن وجود مطلق ومقيد ، وجود فاعل ووجود منفعل ، فارتفع بهذه الآية " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ "

الأشكال والأمثال ، ولم يتقيد أمر الإله ولا انضبط ، وجهل الأمر ، وتبين أنه لم يكن معلوما في وقت الاعتقاد بأنه كان معلوما لنا ، ولم يحصل في العلم به أمر ثبوتي ، بل سلب محقق ونسبة معقولة أعطتها الآثار الموجودة في الأعيان ، فلا كيف ولا أين ولا متى ، ولا وضع ولا إضافة ، ولا عرض ولا جوهر ، ولا كم وهو المقدار ، وما بقي من العشرة إلا انفعال محقق وفاعل معين ، أو فعل ظاهر من فاعل مجهول ، يرى أثره ولا يعرف خبره ، ولا يعلم عينه ولا يجهل كونه ، فالحق لا يضاهى لأنه ليس كمثله شيء ، أما صفات التشبيه فهي مضاهاة مشروعة ، فما أنت ضاهيته ، فالعقل ينافي المضاهاة ، والشرع يثبت وينفي ، والإيمان بما جاء به الشرع هو السعادة ، فلا يتعدى العاقل ما شرع الله له ، والعاقل من هجر عقله واتبع شرعه بعقله من كونه مؤمنا ، وأكمل العقول عقل ساوى إيمانه ، وهو عزيز

-تحقيق - [لا مثل في الأعيان الموجودة]

من هذه الحقيقة الإلهية حقيقة ليس كمثله شيء ، سرت الحقيقة في المخلوقات أن لا مثل في الأعيان الموجودة ، وأن المثلية أمر معقول متوهم ، فإنه لو كانت المثلية صحيحة ما امتاز شيء عن شيء مما يقال هو مثله ، فذلك الذي امتاز به الشيء عن الشيء هو عين ذلك الشيء ، فما ثمّ مثل أصلا ، ولا يقدر على إنكار الأمثال ، ولكن بالحدود لا غير ، ولهذا نطلق المثلية من الحقيقة الجامعة المعقولة لا الموجودة ، فالأمثال معقولة لا موجودة ، فما أدرك المدرك - أي شيء أدرك - إلا من حقيقة ليس كمثله شيء ، وذلك لأن الأصل الذي نرجع إليه في وجودنا وهو الله تعالى ليس كمثله شيء ، فلا يكون ما يوجد عنه إلا على حقيقته أنه لا مثل له ، ولو كان قبول المثل موجودا في العالم ، لاستند في وجوده من ذلك الوجه إلى غير حقيقة إلهية ، وما ثمّ موجد إلا الله ، ولا مثل له ، فما في الوجود شيء له مثل ،

ص 73

بل كل موجود متميز عن غيره بحقيقة هو عليها في ذاته ، فإذا أطلق المثل لا يطلق إلا عرفا ، فإذا كان كل محدث لا يقبل المثلية كما قررنا ، فالحق أولى بهذه الصفة - ومن وجوه التنزيه أن غنى الحق مطلق بالنظر إلى ذاته ، والخلق مفتقر على الإطلاق بالنظر أيضا إلى ذاته ، فتميز الحق من الخلق ، وهذا التمييز لا يرتفع أبدا ، لأنه تميز ذاتي في الموصوف به من حق وخلق ، فما ثمّ إلا شيئيتان ، شيئية حق وشيئية خلق ، فليس كمثل الخلق في افتقاره شيء ، لأنه ما ثمّ إلا الحق ، والحق لا يتصف بالافتقار ، فما هو مثل الخلق ، فليس مثل الخلق شيء ، وليس كمثل الحق في غناه شيء ، لأنه ما ثمّ إلا الخلق ، والخلق لا يتصف بالغنى لذاته ، فما هو مثل الحق ، فليس مثل الحق شيء ، لأنه كما قلنا ما ثمّ شيء إلا الخلق والحق ، فمن لم يعلم قوله تعالى »: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »على ما قررناه فلا علم له بهذه الآية ، فإنه جاء بالكاف ، ثم نفى المثلية عن نفسه بزيادة الكاف للتأكيد في النفي ، ثم نفى المثلية عن العالم بجعل الكاف صفة ، فعلق النفي بالمماثل في النفي ، أي انتفت عن الخلق المثلية ، لأنه ما ثمّ إلا حق لا يماثل وانتفت المثلية عن الحق لأنه ما ثم إلا خلق لا يماثل ، فأعظم الثناء عندنا في حق الحق قوله تعالى :« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »سواء كانت كاف الصفة أو كانت زائدة ، وكونها للصفة أبلغ في الثناء على العالم ، باللسان الذي نزل به القرآن ،

يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في دعائه وثنائه على ربه عزّ وجل

[لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك]

يريد قوله تعالى« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »وقال الصديق الأكبر رضي الله عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك ؛ والحق سبحانه ما أثنى على نفسه بأعظم من نفي المثل ، فلا مثل له سبحانه ، ولهذا قال في حق العالم من حيث ما هو ناطق(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)والتسبيح تنزيه ، وأما قوله تعالى »: وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »فكون الإله سميعا بصيرا تعلق تفصيلي ، فهما حكمان للعلم ، ووقعت التثنية من أجل المتعلق الذي هو المسموع والمبصر . واعلم أن ضوء البدر كان في السرار من الشمس في الوجه الذي ينظر إلى الشمس في حين المسامتة ، والظاهر لا نور فيه ، وفي ليلة الإبدار ينعكس الأمر ، فيكون الظهور بالاسم الظاهر ، وكذلك فعل الحق مع عامة عباده ، احتجب عنهم غاية الحجاب كالسرار في القمر فلم يدركوه فقال :« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ «رحمة بهم ، فلم يجدوا في أذهانهم ولا في طبقات أحوالهم ما يذهلهم ، فجاء سرا في رحمة حجاب هذه الآية ، وهذا غاية نزول الحق إلى عباده في

ص 74

مقام الرحمة لهم ، ثم استدرجهم قليلا قليلا بمثل« وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »و(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ)

وقوله :(أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى)إلى أن تقوت أنوار بصائرهم بالمعرفة بالله ، وأنسوا به قليلا قليلا إلى أن يتجلى لهم في المعرفة التامة النزيهة ، التي لو تجلى لهم فيها في أول الحال لهلكوا من ساعتهم ، فقال عزّ من قائل)وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ)فقبلوه ولم ينفروا منه ، ونسوا حال »لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »فكان بقاؤهم في ذلك المقام بقطع اليأس لرفع المناسبة من جميع الوجوه .

واعلم أن أعلى المحامد بلا خلاف عقلا وشرعا »لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »، ثم تمم الآية لنعرف المقصود ويصح أول الآية فقال« وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »، فلو لم يتمم لكان أول الآية يؤذن بأنا لسنا بعبيد وليس هو لنا بإله ، فلا بد من رابط وليس إلا الاشتراك ، إلا أنه عين الأصل في ذلك ، ونحن فيه كنسبة الفرع إلى الأصل ، وإن كان على صورته فليس هو عينه ، ونسبتنا إليه أن الوجود له ، وهو الذي استفاده منه المحدث ، فالنسبة التي ورد بها السمع نسبة العبد إلى السيد ، والمخلوق إلى الخالق ، والرب إلى المربوب ، والمقدور إلى القادر ، والمصنوع إلى الصانع ، فهذه الآية له ولنا من أجل الكاف ، والاشتراك يؤذن بالتناسب ، ولولا المناسبة التي بيننا وبينه تعالى ما وجدنا ولا قبلنا التخلق بالأسماء الإلهية ، وأعظم الحضرات الإلهية أنه لا يشبهه شيء ، فكما انتفت المثلية عنه انتفت المثلية عن العالم وهو كل ما سوى الله ، فلا مثل لله إلا أن يكون إله ، ولا إله إلا الله ، فلا مثل لله ، ولا مثل للعالم إلا أن يكون عالم ، ولا عالم إلا هذا العالم وهو الممكنات ، فلا مثل للعالم ، فصحت المناسبة

[خلاصة التحقيق : لا يعلم الحق إلا العلم ، كما لا يحمده إلا الحمد]

-خلاصة التحقيق - لا يعلم الحق إلا العلم ، كما لا يحمده إلا الحمد ، وأما أنت فتعلمه بواسطة العلم ، وهو حجابك ، فإنك ما تشاهد إلا العلم القائم بك ، وإن كان مطابقا للمعلوم ، وعلمك قائم بك وهو مشهودك ومعبودك ، فإياك أن تقول إن جريت على أسلوب الحقائق : إنك علمت المعلوم ، وإنما علمت العلم ، والعلم هو العالم بالمعلوم ، وبين العلم والمعلوم بحور لا يدرك قعرها ، فإن سر التعلق بينهما مع تباين الحقائق بحر عسير مركبه ، بل لا تركبه العبارة أصلا ولا الإشارة ، ولكن يدركه الكشف من خلف حجب كثيرة دقيقة ، لا يحس بها أنها على عين بصيرته لرقتها ، وهي عسيرة المدرك ، فأحرى من خلفها ، فانظر أين هو من يقول : إني علمت الشيء من ذلك الشيء ؟ محدثا كان أو قديما ، بل ذلك في المحدث ، وأما القديم فأبعد وأبعد ، إذ لا مثل له ، فمن أين يتوصل إلى

ص 75

العلم به ؟ أو كيف يحصل ؟
والذوق الذي يكون في مشاهدة الحق لا يقع عليه اصطلاح ، فإنه ذوق الأسرار ، وهو خارج عن الذوق النظري والحسي ،
فإن الأشياء - أي كل ما سوى الله - لها أمثال وأشباه ، فيمكن الاصطلاح فيها للتفهيم ، عند كل ذائق له فيها طعم ذوق ، من أي نوع كان من أنواع الإدراكات ، والبارئ ليس كمثله شيء ، فمن المحال أن يضبطه اصطلاح ،
فإن الذي يشهد منه شخص ما هو عين ما شهده شخص آخر جملة واحدة ، وبهذا يعرفه العارفون ، فلا يقدر عارف بأمر أن يوصل إلى عارف آخر ما يشهده من ربه ، لأن كل واحد من العارفين شهد من لا مثل له ،
ولا يكون التوصيل إلا بالأمثال ، فلو اشتركا في صورة لاصطلحا عليها بما شاءا : وإذا قبل ذلك واحد جاز أن يقبل جميع العالم ، فلا يتجلى في صورة واحدة لشخصين من العارفين ، فلما علم العارفون أن الله لا يتجلى في صورة واحدة لشخصين ، ولا في صورة واحدة مرتين ، لم ينضبط لهم الأمر ، لما كان لكل شخص تجل يخصه ، ورآه الإنسان من نفسه ، فإنه إذا تجلى له في صورة ، ثم تجلى له في صورة غيرها فعلم من هذا التجلي ما لم يعلمه من هذا التجلي الآخر من الحق ، هكذا دائما في كل تجل ، علم أن الأمر في نفسه كذلك ، في حقه وحق غيره ، فلا يقدر أن يعيّن في ذلك اصطلاحا تقع به الفائدة بين المتخاطبين ، فهم يعلمون ولا ينقال ما يعلمون ، ولا في قوة أصحاب هذا المقام الأبهج الذي لا مقام في الممكنات أعلى منه ، أن يضع عليه لفظا يدل على ما علمه منه ، إلا ما أوقعه تعالى ، وهو قوله عزّ وجل » لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ « فنفى المماثلة ، فما صورة يتجلى فيها لأحد تماثل صورة أخرى .

فعزّ الأمر أن يدرى فيحكى *** وجلّ فليس يضبطه اصطلاح
فتجهله العقول إذا تراه *** تعبر عنه ألسنة فصاح
من أقوام مقلدة عقولا *** لإمكان يكون به الصلاح
فهم بالفكر قد جمعوا عليه *** على جهل فخانهم الفلاح
وقال العارفون بما رأوه *** فما اصطلحوا فجاءهم النجاح
فليس كمثله في الكون شيء *** وليس له بنا إلا السراح

فكل ما خطر في سرك ، أو تصور وحصر في وهمك ، أو حاك وتلجلج في صدرك ، أو دل عليه عقلك ، فالله بخلاف ذلك ، فإنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

ص 76

[سورة الشورى (42) : آية 12]

لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12)

« لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ » له الفتح بها« يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ »فهي بيده ، وما كان بيده فليس يخرج عنه ، فهو المعطي والآخذ.

[سورة الشورى (42) : آية 13]

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13)

[إقامة الدين وارتباطه باتخاذ الإمام :]

أمر الحق في هذه الآية بإقامة الدين ، وهو شرع الوقت في كل زمان وملة ، وأن يجتمع عليه ولا يتفرق فيه ، فهو أمر على الوجوب ، فإن يد الله مع الجماعة ، وإنما يأكل الذئب القاصية ، وهي البعيدة التي شردت وانفردت عما هي الجماعة عليه ، والقائمون بالدين إذا اجتمعوا على إقامة الدين ولم يتفرقوا فيه لم يقهرهم عدو ، وكذلك الإنسان في نفسه ، إذا اجتمع في نفسه على إقامة دين الله لم يغلبه شيطان من الإنس ولا من الجن بما يوسوس به إليه ، مع مساعدة الإيمان والملك بلمته له ، وما ثمّ من الأعمال السارية في كل نبوة إلا إقامة الدين والاجتماع عليه وكلمة التوحيد ،

وهو قوله تعالى :« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ »الآية - وهو الذي بوب عليه البخاري باب ما جاء أن الأنبياء دينهم واحد ، وجاء بالألف واللام في الدين للتعريف ، لأنه كله من عند الله وإن اختلفت بعض أحكامه ، فالكل مأمور بإقامته والاجتماع عليه ، فالأنبياء دينهم واحد ، وليس إلا التوحيد وإقامة الدين والعبادة ، ففي هذا اجتمعت الأنبياء عليهم السلام ، فدين الأنبياء واحد ما ثم أمر زائد« أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »أي في القيام به ، فهذه الصفة هي الجامعة لكل ذي شرع ، وإن اختلفت الشرائع ، فثمّ أمر جامع« كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ »من الوحدة ، فهو كثير بالأحكام ، فإن له الأسماء الحسنى ، وكل اسم علامة على حقيقة معقولة ليست هي

ص 77

الأخرى ، ووجوه العالم في خروجه من العدم إلى الوجود كثيرة تطلب تلك الأسماء ، أعني المسميات ، وإن كانت العين واحدة ، كما أن العالم من حيث هو عالم واحد ، وهو كثير بالأحكام والأشخاص« اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ »فما ذكر لشقي هنا نعتا ولا حالا ، بل ذكر الأمر بين اجتباء وهداية ، فمن علم الهداية والاجتباء علم ما جاءت به الأنبياء ، وكلا الأمرين إليه ، فمن اجتباه إليه جاء به إليه ولم يكله إلى نفسه ، ومن هداه إليه أبان له الطريق الموصلة إليه ليسعده ، وتركه ورأيه ، فإما شاكرا وإما كفورا ، فلما لم يذكر الحق في هذه الآية العامة للشقاء اسما ولا عينا ، وذكر الاجتباء والهداية ، وهو البيان ، وجعل الأمرين إليه ، علمنا أن الحكم للرحمة التي وسعت كل شيء ،

وما ذكر في المشرك إلا كون هذا الذي دعي إليه كبر عليه ، لأنه دعي من وجه واحد ، وهو يشهد الكثرة من وجوده ، فما فهم عن الله مراد الله بذلك الخطاب ، فإنه تعالى جمع ووحد ، فقال : إني وإنا وأنا ، ولهذا كبر على المشركين ، فإن معقول نحن ما هو معقول إني ، وجاء الخطاب بإليه فوحد وما رأوا للجمع عينا ، فكبر ذلك عليهم ،

فلما علم الحق أن ذلك كبر عليه رفق به وجعل الأمر إليه تعالى بين اجتباء وهداية ، ووحد بإليه في الأمرين رفقا به وأنسا له ، ليعلم أنه الغفور الرحيم بالمسرفين على أنفسهم ، ومن هذه الآية نعلم أن اتخاذ الإمام واجب شرعا مع كونه موجودا في فطرة العالم ، أعني طلب نصب الإمام ،

فقد أمر الله تعالى بإقامة الدين بلا شك ، ولا سبيل إلى إقامته إلا بوجود الأمان في أنفس الناس على أنفسهم ، وأموالهم وأهليهم من تعدي بعضهم على بعض ، وذلك لا يكون أبدا ما لم يكن ثمّ من تخاف سطوته وترجى رحمته ،

يرجع أمرهم إليه ويجتمعون عليه ، فإذا تفرغت قلوبهم من الخوف الذي كانوا يخافونه على أموالهم ونفوسهم وأهليهم ، تفرغوا إلى إقامة الدين الذي أوجب الله عليهم إقامته ،

وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب ، فاتخاذ الإمام واجب ، ويجب أن يكون واحدا لئلا يختلفا ، فيؤدي إلى امتناع وقوع المصلحة وإلى الفساد .

[سورة الشورى (42) : الآيات 14 إلى 15]

وَما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14)

ص 78

فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(15)

[" وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ " :]

« وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ »لما كان المكلّف من جهة الحقيقة ملقى طريحا عند باب سيده ، تجري عليه تصاريف الأقدار ، وما أودع الله في حركات هذه الأكوار ، مما يجيء به الليل والنهار ، من تنوع الأطوار ، بين محو وإثبات ، لظهور آيات بعد آيات ،

وقد جعل الله المكلّف محلا للحياة والحركات ، وطلب منه القيام من تلك الرقدة بما كلفه من القيام بحقه ، فكان أصعب ما يمر على العارفين قوله« اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ »فلا يعرف هل وافق أمر الله إرادته فيهم أنهم يمتثلون أمره أو يخالفونه ؟

وهو قوله صلّى الله عليه وسلّم : [شيبتني هود] فإنها السورة التي نزل فيها« فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ »[وأخواتها] مما فيها هذه الآية أو ما في معناها .

[سورة الشورى (42) : الآيات 16 إلى 19]

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (16) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (18) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19)

[اللطف الإلهي وعلاقته بالرزق :]

اللطف الإلهي هو الذي يدرج الراحة من حيث لا يعرف من لطف به ، ومن لطفه أنه الذي يأتيهم بكل ما هم فيه ولا تقع أبصار العباد إلا على الأسباب التي يشهدونها ،

ص 79

فيضيفون ما هم فيه إليها .

[سورة الشورى (42) : آية 20]
مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20)
« مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ »وهو النصيب الأخروي وأجرها« نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ »فنوفقه للعمل الصالح ، فلا يزال ينتقل من خير إلى خير في خير ، فمن حسنة إلى حسنة ، فإذا كسب الآخرة نال ما اقتضاه العمل ، والزيادة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فينال في الآخرة جميع أغراضه كلها ، وزيادة ما لم يبلغه غرضه ، والآخرة هنا هي الجنة ومن دخلها ، والحسنة هي حرث الآخرة في الدنيا ، فإن الدنيا منزل لا يمكن أن ينال أحد فيه جميع أغراضه ، بل يؤتيه الله منها ، وأما الآخرة وهي الجنة فهي منزل ينال السعيد فيها جميع أغراضه كلها وزيادة من غير توقف« وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا »وهي فانية ، وفرح بها وآثر نصيب الدنيا على نصيب الآخرة لاستيلاء الغفلة عليه ، فمن أراد حرث الدنيا فما يجني إلا ثمرة غرسه لا غير ، فقال تعالى :« نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ »
[اعتبار ووصية : نزّه نفسك عن الدنيا وأوضارها :]
-اعتبار ووصية - نزّه نفسك عن الدنيا وأوضارها ، واجعلها خادمة لك ولرعيتك ، أي جوارحك وقواك ، وما الدنيا إلى جانب منصبك الذي أهلك الله إليه ، المقدس عن تعلق الكونين به ؟ !
فكيف عن الدنيا التي مقتها الله تعالى ، وما نظر إليها من حين خلقها ؟ !
وناهيك من تشبيه النبي صلّى الله عليه وسلّم إياها بالجيفة والمزبلة ، مع إخباره أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، وأنها ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان من ذكر الله ، فيجمل بهمة خليفة مثلك ، قد خلقه الله نورا ، جوهرة يتيمة ، أن يلحظ ببصره أو بطرفه إلى جيفة أو مزبلة أو يتكالب عليها ؟ !
وقد قال تعالى : يا دنيا اخدمي من خدمني ، واستخدمي من خدمك ، فالدنيا وفقك الله تطلبك حتى توفيك ما قدّره لك من استخلفك ، من جاهك ورزقك وأرزاق رعيتك ، فأجمل في الطلب ، واسع في تخليص رعيتك وتخليص نفسك باشتغالك بما كلفك من استخدمك من الأوامر والنواهي والحدود ، فعليك بالإعراض عن الدنيا تأتيك خادمة راغمة ، والذي يصل إليك منها وأنت مقبل عليها ، هو الذي يصل إليك وأنت معرض عنها ، ذكر كعب الأحبار أن الله تعالى ذكر في التوراة : يا ابن آدم إن رضيت بما قسمت لك أرحت

ص 80

قلبك وبدنك ، وأنت محمود ، وإن لم ترض بما قسمت لك ، سلطت عليك الدنيا ، حتى تركض فيها ركض الوحوش في البرية ، وعزتي وجلالي لا تنال منها إلا ما قدّرت لك وأنت مذموم ؛ فعلّق الراحة بالقلب مع البدن ، إذ لا يصح طلب شيء من غير إرادة ، إذ هي المحركة للباحث على البحث والتفتيش ، والإرادة من خاصتك المصرفة لعامتك ، فإن تصرفت في المضمون تصرفا كليا ، لم تتهيأ لامتثال أوامرك عليها ، وعند عدولها عن ذلك كنت لئيما على رعيتك ، على ما يرد في داخل الباب ، فالله الله ، اجهد أن لا تتعلق لك إرادة إلا بمراد محبوبك من جهة ظاهر الأمر ، وباطن الإرادة بعد وقوع المراد ، المؤدي إلى العلم بأن ذلك الواقع لولا ما سبق في العلم على ذلك ، وتعلقت به الإرادة لما وقع على ذلك الوصف ، مع جواز تبدله في نفسه في وقوعه على غير ذلك ، وهل خلقت الدنيا إلا من أجلك ؟ وخلقك سبحانه من أجله ، فأوجدك له وأوجد الأشياء لك ، أنزل في التوراة : يا ابن آدم ، خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي فلا تهتك ما خلقت من أجلي فيما خلقت من أجلك ؛

قال الله تعالى في القرآن العظيم :
(وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ، ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ، وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ)
وقال: (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)
وقال تعالى :(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ ،وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها)إلى أمثال هذا مما لا يحصى في القرآن كثرة .

[سورة الشورى (42) : آية 21]
أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (21)
ليس لمخلوق أن يشرع ما لم يأذن به الله ، ولا أن يوجب وقوع ممكن من عالم الغيب يجوز خلافه في دليله على جهة القربة إلى الله إلا بوحي من الله وإخبار ، وأما ما اقتضاه نظر المجتهدين من العلماء في الأحكام فإنه بتقرير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فحكم المجتهد من شرعه صلّى الله عليه وسلّم الذي يعطي المجتهد دليله ، وهو الذي أذن الله به ، فما هو من الشرع الذي لم يأذن به الله ، فإن ذلك كفر وافتراء على الله ، وليس الاجتهاد أن تحدث حكما ، هذا غلط ،
[تعريف الاجتهاد المشروع :]
وإنما الاجتهاد المشروع في طلب الدليل من كتاب أو سنة أو إجماع ، وفهم عربي على إثبات حكم في تلك
81

المسألة بذلك الدليل الذي اجتهدت في تحصيله والعلم به في زعمك ، هذا هو الاجتهاد ، فإن الله تعالى ورسوله ما ترك شيئا إلا وقد نص عليه ولم يتركه مهملا ، فإن الله تعالى يقول :(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)وبعد ثبوت الكمال فلا يقبل الزيادة ، فإن الزيادة في الدين نقص في الدين ، وذلك هو الشرع الذي لم يأذن به الله ، فينبغي لكل مؤمن أن يجتنب صحبة المبتدعين في دين الله ما لم يأذن به الله .

[سورة الشورى (42) : الآيات 22 إلى 23]
تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22 (ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23)
[« لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى . . . » الآية :]
لما كان أجر جميع الرسل على الله وحده - من قوله تعالى(قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍإِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ -(اختص محمد صلّى الله عليه وسلّم بفضيلة لم ينلها غيره ، عاد فضلها على أمته ، ورجع حكمه صلّى الله عليه وسلّم إلى حكم الرسل قبله في إبقاء أجره على الله ، فأمره الحق أن يأخذ أجره الذي له على رسالته من أمته ، وهو أن يوادوا قرابته ، فقال له :« قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً »أي على تبليغ ما جئت به إليكم« إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى »فتعين على أمته أداء ما أوجب الله عليهم من أجر التبليغ ، فوجب عليهم حب قرابته صلّى الله عليه وسلّم وأهل بيته ، وجعله باسم المودة وهو الثبوت على المحبة ، فلما جعل له ذلك ، ولم يقل إنه ليس له أجر على الله ولا أنه بقي له أجر على الله ، وذلك ليجدد له النعم بتعريفه ما يسرّ به ، فقيل له بعد هذا : قل لأمتك آمرا - ما قاله كل رسول لأمته(ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ)فما سقط الأجر عن أمته في مودتهم للقربى ، وإنما رد ذلك الأجر بعد تعيينه عليهم ، فعاد ذلك الأجر عليهم الذي كان يستحقه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فيعود فضل المودة على أهل المودة ، فما

ص 82

يدري أحد ما لأهل المودة في قرابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الأجر إلا الله ،
ولكن أهل القربى منهم ، ولهذا جاء بالقربى ولم يجئ بالقرابة ،
فوددنا من قرابته صلّى الله عليه وسلّم القربى منهم ، وهم المؤمنون ،
ولذلك فرّق عمر رضي الله عنه بين من هو أقرب قرابة ، وأقرب قربى ، وهو عربي نزل القرآن بلسانه ، فلو لا ما في ذلك فرقان في لسانهم واصطلاحهم ما فرق عمر بين القربى والقرابة ، قال تعالى :(لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ)
فلو كانت المودة في القربى التي سألها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منا ، يريد به القرابة ما نفاها الحق عنها في قوله(يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)
ولو كانوا قرابتهم ، فعلمنا أن المودة في القربى أنها في أهل الإيمان منهم ، وهم الأقربون إلى الله ، فتميز صلّى الله عليه وسلّم عن سائر الرسل عليهم السلام بما أعطى الله لأمته في مودتهم في القربى ،
وتميزت أمته على سائر الأمم بما لها من الفضل في ذلك ، وجاء تعالى بلفظ المودة ،
وهي الثبوت على المحبة ، فإنه من ثبت وده على أمر استصحبه في كل حال ، وإذا استصحبته المودة في كل حال لم يؤاخذ أهل البيت بما يطرأ منهم في حقه مما له أن يطالبهم به ، فيتركه ترك محبة وإيثارا لنفسه لا عليها ، فبالنسبة لحقوقنا وما لنا أن نطالبهم به فنحن مخيرون ، إن شئنا أخذنا وإن شئنا تركنا ،
والترك أفضل عموما ، فكيف في أهل البيت ؟ فإذا نزلنا عن طلب حقوقنا وعفونا عنهم في ذلك ، أي فيما أصابوا منا كانت لنا بذلك عند الله اليد العظمى والمكانة الزلفى ،
فإن النبي صلّى الله عليه وسلّم ما طلب منا عن أمر الله إلا المودة في القربى ، وفيه سر صلة الأرحام ، ومن لم يقبل سؤال نبيه فيما سأله فيه - مما هو قادر عليه - بأي وجه يلقاه غدا ؟ ويرجو شفاعته ؟
وهو ما أسعف نبيه صلّى الله عليه وسلّم فيما طلب منه من المودة في قرابته ، فكيف بأهل بيته ؟
فهم أخص القرابة ، وما سأل منا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الأجر على تبليغ الدعاء إلا المودة في القربى ، وهو حب أهل البيت وقرابته صلّى الله عليه وسلّم ،
وأن يكرموا من أجله كانوا ما كانوا ،
وقد طرأ على الشيعة - ولا سيما الإمامية - تلبيسات من عدم الفهم حتى ضلوا ، فدخلت عليهم شياطين الجن أولا بحب أهل البيت واستفراغ الحب فيهم ، ورأوا أن ذلك من أسنى القربات إلى الله ، وكذلك هو لو وقفوا ولا يزيدون عليه ،
إلا أنهم تعدوا في حب أهل البيت إلى طريقين ، منهم من تعدى إلى بغض الصحابة وسبهم حيث لم يقدموهم ،
وتخيلوا أن أهل البيت أولى بهذه المناصب الدنيوية ، فكان منهم ما قد عرف واستفاض ، وطائفة زادت إلى
ص 83

سب الصحابة القدح في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وفي جبريل عليه السلام ، وفي الله جل جلاله ، حيث لم ينصوا على رتبتهم وتقديمهم في الخلافة للناس ، حتى أنشد بعضهم : ما كان من بعث الأمين أمينا ؛ وهذا كله واقع من أصل صحيح ، وهو حب أهل البيت ، أنتج في نظرهم فاسدا ، فضلوا وأضلوا ، فانظر ما أدى إليه الغلو في الدين ، أخرجهم عن الحد فانعكس أمرهم إلى الضد .

[سورة الشورى (42) : الآيات 24 إلى 25]
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (24) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (25)
إذا رجع العبد إلى الله بالتوبة رجع الحق إليه بالقبول ، فإن الله لا يقبل معاصي عباده ويقبل التوبة والطاعات ، وهذا من رحمته بعباده ، فإنه لو قبل المعاصي لكانت عنده في حضرة المشاهدة كما هي الطاعات ، فلا يشهد الحق من عباده إلا ما قبله ، ولا يقبل إلا الطاعات ، فلا يرى من عباده إلا ما هو حسن محبوب عنده ، ويعرض عن السيئات فلا يقبلها .

[سورة الشورى (42) : الآيات 26 إلى 27]
وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (26) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27)
اعلم أن السخاء هو العطاء على قدر الحاجة من غير مزيد ، لمصلحة يراها المعطي ، إذ لو زاد على ذلك ربما كان فيه هلاك المعطى إياه ، ولذلك قال تعالى :« وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ »وهو الثابت الواقع ، ولا حكم لأداة (لو) ، فإن كلمة (لو) لو زرعت ما نبت عنها شيء ويخسر البذر ، فمتى سمعت (لو) حيث سمعتها فلا تنتظر إلى ما

84

تحتها ، فإن ما تحتها لا يوجد ، فلا تخف منها ولا من دلالتها ، وليكن مشهودك الواقع خاصة ، فإنه لو وجد البغي عن البسط لم تقم الحجة عليهم ، ولكنه تعالى قال(لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ)لأنهم يضعفون عن القيام بما يستحقه بسط الرزق من الشكر ، وليس في قوة الإنسان إلا البغي به والكفر والأشر والبطر« وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ »

يعني الرزق ، وله موازين ، فإنه لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، فأنزل بقدر ما يشاء ، فيمنع بحق وحكمة ، ويعطي بحق وحكمة ، فهو الموصوف بالمعطي والمانع ، وهو بكل شيء عليم ، فما أنزل شيئا إلا بقدر معلوم ، ولا خلق شيئا إلا بقدر ، فإذا وجد البغي مع القدر قامت الحجة على الخلق ، فإن القدر ما يقع بوجوده في موجود معين المصلحة المتعدية منه إلى غير ذلك الموجود ، فمنع الغير مما بيده مع حصول الاكتفاء فما زاد فيعلم أنه لمصلحة غيره« إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ »فيعلم على من يبسط رزقه ، وعلى من يقبض عنه ذلك القدر الذي بسطه على غيره فبغي به ، ولذلك ما ذكر إلا عموم البسط في العباد كلهم ، وأضاف البغي للكل ، لأنه قد بسط للبعض فوقع منهم البغي فيما بسطه له ، لأنه شغله عن حاجة نفسه الضرورية بحاجة نفسه التي هي غير ضرورية . ولما كانت الدنيا تجري لأجل مسمى وينقضي أمدها ، فتكون الأشياء فيها تجري إلى أجل مسمى ،

قال تعالى :« وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ »لأجل ذلك الأجل ، فينزل مالكها فيها بقدر معلوم مساو لمدة الأجل ، والآخرة بخلاف ذلك ، فإنها لا ينتهي أمدها ، ألا ترى إلى قوله تعالى في خلق هذه الأرض الأولى (وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها) فجعلها ذات مقدار ، فالرزق مقسوم ومنزل بقدر معلوم ، ولا ينقص ولا يزيد بسؤال العبيد .

طلب المزيد في الجبلة في كل ملة ، كيف لا يظهر بالافتقار من حكم عليه الاضطرار ، وبقي الحكم للأقدار ، فكل شيء عنده بمقدار ، وهذه الآية دليل على أن البسط لا يكون إلا لرفيع المنزلة رفيع الدرجات ، فينزل بالحال إلى حال من هو في أدنى الدرجات ، فلما تمكن هذا البسط في قلوب العباد أثر في قلوبهم بغيا فتعدوا منزلتهم ،

فقالوا :(إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ)حيث نزل الحق إليهم في البسط بقوله :(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ)

[إشارة : استدامة تجلي التوحيد يؤدي إلى تعطيل الأحكام :]

-إشارة - نبه الحق بهذه الآية على مقام القبض ، فإن إظهار التوحيد - أي توحيد الأفعال - لله تعالى ، يوما ما أو في نازلة ما ، لا في كل يوم ، ولا في كل النوازل ، لأن استدامة هذا التجلي يؤدي إلى تعطيل الأحكام والديانات ، وإذا كان ذلك خرب الملك عاجلا أو آجلا ، فالله الله ولا لمحة بارق من التوحيد.

ص 85

[سورة الشورى (42) : آية 28]
وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)
وذلك من آثار البسط الإلهي لعباده ، واتساع مغفرته وعموم فضله .

[سورة الشورى (42) : الآيات 29 إلى 30]
وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (29) وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (30)
ما أصابت المصائب من أصابته إلا جزاء بما كسبت يده ، مع كون الله تعالى يعفو عن كثير ، وقوله تعالى :« وَما أَصابَكُمْ »الآية ، ما ظهر من الفتن والخراب والحروب والطاعون ، فهو كله جزاء بأعمال عملوها ، فاستحقوا بذلك ما ظهر من الفساد في البر والبحر« وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ »مما لو شاء آخذ به عباده - راجع المائدة آية (15) .

[سورة الشورى (42) : الآيات 31 إلى 32]
وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (31) وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (32)
تسري بها الريح .

[سورة الشورى (42) : آية 33]
إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33)
يقول الحق في حق راكب البحر إذا اشتد عليه الريح وبرد ، فبما فيها من النعمة يطلب منه الشكر عليها ، وبما فيها من الشدة والخوف يطلب منه الصبر ، فيقول :« إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ »وهو ما ابتلي به من الريح لسوق الجواري في البحر :« لِكُلِّ صَبَّارٍ »لما فيها من الأمر المفزع الهائل« شَكُورٍ »لما فيها من الفرح والنعمة بالوصول إلى المطلوب بسرعة.

ص 86

[سورة الشورى (42) : الآيات 34 إلى 36]
أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35) فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36)
احذر من فتنة الحياة الدنيا وزينتها ، والزاهد في الدنيا مال إلى قوله تعالى :« وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى »وأما العارف فمال إلى قوله تعالى :(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى).

[سورة الشورى (42) : الآيات 37 إلى 38]
وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (38)
[« وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ . . . » الآية - المشاورة محاورة :]
المشاورة محاورة ، وهي إن دلت على عدم الاستقلال بجودة النظر ، فهي من جودة النظر ، وإن نبهت على ضعف الرأي فهي من الرأي ، عرض الإنسان ما يريد فعله على الآراء ، دليل على عقله التام ليقف على تخالف الأهواء ، فيعلم مع أحدية مطلوبه أنه وإن تفرد ، فله وجوه تتعدد ، وأي شيء أدل على أحدية الحق ، من مشاورة الخلق ، لا يطلع على مراتب العقول إلا أصحاب المشاورة ، ولا سيما في المسامرة ، فإنها أجمع للهم والذكر ، وأقدح لزناد الفكر .

[سورة الشورى : (42) الآيات 39 إلى 40]
وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40)
السوء على نوعين : سوء شرعي وسوء ما يسوؤك ، وإن حمده الشرع ولم يذمه ، فقد يكون هذا السوء من كونه يسوؤك ، لا أن السوء فيه حكم الله ، كما قال تعالى :« وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها »فالسيئة الأولى شرعية صاحبها مأثوم عند الله ، لأنه تعدى ، والسيئة

ص 87

الأخرى ما يسوء المجازى عليها ، فهي ليست بسيئة شرعا وإنما هي سيئة من حيث إنها تسوء المجازى بها كالقصاص ،[سبب تسمية الجزاء سيئة :]
فسمى الله الجزاء سيئة بالمثلية ، وليس الجزاء بسيئة مشروعة ، لأن الله لا يشرع السوء ، فنبه تعالى بقوله :« وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ »على الزهد والترك للأخذ عليها بتسمية الجزاء سيئة ، فأنزل المسئ منزلة السيئة وسمي بها ، فلم يقل وجزاء المسئ ، فإن المسئ هو الذي يجازى بما أساء لا السيئة ، فإن السيئة قد ذهب عينها ، وهي لا تقبل الجزاء ، وأضيف الجزاء إلى السيئة ، فللمسيء حكم السيئة ، ولذلك نبه تعالى بقوله« مِثْلُها »فأطلق على الجزاء اسم سيئة ، ومن اتصف بشيء من ذلك فيقال فيه : إنه مسيء ، فحث تعالى على اختيار العفو على الجزاء بالمثل نفاسة وتقديس نفس ، من أن توصف بأنها محل للسيئة والسوء ، فقال فيمن لم يفعلها« فَمَنْ عَفا »فنبه على أن ترك الجزاء على السيئة من مكارم الأخلاق ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الرجل الذي طلب القصاص من قاتل من هو وليه ، فطلب منه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يعفو عنه أو يقبل الدية فأبى ، فقال : خذه ؛ فأخذه ، فلما قفى قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [أما إنه إن قتله كان مثله] يريد قوله تعالى :(وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها (فسمي قاتلا ، فبلغ ذلك القول الرجل فرجع إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم وخلّى عن قتله وتركه وعفا ،« فَمَنْ عَفا »ولم يجاز بالسيئة على السيئة ، أي عفا المظلوم عمن ظلمه ولم يؤاخذه بما استحق عليه فهو أولى« وَأَصْلَحَ «أي عفا عمن أساء إليه وأصلح ، يعني حال من أساء إليه بالإحسان ، فأصلح منه ما كان أوجب الإساءة إليه منه ، فما أراد بأصلح إلا هذا ، ولا يحصل في هذا المقام إلا من له همة عالية ، فإن الله قد أباح له أن يجازي المسئ بإساءته على وزنها ، فأنف على نفسه أن يكون محلا للاتصاف بما سماه الحق سيئة ، ولهذا النوع أجر على الله من وجهين : أجر العفو - وأجر العفو من الله كثير فإنه من الأضداد - وأجر الإصلاح ، وهو الإحسان إليه ، المزيل لما قام به من الموجب للإساءة إليه ، والله يحب المحسنين ، ولو لم يكن في إحسانه المعبر عنه بالإصلاح إلا حصول حب الله إياه الذي لا يعدله شيء لكان عظيما فيكون أجر من هذا صفته على الله أجر محب لمحبوب ، وكفى بما تعطيه منزلة الحب ، فما يقدر أحد أن يقدر أجر ما يعطيه المحب لمحبوبه ، فقال تعالى :« فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ »وكان ينبغي أن يكون أجره على من تركت مطالبته بجنايته ، فتحمل الله ذلك الأجر عنه إبقاء على المسئ ورحمة به ، فلا يبقى للمظلوم عليه حق يطالبه

ص 88

به ، فشرع اللّه لنا في بعض الحقوق أنا إذا تركناها كان أعظم لنا ، وجعل ذلك من مكارم الأخلاق فقال :« فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ »أي هذه صفة الحق فيمن عفى عنه ، فيما هو حق له معرى عن حق الغير ، فإقامة العدل إنما هو في حق الغير ، وما كان اللّه ليأمر بمكارم الأخلاق ولا يكون الجناب الإلهي موصوفا به ، فكذلك يفعل مع عباده فيما ضيعوه من حقه وحقوقه ، يعفو ويصفح ويصلح ، فيكون المآل إلى رحمة اللّه في الدارين ، فتعمهم الرحمة حيث كانوا ولا يستوون ، فما أمرك بالعفو عمن جنى عليك إلا ليعفو عنك إذا جنيت عليه في ظنك ، ولو علم الناس قدر ما نبهنا عليه في هذه المسألة ما جازى أحد من أساء إليه بإساءة ، فما كنت ترى في العالم إلا عفوّا مصلحا ، فإن المسئ في حقنا ، الذي خيرنا اللّه بين جزائه بما أساء وبين العفو عنه لما أساء ، أعطانا من خير الآخرة ما نحن محتاجون إليه ، حتى لو كشف اللّه الغطاء بيننا وبين ما لنا من الخير في الآخرة في تلك المساءة حتى نراها عيانا ، لقلنا إنه ما أحسن أحد في حقنا أحسن من هذا الذي قلنا إنه أساء في حقنا ، فلا يكون جزاؤه عندنا الحرمان ، فنعفو عنه فلا نجازيه ، ونحسن إليه مما عندنا من الفضل على قدر ما تسمح به نفوسنا ، فإنه ليس في وسعنا ولا يملك مخلوق في الدنيا ما يجازي به من الخير من أساء إليه ، ولا يجد ذلك الخير ممن أحسن إليه في الدنيا ، فمن كان هذا عقده ونظره كيف يجازي المسئ بإساءته إذا كان مخيرا فيها ، ولو لم يكن ثم إخبار من اللّه بالخير الأخروي لمن أسيء إليه إذا صبر ولم يجاز لكان المقرر في العرف كافيا فيما في التجاوز والعفو والصفح عن المسئ ، فإن ذلك من مكارم الأخلاق ، ولولا إساءة المسئ إليّ ما اتصفت أنا ولا ظهرت مني هذه المكارم من الأخلاق ، كما أني لو عاقبته انتفت عني هذه الصفات في حقه ، وكنت إلى الذم أقرب مني إلى أن أحمد علي العقاب ، فكيف والشرع قد جاء في ذلك بأن أجر من يعفو ويتجاوز ولا يجازي أنه على اللّه ؟ .

[سورة الشورى (42) : آية 41]
وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41)
من طلب حقه واستقصاه فلا يلام .

[سورة الشورى (42) : الآيات 42 إلى 45]
إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (42)

ص 89

وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43) وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (44) وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ(45)

[الخشوع:]
الخشوع مقام الذلة والصغار ، وهو نعت محمود في الدنيا على قوم محمودين ، وهو نعت محمود في الآخرة على قوم مذمومين شرعا ، وفيهم قال تعالى »خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ «ولا يكون الخشوع حيث كان إلا عن تجل إلهي على القلوب ، في المؤمن عن تعظيم وإجلال ، وفي الكافر عن قهر وخوف وبطش ،
قال عليه السلام : [إن الله إذا تجلى لشيء خشع له]« يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ »إلى إله قاهر عليّ ، فإن هذا النظر حال الذليل لا يقدر يرفع رأسه من القهر ، وذلك الخشوع من الكافر يوم القيامة والذلة والنظر المنكسر الذي لا يرفع بسببه رأسه إنما هو لله تعالى ، خوفا منه ، فلو راقبوه في دنياهم أمنوه في أخراهم ، وهذا كان حال المؤمن في الدنيا ، فمن لم يتضع هنا اتضع هناك ، ومن لم يخشع هنا خشع من الذل هناك ، فلتبشر الخاشعين في هياكل الظلم بالسرور في هياكل النور ، ولما كان هذا حال المؤمن في الدنيا لخوفه من الله تمم« وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ ».

[سورة الشورى (42) : الآيات 46 إلى 48]
وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ(48)

ص 90

" إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ " وقد فعل صلّى الله عليه وسلّم فبلغ ، وأسمع الله من شاء وأصم من شاء.

[سورة الشورى (42) : آية 49]
لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (49)
الوهب هو إعطاء إنعام لا لطلب الشكر ولا العوض ، وهو وصف يرجع إليه تعالى ، ما طلب منهم في ذلك عوضا« يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً »مراعاة لمحل التكوين« وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ »مراعاة للملقي .

[سورة الشورى : (42)آية 50]
أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50)
-الوجه الأول – " أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً »مراعاة للمجموع ، فإن زوجهم إناثا أو ذكرانا أو ذكرا وأنثى فلوجود الجمع« وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً »لمن لا يقبل الولادة
[خلق الخنثى :]
-الوجه الثاني - « أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً »وهو الخنثى ، وينكر الطبيعيون أن يكون من ماء المرأة شيء ، وذلك ليس بصحيح ، فإن الإنسان يتكون من ماء الرجل ومن ماء المرأة ، فإن عيسى عليه السلام تكون جسمه من ماء أمه فقط ،

وقد ثبت عن النبي صلّى الله عليه وسلّم الذي لا ينطق عن الهوى أنه قال : [إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرا ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثا]
وفي رواية [سبق بدل علا] فقد جاء بالضمير المثنى في أذكرا وأنثا والمرأة والرجل إذا لم يسبق أحدهما صاحبه في إنزال الماء ، وأنزلا معا بحيث أن يختلطا ولا يعلو أحد الماءين على الآخر فإنه من أجل تلك الحالة إذا وقعت على تلك الصورة يخلق الله الخنثى ،

ص 91

فيجمع بين الذكورة والأنوثة ، وهو قوله تعالى :« أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً »، فإن كانا على السواء من جميع الجهات والاعتدال من غير انحراف ماء أحدهما كان الخنثى ، يحيض من فرجه ويمني من ذكره ،
فيعطي الولد ويقبل الولد ممن ينكحه ، وإن انحرف الماء عن الاعتدال ولم يبلغ مبلغ العلو على الآخر كان الحكم للمنحرف إلى العلو ،
فإن كان ماء المرأة حاض الخنثى ولم يمن ، وإن كان ماء الرجل أمنى ولم يحض ، فسبحان القدير الخلاق العليم" إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ " فوصف تعالى نفسه في ذلك بأنه عليم قدير وهو وصف يرجع إليه .

[سورة الشورى (42) : آية 51]
وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51)
[« وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً . . . » الآية :]
اعلم أن المناجاة والمشاهدة لا يجتمعان ، فإن المشاهدة للبهت والكلام للفهم ، فالعبد في حال الكلام مع ما يتكلّم به لا مع المتكلم ، أي شيء كان . واعلم أن خطاب الله تعالى أو كلام الله تعالى لمن شاء من عباده في حالتي اليقظة والمنام على ثلاثة أنواع : نوع يسمى وحيا ، ونوع يسمعه كلامه من وراء حجاب ، ونوع بوساطة رسول ، فيوحي ذلك الرسول من ملك أو بشر بإذن الله ما يشاء الله لمن أرسله إليه ، وهو كلام الله ، إذ كان هذا الرسول إنما يترجم عن الله ، فالإنسان لا يسمع كلام الحق من كونه بشرا إلا بهذه الضروب التي ذكرها الحق في هذه الآية أو بأحدها ، فإذا زال في نظره عن بشريته وتحقق بمشاهدة روحه كلمه الله بما كلم به الأرواح المجردة عن المواد ، وذلك لأن للبشر ما يباشره من الأمور الشاغلة له عن اللحوق برتبة الروح التي له من حيث روحانيته ، فإن ارتقى عن درجة البشرية كلمه الله من حيث كلم الأرواح إذ كانت الأرواح أقوى في التشبه ، لكونها لا تقبل التحيز والانقسام ، وتتجلى في الصور من غير أن يكون لها باطن وظاهر ، فما لها سوى نسبة واحدة من ذاتها ، وهي عين ذاتها ، والبشر من نشأته ليس كذلك ، ففيه ما يقتضي المباشرة والتحيز والانقسام ، وفيه ما لا يطلب ذلك وهو روحه المنفوخ فيه ، ولذلك قال تعالى :« وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ »وهو بشر« إِلَّا وَحْياً »وهو الخطاب الإلهي ، والوحي هو السرعة ، والوحي هو المفهوم الأول والإفهام الأول ، ولا أعجل من أن يكون

ص 92

عين الفهم عين الإفهام عين المفهوم منه ، ولا سرعة أسرع مما ذكرناه ، فإن لم تحصل لك هذه النكتة فلست صاحب وحي ، فالوحي ما يسرع أثره من كلام الحق تعالى في نفس السامع ، وقد يكون الوحي إسراع الروح الإلهي الأمري بالإيمان بما يقع به الإخبار ، والمفطور عليه كل شيء مما لا كسب له فيه من الوحي أيضا ، كالمولود يتلقى ثدي أمه ، ذلك من أثر الوحي الإلهي إليه ، وقال تعالى :(وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ)فلو لا ما فهمت من الله وحيه لما صدر منها ما صدر ، ولهذا لا يتصور المخالف إذا كان الكلام وحيا ، فإن سلطانه أقوى من أن يقاوم(وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)وكذا فعلت ولم تخالف ، مع أن الحالة تؤذن أنها ألقته في الهلاك ، ولم تخالف ولا ترددت ولا حكمت عليها البشرية ، بأن إلقاءه في اليم في تابوت من أخطر الأشياء ، فدل على أن الوحي أقوى سلطانا في نفس الموحى إليه من طبعه الذي هو عين نفسه ، فإذا زعمت أن الله أوحى إليك ، فانظر في نفسك في التردد أو المخالفة ، فإن وجدت لذلك أثرا بتدبير أو تفضيل أو تفكر فلست صاحب وحي ، فإن حكم عليك وأصمك وحال بين فكرك وتدبيرك وأمضى حكمه فيك ، فذلك هو الوحي ، وأنت عند ذلك صاحب وحي ، والوحي على ضربين - الوجه الأول - الوحي منه ما يلقيه الحق إلى قلوب عباده من غير واسطة ، فأسمعهم في قلوبهم حديثا لا يكيف سماعه ، ولا يأخذه حدّ ولا يتصوره خيال ، ومع هذا يعقله ولا يدري كيف جاء ، ولا من أين جاء ، ولا ما سببه ، فقوله تعالى :« إِلَّا وَحْياً »يعني من الوجه الخاص ، بما يلقي الله برفع الوسائط ، وهو ما يلقيه في القلب على جهة الحديث ، فيحصل من ذلك علم بأمر ما ، وهو الذي تضمنه ذلك الحديث ، وإن لم يكن كذلك فليس بوحي ولا خطاب ، فإن بعض القلوب يجد أصحابها علما بأمر ما من العلوم الضرورية عند الناس ، فذلك علم صحيح ليس عن خطاب ، وكلامنا إنما هو في الخطاب الإلهي المسمى وحيا ، فإن الله تعالى جعل مثل هذا الصنف من الوحي كلاما ، ومن الكلام يستفيد العلم بالذي جاء له ذلك الكلام ، وبهذا يفرق إذا وجد ذلك ، وهؤلاء البشر منهم المحدثون الذي ورد الخبر الصحيح أن عمر بن الخطاب منهم - الوجه الثاني -« إِلَّا وَحْياً »يريد إلهاما بعلامة يعلم بها أن ربه كلمه ، حتى لا يلتبس عليه الأمر« أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ »فهو خطاب إلهي يلقيه على السمع لا على

القلب ، فيدركه من ألقي عليه فيفهم منه ما قصد به من أسمعه ذلك ، وقد يحصل له ذلك في صورة التجلي حيث كان ، فيكلمه من وراء حجاب صورة ما يكلمه به ، فتخاطبه تلك الصورة الإلهية وهي عين الحجاب ، فيفهم من ذلك الخطاب علم ما يدل عليه ، ويعلم أن ذلك حجاب ، وأن المتكلم من وراء ذلك الحجاب ، ورد في الصحيح تجلي الحق في الصور وتحوله فيها ، وقد يكون من وراء حجاب يريد إسماعه إياه لحجاب الحروف المقطعة والأصوات ، كما سمع الأعرابي القرآن المتلو الذي هو كلام الله ، أو حجاب الآذان أيضا من السامع ، فيكون الحجاب صورة بشرية لتقع المناسبة بين الصورتين بالخطاب ، وقد يكون الحجاب بشريته مطلقا ، فيكلمه في الأشياء كما كلم موسى عليه السلام من جانب الطور الأيمن في البقعة المباركة ،(أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ) فوقع الحد بالجهة ، وتعين البقعة ، فكان الحجاب صورة النار التي وقع فيها التجلي ، »أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا »من جنسك وغير جنسك ، فمن

- **الوجه الأول** - يكلمه بواسطة بشر ،

وهو قوله (فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ) فأضاف الكلام إلى الله ، وما سمعته الصحابة ولا هذا الأعرابي إلا من لسان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، أو إذا أوحى الله إلى الرسول البشري من الوجه الخاص بارتفاع الوسائط ، وألقاه الرسول علينا ، فهو كلام الحق لنا من وراء حجاب تلك الصورة المسماة رسولا إن كان مرسلا إلينا أو نبيا ، فإن الحق لا يكلم عباده ولا يخاطبهم إلا من وراء حجاب صورة يتجلى لهم فيها ، تكون تلك الصورة حجابا عنه ودليلا عليه ، ألا ترى كلام الله موسى عليه السلام وقد تجلى له في صورة حاجته وهي النار ، ومن

- **الوجه الثاني – "** أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا " يعني لذلك البشر ، فهو ترجمان الحق في قلب العبد ، فيكلمه بوساطة رسول من ملك ، كقوله (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ)يعني القرآن الذي هو كلام الله ، على قلب محمد صلّى الله عليه وسلّم ، فيكون قوله تعالى على كلا الوجهين« أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا »ينوب عنه في الكلام ، وهو الترجمان ، فهو ما ينزل به الملك ، أو ما يجيء به الرسول البشري إلينا إذا نقلا كلام الله خاصة مثل التالي« فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ »الله تعالى ما أمره أن يوحي به إليه« إِنَّهُ عَلِيٌّ »أي عليم بما تقتضيه المراتب التي ذكرها وأنزلها منزلتها« حَكِيمٌ «يريد بإنزال ما علمه منزلته - تحقيق - البشرية حجاب لا يرتفع أبدا ، - انظر في بشريتك تجدها عين سترك الذي كلمك من ورائه ، فقد يكلمك منك فأنت حجاب نفسك عنك وستره عليك ، ومن المحال

ص 94

أن تزول عن كونك بشرا ، فإنك بشر لذاتك ولو غبت عنك أو فنيت بحال يطرأ عليك ، فبشريتك قائمة العين ، فالستر مسدل ، ولذلك أخطأ من قال : ما دام في بشريته فالكلام له من وراء حجاب ، ولكن إذا خرج عن بشريته ارتفع الحجاب ؛ والخطأ هنا في قوله :
ارتفع الحجاب ؛ ولم يقيد ، وإنما يقال : ارتفع حجاب بشريته ، ولا شك أن خلف حجاب بشريته حجبا أخر ، فقد يرتفع حجاب البشرية ويقع الكلام من الله لهذا العبد خلف حجاب آخر ، أعلاها من الحجب ، وأقربها إلى الله ، وأبعدها من المخلوق ، المظاهر الإلهية التي يقع فيها التجلي إذا كانت محدودة معتادة المشاهدة ، كظهور الملك في صورة رجل ، فيكلمه على الاعتدال للعادة والحد ، وقد تجلى له وقد سد الأفق ، فغشي عليه لعدم المعتاد ، وإن وجد الحد ، فكيف بمن لم ير حدا ولا اعتاد ؟ فقد تكون المظاهر غير محدودة ولا معتادة ، وقد تكون محدودة لا معتادة ، وقد تكون محدودة معتادة ، ومن هذا نعلم أن الله ما جمع لأحد بين مشاهدته وبين كلامه في حال مشاهدته ، فإنه لا سبيل إلى ذلك إلا أن يكون التجلي الإلهي في صورة مثالية ، فحينئذ يجمع بين المشاهدة والكلام ، ولذلك قال تعالى :« وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ »وما زال البشر عن حكم بشريته كمسألة موسى ، والحجاب عين الصورة التي يناديه منها ، وما يزال البشر عن بشريته وإن فني عن شهودها ، فعين وجودها لا يزول والحد يصحبها
[مسألة : الفرق بين الكلام والقول]
-مسألة الفرق بين الكلام والقول - الكلام ، ما أثر ولا يدخله انقسام ، فإذا دخله الانقسام فهو القول ، وفيه المنة الإلهية والطول ، القرآن كله قال الله ، وما فيه تكلم الله ، وإن كان قد ورد فيه ذكر الكلام ، ولكن تشريفا لموسى عليه السلام ، ولو جاء بالكلام ما كفر به أحد ، لأنه من الكلم ، فيؤثر فيمن أنكره وجحد ، ألا ترى إلى قوله(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً)كيف سلك به نهجا قويما ؟ فأثر فيه كلامه ، وظهرت عليه أحكامه ، فإذا أثر القول ، فما هو لذاته بل هو من الامتنان الإلهي والطول ، ففرّق بين القول والكلام ، تكن من أهل الجلال والإكرام ، كما تفرق بين الوحي والإلهام ، وبين ما يأتي في اليقظة والمنام ، ولما أخبر الحق تعالى نبيه بالمراتب كلها التي تطلبها البشرية من كلام الحق قال له : -

[سورة الشورى : (42) آية 52]
وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ(52)

ص 95

" وَكَذلِكَ " أي ومثل ذلك« أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا»
[» وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا . . . » الآية :]
-الوجه الأول - يعني الروح الأمين الذي نزل به على قلبك
- الوجه الثاني - يعني قوله تعالى :(يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ)« ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ »وهو عرو المحل عن كل ما يشغله عن قبول ما أوحي به إليه ، فما هو تحت كسبك ولا تعلق لك خاطر بتحصيله ، وهو نور من حضرة الربوبية لا من غيرها ،
وأصله الروح الذي هو من أمر ربي ، أي من الروح الذي لم يوجد عن خلق ، فإن عالم الأمر كل موجود لا يكون عن سبب كون يتقدمه ،" وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً " يعني هذا المنزل نور هداية ، وهو النور الذي قال الله تعالى فيه (أَ وَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ)
وقوله تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً) وهو هذا الروح (فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (فكان بجعل الله ولم يضفه إلى الاكتساب ، فقال تعالى« وَلكِنْ جَعَلْناهُ »يعني الوحي وهو العلم« نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا »فشبه الوحي وهو العلم بالنور للمشابهة الجلية بين العلم والنور ، حتى يهدي به إلى صراط مستقيم ، وجاء بمن وهي نكرة في الدلالة ، مختصة عنده ببعض عباده من نبي أو ولي ،
وقوله تعالى :« نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا »يعطي أن الإيمان لا تعطيه إقامة الدليل ، بل هو نور إلهي يلقيه الله في قلب من شاء من عباده ، وقد يكون عقيب الدليل ، وقد لا يكون هناك دليل أصلا ،
كما قال تعالى :« وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا » (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي)بذلك النور الذي هديتك به ، فإن كان هذا العبد نبيا فهو مشرع ، وإن كان وليا فهو تأييد لشرع النبي ، وحكمه في أمر مشروع مجهول عند بعض المؤمنين به« إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ »في حق النبي طريق السعادة والعلم ، وفي حق الولي طريق العلم لما جهل من الأمر المشروع فيما يتضمنه من الحكمة .

[سورة الشورى (42) : آية 53]
صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ(53)

ص 96

»صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ «الصراطات تميزت بالإضافة ، فمنها صراط الله ، ومنها صراط العزيز ، ومنها صراط الرب ، ومنها صراط محمد صلّى الله عليه وسلّم ، ومنها صراط النعم ، وهو صراط الذين أنعمت عليهم ، فصراط الله هو الصراط العام الذي عليه تمشي جميع الأمور ، فيوصلها إلى الله ، فيدخل فيه كل شرع إلهي وموضوع عقلي ، فهو يوصل إلى الله ، فيعم الشقي والسعيد ، والله على صراط مستقيم ، والطريق لا يراد لنفسه ، وإنما يراد لغايته ، فالشريعة« صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ »من الموازين« أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ »وترجع لأنها على صراطه ، وهو غاية صراطه ، فلا بد للسالك عليه من الوصول إليه ، فتعم الرحمة الجميع ، فإن الرحمة سبقت الغضب ، فما دام الحق منعوتا بالغضب فالآلام باقية على أهل جهنم الذين هم أهلها ، فإذا زال الغضب الإلهي وامتلأت به النار ، ارتفعت الآلام ، وحكمت الرحمة ، وهذا الصراط هو الذي يقول فيه أهل الله : إن الطرق إلى الله على عدد أنفاس الخلائق ؛ وكل نفس إنما يخرج من القلب بما هو عليه القلب من الاعتقاد في الله .

(43) سورة الزخرف مكيّة

[سورة الزخرف (43 : (الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)

القرآن كتاب من جملة الكتب إلا أن له الجمعية دون سائر الكتب ، وهو صفة الحق ، وهو أم الكتاب الذي خرجت عنه الكتب المنزلة ، واختلفت الألسنة به لقبوله إياها بحقيقته ، فقيل فيه إنه عربي وإنه عبراني وإنه سرياني بحسب اللسان الذي أنزل به ، وهذا هو عين الجعل في القرآن وعين نسبة الحدوث إليه ، والجعل يكون بمعنى الخلق وبغيره ، فما ينسب إلى القرآن من قوله محدث فهو من حكم الجعل الذي بمعنى الخلق « 1 » ، قال تعالى :(ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ

---

(1)الخلق هنا بمعنى التقدير لا الإيجاد ، فإن جعل تأتى في القرآن بمعنى خلق وبمعنى صيّر ، والجعل الذي هو على معنى الخلق وهو الإيجاد ، جعله الله من القول المفصّل الذي يستغني به السامع ، وأمّا جعل الذي هو بمعنى التصيير فإن-

ص 97

مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ) فهو محدث الإتيان ، وما هو الإتيان عين الإنزال ، كما أنه ليس بعين الجعل.

[سورة الزخرف (43) : آية 4]

وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4)

[أم الكتاب :]

جعل الله في الوجود كتابين : كتابا سماه أمّا ، فيه ما كان قبل إيجاده وما يكون ، كتبه بحكم الاسم المقيت ، فهو كتاب ذو قدر معلوم فيه بعض أعيان الممكنات وما يتكون عنها ، وكتابا آخر ليس فيه سوى ما يتكون عن المكلفين خاصة ، فلا تزال الكتابة فيه ما دام التكليف ، وبه تقوم الحجة لله على المكلفين ، وبه يطالبهم لا بالأم ، وهو كتاب الإحصاء ، فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وكل صغير وكبير مستطر ، وهو منصوص عليه في الأم التي هي الزبر ، ومعناه الكتابة ، وإن كانت أصناف الكتب كثيرة فإنها ترجع إلى هذين الكتابين ، فمن الكتاب الثاني يسمى الحق خبيرا ، ومن الأم يسمى عليما ، فهو العليم بالأول الخبير بالثاني ، وكلا الكتابين محصور لأنه موجود ، وعلم الله في الأشياء لا يحصره كتاب مرقوم ولا يسعه رق منشور ولا لوح محفوظ ولا يسطره قلم أعلى .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 5 إلى 12]

أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (5) وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (7) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (11) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (12)

-الله عزّ وجل أنزله من القول الموصّل ، الذي لا يدري المخاطب به ما أراد المخاطب ، حتى يصل الكلمة بكلمة بعدها ، فيعلم ما أراد بها .
(راجع كتاب الحيدة للإمام عبد العزيز الكناني).

ص 98

[إشارة : الفلك عرش الإنسان الكامل]
إشارة - اعلم أنه لما كان الاستواء صفة الحق على العرش ، وخلق الإنسان الكامل على صورته ، جعل له مركبا سماه فلكا ، كما كان العرش فلكا ، فالفلك مستوى الإنسان الكامل ، وجعل لمن هو دون الإنسان الكامل مركبا غير الفلك ، من الأنعام والخيل والبغال والحمير ، ليستوي الإنسان على ظهور هذه المراكب ، وشاركهم في ركوبها الإنسان الكامل ، فالكامل من الناس يستوي على كل مركوب ، وغير الكامل لا يستوي على الفلك إلا بحكم التبعية لا لعينه .

[سورة الزخرف : (43) آية 13]

لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13)

[لا فضل لك على البهائم بالتسخير :]
اعلم أن البهائم وإن كانت مسخرة مذللة من الله للإنسان ، فلا تغفل عن كونك مسخرا لها بما تقوم به من النظر في مصالحها ، في سقيها وعلفها وما يصلح لها ، من تنظيف أماكنها ومباشرة القاذورات والأزبال من أجلها ووقايتها من الحر والبرد والمؤذيات لها ،
فهذا وأمثاله من كون الحق سخرك لها ، وجعل في نفسك الحاجة إليها ، فإنها تحمل أثقالك إلى بلد لم تكن تبلغه إلا بشق الأنفس ، فلا فضل لك عليها بالتسخير ،
فإن الله أحوجك إليها أكثر مما أحوجها إليك ، فما جعل لها إليك حاجة ، وجعل فيك الحاجة إليها ، وجميع البهائم تفر منك ممن لها آلة الفرار ، وما هذا إلا لاستغنائها عنك وما جبلت عليه من العلم بأنك ضار لها ، ثم طلبك لها وبذل مجهودك في تحصيل شيء منها دليل على افتقارك إليها ، فبالله من تكون البهائم أغنى منه ، كيف يحصل في نفسه أنه أفضل منها ؟
هل سمعت في النبوة الأولى والثانية قط أن حيوانا أو شيئا من غير الحيوان عصى أمر الله أو لم يقبل وحي الله .

[سورة الزخرف : (43) الآيات 14 إلى 17]

وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (14) وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17)

ص 99

فإنهم كانوا يكرهون البنات ، وجعلوا بين الله وبين الملائكة نسبا ، فقالوا : إن الملائكة بنات الله ؛ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 18 إلى 19]
أَ وَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18)وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (19)
لما كانت اللفظة التي تطلق على الأجسام النورانية والأرواح لفظة تقتضي التأنيث ، وهو الملائكة والجنة ، لهذا جعلهم من جعلهم بناتا وإناثا .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 20 إلى 23]
وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (20) أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23)
اعلم أن التقليد هو الأصل الذي يرجع إليه كل علم نظري أو ضروري أو كشفي ، فإذا كان التقليد هو الحاكم ولا بد ، ولا مندوحة عنه ، فتقليد الرب أولى فيما شرع من العلم به ، فلا تعدل عنه ، فإنه أخبرك عن نفسه في العلم به ، فتقليد الحق أولى من تقليد من هو مخلوق مثلك ، فكما استفدت منه سبحانه الوجود فاستفد منه العلم ، فقف عند خبره عن نفسه بما أخبر ، ولا تبال بالتناقض في الأخبار ، فإن لكل خبر مرتبة ينزل ذلك الخبر فيها.

ص 100

[سورة الزخرف (43) : الآيات 24 إلى 31]
قالَ أَ وَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (24) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25) وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26)إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28)
بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29) وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ (30) وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31)
وهذا من جهلهم ، لأنهم لا يعرفون الحق إلا بالرجال ، فالعاقل من يأخذ العلم والحكمة حيث وجدها ، ولا ينظر إلى المحل الذي جاء بها ، فهو يعرف الرجال بالحق ، وغير العاقل يعرف الحق بالرجال .

[سورة الزخرف (43) : آية 32]
أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32)
[« وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ . . . » الآية :]
« نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا »الرزق مقسوم ، ومنزّل بقدر معلوم ، لا ينقص ولا يزيد ، طلب العبيد ، وطلب المزيد في الجبلة ، في كل ملة ، كيف لا يظهر بالافتقار ، من حكم عليه الاضطرار ، وبقي الحكم للأقدار ، فكل شيء عنده بمقدار« وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ »
- الوجه الأول - يعني الخلق ، فدخل فيه جميع

ص 101

بني آدم دنيا وآخرة ، فجعل تعالى العالم فاضلا مفضولا ،

- الوجه الثاني - "وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ »بإعطاء كمال الإنسانية بالصورة الإلهية التي خلق عليها بعضهم« لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ »وهم الذين رفعهم الله« بَعْضاً »وهم الأناسي الحيوانيون« سُخْرِيًّا »
فجعل تعالى علة التسخير رفعة بعضنا على بعض بالدرجة التي يحتاج إليها المسخر المفعول ، فإن الله قد جعل العالم على مراتب درجات ، مفتقرا بعضه إلى بعض .
واعلم أن التسخير قد يكون إذلالا ، وقد يكون القيام بما يحتاج إليه ذلك المسخر له بالحال ، وهذا الفرقان بين التسخيرين بما تعطيه حقيقة المسخر والمسخر له ، فالعبد الذي هو الإنسان مسخر لفرسه ودابته ، فينظر منها في سقيها وعلفها وتفقد أحوالها مما فيه صلاحها وصحتها وحياتها ، وهي مسخرة له بطريق الإذلال لحمل أثقاله وركوبه واستخدامه إياها في مصالحه ، وهكذا في النوع الإنساني برفع الدرجات بينهم ، فبالدرجة يسخر بعضهم بعضا ، فتقتضي درجة الملك أن يسخر رعيته فيما يريده بطريق الإذلال للقيام بمصالحه لافتقاره إلى ذلك ، وتقتضي درجة الرعايا والسوقة أن تسخر الملك في حفظها والذب عنها ، وقتال عدوها والحكم فيما يقع بينها من المخاصمات وطلب الحقوق ، فهذه سخرية قيام لا سخرية إذلال ، اقتضتها درجة السوقة ودرجة الملك ، وبذلك يكون الخلق مسخرا اسم فاعل ومسخرا اسم مفعول ، ففي رفع الدرجات جعل الله التسخير بحسب الدرجة التي يكون فيها العبد أو الكائن فيها ، كان من كان ، فيقتضي الكائن فيها أن يسخّر له من هو في غيرها ، ويسخره أيضا من هو في درجة أخرى ، وقد تكون درجة المسخر اسم مفعول أعلى من درجة المسخر اسم فاعل ، ولكن في حال تسخير الأرفع بما سخره فيه شفاعة المحسن في المسئ إذا سأل المسئ الشفاعة فيه ، وفي حديث النزول في الثلث الباقي من الليل غنية وكفاية وشفاء لما في الصدور لمن عقل ، ولما كانت الدرجة حاكمة اقتضى أن يكون الأرفع مسخرا اسم مفعول ، وتكون أبدا تلك الدرجة أنزل من درجة المسخر اسم فاعل ، والحكم للأحوال ، كدرجة الملك في ذبه عن رعيته وقتاله عنهم وقيامه بمصالحهم ، والدرجة تقتضي له ذلك ، والتسخير يعطيه النزول في الدرجة عن درجة المسخر له اسم فاعل .

ص 102

[سورة الزخرف (43) : الآيات 33 إلى 48]
وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (34) وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35) وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37)
حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (39) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (40) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42)
فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (43)وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ (44) وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (46) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (47)
وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(48)

الراجع إلى الله مع نزول العذاب مقبول رجوعه ، لأنه أتى بما ترجي منه بقوله »لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ »فالرجعة إلى الله مقبولة عند رؤية البأس وحلول العذاب ، وذلك نافع لهم في

ص 103

الآخرة وإن لم يكشف عنهم العذاب في الدنيا ، وما اختص قوم يونس إلا بالكشف عنهم في الحياة الدنيا عند رجعتهم .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 49 إلى 53]

وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (50) وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ (52) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)

يقول فرعون« فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ »فلو وهو حرف تحضيض ، أعطي يعني موسى عليه السلام نفوذ الاقتدار فينا حتى لا ننازعه ونسمع له ونطيع ، لأن اليدين محل القدرة ، والأسورة وهو شكل محيط من ذهب أكمل ما يتحلى به من المعادن ، ونفوذ الاقتدار من الاختصاص الإلهي ، يقول فرعون لقومه : فما أعطي ذلك موسى ؛ والذي يدلك على ما قلناه ، أن فرعون أراد هذا المعنى ، أنه جاء بأو بعده ، وهي حرف عطف بالمناسب ، فقال :« أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ »لعلمه بأن قومه يعلمون أن الملائكة لو جاءت لانقادوا إلى موسى طوعا وكرها ، يقول فرعون : فلم يكن لموسى عليه السلام نفوذ اقتدار فيّ حتى أرجع إلى قوله من نفسي بأمر ضروري لا نقدر على دفعه ، فترجعوا إلى قوله لرجوعي ، ولا جاء معه من يقطع باقتدارهم .

[سورة الزخرف (43) : آية 54]

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ(54)

» فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ »أي لطف معناهم بالنظر فيما قاله لهم ، فلما جعل فيهم هذا حملهم على تدقيق النظر في ذلك ، ولم يكن لهم هذه الحالة قبل ذلك« فَأَطاعُوهُ »ومن ادعى الربوبية لنفسه فإنما استخف قومه ، فإنه كاذب عند نفسه عالم بأنه كاذب ، ولكنه استخف قومه

ص 104

" فَأَطاعُوهُ »لذلك وهو يعلم خلاف ذلك من نفسه ، ولا أعلم أن أحدا يجوع ويمرض ويغوط وأمثال هذا يدعي الألوهية إلا فرعون لما استخف قومه ، لذلك قال :(ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي)أي في اعتقادكم ، فأطاعوه ظاهرا بالقهر الظاهر ، لأنه في محل يخاف ويرجى ، وباطنا بما نظروا فيه مما قاله لهم« إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ »أي خارجين عما تعطيه العقول الصحيحة ، من إنكار ما ادعاه فرعون باللسان الظاهر في العقل ، وما شرّك الله تعالى فرعون مع قومه في ضمير إنهم .

[سورة الزخرف (43) : آية 55]

فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (55)

"فَلَمَّا آسَفُونا »أي أغضبونا« انْتَقَمْنا مِنْهُمْ »فإن لله سبحانه نفوذ الاقتدار ، فانتقم منهم ليجعلهم عبرة للآخرين ، وذلك لما أخذ فرعون قلوبهم بالكلية إليه ، ولم يبق لله فيهم نصيب يعصمهم ، أغضبوا الله ، فغضب فانتقم ، فكان حكمهم في نفس الأمر خلاف حكم فرعون في نفسه ، فإنه علم صدق موسى عليه السلام ، وعلم حكم الله في ظاهره بما صدر منه ، وحكم الله في باطنه بما كان يعتقده من صدق موسى فيما دعاهم إليه ، وكان انتقام الله بقوله« فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ »فسوى الله في الغرق بينهم ، بين فرعون وقومه ، وتفرقا في الحكم .

[سورة الزخرف (43) : آية 56]

فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ (56)

يعني للأمم الذين يأتون بعدهم ، وخص فرعون بأن تكون نجاته آية لمن رجع إلى الله بالنجاة .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 57 إلى 62]

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (59) وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (61)

وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(62)

ص 105

الأنبياء معصومون في إخبارهم عن الله أن يقولوا ما ليس هو الأمر عليه في نفسه ، بخلاف غير الأنبياء من المخبرين من عالم وغير عالم ، فالعالم قد يتخيل فيما ليس بدليل أنه دليل ، فيخبر بما أعطاه ذلك الدليل ثم يرجع عنه ، فلهذا لا ينزل في درجة العلم منزلة النبي صلّى الله عليه وسلّم ، وقد يخبر بالعلم على ما هو عليه في نفس الأمر ، ولكن لا يتعين على الحقيقة لما ذكرناه من دخول الاحتمال فيه ، وكذلك غير العالم من العوام فقد يصادفون العلم وقد لا يصادفونه في إخبارهم ، والنبي صلّى الله عليه وسلّم ليس كذلك ، فإذا أخبر عن أمر من جهة الله فهو كما أخبر ، فالمحصّل له عالم بلا شك ، كما أن ذلك الخبر علم بلا شك .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 63 إلى 67]
وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (67)

الخلة هنا هي المعاشرة ، ولا تصح المخاللة من المخلوقين ، أعني من المؤمنين ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله] فالمخاللة لا تصح إلا بين الله وبين عبده ، قال تعالى :« وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا »ولكن قد انطلق اسم الأخلاء على الناس مؤمنيهم وكافريهم ، فتسمى المعاشرة التي بين الناس إذا تأكدت في غالب الأحوال خلة - راجع سورة النساء آية 124. -

ص 107

[سورة الزخرف (43) : الآيات 68 إلى 71]

يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (71)

شهوة الجنة يقع لها اللذة بالمحسوس وبالمعقول على صورة ما يقع بالمحسوس ، من وجود الأثر البرزخي عند نيل المشتهى المعقول سواء ، وهذه الشهوة تكون في الجنة لكل أحد من أهل الجنة ، وفي الدنيا لا تقع إلا لآحاد من العارفين ، وأما الشهوة في الدنيا فلا تقع لها لذة إلا بالمحسوس الكائن ، والدار الآخرة تقتضي تكوين العالم عن العالم حسا وبمجرد حصول الخاطر ، والهمّ والإرادة والتمني والشهوة ، كل ذلك محسوس ، فلا تزال الآخرة دائمة التكوين عن العالم ، فإنهم يقولون في الجنان للشيء ، يريدونه كن فيكون ، فلا يتوهمون أمرا ما ، ولا يخطر لهم خاطر في تكوين أمر ما إلا ويتكون بين أيديهم ، وهذا في الدار الآخرة للجميع وليس ذلك إلا نيل الأغراض ، وهو الفعل بالهمة لكل أحد ، وهذا في الدار الدنيا نادر شاذ ،

[هل في نكاح الجنة نتاج ؟]

فإن قلت : فهل في نكاح الجنة نتاج ؟

قلنا : نعم ، فإن في الإنتاج عين الكمال ، فإن فيه نتاج ولا بد ، وولادته نفس يخرج من الزوجة عند الفراغ من الجماع ، فإن الإنزال ريح كما هو في الدنيا ماء ، فيخرج ذلك الريح بصورة ما وقع عليه الاجتماع بين الزوجين ، فمن أهل الجنة من يشاهد ذلك ومنهم من يغيب عنه ، فإن الأمر شهادة وغيب ، شهادة في حق من شهده ، وغيب في حق من غاب عنه ، والحكم في الجنة أن نفس حصول الشهوة نفس حصول المشتهى ، بحيث لو تأخرت عنه إلى الزمان الثاني الذي يلي زمان حصول الشهوة ، لكان ذا ألم لفقد المشتهى زمان الشهوة كالدنيا ، فإنه لا بد أن يتأخر حصول المشتهى عن زمان الشهوة فلا بد من الألم ، فإذا حصل المشتهى فأعظم الالتذاذ به اندفاع ذلك الألم - تحقيق - راجع البقرة آية رقم 29 - .

[سورة الزخرف (43) : آية 72]

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72)

راجع الأعراف آية 43.

ص 108

[سورة الزخرف (43) : الآيات 73 إلى 74]
لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (73) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (74)
في مواطن لم يقيد الحق العذاب بالأليم وأطلقه ، فقال« فِي عَذابِ جَهَنَّمَ »ولم ينعته بأنه أليم ، فإنه لا يزال عذابا وإن زال الألم .

[سورة الزخرف : (43) آية 75]
لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75)
« لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ »من كونه عذابا« وَهُمْ فِيهِ »أي في العذاب« مُبْلِسُونَ »أي مبعدون من السعادة العرضية في هذا الموطن ، لأن الإبلاس لفظة مختصة بأهل جهنم في بعدهم ، فلهذا جاء بالإبلاس ليوقع هذا الاصطلاح اللغوي في موضعه عند أهله ليعلموه ، فإنه لموطن جهنم لغة - ليست لأهل الجنان - والإبلاس منها ، وذلك زمان عذابهم وأخذهم بجرائمهم قبل أن تلحقهم الرحمة التي سبقت الغضب الإلهي .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 76 إلى 77]
وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (77)
مالك عليه السلام هو متولي دار الشقاء التي هي السجن ، وسمي مالكا ومعناه الشديد ، يقال ملكت العجين إذا شددت عجنه ، فسمي مالكا وهو الخازن الأكبر المقدم بهذا الاسم لشدته وقوته وقهره الظاهر في عالم الشقاء ، فيزيد عذابهم وحرجهم لهذا القهر .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 78 إلى 84]
لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (78) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80) قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (81) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(84)

ص 108

[» وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ » الآية :]
جاء بالهوية بما ينبغي أن يظهر به في السماوات من الألوهية بالاسم الذي يخصها ، وفي الأرض إله بالاسم الذي ينبغي أن يظهر به في الأرض من كونه إلها ، فكان آدم نائبا عن هذا الاسم ، وهذا الاسم هو باطنه ، وهو المعلوم له علم التأثيرات التي تكون عن الأسماء الإلهية التي تختص بالأرض ، حيث كانت خلافته فيها ، فإن لكل اسم خاصية في الفعل في الكون « 1 »« وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ »الحكمة حضرة تعطي علم الترتيب وإعطاء كل شيء حقه وإنزاله منزلته ، فيثبت الترتيب في أعيان الممكنات في حال ثبوتها بحكمة الحكيم ، لأنه ما من ممكن يضاف إلى ممكن إلا ويمكن إضافته إلى ممكن آخر لنفسه ، لكن الحكمة اقتضت بحكمها أن ترتبه كما هو بزمانه وحاله في حال ثبوته ، وهذا هو العلم الذي انفرد به الحق تعالى وجهل منه ، وظهر به الحكم في ترتيب أعيان الممكنات في حال ثبوتها قبل وجودها ، فتعلق بها العلم الإلهي بحسب ما رتبها الحكيم عليه ، فالحكمة أفادت الممكن ما هو عليه من الترتيب الذي يجوز خلافه ، والترتيب أعطى العالم العلم بأن الأمر كذا هو ، فلا يوجد إلا بحسب ما هو عليه في الثبوت الذي هو ترتيب الحكيم عن حكم الحكمة ، فالحكمة لها الجعل والعلم ليس كذلك ، لأن العلم تابع للمعلوم ، والحكمة تحكم في الأمر أن يكون هكذا« وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ »في المنع والعطاء ، فإن الله عزّ وجل ما منع إلا لحكمة ولا أعطى إلا لحكمة ، فهو العليم بكل شيء ، ومنزلة ذلك الشيء المعلوم .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 85 إلى 87]

وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85) وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(87)

---

(1)إشارة لأبي عبد الله المصنف : أتى بلفظ« وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ »فكان ظهوره بالهوية فيها ولم يقل « وهو الذي في الأرض إله »فناب عنه الخليفة فيها ، ولو أتى بالهوية ما عبد غير الله في الأرض كما لم يعبد في السماء إلا هو.

ص 109

وهذه شهادة من الله في حق المشركين ، فهو تنبيه عجيب ، فما ذكروا قط إلا الألوهية ، وما ذكروا الأشخاص ، ولكن لم يقبل الله منهم العذر بل قال »فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ «.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 88 إلى 89]
وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)

(44) سورة الدّخان مكيّة
بسم الله الرحمن الرحيم

سميت السورة بذلك الاسم لأن فيها آية (يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ)
وهي السورة التي خبأها النبي صلّى الله عليه وسلّم لابن صياد ، فقال له : [ما خبأت لك ؟ فقال له : الدّخ] وهو لغة في الدخان ، فعلم ابن صياد اسمها الذي نواه وأضمره في نفسه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في خبئه ، فقال له صلّى الله عليه وسلّم : [اخسأ فلن تعدو قدرك] أي علمك بهذا لا يخرجك عن قدرك الذي أهّلك الله له ،
وقد روي [فلم تعدو قدرك] يعني بإدراكك لما خبأت لك ، فإنه صلّى الله عليه وسلّم لم يختبر صافا بما خبأ له عن وحي من الله ، فلو كان عن وحي ما عثر عليه ابن صياد ، لأن الله من وراء ما يأمر به بالتأييد ، بل كان هذا القول مثل قوله صلّى الله عليه وسلّم في إبار النخل ، فلما خرج خبؤه كان ذلك من الله تأديب فعل ، ليحفظ عليه مقام المراقبة ، فلا ينطق إلا عن شهود ، إذ بقرينة الحال يعلم أن النبي صلّى الله عليه وسلّم ما خبأ له ما خبأ إلا ليعجزه ، فأبى الله ذلك ، فقال صلّى الله عليه وسلّم : [إن الله أدبني فأحسن تأديبي]
ولو نطق النبي صلّى الله عليه وسلّم للحاضرين بقصده فيما خبأ له لارتدت جماعة من الحاضرين لذلك ، ولكن الله عصم نبيه صلّى الله عليه وسلّم عن القول ، ولم يخرجه العلم بالخبيئة عن كونه كاهنا ، والحاضرون يعرفون أمر الكهنة وشأنهم ، ولا سيما أهل اليمن والحجاز وجزيرة العرب ، فلم يخرجه ذلك العلم عن قدره عند الحاضرين .

[سورة الدخان (44) : الآيات 1 إلى 3]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
حم (1) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ(3)

ص 110

[الليلة المباركة ، ووحي الفرقان ووحي القرآن :]
بدأ بالجمع الذي هو كل شيء . واعلم أن الله أنزل الكتاب فرقانا في ليلة القدر ليلة النصف من شعبان ، وأنزله قرآنا في شهر رمضان ، كل ذلك إلى السماء الدنيا ، ومن هناك نزل في ثلاث وعشرين سنة فرقانا نجوما ذا آيات وسور ، لتعلم المنازل وتتبين المراتب ، فمن نزوله إلى الأرض في شعبان يتلى فرقانا ، ومن نزوله في شهر رمضان يتلى قرآنا ، والليلة المباركة هي ليلة القدر الموافقة ليلة النصف من شعبان المخصوصة بالآجال ، وكما سبق أن ذكرنا في تفسير قوله تعالى (وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ)
أن الوحي وحيان : وحي القرآن وهو الأول ، ووحي الفرقان ، فإنه تعالى أشار في هذه الآية بقوله :« إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ »ولم يقل بعضه ، ثم قال .

[سورة الدخان (44) : آية 4]
فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4)
وهذا هو وحي الفرقان ، فالأمر ينزل إليها عينا واحدة ، ثم يفرق فيها بحسب ما يعطيه من التفاصيل ، كما تقول في الكلام إنه واحد من كونه كلاما ، ثم يفرق في المتكلم به - بحسب الأحوال الذي يتكلم به - إلى خبر واستخبار وتقرير وتهديد وأمر ونهي ، وغير ذلك من الكلام مع وحدانيته ، فقوله تعالى »فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ »أي محكم ، فتظهر الحكم - في التوحيد الآتي - التي جاءت بها الرسل الإلهيون ونطقت بها الكتب الإلهية ، رحمة بعباد الله عامة وخاصة ، فكل موجود يدركها ، وما كل موجود يعلم من أين صدرت ، فهي عامة الحكم خاصة العلم ، إذ كانت الاستعدادات من القوابل مختلفة

- إشارة – " إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ »لأهل السعة والمحققين والمعتبرين ، فإن أكثر الفتح عند هؤلاء هو أن يكشف للعبد عن نسخة القرآن في عالم الإنسان ، فعلى هذا الاعتبار قول الله تعالى :(إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)
و« فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ »فهي في التفسير الظاهر ليلة القدر ، وفي اعتبار هؤلاء ، هي نفس المؤمن إذا صفت وزكت ،
ولهذا قال :« فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ »وقلبه في الاعتبار السماء الدنيا التي نزل إليها القرآن مجموعا ، فعاد فرقانا بحسب المخاطبين ، فالإنسان الكامل كالأنبياء ومن تحقق بإرثهم ، هو القرآن العزيز على الحقيقة ، نزل من حضرة نفسه إلى حضرة موجده ، وهي الليلة المباركة ، لكونها غيبا ، والسماء الدنيا حجاب العزة الأحمى الأدنى إليه ، ثم جعل هناك فرقانا ، فنزل نجوما بحسب الحقائق الإلهية ،

ص 111

فإنها تعطي أحكامها مختلفة ، فتفرق لذلك ، فلا يزال ينزل على قلبه من ربه نجوما ، حتى يجتمع هناك ويترك الحجاب وراءه ، فيزول عن الأين والكون ، ويغيب عن الغيب ، فالقرآن المنزل حق كما سماه الله حقا ، ولكل حق حقيقة ، وحقيقة القرآن الإنسان ، كما سئلت عائشة عن خلق النبي عليه السلام فقالت : [كان خلقه القرآن]
قال العلماء : تريد قوله: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ).

[سورة الدخان (44) : الآيات 5 إلى 8]
أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ(8)
[التوحيد الحادي والثلاثون في القرآن ، وهو توحيد البركة :]
هذا هو التوحيد الحادي والثلاثون في القرآن ، وهو توحيد البركة ، لأنه في السورة التي ذكر فيها أنه أنزله في ليلة مباركة ، فمن وحّد الله بهذا التوحيد المبارك الذي هو توحيد البركة عرف سر تشبيه نور الله بالمشكاة ، وما هي الزجاجة في هذا التشبيه ؟ ولما كان هذا التوحيد في السورة التي ذكر فيها الليلة المباركة المخصوصة بالآجال ، لهذا نعت هذا التوحيد بأنه يحيي ويميت .

[سورة الدخان (44) : الآيات 9 إلى 19]
بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16) وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ(19)

ص 112

عين التحكم والتصرف مخصوص بالرسل في إظهار المعجزات والتحدي بها عن الأمر الإلهي ، فإنهم مرسلون بالدلالات على أنهم رسل الله ، فهم مخبرون بالحال أنهم المصطفون الأخيار لا بالقصد .

[سورة الدخان (44) : الآيات 20 إلى 29]

وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21) فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (27) كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (28) فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ (29)

قال تعالى في حال من مات ممقوتا عند الله« فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ »فوصف السماء والأرض بالبكاء على أهل الله .

[سورة الدخان (44) : الآيات 30 إلى 32]

وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31) وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (32)

سبق العلم بأمر ما يمنع وقوع غيره ، وهذا باب عظيم واجب غلقه وسده ، لأنه مهلك إلا للعارف المتمكن ، فإنه يتعلق بالقدر.

ص 113

[سورة الدخان (44) : الآيات 33 إلى 38]
وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ (33) إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (35) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (36) أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (37)
وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (38)
وهو قوله تعالى :(أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً).

[سورة الدخان (44) : آية 39]
ما خَلَقْناهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (39)
-الوجه الأول - يقول تعالى في خلق السماوات والأرض إنه ما خلقهما إلا بالحق أي ما خلقهما إلا له تعالى جده وتبارك اسمه ، لأنه قال :(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)فما خلق العالم إلا له تعالى ، فإن الباء هنا بمعنى اللام ، أي ما خلقناهما إلا للحق
- الوجه الثاني -« ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ »وهو ما يجب لهما من قوله تعالى :(أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ)
- الوجه الثالث -« ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ »الحق المخلوق به هو نفس الرحمن ، وهو العماء ، فهو كالظرف يبرز منه وجود ما يحوي عليه ، طبقا عن طبق ، عينا بعد عين ، على الترتيب الحكمي .

[سورة الدخان (44) : الآيات 40 إلى 49]
إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (41) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42) إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (43) طَعامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49)

ص 114

[» ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » الآية :]
« الْعَزِيزُ »أي إنك المنيع الحمى في وقتك« الْكَرِيمُ »على أهلك وفي قومك ، فما هي سخرية به ، فإنه كذلك كان في قومه يدعى بهذا الاسم ، وهي سخرية به لأنه خاطبه بذلك في حالة ذله وإباحة حماه وانتهاك حرمته ، فدعاه الحق به هنا سخرية به على جهة الذم ، فإنه تغرّب عن موطنه الذي ربّي فيه وولد فيه ، وهو موطن العبودية ، ومن اغترب عن موطنه حرم عليه الاتصاف بالأسماء الإلهية في حال غربته ، كما قال تعالى :« ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ »كما كان عند نفسه في زعمه ، فإنه تغرّب عن موطنه ، فهو صاحب دعوى ، فلا أذل في الآخرة ممن بلغ في الدنيا غاية العزة في نفسه ، ولو كان مصفوعا في الدنيا ، ولا أريد بعز الدنيا أن يكون فيها ملكا ، إلا أن يكون صفته في نفسه العزة ، وكذلك الذلة فإنه لا أعز في الآخرة ممن بلغ في الدنيا غاية الذل في جناب الحق ، وأما أن يكون في ظاهر الأمر ملكا أو غير ذلك ، فما نبالي في أي مقام وفي أي حال أقام الحق عبده في ظاهره ، وإنما المعتبر في ذلك حاله في نفسه ،
قال تعالى في الحديث القدسي : [الكبرياء ردائي والعظمة إزاري من نازعني واحدا منهما قصمته]
فلو كانت الكبرياء والجبروت والعزة والعظمة التي يدعيها العزيز الجبار العظيم المتكبر من العباد صفة لهم ، ما ذمهم ولا أخذهم أخذة رابية .

[سورة الدخان (44) : الآيات 50 إلى 54]
إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (50) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (53) كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54)
لما كان المقصود بالنكاح الالتذاذ ، وكان لحصول اللذة بالجماع معنى لا يحصل إلا بالجماع ، زوجنا الله بالحور العين ، فإن قلت : فهل في نكاح الجنة توالد أم لا ؟ قلنا : إن التوالد في الآخرة في هذا النوع الإنساني باق في المثل ، في نكاح الرجل المرأة الآدمية الإنسانية ، والتوالد أيضا بين جنسين مختلفين ، وهم بنو آدم والحور ، اللاتي أنشأهن الله في الجنان على صورة الإنسان ولسن بأناسي ، فتوالدهما بنكاح بينهما في الإنس والحور ،

ص 115

ويتناكحان في الزمن الفرد ، ينكح الرجل إذا أراد جميع من عنده من النساء والحور من غير تقدم ولا تأخر ، مثل فاكهة الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، بل بقطف دان من غير فقد ، مع وجود أكل وطيب مطعم ، فإذا أفضى الرجل إلى الحوراء أو الإنسية ، له في كل دفعة شهوة ولذة لا يقدر قدرها ، لو وجدها في الدنيا غشي عليه من شدة حلاوتها ، فتكون منه في كل دفعة ريح مثيرة تخرج من ذكره ، فيتلقاها الرحم - رحم المرأة - فيتكون من حينه فيها ولد في كل دفعة ، ويكمل نشوءه ما بين الدفعتين ، ويخرج مولودا مصورا مع النفس الخارج من المرأة روحا مجردا طبيعيا ، فهذا هو التوالد الروحاني في البشري بين الجنسين المختلفين والمتماثلين ، فلا يزال الأمر كذلك دائما أبدا ، ويشاهد الأبوان ما تولد عنهما من ذلك النكاح ، ولاحظ لهؤلاء الأولاد في النعيم المحسوس ، ولا بلغوا مقام النعيم المعنوي ، فنعيمهم برزخي كنعيم صاحب الرؤيا بما يراه في حال نومه ، وذلك لما يقتضيه النشء الطبيعي ، فلا يزال النوع الإنساني يتوالد ، ولكن حكمه ما ذكرناه ، إلا أن الأنفاس التي تظهر من تنفس الحوراء أو الآدمية إذا كانت صورة ما ظهرت فيه من نفس النكاح ، يخرج مخالفا للنفس الذي لا صورة فيه ، يميزه أهل الكشف ، ولا يدرك ذلك في الآخرة إلا أهل الكشف في الدنيا ، وصورة هذا النشء المتولد عن هذا النكاح في الجنة ، صورة نشء الملائكة أو الصور من أنفاس الذاكرين لله ، وما يخلق الله من صور الأعمال ، وقد صحت بذلك الأخبار عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

[سورة الدخان (44) : الآيات 55 إلى 56]

يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (55) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (56)

" لا يَذُوقُونَ فِيهَا »يعني في الجنة« الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى »فأفردها ، ويريد : في الأولى ، التي هي الدار الدنيا ، فحذف حرف الجر ، وهذه الآية ليست بنص في عدم الموت الحقيقي لكل حي يحيى في الدنيا بعد موته قبل حياة البعث ، ولكن يتقوى بها وجه التأويل في أنه موت غشي وصعق« وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ »

- **إشارة** [: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه]

-قال صلّى الله عليه وسلّم : [من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه] وقد علمنا أن لقاء الله لا يكون

ص 116

إلا بالموت ، وعلمنا معنى الموت ، فاستعجلناه في الحياة الدنيا ، فمتنا في عين حياتنا عن جميع تصرفاتنا وحركاتنا وإرادتنا ، فلمّا ظهر الموت علينا في حياتنا - التي لا زوال لها عنا حيث كنا ، التي بها تسبّح ذواتنا وجوارحنا وجميع أجزائنا - لقينا الله فلقينا ، فكان لنا حكم من يلقاه محبا للقائه ، فإذا جاء الموت المعلوم في العامة وانكشف عنا غطاء هذا الجسم ، لم يتغير علينا حال ولا زدنا يقينا على ما كنا عليه ، فما ذقنا إلا الموتة الأولى ، وهي التي متناها في حياتنا الدنيا ، فوقانا ربنا عذاب الجحيم .

[سورة الدخان (44) : آية 57]

فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57)

قال عليّ رضي الله عنه : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ؛ فمن رجع إلى الله هذا الرجوع سعد ، وما أحسّ بالرجوع المحتوم الاضطراري ، فإنه ما جاءه إلا وهو هناك عند الله ، فغاية ما يكون الموت المعلوم في حقه ، أن نفسه التي هي عند الله يحال بينها وبين تدبير هذا الجسم الذي كانت تدبره ، فتبقى مع الحق على حالها ، وينقلب هذا الجسد إلى أصله وهو التراب الذي منه نشأت ذاته ، فكأن دارا رحل عنها ساكنها ، فأنزله الملك في مقعد صدق عنده إلى يوم يبعثون ، ويكون حاله في بعثه كذلك لا يتغير عليه حال ، من كونه مع الحق لا من حيث ما يعطيه الحق مع الأنفاس ، وهكذا في الحشر العام وفي الجنان التي هي مقره ومسكنه .

[سورة الدخان (44) : الآيات 58 إلى 59]

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59)

(45) سورة الجاثية مكيّة

[سورة الجاثية (45) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4)
وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(5)

ص 117

[العاقل يهوله المعتاد وغير المعتاد من الآيات :]
خرق العوائد في العموم وهي في الخصوص عوائد ، فلذلك تهول عند العامة ، والعاقل يهوله المعتاد وغير المعتاد ، ولذلك قال تعالى في المعتاد« آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »فإن كل ما في الكون آية عليه ، وهي أكثر الآيات الدالة على الله لقوم يعقلون ، وما سميت العقول عقولا إلا لقصورها على من عقلته من العقال ، فالعقل قيّد موجده ، والشرع والكشف أرسله ، وهو الحق ، فالسعيد من عقله الشرع لا من عقله غير الشرع ، فإن العامة ليست الآيات عندهم إلا التي هي عندهم غير معتادة ، فتلك تنبههم إلى تعظيم الله ، والخاصة عندهم الآيات هي المعتادة وغير المعتادة ، فالعالم كله عندهم آيات بينات .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 6 إلى 13]
تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ (6) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (9) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (10) هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(13)

ص 118

»وَسَخَّرَ لَكُمْ »أي من أجلكم« ما فِي السَّماواتِ »من ملك وكوكب سابح في فلك« وَما فِي الْأَرْضِ »وما فيهما من الخلق فدخل الحيوان في ذلك »جَمِيعاً مِنْهُ »لما كان المقصود من العالم الإنسان الكامل ، كان من العالم أيضا الإنسان الحيوان المشبه بالكامل في النشأة الطبيعية ، فقال تعالى :« وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ »أي من أجل الإنسان الكامل الخليفة في الأرض ، فشغل الملأ الأعلى به سماء وأرضا ، وأمر سبحانه وتعالى من في السماوات والأرض بالنظر فيما يستحقه هذا الخليفة النائب ، فسخر له جميع من في السماوات والأرض ، حتى المقول عليه الإنسان من حيث تماميته لا من حيث كماليته ، فهذا النوع المشارك له في الاسم إذا لم يكمل هو من جملة المسخرين لمن كمل ، فلا أفقر من الإنسان الكامل إلى العالم ، لأنه يشهده مسخّرا له ، فعلم أنه لولا ما هو عليه من الحاجة إلى ما سخّروا فيه من أجله ما سخروا ، فيعرف نفسه أنه أحوج إلى العالم من العالم إليه ، ومن هنا يعلم أن الله خلق الخلق للخلق لا لنفسه ، فإن المنافع إنما تعود من الخلق على الخلق ، والله هو النافع الموجد للمنافع ، وأما خلقنا له فهو خلقنا لنعبده ، فمعناه لنعلم أنا عبيد له ، فإنا في حال عدمنا لا نعلم ذلك ، لأنه ما ثمّ وجود يعلم« إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »ليعلموا ما مراد الله من ذلك ، واعلم أن الوضع والتركيب ليس العلم به من حظ الفكر ، بل هو موقوف على خبر الفاعل لها والمنشئ لصورها ، ومتعلق علم العقل من طريق الفكر إمكان ذلك خاصة لا ترتيبه ، فإن العقول عاجزة وقاصرة عن معرفة ما خلق الله من أجرام العالم وأرواحه ولطائفه وكثائفه

-[نصيحة : وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ]

-نصيحة - لا يغرنك يا ولي قوله تعالى« وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ »فإنه لم يقل إنه فعل ذلك ليسعدكم ولا أيضا ليشقيكم ، فبقيت على قدم الحذر والغرور واقفا ، فتحفظ فإنها آية فتنة يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء ، فإن الحقائق التي أنشئت عليها علوا وسفلا ليست برفعة إلهية ، وإنما هي رفعة تعطيها الحقائق ، لا تعصم من نار ولا تدخل نعيما ، ولا يدخل بها أهل الجنة في جنتهم ولا أهل النار في نارهم ، فلا فائدة فيها ولا سلطان لها على السعادة ، وبها زلّت أقدام من خرجوا عن الشريعة .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 14 إلى 18]

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (14) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15) وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (16) وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17) ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ(18)

ص 119

[الشرع :]
الشرع لا يتوقف ، على منافر أو موافق إذا تصرف ، له الحكم فيما ساء وسر ، ونفع وضر ، منزلته الحكم في الأعيان لا في الأكوان ، الصلاة خمس ، ما بين جهر وهمس ، بني الإسلام على خمس ، لإزالة اللبس ، فالتوحيد إمام فله الإمام ، والصلاة نور والصبر ضياء والصدقة برهان والحج إعلام بالمناسك الكرام ، وحرمات في حلال وحرام ،
الشرع زائل ، والطبع ليس براحل ، محل الشرع الدار الدنيا ومحل الطبع الآخرة والأولى ، يرتفع الحكم التكليفي في الآخرة ، ولا يرتفع الطبع في الحافرة ، للشرع منازل الأحكام ، وللطبع البقاء والدوام ، جاءت الشرائع بحشر الأجساد ، وثبتت بخرق المعتاد ، أينما كانت الأجساد ، فلا بد من كون وفساد ، وبهذا ورد الشرع وجاء السمع ، وقبله الطبع ووافق عليه الجمع والإيمان به واجب ، وأن الله خلقهم من طين لازب .

[سورة الجاثية (45) : آية 19]
إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19)
« إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً »بل كل نفس بما كسبت رهينة .

[إشارة : الولاية سارية في الوجود]
-إشارة - الولاية سارية في الوجود ، فالله ولي المؤمنين من كونه مؤمنا ، فمن أين هو ولي المتقين ولا يتصف

ص 120

بالتقوى ؟
أو يتصف بالتقوى من حيث أنه أخذ الجن والإنس وقاية يتقي بها نسبة الصفات المذمومة عرفا وشرعا إليه ، فتنسب إلى الجن والإنس ، وهما الوقاية التي اتقى بها هذه النسبة ، فهو ولي المتقين من كونه متقيا ، وإذا كان وليهم - وما ثمّ إلا متق - فهي بشرى من الله للكل بعموم الرحمة ، والنصرة على الغضب ، لأنه الولي الناصر ،
لذلك قال تعالى :

[سورة الجاثية (45) : الآيات 20 إلى 21]
هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (21)
« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ »فإنهم وإن عمتهم الرحمة لا يستوون فيها« ساءَ ما يَحْكُمُونَ »أي ساء من يحكم بذلك .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 22 إلى 23]
وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (22) أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (23)
« أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ »
[الهوى :]
ليس الهوى سوى إرادة العبد إذا خالفت الميزان المشروع الذي وضعه الله له في الدنيا ، فلو لا الهوى ما عبد الله في غيره ، وإن الهوى أعظم إله متخذ عبد ، فإنه لنفسه حكم ، وهو الواضع كل ما عبد ، فلو لا قوة سلطانه في الإنسان ، ما أثّر مثل هذا الأثر فيمن هو على علم بأنه ليس بإله ، ولما كان الإله له القوة في المألوه ، وإله هذا هواه ، حكم عليه وأضله عن سبيل الله ، واعلم أن الآلهة المتخذة من دون الله آلهة طائفتان : منها من ادعت ما ادعي فيها ، مع علمهم في أنفسهم أنهم ليسوا كما ادعوا ، وإنما أحبوا الرئاسة وقصدوا إضلال العباد ، كفرعون وأمثاله وهم في الشقاء إلا إن تابوا ، وأما

ص 121

الطائفة الأخرى فادعيت فيها الألوهة ولم تدعها لنفسها ، كالأحجار والنبات والحيوان وبعض الأناسي والأملاك والكواكب والأنوار والجن ، وجميع من عبد واتخذ إلها من غير دعوى منه ، فهؤلاء كلهم سعداء ، والذين اتخذوهم إذا ماتوا على ذلك أشقياء ، فإنه لما اتخذ هذا المشرك هواه إلها حكم عليه وأضله عن سبيل الله ، وأما قوله :[« وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ » الآية]« وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ »

- **الوجه الأول** - يعني من أنه أضله الله على علم

، لا أن الضال على علم ، فإن الضال هو الحائر الذي لا يعرف في أي جهة مطلوبه ، فمتعلق« عَلى عِلْمٍ »أضله ، وهو العامل فيه ، وهو فعل الله تعالى

- **الوجه الثاني** - « وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ » هو التارك ما أمره الله به عمدا

، مثل من يقول إن الحركات والسكنات كلها بيد الله ، وما جعل في نفسي أداء ما أمرني بأدائه ، فهو على بصيرة تشقيه وتحول بينه وبين سعادته ، فتضره في الآخرة وإن التذ بها في الدنيا ، فهي مجاهرة بحق لا تنفع ، ولو كان عن ذوق ، منعته هيبة الجلال وعظيم المقام وسلطان الحال أن يترك أداء حق الله على صحو ، فمثل هذا العلم لا ينفع

- **الوجه الثالث** - هذه الآية تدل على أن نور العلم غير نور الإيمان ، فقوله تعالى :« وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ »فذلك نور العلم به لا نور الإيمان .

[سورة الجاثية (45) : آية 24]

وَقالُوا ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (24)

« وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا »أي نحيا فيها ثم نموت ، فجهلوا في قولهم هذا ، ثم قالوا »وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ »فصدقوا ، فإن الدهر هو الله ، وجهلوا في اعتقادهم ، لأنهم ما أرادوا إلا الزمان بقولهم الدهر ، فأصابوا في إطلاق الاسم وأخطئوا في المعنى ، وهم ما أرادوا إلا المهلك ، فوافقوا الاسم المشروع ، ولم يقولوا الزمان ، أو ربما لو قالوا الزمان لسمى الله نفسه بالزمان كما سمى نفسه بالدهر ، فإنه قد ثبت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : [لا تسبوا الدهر فإنه الله هو الدهر]

فجعل الدهر هوية الله ، وما أوحى الله بذلك إلى نبيه ولا جاء به سدى ، بل جاء به رحمة لعباده ، فإن الدهر عند القائلين به ما هو محسوس عندهم ، وإنما هو أمر متوهم ، صورته في العالم وجود الليل والنهار ، عن حركة كوكب

ص 122

الشمس في فلكها ، فلم يصح مع هذا شرك عام ولا تعطيل عام ، وإنما هو أسماء سموها ، أطلقوها على أعيان محسوسة وموهومة عن غير أمر الله ، فأخذوا بعدم التوقيف ، والدهر عبارة عما لا يتناهى وجوده عند هذا الاسم ، أطلقوه على ما أطلقوه ، فالدهر حقيقة معقولة لكل داهر ، وهو قولهم : لا أفعل ذلك دهر الداهرين ، وهو عين أبد الآبدين ، فللدهر الأزل والأبد ، أي له هذان الحكمان ، لكن معقولية حكمه عند الأكثر في الأبد ، فإنهم أتبعوه الأبد ، فلذلك يقول القائل : دهر الداهرين ، وقد يقول : أبد الآبدين ، فلا يعرفونه إلا بطرف الأبد لا بطرف الأزل ، ومن جعله الله فله حكم الأزل والأبد ،
وما ثمّ إن عقلت ما يعقل بالوهم ولا يعقل بالعقل ، ولا بالحس إلا الوجود الحق ، الذي نستند إليه في وجودنا ، فلهذه النسبة تسمى لنا بالدهر ، حتى لا يكون الحكم إلا له ، لما يتوهم من حكم الزمان ، إذ لا حاكم إلا الله ، وما تسمى بالطبيعة لأن الطبيعة ليست بغير لمن وجد عنها عينا ، فهي عين كل موجود طبيعي ، وبهذا يخالف حكم الدهر حكم الطبيعة ،
فإن الدهر ما هو عين الكوائن والطبيعة عين الكوائن الطبيعية ، فتسمى تعالى بالدهر تنزيها وما تسمى بالطبيعة ، قال صلّى الله عليه وسلّم لما سمع من يسب الدهر لكونه لم يعطه أغراضه : [لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر] لأنه المانع وجود ما لكم في وجوده غرض ، ولهذا سمي المانع ، فليس في أمان ولا من أهل الإيمان ، من اعتقد أن الدهر الذي ذكره الشرع هو الزمان .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 25إلى 28]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25)
قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ
(26)وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27)
وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28)
كل أمة تدعى إلى كتابها لتقرأه حيث هو ، فاجعل كتابك في عليين.

ص 123

[سورة الجاثية (45) : آية 29]
هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29)
فنسب النطق إلى الكتاب ، وقبلنا ذلك بالإيمان ، فإنه مما لا ينسب إليه الكلام في العرف .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 30 إلى 36]
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30)
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (31) وَإِذا
قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَما نَحْنُ
بِمُسْتَيْقِنِينَ (32) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (33) وَقِيلَ
الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (34)
ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ
يُسْتَعْتَبُونَ (35) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (36)
أي لله الثناء التام بما هو له ومنه ، فلا حامد ولا محمود إلا هو ، وله عواقب كل مثن في العالم وكل مثنى عليه ، ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه كان يقول في قيامه من الركوع :
]اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد]« رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ »أي العالم العلوي والسفلي وما بينهما« رَبِّ الْعالَمِينَ »كل ما سوى الله تعالى ، وهو رب العالمين من حيث ثبوته في ربوبيته بما يستحقه الرب من النعوت المقدسة ، وهو سيد العالم ومربيهم ومغذيهم ومصلحهم ، ولما كان الحمد العاقب فعواقب الثناء ترجع إلى الله.

ص 124

[سورة الجاثية (45) : آية 37]
وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)
[الملأ الأعلى والملأ الأسفل :]
اعلم أن العالم محصور في علو وسفل ، والعلو والسفل له أمر إضافي نسبي ، فالعالي منه يسمى سماء والأسفل منه يسمى أرضا ، ولا يكون له هاتان النسبتان إلا بأمر وسط يكون بينهما ، ويكون ذلك الأمر في نفسه ذا جهات ، فما أظلّه فهو سماء ، وما أقله فهو أرض له ، وإن شئت قلت في الملأ الأعلى والملأ الأسفل : إنه كل ما تكون من الطبيعة فهو الملأ الأسفل ، وكل ما تولد من النور فهو الملأ الأعلى ، وأكمل العالم من جمع بينهما ، وهو البرزخ الذي بجهاته ميزهما ، أو بجمعيته ميزهما بالعلو والسفل ، والحق تعالى بالنظر إلى نفسه لا يتصف بشيء مما يتصف به وجود العالم ، فإن الله لما نسب الكبرياء الذي له ما جعل محله إلا السماوات والأرض ، فقال :« وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ »ما قال في نفسه ، فالمحل هو الموصوف بالكبرياء الذي لله ، فالعالم إذا نظر إلى نفسه صغيرا ، ورأى موجده منزها عما يليق به ، سمى ربه كبيرا وذا كبرياء ، لما كبر عنده بما له فيه من التأثير والقهر ، فلو لم يكن العالم مؤثرا فيه لله تعالى ما علم أنه صغير ، ولا أن ربه كبير ، وأمثال ذلك من الصفات ، لما رأى العبد أنه قامت به الحاجة والفقر إلى غيره ، احتاج أن يعتقد ويعلم أن الذي استند إليه في فقره له الغنى ، فهو الغني سبحانه في نفس عبده ، وهو بالنظر إلى ذاته معرى عن النظر إلى العالم لا يتصف بالغنى ، لأنه ما ثمّ عن من ، وكذلك إذا نظر العبد إلى ذله ، علم أنه لا يذل لنفسه ، وإنما يذل تحت سلطان غيره ، فسماه عزيزا ، لأنه عزّ الحق في نفس هذا العبد لذله ، فالعبد هو محل الكبرياء والغنى والعظمة والعزة التي لله ، فوصف العبد ربه بما قام به ، فأوجب المعنى حكمه لغير من قام به ، فالحق منزه عن قيام الكبرياء به بحيث أن يكون محلا له ، بل الكبرياء محله الذي عينه الحق له ، وهو السماوات والأرض »وَهُوَ »أي هوية الحق« الْعَزِيزُ »أي المنيع لذاته أن تكون محلا لما هي السماوات والأرض له محل ، وليس إلا الكبرياء ، فما كبر إلا في نفس العالم ، وهو أجل من أن يقوم به أمر ليس هو ، بل هو الواحد من جميع الوجوه »الْحَكِيمُ »بما رتبه في الخلق ، ومن جملة ما رتبه بعلمه وحكمته أن جعل السماوات والأرض محلا لكبريائه ، فكأنه يقول : وله الكبرياء الذي خلقه في نفس السماوات والأرض ، حتى يكبروا إلههم به ، وكذلك وقع ،

ص 125

فكبروه في نفوسهم ، فقالوا : إنه ذو الجلال ، أي صاحب الجلال الذي نجده في نفوسنا له ، والإكرام بنا .

(46) سورة الأحقاف مكيّة

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (4)

« قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ »ما لفظة تطلق على كل شيء ممن يعقل ومما لا يعقل ، كذا قاله سيبويه ، وهو المرجوع إليه في العلم باللسان ، فإن بعض المنتحلين لهذا الفن يقولون إن لفظة ما تختص بما لا يعقل ومن تختص بمن يعقل ، وهو قول غير محرر ، وقد رأينا في كلام العرب جمع من لا يعقل جمع من يعقل ، وإطلاق ما على من يعقل ، وإنما قلنا هذا لئلا يقال في قوله« ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ »إنما أراد من لا يعقل وعيسى عليه السلام يعقل فلا يدخل في هذا الخطاب ، وقول سيبويه أولى« أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ »فلو قالوا : عيسى خلق من الأرض طيرا ، فقدم الحق لأجل هذا القول ، أن خلق عيسى للطير كان بإذن الله ، فكان خلقه له عبادة يتقرب بها إلى الله ، لأنه مأذون له في ذلك فقال : (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيه فيكون طيرا بإذني) فما أضاف خلقه إلا لإذن الله ، والمأمور عبد ، والعبد لا يكون إلها .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 5 إلى 9]

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ (5) وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ (6) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8) قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ وَما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (9)

ص 126

" قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ "
[هل النبوة مكتسبة ؟ :]
فنفى أن يكون الفعل له ولنا ، بل يفعل به وبنا ، فما ثمّ ثقة بشيء لجهلنا بما في علم الله فينا ، فيا لها من مصيبة« إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ »أي ما لي علم ولا نظر بغير ما يوحى إلي ، هذا مع غاية الصفاء المحمدي ، فمقام الوحي لا يعطى منه الإنسان إلا على قدر ما يريد الله تعالى ، وأما من جهة العلم بالله فهذا قوله صلّى الله عليه وسلّم ، وهو خير البشر وأكثرهم عقلا وأصحهم فكرة وروية ، فأين الفكر في العلم بالله ؟
هيهات ؛ تلف أصحاب الأفكار والقائلون باكتساب النبوة والولاية ، كيف لهم ذلك والنبوة والولاية مقامان وراء طور العقل ، ليس للعقل فيهما كسب ؟
بل هما اختصاصان من الله تعالى لمن شاء« وَما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ »وهو قوله :(ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ)
فإياك أن تنزل أحدا من الله منزلة لا تعرفها ، لا بتزكية عند الله فيه ولا تجريح ، إلا أن تكون على بصيرة من الله تعالى فيه ، فإن ذلك افتراء على الله ، ولو صادفت الحق فقد أسأت الأدب ، وهذا داء عضال ؛
بل حسّن الظن به وقل : فيما أحسب وأظن هو كذا وكذا ، ولا تزكي على الله أحدا ، فهذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولا يدري ما يفعل به ولا بنا ، بل يتبع ما يوحى إليه ، فما عرّف به من الأمور عرفها ، وما لم يعرف به من الأمور لم يعرفه وكان فيه كواحد من الناس ، فكم رجل عظيم عند الناس ويأتي يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة.

ص 127

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 10 إلى 15]
قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ (12) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (14)
وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15)

[أقل مدة الحمل ستة أشهر :]

« وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً »وقال تعالى :(وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ)على أقل ما يولد من زمن الحمل ويعيش ، وهو ستة أشهر حملا وسنتان رضاعا على التمام ، وإن أتم الحمل المعتاد في الغالب وهو تسعة أشهر كانت مدة الرضاع حولين إلا ربع حول ، وهي إحدى وعشرون شهرا« حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ »الآية - حد الأربعين هو حد الزمان الذي تبعث فيه الرسل الذين هم أكمل العالم علما بالأمور الإلهية.

ص 128

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 16 إلى 24]
أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (16) وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَ تَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (18) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (19) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20)
وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (24)
قالت عاد« هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا »حجبتهم العادة حين رأوا السحابة السوداء قد طلعت

ص 129

عليهم وكانوا مقحطين ، فسروا بذلك واستبشروا ، لكون الغيث أبدا يستلزم الغمام ، فقيل لهم« بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ »فكان الريح هي عين الأهواء التي كانوا عليها ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا رأى ذلك يتغير ، ويدخل ويخرج ، فإذا نزل الغيث وعلم أنه رحمة سكن .

[سورة الأحقاف (46) : آية 25]

تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاَّ مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)

ما كل كلّ في كل موضع ترد تعطي الحصر ، فإنه قد تأتي ويراد بها القصر ، مثل قوله في الريح العميم(ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ)وقد مرت على الأرض وما جعلتها كالرميم ، مع كونها أتت عليها ، وما جعل الحق الحكم في الأرض إليها ، فقال :« فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ »لما أهلك الله تعالى قوم هود ، بعث عليهم طيرا سودا فنقلهم إلى البحر« فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ »وكانت مساكنهم الشحر بين عمان وحضرموت " كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ."

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 26 إلى 29]

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (26) وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ (28) وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ(29)

ص 130

هكذا أخبر الحق عن الجن في سماعهم القرآن أنهم قالوا :« أَنْصِتُوا »وقال في حق الإنس آمرا(وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا)
فإن الاسم اللطيف أورث الجن الاستتار عن أعين الناس فلا تدركهم الأبصار إلا إذا تجسدوا ، وجعل سماعهم القرآن إذا تلي عليهم أحسن من سماع الإنس.

[سورة الأحقاف (46) : آية 30]
قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30)
[الأرواح والجن استماعهم لكلام الله أوثق وأحسن من الإنس :]
اعلم أن الأرواح والجن استماعهم لكلام الله أوثق وأحسن من الإنس للمشاركة في سرعة التنوع والتقلب من حال إلى حال ، وهو من صفات الكلام ، فهم بالصفة إليه أقرب مناسبة وأعلم بكلام الله منا ، وكذا قال النبي صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه عن الجن لما تلا عليهم سورة الرحمن ، ألا ترى الجن لما منعوا السمع وحيل بينهم وبين السماء بالرجوم ، قالوا : ما هذا إلا لأمر حدث ، فأمر زوبعة أصحابه وغيره أن يجولوا مشارق الأرض ومغاربها ، لينظروا ما هذا الأمر الذي حدث وأحدث منعهم من الوصول إلى السماء ، فلما وصل أصحاب زوبعة إلى تهامة مروا بنخلة ، فوجدوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلي صلاة الفجر وهو يقرأ ، فلما سمعوا القرآن أصغوا إليه وقالوا : هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ؛ فلو لا معرفتهم برتبة القرآن وعظم قدره ما تفطنوا لذلك ، فولوا إلى قومهم منذرين فقالوا« يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ .

[سورة الأحقاف (46 : (آية 31]
يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (31)
« أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ »الإجابة إلى فعل ما كلفوه على حد ما كلفوه ، فإنه تعالى ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه .

[سورة الأحقاف (46) : آية 32]
وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(32)

ص 131

" وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ «انتهى قول الجن ، وما قال الله ولا روي عن أحد من الإنس أنه قال مثل هذا القول ، ثم يقول الله تعالى :« وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ »فضمت شريعته صلّى الله عليه وسلّم الجن والإنس ، وعم بشريعته الإنس والجن .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 33 إلى 35]

أَ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34) فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (35)

أولو العزم من الرسل هم الذين لقوا الشدائد في تمهيد السبيل ، وهم الذين أرسلوا بالسيف لكمالهم .

(47) سورة محمّد مدنيّة

[سورة محمد (47) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ(2)

ص 132

نسب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، واسم هاشم عمرو بن عبد مناف ، واسم عبد مناف المغيرة بن قصي ، واسم قصي زيد بن كلاب بن مرة ، بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ، واسم مدركة عامر بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان - وأمه صلّى الله عليه وسلّم هي آمنة بنت عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، اجتمعت مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في كلاب بن مرة .

[سورة محمد (47) : آية 3]
ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ (3).
" كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ »فالعالم يقطع عمره في نظر ما ضرب الله له من الأمثال ، ولا يستنبط مثلا من نفسه ولا سيما لله ، وما أظن يفي عمر الإنسان بتحصيل علم ما ضرب الله له من الأمثال .

[سورة محمد (47) : الآيات 5 إلى 6]
سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (6)
« عَرَّفَها لَهُمْ »يعني بالنفس من العرف وهي الرائحة ، أي طيّبها من أجلهم ، فلا يستنشقون منها إلا كل طيب ، ولا ينظرون منها إلا كل حسن .

[سورة محمد (47) : آية 7]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (7)
ما قال تعالى« إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ »إلا ولا بد من وقوع هذا النصر ، وهو نصر لا عن ضعف وذل ، بل نصر الله ابتغاء القربة إليه والتحبب ، عسى يصطفي من ينصره ويدنيه ، فأعلمنا

ص 133

الله وعرفنا بمن يؤذيه وبما يؤذيه لننتصر له وندفع عنه ذلك ، فلا أرفع ممن يدفع عن الله أذى ، فمن كان عدوا لله فهو عدو للمؤمن ، وذلك من حيث أنه تعالى المؤمن ونحن المؤمنون ، لذلك قال :« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ »فولاية العبد ربه وولاية الرب عبده في قوله« إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ »وبين الولايتين فرق دقيق ، فجعل تعالى نصره جزاء ، وجعل مرتبة الإنشاء إليك ، فننصره في الدنيا لينصرنا في العقبى ، وقد ينصرنا هنا رحمة منه بنا لعدم صبرنا ، وهو سبحانه الصبور مدهر الدهور ، الذي يمهل ولا يعجل ، ومع هذا طلب النصر منا في الدنيا واستعجل ، وذلك لحكمة الوفاء بالجزاء

[إشارة : إن لم تنصروه يخذلكم :]

-إشارة - إن لم تنصروه يخذلكم ، وإن خذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، فنصرته من جملة ما أخذه عليكم من عهده ، فيا أهل العهود ، أوفوا بالعقود ، ما أمركم بنصره ، إلا ولكم اشتراك في أمره ، فمن قال لا قدرة لي ويعني الاقتدار ، فقد رد الأخبار ، وكان ممن نكث ، وألحق تكليف الحق بالعبث ، لما طلب النصرة من خلقه ، وجعلها من واجب حقه ، أثبت أن له أعداء ، وأن لديه أولياء وأوداء ، فالناصر محاصر ومحاصر ، فأنت تطلبه بالنصر ، في عين ما طلبكم فيه من النصر ، فما انفرد أحد بالقوة والاقتدار ، فانظر نزول الواحد القهار .

[سورة محمد (47) : الآيات 8 إلى 11]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (8) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (9)أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (10) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ (11)

الكافر لا مولى له ولهذا انهزم أمام خصمه ، فإنه استترت عنه حياة الشهيد في سبيل الله ، فآمن بالموت وهو الباطل ، وكفر بالحياة وهي الحق ، فالكافرون لا مولى لهم أي لا ناصر لهم ، فإن الآخذ هو الله ولا مقاوم له سبحانه.

[سورة محمد (47) : الآيات 12 إلى 14]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (12) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (13) أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ(14)

ص 134

" عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ " وهو الهدى .

[سورة محمد (47) : آية 15]
مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (15)
[العلوم التي تعطيها أنهار الجنة :]
« فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ » يقال أسن الماء وأجن إذا تغير ، وهو الماء المخزون في الصهاريج ، وكل ماء مخزون يتغير بطول المكث ، وهذا وصف الطهارة « وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ "بعقده أو مخضه أو ترييبه"
وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ » تعطي الطرب والالتذاذ ، فإن الخمر ليست الدار الدنيا بمحل لإباحته في شرع محمد صلّى الله عليه وسلّم الذي مات عليه ، وخص الخمر بالجنة دون الدنيا وقرن به اللذة للشاربين ، ولم يقل ذلك في غيره من المشروبات ، وذلك لأنه ما في المشروبات ما يعطي الطرب والسرور التام والابتهاج إلا شرب الخمر ، فيلتذ به شاربه وتسري اللذة في أعضائه ، وتحكم على قواه الظاهرة والباطنة ، وما في المشروبات من له سلطان وتحكم على العقل سوى الخمر ، لذلك حرمت في الدنيا لعظم شأنها وقوة سلطانها ، وهي لذة للشاربين حيث كانت ، ولهذا عزت وما هانت ، في الدنيا محرمة وفي الآخرة مكرمة ، هي ألذ أنهار الجنان ، ولها مقام الإحسان ، وعطاؤها أجزل العطا« وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى »
واعلم أن الشرب يختلف باختلاف المشروب فإن كان الشرب

ص 135

نوعا واحدا فإنه يختلف باختلاف أمزجة الشاربين ، وهو استعدادهم ، فمن الناس من يكون مشروبه عسلا بحسب الصورة التي يتجلى فيها العلم ، فإن هذه الأصناف صور علوم مختلفة ، ودليلنا على ما قلناه إنها علوم ،
رؤيا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فإنه قال : [أريت كأني أوتيت بقدح لبن فشربت منه ، حتى رأيت الري يخرج من أظفاري ، ثم أعطيت فضلي عمر ، قالوا : فما أولته يا رسول اللّه ؟ قال : العلم]
فهذا علم تجلى في صورة لبن ، كذلك تتجلى العلوم في صور المشروبات ، ولما كانت الجنة دار الرؤية والتجلي ، وما ذكر اللّه فيها سوى أربعة أنهار :
أنهار من ماء غير آسن ،
وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ،
وأنهار من خمر لذة للشاربين ،
وأنهار من عسل مصفى ،
علمنا قطعا أن التجلي العلمي لا يقع إلا في أربع صور : **ماء ولبن وخمر وعسل ،**
ولكل تجل صنف مخصوص من الناس ، وأحوال مخصوصة في الشخص الواحد ، فنهر الماء الذي غير آسن أي غير متغير يعطي علم الحياة قال تعالى :(وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)
وكذلك هذا العلم الذي يعطيه هذا الماء تحيا به القلوب ، ونهر الخمر هو علم الأحوال ، وهو صورة للعلم الإلهي الذوقي الذي تمجه العقول من جهة أفكارها ، ولا يقبله إلا الإيمان ، فأنهار الخمر تعطي معارف عنها السرور والابتهاج والفرح وإزالة الغموم ، والتجريد من الكم والكيف والهياكل الظلمانية ، والتنزه عن ملاحظة الأكوان الجسمية والجسمانية ، فهو سرور بالعلم بالكمال ، ونهر العسل هو علم الوحي على ضروبه ، ونهر اللبن هو علم الأسرار والفطرة واللب الذي تنتجه الرياضات والمجاهدات والتقوى ، فيحصل للإنسان من العلوم في كل جنة من جنات الاختصاص والإرث والعمل بحسب حقيقة تلك الجنة ، وبحسب مأخذ النشآت منه ، فإنها تختلف مآخذها وتختلف العلوم وتختلف الجنات ، فتختلف الأذواق .

[سورة محمد (47) : آية 16]
وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (16)
الطبع النقش الذي يكون في الختم ، والختم هو القفل .

[سورة محمد (47) : آية 17]
وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ(17)

ص 136

" وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا " يعني بهداهم الذي كان لهم« زادَهُمْ هُدىً »وهو الهدى الذي باعه الكفار منهم ، قال تعالى في الكفار :(أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى)فكان للمؤمنين نورا على نور ، وكان للكافرين ظلمات بعضها فوق بعض .

[سورة محمد (47) : الآيات 18 إلى 19]

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (18)فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ (19)

[« فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ « . . . الآية - العلم بتوحيد الله تعالى :]

كل علم يوصلك إلى حيث متعلقه ، والشغف من العالم بالمتعلق لا بالعلم ، ولهذا العلم بالذات الإلهية لا يصح أصلا ، لأنه لا يوصلك إليها لعزتها ، وإنما تصل إليها على قدرك في علمك بها ، فالتوحيد هو المطلوب من كل موجود ، ونهانا الشارع أن نتفكر في ذات الله ، إذ من ليس كمثله شيء ، كيف يوصل إلى معرفة ذاته ؟ وما منعنا من الكلام في توحيد الله ، بل أمر بذلك فقال آمرا بالعلم بتوحيده« فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ »وهي المعرفة الواجبة بتوحيد الله في ألوهيته ، وذلك بأن نعلم أن النفي ورد على أعيان المخلوقات لما وصفت بالألوهية ونسبت إليها وقيل فيها آلهة ، ولهذا تعجب من تعجب من المشركين لما دعاهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الله الواحد ، فأخبر الله عنهم أنهم قالوا :(أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ)فسموها آلهة ، وهي ليست بهذه الصفة ، فورد حكم النفي على هذه النسبة الثابتة عندهم إليها ، لا في نفس الأمر ، لا على نفي الألوهية ، فكأنه يقول للمشرك : هذا القول الذي قلت لا يصح ، أي ما هو الأمر كما زعمت ، ولا بد من إله ، وقد انتفت الكثرة من الآلهة بحرف الإيجاب الذي هو قوله« إِلَّا »وأوجبوا هذه النسبة إلى المذكور بعد حرف الإيجاب وهو مسمى« اللَّهُ »فقالوا :« لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ »فلم تثبت نسبة الألوهة لله بإثبات المثبت ، لأنه سبحانه إله لنفسه ، فأثبت المثبت بقوله« إِلَّا اللَّهُ »هذا الأمر في نفس من لم يكن يعتقد انفراده سبحانه بهذا الوصف ، ومن جهة أخرى فقوله تعالى :« فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ »يقول اعلم من إخباري الموافق لنظرك ليصح لك الإيمان علما ، كما صح لك العلم من غير إيمان الذي هو قبل التعريف ، فمن أجل هذا الأمر - على نظر بعض الناس ورأيه

ص 137

فيه -نظرنا من أين نتوصل إلى معرفته ؟ فنظرنا على حكم الإنصاف وما أعطاه العقل الكامل بعد جده واجتهاده الممكن منه ، فلم نصل إلى المعرفة به سبحانه إلا بالعجز عن معرفته ، لأنا طلبنا أن نعرفه طلب معرفة الأشياء كلها من جهة الحقيقة التي هي المعلومات عليها ، فلما عرفنا أن ثمّ موجودا ليس له مثل ، ولا يتصور في الذهن ، ولا يدرك ، فكيف يضبطه العقل ؟

هذا ما لا يجوز ، مع ثبوت العلم بوجوده ، فنحن نعلم أنه موجود واحد في ألوهته ، وهذا هو العلم الذي طلب منا ، غير عالمين بحقيقة ذاته التي يعرف سبحانه عليها ، وهو العلم بعدم العلم الذي طلب منا ،

لما كان تعالى لا يشبه شيئا من المخلوقات في نظر العقل ، ولا يشبهه شيء منا ، وفي ذلك قال الصدّيق : العجز عن درك الإدراك إدراك ، فجعل العلم بالله هو لا دركه ، من جهة كسب العقل كما يعلمه غيره ، ولكن دركه من جوده وكرمه ووهبه ،

أما من جهة الدليل فلا يعرف أبدا إلا معرفة الوجود ، وأنه الواحد المعبود لا غير ، فالحق تعالى هو الموصوف بالوجود المطلق ، لأنه سبحانه ليس معلولا لشيء ولا علة لشيء ، بل هو موجود بذاته ، والعلم به عبارة عن العلم بوجوده ، ووجوده ليس غير ذاته ، مع أنه غير معلوم الذات ، لكن يعلم ما ينسب إليه من الصفات ،

أعني صفات المعاني ، وهي صفات الكمال ، وأما العلم بحقيقة الذات فممنوع ، لا تعلم بدليل ولا برهان عقلي ، ولا يأخذها حد ، فإنه سبحانه لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء ، فكيف يعرف من يشبه الأشياء من لا يشبهه شيء ولا يشبه شيئا ؟

فمعرفتك به إنما هي أنه ليس كمثله شيء ، ويحذركم الله نفسه ، وقد ورد المنع من الشرع في التفكر في ذات الله ، فلا يعلم من الله إلا وجوده ، وتعلم أفعاله وصفاته بضرب من الأمثلة ، ولذلك فإن التوحيد الذي يؤمر به العبد أن يعلمه أو يقوله ، ليس هو التوحيد الذي يوحد الحق به نفسه ، فإن توحيد الأمر مركب ، فإن المأمور بذلك مخلوق ، ولا يصدر عن المخلوق إلا ما يناسبه ، وهو مخلوق عن مخلوق ، فهو أبعد في الخلق عن الله الذي وجد عنه هذا التوحيد ، فكيف يليق بالجناب العزيز ما هو مضاف إلى الخلق ؟

وإن كنا تعبدنا به شرعا ، فنقرره في موضعه ، ونقوله كما أمرنا به على جهة القربة إليه ، مع ثبوت قدمنا فيما أشهدنا الحق من المعرفة به ،

من كونه لا يعرف في (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) وفيما ذكره في سورة الإخلاص ، وفي عموم قوله بالتسبيح الذي هو التنزيه (رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)

والعزة تقتضي المنع أن يوصل إلى معرفته ، فالأمر هنا الأمر

ص 138

بالتقليد في التوحيد ، لأن الأمر لا يتعلق بمن يعطيه الدليل ذلك ، إلا أن يكون متعلق الأمر الاستدلال ، لا التعريف على طريق التسليم ، أو الاستدلال بالتنبيه على موضع الدلالة ، مثل قوله :(إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ)
وكقوله :(لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا)
لذلك نقول : إن العلم بالله له طريقان : طريق يستقل العقل بإدراكه قبل ثبوت الشرع ، وهو يتعلق بأحديته في ألوهته ، وأنه لا شريك له ، وما يجب أن يكون عليه الإله الواجب الوجود ، وليس له تعرض إلى العلم بذاته تعالى ، ومن تعرض بعقله إلى معرفة ذات الله فقد تعرض لأمر يعجز عنه ، ويسيء الأدب فيه ، وعرّض نفسه لخطر عظيم ،
وهذا الطريق هو الذي قال فيه الخليل إبراهيم عليه السلام لقومه
(أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ ؟)
فنبههم على أن العلم بالله من كونه إلها واحدا في ألوهته من مدركات العقول ، فما أحالهم إلا على أمر يصح منه أن ينظر ، فيعلم بنظره ما هو الأمر عليه ، والطريق الآخر طريق الشرع بعد ثبوته ، فأتى بما أتى به العقل من جهة دليله ، وهو إثبات أحدية خالقه وما يجب له عزّ وجل ، والمسلك الآخر من العلم بالله العلم بما هو عليه في ذاته ، فوصفه بعد أن حكم العقل بدليله بعصمته فيما ينقله عن ربه من الخبر عنه سبحانه مع(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)وأن لا يضرب له مثل ، بل هو الذي يضرب الأمثال ، لأنه يعلم ونحن لا نعلم ، فنسب إليه تعالى أمورا لا يتمكن للعقل من حيث دليله أن ينسبها إليه ،
ولا يتمكن له ردها على من قام الدليل العقلي عنده على عصمته ، فأورثه ذلك حيرة ، فمن العقلاء من تأول تأويل تنزيه وتأييد ، وعضد تأويله ب(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)و(ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)
ومن العقلاء من سلم علم ذلك إلى من جاء به أو إلى الله ، ومن العقلاء من أهل اللسان من شبّه ، وعذر الله كل طائفة ، وما طلب من عباده في حقه إلا أن يعلموا أنه إله واحد ، لا شريك له في ألوهته لا غير ،
وأن له الأسماء الحسنى بما هي عليه من المعاني في اللسان ، وقرن النجاة والسعادة بمن وقف عندما جاء من عنده عزّ وجل في كتبه وعلى ألسنة رسله عليهم السلام ، ولا شك أن لله عبادا عملوا على إيمانهم ، وصدقوا الله في أحوالهم ،
ففتح الله أعين بصائرهم وتجلى لهم في سرائرهم ، فعرفوه على الشهود ، وكانوا في معرفتهم تلك على بصيرة وبينة بشاهد منهم ، فعليك بعبادة الله التي جاء بها الشرع وورد بها السمع ، ولا تكفر بما أعطاك دليلك المؤدي إلى تصديقه ،
ومن أراد أن يعرف لباب التوحيد فلينظر في الآيات الواردة في التوحيد في

ص 139

الكتاب العزيز الذي وحّد بها نفسه ، فلا أعرف من الشيء بنفسه ، فلتنظر بما وصف نفسه ، وتسأل الله تعالى أن يفهمك ذلك ، فستقف على علم إلهي لا يبلغ إليه عقل بفكره أبد الآباد ، ولتعلم أن المراد بتوحيد الله الذي أمرنا بالعلم به أنه توحيد الألوهية له سبحانه ، لا إله إلا هو ، فإنه تعالى لم يقل : فاعلم أنه لا تنقسم ذاته ، ولا أنه ليس بمركب ، ولا أنه مركب من شيء ، ولا أنه جسم ، ولا أنه ليس بجسم ؛ بل قال في صفته أنه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)

ولما لم يتعرض الحق سبحانه إلى تعريف عباده بما خاضوا فيه بعقولهم ، ولا أمرهم الله في كتابه بالنظر الفكري ، إلا ليستدلوا بذلك على أنه إله واحد أي أنها لا تدل إلا على الوحدانية في المرتبة ، فلا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد ، فزادوا في النظر وخرجوا عن المقصود الذي كلفوه ، فأثبتوا له صفات لم يثبتها لنفسه ، ونفت طائفة أخرى تلك الصفات ، ولم ينفها عن نفسه ولا نص عليها في كتابه ولا على ألسنة أنبيائه ، ثم اختلفوا في إطلاق الأسماء عليه ، فمنهم من أطلق عليه ما لم يطلقه على نفسه وإن كان اسم تنزيه ، ولكنه فضول من القائل به والخائض فيه ، ثم أخذوا يتكلمون في ذاته وقد نهاهم الشرع عن التفكر في ذاته جل وتعالى ، فانضاف إلى فضولهم عصيان الشرع ، بالخوض فيما نهوا عنه ،

فمن قائل : هو جسم ، ومن قائل : ليس بجسم ، ومن قائل : هو جوهر ،

ومن قائل : ليس بجوهر ، ومن قائل : هو في جهة ، ومن قائل : ليس في جهة ،

وما أمر الله أحدا من خلقه بالخوض في ذلك جملة واحدة ، لا النافي ولا المثبت ، ولو سئلوا عن تحقيق معرفة ذات واحدة من العالم ما عرفوها ، فالعاقل يشغل نفسه بالنظر في الأوجب عليه لا يتعداه ، فإن المدة يسيرة ، والأنفاس نفائس ، وما مضى منها لا يعود ، فاعلم أن الله إله واحد ، لا إله إلا هو ، مسمى بالأسماء التي يفهم منها ومن معانيها أنها لا تنبغي إلا له ، ولمن تكون هذه المرتبة له ، ولا تتعرض يا ولي للخوض في الماهية والكمية والكيفية ، فإن ذلك يخرجك عن الخوض فيما كلفته ،

[**نصيحة خالصة :** الزم طريقة الإيمان بالإلهيات]

والزم طريقة الإيمان والعمل بما فرض الله عليك ، واذكر ربك بالغدو والآصال ، بالذكر الذي شرعه لك من تهليل وتسبيح وتحميد ، واتق الله ، فإذا شاء الحق أن يعرفك بما شاءه من علمه ، فأحضر عقلك ولبك لقبول ما يعطيك ويهبك من العلم به ،

فذلك هو النافع ، وهو النور الذي يحيى به قلبك ، وتمشي به في عالمك ، وتأمن فيه من ظلم الشبه والشكوك ، فإن ظلم الشبه والشكوك ، تطرأ في العلوم التي تنتجها الأفكار

ص 140

للمتكلمين في ذات الله والخائضين فيه ، من الأشاعرة والمعتزلة ، وكذلك الفلاسفة في مقالاتهم في الله وفيما ينبغي أن يعتقد ، ولا يزالون مختلفين ، حتى يختلفوا في أصول المذهب الذي يجمعهم ، ولا نرى الرسل والأنبياء قديما وحديثا - من آدم إلى محمد وما بينهما عليهم الصلاة والسلام - قط اختلفوا في أصول معتقدهم في جناب الله ،

بل كل واحد منهم يصدق بعضهم بعضا ، ولا سمعنا عن أحد منهم أنه طرأ عليه في معتقده وعلمه بربه شبهة قط ، فانفصل عنها بدليل ، ولو كان لنقل ودوّن ونطقت به الكتب ، كما نقل سائر ما تكلم فيه من ذلك ممن تكلم فيه ،

ولا سيما والأنبياء تحكمت في العامة في أنفسها وأموالها وأهليها ، وحجّرت وأباحت ، ولم يكن لغيرها هذه القوة من التحكم ، فكانت الدواعي تتوفر على نقل ما اختلفوا فيه في جانب الحق ، لأنهم ينتمون إليه ويقولون : إنه أرسلهم ، وأتوا بالدلائل على ذلك من المعجزات ، ولا نقل عن أحد منهم أنه طرأت عليه شبهة في علمه بربه ،

ولا اختلف واحد منهم على الآخر في ذلك ، والناظر بفكره في معتقده لا يبقى على حالة واحدة دائما ، بل هو في كل وقت بحسب ما يعطيه دليله في زعمه في وقته ، فيخرج من أمر إلى نقيضه ، وما دخل على المتكلمين والنظار ما دخل إلا من الفضول ،

ولهذا وقع الخلاف ولعبت بهم الأفكار والأهواء ، فلو وقفوا حتى يكون الحق هو الذي يعرفهم على لسان رسوله بما ينبغي أن يضاف إليه ويسمى به أفلحوا ، وإنما الإنسان خلق عجولا ،

ورأى في نفسه قوة فكرية ، فتصرف بها في غير محلها ، فتكلم في الله بحسب ما أعطاه نظره ، والأمزجة مختلفة ، والقوة المفكرة متولدة من المزاج ، فيختلف نظرها باختلاف مزاجها ، فيختلف إدراكها وحكمها فيما أدركته ، فالله يحول بيننا وبين سلطان أفكارنا فيما لم نؤمر بالتفكر فيه ،

فمعرفة الله بطريق الخبر أعلى من المعرفة بالله من طريق النظر ، فإن طريق الخبر في معرفة الله إنما جاء بما ليست عليه ذاته تعالى من علم الناظر ، فالمعرفة بالأدلة العقلية سلبية ، وبالأدلة الخبرية ثبوتية وسلبية في ثبوت ، ولا يبلغ العقل في تنزيه الحق مبلغ الشرع فيه ، فأمرنا الله أن نعلم أنه لا إله إلا هو بقوله :« فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ »فأمرنا أن نعلم أن الله واحد في ألوهيته ، فهو واحد في المرتبة ، وما تعرض للذات جملة واحدة ، فإن أحدية الذات تعقل ، فالمعرفة به من كونه إلها ، والمعرفة بما ينبغي للإله أن يكون عليه من الصفات ، التي يمتاز بها عمن ليس بإله وعن المألوه ، هي المأمور بها شرعا« وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ »وهو هنا ما يخطر

ص 141

لمن نظر في توحيد الله من طلب ماهيته وحقيقته ، وهو معرفة ذاته التي ما تعرف ، وحجر التفكر فيها لعظم قدرها ، وعدم المناسبة بينها وبين ما يتوهم أن يكون دليلا عليها ، فلا يتصورها وهم ولا يقيدها عقل ، بل لها الجلال والتعظيم ،

[التوحيد الثاني والثلاثون في القرآن وهو توحيد الذكرى :]
واعلم أن هذا هو التوحيد الثاني والثلاثون في القرآن ، وهو توحيد الذكرى ، وهو توحيد الله ، فإن الإنسان لما جبله الله على الغفلات - رحمة به - فيغفل عن توحيد الله بما يطالعه في كل حين من مشاهدة الأسباب ، التي يظهر التكوين عندها ، وليس ثمة إدراك يشهد به عين وجه الحق في الأسباب التي يكون عنها التكوين ، وهو لاستيلاء الغفلة وهذا الغطاء يتخيل أن التكوين من عين الأسباب ، فإذا جاءته الذكرى - على أي وجه - علم بمجيئها أنها تدل لذاتها على أنه لا إله إلا الله ، وأن تلك الأسباب لولا وجه الأمر الإلهي فيها ، أو هي عين الأمر الإلهي ، ما تكوّن عنها شيء أصلا ، فلما كان هذا التوحيد بعد ستر رفعته الذكرى ، أنتج له أن يسأل ستر الله للمؤمنين والمؤمنات ، فقال تعالى :« وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ »فهي من منن الله على عبده ، واعلم أن التلفظ بشهادة الرسالة المقرونة بشهادة التوحيد فيه سر إلهي ، وهو أن الإله الواحد الذي جاء بوصفه ونعته الشارع ، ما هو التوحيد الإلهي الذي أدركه العقل ، للصفات التي لا يقبلها توحيد العقل المجرد عن الشرع ، فهذا المعبود ينبغي أن تقرن شهادة الرسول برسالته بشهادة توحيد مرسله ، ولهذا يضاف إليه
[إشارة وتحقيق : الأكابر يلزمون في الذكر (لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ)]
-**إشارة وتحقيق** - الأكابر يلتزمون في الذكر(لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ)على غير ما يعطيه النظر العقلي ، أي الوجود هو الله ، والعدم منفي الذات والعين بالنفي الذاتي ، والثابت ثابت الذات والعين بالإثبات الذاتي ، وتوجه النفي على النكرة وهو« إِلهَ »وتوجه الإثبات على المعرفة وهو« اللَّهُ »وإنما توجه النفي على النكرة وهو« إِلهَ »لأن تحتها كل شيء ، وما من شيء إلا وله نصيب من الألوهة يدعيه ، فلهذا توجه عليه النفي ، لأن الإله من لا يتعين له نصيب ، فله الأنصباء كلها .

[سورة محمد (47) : الآيات 20 إلى 21]
وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ (20) طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ(21)

ص 142

هذا حكم الصدق في النطق فكيف في جميع الأحوال ؟

[سورة محمد (47) : آية 22]
فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ (22)
ما أمر الله تعالى بصلة الأرحام القريبة إلا ليسعدوا بذلك ، وما من شخص إلا وله رحم يصلها ولو بالسلام ، كما قالوا : بلوا أرحامكم ولو بالسلام ، وأفضل الصلات في الأرحام صلة الأقرب فالأقرب
[إشارة : الأقربون إلى الله أولى بالمعروف]
-**إشارة -** جاء في الحديث الشريف : [إن الرحم شجنة من الرحمن] فنحن أرحام ، فصحت القرابة ، فنحن من حيث الرحم قرابة قربى ، ومن حيث الرتبة عبيد ، فلا ننتسب إلا إليه ، ولا ننتمي لسواه ، وقد أمر تعالى بصلة الأرحام ، والرحمن لنا رحم نرجع إليه ، فلا بد للمطيع أمره أن يصل رحمه ، وليس إلا وصلته بربه ، فإن الله بلا شك قد وصلنا من حيث أنه رحم لنا ، فهو الرزاق ذو القوة المتين ، المنعم على أي حالة كنا ، من طاعة أمره أو معصية وموافقة أو مخالفة ، فإنه لا يقطع صلة الرحم من جانبه وإن انقطعت عنه من جانبنا لجهلنا ، وأفضل الصلات في الأرحام صلة الأقرب فالأقرب ،
وقد قال تعالى عن نفسه :(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) فالله أقرب إلى العبد من نفسه منه ، فإذا وصله العبد فقد وصل الأقرب بلا شك ، فقد أتى ما هو الأفضل بالوصل في الأقربين ، فإن النص فيه ، قال رجل في مجلس : الله يقول : الأقربون أولى بالمعروف ؛

فقال الشيخ أبو العباس العريبي على الفور :إلى الله ؛
وكذلك هو الأمر في نفسه ، ولا أقرب من الله ، فهو القريب سبحانه الذي لا يبعد إلا بعد تنزيه ، وتنقطع الأرحام بالموت ولا ينقطع الرحم المنسوبة إلى الحق ، فإنه معنا حيث كنا ، ونحن ما بيننا نتصل في وقت وننقطع في وقت ، بموت أو بفقد وارتحال ، وكم من حال أغنى عن سؤال ، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل ، ومن علم غيره فهو بنفسه أعلم .

[سورة محمد (47 : (الآيات 23 إلى 24]
أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ (23) أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها(24)

ص 143

[الفكر حال لا يعطي العصمة]
اعلم أن الفكر حال لا يعطي العصمة ، ولهذا مقامه خطر ، لأن صاحبه لا يدري هل يصيب أم يخطئ ؟
لأنه قابل للإصابة والخطأ ، فإن أراد صاحبه أن يفوز بالصواب فيه غالبا في العلم بالله ، فليبحث في كل آية نزلت في القرآن فيها ذكر التفكر والاعتبار ، ولا يتعدى ما جاء من ذلك في غير كتاب ولا سنة متواترة ، فإن الله ما ذكر في القرآن أمرا يتفكر فيه ونص على إيجاده عبرة أو قرن معه التفكر ، إلا والإصابة معه والحفظ وحصول المقصود منه الذي أراده الله ، لا بد من ذلك ، لأن الحق ما نصبه وخصه في هذا الموضع دون غيره إلا وقد مكّن العبد من الوصول إلى علم ما قصد به هناك ، فإن تعديت آيات التفكر إلى آيات العقل أو آيات السمع أو آيات العلم أو آيات الإيمان واستعملت فيها الفكر لم تصب جملة واحدة ، فالتزم الآيات التي نصبها الحق لقوم يتفكرون ، ولا تتعدى بالأمور مراتبها ، ولا تعدل بالآيات إلى غير منازلها ، واجعل بالك إذا ذكر الله شيئا من ذلك بأي اسم ذكره ، فلا تتعدى التفكر فيه من حيث ذلك الاسم إن أردت الإصابة للمعنى المقصود لله ، مثل قوله »: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ »فانظر فيه من حيث ما هو قرآن لا من حيث هو كلام الله ، ولا من حيث ما هو فرقان ، ولا من حيث ما هو ذكر ، فكل اسم له حكم ، وما عيّنه الحق في الذكر إلا حتى يفهمه عباده ، ويعلّمهم كيف ينزلون الأشياء منازلها .

[سورة محمد (47) : الآيات 25 إلى 28]
إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ (25) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ (27) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (28)
هذا تأثير خلق في حق ، فإن الأمر دائر بين تأثير حق في خلق ، وخلق في حق ، فقد أسخطوا الله فأغضبوه ، فعاد وبال ذلك الغضب على من أغضبه ، فلو لا شهود ما أغضبه ما غضب ، وما أسخطه ما سخط.

ص 144

[سورة محمد (47) : الآيات 29 إلى 30]
أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ (30)
ثم نزل الحق للتعليم والتعريف لنا ، وهو العليم بكل شيء ، بما كان ويكون ، فقال تعالى :

[سورة محمد (47) : آية 31]
وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ (31)
« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ »[« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ . . . » الآية [:
مع علمه بما يكون منهم ، وهو العليم سبحانه ، فآنسهم تعالى بقوله »وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ »ففيه حكم إيمان يعتض به من يسمع ممن لا يعرف الله ، قولهم : إن الله لا يعلم الجزئيات ، وإن كانوا قصدوا بذلك التنزيه ، وهذه مسئلة لا يمكن تحققها بالعقل ، ما لم يكن الكشف بكيفية تعلق العلم الإلهي بالمعلومات ، وأنه ليس في حق الحق ماض ولا آت ، وأن آنه لم يزل ولا يزال ، لا يتصف آنه بأنه لم يكن ثم كان ، ولا بانقضاء بعد ما كان ، فبهذا يعلم أن الله يعلم الجزئيات علما صحيحا ، غاب عنه من قصد التنزيه بنفيه عن جناب الحق ، ومع أنه سبحانه العالم بما يكون ، ولكن الحال يمنع من إقامة الحجة له سبحانه علينا ، فأنبأ عن حقيقة لا تردّ ، تعليما لنا بما هو الأمر عليه ، وأن الحكم للأحوال ، فلم يبق بالابتلاء لأحد حجة على الله ، فحسم بذلك الابتلاء احتمال قولهم :
لو حكم بعلمه فيهم ، أن يقولوا : لو بلوتنا وجدتنا واقفين عند حدودك ؛ وهذا يسمى علم الخبرة ، وهو الاسم الخبير في قوله تعالى :(عَلِيماً خَبِيراً)
فقال تعالى :« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ »أي إذا ظهر منكم عند الابتلاء بالتكليف ما يكون منكم ، من مخالفة أو طاعة ، يتعلق العلم مني عند ذلك به ، كان ما كان ، فإن العلم لا حكم له في التقليب على الحقيقة ، وإنما التقليب لموجد عين الفعل ، ويتعلق العلم بذلك الانقلاب والمنقلب إليه ، ولولا الاشتراك في الصورة في قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [خلق الله آدم على صورته]
ما حكم الحق على نفسه بما حكم لخلقه من حدوث تعلق العلم ، وهذا غاية اللطف في الحكم والتنزل الإلهي ، فنزل مع خلقه في العلم المستفاد ، إذ كان علمهم مستفادا ، كما شرّك نفسه تعالى مع خلقه في الأحكام الخمسة ، فمع علمه بما يكون من خلقه قال :« حَتَّى نَعْلَمَ »وأعلم

ص 145

من الله لا يكون ، ومع ذلك أنزل نفسه في هذا الإخبار منزلة من يستفيد بذلك علما ، وهو سبحانه العالم بما يكون منهم في ذلك قبل كونه ، فمن المنزهة في زعمهم من يقول :
إن الله لا يستفيد من ذلك علما ، فإنه لا يعلم الأمر من حيث ما هو واقع من فلان على التعيين ؛ فرد كلام الله وتأوله ، إذ خاف من وقوع الأذى به لذلك ، ومن الظاهرية من التزم أنه يعلم بذلك الاختبار وقوفا عند هذا اللفظ ، ومن الناس من صرف ذلك إلى تعلق العلم به عند الوقوع ، فالعلم قديم والتعلق حادث ، ومن المؤمنين من سلّم علم ذلك إلى الله وآمن به من غير تأويل معين ، وهذا هو أسلم ما يعتقد ، وهذا كله ابتلاء من الله لعباده الذين ادعوا الإيمان به بألسنتهم« الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ »المجاهدة مشقة وتعب ، وبها سمي الجهاد جهادا ، والمجاهدة حمل النفس على المشاق البدنية ، المؤثرة في المزاج وهنا وضعفا ، وأعظم المشاق إتلاف المهج في سبيل الله ، وهو الجهاد في سبيل الله ، فابتلاهم أولا بما كلفهم ، واستخدمهم بما ابتلاهم حتى يعلم المجاهدين من عباده والصابرين ، ويبلو أخبارهم بقوله :« وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ »فإذا عملوا ابتلى أعمالهم ، هل عملوها لخطاب الحق أو عملوها لغير ذلك ؟ فجعل الحق الابتلاء سبب حصول هذا العلم ، وما هو سبب حصول العلم ، وإنما هو سبب إقامة الحجة ، حتى لا تكون للمحجوج حجة يدفع بها . واعلم أن البلاء في الدنيا نعمة معجلة من الله تعالى على عباده المؤمنين ، والبلاء على قدر المراتب عند الله تعالى ، وجاء في الأثر عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : [ما ابتلى الله أحدا من الأنبياء بمثل ما ابتليت به] .

[سورة محمد (47) : الآيات 32 إلى 33]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (32) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (33)

تفيد هذه الآية أن الشروع في العبادة ملزم ، فإنه عهد عهده مع الله بلا شك ، فبالأولية كان مختارا ، وفي التلبس مضطرا ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله.

146

[سورة محمد (47) : الآيات 34 إلى 35]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (35)

« وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ »بإعلاء كلمة الله على كلمة أعدائه ، والعلو نسبتان : علو مكان وعلو مكانة ، قال تعالى :« وَاللَّهُ مَعَكُمْ »في علو المكانة ، فهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة ، ثم أتبع المعية بقوله :« وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ »لما خافت نفوس العمال منا ، فالعلم يطلب المكانة ، والعمل يطلب المكان ، فجمع لنا بين الرفعتين بالنص ، علو المكان بالعمل ، وعلو المكانة بالعلم ، ثم قال تنزيها للاشتراك بالمعية (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)عن هذا الاشتراك المعنوي .

[سورة محمد (47) : الآيات 36 إلى 38]

إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (36) إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (37) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ(38) .

وَاللَّهُ الْغَنِيُّ »لأنه لم يطلب تكوين الموجودات لافتقاره إليها ، وإنما الأشياء في حال عدمها الإمكاني لها تطلب وجودها ، وهي مفتقرة بالذات إلى الله الذي هو الموجد لها لفقرها الذاتي ، فهي تطلب وجودها من الله ، فقبل الحق سؤالها وأوجدها لها ولأجل سؤالها ، لا من حاجة قامت به إليها ، لأنها مشهودة له تعالى في حال عدمها ووجودها ، والعبد ليس كذلك ، فإنه فاقد لما افتقر إليه في حال عدمه ، وإن كان غير فاقد له علما ، إذ لولا علمه به ما عيّن بالإيجاد شيئا عن شيء ودون شيء ، غير أن العبد مركب من ذاتين من معنى وحس وهو كماله ، فما لم يوجد الشيء المعلوم للحس ، فما كمل إدراكه لذلك الشيء بكمال ذاته ،

ص 147

فإن أدركه حسا بعد وجوده وقد كان أدركه علما ، فكمل إدراكه للشيء بذاته ، فتركيبه سبب فقره إلى هذا الذي أراد وجوده ، وإمكانه سبب فقره إلى مرجحه ، وأما الحق تعالى فليس بمركب ، بل هو واحد ، فإدراكه للأشياء على ما هي عليه من حقائقها في حال عدمها ووجودها إدراك واحد ، فلهذا لم يكن في إيجاده الأشياء عن فقر كما كان هذا للعبد ، ولهذا قال :" وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ " -راجع سورة فاطر آية 15 –
« وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ »فأعطى الله في هذه الآية سبب الاستبدال ،
وهو التولي فقال :« وَإِنْ تَتَوَلَّوْا »عما سألتموه من الإنفاق وبخلتم« يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ »أي على صفتكم ، بل يعطون ما يسألون ، ويعني ما وقع منهم من المخالفة لأمر الله ، بل يكونون على أتم قدم وأقواه في طاعة الله

[إشارة : قريب التجلي فما لك مولّ ؟] :
-إشارة -« وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ »قريب التجلي فما لك مول ؟ لا ترأس على من تبعك ، فإنه ما تبعك وإنما تبع سر الحق الذي أودعه فيك ، وكذلك أودعه في التابع ، غير أنك علمته منك بإعلام الحق إياك ، وما علم التابع ما عنده ، وتلك المناسبة التي جمعت بينكما ، فإن رأست عليه ووطّيته ، أبدلك الحق مكانه ، وأبدله مكانك .

(48) سورة الفتح مدنيّة

[سورة الفتح (48) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1)

[فتوح المكاشفة وفتوح الحلاوة وفتوح العبارة :]
قال تعالى لنبيه محمد صلّى الله عليه وسلّم :« إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً »وهو فتوح المكاشفة وفتوح الحلاوة في الباطن وفتوح العبارة ، فقال تعالى له :« إِنَّا فَتَحْنا لَكَ »في الثلاثة الأنواع من الفتوح« فَتْحاً »فأكده بالمصدر« مُبِيناً »أي ظاهرا يعرفه كل من رآه بما تجلى وما حواه ، ففتوح المكاشفة ثابت بما أشهده ليلة إسرائه من الآيات ، وفتوح الحلاوة ثابت له ذوقا ، وفتوح العبارة ثابت للعرب بالعجز عن المعارضة ، ولهذا الفتوح كان القرآن معجزة ، فما أعطي أحد فتوح العبارة على كمال ما أعطيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فإنه قال :(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ

ص 148

الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) أي معينا .

[سورة الفتح (48) : آية 2]

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً »(2)

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ »

[« لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ . . . » الآية]

فيسترك عما يستحقه صاحب الذنب من العتب والمؤاخذة ،« وَما تَأَخَّرَ »يسترك عن عين الذنب حتى لا يجدك فيقوم بك ، فإنه ليس للمغفرة متعلق إلا أن يسترك من الذنب أو يسترك من العقوبة عليه ، فما تقدم لا يعاقب عليه ، وما تأخر لا يصيبه صلّى الله عليه وسلّم ، وهذا إخبار من الله بعصمته صلّى الله عليه وسلّم ، فأعلمنا بالمغفرة في الذنب المتأخر أنه معصوم بلا شك ، ويؤيد عصمته أن جعله الله أسوة يتأسى به ، فلما بشر صلّى الله عليه وسلّم بالمغفرة العامة - وقد ثبتت عصمته فليس له ذنب يغفر - لم يبق إضافة الذنب إليه إلا أن يكون هو المخاطب والقصد أمته ، كما قيل : إياك أعني فاسمعي يا جارة ، وهو صلّى الله عليه وسلّم معصوم من الذنوب ، فهو المخاطب بالمغفرة ، والمقصود من تقدم من زمان آدم إلى زمانه ، وما تأخر من الأمة من زمانه إلى يوم القيامة ،

فإن الكل أمته حيث قال : [كنت نبيا وآدم بين الماء والطين] وهو سيد النبيين والمرسلين ، فإنه سيد الناس ، وهم من الناس ،

فبشر الله محمدا صلّى الله عليه وسلّم بقوله :« لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ »بعموم رسالته إلى الناس كافة بالنص ، فبشره الله بالمغفرة لما تقدم من ذنوب الناس وما تأخر منهم ، فكان هو المخاطب والمقصود الناس ، فيغفر الله للكل ويسعدهم ، وهو اللائق بعموم رحمته التي وسعت كل شيء ، وبعموم مرتبة محمد صلّى الله عليه وسلّم حيث بعث إلى الناس كافة ، ولم يقل : أرسلناك إلى هذه الأمة خاصة ، ولا إلى أهل هذا الزمان إلى يوم القيامة خاصة ، لكن ثمّ مغفرة في الدنيا ، وثمّ مغفرة في القبر ، وثمّ مغفرة في الحشر ، وثمّ مغفرة في النار بخروج منها وبغير خروج ، لكن يستر عن العذاب أن يصل إليه بما يجعل له من نعيم في النار مما يستعذبه ، فهو عذاب بلا ألم« وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ »بأن يعطيها خلقها ، فأخبره بهذه الآية أن نعمته التي أعطاها محمدا صلّى الله عليه وسلّم مخلقة ، أي تامة الخلقة« وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً »وهو صراط ربه الذي هو عليه ، فالشرائع كلها أنوار ، وشرع محمد صلّى الله عليه وسلّم بين هذه الأنوار كنور الشمس بين أنوار

ص 149

الكواكب ، فإذا ظهرت الشمس خفيت أنوار الكواكب واندرجت أنوارها في نور الشمس ، فكان خفاؤها نظير ما نسخ من الشرائع بشرعه صلّى الله عليه وسلّم مع وجود أعيانها ، كما يتحقق وجود أنوار الكواكب ، ولهذا ألزمنا في شرعنا العام أن نؤمن بجميع الرسل وجميع شرائعهم أنها حق ، فلم ترجع بالنسخ باطلا ، ذلك ظن الذين جهلوا ، فرجعت الطرق كلها ناظرة إلى طريق النبي صلّى الله عليه وسلّم ، فلو كانت الرسل في زمانه لتبعوه ، كما تبعت شرائعهم شرعه ، فإنه أوتي جوامع الكلم ، فمن عرف نعم الله عليه أوجب عليه هذا العلم الشكر ، فشغل نفسه بشكر الله تعالى كما فعله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين نزلت عليه هذه الآية ، وبشر الحق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بذلك فقام حتى تورمت قدماه شكرا لله تعالى على هذه النعمة ، فما فتر ولا جنح إلى الراحة ، ولما قيل له في ذلك وسئل في الرفق بنفسه قال صلّى الله عليه وسلّم : [أفلا أكون عبدا شكورا]
وذلك لما سمع الله يقول : (سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) وأتى بفعول وهو بنية المبالغة ، فكثر منه الشكر لما كثرت النعم ، فطلبت كل نعمة منه الشكر لله عليها ،
ورد في الحديث الثابت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في صيام يوم عرفة : [أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده] خرّجه مسلم ، فمن صام هذا اليوم أخذ بحظ وافر مما أعطى الله نبيه صلّى الله عليه وسلّم في قوله »: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ »فلم يزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمره كلّه في الحكم حكم الصائم يوم عرفة .

[سورة الفتح (48) : آية 3]
وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (3)
[« وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً » الآية :]
والعزيز من يرام فلا يستطاع الوصول إليه ، فإذا كانت الرسل هي الطالبة الوصول إليه ، فقد عز عن إدراكها إياه ببعثته العامة ، وإعطاء الله إياه جوامع الكلم ، والسيادة بالمقام المحمود في الدار الآخرة ، وبجعل الله أمته خير أمة أخرجت للناس ، وأمة كل نبي على قدر مقام نبيها ؛ وإذا طلب الوصول إليه القائلون باكتساب النبوة عز عليهم الوصول إلى ذلك ، فإن المكتسب إنما هو السلوك والوصول إلى الباب ، وأما ما وراء الباب فلا علم للواصلين إليه بمن يفتح له ذلك الباب ، فمن الناس من يفتح له بالإيمان العام وهو مطالعة الحقيقة كأبي بكر ، فلم ير شيئا إلا رأى الله قبله ، ومنهم من يفتح له بالإنباء العام الذي لا شرع فيه ، وهذان الفتحان باقيان في هذه الأمة إلى يوم القيامة ، ومن الواصلين من يفتح له الباب بنبوة

ص 150

التشريع المقصور عليهم ، ومنهم من يفتح له الباب بالرسالة بما شرع ، وهذان بابان أو فتحان قد منع الله أن يتحقق بهما أحد أو يفتح له فيهما ، إلا أهل الاجتهاد ، فإن الله أبقى عليهم من ذلك بعض شيء بتقرير الشرع ، فحكمه للشارع لا لهم ، فكل ما خرج من وراء الباب عند فتحه ما هو مكتسب ، والنبوة غير مكتسبة ، فنصره الله النصر العزيز ، فلم يصل إليه من قال باكتساب النبوة ، لأن الموصوف بالعزة لا عين للعزة إلا مع وجود الطالب لمن قامت به ، فيحمي مقامه وحضرته أن يصل طالب إليه .

[سورة الفتح (48) : آية 4]
هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (4)
[السكينة في أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم]
السكينة هي الأمر الذي تسكن له النفس ، لما وعدت به أو لما حصل في نفسه من طلب أمر ما ، وسميت سكينة لأنها إذا حصلت قطعت عنه وجود الهبوب إلى غير ما سكنت إليه النفس ، ومنه سمي السكين سكينا ، لكون صاحبه يقطع به ما يمكن قطعه به ، وهذا اللفظ مشتق من السكون ، وهو الثبوت ، وهو ضد الحركة فإن الحركة نقلة ، فالسكينة تعطي الثبوت على ما سكنت إليه النفس ولو سكنت إلى الحركة ، والطمأنينة سكينة أنزلها القرآن في قلوب المؤمنين ، فكانت آيات بني إسرائيل ظاهرة ، وآياتنا في قلوبنا ، إذ قال الله تعالى في بني إسرائيل في آية طالوت(وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ)فكانت السكينة شهادة في غير هذه الأمة ، وبها وبأمثالها كانت الأمة المحمدية خير أمة أخرجت للناس ، فعلامة هذه الأمة في قلوبهم ، ولم يجعل الله لهذه الأمة المحمدية علامة خارجة عنهم على حصولها ، فليس لهم علامة في قلوبهم سوى حصولها ، فهي دليل على نفسها ، ما تحتاج إلى دليل من خارج كما كان في بني إسرائيل ، فتنزل السكينة على المؤمنين وهم مؤمنون فتنقلهم بنزولها عن رتبة ما كانوا به مؤمنين إلى مقام معاينة ذلك ، وهو تضاعف إيمانهم بالعيان ، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، ولا يكون السكون في الأشياء إلا عن هيبة وتعظيم ، وقد أشهد الله تعالى بعض أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم السكينة في تلاوته القرآن ، وكانت له فرس فجعلت تخبط ، فرفع رأسه فرأى غمامة فيها سرج ، كلما قرأ نزلت ودنت منه ، وإذا سكت

ص 151

ارتفعت ، فلما ذكر ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [تلك السكينة نزلت للقرآن] فرأى هذا الصاحب ممثلا خارجا عنه ما كان فيه ، فكل من تلا وسكن لما تلا بصدق بصورة ظاهر وحكمة باطن فذلك تال صاحب سكينة ، فإن هو تلا وسكن ظاهرا ولم يسكن باطنا - والسكون الباطن فهم المعنى الساري في الوجود من تلك الآية المتلوة ، لا يقتصر بها على ما تدل عليه في الظاهر خاصة - فمن تلا هكذا فليس بصاحب سكينة أصلا وإن كان من أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم ، فإن تلا وسكن باطنا ولم يسكن ظاهرا وتعدى الظاهر المشروع فذلك ليس بمؤمن ، وهو أبعد الناس من الله ، وما شقي إلا بعدم سكون الظاهر ، ففاته الإيمان به ، وفي قوله تعالى »:لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ »إشارة إلى الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، واختاروا العمى على الهدى ، واشتروا الكفر بالإيمان من المؤمنين ، ليزداد المؤمنون إيمانا مع إيمانهم ، ويرجون تجارة لن تبور »وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ »لما كان الملك لله كانت الجنود له تعالى من كونه ملكا ، فإن الله لما سمى نفسه ملكا سمى خلقه جنودا ، وكل مأخوذ به من الأسباب الكونية جند من جنود الله« وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ».

[سورة الفتح (48) : الآيات 5 إلى 7]

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (5) وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (7)

[إشارة : وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ]

-إشارة - لما كان عالم الإنسان ملكا لله تعالى ، كان الحق ملكا لهذا الملك بالتدبير فيه والتفصيل ، ولهذا وصف نفسه تعالى بأن لله جنودا ، جنود السماوات والأرض وقال :(وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)فهو تعالى حافظ هذه المدينة الإنسانية لكونها حضرته التي وسعته وهي عين مملكته ، وما وصف نفسه بالجنود والقوة إلا وقد علم أنه تعالى سبقت

ص 152

مشيئته في خلقه أن يخلق له منازعا ينازعه في حضرته ، ويثور عليه في ملكه بنفوذ مشيئته فيه وسابق علمه وكلمته التي لا تتبدل .

[سورة الفتح (48) : الآيات 8إلى 9]
إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (9)
[الورع في إطلاق لفظتي الرسول والملك :]
اعلم أن من الورع أن لا تنزل إلى ما اختصت به الأنبياء والرسل من الإطلاق ، فيتورع أن يطلق على أحد ممن ليس بنبي ولا رسول اللفظ الذي اختصوا به ، فيطلق على الرسل الذين ليسوا برسل الله لفظ الورثة والمترجمين ، فيقال : وصل من السلطان الفلاني إلى السلطان الفلاني ترجمان يقول كذا وكذا ، فلا يطلق على المرسل ولا على المرسل إليه اسم الملك ورعا وأدبا مع الله ، ويطلق عليه اسم السلطان ، فإن الملك من أسماء الله ، فيجتنب هذا اللفظ أدبا وحرمة وورعا ، ولم يرد لفظ السلطان في أسماء الله ، ويطلق على الرسول الذي جاء من عند السلطان اسم الترجمان ، ولا يطلق عليه اسم الرسول ، لأنه قد أطلق على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فيجعل هذا الاسم من خصائص النبوة والرسالة الإلهية أدبا مع رسل الله عليهم السلام ، وإن كان اللفظ قد أبيح ولم ينه عنه ، ولكنه لم يوجب علينا ، فكان لزوم الأدب أولى مع من عرّفنا الله أنه أعظم منا منزلة عنده ، وهذا لا يعرفه إلا الأدباء الورعون

[سورة الفتح (48) : آية 10]
إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (10).
إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ »فنفاه بعد ما أثبته صورة ، كما فعل به في الرمي سواء ، أثبته ونفاه ،
[« يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » الآية :]
ثم جعل الله يده في المبايعة فوق أيدي المبايعين فقال :« يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ »فنزّل الحق يد نبيه صلّى الله عليه وسلّم منزلة يده في المبايعة ، ويد الله تأييده وقوته ، وما شهد الخلق المبعوث إليهم إلا الرسول ، فظاهره خلق وباطنه حق ، ولما كان الحق تعالى الإمام الأعلى

ص 153

والمتبوع الأول ، والإمامة على الحقيقة هي لله الحق تعالى جل جلاله ، والأئمة إنما هم نوابه وخلفاؤه ، فهو الإمام لا هم قال :« فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ »فإن التنزيه من العبد نظير التنزيه من الحق سواء ، فمن نزه الحق عند أداء ما أوجب الله عليه من العبادات في العهد الذي أخذه عليه عقلا وشرعا ، فقد وفّى بعهود الله التي أخذت عليه . أشرك الله نفسه مع عبده في هذا الحكم بما أوجب على نفسه له بما كتب على نفسه من الرحمة والوفاء بعهده ، يقال أوفى على الشيء إذا أشرف عليه ، واحذر أن تفي ليفي لم يزده على ميزانه شيئا ، وهو قوله :(أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) وليس سوى دخول الجنة ، ورد في الحديث : [كان له عند الله عهدا أن يدخله الجنة] لم يقل غير ذلك« وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ »ولم يطلب الموازنة ، ولا ذكر هنا أنه يفي له بعهده

وإنما قال :« فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً »وما عظمه الحق فلا أعظم منه ، فاعمل على وفائك بعهدك من غير مزيد ،

قال صلّى الله عليه وسلّم في حق نفسه : [لا يكمل لعبد الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين]

ولهذا يشترط في البيعة المنشط والمكره ، لأن الإنسان ما ينشط إلا إذا وافق الله هوى نفسه ، والمكره إذا خالف أمر الله هوى نفسه ، فيقوم به على كره لاتصافه ووفائه بحكم البيعة ، فإنه ما بايع إلا الله ، إذ كانت يد الله فوق أيديهم ، وما شاهدوا بالأبصار إلا يد هذا الشخص الذي بايعوه ، والنفس أبدا في الغالب تحت حكم مزاجها ، والقليل من الناس من يحكم نفسه على طبيعته ومزاجه ، فالكامل من العباد من لم يترك لله عليه ولا عنده حقا إلا وفاه إياه ، ولذلك فإن الشروع عندنا في النافلة ملزم ، فإن العبد كان مختارا وفي التلبس مضطرا ، فإن الشروع عهد عهده مع الله بلا شك .

[سورة الفتح (48) : الآيات 11 إلى 15]

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (12)

ص 154

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (13) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (14) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً(15)

" يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ " قد يطلق الكلام على الترجمة في لسان المترجم وينسب الكلام إلى المترجم عنه ، وهذا الكلام هو العلم ، وهو الموصوف بالتحريف والتبديل ، أي في الترجمة فإنها تقبل التبديل ، والمعاني تابعة للكلام ، فلا يفهم من الأمر الذي حرّف به وبدّل المعنى الذي يفهم من الأصل ، ولذلك ألحق التبديل والتحريف بالأصل ، وإن كان لا يقبل التحريف ولا التبديل ، لأنه كلام إلهي لا يحكى ولا يوصف بالوصف الذاتي ، والقرآن هو كلام الله وإن كنا نحن الكاتبين له بأيدينا .

[سورة الفتح (48 : (الآيات 16 إلى 27]

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (16) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (17) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ

ص 155

الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (18) وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (19) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (20)
وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (21) وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (23) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (24) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (25)
إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (26)
لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ

ص 156

اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (27)
قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : يا رسول الله وللمقصرين ، قال : اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : يا رسول الله وللمقصرين ، قال : وللمقصرين] لما لم يفهموا مقصود الشارع بطلب الغفر الذي هو الستر للمحلقين ، وهم الذين حسروا عن رؤوسهم الشعر فانكشفت رؤوسهم ، فطلب من الله سترها ثوابا لكشفها ، والمقصر ليس له ذلك ، وحلق الرأس أولى من تقصير الشعر ، فإن الشعور بالأمر ما هو عين حصول العلم به على التمام من التفصيل ، وإنما يشعر العبد أن ثمّ أمرا ما ، فإذا حصّله زال الشعور وكان علما تاما بتفصيل ما شعر به ، فإلقاء الشعور هو إزالة الشعور بوجود العلم ، لأن الشعر ستر على الرأس .

[سورة الفتح (48) : الآيات 28 إلى 29]
هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (28) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (29)

[« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ « . . . الآية :]
لما كان صلّى الله عليه وسلّم مشكاة فلك الرحمة الذي هو الظاهر من فلك الحياة ، والكلمة التي هي أم الكتاب ، وكانت نبوته ختما على النبوات ، إذ النبوة إنباء بأسرار وإرث بأنوار ، علم

ص 157

بذلك كونه النازل في جميع الأقطار . والمنبأ في جميع الأخبار ، والحامل لواء الحمد الغفار وأول مشفع في دار القرار ، فسمي من حيث تكرار حمده محمدا ، ومن حيث كونه حامل لواء الحمد أحمد ،
فقال تعالى :« مُحَمَّدٌ » لما جمع فيه من المحامد « رَسُولُ اللَّهِ » فإن الحق المشروع ظهر بصورة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حياته ، ولذلك كان يقال له : رسول الله في التعريف ، ما كان يقال له : محمد فقط « وَالَّذِينَ » آمنوا« مَعَهُ »أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، فازوا بالمقام العلي هنا وفي دار السلام ، أعلى درجات القربة ، التحقق في الإيمان بالصحبة ، لا يبلغ أحدنا مد أحدهم ولا نصيفه ، ولا يصلح أن يكون وصيفه ، نحن الإخوان فلنا الأمان ، وهم الأصحاب فهم الأحباب ، فمن رأى الصحبة عين الاتباع ، من أهل الحقائق ، ألحق اللاحق بالسابق ، فغاية السابق تعجيل الرؤية ، لحصول البغية ، ولكن ما لها بالسعادة استقلال فيما أعطاه الدليل ، وصححه السبيل ، وكم شخص رآه وشقي ، والذي تمناه بعدم اتباعه ما لقي ، فما أعطته رؤيته ، وقد فاتته بغيته ؟ فما ثمّ إلا الاقتداء ، وما يسعدك إلا الاهتداء ، فتعجل النعيم الصاحب ، فهو أقرب الأقارب ، وقد خلع الله تعالى على نبيه صلّى الله عليه وسلّم خلعه وسماه بالعبد والرسول والنبي ، فإن هذه الأسماء وصلة بين الإنسان وعبوديته من أكمل الوجوه ، فإن العبد على قدر ما يخرج به عن عبوديته ينقصه من تقريبه من سيده ، لأنه يزاحمه في أسمائه ، وأقل المزاحمة الاسمية ، فأبقى علينا اسم الولي وهو من أسمائه سبحانه ، ونزع هذا الاسم من رسوله وسماه بالرسول ، فإن هذا الاسم من خصائص العبودية التي لا تصح أن تكون للرب ، وسبب إطلاق هذا الاسم وجود الرسالة ، والرسالة قد انقطعت ، فارتفع حكم هذا الاسم بارتفاعها من حيث نسبتها إلى الله ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :[إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي] فكان هذا من أشد ما جرعت الأولياء مرارته ، فإنه قاطع للوصلة بين الإنسان وبين عبوديته ، ولما علم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن في أمته من يجرع مثل هذا الكأس ، وعلم ما يطرأ عليهم في نفوسهم من الألم لذلك ، رحمهم فجعل لهم نصيبا ، فقال للصحابة : [ليبلغ الشاهد الغائب] فأمرهم بالتبليغ كما أمره الله بالتبليغ ، لينطلق عليهم أسماء الرسل التي هي مخصوصة بالعبيد ، وقال صلّى الله عليه وسلّم : [رحم الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها] يعني حرفا حرفا ، وهذا لا يكون إلا لمن بلغ الوحي من قرآن أو سنة بلفظه الذي جاء به ، وهذا لا يكون إلا لنقلة

ص 158

الوحي من المقرئين والمحدثين ، ليس للفقهاء ولا لمن نقل الحديث النبوي على المعنى نصيب ولاحظ فيه ، فإن الناقل على المعنى إنما نقل إلينا فهمه في ذلك الحديث النبوي ، فلا يحشر يوم القيامة فيمن بلغ الوحي كما سمعه وأدى الرسالة ، كما يحشر المقرئ والمحدث الناقل لفظ الرسول عينه في صف الرسل عليهم السلام ، فالصحابة إذا نقلوا الوحي على لفظه فهم رسل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، والتابعون رسل الصحابة ، وهكذا الأمر جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة ، وهو خير عظيم امتن به عليهم ، ومهما لم ينقله الشخص بسنده متصلا غير منقطع فليس له هذا المقام ، ومن هنا تعرف شرف مقام العبودية وشرف المحدثين نقلة الوحي بالرواية

[إشارة : معاذ رسول رسول الله ، ومحمد صلّى الله عليه وسلّم رسول الله]

-إشارة - كان معاذ وغيره رسول رسول الله إلى من أرسل إليهم ، وقيل في محمد صلّى الله عليه وسلّم :

رسول الله ، وكان يأخذ عن جبريل ، ولم يقل في معاذ وغيره : رسول الله ، وقيل فيه : رسول رسول الله ، فلما ذا ترك ذكر الواسطة في« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ « ؟إنما نسب رسول الرسول إليه ، لاشتراكهما في التكليف الذي أنزل عليه ، ولم ينسب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى جبريل لأنه ليس له من رسالته غير التعريف الذي أودع الرحمن لديه ، فنسب الرسول إلى الله تعالى بغير واسطة ، لعدم هذه الرابطة .

(49) سورة الحجرات مدنيّة

[سورة الحجرات (49) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (2)

[الأدب عند السماع والمناظرة بحديث رسول الله ص]

فإذا كنا نهينا وتحبط أعمالنا برفع أصواتنا على صوت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا تكلم ، وهو المبلغ عن الله ، فغض أصواتنا عندما نسمع تلاوة القرآن آكد ، والله يقول :(وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)وأهل الورع إذا اتفقت بينهم مناظرة في مسئلة

ص 159

دينية ، فيذكر أحد الخصمين حديثا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، خفض الخصم صوته عند سرد الحديث ، هذا هو الأدب عندهم إذا كانوا أهل حضور مع الله وطلبوا العلم لوجه الله ، فأما علماء زماننا اليوم فما عندهم خير ولا حياء ، لا من الله ولا من رسول الله ، إذا سمعوا الآية أو الحديث النبوي من الخصم لم يحسنوا الإصغاء إليه ، ولا أنصتوا ، وداخلوا الخصم في تلاوته أو حديثه ، وذلك لجهلهم وقلة ورعهم ، عصمنا الله من أفعالهم ، فإن الرحمة كلها في التسليم والتلقي من النبوة والوقوف عند الكتاب والسنة ، ولقد عمي الناس عن قوله صلّى الله عليه وسلّم : [عند نبي لا ينبغي تنازع]

وحضور حديثه صلّى الله عليه وسلّم كحضوره ، لا ينبغي أن يكون عند إيراده تنازع ، ولا يرفع السامع صوته عند سرد الحديث النبوي ، فإن الله يقول »: لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ »ولا فرق بين صوت النبي أو حكاية قوله ، فما لنا إلا التهيؤ لقبول ما يرد به المحدّث من كلام النبوة من غير جدال ، سواء كان ذلك الحديث جوابا عن سؤال أو ابتداء كلام ، فالوقوف عند كلامه في المسألة أو النازلة واجب ، فمتى قيل : قال الله ، أو قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ينبغي أن يقبل ويتأدب السامع ولا يرفع صوته على صوت المحدّث ، إذا قال ما قال الله ، أو سرد الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فإن الله توعّد على رفع الصوت بحبط العمل من حيث لا يشعر الإنسان ، فإنه يتخيل في رده وخصامه أنه يذبّ عن دين الله ، وهذا من مكر الله الذي قال فيه :(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ)فالعاقل المؤمن الناصح نفسه إذا سمع من يقول : قال الله تعالى أو قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فلينصت ويصغ ويتأدب ويتفهم ما قال الله أو ما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، يقول الله :(وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

فأوقع الترجي مع هذه الصفة وما قطع بالرحمة ، فكيف حال من خاصم ورفع صوته وداخل التالي وسارد الحديث النبوي في الكلام ؟ وأرجو أن يكون الترجي الإلهي واجبا كما يراه العلماء .

[سورة الحجرات (49 : (الآيات 3 إلى 5]

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3) إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(5)

ص 160

لما كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يذكر الله على كل أحيانه ، والله جليس من يذكره ، فلم يزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جليس الحق دائما فمن جاء إليه صلّى الله عليه وسلّم فإنما يخرج إليه من عند ربه إمّا مبشرا وإمّا موصيا ناصحا ، ولهذا قال :« لَكانَ خَيْراً لَهُمْ »فلو كان خروجه إليهم بما يسوءهم في آخرتهم ما كان خيرا لهم ، وقد شهد الله بالخيرية فلا بد منها ، وهي على ما ذكرناه من بشارة بخير أو وصية ونصيحة وإبانة عن أمر مقرب إلى سعادتهم ، غير ذلك لا يكون .

[سورة الحجرات (49 : (الآيات 6 إلى 7]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7)
لولا أن الله تعالى تولى قلوب المؤمنين فحبب الإيمان إليها وزينه فيها ، وكره الكفر وشانه عندها ، لتاهوا في الظلمات وغرقوا في بحار الهلكات ، لظهور الاعتياد ومعاينة الأسباب ، ولكن الله سلّم وحبب الإيمان في القلوب وزيّن ، وكره الكفر والفسوق والعصيان ، ولذلك مدح المؤمنين بالغيب المستور .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 8 إلى 9]
فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8) وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9)
المقسط هو الحكم إذا كان عدلا.

ص 161

[سورة الحجرات (49) : آية 10]
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)
النسب الصحيح بالدين لا بالطين« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »
[بحث في الأخوة في طريق الله تعالى :]
وهذه أخوة الصفة ، وهي أحق مراتب الأخوة ، فإن بها يقع التوارث ، فبأخوة الإيمان ترث ، فلا تأسف على أخوة النسب ولا تكترث ، المؤمن أخو المؤمن لا يسلمه ، وما ترك فهو يتسلّمه . واعلم أن الله قد واخى بين المؤمنين كما واخى بين أعضاء جسد الإنسان ، وبهذا وقع المثل من النبي صلّى الله عليه وسلّم في الحديث الثابت ،
وهو قوله صلّى الله عليه وسلّم : [مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر]
كذلك المؤمن إذا أصيب أخوه المؤمن بمصيبة فكأنه هو الذي أصيب بها ، فيتألم لتألمه ، ومتى لم يفعل ذلك المؤمن مع المؤمنين ، فما ثبتت أخوة الإيمان بينه وبينهم ، والمؤمن أخو المؤمن لا يسلمه ولا يخذله ، فالمؤمن لا يبغض المؤمن ، والمؤمن لا يقتل المؤمن لإيمانه ، قال تعالى :« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »فجعل أباهم الإيمان ، فهم إخوة لأب واحد ، وبنص هذه الآية بيننا وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخوة الإيمان ، وإن كان هو السيد الذي لا يقاوم ولا يكاثر ، ولكن قد انتظم معنا في سلك الإيمان بقوله تعالى :« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »«فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ »يعني إذا تنافروا« وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »

-بحث في الأخوة في طريق الله -
يحتاج المريد إلى الإخوان لتبيين آفات نفسه ليرفأه الشيخ بعد الجراحة ،
أي بعد أن يجرحه الشيخ بالتقريع واللوم ، فلو طعنت نفس المجروح فيهم دون أستاذه ، فلا بأس به ، وإن كان ضعفا فسيعود عنده دواء وكشفا إن شاء الله تعالى ، فلسان حال الأخ في عقد الأخوة ، كل واحد منا بصير في عيوب أخيه لعماه عن عيوب نفسه واستيلاء رمسه ، فشد بهذه القاعدة وسطا ولا تتخذ ذلك شططا ، حتى يؤيدك الله بنصره ، ويكشف لكل واحد منّا عيوبه ببصره ، وإذ ذاك أخوك من صدقك لا من صدّقك ، ومن جرحك لا من مدحك ،
وإليه ينظر قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [من أرضى الناس بسخط الله صار مادحه منهم ذاما ، ومن أرضى الله بسخط الناس أرضى الله عنه الناس ويهبه العين الصحيحة]
يرى الطالب معاديه بالعرف العام وليا والمسئ إليه محسنا ، إذ هو إنما يعادي عدوه فهو وليه من حيث لا يدري ، وإليه ينظر قول الشاعر :
ذهب الرجال المقتدى بفعالهم *** والمنكرون لكل أمر منكر

ص 162

وبقيت في خلف يزكي بعضهم *** بعضا ليدفع معور عن معور
فمادحك إنما يتولى عدوك فاحذره ولا تأنس إليه ، فتميل في كل أحوالك إليه ، وإذا كان هذا مع الأحباب ، فكيف يكون مع الأب ؟ أي الشيخ الذي هو أخص الحبائب ، أو مع الأخ الشقيق والصديق الشفيق والصاحب ، ولذلك قيل : لا تصحب من يراك معصوما ، فإنه يكون هو المنتفع بك بقدر ظنه ، وتبقى أنت على ما بينك وبين الله تعالى من مكره وأمنه ، فالمحبة على الطالب لا على الشيخ ، وقد غلط في هذا كثيرون واحتجوا بقول إبراهيم بن أدهم لصاحبه : إن شدة محبتك في الله غيبتني عن النظر في مساويك ، وذلك حال من أحبك له ، وأما الشيخ فإنما يحبك لك ، فلا يزال مطلعا على عوراتك في غفلاتك ، ليصحح منك السقيم ويرد معوجك إلى المستقيم ، وأنت أيها الأخ لا تمدح أخاك الغائب عن نفسه بنفسه في وجهه ، الذي هو قفاه ، فتأكل لحمه ميتا ، فهذه هي الأخوة والأبوة الهازمة للأحزاب ، المغرقة في السبب القاطع للأسباب ، والنسب القاطع للأنساب ، المكينة في النسب المحمدي والسبب الأحمدي ، يقول صلّى الله عليه وسلّم : [كل سبب ونسب منقطع إلا نسبي وسببي]
لأنه صلّى الله عليه وسلّم آدم أبوة النبوة والدين ، كما أن آدم عليه السلام آدم أبوة الطين ، فإذا بلغ المؤمن حال العلم ذوقا ورقاه الحق ، صار حقا للشيخ والشيخ حقا له ، فله مرتبة الصحبة والأخوة والمشاورة ، وعليه الأدب بإبقاء التبعية بحيث لا تستمر عليه تكليفات الطالبين لأجل هذه الأخوة ، قال تعالى :« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »
وقال صلّى الله عليه وسلّم : [أنا من الله والمؤمنون مني] .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 11 إلى 12]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ(12)

ص 163

" يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ »والله ما يوجد إلا عند ظن العبد به ، فليظن به خيرا ، والظن من بعض وزعة الوهم ، وهو الذي يعطي العذاب المعجل والنعيم المعجل ، فظنّ خيرا تلقه ، وبعض الظن إثم ، فو الله لولا الظن ما عصى الله مخلوق أبدا ، ولا بد من العصيان ، وهو حكم الله في الفعل أو الترك ، فلا بد من الظن فمن رحمة الله بخلقه أن خلق الظن فيهم وجعله من بعض وزعة الوهم . واعلم أنه لا يصح إنكار المنكرات إلا بما لا يتطرق إليه الاحتمال ، وهذا يغلط فيه كثير من المؤمنين لا أصحاب الدين ، فإن أصحاب الدين المتين أول ما يحتاط على نفسه ، ولا سيما في الإنكار خاصة ، فإن للمغيّر شروطا في التغيير ، فإن الله ندبنا إلى حسن الظن بالناس لا إلى سوء الظن بهم ، فلا ينكر صاحب الدين مع الظن ، وقد سمع أن بعض الظن إثم ، فلعل هذا من ذلك البعض ، وإثمه أن ينطق به ، وإن وافق العلم في نفس الأمر ، فإن الله يؤاخذه بكونه ظن وما علم ، فنطق فيه بأمر محتمل ولم يكن له ذلك ، وسوء الظن بنفس الإنسان أولى من سوء ظنه بالغير ، لأنه من نفسه على بصيرة وليس هو من غيره على بصيرة ، فلا يقال فيه في حق نفسه إنه سيّئ الظن بنفسه ، لأنه عالم بنفسه ، وإنما قلنا فيه : إنه يسيء الظن بنفسه اتباعا لسوء ظنه بغيره ، فهو من تناسب الكلام ، فالعالم الصالح من استبرأ لدينه في كل أحواله في حق نفسه وحق غيره

[فائدة : حسن الظن بالناس :]

-فائدة - أغفلها الناس وهي تدعو إلى حسن الظن بالناس ، ليكون محلك طاهرا من السوء - وذلك أنك إذا رأيت من يعاشر الأشرار وهو خير عندك ، فلا تسيء الظن به لصحبته الأشرار ، بل حسّن الظن بالأشرار لصبحتهم ذلك الخيّر واجعل المناسبة في الخير لا في الشر ، فإن الله ما سأل أحدا قطّ يوم القيامة عن حسن الظن بالخلق ، ويسأله عن سوء الظن بالخلق« وَلا تَجَسَّسُوا »الجاسوس يستعمل في الشرّ في العرف الاصطلاحي« وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً «أضاف الغيبة إلينا

وقال :« لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً »فجعلنا نشأة واحدة ذات أبعاض ، فإن الجزء والتفصيل إنما يرد على الكل ، فما خرجنا عنا ولا وقعنا إلا فينا ، فشدد الأمر علينا في ذلك ، والغيبة ذكر الغائب بما لو سمعه ساءه ، وهي حرام على المؤمنين المكلفين فيما بينهم إلا في مواطن مخصوصة ، فإنها واجبة وقربة إلى الله ، وأهل

ص 164

الورع من المؤمنين يعرّضون بها ولا يصرحون ، فمن ذلك في طريق الجرح الذي يعرفه المحدثون في رواة الأحكام المشروعة ، ومنها عند المشورة في النكاح ، فإنه مؤتمن والنصيحة واجبة ، ومنها الغيبة المرسلة وهو أن يغتاب أهل زمانه من غير تعيين شخص بعينه ، ومنها غيبة الشيوخ المريدين في حال التربية إذا كان فيها صلاح المريد إذا وصل ذلك إليه ، ومع كون الغيبة محمودة في هذا الموطن فعدم التعيين فيها أولى من التعيين ، قال النبي صلّى الله عليه وسلّم :

[لا غيبة في فاسق]

نهيا لا نفيا ، على هذا أخذ أهل الورع هذا الخبر ، وطريق التعريض هيّن المأخذ ، وما عدا أمثال هذه المواطن فهي مذمومة يجب اجتنابها ومن هذا الباب تجريح الشهود إذا عرف المشهود عليه أنهم شهدوا زورا ، فوجب عليه نصرة الحق وأهله وخذلان الباطل وأهله« أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً »فيفطر الصائم بالغيبة وإن لم يأكل »فَكَرِهْتُمُوهُ »وهذا خطاب عام« وَاتَّقُوا اللَّهَ »هذا هو الدواء ، ومعناه اتخذوه وقاية بينكم وبين هذه الأمور المذمومة التي الغيبة منها »إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ».

[سورة الحجرات (49) : آية 13]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

[أنواع الجسوم الإنسانية]

الجسوم الإنسانية أربعة أنواع : جسم آدم وجسم حواء وجسم عيسى وأجسام بني آدم ، وكلّ جسم من هذه الأربعة نشؤه يخالف نشء الآخر في السببية ، مع الاجتماع في الصورة الجسمانية والروحانية ، وإنما نبهنا على هذا ، لئلا يتوهم الضعيف العقل أن القدرة الإلهية أو أن الحقائق لا تعطي أن تكون هذه النشأة الإنسانية إلا عن سبب واحد ، يعطي بذاته هذا النشء ، فرد الله هذه الشبهة بأن أظهر هذا النشء الإنساني في آدم بطريق لم يظهر به جسم حواء ، وأظهر جسم حواء بطريق لم يظهر به جسم ولد آدم ، وأظهر جسم أولاد آدم بطريق لم يظهر به جسم عيسى عليه السلام ، وينطلق على كل واحد من هؤلاء اسم الإنسان بالحد والحقيقة ، ذلك ليعلم أن الله بكل شيء عليم ، وأنه على كل شيء قدير ، فجمع الله هذه الأربعة الأنواع في الخلق في آية من القرآن فقال :" يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ " يريد آدم " مِنْ ذَكَرٍ " يريد حواء فهي منفعلة عن آدم عليه السلام« وَأُنْثى »يريد عيسى

ص 165

عليه السلام ، وهو منفعل عن مريم في مقابلة حواء من آدم ، وبالمجموع« مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى »يريد بني آدم باقي الذرية بطريق النكاح والتوالد ، فهذه الآية جامعة لخلق الناس ، ومن جوامع الكلم وفصل الخطاب ، وتبين أن الغرض الإعلام بأن الأجسام الإنسانية وإن كانت واحدة في الحد والحقيقة ، والصور الحسية والمعنوية ، فإن أسباب تأليفها مختلفة ، لئلا يتخيل بأن ذلك لذات السبب تعالى الله ، بل ذلك راجع إلى فاعل مختار يفعل ما يشاء كيف يشاء ، من غير تحجير ولا قصور عن أمر دون أمر ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم »وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا »الشعوب في الأعاجم كالقبائل في العرب ، أي فرقكم شعوبا ، وميز قبيلة عن قبيلة ، وسميت الميتة شعوبا لأنها تفرق بين الميت وأهله« إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ »

[من التقوى حماية جانب الله تعالى من المذام :]
-الوجه الأول - أي أشدكم وقاية ، لأنه جاء من باب أفعل ، وقد جعل الله بينه وبين خلقه نسبا ، ولم يكن سوى التقوى من الوقاية ، ورد في الخبر أن الله يقول يوم القيامة :
[اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي أين المتقون ؟]
وهم الذين جعلوا نفوسهم وقاية يحمون بها جانب الله تعالى من المذام التي كانت منه إيجادا وحكما [والشر ليس إليك] فجعلوا نفوسهم وقاية لله - الوجه الثاني - الذين اتخذوا الله وقاية ، ولهذا المقام رجال ولهذا رجال« إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »عليم بما أخفى ، خبير بما أبدى ، قال النبي صلّى الله عليه وسلّم] :إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا أعجمي على عربي إلا بالتقوى] يريد بالأب آدم عليه السلام .

[سورة الحجرات (49) : آية 14]
قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14)
« قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوالأن الإيمان طهارة الباطن« وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا »فإن الإسلام الانقياد ، فإذا أظهر الإنسان الانقياد الظاهر كان مسلما ظاهرا »وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ »وهو الطهارة الباطنة ، فالإنسان كما يكون مسلما ظاهرا ، يجب عليه الانقياد بباطنه حتى يكون مسلما باطنا كما كان ظاهرا ، فإن الطهارة الباطنة هي النافعة المنجية

ص 166
من التخليد في النار .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 15 إلى 17]
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15) قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (17)

لما منّ من منّ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالإسلام ،
قال تعالى تأنيسا له :« يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا »
ثم أمره أن يقول لهم فقال ،« قُلْ »يا محمد« لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ »
وآثر الحق تعالى محمدا صلّى الله عليه وسلّم على نفسه حتى لا يجعل له نعتا فيما أجري عليه لسان ذم ،
فقال له : قل لهم :« بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ »معناه أنه لو منّ لكان المنّ لله« أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ »ولو شاء لقال : بل أنا أمنّ عليكم أن هداكم الله بي للإيمان الذي رزقكم بتوحيده وأسعدكم به ، فما جعله تعالى محلا للمنّ كما منّوا بإسلامهم ،
فوبخوا ونبهوا بقوله :« بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ »والمنّ هنا من علم التطابق لم يقصد به المنّ ، لأنهم لما امتنوا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بإسلامهم ، قال الله له :« قُلْ »يا محمد« بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ »أي إذا دخلتم في حضرة المنّ فالمنّ لله لا لكم ، فما كان الله ليقول في المنّ ما قال ، ويكون منه ، وما كان الله ليدلنا على مكارم الأخلاق من العفو والصفح ويفعل معنا خلافه ،
فلله المنّة التي هي النعمة ، والامتنان الذي هو إعطاء المنّة ، لا المنّ سبحانه وتعالى ، فلما كانت المنة الواقعة منهم إنما هي على الله لا على رسوله صلّى الله عليه وسلّم ، فإنهم ما انقادوا إلا إلى الله ، لأن الرسول ما دعاهم إلى نفسه ، وإنما دعاهم إلى الله ،
فكان قوله تعالى :« إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ »في دعواكم أنكم مؤمنون ، يعني في إيمانكم بما جئت به ، فإنه مما جئت به أن الهداية بيد الله ، يهدي بها من يشاء من عباده لا بيد المخلوق ،
فعراهم من هذه الصفة أن تكون لهم كسبا ، فالله تعالى يمنّ على عباده بما يمتنّ عليهم من المنن الجسام ، فجميع نعمه الظاهرة والباطنة مننه ،

ص 167

ولذا سميت مننا ، وليس للعباد أن يمتنوا لأن النعم ليست إلا لمن خلقها ، فلهذا كان المن من الله محمودا ، لأنه ينبه عباده بما أنعم عليهم ليرجعوا إليه ، وكان مذموما من العباد لأنه كذب محض .

[سورة الحجرات (49) : آية 18]
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (18)

(50) سورة ق مكيّة

[سورة ق (50) : آية 1]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1)
[« ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » الآية :]
قيد وصف القرآن في هذه الآية بصفة المجد ، وذلك ينكشف لمن يتلو القرآن بهذه الصفة ، فيرى شرف نفسه المخلوقة على الصورة ، وما فضله الله به من حيث إنه جعله العين المقصودة ، ووسع قلبه حتى وسع علما بما تجلى له ، وكشف له عن منزلته عنده ، وقبوله لزيادة العلم به دائما ، وتأهله للترقي في ذلك إلى غير نهاية دنيا وآخرة ، وما سخر في حقه مما في السماوات وما في الأرض جميعا ، ونظر إلى نظر كل جزء من العالم إليه بعين التعظيم والشفوف عليه ، ورأى كل العالم في خدمته .

[سورة ق (50) : الآيات 2 إلى 6]
بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَ إِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ (4) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5) أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ(6)

168

الإنسان ما أعطي النظر إلا ليستفيد ، فمنور البصيرة من لا يزال مع الأنفاس يستفيد ، ومن ليست له هذه الحالة فليس بإنسان كامل الإنسانية .

[سورة ق (50 : (الآيات 7 إلى 10]
وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (10)
« وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ »وهو الحركة إلى العلو .

[سورة ق : (50) الآيات 11 إلى 15]
رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (11)كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14) أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)
« بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ »
[« بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » الآية]
هذا في مفهوم العموم النشأة الآخرة ، وقد يتناهى الأمر في نوع خاص كالإنسان ، فإن أشخاص هذا النوع متناهية ، لا أشخاص العالم ، ولا يتناهى أيضا في خلق أشخاص النوع الإنساني ، فعين كل شخص يتجدد في كل نفس ، لا بد من ذلك ، ففي مفهوم الخصوص تجدد النشأة في كل نفس دنيا وآخرة ، فإن أدناه تغير الحال مع الأنفاس ، فلا يزال الحق فاعلا في الممكنات الوجود ، ولولا تبديل الخلق مع الأنفاس لوقع الملل في الأعيان ، فالخلق جديد حيث كان دنيا وآخرة ، فدوام الإيجاد لله تعالى ، ومن المحال بقاء حال على عين نفسين أو زمانين للاتساع الإلهي ولبقاء الافتقار على العالم إلى الله ، فالتغيير له واجب في كل نفس ، والله خالق فيه في كل نفس ، فالأحوال متجددة مع الأنفاس على الأعيان ، فنحن في خلق جديد بين وجود وانقضاء ، فأحوال

ص 169

تتجدد ، على عين لا تتعدّد ، بأحكام لا تنفد ، فهذا الخلق الجديد الذي أكثر الناس منه في لبس وشك ما هو إلا الاستحالة ، فإن العالم كله محصور في ثلاثة أسرار : جوهره وصوره والاستحالة ، وما ثم أمر رابع ، فلا يزال العالم يستحيل دائما من الدنيا إلى الآخرة ، والآخرة بعضها إلى بعض ، كما استحال منها ما استحال إلى الدنيا ، كما ورد في الخبر في النيل والفرات وسيحان وجيحان أنها من أنهار الجنة ، استحالت فظهرت في الدنيا ، بخلاف الصورة التي كانت عليها في الآخرة ، فالاستحالة دائما وأبدا في الدنيا ، ثم نستحيل إلى البرزخ ، وإذا استحلنا من البرزخ إلى الصور التي يكون فيها النشر والبعث سميت تلك الآخرة ، ولا يزال الأمر في الآخرة في خلق جديد منها فيها ، أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، إلى ما لا يتناهى ، فلا نشاهد في الآخرة إلا خلقا جديدا في عين واحدة ، فالعالم متناه لا متناه ، ومن ذلك تعلم أن العالم لا يخلو في كل نفس من الاستحالة ، ولولا أن عين الجوهر من الذي يقبل هذه الاستحالة في نفسه واحد ثابت لا يستحيل من جوهره ، ما علم حين يستحيل إلى أمر ما ما كان عليه من الحال قبل تلك الاستحالة ، غير أن الاستحالات قد يخفى بعضها ويدق ، وبعضها يكون ظاهرا تحس به النفس ، أمر الله تبارك وتعالى نبيه صلّى الله عليه وسلّم أن يقول (رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) أي ارفع عنّي اللبس الذي يحول بيني وبين العلم بالخلق الجديد ، فيفوتني خير كثير حصل في الوجود لا أعلمه ، والحجاب ليس إلا التشابه والتماثل ، ولولا ذلك لما التبس على أحد الخلق الجديد الذي لله في العالم في كل نفس بكل شأن ، فقال تعالى :« بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ »أي إنهم لا يعرفون أنهم في كل لحظة في خلق جديد ، فما يرونه في اللحظة الأولى ما هو عين ما يرونه في اللحظة الثانية ، وهم في لبس من ذلك ، وبذلك يكون الافتقار للخلق دائما وأبدا ، ويكون الحق خالقا حافظا على هذا الوجود وجوده دائما ، بما يوجده فيه من خلق جديد لبقائه .

فانظر فديتك فيما قد أتيت به *** فالعلم يدرك ما لا يدرك البصر
فرجال العلم أولى بالعبر *** ورجال العين أولى بالنظر
فالذي يوصف بالعقل له *** قوة تخرجه عن البصر
والذي يوصف بالكشف له *** صورة تسمو على كل الصور
فتراه دائما في حاله *** ظاهرا من غير إلى غير

ص 170

والخلق ما سمي خلقا إلا بما يخلق منه ، فالخلق جديد وفيه حقيقة اختلاق ، لأنه تنظر إليه من وجه فتقول هو حق ، وتنظر إليه من وجه فتقول هو خلق ، وهو في نفسه لا حق ولا غير حق ، فإطلاق الحق عليه والخلق كأنه اختلاق ، فغلب عليه هذا الحكم فسمي خلقا ، وانفرد الحق باسم الحق ، إذ كان له وجوب الوجود لنفسه ، وكان للخلق وجوب الوجود به ، فالحق للوجود المحض ، والخلق للإمكان المحض ، فما ينعدم من العالم ويذهب من صورته فمما يلي جانب العدم ، وما يبقى منه ولا يصح فيه عدم فمما يلي جانب الوجود ، ولا يزال الأمران حاكمين على العالم دائما ، فالخلق جديد في كل نفس دنيا وآخرة ، ونفس الرحمن لا يزال متوجها ، والطبيعة لا تزال تتكون صورا لهذا النفس حتى لا يتعطل الأمر الإلهي ، إذ لا يصح التعطيل ، فصور تحدث ، وصور تظهر ، بحسب الاستعدادات لقبول النفس الرحماني إلى ما لا يتناهى ، فالأول منها وإن كان صورة فهو المبدع ، والثاني ليس بمبدع ، فإنه على مثاله ، ولكنه مخلوق .

[سورة ق (50) : آية 16]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16)

[« وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » الآية :]

جعل الحق بهذه الآية النفس أجنبية عن الإنسان ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للإنسان المكلف : [إن لنفسك عليك حقا] فأضاف النفس إليه ، والشيء لا يضاف إلى ذاته ، فجعل النفس غير الإنسان ، وأوجب لها عليه حقا تطلبه منه ، ولما علم تعالى أن إفراط القرب حجاب عظيم عن القرب ، وحبل الوريد نعلم قربه ولا تراه أبصارنا ، ذكرنا بنفسه فقال : إنه أقرب إلينا من حبل الوريد ، كذلك قرب الحق منا ، نؤمن به ولا تدركه أبصارنا فقال :« وَنَحْنُ »جاء تعالى في القرآن الكريم بأسماء الكنايات ، منها ما هو جمع ، ومنها ما هو مفرد ، فالجمع مثل قوله نحن وإنّا ، بكسر الهمزة وتشديد النون ، والمفرد مثل قوله أنا وهو ، فإذا كانت الكناية في عالم الألفاظ والكلمات بلفظ الجمع ، مثل نحن وإنا فللأسماء ، لأن ما ثم كثرة إلا ما تدل عليه منه أسماؤه الحسنى ، فإذا جمع نفسه مع أحديته فلأسمائه من حيث ما تدل عليه من الحقائق المختلفة ، وما مدلولها سواه ، فإنها ومدلولاتها عينه وأسماؤه ، وإذا أفرد فإنما يريد هويته لا أسماءه ، ولا معنى لمن قال إن الجمع كناية عن العظمة ، لا بل هو

ص 171

عين الكثرة ، فقوله تعالى :« وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ »يعني أنه بأسمائه أقرب إلينا منا ، فوصف الحق نفسه بالقرب من عباده ، وما خص إنسانا من إنسان ، فالقرب الإلهي من العبد لا خفاء به في الإخبار الإلهي ، كما قال :(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ)فهو تعالى أقرب إلينا من أنفسنا ، لأن حبل الوريد منا ، والحبل الوصل ، فهو أوصل ، فإنه ما كان الوصل إلا به ، فبه نسمع ونبصر ونقوم ونقعد ونشاء ونحكم ، وهذه الأحكام ليست لحبل الوريد ، فهو أقرب إلينا من حبل الوريد ، فإن غاية حبل الوريد منا الذي جاء له ما للعروق من الحكم في أنها مجرى الحياة وسكك الدم ، فكان الحق أقرب إلى العبد من نفسه ، فإنه أتى بأفعل من ، فثمّ قريب وأقرب ، فهو قريب بنزوله من العرش إلى السماء الدنيا ، كما أخبر صلّى الله عليه وسلّم ، وهو أقرب فإنه معنا أينما كنا ، فهو تعالى أقرب من حبل الوريد ، إلى كل شقي وسعيد ، وفي هذه الآية من رحمة الله بخلقه ما لا يقدر قدره إلا العارفون به ، فلنا بهذه الآية جوار ، وللجار حق مشروع ، فينبغي للإنسان أن يحضر هذا الجوار الإلهي عند الموت ، حتى يطلب من الحق ما يستحقه الجار على جاره من حيث ما شرع ، وهو قوله لنبيه صلّى الله عليه وسلّم أن يقول(قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ)أي الحق الذي شرعته لنا ، فعاملنا به حتى لا ننكر شيئا منه مما يقتضيه الكرم .

[سورة ق (50) : الآيات 17 إلى 18]

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (17) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)

[» ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » الآية]

وكّل الله تعالى بالعباد ملائكة يكتبون ما تلفظوا به من كلمات ، وظهر الكفر في العالم والإيمان ، بأن تكلم كل شخص بما في نفسه من إيمان وكفر ، وكذب وصدق ، لتقوم الحجة لله على عباده ظاهرا بما تلفظوا به ، فأنفاس الإنسان عليه معدودة ، وتصرفاته محدودة ، قال تعالى :« ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ »سمى الكلام باللفظ ، لأن اللفظ الرمي ، فرمت النفس ما كان عندها مغيبا بالعبارة إلى أسماع السامعين ، والملائكة الكتاب لا يكتبون على العبد من أفعاله السيئة إلا ما تكلم بها ، وهو قوله تعالى :« ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »وهو الكاتب ، فالملك الحافظ الكاتب عند الإنسان كل ما لفظ كتبه الملك ، فلا يكتب إلا ما

ص 171

يلفظ به الإنسان ، فإذا لفظه رمى به ، فبعد الرمي يتلقاه الملك فيكتبه ، فالملك يرقب حركة العبد ويكتب منه حركة لسانه إذا تلفظ ، فيحصي عليه ألفاظه التي رمى بها ، لا يترك منها شيئا حتى يوقفه الله عليها ، إما في الدنيا إن كان من أهل العناية ، وإما في الآخرة في الموقف العام الذي لا بد منه ، فالله يقيد كل قائل بما سمع منه ، فلا يتخيل قائل أن الله أهمله وإن أمهله ، فالملائكة يحصون الأقوال ، وإن كانوا يعلمون ما تفعلون ،

كما قال تعالى : (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ ، كِراماً كاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ) ما قال يكتبون ، فعليك أن تراعي أقوالك كما تراعي أفعالك ، فإن أقوالك من جملة أعمالك ، روينا أن الملك لا يكتب على العبد ما يعمله حتى يتكلم به ، فإذا تكلمت فتكلم بميزان ما شرع الله لك أن تتكلم به ، كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يمزح ولا يقول إلا حقا ، فعليك بقول الحق الذي يرضي الله ، فما كل حق يقال يرضي الله ، فإن النميمة حق ، والغيبة حق ، وهي لا ترضي الله ،

وراع ما نهاك الله أن تقوله في كتابه ، فلا تقل ما نهاك الله عنه أن تقوله وتتلفظ به ، فإنه كما نهاك عن أمور نهاك عن القول وإن كان حقا ،

ورد في الخبر الصحيح : [إن الرجل يتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيهوي بها في النار سبعين خريفا ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيرفع بها في عليين]

فلا تنطق إلا بما يرضي الله ، لا بما يسخط الله عليك ، وذلك لا يتمكن لك إلا بمعرفة ما حده لك في نطقك ، وهذا باب أغفله الناس ،

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم]

وقال الحكيم : لا شيء أحق بسجن من لسان ، وقد جعله الله خلف بابين ، الشفتين والأسنان ، ومع هذا يكثر الفضول ويفتح الأبواب ،

ثم إنه من كرم الله - وقد ورد به خبر - أن العبد إذا عمل السيئة قال الملك لصاحبه الذي أمره الحق أن يستأذنه في كتابة السيئة : أأكتب ؟

فيقول له : لا تكتب وأنظره إلى ست ساعات من وقت عمله السيئة ، فإن تاب أو استغفر فلا تكتبها ، وإن مرت عليه ست ساعات ولم يستغفر فاكتبها سيئة واحدة ، ولا تكتبها إلا إذا تلفظ بها ، بأن يقول : فعلت كذا ، أو تكون السيئة في القول ، فتكتب بعد مضي هذا القدر من الزمان ، وأي مؤمن يمضي عليه ست ساعات لا يستغفر الله فيها ؟.

ص 173

[سورة ق (50) : الآيات 19 إلى 21]
وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ (21)
الإنسان بين قضاء الله وقدره ، فلا يقدر يتعداهما ، فهما الحادي والهادي ، وهما السائق والشهيد ، ولهما الخلف والأمام ، والناس اليوم في عمى عن شهود هذين وفي الآخرة يرونهما ، والسائق فيه إشارة للزجر والتهديد والرهبوت.

[سورة ق (50) : آية 22]
لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)
[« فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » الآية] :
في كشف الغطاء رفع الضرر واحتداد البصر ، فإذا كشف الغطاء وجاء العطاء ، تسرحت الحواس وارتفع الالتباس ، وتخلص النص وزال البحث والفحص ، فقد جمع التكليف شمل الكون ، فلا تقل هذا حجر ، وهذا شجر ، فلا أبالي ، غاية العين أن يعرفك الحجر والشجر والحيوان ، ولا تعرفهم إلا بعد كشف الغطاء ، ولا تقبل المعاذير - الوجه الأول - إذا كانت هذه الآية في حق الميت فمعناها : تدرك النّفس ما لم تكن أدركته بالموت ، فهو يقظة بالنسبة لما كانت عليه في حال الحياة الدنيا ، فإنه بالموت تنكشف الأغطية ، ويتبين الحق لكل أحد ، ولكن ذلك الكشف في ذلك الوقت لا يعطي سعادة إلا لمن كان في العامة عالما بالتوحيد ، فإذا كشف الغطاء فرأى ما علم عينا فهو سعيد ،
وأما أصحاب الشهود هنا فهو لهم عين ، وعند كشف الغطاء تكون تلك العين لهم حقا ، فينتقل أهل الكشف من العين إلى الحق ، وينتقل العالم من العلم إلى العين ، وما سوى هذين الشخصين فينتقلون من العمى إلى الإبصار ، فيشهدون الأمر بكشف غطاء العمى عنهم ، لا عن علم تقدم ، فلا بد من مزيد لكل طائفة عند الموت ورفع الغطاء ،
ولهذا قال من قال من الصحابة : لو كشف الغطاء - فأثبت الغطاء - ثم قال : ما ازددت يقينا ، يعني فيما علم إذا عاينه ، فلا يزيد يقينا في العلم ، لكن يعطيه كشف الغطاء أمرا لم يكن عنده ، فيصح قوله ما ازددت يقينا في علمه إن كان ذا علم ، وفي عينه إن كان ذا عين ، لا أنه لا يزيد بكشف الغطاء أمرا لم يكن له ، إذ لو كان كذلك لكان كشف الغطاء في حق من هذه صفته عبثا معرى

ص 174

عن الفائدة ، فما كان الغطاء إلا ووراءه أمر وجودي لا عدمي - الوجه الثاني - ذلك قبل خروجه من الدنيا ، فما قبض أحد من مؤمن ولا مشرك إلا على كشف حين يقبض ، فيميل إلى الحق عند ذلك ، والحق التوحيد والإيمان ، فمن حصل له هذا اليقين قبل الاحتضار فمقطوع بسعادته واتصالها ، ولا يكون الاحتضار إلا بعد أن يشهد الأمر الذي ينتقل إليه الخلق ، وما لم يشاهد ذلك فما حضره الموت ولا يكون ذلك احتضارا ، فمن آمن قبل ذلك الاحتضار بنفس واحد أو تاب نفعه ذلك الإيمان والمتاب عند الله في الدار الآخرة ، وحاله عند قبض روحه حال من لا ذنب له ، وسواء رده لذلك شدة ألم ومرض أوجب له قطع ما يرجوه من الحياة الدنيا أو غيره ، فهو مؤمن تائب ينفعه ذلك ، فإنه غير محتضر ، فما آمن ولا تاب إلا لخميرة كانت في باطنه وقلبه لا يشعر بها ، فما مال إلى ما مال إليه إلا عن أمر كان عليه في نفسه ، لم يظهر له حكم على ظاهره ، ولا له في نفسه إلا في ذلك الزمن الفرد الذي جاء في الزمان الذي يليه الاحتضار ، ومن حصل له هذا اليقين والإيمان عند الاحتضار فهو في المشيئة ، وإن كان المآل إلى السعادة ، ولكن بعد ارتكاب شدائد في حق من أخذ لذنوبه

- **الوجه الثالث -** يعني عند الموت ، أي يعاين ما هو أمره عليه ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [يموت المرء على ما عاش عليه ، ويحشر على ما عليه مات]وما يعاينه إنما يعاينه شهودا بالبصر ، لما تجسدت المعاني وظهرت بالأشكال والمقادير ، فيعاين المحتضر ما لا يعاينه الحاضر ، ويرى ما لا يرى من عنده ، من أهله الذين حجبهم الله تعالى عن رؤية ذلك إلى أن يأتيهم أجلهم ، فالمحتضر يرى ما لا يراه جلساؤه ، ويخبر جلساءه بما يراه ويدركه ، ويخبر عن صدق ، والحاضرون لا يرون شيئا ، كما لا يرون الملائكة ولا الروحانيين الذين هم معه في مجلس واحد ، ولذلك شرع تلقين المحتضر ، فإن الهول شديد والمقام عظيم ، وهو وقت الفتنة التي هي فتنة المحيا التي استعاذ منها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأمر بالاستعاذة منها ، فإنه يتمثل للمحتضر من سلف من معارفه على الصور التي يعرفهم فيها ، وهم الشياطين ، تتمثل إليه على صورهم بأحسن زي وأحسن صورة ، ويعرفونه أنهم ما وصلوا إلى ما هم فيه من الحسن إلا بكونهم ماتوا مشركين بالله ، فينبغي للحاضرين عنده في ذلك الوقت من المؤمنين أن يلقنوه شهادة التوحيد ، ويعرفوه بصورة هذه الفتنة ليتنبه بذلك ، فيموت مسلما موحدا مؤمنا ، فإنه عندما يتلفظ بشهادة التوحيد ويتحرك بها

ص 175

لسانه ، أو يظهر نورها في قلبه بتذكره إياها ، فإن ملائكة الرحمة تتولاه وتطرد عنه تلك الصور الشيطانية التي تحضره ، جعلنا الله عزّ وجل في ذلك المقام ممن يشهد ما يسره لا ما يسوءه آمين بعزته

[تحقيق : إذا انكشف الغطاء علمت أنه ما أعطاك إلا ما كان بيدك]

-**تحقيق -** إذا انكشف الغطاء وكان البصر حديدا علمت أنه ما أعطاك إلا ما كان بيدك ، فما زادك من عنده ، ولا أفادك مما لديه إلا تغيير الصور ، ولا يموت أحد من أهل التكليف إلا مؤمنا ، عن علم وعيان محقق لا مرية فيه ولا شك ، من العلم بالله والإيمان به خاصة ، هذا هو الذي يعم ، وما بقي إلا هل ينفعه ذلك الإيمان أم لا ؟ أما في رفع العقوبة فلا ، إلا من اختصه الله مثل قوم يونس ، وأما نفع ذلك الإيمان في المآل فإن ربك فعال لما يريد ، فإذا احتد البصر وانكشف الغطاء وجاء العطاء ، استدعى هناك صاحب الهوى عقله وترك نقله ، فوعزة العزيز ما نفعه ، وتركه لمن صرعه ، حاصدا ما زرعه ، واعلم أن الله متجل على الدوام ، لا تقيد تجليه الأوقات ، والحجب إنما ترتفع عن أبصارنا ، لذلك قال تعالى :« فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ »فتجليه دائم وتدليه لازم ، والذي بين ذا وذا أنك اليوم نائم ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [الناس نيام فإذا ماتوا انتهبوا] لما في الموت من لقاء الله ، ألا ترى إلى قوله في المحتضر« فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ »ولم يقل عقلك ، فكل ما أنت فيه من الدنيا إنما هو رؤيا .

[سورة ق (50) : آية 23]

وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (23)

اعلم أن الإنسان إذا خلقه الله في أمة لم يبعث فيها رسول لم يقترن به ملك ولا شيطان ، ويبقى يتصرف بحكم طبعه ، ناصيته بيد ربه خاصة ، فإذا بعث فيهم رسول أو خلق في أمة فيهم رسول لزمه من حين ولادته قرينان ملك وشيطان ، من حين يولد ، لأجل وجود الشرع ، وأعطي لكل واحد من القرينين لمة يهمزه ويقبضه بها ، ولا تقل إن المولود غير مكلف فلما ذا يقرن به هذان القرينان ؟ فاعلم أن الله ما جعل له هذين القرينين في حق المولود ، وإنما ذلك من أجل مرتبة والديه أو من كان ، فيهمزه القرين الشيطان فيبكي ، أو يلعب بيده فيفسد شيئا مما يكره فساده أبوه أو غيره ، فتكون تلك الحركة من المولود الغير مكلف سببا مثيرا في الغير ضجرا أو تسخطا كراهة لفعل الله ، فيتعلق به الإثم ، فلهذا يقرن به الشيطان لا لنفسه ، وكذلك الملك ، وهو كل حركة تطرأ من المولود مما تثير في نفس

ص 176

الغير أمرا موجبا للشر أو الخير ، فإن كان شرا فمن الشيطان ، وإن كان خيرا فمن الملك .

[سورة ق (50) : الآيات 24 إلى 29]
أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (26) قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (27) قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28)
ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29)
[« ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ . . . » الآية :]
-الوجه الأول - « ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ »فما يكون منه إلا ما سبق به العلم ، وهذا إخبار من الله تعالى ، أزال الاختيار بإزالة الإمكان من العالم ، وانتفى الإمكان بالنسبة إلى الله ، فما ثمّ إلا أن يكون أو لا يكون ، فليس في الكون واقع إلا أمر واحد ، علمه من علمه وجهله من جهله ، وليس في الأصل إلا أمر واحد عند الله ، وهكذا يكون الله علمه في الأشياء سابق لا يحدث له علم« وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ »لتصرفي في ملكي ، فلم يتصرف في ملك غيره فينسب إلى الجور والحيف
- الوجه الثاني - « ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ »لأنه خلاف المعلوم فوقوعه محال ، فما حكم به العلم سبق به الكتاب ، وذلك لحكم الكتاب على الجميع ،
وفي ذلك قال صلّى الله عليه وسلّم : [إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، حتى ما يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار] وكذلك قال في أهل الجنة ،
ثم قال : [وإنما الأعمال بالخواتيم] وهي على حكم السوابق ، فلا يقضي الله قضاء إلا بما سبق الكتاب به أن يقضي ، فعلمه تعالى في الأشياء عين قوله في تكوينه ، فما يبدل القول لديه ، فما حكم وسبق به العلم لا يتبدل عقلا ولا شرعا ،
لذلك قال تعالى »: ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ »ولرائحة الجبر في ذلك أعقبه تعالى بقوله :" وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ " لئلا يتوهم متوهم ذلك ، إذ كان الحكم للعلم فيه ، فما نجري عليهم إلا ما سبق به العلم ، ولا أحكم فيهم إلا بما سبق به ؛ وما كتب تعالى إلا ما علم ،
ولا علم إلا ما شهد من صور المعلومات على ما هي عليه في أنفسها ، ما يتغير منها وما لا يتغير ، فيشهدها كلها في حال عدمها على تنوعات تغييراتها إلى ما لا يتناهى ، فلا يوجدها إلا كما

ص 177

هي عليه في أنفسها ، فإنه ما علم تعالى إلا ما أعطته المعلومات ، فالعلم يتبع المعلوم ، ولا يظهر في الوجود إلا ما هو المعلوم عليه ، فلله الحجة البالغة ، لذلك قال :« وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ »أي ما قدرت عليهم الكفر الذي يشقيهم ، ثم طلبتهم بما ليس في وسعهم أن يأتوا به ، بل ما عاملناهم إلا بحسب ما علمناهم ، وما علمناهم إلا بما أعطونا من نفوسهم مما هم عليه ، فإن كان ظلم فهم الظالمون ، ومن لم يعرف الأمر هكذا فما عنده خبر بما هو الأمر عليه ، فالإنسان جاهل بما يكون منه قبل كونه ، فإذا وقع منه ما وقع فما وقع إلا بعلم الله فيه ، وما علم إلا ما كان المعلوم عليه ،

فصح قوله (وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ) والرضا إرادة فلا تناقض بين الأمر والإرادة ، وإنما النقض بين الأمر وما أعطاه العلم التابع للمعلوم ، فهو فعال لما يريد ، وما يريد إلا ما هو عليه العلم ، وهذا هو عين سر القدر لمن فهمه ، وكم منع الناس من كشفه لما يطرأ على النفوس الضعيفة الإيمان من ذلك ، فليس سر القدر الذي يخفى عن العالم عينه إلا اتباع العلم المعلوم ، فلا شيء أبين منه ولا أقرب مع هذا البعد ،

وسبق الكتاب هو إضافة الكتاب إلى ما يظهر به ذلك الشيء في الوجود ، على ما شهده الحق في حال عدمه ، فالكتاب سبق وجود ذلك الشيء ، والحكم للقول ،

وذلك ليس إلا لله ، ومن هنا تعلم ما هو النسخ ، فإن مفهوم النسخ في القائلين به رفع الحكم بحكم آخر كان ما كان من أحكام الشرع ، فإن السكوت من الشارع في أمر ما حكم على ذلك المسكوت عنه ، فما ثمّ إلا حكم فهو تبديل ،

وقد قال تعالى :« ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ »فما ثمّ نسخ على هذا القول ، ولو كان ثمّ نسخ لكان من الحكمة وصورته أن الزمان إذا اختلف اختلف الحكم بلا شك ، فالنسخ ثابت أبدا لأن الاختلاف واقع أبدا ، فالحكمة تثبت النسخ والحكمة ترفع النسخ ،

والفرق بين الحكمة والعلم أن الحكمة لها الجعل ، والعلم ليس كذلك ، لأن العلم يتبع المعلوم ، والحكمة تحكم في الأمر أن يكون هكذا ، فيثبت الترتيب في أعيان الممكنات في حال ثبوتها بحكمة الحكيم ،

لأنه ما من ممكن إلا ويمكن إضافته إلى ممكن آخر لنفسه ، لكن الحكمة اقتضت بحكمها أن ترتبه كما هو ، بزمانه وحاله في حال ثبوته ،

وهذا هو العلم الذي انفرد به الحق تعالى وجهل منه ، وظهر به الحكم في ترتيب أعيان الممكنات في حال ثبوتها قبل وجودها ، فتعلق بها العلم الإلهي بحسب ما رتبها الحكيم عليه ، فالحكمة أفادت الممكن ما هو عليه من الترتيب الذي يجوز خلافه ، والترتيب أعطى

ص 178

العالم العلم بأن الأمر كذا هو ، فلا يوجد إلا بحسب ما هو عليه في الثبوت الذي هو ترتيب الحكيم عن حكم الحكمة ، فما يبدل القول لديه ، فإنه ما يقول إلا ما رتبته الحكمة ، كما أنه ما علم إلا ما رتبته الحكمة

- **الوجه الثالث** - القول الإلهي منه ما يقبل التبديل ومنه ما لا يقبل التبديل ، وهو إذا حق القول منه ، فالقول الواجب لا يبدل ، والقول المعروض يقبل التبديل ، فقد تقدم القول من الحق لمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم بالتكثير في الصلاة وبدله بالتخفيف والتقليل ، وقال له في آخر رجعة« ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ "

-**الوجه الرابع** - « ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ »وهو الأمر الذي لا يعصيه مخلوق ، وهو قوله (إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ) هذا الأمر الذي لا يمكن للممكن المأمور به مخالفته.

[سورة ق (50) : آية 30]

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30)

يقول اللّه تعالى لجهنم« هَلِ امْتَلَأْتِ »فتقول :« هَلْ مِنْ مَزِيدٍ« ، فإذا وضع الجبار فيها قدمه قالت : قطني قطني ، وفي رواية قط قط ، أي قد امتلأت ، فقد ملأها بقدمه على ما شاء سبحانه من علم ذلك ، فيخلق اللّه فيها خلقا يعمرونها ، ورد في الخبر الصحيح :
[إن اللّه لما خلق الجنة والنار قال لكل واحدة منها : لها علي ملؤها] أي أملؤها سكانا ، إذ كان عمارة الدار بساكنها ، والنار موجودة من العظمة ، والجنة موجودة من الكرم ، فلهذا اختص اسم الجبار بالقدم للنار وأضافه إليه ، لأن هذا الاسم للعظمة ، وقدم الجبار ليست إلا غضب اللّه ، فإذا وضعه فيها امتلأت ، فإن المخلوق الذي من حقيقته أن يفني لا يملؤه مخلوق ، فإنه كل ما حصل منه فيه أفناه ، فلا يملأ مخلوقا إلا الحق ، وغضب اللّه حق ، فأنعم به على جهنم فوضعه فيها فامتلأت بحق .

[سورة ق (50) : الآيات 31 إلى 35]

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ(35)

ص 179

الوفاء من الحق وفاء وجوب واستحقاق ، وزيادة لزيادة ، وزيادة لا لزيادة ، وهي الزيادة المذكورة في القرآن .

[سورة ق (50) : الآيات 36 إلى 37]

وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36) إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37)

" إِنَّ فِي ذلِكَ »
[« إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ . . . » الآية [:
يشير إلى العلم بالله من حيث المشاهدة« لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ «يتقلب فيفهم قول الله ، ويعقل به عن الله ، ولم يقل تعالى غير ذلك ، فإن القلب معلوم بالتقليب في الأحوال دائما ، فهو لا يبقى على حالة واحدة ، وكذلك التجليات الإلهية ، فمن لم يشهد التجليات بقلبه ينكرها ، فإن العقل يقيده ، وغيره من القوى ، إلا القلب فإنه لا يتقيد ، وهو سريع التقلب في كل حال ، ولذا قال الشارع : [إن القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء]
فهو يتقلب بتقلب التجليات ، والعقل ليس كذلك ، فإن العقل تقييد من العقال ، فالقلب هو القوة التي وراء طور العقل ، فلو أراد الحق في هذه الآية بالقلب أنه العقل ما قال لمن كان له قلب ، فإن كل إنسان له عقل ،
وما كل إنسان يعطى هذه القوة التي وراء طور العقل ، المسماة قلبا في هذه الآية ، فلا معنى للحس هاهنا ، فإن استفاضة النور من عين البصيرة على ساحة القلب كانعكاس الشعاع من العين على المبصرات ،
فينظر إلى عجائب الملكوت ، وتتصل الأنوار وتنفتح عند ذلك العين الثانية في القلب ، وهو عين اليقين ، فإن لله في القلب عينين ، عين بصيرة وهو علم اليقين ، والعين الأخرى عين اليقين ، فعين البصيرة تنظر بالنور الذي يهدي به ،
وعين اليقين تنظر بالنور الذي يهدي إليه ، قال تعالى :(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ)
وهو نور اليقين ، وقال في النور الآخر :(وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)
فإذا اتصل النور الذي يهدي به بالنور الذي يهدي إليه عاين الإنسان ملكوت السماوات والأرض ، فلا تكون معرفة الحق من الحق إلا بالقلب لا بالعقل ، ثم يقبلها العقل من القلب ، فإن القلب له التقليب من حال إلى حال ، وبه سمي قلبا ، فمن فسر القلب بالعقل فلا معرفة له بالحقائق ، فالحق تعالى هو المقيد بما قيد به نفسه من صفات الجلال ، وهو المطلق بما سمى به نفسه من أسماء الكمال ، وهو الواحد الحق ،

ص 180

الجلي الخفي ، لا إله إلا هو العلي العظيم« أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ »
- **الوجه الأول -** لخطاب الله الحق فألقى السمع لما قيل له وعرّف به
- **الوجه الثاني –** " أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ »هم أهل الإيمان المقلدة ، الذين قلدوا الأنبياء والرسل فيما أخبروا به عن الحق لا من قلد أصحاب الأفكار والمتأولين الأخبار الواردة بحملها على أدلتهم العقلية ، فهؤلاء الذين قلدوا الرسل صلوات الله وسلامه عليهم هم المرادون بقوله :« أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ »فالذي ينبغي للعبد أن يصغي إلى الحق ويخلي سمعه لكلامه ، حتى يكون الحق هو الذي يتلوه بلسانه ويسمعه ، ويتولى شرح كلامه ويترجم للعبد عن معناه ، فيأخذ العلم منه لا من فكره واعتباره ، وإنما ألقى السمع لما يقوله الحق له ،
فيقول له : يا عبدي أردت بهذه الآية كذا وكذا ، وبهذه الآية الأخرى كذا وكذا .
- **الوجه الثالث -** « أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ »فسمع بالله« وَهُوَ شَهِيدٌ »
- **الوجه الأول -** « وَهُوَ شَهِيدٌ » فأبصر بالله .
- **الوجه الثاني –** " وَهُوَ شَهِيدٌ »أي حاضر معه فيما يلقى إليه المخبر ، فيمثله نصب عينيه ، فكأنه يشاهده ، فإنه خبر صدق جاء به صادق أمين فهو تنبيه على حضرة الخيال واستعمالها ، وهو قوله عليه السلام في الإحسان [أن تعبد الله كأنك تراه] و [الله في قبلة المصلي] فلذلك هو شهيد .
- **الوجه الثالث -** « وَهُوَ شَهِيدٌ »لمواقع الخطاب الإلهي على الشهود والكشف .
- **الوجه الرابع –** " وَهُوَ شَهِيدٌ »لتقلبه في نفسه ، فيعلم أن الأمر كذلك - الوجه الخامس »- وَهُوَ شَهِيدٌ »لما يحدث الله في كونه من الشأن ،
فإنه قال :« إِنَّ فِي ذلِكَ »إشارة إلى قوله تعالى :(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)مع غير ذلك »لَذِكْرى »لعبرة« لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ »أي لمن له فطنة بالتقلب في الأحوال ، أو تقلب الأحوال عليه ، فيعلم من ذلك شؤون الحق وحقائق الأيام التي الحق فيها في شأن ، فالشأن واحد العين والقوابل مختلفة كثيرة ، يتنوع فيها هذا الشأن بتنوعها واختلافها ، فهو من الله واحدة ، وفي صور العالم كثيرة ،« أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ »
لما يتلى عليه من قوله :(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)وأمثاله« وَهُوَ شَهِيدٌ » من نفسه تقلب أحواله ، فيكون على بصيرة في ذلك من الله ، فحصرت الآيات في السمع والبصر ، فإما شهود وإما خبر ، فإن المراد من جميع التكليف سلامة القلب ، ومن لم يكن له قلب سليم فلا أقل من الحضور لفهم المسموع أو التفهيم ، فإن من السمع الفهم عن الله سبحانه ،
قال تعالى :(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)فمن ألقى السمع وهو شهيد فهو عارف ، وحظه السماع من التنزيل

ص 181

العزيز والبكاء ، وإياه أراد بقوله :(وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ)الآية ، فمن كان سمعه كذلك فعليه التخلق بما يسمع ، والمبادرة إلى الانقياد للتكليفات في جميع الأعضاء والقوابل في ظاهره وباطنه ، وفعل ما قدر عليه من المندوبات ، واجتناب ما سمع النهي عنه من المحرمات ، والتعفف عن المكروهات ، وترك فضلات المباحات بجميعه ، فقد خوطب بذلك على التفصيل ، فأما من له قلب فإنه بجميعه سمع ،

كما أنه بجميعه يد ، كما أنه بجميعه رجل ، كما أنه بجميعه فرج ، كما أنه بجميعه قلب ، ولا يكون شهيدا ، إلا أن يقطع بأن ما سمعه حق ، لا من جوّز سواه ، ومن جوّز ذلك فعليه تعلم الإيمان بالمبادرة إلى امتثال ما سمع ، فإن من عمل على الشك صادقا في طلبه أورثه اليقين ، والله يقول :(إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ (فلو سمعوا لاستجابوا ، فبادر أيها السالك إلى مفهومك ، مما سمعت ، ولا تقف على البواطن ، فالذي يلزمك مفهومك ، ومن عمل بما علم ورثه الله علم ما لا يعلم (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً) فإن أدركت زائدا على الظاهر موافقا مراد الآمر فبفضل الله على عقلك ، وإلا فلا حكم لعقلك على سمعك ، سيما بعد الشهادة ، فاتهم عقلك مبادرا إلى ما فهمت من ظاهره ، ومن لم يكن له قلب ولا ألقى السمع وهو شهيد فليس من أهل الذكرى .

[سورة ق (50) : آية 38]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ (38)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » فأضاف الحق العمل إليه ، وذكر في الخلق أنه بيديه وبأيد وبيده وبقوله ،

قال تعالى: " فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ " مع قدرته على خلقه إياها دفعة واحدة من غير تدريج ، لكن القدرة لا تؤثر في القدر ، وإنما أثرها في المقدور بشاهد القدر ، فإن شهد بها القدر بالتأثير أثرت ، وإلا أمسكت عن إذن القدر لا عن نفسها ، فمن حكم القدر كونها في ستة أيام ، فلا سبيل إلى عدول القدرة عما حكم به القدر ، »ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ »ثم أعلمنا أنه وإن اتصف بالعمل أنه لم يؤثر فيه تعب فقال :« وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ »فيما خلقه ، وهو قوله): وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ)فإن اللغوب هو الإعياء ، ورد أنه سبحانه نظر إلى ما خلق في يوم السبت ، فاستلقى ووضع إحدى رجليه على الأخرى وقال : أنا الملك لظهور الملك ، ولهذا سمي يوم السبت ، والسبت الراحة ، ولهذا أخبر تعالى أنه ما مسه من لغوب فيما خلقه ، فهي راحة لا عن إعياء كما هي في حقنا .

ص 182

[سورة ق (50) : الآيات 39 إلى 41]
فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ (40) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (41)
من المعلوم أن بعثة الخلائق وحشرهم يكون من الأرض المقدسة ،
وقد فسر قوله تعالى :« وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ »أي من صخرة بيت المقدس.

[سورة ق (50) : الآيات 42 إلى 45]
يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ (44) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ (45)
« نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ »أي ما أرسلناك لتجبرهم على الإيمان ، وإنما وظيفتك أن تبلغ عنا ما نزل إليهم ، وأمرهم إلينا »فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ ».

(51) سورة الذاريات مكيّة
بسم الله الرّحمن الرّحيم أقسم تعالى بأنواع أخرى من الملائكة المسخرات ، والوكلاء على ما يخلقه من التكوينات فقال :

[سورة الذاريات (51) : آية 1]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَالذَّارِياتِ ذَرْواً (1)
« وَالذَّارِياتِ »نوع من الملائكة المسخرة في الهواء ، العاصفات السائقات ، وقيل هم الملائكة عمار كرة الماء.

ص 183

[سورة الذاريات (51) : آية 2]
فَالْحامِلاتِ وِقْراً (2)
« فَالْحامِلاتِ »المعصرات« وِقْراً »ثقلا ، ومن جملة الحاملات الحوامل من العالم ، كالأرض والسحاب والنساء وجميع الأناثي ، وما تحمله الكتب في حروفها من المعاني .

[سورة الذاريات (51 : (الآيات 3 إلى 4]
فَالْجارِياتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (4)
بالتفصيل والتصوير والترتيب ، وهم من ملائكة الكرسي ، حيث انقسمت الكلمة الواحدة التي هي في العرش واحدة ، فهي رحمة واحدة إليها مآل كل شيء ، انقسمت في الكرسي موضع القدمين إلى رحمة وغضب مشوب برحمة ، فهذا الصنف من الملائكة المقسمات أمرا لا يعرفون أحدية وإن كانت فيهم ، فإن الله وكلهم بالتقسيم مع الأنفاس ، فحيل بينهم وبين مشاهدة الوحدات ، فأية وحدة تجلت لهم قسموها بالحكم ، فلا يشهدون إلا القسمة في كل شيء ، ولا غفلة عندهم ولا نسيان لما علموه ، وقيل هم عمار السماء ذات البروج ، وهو الأطلس .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 5 إلى 7]
إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ (6) وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ (7)
إن الله لما جعل السباحة للنجوم في السماوات حدثت لسيرها طرق ، لكل كوكب طريق ، وهو قوله تعالى :« وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ »فسميت تلك الطرق أفلاكا ، فالأفلاك تحدث بحدوث سير الكواكب ، وهي سريعة السير في جرم السماء الذي هو مساحتها .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 8 إلى 10]
إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10)
[« قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ » الآية - العلم بالله من جهة الشرع] :
اعلم أن العلم بالله من جهة الشرع هو تعريف الحق عباده بما هو عليه ، فإنه أعلم بنفسه من عباده وبه ، فإن العلم به منه أن يعلم أنه جامع بين التنزيه والتشبيه ، وهذا في الأدلة النظرية غير سائغ ، أعني الجمع بين الضدين في المحكوم عليه ، ليس ذلك إلا هنا خاصة ، فلا يحكم عليه خلقه ، والعقل ونظره ، وفكره من خلقه ، فكلامه في موجده بأنه ليس كذا

ص 184

وهو كذا خرص بلا شك ، والخارص قد يصيب وقد يخطئ ، والعلم بالله من حيث القطع أولى به من حيث الخرص ، فهو يدخل تحت الخرص المذموم .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 11 إلى 19]

الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ (11) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19)

راجع سورة المعارج آية 24 –

واعلم أن الزكاة واجبة ، وحق في المال لا على المكلف ، والعارف يعلم أنه مستخلف فيما بيده من المال ، فيخرج الزكاة إخراج الوصي على مال المحجور عليه للزكاة ، والعامي لا يعلم ذلك ، فأضيف المال إليه ، فقيل له أموالكم ، فيخرجها بحكم الملك .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 20 إلى 21]

وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (21)

[« وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ » الآية :]

وقد قال صلّى الله عليه وسلّم : [من عرف نفسه عرف ربه] فينبغي للإنسان أن ينظر في روحه كيف توجه إلى مدينة جسمه المزخرف ودخله ، ليعاين ما أودع الحق فيه من الحكم والترتيب الأحسن ، لأنه في أحسن تقويم ، فإذا شرعت في هذا النظر فأمعن فيه ، ولا تترك زاوية من الإنسان حتى تدخلها وتعرف ما خزنت ، فإنها خزائن الحق ، فإنك تقف على علم عظيم ، قال تعالى :(سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)وقال صلّى الله عليه وسلّم : [أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه]

فإن الإنسان من حيث تفصيله مفطور على العلم بالله ، كسائر ما سوى الجن والإنس من المخلوقات ، فما من شيء في الإنسان ، من شعر وجلد ولحم وعصب ودم وروح ونفس وظفر وناب إلا وهو عالم بالله تعالى بالفطرة ،

ص 185

بالوحي الذي تجلى له فيه ، والإنسان من حيث مجموعيته وما لجمعيته من الحكم جاهل باللّه ، حتى ينظر ويفكر ويرجع إلى نفسه ، فيعلم أن له صانعا صنعه وخالقا خلقه ، فالإنسان من حيث تفصيله عالم باللّه ، ومن حيث جملته جاهل باللّه ، حتى يتعلم ،
أي يعلم بما في تفصيله ، وكل علم لا يكون حصوله عن كشف بعد فتح الباب يعطيه الجود الإلهي ويبديه ويوضحه فهو شعور لا علم ، لأنه حصل من خلف الباب والباب مغلق ، وليس الباب سواك ،
فأنت بحكم معناك ومغناك ، وذلك هو غلق الباب ، فإنك تشعر أن خلف هذا الجسم والصورة الظاهرة معنى آخر لا تعلمه ، وإن شعرت به ، فالصورة الظاهرة المصراع الواحد ، والنفس المصراع الآخر ، فإذا فتحت الباب تميز المصراع من المصراع ،
وبدا لك ما وراء الباب ، فذلك هو العلم ، فما رأيته إلا بالتفصيل ، لأنك فصلت ما بين المصراعين حتى تميز هذا فيك ، فإن كان الباب عبارة عن حق وخلق ، وهو أنت وربك ، فالتبس عليك الأمر ، فلم يتميز عينك من ربك ،
وهو قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : [من عرف نفسه عرف ربه] فالشعور مع غلق الباب ، والعلم مع فتح الباب ، فإذا رأيت العالم متهما لما يزعم أنه به عالم فليس بعالم ، وذلك هو الشعور ، وإن ارتفعت التهمة فيما علم فذلك هو العلم ، ويعلم أنه قد فتح الباب له ، وأن الجود قد أبرز له ما وراء الباب ، وكثير من الناس يتخيل أن الشعور علم ، وليس كذلك ، وإنما حظ الشعور من العلم أن تعلم أن خلف الباب أمرا ما على الجملة لا يعلم ما هو .

[سورة الذاريات (51) : آية 22]
وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ (22)
[قسم اللّه جل ثناؤه بالربوبية على ضمان الرزق :]
الرزق معنوي وحسي ، فالرزق الذي في الأرض ما تقوم به الأجسام ، والذي في السماء ما تقوم به الأرواح ، وكل ذلك رزق ، ليصح الافتقار من كل مخلوق ، وينفرد الحق بالغنى .

[سورة الذاريات (51) : آية 23]
فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)
أقسم اللّه جل ثناؤه بالربوبية على ضمان الرزق ، والضمير يعود على المذكور ، فأقسم سبحانه بنفسه من اسم الرب المضاف إلى السماء والأرض على نفسه ، أن الرزق قضاء وعد به أولياءه في السماء ، ومثّله بالنطق منا الذي لا يرتاب فيه ، ليتميز المؤمن الكامل من غيره ،

ص 186

فقال تعالى :(وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ) « فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ " ولما كان الرب هو السيد والمالك والمربي والمصلح والثابت ، أثبت الحق افتقار العالم إليه في هذا القسم بهذا الاسم ،

فالكل صنعه وخلقه وفعله ، فالسّماوات والأرض إشارة إلى العالم العلوي والسفلي ، ولما أقسم الله بهذا القسم ضجّت الملائكة في السماء ، حيث أقسم لهم الله بنفسه لكونهم لم يثقوا بالضمان دون اليمين ،

ولكن لما كان الله عليما بنا ، لهذا أقسم لنا ، فإن نشأتنا تعطي ذلك ، فلا بد من إيقاع هذا القسم لنا ، لما تقتضيه مرتبتنا من التهمة وعدم الثقة التي هي أوصاف أسافل نشئنا ، وبضدها أوصاف علية ، فمن يعرفنا يعرف لمن أقسم منا ،

فيستريح ولا ينكر ، فإنه ما خرج عن حقيقته ، فأقسم الله لمن غلب حال ظلمته وأسفله ، والدليل على ما قلناه أنه مع هذا القسم لم تصح الطمأنينة ، بل بقي من أجل هذا القسم صاحب عقد على ذلك ، لا صاحب حال ،

فإن حاله يشهد عليه بذلك ، ولهذا نضطرب عند فقد الأسباب ، فصرف حقيقته بهذا الحال ، ولم يؤثر القسم في حاله ، واضطرابه في الرزق يشهد عليه بالتهمة مطلقا ، ولهذا وقع القسم ، ووقع بالسماء والأرض الذي هو وجود العالم بأسره ، من طريق ذاته لا من طريق حاله ووصفه ،

وسيأتي قسمه بحاله ووصفه في قوله تعالى :(فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ)حتى يكمل شرف العالم كله من كونه مضافا إليه عموما ، وشرف محمد صلّى الله عليه وسلّم خصوصا في قوله تعالى :(فَلا وَرَبِّكَ) فقد جمع له بين الخصوص والعموم بخلاف غيره من جنسه ، وبهذا القسم نفّس الله عن المؤمنين غير الموقنين ،

بقسمه على الرزق وما وعد به من الخير المطلق والمقيد بالشروط لمن وقعت منه ووجدت فيه« إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ »فنفّس الله عنهم بذلك وحصل لهم اليقين ،

وما بقي لهم بعد إلا الاضطراب الطبيعي ، فإن الآلام الطبيعية المحسوسة ما في وسع الإنسان رفعها إذا حصلت ، بخلاف الآلام النفسية فإنه في وسعه رفعها ،

فوقع التنفيس بالقسم أن الرزق من الله لا بد منه ، وبقي في قلب بعض الموقنين بذلك من الحرج تعيين وقت حصوله ، ما وقع به التعريف ، ولو وقع لم يرفع الاضطراب الطبيعي ، فلما علم الحق أنه لا ينفس في تعيين الأوقات ، لذلك لم يوقع بها التعريف ، وقال بعضهم موبخا لمن اضطرب إيمانه بالرزق مع صدق وعده تبارك وتعالى وقسمه : -

وترضى بصراف وإن كان مشركا *** ضمينا ولا ترضى بربك ضامنا

ص 187

وكأنه تعالى يقول لنا : إنكم لن تنالوا من الرزق مع جمعكم إياه وانكبابكم عليه إلا ما قدرته لكم ، وسواء عليكم تعرضتم لتحصيل ما ضمنته لكم أو أعرضتم عنه ، لا بد لي أن أوصله إليكم ، فإني أطلبكم به كما أطلبكم بآجالكم ، وما ذلك من كرامتكم علي ،
ولا من إهانتكم ، فإني أرزق البر والفاجر ، والمكلف وغير المكلف ، وأميت البر والفاجر والمكلف وغير المكلف ، فإنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ،
كما أنه لن تموت نفس حتى يأتيها أجلها المسمى ، وسواء كان الرزق قليلا أو كثيرا ، وليس رزقك إلا ما تقوم به نشأتك ،
وتدوم به قوتك وحياتك ، وليس رزقك ما جمعت وادخرت ، فقد يكون ذلك لك ولغيرك ، لكن حسابه عليك إذا كنت جامعه وكاسبه ، فلا تكسب إلا ما يقوتك ويقوت من كلفك الله السعي عليه لا غير .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 24 إلى 42]
هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (28)
فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (33)
مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (37) وَفِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38)
فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40) وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ(42)

ص 188

ما كل كلّ في كل موضع ترد فيه يعطي الحصر ، فإنه قد تأتي ويراد بها القصر ، مثل قوله في الريح العقيم :« ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ »وقد مرت على الأرض وما جعلتها كالرميم ، مع كونها أتت عليها ، وما جعل الحق الحكم في الأرض إليها ، وقد قال عن هذه الريح(تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ)

[إشارة : الريح العقيم هي التي تزيل عن القلب كل ما سوى الله تعالى]

-إشارة - الريح العقيم هي التي تهب لتزيل عن القلب كل ما سوى الله تعالى ، وتذهب بالأغيار ، غيرة أن يكون في محل قد اصطفاه الحق غيره ، لأنها ريح الغيرة ، فليس يبقى مع مالكها غيره .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 43 إلى 47]

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَما كانُوا مُنْتَصِرِينَ (45) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (46) وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47)

الأيد هي القوة ، قال تعالى : داود ذا الأيد ، أي صاحب القوة ، ما هو جمع يد .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 48 إلى 49]

وَالْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ (48) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(49)

فيكون لأحد الزوجين العلو وهو الذكر ، ولأحد الزوجين السفل وهو الأنثى ، ليظهر بينهما إذا اجتمعا بقاء أعيان ذلك النوع ، وجعل ذلك في كل نوع نوع ، ليعلمنا أن الأمر في وجودنا على هذا النحو ، فقال :« لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »، فما خلق الله من كل شيء إلا زوجا واحدا ذكرا وأنثى مثلا ، وسماه زوجين ، فإن بإضافة كل واحد منهما إلى الآخر يسمى زوجا ، لأن كل واحد بالنظر إلى نفسه دون أن ينضم إليه هذا الآخر لا يكون زوجا فإذا انضم إليه آخر ، انطلق على كل واحد منهما اسم الزوج ، فقيل فيهما زوجان ولما كانت

ص 189

الوترية في حق المخلوق محالا قال تعالى :« وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ »اثنين حتى لا تنبغي الأحدية إلا لله ، فينفرد الحق سبحانه بحقيقة الوترية التي لا تقبل الشفعية ، فإن الله تعالى لما جعل العرش محل أحدية الكلمة ، وهو الرحمن لا غيره ، وخلق الكرسي فانقسمت فيه الكلمة إلى أمرين ليخلق من كل شيء زوجين ، ليكون أحد الزوجين متصفا بالعلو والآخر بالسفل ، الواحد بالفعل والآخر بالانفعال ، فظهرت الشفعية من الكرسي بالفعل ، وكانت في الكلمة الواحدة ، ليعلم أن الموجود الأول أنه وإن كان واحد العين من حيث ذاته ، فإن له حكم نسبة إلى ما ظهر من العالم عنه ، فهو ذات وجودية ونسبة ، أي ذات وأسماء ، فهو أصل شفعية العالم .

[سورة الذاريات : (51) آية 50]
فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ »(50)
فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ »هو أمر بالسفر إلى الله ، وذم من يتربص عن هذا السفر بقوله :(قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ . . .)الآية ،
فجعل البركة في الحركة منه وإليه ، واعلم أن الموجب للفرار هو ما فر إليه لا ما فر منه ، إذ لو عرف أنه ما ثمّ ما يفر إليه لسكن الفار وما فر ،
[الفرار الموسوي والفرار المحمدي]
فإذا أردت أن تعرف الفرق بين الفرار الموسوي والفرار المحمدي فانظر في ابتداء الغاية ، وهو حرف من ، وفي انتهاء الغاية وهو حرف إلى فالنبي محمد صلّى الله عليه وسلّم يقول :« فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ »
وقال في تعوذه : [وأعوذ بك منك] فهذا أمره ودعاؤه ، وقال عن موسى عليه السلام معرفا إيانا :(فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ)
ويقال للمحمدي :(فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ) فالحكم على المحمدي لانتهاء الغاية ، وعند الموسوي لابتداء الغاية ، وانظر إلى ما أنتجه الفرار لموسى عليه السلام من فرعون ، فوهبه الله حكما ، وهي الرسالة ، فجعله من المرسلين إلى من خاف أن يسلط عليه ، وهو فرعون ، فإذا أنتج له هذا الفرار من المخلوق خوفا على نفسه ، فأين أنت من المحمدي الذي أمرك أن تفر إلى الله ؟
فقيدك بحرف الغاية في القصد الأول : والحكم يرجع إلى الله الذي تفر إليه بلا واسطة ، فالذي ينتج الفرار إليه لا يقدر قدره ، ويكون على بينة من ربه محفوظا في أحواله وأفعاله وأقواله ، فإذا فر الفار إلى الله وعيّن من فر إليه وأبهم ما فر منه ، فما ترون تكون جائزته ؟
فإن جائزة موسى منقطعة ، فإن الخلافة هنا تترك والرسالة كذلك ، ينقطع الأمران بالموت والانقلاب إلى الدار

ص 190

الآخرة ، فهذا أعطى حكم ما فر منه لما كان منقطعا ، فإنه انقطع بغرقه أو بموته لو مات ، فكانت النتيجة والهبة مناسبة بما أعطيه من انقطاعهما بالموت ، فإن الإمامة والرسالة تنقطعان بالموت ، والفرار إلى الله يعطي ما يبقى ببقاء الله ، ولا أعيّن ، فإن التعيين في ذلك إلى الله ، وإذا كانت هذه الأمة مع الأنبياء بهذا الحكم وهذه المنزلة ، فما ظنك بمنزلة أمم الأنبياء منا ؟

والله ما يعرفون على أي طريق سلكت هذه الأمة في فرارها ، فإن الله مجهول الأينية ، والفرار كان إليه ، فلا يدري أحد يفر إليه إذا تلقاه وأخذ بيده إلى أين يسير به ؟ فإن الله أسرع إلى من فر إليه في تلقيه من الفار إليه ، فإنه يقول وهو الصادق تعالى : [ومن أتاني يسعى أتيته هرولة] فوصف نفسه بالإقبال على عبده إذا أتاه بأضعاف ما يأتيه به من الحال ، وإتيان الفار إليه أشد من الهرولة ، فيكون إتيان الحق إليه أشد من ذلك ، وأعطى الله هذا لهذه الأمة بعناية محمد صلّى الله عليه وسلّم ، وقوله تعالى :« إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ »يعود على الاسم الله ، فإذا نظرت تعلم ما هو الاسم الذي من أجله كان الإنذار المبين ، من المنذر لك ، وأن الاسم الله - وهو الاسم الجامع - هو الذي وجهه إليك ليأمرك بالفرار إليه ، ولما كان في عرف الطبع الاستناد إلى الكثرة ، فإذا حققت معرفة الأسماء الإلهية وجدت أسماء الأخذ قليلة وأسماء الرحمة كثيرة في الاسم الله ، فلذلك أمرك بالفرار إلى الله ، ليحصل للنفس الأمان باستنادها إلى الكثرة ، ثم قال تعالى بعد الأمر بالفرار إلى الله :

[سورة الذاريات (51) : آية 51]
وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51)

« وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ » تفتقرون إليه ، بل فروا إلى الله في طلب حوائجكم منه التي فطرتم عليها - تحقيق - من عرف هذا التتميم عرف قوله :(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)أنه الفرار من الجهل إلى العلم ، وأن الأمر واحد أحدي ، وأن الذي كان يتوهمه أمرا وجوديا من نسبة الألوهية لهذا الذي اتخذه إلها محال عدمي ، لا ممكن ولا واجب ، فهذا معنى الفرار المأمور به ، فإليه - من حيث نسبة الألوهية إليه - يكون الفرار ، فالذي فطر عليه الإنسان والعالم من العلم العلم بوجود الله ، والعلم بفقر المحدث إليه ، فإذا كان هذا ، فلا بد لكل من هذه صفته أن يفر إلى الله لمشاهدة فقره ، وما يعطيه حكم الفقر من الألم للنفس ، ليغنيه من انقطع إليه ، فربما يزيل عنه ألم الفقر ، بما يعطيه من لذة مزيلة لألم فقر معين ، لا يزيل عنه ألم

ص 191

الفقر الكلي الذي لا يمكن زواله عن الممكن - لأن الفقر له وصف ذاتي - لا في حال عدم ولا في حال وجود ، فلا بد لمن هذه حاله من تخل وفرار عن الأمور الشاغلة له .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 52 إلى 55]

كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَ تَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (53) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ (54) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)

[« وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » الآية]

وذكر من نسي إقراره بربوبيته عند أخذ ميثاقه ، قال بعض السامعين :(سَواءٌ عَلَيْنا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ) فقال تعالى آمرا :" وَذَكِّرْ "

يعني بالعلم من غفل عنه ونسيه« فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ »وهم الذين علموا ما ثمّ بنور الإيمان ، ثم إنهم غفلوا فحيل بينهم وبين ما علموه من ذلك ، فإذا ذكروا تذكروا ، وقام لهم شهود ما قد كانوا علموه ، فنفعتهم الذكرى ، فعملوا بما علموا ، والتفت الحق هنا إلى القابل وما التفت إلى المعرض ، فلم يرتبط الوجود إلا بالمؤمن ، فوعظنا بالحوادث الواقعة على خلاف الأغراض ، مما تنفر عنه طباعنا ، وذكرنا بأنا معرّضون لحلولها بنا إلا أن يعصم الله في بعضها لا في كلها ، فإن منتهى الدوائر وأعظمها الموت ، ولا بد منه بأي وجه كان ، ولا أعني بالموت إلا الانتقال عن هذه الدار ، وذكرنا تعالى بموعظته ذكرى حال ، إذ أصاب من قبلنا بوقوع تلك الدوائر عليهم ، وذكرنا بأمور أخر خبّر عنها في المستقبل عند الانتقال إلى الدار الآخرة ، تقع بالعباد ، مما يسر وقوعها ومما لا يسر ، ومما يوافق الغرض ويلائم الطبع ، ومما لا يلائم الطبع ولا يوافق الغرض ، ومما يدل على الكمال والنقص ، فذكر بالرغبة في ذلك والرهبة من ذلك ، وشهد الله أن الذكرى تنفع المؤمنين ، فانتفاعك بالذكرى شاهد لك بالإيمان ، وإن لم تنفعك الذكرى فاتهم نفسك في إيمانك ، وإذا رأيت من يدعي الإيمان ويذكر فلا يقع له نفع بما ذكّر به علمت أنه في الحال ليس بعالم بما آمن به ، فليس بمؤمن أصلا ، فإن شهادة الله حق وهو صادق ، وقد أعلمنا أن المؤمن ينتفع بالذكرى ، وشهدنا أن هذا لم ينتفع بالذكرى ، فلا بد أن نزيل عنه الإيمان تصديقا لله ، ولا معنى للنفع إلا وجود العمل منه بما علم ، وما نرى أحدا يتوقف بالعمل فيما يزعم أنه عالم به ، إلا وفي نفسه احتمال ، ومن قام له في شيء

ص 192

احتمال فليس بعالم به ، ولا بمؤمن بمن أخبره بذلك إيمانا يوجب له العلم .

[سورة الذاريات (51) : آية 56]
وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (56)
[« وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » الآية]
لما كانت طبيعة الممكن قبلت الوجود ، فظهر في عينه بعد أن لم يكن ، سماه الحق خلقا ، مشتقا من الخليقة ، وهي طبيعة الأمر وحقيقته ، أي مطبوعا على الصورة ، وهي خليقته ، فلما أوجده الله على صورته ، وأوجده لعبادته ، كان ما أوجده عليه خلاف ما أوجده له ، فقال :« وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »فاشترك الجن مع الإنس فيما وجد له لا فيما وجد عنه ، لأن الإنسان خص بما وجد عليه ، قال صلّى الله عليه وسلّم : [خلق الله آدم على صورته]
والخلق عطاء من الحق ليعبد ، فهو عطاء عوض ففيه طلب ، ولذلك قال« لِيَعْبُدُونِ »فخلقهم له لا لهم ، ففي هذه الآية خلقنا له أي لنعبده ، ومعناه لنعلم أنا عبيد له ، فإنا في حال عدمنا لا نعلم ذلك ، لأنه ما ثم وجود يعلم ، فعلل سبحانه بلام العلة ، فيعبدونه لكونه أنعم عليهم بالإيجاد لكمال مرتبة العلم والوجود ، من حيث من ذكر من الأجناس ، لا لكمال مرتبة الوجود والمعرفة من غير هذا التقييد ،
فإن ذلك يكفي فيه خلق محدث واحد ، وإيجاد العلم المحدث فيه المتعلق بالله والكون ، ولكن لما كانت الأجناس منحصرة عند الله وأوجدها وبقي هذان الجنسان ، أوقع الإخبار عنهما بما ذكر ، وابتدأ بلام العلة وختم بياء الإضافة ،
قال عزّ وجل فيما أوحى به إلى موسى عليه السلام : [يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي]
وما يلزم نفوذ حكم العلة في كل معلول ، فإن من الجن والإنس من عبده ومنهم من أشرك به ، وقوله تعالى :« وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ »وهو ما استتر ، فلا يعلم إلا منه« وَالْإِنْسَ »هو ما ظهر فيعلم بذاته ، »إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »إثبات للسبب الموجب للخلق ، فاللام في ليعبدون لام الحكمة والسبب شرعا ، لأنه حكيم ، وله في كل شيء حكمة ظاهرة لا تعلم إلا من جهة الشرع في التكليف ،
وأما العلة في التكليف من جهة الحق فمظنونة غير معلومة ، لا يعلمها إلا هو ومن أعلمه الله بها ، فتكون لام ليعبدون لام العلة عقلا ، فصرح تعالى بالسبب الذي لأجله أوجدنا ،
وهكذا العالم كله ، فإن الجن كل مستتر من ملك وغيره ، وخصصنا والجن بالذكر ، فإن الله تعالى لما خلق العالم له تعالى ، أي لعبادته ، قال فيمن علم أنه جعل في نشأته عزة ، وهما الجن والإنس ، ولما جعل فيهما استعدادا يمكن

ص 193

أن يسعى به لنفسه ولغير الله ، نبه أنه ما خلقهم إلا لعبادته
فقال :« وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »فخص الإنس والجن الناري في هذه الآية ، لأنهما ما جبلا على طاعة الأمر دون معصية مثل باقي الخلق ، وإلا فإنه سبحانه قد أوجد العالم ليظهر سلطان الأسماء ، فإن قدرة بلا مقدور ، وجودا بلا عطاء ، ورازقا بلا مرزوق ، ومغيثا بلا مغاث ، ورحيما بلا مرحوم ، حقائق معطلة التأثير ،
وما اعتبر الحق من العالم في هذه الإضافة إلا هذين النوعين ،
فجعل الظهور للإنس من اسمه الظاهر ، وجعل البطون للجان من اسمه الباطن ،
وما عداهما فمسخر لهما ،
ويحتمل أن قوله تعالى :« وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »يعني ظاهرا وباطنا ، فما جعل لهم في الربوبية قدما ، وما قال الله تعالى ذلك في غير هذين الجنسين ، لأنه ما ادعى أحد الألوهية ، ولا اعتقدها في غير الله ، ولا تكبر على خلق الله إلا هذان الجنسان ، فلذلك خصهما بالذكر دون سائر المخلوقات
وقال :« إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »أي ليتذللوا إليّ ، لما ظهر فيهما من العزة ودعوى الألوهية والإعجاب بنفوسهم ، فمن لطف الله بهم أن نبههم على ما أراد بهم في خلقه إياهم ، فمن تنبه كان من الكثير الذي يسجد لله ، ومن لم يتنبه كان من الكثير الذي حق عليه العذاب ، والشرك - وهو الظلم العظيم - ما ظهر في الوجود إلا من هذا النوع الإنساني ، وما ذكر الجن معه في الخلق للعبادة إلا لكونه أغواه بالشرك ، لا أنه أشرك ، والإنس هو الذي أشرك ، واعلم أن السبب الموجب لتكبر الثقلين دون سائر الموجودات ، أن سائر الموجودات توجه على إيجادهم من الأسماء الإلهية أسماء الجبروت والكبرياء والعظمة والقهر ،
فخرجوا أذلاء تحت هذا القهر الإلهي ، وتعرف إليهم حين أوجدهم بهذه الأسماء ، فلم يتمكن لمن خلق بهذه المثابة أن يرفع رأسه ، ولا أن يجد في نفسه طعما للكبرياء على أحد من خلق الله ، فكيف على من خلقه ؟ وقد أشهده أنه في قبضته وتحت قهره ، وشهدوا كشفا نواصيهم ونواصي كل دابة بيده ، والأخذ بالناصية عند العرب إذلال ،
هذا هو المقرر عرفا عندنا ، فمن كان حاله في شهود نظره إلى ربه أخذ النواصي بيده ، ويرى ناصيته من جملة النواصي كيف يتصور منه عز أو كبرياء على خالقه من هذا الكشف ؟ وأما الثقلان فخلقهم بأسماء اللطف والحنان والرأفة والرحمة والتنزل الإلهي ،
فعند ما خرجوا لم يروا عظمة ولا عزا ولا كبرياء ، ورأوا نفوسهم مستندة في وجودها إلى رحمة وعطف وتنزل ، ولم يبد الله لهم من جلاله ولا كبريائه ولا عظمته في خروجهم إلى الدنيا شيئا يشغلهم عن نفوسهم ،

ص 194

ألا تراهم في الأخذ الذي عرض لهم من ظهورهم حين قال لهم : (أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى) فأقروا له بالربوبية لأنهم في قبضة الأخذ محصورون ، فلو شهدوا أن نواصيهم بيد الله شهادة عين ، أو إيمان كشهادة عين - كشهادة الأخذ - ما عصوا الله طرفة عين ، وكانوا مثل سائر المخلوقات ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فلما ظهروا عن هذه الأسماء الرحمانية قالوا : يا ربنا لم خلقتنا ؟

قال : لتعبدون ، أي لتكونوا أذلاء بين يدي ، فلم يروا صفة قهر ولا جناب عزة تذلهم ، ولا سيما وقد قال لهم لتذلوا إلي ، فأضاف فعل الإذلال لهم ، فزادوا بذلك كبرا ،

فلو قال لهم : ما خلقتكم إلا لأذلكم ؛ لفرقوا وخافوا ، فإنها كلمة قهر ، فكانوا يبادرون إلى الذلة من نفوسهم خوفا من هذه الكلمة ، كما قال للسماوات والأرض ائتيا طوعا أو كرها ، فلو لم يقل كرها فإنها كلمة قهر حيثما أتت ، فلهذا قلنا ما أوجد كل ما عدا الثقلين ولا خاطبهم إلا بصفة القهر والجبروت ،

ولا نشك أن كل ما خلق من الملائكة وغيرهم من العالم ما خلقهم إلا مسبحين بحمده ، وما خص بهذه الصفة - أعني صفة العبادة ، وهي الذلة - غير الثقلين ، فما خلقهم حين خلقهم أذلاء ، وإنما خلقهم ليذلوا ، وخلق ما سواهم أذلاء في أصل خلقهم ، فما جعل العلة في سوى الثقلين الذلة كما جعلها فينا ،

فلما قال للثقلين عن السبب الذي لأجله أوجدهم وخلقهم ، نظروا إلى الأسماء التي وجدوا عنها ، ولو أنه متوجه عليهم الاسم المذل لأنه خلقهم لعبادته ، فما رأوا اسما إلهيا منها يقتضي أخذهم وعقوبتهم إن عصوا أمره ونهيه ، وتكبروا على أمره ، فلم يطيعوه وعصوه ، فما تكبر أحد من خلق الله على أمر الله غير الثقلين ، ولا عصى الله أحد من خلق الله سوى الثقلين ، فعصى آدم ربه وهو أول الناس ، وعصى إبليس ربه ،

فسرت المخالفة من هذين الأصلين في جميع الثقلين ، فجعل الحق العبادة بأيديهم ، وجعلها المقصودة منه بخلقهم ، فمنهم من قام بما قصد له ، فكان طائعا مطيعا لأمر الله الوارد عليه بالأعمال والعبادة ، فإنه قال لهم (فَاعْبُدُونِ)

كما أخبر(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي)هذا أمر بعبادة (وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي) هذا أمر بعمل ، والعمل ما هو عبادة ، فالعمل صورة والعبادة روحها ، فالعبادة مقبولة عند الله على كل حال ، اقترنت بعمل أو لم تقترن ،

والعمل لغير عبادة لا يقبل على كل حال ، من حيث القاصد لوقوعه الذي هو النفس المكلفة .

ولما خلق الله الثقلين في هذا المقام الذي قصده بخلقهم ، وهو أجلية الحق ، فرغهم لذلك ، حتى لا يقوم لهم حجة بالاشتغال

ص 195

بما به قوامهم ، فخلق الأشياء التي بها قوامهم ، خاصة من أجلهم ، ليتفرغوا لما قصد بهم ، فقامت عليهم حجة الله إذا لم يقوموا بما خلقوا له ، وكونهم ما فعل بعضهم ما خلق له لا يلزم منه بالقصد أنه خلق لما تصرف فيه ، ولذلك يسأل ويحاسب ،
- **الوجه الثاني** - ما خلقنا الله لعبادته إلا ليعود ثواب ذلك العمل وفضله إلينا ، ولذلك ما خص بهذا الخطاب إلا الثقلين ، فتدل هذه الآية من هذا الوجه على أن الله سبحانه ما أوجدنا إلا لنا ، لا لنفسه ، فإنه هو الغني عن العالمين ، هذا إذا لم يكن الجن عبارة عن باطن الإنسان ، وهو
ـ **الوجه الثالث** - في تفسير قوله تعالى :« وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ »فذكر تعالى ما ظهر ، وهو مسمى الإنس ، وما استتر ، وهو مسمى الجن ، فأعلم أنه أوجدك له لا لك ، فما أنت المقصود لعينك ،
فكأنه يقول :« وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ »وهو ما استتر من الإنسان وما بطن منه « وَالْإِنْسَ » وهو ما يبصر منه لظهوره « إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » ظاهرا وباطنا ، فقد يريد الحق بهذه الآية الإنسان وحده ، من حيث ما له ظاهر وباطن ، فمن حيث ما له ظاهر هو إنس ، من آنست الشيء إذا أبصرته ، والجن باطن الإنسان ، فإنه مستور عنه ،
فكأنه قال : ما خلقت ما ظهر من الإنسان وما بطن إلا ليعبدون ظاهرا وباطنا ، فإن المنافق يعبده ظاهرا لا باطنا ، والمؤمن يعبده ظاهرا وباطنا ، والكافر المعطل لا يعبده لا في الظاهر ولا في الباطن ، وبعض العصاة يعبده باطنا لا ظاهرا ، وما ثمّ قسم خامس ، وما أخرجنا الجن الذين خلقهم من نار من هذه الآية ، وجعلناها في الإنسان وحده من جهة ما ظهر منه وما استتر إلا لقول الله لما ذكر السجود أنه ذكر جميع من يسجد له ممن في السماوات ومن في الأرض ، وقال في الناس :(وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) فما عمهم ،
ودخل الشياطين في قوله: (مَنْ فِي الْأَرْضِ)، وذلك أن الشيطان ، وهو البعيد من الرحمة ، يقول للإنسان إذا أمره بالكفر فكفر (إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ)
فأبان الله لنا عن معرفة الشيطان بربه وخوفه منه ، فلذلك كان صرف الجن إلى ما استتر من الإنسان أولى من إطلاقه على الجان ، والله أعلم .
وأما قوله تعالى :« إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » أي ليتذللوا لي ، فإن الله تعالى لم يقل« وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ »ليأنس بعضهم ببعض ، ولا يتعشق بعضهم ببعض ، ولا يتعرف بعضهم أسرار بعض ، وإنما خلق المكلف من أجله ، فلا ينظر إلى غيره فقال :« لِيَعْبُدُونِ »أي ليتذللوا لي ، ولا يتذللون لي حتى يعرفوني في الأشياء ، فيذلوا لي ، لا لمن ظهرت فيهم ، من حيث

ص 196

إنه قال عزّ وجل :(يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ (فلا يتذللون لي حتى يعرفوا مكانتي وعزتي ، فيتذللون لعزتي ويعرفون منزلتي من منزلتهم ، لذلك قال :« إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »ولا يعبدونه حتى يعرفوه ، فإذا عرفوه عبدوه ، قال ابن عباس« لِيَعْبُدُونِ »معناه ليعرفون ، فما فسر بحقيقة ما تعطيه دلالة اللفظ ، وإنما تفسيره ليذلوا لي ، فالعبد معناه الذليل ، يقال : أرض معبدة أي مذللة ، ولا يذل له من لا يعرفه ، فلا بد من المعرفة به أولا ، وأنه ذو العزة التي تذل الأعزاء لها ، فلذلك عدل ابن عباس في تفسير العبادة إلى المعرفة ، هذا هو الظن به ، وما خلق الجن والإنس من بين الخلق إلا لمحبته ، فإنه ما يعبده ويتذلل إليه إلا محب ، وما عدا الإنسان فهو مسبح بحمده ، لأنه ما شهده فيحبه ، فما تجلى لأحد من خلقه في اسمه الجميل إلا للإنسان وفي الإنسان في علمي ، فلهذا ما فني وهام في حبه بكليته إلا في ربه أو فيمن كان مجلى ربه .

[سورة الذاريات (51) : آية 57]

ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57)

فإن الحق يتنزه عن الغذاء والأكل ، فإنه سبحانه لا ينبغي له أن يطعم ، ثم إن الله علم من بعضهم أنه يقوم له شبهة في السعي فيما خلق من أجله ، في حق الغير ، لما بلغه أن الله يقول : [جعت فلم تطعمني] وقال لما قال له العباد : [يا رب كيف تطعم وأنت رب العالمين ؟] فقال الله له : [ألم تعلم أنه استطعمك فلان فلم تطعمه ، أما إنك لو أطعمته وجدت ذلك عندي]فأنزل الحق نفسه منزلة الجائع ، فلاحت له هذه الشبهة ، قال : نسعى في حق الغير وننتفع بما نسعى به بحكم التبع ، فقال الله له : ما فهمت عني« ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ »والرزق معنوي وحسي ، أي محسوس ومعقول ، وهو كل ما بقي به وجود عين المرزوق ، فهو غذاؤه ، والمرزوقون منهم معقول ومنهم محسوس ، ورزق كل مرزوق ما كان به بقاؤه ونعيمه إن كان ممن يتنعم ، وحياته إن كان ممن يوصف بأنه حي ، وليست الأرزاق لمن جمعها ، وإنما الأرزاق لمن تغذى بها .

[سورة الذاريات (51) : آية 58]

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)

[« إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » الآية]

لا أنتم ، فما بقيت لمن قامت لهم شبهة حجة بتمام الآية ، وأما اعتمادهم على ذلك الخبر

ص 197

فلا يقوم لهم به حجة عند الله ، فإنه لما خلق الأشياء من أجلك التي بها قوامك ، أعطاك إياها وأوصلها إليك ليكون بها قوامك ، ثم أفضل لبعضهم من ذلك ما يزيد على قوامهم ، ليوصله إلى غيره ليكون به قوام ذلك الغير ، ويحصل لهذا أجر أداء الأمانة التي أمّنه الله عليها ، فذلك هو الذي عتبه الحق حيث استطعمه فلان ، وكان عنده ما يفضل عن قوامه فلم يعطه إياه ، فلم يلزم من هذا الخبر أن يسعى في حق الغير ، وهو المراد في تمام الآية السابقة ، وجاء الحق في هذه الآية بالاسم الرزاق بهذه البنية للمبالغة ، لاختلاف الأرزاق ، وهي مع كثرتها واختلافها منه لا من غيره ، وإن المرزوقين مختلف قبولهم للأرزاق ، فما يتغذى به حيوان ما قد لا يصلح أن يكون لحيوان آخر ، لأن المراد بتناول الرزق بقاء المرزوق ، فإذا أكل ما فيه حتفه فما تغذى به وما هو رزق له ، وإن كان به قوام غيره ، فلذلك تسمى ببنية المبالغة في ذلك فقال »:إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ «ولم يزل الحق ينزل من عين ما - يطلب ما به بقاؤه وحياته - إلى عين ، حتى عم العالم كله بالرزق ، فكان رزاقا ، ونعت هذا الرزاق بذي القوة المتين فقال :« ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ " -

-الوجه الأول - ولو نعت به الله لقال : ذا القوة المتين ؛ فنصب ، ولا يتمكن نعت الاسم الله من حيث دلالته ، فإنه جامع للنقيضين ، فهو وإن ظهر في اللفظ فليس المقصود إلا اسما خاصا منه ، تطلبه قرينة الحال بحسب حقيقة المذكور بعده الذي لأجله جاء الاسم الإلهي ، فإذا قال طالب الرزق المحتاج :

يا الله ارزقني ، والله هو المانع أيضا ، فما يطلب بحاله إلا الاسم الرزاق ، فما قال بالمعنى إلا : يا رزاق ارزقني ، فوصف الحق نفسه بأنه ذو القوة ، وهذا فيه إجمال ، فإنه اسم حميري ، أي صاحب القوة ، أي قوة القوة التي فينا ونجدها من نفوسنا ، كما نجد الضعف ، ونعت الرزاق بالقوة لوجود الكفران بالمنعم من المرزوقين ، فهو يرزقهم مع كفرهم به ، ولا يمنع عنهم الرزق والإنعام والإحسان بكفرهم ، مع أن الكفر بالنعم سبب مانع يمنع النعمة ، فلا يرزق الكافر مع وجود الكفر منه لما رزقه إلا من له القوة ، فلهذا نعته بذي القوة المتين ، فإن المتانة في القوة تضاعفها ، فما اكتفى سبحانه بالقوة حتى وصف نفسه بأنه المتين فيها ، إذ كانت القوة لها طبقات في التمكن من القوي ، فوصف نفسه بالمتانة ، والمتين هو الذي لا يتزلزل عما يجب له الثبوت فيه لتمكنه وثقله ، والمتانة في المعاني كالكثافة في الأجسام ، فجاء بالاسم المناسب للرزق ، لأن الرزق المحسوس به تتغذى الأجسام

ص 198

وتعبل ، وكلما عبلت زادت أجزاؤها وكثفت ، وأين السمن من الهزال ؟ فما أحسن تعليم الله وتأديبه وتبيانه لمن عقل عن الله ، ومن المتانة أن الصور لما تبدلت في التجلي واختلفت ، والأسماء الإلهية لما كثرت وتنوعت ، ودل كل اسم على معنى لا يكون لغيره ، وأعطت كل صورة أمرا لم تعطه الصورة الأخرى ، أخبر أنه من المتانة بحيث أن الأمر على ما قرر وشوهد من التحول والتبدل ، والعين ثابتة في مكانتها لا تقبل التغيير ، فليست المتانة إلا للإله القوي الحق الذي يجد في نفسه الطالب الاستناد إليه ولا يدري ما هو ، ولمتانته لا يقوى الناظر أن ينقله إلى محل اعتقاده ، فمتانته حجابه فلا يعرف

- **الوجه الثاني** - لما كانت القوة فينا للغذاء ، ونحن نعلم أن الله لا يطعم ولا يطلب الرزق من عباده ، بل هو الرزاق ذو القوة المتين ، تحفظ الحق سبحانه فقال :« ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ »فتكون قوتي مما طعمت ، بل لي القوة من غير غذاء ولا طعام .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 59 إلى 60]

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (59) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)

فالحاصل من هذا أنه من لم يغب عن عبوديته لله في كل حال ، فقد أدى ما خلق له وكان طائعا وسواء كان مطيعا أو مخالفا ، فإن العبد الآبق لا يخرجه إباقه عن الرق ، وإنما يخرجه عن لوازم العبودية ، من الوقوف بين يدي سيده لامتثال أوامره ومراسمه ، ألا ترى اسم العبودية ينسحب عليه سواء كان مطيعا أو مخالفا .

(52) سورة الطّور مكيّة

[سورة الطور (52) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (1)

الطور هو الجبل المنحني لا المستقيم الحاد.

ص 199

[سورة الطور (52) : آية 2]
وَكِتابٍ مَسْطُورٍ (2)
[إشارة : العالم هو الكتاب المسطور]
-إشارة - وهو العالم من باب الإشارة ، مسطور لأنه منضود ، قد ضم بعضه إلى بعض ، فالوجود بأسره من باب الإشارة كتاب مسطور .

[سورة الطور (52) : آية 3]
فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3)
في رق الوجود ، المنشور في عالم الأجرام من الاسم الله ، والعالم كالكتاب ، لما فيه من الترتيب على الوجوه التي أوجدها الله عليه ، تلاه الله عليك سبحانه لتعقل عنه إن كنت عالما ، وهو منشور ظاهر ، فهو مبسوط غير مطوي ، ليعلم ببسطه أنه مخلوق للرحمة ، وبظهوره يعقل ويعلم ما فيه وما يدل عليه ، والعالم الكبير المعبر عنه بالكتاب المسطور يعبر عنه بالفرقان ، ومختصر هذا الكتاب المسطور هو المعبر عنه بالقرآن ، ومن وجه آخر فإن الكتاب الكبير الخارج عنك يعبر عنه بالقرآن ، ومختصره هو نفسك المعبر عنه بالفرقان ، إذ الإنسان محل الجمع لما تفرق في العالم الكبير ، وإنما قلنا في بسطه إنه للرحمة ، لأنه منها نزل كما قال تعالى :(تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)وخاتمة الأمر ليست سوى عين سوابقها ، وسوابقها الرحمن الرحيم .

[سورة الطور (52) : آية 4]
وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4)
البيت المعمور المسمى بالضراح في السماء الأولى مما يلي الفلك المكوكب ، وهو على سمت الكعبة كما ورد في الخبر ، لو سقطت منه حصاة لوقعت على الكعبة ، وهذا البيت له بابان ، يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم يخرجون من الباب الذي يقابله ولا يعودون إليه أبدا ، يدخلون فيه من الباب الشرقي لأنه باب ظهور الأنوار ، ويخرجون من الباب الغربي لأنه باب ستر الأنوار المذهبة ، فيحصلون في الغيب ، فلا يدري أحد حيث يستقرون ، فاختص هذا البيت بعمارة ملائكة يخلقون كل يوم من قطرات ماء نهر الحياة الواقعة من انتفاض الروح الأمين جبريل ، فإنه ينغمس في نهر الحياة في كل يوم غمسة لأجل خلق هؤلاء الملائكة ، عمرة البيت المعمور ، فيخرج فينتفض كما ينتفض الطائر ، فيقطر منه في ذلك

ص 200

الانتفاض سبعون ألف قطرة ، يخلق الله من كل قطرة ملكا ، كما يخلق الإنسان من الماء في الرحم ، فيخلق سبعون ألف ملك من تلك السبعين ألف قطرة ، وهم الذين يدخلون البيت المعمور ، وبعدد هؤلاء الملائكة في كل يوم تكون خواطر بني آدم ، فما من شخص مؤمن ولا غيره إلا ويخطر له سبعون ألف خاطر في كل يوم ، لا يشعر بها إلا أهل الله ، وهؤلاء الملائكة الذين يدخلون البيت المعمور يجتمعون عند خروجهم منه مع الملائكة الذين خلقهم الله من خواطر القلوب ، فإذا اجتمعوا بهم كان ذكرهم الاستغفار إلى يوم القيامة ، فمن كان قلبه معمورا بذكر الله مستصحبا ، كانت الملائكة المخلوقة من خواطره تمتاز عن الملائكة التي خلقت من خواطر قلب ليس له هذا المقام ، وسواء كان الخاطر فيما ينبغي أو فيما لا ينبغي ، فالقلوب كلها من هذا البيت خلقت ، فلا تزال معمورة دائما ، وكل ملك يتكون من الخاطر يكون على صورة ما خطر سواء ، فاجعل قلبك مثل البيت المعمور بحضورك مع الحق في كل حال ، واعلم أنه ما وسع الحق شيء سوى قلب المؤمن .

[سورة الطور (52) : آية 5]

وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5)

لما كانت السماء كالسقف للبيت لهذا سماه الحق السقف المرفوع- إشارة لا تفسير - إشارة لما يأتي الإنسان من العلم والتعريف الإلهي من نفسه
، فتدركه القوى الحسية والمعنوية -« وَالطُّورِ »الجسم لما فيه من الميل الطبيعي ، لكونه لا يستقل بنفسه في وجوده« وَكِتابٍ مَسْطُورٍ »عن إملاء إلهي ويمين كاتبة بقلم اقتداري« فِي رَقٍّ »وهو عينك« مَنْشُورٍ »ظاهر غير مطوي فما هو مستور« وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ »وهو القلب الذي وسع الحق ، فهو عامره« وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ » ما في الرأس من القوى الحسية والمعنوية« وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ »أي الطبيعة الموقدة بما فيها من النار الحاكم الموجب للحركة« إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ »أي ما تستعذبه النفس الحيوانية والروح الأمري والعقل العلوي من سيدها المربي لها المصلح من شأنها« لَواقِعٌ »ساقط عليها« ما لَهُ مِنْ دافِعٍ »
[إشارة واعتبار : الطور والكتاب المسطور والرق المنشور]
-إشارة واعتبار - الطور في الاعتبار الجسم ، مسلط عليه الروح ليدبره ، »وَكِتابٍ مَسْطُورٍ »سمي مسطورا أي سلط عليكم لتعملوا به ، لأنه إنما جاء ليعمل به ، ومتى عصي انتقم ممن عصاه ،« فِي رَقٍّ »هو الوجود الذي كتب فيه حروف العالم ، و« مَنْشُورٍ »هو ما ظهر لك منه ، والمطوي ما غاب عنك

ص 201

منه ، »وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ »هو محل القوى من الإنسان الذي هو الدماغ ، لأن فيه جميع القوى المعنوية والحسية« وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ »هو بحر الحياة لأنه لولا هذا البحر ما عقل شيئا ولا حصل له علم ولا غيره ، إذ من شرط العلم الحياة ، والبحر المسجور في الاعتبار هو المعنى الذي يصيرنا نارا ، وهو في حق النفس في حال الاصطلام تنعت بالبحر المسجور ، فكل ما يعسر على السالك إزالته ، أعانته عليه نار الاصطلام فأحرقته وأراحته منه .

[سورة الطور (52) : الآيات 6 إلى 11]
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (7) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (8) يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (9) وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً (10) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11)
[« فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » الآية :]
قال الحق لعبده : بلغ عني حقا ، وأنا الصادق ، وعزتي وجلالي وما أخفيته من سنّي علمي ، لأعذبن عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ، من كذّب رسلي وكذّب اختصاصي لهم من سائر العباد ، وكذّب بصفاتي وادعى أنه ليس لي صفة ، وأوجب عليّ وأدخلني تحت الحصر ، وكذّب كلامي وتأوله من غير علم به ، وكذّب بلقائي وقال : إني لم أخلقه وإني غير قادر على بعثه كما بدأته ، وكذّب بحشري ونشري وحوض نبيي وميزاني وصراطي ورؤيتي وناري وجنتي ، وزعم أنها أمثلة وعبارات المراد بها أمور فوق ما ظهر ، وعزتي وجلالي لتردون وتعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى ، ولأنتقمن في دار الخزي والعذاب منهم على ما أخبرت في كتبي ، كذبوني وصدقوا أهواءهم ، ونفوسهم سولت لهم الأباطيل ، وشياطينهم لعبت بهم(إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ)صراطي ممدود على ناري ، فالويل ثم الويل لمن كذبني« فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ».

[سورة الطور : (52) الآيات 12 إلى 16]
الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (14) أَ فَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(16)

ص 202

كما أنه استوى عندهم الإنذار وعدم الإنذار في الدنيا فلم يؤمنوا ، كذلك استوى في حقهم في الآخرة وجود الصبر وعدمه ، فلم يؤثر في نفوذ الجزاء الوفاق.

[سورة الطور (52) : الآيات 17 إلى 21]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ (21)

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ »

[الذرية تابعة للآباء في الإيمان ، ولا يتبعونهم في الكفر]

يعني إيمان الفطرة« أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ »فورثوهم ، وصلّي عليهم إن ماتوا ، وأقيمت فيهم أحكام الإسلام كلها ، مع كونهم على حال لا يعقلون جملة واحدة« وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ »يعني أولئك الصغار ، ما أنقصناهم من أعمالهم ، وأضاف العمل إليهم يعني قولهم بلى في إشهاد الذر ، فبقي لهم على غاية التمام ما نقصهم منه شيئا ، لأنهم لم يطرأ عليهم حال يخرجهم من فعل ما من أفعالهم عن ذلك الإقرار الأول ، فالذرية تابعة للآباء في الإيمان ، ولا يتبعونهم في الكفر إن كان الآباء كفارا .

[سورة الطور (52) : الآيات 22 إلى 28]

وَأَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ (23)وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24 (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (25) قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ (26)

فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28)

البر معناه المحسان والمحسن ، فإن الحق تعالى نظر إلى خلقه من كل وجه بالإحسان ، ولهذا تسمى بالبر الرحيم ، فمن حيث أن الخلق عيال الله رزقهم ، ومن حيث أن فيهم من

ص 203

هو أهل له اعتنى بهم فأشفق عليهم ، ومن حيث أنهم مخلوقون على الصورة على وجه الكمال استنابهم ، ومن حيث أن بعضهم على بعض الصورة رفق بهم ، ومن حيث النسب المذكور في أن الرحم شجنة من الرحمن نظر إليهم الاسم الرحمن بالوصل وانتظام الشمل ، فمن كل وجه له نظر إليهم بالإحسان .

فلو لا الحصر ما وجد النعيم *** ولا كان الجنان ولا الجحيم

وفي الدارين إنعام لرحمى *** بأهلهما يقوم بهم مقيم

وقول الله أصدق كل قيل *** يعرف أنه البر الرحيم

فلما ظهر العالم من البر الرحيم لما يعرف غير الإحسان والرحمة .

[سورة الطور (52) : الآيات 29إلى 48]

فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ (33)

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (34) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)

ص 204

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ (44)فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (46) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (47) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ(48)

[" وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا . . . » الآية]
جعل الله تعالى من باب الإشارات واللطائف قول الكفار حكم الله على نبيه صلّى الله عليه وسلّم ، كما جعل قوله صلّى الله عليه وسلّم حكم الله علينا ، وفي هذه الآية تأنيس وبشارة لنا بأن أمر نبيه صلّى الله عليه وسلّم بالصبر في هذه الآية على الحكم الرباني عليه في ذلك ، فأخبر بوجود الضيق والمشقة لذلك الحكم ، فكذلك إذا جاء الحكم منه علينا بما لا يوافق غرض النفس ، فيأخذه المؤمن عن مشقة وجهد وعناء ، فإنه لا يسقط عن مرتبة الإيمان وكأن هذه الآية تنفس عن الشدة التي في الآية التي في النساء (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ) الآية وأضاف الحق إلى نفسه الأعين بلفظ الجمع ليدل على الكثرة ، فكل عين حافظة مدركة لأمر ما بأي وجه كان فهي عين الحق ، الذي له الحفظ والإدراك ، فذلك سبب الجمع فيها ، فعين الله حافظة بلا شك ، ولما عيّن الله أصحاب الحقوق
فقال صلّى الله عليه وسلّم : [إن لربك عليك حقا ، وإن لنفسك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك حقا ، فآت كل ذي حق حقه]
وقال صلّى الله عليه وسلّم :[لي وقت لا يسعني فيه غير ربي] فهو لله في ذلك الموطن لا لنفسه ولا لشيء من خلقه ، وسامحه الحق في رجوعه إلى أهله من هذا المقام ، لكونه ما يرجعه إلا حق الله الذي افترضه عليه لمن رجع إليه ، وهذا مقام يقتضي الصبر عن الله من حيث هذا المشهد الخاص ، فقال له صلّى الله عليه وسلّم »: وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ »برجوعك لأداء هذه الحقوق« فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا »لعلمه تعالى بأنه محب ، والمحب يتألم للفراق والاشتغال بشهود الغير ، والعبد مأمور بالرضى بالقضاء لا بكل مقضي به ، فقوله تعالى »: وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ »المأمور به ، فذلك الثبوت مع الله عند نفوذ الحكم الإلهي فيه ، أي حكم كان من بلاء أو عافية ، ولما كان مطلوب الإنسان بالطبع ، الخروج من الضيق إلى الانفساح والسعة والضياء المشرق ، لما يراه من ظلمة الطبع

ص 205

وضيقه ، فلا يصبر ، فقيل له : أثبت للحكم فإنك لا تخلو عن نفوذ حكم فيك ، إما بما يسوؤك أو بما يسرك ، فإن ساءك فتحرك إلينا في رفعه عنك ، وإن سرك فتحرك إلينا في إبقائه عليك والشكر على ذلك ، فنزيدك ما يتضاعف به سرورك ولا يضعف ، فأنت رابح على كل حال ، وما أمرناك بالصبر إلا ليكون عبادة واجبة فتجازى جزاء من أدى الواجب« فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا »أي ما حكمنا عليك إلا بما هو الأصلح لك عندنا ، سواء سرك أم ساءك ، أي ما أنت بحيث نجهله ، أو ننساه ، فمن تحقق بهذه الآية يعطى الثبوت مع الحكم الرباني لما فيه من المصلحة ، وإن لم يشعر به العبد وجهله فهو في نفس الأمر مصلحة ، كان الحكم ما كان ، وهذا هو مقام الإحسان الأول ، الذي هو فوق الإيمان ، فله الشهود الدائم في اختلاف الأحكام ، ولا بد من اختلافها لأنه تعالى كل يوم هو في شأن« وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ».

[سورة الطور (52 : (آية 49]
وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبارَ النُّجُومِ (49)

(53) سورة النّجم مكيّة

[سورة النجم (53) : آية 1]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَالنَّجْمِ إِذا هَوى (1)
أي إذا سقط ، وهذا قسم أي ومسقط النجم ، فذكر الحق أشياء وأضمر الأسماء الإلهية ، لتدل الأشياء على ما يريده من الأسماء الإلهية - راجع سورة والشمس .
- **اعتبار** - هذه الآية فيها إشارة إلى النظر في الأدلة ، لأنه لما أفل النجم استدل إبراهيم الخليل عليه السلام على أنه ليس بإله ، فكمل برهانه النظري .

[سورة النجم (53) : آية 2]
ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى (2)
الخوف مع الضلال قال تعالى :« ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى »أي ما خاف في حيرته ،

ص 206

لأنه من علم أن الغاية في الحق هي الحيرة فقد اهتدى ، فهو صاحب هدى وبيان في إثبات الحيرة .

[سورة النجم (53) : آية 3]

وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (3)

« وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى »بأسرار الاستوا ، لكونه شديد القوى ، ولما كان القرآن لا يقبل نزوله إلا مناسبا له في الاعتدال ، فهو معرى عن الهوى ، لهذا قيل في محمد صلّى الله عليه وسلّم :« وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى »في حين قيل في غيره من الرسل الخلفاء :(وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى) فلم ينزل في المرتبة منزلة من أخبر عنه أنه لا ينطق عن الهوى ، فهو صلّى الله عليه وسلّم لسان حق ظاهر في صورة خلق.

[سورة النجم (53) : آية 4]

إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى (4)

[الحديث مثل القرآن بالنص :]

وهذا يدل على أن الحديث مثل القرآن بالنص ، فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا ينطق عن هواه ، بل ينطق عن الله تعالى ، وإن لم نسم كل كلام إلهي قرآنا ، مع علمنا أنه كلام الله ، فالقرآن كلام الله وما كل كلام الله قرآن ، والكل كلامه ، ولهذا فإن حكم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هو ما نسميه السنة حكم الله ، فهو صلّى الله عليه وسلّم ناقل عن الله ومبلغ عنه بما أراه الله ، ومن لا ينطق عن الهوى لا يسأل عما يقول سؤال مناقشة وحساب ، ولكن قد يسأل سؤال استفهام لإظهار علم يستفيده السامعون .

[سورة النجم (53) : الآيات 5 إلى 7]

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى (7)

اعلم أن الأنبياء ما اختارت النوم على ظهورها إلا لعلمها أنه كل ما قابل الوجه فهو أفق له ، إذ كان لا يقابل الوجه إلا الأفق ، وثمّ أفق أدنى أي أقرب إلى الأرض ، وثمّ أفق أعلى وهو ما تقابله بوجهك عند استلقائك على ظهرك .

[سورة النجم (53) : آية 8]

ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (8)

[« ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى » الآية :]

-الوجه الأول - فدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فتدلى الحق تعالى ، إذ لا يكون التدلي إلا

ص 207

من أعلى
- الوجه الثاني - ثم دنا في إسرائه إلى السماوات ليريه من آياته ، فتدلى فدل على أن نسبة الصعود والهبوط على السواء في حقه ، فجمع بين صاحب الحوت وصاحب الإسراء أنه لم يكن واحد منهما بأقرب من الحق من الآخر ، فهي إشارة إلى عدم التحيز وأن الذات مجهولة غير مقيدة بقيد معين ، فكان من آياته التي أراه ليلة إسرائه كونه تدلى في حال عروجه .

[سورة النجم (53) : آية 9]
فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى (9)
قاب قوسين هو التقاء قطري الدائرة ، أو هو قدر الخط الذي يقسم قطري الدائرة ، فيشقها بقسمين وهو غاية القرب ، فإن أقرب القرب أن يكون عين الخط الذي به تقسم الدائرة نصفين لظهور القوسين« فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ »وهي إشارة إلى التقريب الصوري ، فإنه ما أظهر القوسين من الدائرة إلا الخط المتوهم ، ولا يكون قرب أقرب من القوسين ، إلا من كان قربه قرب حبل الوريد منه ، وهو القرب العام ، ومن عرف هذا القرب كان من المقربين ، وعرف سر الحق في وجوده وموجوداته على التنزيه ، فقال :« أَوْ أَدْنى »يعني مما تمناه العبد أو يتمناه ، وهذا أبلغ في المعنى في قوله أو أدنى ، فهو قرب قدر لا قرب مقدار .
واعلم أن رؤية الحق لا تكون أبدا حيث كانت إلا في منازلة بين عروج ونزول ، فالعروج منّا والنزول منه ، فلنا التداني وله التدلي ، إذ لا يكون التدلي إلا من أعلى ، ولنا الترقي وله تلقي الوافدين عليه ، وذلك كله إعلام بالصورة التي يتجلى فيها لعباده ، وأنها ذات حد ومقدار ، فكانت كل صورة من الأخرى أدنى من قاب قوسين ، لكل واحدة من الصورتين قوس أظهر التقويس ، والفرقان بين الصورتين الخط الذي قسّم الدائرة بنصفين ، فكان الأمر عينا واحدة ثم ظهر بالصورة أمران ، فلما صار الحكم أمرين ، كان من الأمر الواحد تدليا لأن العلو كان له ، وفي عين هذا التدلي دنو من الأمر الآخر ، وكان من الأمر الآخر تدان إلى من تدلى إليه ، فكان دنوه عروجا ، لأن تدلي الأمر الآخر إليه أعلمنا أن السفل كان قسم هذا الآخر ، وما تداني كل واحد من الآخر إلا ليرجع الأمر كما كان دائرة واحدة ، لا فصل بين قطريها ، وهذا الخط الفاصل بين قسم الدائرة هو عين تميز العبد عنه ، وتميزه عن العبد من الوجه الذي كان به الحق إلها وكان العبد به عبدا ، فلما تحقق التمييز ، ووقع

ص 208

الانفصال بالتكوين ، وأظهر الخط حكمه ، عاد الأمر واحدا ، فوصف الحق نفسه بأنه سمع العبد وبصره وجميع قواه ، فالعالم في جنب الحق متوهم الوجود لا موجود ، فالموجود والوجود ليس إلا عين الحق وهو قوله :« أَوْ أَدْنى »فالأدنى رفع هذا التوهم ، وإذا رفع من الوهم لم يبق سوى دائرة ، فلم تتعين القوسان ، فمن كان من ربه في القرب بهذه المثابة ، أعني بمثابة الخط القاسم للدائرة ، ثم رفع نفسه منها ، ما يدري أحد ما يحصل له من العلم بالله ، ولما كان القرآن منزلا على لسان العرب ، ففيه ما في اللسان العربي ، ولما كانت الأعراب لا تعقل ما لا يعقل إلا حتى ينزل لها في التوصيل بما تعقله ، لذلك جاءت الكلمات التي وردت في القرآن والحديث من الألفاظ التي توهم التشبيه والتجسيم وغير ذلك مما لا يليق بالله تعالى في النظر الفكري عند العقل خاصة ، ولما كانت الملوك عند العرب تجلس عبدها المقرب المكرم منها بهذا القدر في المساحة ، فعقلت العرب من هذا الخطاب« فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى »قرب محمد صلّى الله عليه وسلّم من ربه ، ولا تبالي بما فهمت من ذلك سوى القرب ،- إشارة - إذا نزلت قابَ قَوْسَيْنِ
، فلا تطلب أثرا بعد عين ، فمقام قاب قوسين مقام المعاينة ، وهو مقام يعطي حكمه في الدنيا والآخرة ، حيث كان ، وهو قوله صلّى الله عليه وسلّم : [ما تجلى الله لشيء ثم احتجب عنه] وفيه أنشدوا .
يا مؤنسي بالليل إذا هجع الورى *** ومحدثي من بينهم بنهار « 1 »
ولما أدنى الحق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تدلى إليه .

[سورة النجم (53) : آية 10]
فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى (10)
بلا واسطة ، وأما وحيه بالواسطة فقوله تعالى :(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ)وما عيّن لنا في الذكر الحكيم ما أوحى ، ولا ذكر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما أوحي في ذلك القرب به إليه ، فكان التلقي في هذا الموطن تلقيا ذاتيا لا يعلمه إلا من ذاقه« وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً »[إشارة : مناجاة الحق للشيخ الأكبر من مقام « فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ] « . . .
-إشارة - من التحدث بنعم الله تعالى يترجم الشيخ قدس الله سره عما ذاقه من مناجاة في سلوكه في مقام« فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى »فيقول قال لي : ناجيتك في كل حضرة ،

---
(1)راجع كتابنا شرح كلمات الصوفية ص 345.

ص 209

ونظرت إليك فيها نظرة ، ثمّ نظرة بين هشيمه ونضره ، وفي هذا كله لا تشبع ولا تقنع ، إلا تحيط وتجمع ، وتقول : هذا ثماد من بحور ، وقليل من كثير ؛ فقلت : من أين كان للعبد أن يعرف مولاه ، لولا ما قلت(ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ) ؟
والعبد ليست له إرادة ، يطلب بها الرجوع إلى الشهادة ، إنما هي الإفادة والزيادة ، فإن وقع منك لا مني ، نطقت عنك لا عني ، وكانت لي الحجة ، واتضح لي سنن المحجة ، فوعزتك لو أبقيتني آباد الآباد ، ما طلبت منك إلا الازدياد ، فإني علمت أن النهاية محال ، فكيف أرجع عن هذا الحال ؟ فإن أردت مني الرجوع إلى الملك فأشترط ، وحينئذ تقر عيني وأغتبط ، قال : وما ذا تشترط ؟
قلت : يكون نوري عليهم منبسط ، أرقيهم بالهمة ، وأنا خارج عن كور العمة - أي أبين لهم ، ولا أتقيد بهم - أناجي بواطنهم بقلبك ، وأنا مخبو في خزائن غيبك
[قوله « أناجيهم بقلبك » أي بقلبي الذي هو متعلق بك - فهي إضافة ملك وتشريف - فأنت بعثته إليهم ، فكنت مقتديا لأمرك لا صاحب هوى]
يجدون الأثر ولا يرون عينا ، ويطلبون أينا فلا يجدون أينا - أي إني أتبرأ من الذي أوصلت إليهم ، وأعلمهم أنه من عند الله ، وأني عبد لا أثر لي ،
فيشهدون أثر الحق في ذواتهم ، ولا يرون عين المؤثر - فتكبر هممهم ، ويتقوى أممهم ، حتى أكون في ذلك الإرشاد والهداية ، صاحب نهاية وبداية ، فأخترق وإليّ يخترق ،
ونطلب فلا نلحق ، فإن صح لي هذا الاشتراط ، وتقوى هذا الارتباط ، فإنما أنشر البساط ، وأسير بين الانقباض والانبساط ؛ قال : ارق إلى حضرة أوحى أناجيك فيها بما يكون ،
وأهب لك بها سر القلم والنون ، حتى تقول للشيء كن فيكون ؛ فاختطفت مني ، وأفنيت عني ، واتفقت أمور وأسرار ، غطّى عليهن إقرار وإنكار ، جلّت عن العبارة ، ودقّت عن الإشارة ، فهي لا تنعت ولا توصف ، ولا تحدّ ولا تتصف ، وغاية العبارة عنها أن يقال : زال قلت وقال ، وانعدم المقام والحال ، ولم يبق مثل ولا ضد ، ولا مطلع ولا حدّ ، وذهبت الجنة والنار ، وفنيت الظلم والأنوار ،
وفني كل قاب ورفرف ، ولم يبق جناح ولا أشرف ، واتحد السؤال والجواب ، وزال المكتوب والكتاب ، وكان المجيب هو المجاب ، ومضت البحار وأحجارها ، والحدائق وأزهارها ، ومارت السماء وطمست أنوارها ، فلم أرجع إلى البقاء بالحق ، بعد ذهاب العين والمحق ، حتى وجدت في غيابات لباب سر أسرار روح معنى قلب النفس ، ما كنت أمّلته بالأمس ، ثم توجني بتاج البهاء ، وإكليل السناء ، وأفرغ عليّ حلة

ص 210

الكبرياء ، وأذن لي أن آذن على سواء ، وذلك على الشرط الذي اشترطته في مناجاة حضرة الرياح ، والعقد الذي ربطته بحضرة الجرس والجناح ، وأنا اليوم أنادي وأنادى ، وأهادي وأهادى ، وأسري ويسرى إلي ، وأتوكل ويتوكل علي ، ووهب لي كل حضرة تحت علمي ، يخترقها السالكون إلي باسمي ، ولا يدركون مني غير ما أدركته ، ولا يملك أحد منهم في وجودي سوى ما ملكته ، هذا إن كانت لهم عندي عناية ، وسبق لهم في سابق علمي هداية ، وإلا ففي بحر المعارف يسبحون ، وفي قفر اللطائف يخبطون ، مهد الله لهم السبيل ، وعرفهم أسرار التنزيل .

[سورة النجم (53) : آية 11]
ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (11)
« ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى »العين ، أي تجلى له في صورة علمه به ، فأنس بمشاهدة من علمه ، فكان شهود تأنيس في ذلك المقام .

[سورة النجم (53) : آية 12]
أَ فَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى (12)
[إشارة : لا يتواضع إلا مؤمن :]
-إشارة - ما عرف الرسول صلّى الله عليه وسلّم طعم التواضع إلا صبيحة ليلة إسرائه ، لأنه نزل من أدنى من قاب قوسين إلى من أكذبه ، فاحتمله وعفا عنه ، فإنه ما تواضع عن رفعة إلا صاحب منعة ، فلا يتواضع إلا مؤمن ، فإن له الرفعة الإلهية بالإيمان .

[سورة النجم (53) : الآيات 13 إلى 14]
وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى (14)
إنما سميت منتهى ، لأنه إليها ينتهي ما ينزل ، ثم يلبس صورة يقتضيها حكم السماوات ، وإليها ينتهي ما يطلع من الأرض ثم يحبس ، فالسدرة شجرة في الجنة تنتهي إليها أعمال بني آدم ، ولهذا سميت سدرة المنتهى ، فهي موضع الفصل ، وبظلها تستظل صورة الأعمال ، والسدرة عروقها دون السماء ، وأصلها في السماء ، وفروعها في عليين ، فتنتهي إليها أعمال العباد الصالحة والطالحة ، فإذا مات الإنسان وقبضت روحه قرنت بعملها حيث انتهى عمله من السدرة ، فالذي لا تفتح له أبواب السماء عمله في عروق هذه السدرة ، والذي يفتح لهم أبواب السماء عملهم في موضع ثمر هذه السدرة ، ولهذا لا يجوع السعيد ولا يعرى ،

ص 211

للورق والثمر اللذين في الفروع ، والشقي يجوع ويعرى لعدم الثمر والورق في العروق ، وللحق فيها تجل خاص عظيم يقيد الناظر ويحير الخاطر ، وفيها من الآيات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ،
كما قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فيها [إنها غشيها من نور اللّه ما غشي فلا يستطيع أحد أن ينعتها]
للغشاء النوري الذي لا تنفذه الأبصار ، بل لا تدركه الأبصار ، فهي شجرة النور ، فعليها من النور والبهاء بحيث أن يعجز عن وصفها الإنسان من كل عالم ، وما في الجنة قصر ولا طاقة إلا وغصن من أغصان هذه السدرة داخل فيه ، وفي ذلك الغصن من النبق على قدر ما في العمل الذي هو الغصن صورته من الحركات ، وما من ورقة في ذلك الغصن إلا وفيها من الحسن بقدر ما حضر هذا العبد مع اللّه في ذلك العمل ، وأوراق الغصن بعدد الأنفاس في ذلك العمل ، وإذا أكل أهل السعادة من هذه الشجرة زال الغلّ من صدورهم ، ومكتوب على ورقها سبوح قدوس رب الملائكة والروح .

[سورة النجم (53) : آية 15]
عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى (15)
تأوي عندها نفوس السعداء ، وهي الجنة التي أنزل منها آدم ، وهي اليوم مقام الروح الأمين جبريل عليه السلام ، وهي اليوم برزخ لذرية آدم ونزل إليها جبريل من السدرة بنزول آدم ، وهذه الجنة لا تقتضي الخلود لذاتها ، فلذلك أمكن خروج آدم منها ، ولذلك تأثر بالاشتياق أن يكون ملكا بعد سجود الملائكة بغرور إبليس إياه ووعده في الخلود ، رغبة في الخلود والبقاء مع جبريل ، والجنة التي عرضها السماوات والأرض تقتضي الخلود لذاتها ، يعلم ذلك من دخلها أنه لا يمكن الخروج منها إذ لا سبيل للفساد إليها ، قال سبحانه وتعالى في وصف عطائها :(غَيْرَ مَجْذُوذٍ)أي غير منقطع .

[سورة النجم : (53) آية 16]
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى (16)
فلم ينعتها سبحانه ، وكذلك قال عليه السلام ، وهو معدن الفصاحة والحكم ، وقد أوتي جوامع الكلم : [فغشيها من نور اللّه ما غشيها ، فلم يستطع أحد أن ينعتها]
وإذا كان هذا ، فكيف يصف أحد حقيقتها ؟ فجدير أن يوقف عندما وقف ، وغشاها اللّه من الأنوار ما غشى ، ألا إن تلك الأنوار أنوار الأعمال ، فلا يستطيع أحد أن ينعتها إنما ينظر إليها فيدركه

ص 212

البهت ، فلا تصل عين إلى مشاهدتها فتحدها أو تصفها ، فالنور الذي كساها نور أعمال العباد ، وأنوار الأعمال تبعث من صورها فتغشاها ، فلا يستطيع أحد أن ينعتها ، فإن النعت للأشياء تقييد وتمييز ، والأعمال تختلف ولها مراتب ، وأنوارها على قدر مراتبها ، فعال وأعلى ، ومضيء وأضوأ ، ونعت العالي يناقض الأعلى ، ونعت المضيء يقابل الأضوأ من حيث ما هو أضوأ ، فلا يتقيد بنعت ، لأنك إن قيدتها بنعت أبطله لك نقيضه ، فما وفيتها حقها من النعتية ، إذ لم تكن أنوار الأعمال على درجة واحدة ، وقد غشيتها هذه الأنوار وغطتها ، فلا يقدر أحد أن يصل إلى نعتها ، فالسعداء وإن استظلوا بها ، فقد كسوها من ملابس الأنوار ما فضلت به جميع الأشجار ، وهي طعام وغاسول ، ونبقها كالقلال ، منه ترزق أرواح الشهداء ، فهي الشجرة الطهور ، فيها مرضاة الحق ، لذلك شرع السدر في غسل الميت للقاء الله ، الماء والسدر ليناله طهور هذه السدرة ، وجانب السدرة منصة هي مقعد جبريل عليه السلام .

[سورة النجم (53) : آية 17]

ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى (17)

[تحقيق وإفصاح بالتلاوة الإلهية وبالتلاوة الجسمانية والروحانية :]

-تحقيق وإفصاح من أول السورة إلى ما أذن به الفتاح بالتلاوة الإلهية - من حيث القرآن هو كلام الله ، التي لا يسأل عنها بالكيفية ولا الماهية »: وَالنَّجْمِ إِذا هَوى »في قلب تعرى عن الهوى« ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى »ولكنه شرب فارتوى ،« وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى »لخروجه عن كرة الهوى« إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى »أنزلناه عليه بلا واسطة كشفا وتلويحا ، فكان به عند نزول الواسطة في عالم الألفاظ عجولا فصيحا »عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى »بحضرة الاستوا ،« ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى »بما أيده به من القوى« وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى »عليه مراتب روحانية العلى ، »ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى »على المقام الأجلى« فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى »من المقام الأسمى خلف حجاب العزة الأحمى ،« فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى »فما أمسى عليه يوم ولا أضحى« ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى »من حسن الرؤى« أَ فَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى »فهو بحيث لا يرى »وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى »عند الصيحة الكبرى« عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى »مستقر الحسن والبها« عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى »المحفوفة بالبلوى ، حضرة ارتفاع الشكوى المنتجة للنجوى« إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى »فيعدم البصير ويظهر الأعشى« ما زاغَ الْبَصَرُ وَما

ص 213

طَغى »ولو طغى لسفل ، ولو زاغ ما ارتقى .
وبالتلاوة الجسمانية والروحانية :« وَالنَّجْمِ إِذا هَوى »بالسر الإنساني في الموقع الرباني ، ليحصل معرفته ويكمل مرتبته« ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى »يقول قد أصاب المطلوب وظفر بالمحبوب« وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى »لأنه مقدس عن التأليف والتركيب ، والتدبير والترتيب ،« إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى »من الله إلى الرب ، كما تقول في شاهد الغيب :
من السر إلى القلب« عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى »ترجمان الاستوا إليه المستوى ،« ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى »جبار قهار مقتدر أقوى« وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى »فوق فلك الإشارات العلى« ثُمَّ دَنا »من حضرة المنى« فَتَدَلَّى »حين تجلى« فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى »أو كحبل الوريد الأدنى« فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى »لما اشتغل بمنافعه وهو قاعد ، وقام بأسبابه وهو راقد« ما كَذَبَ الْفُؤادُ »النكتة الجامعة الإلهية« ما رَأى »من الحقائق الإنسانية« وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى »ولا كون يرى« عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى »حضرة ذات الانتهاء« عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى »حين مقام السوى« إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى »عند صلاة الظهر والعشاء ،« ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى »لأنه في خط الاستوا .

[إشارة واعتبار : « ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى »]
-إشارة واعتبار - محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ووارثه لما دنا من الرفيق الأعلى ، فتدلى على المقام الأجلى ،« فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى »مقام محمود للمحمدي المجتبى .« فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى »ففهم عنه صريح المعنى« ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى »من حقائق القرب في الإسرا« وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى »وآدم بين الطين والماء سواء« عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى »حيث تجتمع البداية والانتهاء ، الأزل والوقت والأبد سواء« عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى »مستقر الواصلين الأحيا ، لما شاهدوا الذات آواهم بجنة الصفات عن الورى ، أي سترهم بالصفات« إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى »من طرف الإسرا والتنزه في العلى« ما زاغَ الْبَصَرُ »وكيف يزيغ لعدم لا يرى ، أي ما مال إلى الغير ، وما ترك الميل تكبرا على الغير ، إنما شغله بربه حال بينه وبين الغير ، فلهذا قال :« وَما طَغى »أي ما طغى في زيغه ، إذ كان زيغ شغل بربه ، لا زيغ تكبر .

[سورة النجم (53) : الآيات 18 إلى 19]
لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى (18) أَ فَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى(19)

ص 214

[اللات والعزّى :]
عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رجلا ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيف يبيع السمن من الحاج ، إذا مرّ يلتّ سويقهم ، وكان ذا غنم ، فسميت الصخرة اللات ، فلما فقده الناس ، قال لهم عمرو : إن ربكم اللات قد دخل في جوف الصخرة - وكانت العزّى ثلاث شجرات نخل ، وكان أول من دعا إلى عبادتها عمرو بن ربيعة ، والحارث بن كعب ، وقال لهم عمرو : إن ربكم يصيف باللّات لبرد الطائف ، يشتي بالعزّى لحرّ تهامة ، وكان في كل واحد شيطان يعبد . فلما بعث الله عزّ وجل محمدا صلّى الله عليه وسلّم ، بعث بعد فتح مكة خالد ابن الوليد إلى العزّى يهدمها ، فخرج في ثلاثين فارسا من أصحابه إلى العزى حتى انتهى إليها فهدمها ، ثم رجع إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم ، فقال : أهدمت ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : هل رأيت شيئا ؟
قال : لا ، قال : فإنك لم تهدمها ، فارجع إليها فاهدمها ، فخرج خالد بن الوليد وهو متغيظ ، فلما انتهى إليها جرّد سيفه ، فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ناشرة شعرها ، فجعل السادن يصيح بها ، قال خالد : وأخذني اقشعرار في ظهري ،
فجعل السادن يصيح ويقول :
أعزّاي شدّي شدة لا تكذبي *** أعزّاي ألقي بالقناع وشمري
أعزّاي إن لم تقتلي المرء خالدا *** فبوئي بذنب عاجل وتبصري
فأقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه بالسيف إليها ، وهو يقول :
كفرانك اليوم ولا سبحانك *** إني رأيت الله قد أهانك
قال : فضربها بالسيف .
ثم رجع إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فأخبره .
فقال : نعم تلك العزّى ، وقد أيست أن تعبد في بلادكم أبدا .
ثم قال خالد رضي الله عنه : الحمد لله الذي أكرمنا بك يا رسول الله ، وأنقذنا بك من الهلكة ، لقد كنت أرى أبي يأتي العزّى ، بخير ماله من الإبل والغنم ، فيذبحها للعزّى ، ويقيم عندها ثلاثا ، ثم ينصرف إلينا مسرورا ، فنظرت إلى ما مات أبي عليه ، وإلى ذلك الرأي الذي كان يعيش في فضله ، وكيف جزع حتى صار يذبح لما لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع .فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :
إن هذا الأمر إلى الله ، فمن يسّره للهدى ، تيسر له ، ومن يسّره للضلالة كان لها . وكان هدمها لخمس ليال بقين من رمضان ، سنة ثمان ، وكان سادنها أفلح بن النضر السلميّ من

ص 215

بني سليم . وحكى سعيد بن عمرو الهذلي : أن أفلح سادنها لما حضرته الوفاة ، دخل عليه أبو لهب ، يعوده وهو حزين ، فقال : ما لي أراك حزينا ؟ قال : أخاف أن تضيع العزى بعدي ، فقال له : لا تحزن ، فأقوم عليها بعدك . فجعل أبو لهب يقول لكل من لقي : إن تظهر العزى كنت قد أخذت عندها يدا ، وإن يظهر محمد على العزى - وما أراده يظهر - فابن أخي ، فأنزل الله تعالى(تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ). وجاء حسان بن ثابت الأنصاري إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وهو في المسجد ، فقال : يا رسول الله ائذن لي أن أقول ، فإني لا أقول إلا حقا ، فقال : قل ، فأنشأ يقول .

شهدت بإذن الله أن محمدا *** رسول الذي فوق السماوات من عل

فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم : وأنا أشهد .

فقال حسان :

وأن أبا يحيى ويحيى كليهما *** له عمل في دينه متقبل

فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم : وأنا أشهد .

فقال حسان :

وأن الذي عادى اليهود ابن مريم *** رسول أتى من عند ذي العرش مرسل

فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم : وأنا أشهد

فقال حسان :

وأن أخا الأحقاف إذ يعذلونه *** يجاهد في ذات الإله ويعدل

فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم : وأنا أشهد .

فقال حسان :

وأن التي بالجزع من بطن نخلة « 1 » *** ومن دانها فل عن الحق معزل

وكان سدنة العزى بنو شيبان بن سليم ، حلفاء بني هاشم ، وكانت قريش وبنو كنانة ، وخزاعة ، وجميع مضر ، تعظمها ، فإذا فرغوا من حجهم وطوافهم بالكعبة ، لم يحلّوا حتى يأتوا العزّى ، فيطوفون بها ويحلّون عندها ، ويعكفون عندها يوما .

[سورة النجم : (53) آية 20]

وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى(20)

---

(1)قال سفيان : يعني العزى.

ص 216

من حديث محمد بن إسحاق : أن عمرو بن لحي نصب مناة على ساحل البحر مما يلي قديد ، وهي التي كانت الأزود وغسان يحجونها ويعظمونها ، فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى ، لم يحلوا إلا عند مناة ، وكانوا يهلون لها ، ومن أهل لها لم يطف بين الصفا والمروة ، لمكان الصنمين اللذين عليهما
-نهيك مجاود الريح - ومطعم الطير - وكان هذا الحي من الأنصار يهلون لمناة ، وكانوا إذا هلوا بحج أو عمرة لم يظلّ أحدهم سقف بيت حتى يفرغ من حجه أو عمرته ، وكان الرجل إذا أحرم لم يدخل بيته ، وإن كان له فيه حاجة تسوّر من ظهر بيته ، لا يحز رتاج الباب رأسه ، فلما جاء الله بالإسلام وهدم أمر الجاهلية ، أنزل الله عزّ وجل(وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها ، وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى ، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها).

[سورة النجم (53) : الآيات 21 إلى 23]
أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى (21) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى (22) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى (23).

"إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ »فأنتم عارفون بأسمائهم ، وأن آباءكم نصبوها آلهة ، وقال تعالى في عبادة هؤلاء :« إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ »فما نسب قط أنهم عبدوا غير الله إلا على طريق الظن لا على جهة العلم ، فإن ذلك في نفس الأمر ليس بعلم ؛ فلو علم المشرك ما يستحقه الحق من نعوت الجلال لعلم أنه لا يستحق أن يشرك به ، ولو علم المشرك أن الذي جعله شريكا لا يستحق أن يوصف بالشركة لله في ألوهته لما أشرك ، فما أخذ إلا بالجهل من الطرفين« وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى »فإن الإله الذي أدعوكم إليه تعرفونه ، وأن اسمه الله لا تنكرونه ،
وأنتم القائلون :(ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى)فسميتموه ، فهذا الذي جاء به الرسول صلّى الله عليه وسلّم من عند الله الذي عبد هؤلاء هذه المسماة آلهة عندهم على جهة القربة إلى الله الكبير المتعال.

ص 217

[سورة النجم (53) : الآيات 24 إلى 26]
أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى (25) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى (26)
الملائكة تشفع فيمن كان على مكارم الأخلاق في الدنيا وإن لم يكن مؤمنا .

[سورة النجم (53) : الآيات 27 إلى 28]
إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى (27) وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (28)
اعلم أنه من أقام في نفسه معبودا يعبده على الظن لا على القطع خانه ذلك الظن وما أغنى عنه من الله شيئا .

[سورة النجم (53) : آية 29]
فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياةَ الدُّنْيا (29)

وهو قوله تعالى :(وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ)لأن المتولي عن ذكر الله معرض ، وأعطي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم العلامة ، وهو التولي عن الذكر لا عن الله ، فإن التولي عن الله لا يصح ،
ولهذا قال لنبيه »: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا »كيف يتولى عمن هو بالمرصاد ، والكل في قبضته وبعينه .
فكأنه قال لنبيه صلّى الله عليه وسلّم : أظهر له صفته في إعراضك عنه لعله يتنبه ، فإنه يأنف من إعراضك عنه لما هو عليه في نفسه من العزة ،

فإن إعراضك عنه إذلال في حقه وعدم مبالاة به ، فإن المعرض بالتولي إذا تبعته زاده اتباعك نفورا وعدم التفات ، فإذا أعرضت عنه ووليته ظهرك كما ولاك ظهره لم يحس بأقدام خلفه ، تهدّى في مشيته وأخذ نفسه ، وارتأى مع نفسه فيما أعرض عنه ،
والتفت وما رآك خلفه ، فصار يحقق النظر فيك وأنت ذو نور ،
فلا بد أن يلوح له من نورك ما يؤديه ويدعوه إلى التثبت في أمرك وفيما جئت به ، فلعله أن يكون من المهتدين ، فهذا الإعراض صنعة في الدعاء إلى الله .

[سورة النجم (53) : آية 30]
ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى(30)

ص 218

قال تعالى في الجاهل :« ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ »فسمى الجهل علما ، فنقول هو جهل في عين العلم ، فإن الجاهل قد يتصف بالعلم فيما هو جاهل به ،
فإن مسمى العلم ينطلق اسمه على ما هو علم وما ليس بعلم ، وأعلمنا الحق أنهم عملوا بما علموا عن الحياة الدنيا ، ولكنهم أعرضوا عن العلم بالآخرة فلم يعملوا لها ،
والعلم ليس سوى عين العلامة وبه سمي علما ، فبالعلم يعلم العلم كما يعلم به سائر المعلومات ، فهي كلها علامات ، ولذلك قد يسمى الظن علما شرعا ، لأن العلم هنا عبارة عن العلامة التي يحصل بها الظن في نفس الظان الحاكم به ، فيكون علمه بتلك العلامة علما ،
ولذلك قال تعالى »: ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ »ولم يكن علما ، فكأنه قال : ذلك الذي أعطتهم العلامة في ذلك الأمر« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى »فذكر أعلم في الصنفين ،
واعلم أن التولي عن الذكر المضاف إلى الله ، ما أطلق الله الإعراض عنه على الانفراد ، بل ضم إليه قوله ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، فبالمجموع أمر الحق تعالى نبيه صلّى الله عليه وسلّم إذا وقع بالإعراض عنه
فإن قوله تعالى :« ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ »ذمّ
[إشارة لا تفسير » : فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا «]
-إشارة لا تفسير - لما كان لله سبحانه وتعالى القرب المفرط من العبد كما قال :(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)والحياة الدنيا ليس إلا نعيم العبد بربه على غاية القرب الذي يليق بجلاله ، ولم يكن مراد المذكر بالذكر إلا أن يدعو الغافل عن الله ، فإن جاء الذاكر ودعا بالذكر ، فسمعه هذا المدعو - وكان معتنى به –
فشاهد المذكور عند الذكر في حياته الدنيا ، أمر الله هذا المذكر أن يعرض عن هذا المذكور لئلا يشغله بالذكر عن شهود مذكوره والنعيم به ، فقال الحق يخاطبه :« فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا »لأن الذكر لا يكون إلا مع الغيبة « وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا »وهي نعيم القرب
- من باب الإشارة لمن هو في هذا المقام لا من باب التفسير - ثم تمم وقال :« ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ »ثناء من باب الإشارة على هذا الشخص وتنبيها على رتبته في العلم بالله ، فأما ما فيه من الثناء عليه ، أنه في حال شهوده للحق في مقام القرب ، فلا يقدر لفنائه على القيام بما يطلبه به الذكر من التكليف ، فكأن المذكر ينفخ في غير ضرم ، لأنه لا يجد قابلا ، فأمر بالإعراض عنه لما في ذلك الذكر بهذه الحالة من سوء الأدب في الظاهر مع الذّكر ، فلو

ص 219

كان هذا السامع عنده من القوة أن يشهد الحق في كل شيء لشهده في الذكر ، فلم يكن الحق يأمر المذكر بالإعراض عنه ولا كان يتولى السامع ، وذلك مبلغه من العلم .

[سورة النجم (53) : الآيات 31 إلى 32]
وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى(32)
" إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ " أي ستره واسع ، أترى هذه السعة الربانية تضيق عن شيء ؟ فمنا من تفيض عليه الرحمة من خزائن الوجوب ، ومنا من تفيض عليه الرحمة من خزائن المنن ، فالكل طامع ، والمطموع فيه واسع ، وهو ينزل إلى السماء الدنيا القريبة منا في كل ليلة يقول : هل من مستغفر فأغفر له ؟ وما من شيء إلا وهو مستغفر في أكثر أوقاته لمن هو إله ، ولم يقل تعالى : إنه ينزل ليعذب عباده الذين نزل في حقهم« هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ »بأبيكم« وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ »ببنيكم« فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ »أي أمثالكم ، فلا تزكي على الله أحدا ، فقد نهانا الله بهذه الآية عن ذلك ولكن قل : أحسبه كذا ، أو أظنه كذا ، كما أمرك به رسول الله فإنه قال : [لا أزكي على الله أحدا]
وذلك لعزة العلم ، فشرعت التزكية في حكم الشرع بغلبة الظن فيقول : أحسبه كذا وأظنه كذا ، لأنه لا يعلم كل أحد ما منزلة ذلك المزكى عند الله أدبا مع الله ، لئلا يقطع على الله بشيء ،« هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى »فيخصه بالرحمة الموجبة بالصفة الموجبة في قوله: (فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ)
ممن لم يتق فيخصه برحمته المطلقة ، وهي رحمة الامتنان ولا تتقيد بحصر
- إشارة - « إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ "
أي واسع الستر ، فما من شيء إلا وهو مستور بوجوده ، وهو الستر العام ، فإن الأمور كلها ستور بعضها على بعض ، وأعلاها سترا الاسم الظاهر ، فإنه ستر على الاسم الباطن الإلهي ، وما ثمّ وراء الله مرمى ، فهو ستر عليه ، وكل حرف جاء لمعنى فهو ستر عليه ، والقلب محل الصور الإلهية التي أنشأتها

ص 220

الاعتقادات بنظرها وأدلتها ، فهي ستور عليها ، لذلك تبصر الشخص ولا تبصر ما اعتقده إلا أن يرفع لك الستر بستر آخر ، وهو العبارة عن معتقده في ربه ، فالعبارة وإن دلتك عليه فهي ستر بالنظر إلى عين ما تدل عليه ، فإن الذي تدل عليه ما ظهر لعينك ، ولذلك فإن الأسماء الإلهية وإن دلت على ذات المسمى ، فهي أعيان الستور عليها ، والأسماء اللفظية الكائنة في ألسنة الناطقين والأسماء الرقمية في أقلام الكاتبين فإنها ستور على الأسماء الإلهية ، من حيث أن الحق متكلم لنفسه بأسمائه ، فتكون هذه الأسماء اللفظية والمرقومة التي عندنا أسماء تلك الأسماء وستورا عليها ، فإنا لا ندرك لتلك الأسماء كيفية ، ولو أدركنا كيفيتها شهودا لارتفعت الستور ، وهي لا ترفع ، فالستور وإن كانت دلائل فهي دلائل إجمالية ، فالعالم بل الوجود كله ستر ومستور وساتر ، فنحن في غيبه مستورون ، وهو ستر علينا ، فالوجود هو الستر العام ، فهو واسع المغفرة ، وهي حضرة إسبال الستور ، وختم تعالى بقوله :« هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى »والستر وقاية ، والغفران هو الستر ، فالعبد يتقي بالستر.

[سورة النجم (53) : الآيات 33 إلى 37]
أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطى قَلِيلاً وَأَكْدى (34) أَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى (36) وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37)
وفّى بما رأى من ذبح ابنه .

[سورة النجم (53) : آية 38]
أَلاَّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى (38)
فإن الدار الآخرة دار تمييز فلا تصيب العقوبة إلا أهلها .

[سورة النجم (53) : آية 39]
وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعى (39)
جعل الله الإنسان لا يسعى إلا لنفسه ، ولهذا قرن بسعيه الأجر حتى يسعى لنفسه ، بخلاف من لا أجر له من العالم الأعلى والأسفل ، وليس بعد الرسل ومرتبتهم في العلم باللّه مرتبة ، فهم المطرقون والمنبهون ، ومع هذا فما منهم من رسول إلا قال :(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ)فما هو من سعي الإنسان فهو له عند الله بطريق الإيجاب الإلهي الذي أوجبه على

ص 221

نفسه ، وأما ما عمل عنه غيره بحكم النيابة مما لم يؤذن فيه الميّت ولا أوصى به ولا له فيه تعمل ، فإن الله يعطيه ذلك المقام إذا وهبه إياه غيره ، فيأخذه الميت لا من طريق الوجوب الإلهي لكن يجب عليه أخذه ولا بد ، فإنه أتاه من غير مسئلة .

[سورة النجم (53) : الآيات 40 إلى 42]
وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى (40) ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى (41) وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى (42)
يريد المنتهى بظهورنا ، أي لا يزال وجه العالم أبدا إلى الاسم الأول الذي أوجده ناظرا ، ولا يزال ظهر العالم إلى الاسم الآخر المحيط الذي ينتهي إليه بورائه ناظرا ، والله هو الوجود المحض ، محيط بنا وإليه ننتهي ، فيحول وجوده وإحاطته بيننا وبين العدم ، فالمآل إلى الرحمة العامة
[إشارة : لا يحجبنّك قوله تعالى « وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى » فتقول]
-إشارة - لا يحجبنّك قوله تعالى :« وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى »فتقول : ليس هو معي في البداية ، بل هو معك في البداية وفي طريقك إليه وإليه نهايتك ، لكن تختلف أفعاله فيك ، وهي اختلاف أحوالك ، ففي البداية يسويك ، وفي الطريق يهديك ، وفي الغاية يملك ويخلع عليك خلعة الخلافة ، فلما كان المنتهى المطلب أظهر الاسم في المنتهى ، ولذلك قال :« وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى ».

[سورة النجم (53) : آية 43]
وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى (43)
من الناس من وفقهم الله لوجود أفراح العباد على أيديهم ، أول درجة من ذلك من يضحك الناس بما يرضي الله ، أو بما لا رضا فيه ولا سخط وهو المباح ، فإن ذلك نعت إلهي لا يشعر به ، بل الجاهل يهزأ به ولا يقوم عنده هذا الذي يضحك الناس وزن ، وهو المسمى في العرف مسخرة ،
وأين هو هذا الجاهل بقدر هذا الشخص من قوله تعالى :« وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى »
[الإضحاك نعت إلهي :]
ولا سيما وقد قيدناه بما يرضي الله أو بما لا رضا فيه ولا سخط ، فعبد الله المراقب أحواله وآثار الحق في الوجود يعظم في عينه هذا المسمى مسخرة ، وكان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم نعيمان يضحكه ليشاهد هذا الوصف الإلهي في مادة ، فكان أعلم بما يرى ، ولم يكن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممن يسخر به ولا يعتقد فيه السخرية ، وحاشاه من ذلك صلّى الله عليه وسلّم ،

ص 222

بل كان يشهده مجلى إلهيا ، يعلم ذلك منه العلماء بالله ، ومن هذه الحضرة كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يمازح العجوز والصغير ، يباسطهم بذلك ويفرّحهم .

[سورة النجم (53) : آية 44]
وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا (44)
[إشارة : الأرض عاد بخارها عليها]
-إشارة - الأرض عاد بخارها عليها ، وتحلل شوقا فنزل إليها ، والأمطار دموع العشاق ، من شدة الأشواق لألم الفراق ، فلما تلاقى أضحك بأزهاره ، جزاء بكاء وابل مدراره ، فأمات وأحيا من أضحك وأبكى .

[سورة النجم (53) : الآيات 45 إلى 48]
وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى (47) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْنى (48)
[الغنى غنى النفس :]
قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [ليس الغنى عن كثرة العرض ، لكن الغنى غنى النفس]
ترى التاجر عنده من المال ما يفي بعمره وعمر ألزامه لو عاش إلى انقضاء الدنيا ، وما عنده في نفسه من الغنى شيء ، بل هو من الفقر إلى غاية الحاجة ، بحيث أن يرد بماله موارد الهلاك في طلب سد الخلة التي في نفسه ، عسى يستغني ، فما يستغني ، بل لا يزال في طلب الغنى الذي هو غنى النفس ولا يشعر . واعلم أن أول درجة الغنى القناعة والاكتفاء بالموجود ، فلا غنى إلا غنى النفس ، ولا غنّي إلا من أعطاه الله غنى النفس ، فليس الغنى ما تراه من كثرة المال مع وجود طلب الزيادة من رب المال ، فالفقر حاكم عليه .

[سورة النجم (53) : آية 49]
وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى (49)
كانت العرب تعبد كوكبا في السماء يسمى الشعرى ، سنّة لهم أبو كبشة ، وتعتقد فيها أنها رب الأرباب ، لذلك قال تعالى :« وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى »وأبو كبشة هذا الذي كان شرع عبادة الشعرى هو من أجداد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأمه ، ولذلك كانت العرب تنسب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إليه ، فتقول : ما فعل ابن أبي كبشة ؟ حيث أحدث عبادة إله واحد كما أحدث جده عبادة الشعرى.

ص 223

[سورة النجم (53) : آية 50]
وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى (50)
عاد الأولى هم قوم هود عليه السلام ، وثمود قوم صالح عليه السلام ، وفي رواية أنهم قوم إدريس عليه السلام ، وما طلب منهم إلا أن يقولوا : لا إله إلا الله .

[سورة النجم (53) : الآيات 51 إلى 53]
وَثَمُودَ فَما أَبْقى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى (53)
وهو أن جبريل عليه السلام اقتلع أرض قوم لوط من سبع أرضين ، فحملها حتى بلغ بها إلى سماء الدنيا ، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم وأصوات ديكهم ، ثم قلبها وأرسل على الشرار منهم حجارة من سجيل .

[سورة النجم (53) : الآيات 54إلى 59]
فَغَشَّاها ما غَشَّى (54) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى (55) هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى (56) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ (58) أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59)
« أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ »يعني من القرآن ، فيما وعظهم به منهم وتوعدهم ووعدهم« تَعْجَبُونَ »تكثرون العجب ، كيف جاء به مثل هذا ؟ وما أنزل على عظمائكم كما قالوا :(لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ).

[سورة النجم (53) : آية 60]
وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (60)
« وَتَضْحَكُونَ »أي تهزءون منه إذا أتى به ، لأنهم لا يعرفون الحق إلا بالرجال« وَلا تَبْكُونَ »فإن في القرآن ما يبكي من الوعيد ، وما يضحك ويتعجب فيه من الفرح باتساع رحمة الله ولطفه بعباده ، وفي القرآن من الوعيد والمخاوف ما يبكي بدل الدموع دما لمن دبر آياته.

ص 224

[سورة النجم (53) : آية 61]
وَأَنْتُمْ سامِدُونَ (61)
لاهون وفي القرآن هذا كله ! ! - سامد لغة حميرية يقولون : اسمد لنا أي غن لنا ، في وقت حصادهم لينشطوا للعمل ، وكانت العرب إذا سمعت القرآن غنت حتى لا تسمع القرآن ، وكانوا يقولون ما أخبر الله عنهم :(لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)
فما لكم عنه معرضون وموطن الدنيا موطن حذر ؟
ولا سيما والموت فيكم رائح وغاد مع الأنفاس ، ولا تتفكرون إلى أين تصيرون ؟
وإلى أين تسافرون ؟ وأين تحطون ؟
فإن كنتم أهل غناء فتغنوا بالقرآن ،
فهو أولى بكم ورد في الخبر : [ما أذن الله لنبي كإذنه لنبي يتغني بالقرآن]
يقول : ما استمع كاستماعه ، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [ليس منا من لم يتغن بالقرآن] فجعل التغني به من السنة .

[سورة النجم (53) : آية 62]
فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)
فأمر بالسجود والذلة والمسكنة ، وهذه السجدة فيها خلاف ، وهي سجدة الطرب واللهو ، تنبيه للغافلين عن الله .

(54) سورة القمر مكيّة

[سورة القمر : (54) آية 1]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1)
[انشقاق القمر على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :]
ورد في الخبر عن الصاحب أن القمر انشق على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند سؤال طائفة من العرب أن يكون لهم آية على صدقه ، فانشق ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : اشهدوا . وقال تعالى :« اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ »فلا يدرى هل أراد الانشقاق الذي وقع فيه السؤال ؟ وهو الظاهر من الآية فإنه أعقب الانشقاق بقوله :

[سورة القمر (54 : (آية 2]
وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ(2)

ص 225

وكذا وقع القول منهم لما رأوا ذلك ، ولهذا قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للحاضرين :
[اشهدوا] لوقوع ما سألوا وقوعه ، وما لهم إلا ما ظهر ، وهل هو ذلك الواقع في نفس الأمر أو في نظر الناظر ؟ هذا لا يلزم ،
فإنه لا يرتفع الاحتمال إلا بقول المخبر إذا أخبر أنه في نفس الأمر كما ظهر في العين ،
وقول المخبر هو محل النزاع ،
وما اشترطوا في سؤالهم أن لا يظهر منهم ما ظهر منهم من الإعراض عند وقوع ما سألوا وقوعه ،
فلم يلزم النبي صلّى الله عليه وسلّم أكثر مما وقع فيه من السؤال ، ثم جاء الناس من الآفاق يخبرون بانشقاق القمر في تلك الليلة ، ولهذا قال الله تعالى عنهم : إنهم قالوا فيه« سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ »فقال الله :

[سورة القمر (54) : آية 3]
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3)
وكان ذلك الأمر ما كان .

[سورة القمر (54) : الآيات 4 إلى 8]
وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ (5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ (6) خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)
« مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ »وهو الله تعالى« يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ.«

[سورة القمر (54) : الآيات 9 إلى 14]
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ (13)
تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ(14)

ص 226

" تَجْرِي بِأَعْيُنِنا »أي بحيث نراها ، يشير الحق بذلك إلى أنه يحفظها ، لأن المحفوظ لا يختفي عنه ،
وقال تعالى :« بِأَعْيُنِنا »فكثر دلالة على أنها تجري في حفظ الله من حفظ إلى حفظ ، ووصف الحق نفسه بالأعين لأن مدبر السفينة يحفظها ، والمقدم يحفظها ، وصاحب الرجل يحفظها ، وكل من له تدبير في السفينة يحفظها ، بل يحفظ ما يخصه من التدبير ،
فقال تعالى فيها : إنها تجري بأعين الحق ، وما ثمّ إلا هؤلاء ، وهم الذين وكّلهم الله بحفظها ، فكل حافظ في العالم أمرا ما فهو عين الحق ، إذ الحفظ لا يكون إلا ممن لا يغالب على محفوظه ولا يقاوى على حفظه ، والحق تعالى مع بعض عباده بالولاية والعناية والكلاءة والرعاية ، فله تعالى عين في كل أين ،
ولذلك قال: " تَجْرِي بِأَعْيُنِنا " فجمع ، والقول الحق إذا جاء صدع ، فكل مدبر عينه ، وكل عامل يده وكونه .

[سورة القمر (54) : الآيات 15 إلى 49]
وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (16) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17) كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ(18) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19)

ص 227

تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقالُوا أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ
إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (24)
أَ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26
) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ
شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28)فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ (29)
فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31
) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنا
عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ (34)
نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ (36)
وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (37) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً
عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (38) فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (39)
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40) وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا
بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42) أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي
الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44)
سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ (46) إِنَّ
الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (47) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (
48) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ(49)

[" إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ " الآية - علم القضاء والقدر :]
كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس ، فكل شيء بقضائه أي بحكمه ، وقدره أي وزنه ، وهو تعيين وقت ، حالا كان وقته أو زمانا أو صفة أو ما كان ،
فالقضاء الذي له المضي في الأمور هو الحكم الإلهي على الأشياء بكذا ، وهو مجمل ، والمقضي به تفصيل ذلك المجمل وهو القدر ،
لأن القدر توقيت الحكم ، فالقدر ما يقع بوجوده في موجود معين المصلحة المتعدية منه إلى غير ذلك الموجود ، فالقضاء في أم الكتاب ، ويطلبه حكم الإمام المبين الذي فيه ما يتكون عن المكلفين خاصة وهو القدر ، وكلا الكتابين محصور لأنه موجود ،
وعلم الله في الأشياء لا يحصره كتاب مرقوم ، فالقضاء يحكم على القدر ، والقدر

ص 228

لا حكم له في القضاء ، بل حكمه في المقدّر لا غير بحكم القضاء ، فالقاضي حاكم والمقدار مؤقت ،
فالقدر التوقيت في الأشياء ، فما أنزل الله شيئا إلا بقدر معلوم ، ولا خلق شيئا إلا بقدر ،
وبالقدر تقوم الحجة لله في عباده ، فكل شيء بقضاء وقدر أي بحكم مؤقت ، فمن حيث التوقيت المطلق يجب الإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره ، ومن حيث التعيين يجب الإيمان به لا الرضا ببعضه ،
فإن الله تعالى أمرنا بالرضا قبل القضاء مطلقا ، فعلمنا أنه يريد الإجمال ، فإذا فصّله حال المقضي عليه بالمقضي به انقسم إلى ما يجوز الرضا به وإلى ما لا يجوز ، وعلم القدر طوي عن كل ما سوى الله ، فإن القدر نسبة مجهولة خاصة ،
وهو مرتبة بين الذات وبين الحق من حيث ظهوره ، فلا يعلم أصلا وعز عن العلم به أو تصوره ، فلا ينال أبدا ،
وقد كان العزير رسول الله عليه السلام كثير السؤال عن القدر إلى أن قال له الحق : يا عزير لئن سألت عنه لأمحون اسمك من ديوان النبوة ، فإن من علم الله علم القدر ، ومن جهل الله جهل القدر ، والله سبحانه مجهول ،
فالقدر مجهول ، وسبب طي علم القدر ، سبب ذاتي ، حتى لا يشارك الحق في علم حقائق الأشياء من طريق الإحاطة بها ، إذ لو علم أي معلوم كان بطريق الإحاطة من جميع وجوهه كما يعلمه الحق لما تميز علم الحق عن علم العبد بذلك الشيء ،
فالعبد جاهل بكيفية تعلق العلم مطلقا بمعلومه ، فلا يصح أن يقع الاشتراك مع الحق في العلم بمعلوم ما ، ومن المعلومات العلم بالعلم ،
وما من وجه من المعلومات إلا وللقدر فيه حكم لا يعلمه إلا الله ، فلو علم القدر علمت أحكامه ،
ولو علمت أحكامه لاستقل العبد في العلم بكل شيء ،
وما احتاج إلى الحق في شيء ، وكان الغنى له على الإطلاق ، لذلك طواه الله عن عباده ،
ومن الأسباب التي لأجلها طواه عن الإنسان كون ذات الإنسان تقتضي البوح به ، لأنه أسنى ما يمدح به الإنسان ولا سيما الرسل ،
فحاجتهم إليه آكد من جميع الناس ، لأن مقام الرسالة يقتضي ذلك ، وما ثمّ علم ولا آية أقرب للدلالة على صدقهم من مثل هذا العلم ، والرسالة تعطي الرغبة في هداية الخلق أجمعين ، ولا طريق للهداية أوضح من هذا الفن ،
فالذي كانوا يلقونه من الكتم من الألم والعذاب في أنفسهم لا يقدر قدره ، لأن الغيرة الإلهية اقتضت طي هذا العلم عمن لا ينبغي أن يظهر عليه ،
فخفف الله عن الرسل مثل هذا الألم فطوى هذا العلم عنهم ، فإن النشأة العنصرية تقتضي عدم الكتم فيما ينبغي أن تمدح به.
ص 229

[سورة القمر (54) : آية 50]
وَما أَمْرُنا إِلاَّ واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50)

[« وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » الآية]
الأمر الإلهي كلمة واحدة كلمح بالبصر ، وليس في التشبيه الحسي أعظم ولا أحق تشبيها به من اللمح بالبصر ، فإن البصر لا شيء أسرع منه ،
فإن زمان لمحة العين - أي زمان التحاظه - عين زمان تعلقه بالملموح ،
ولو كان في البعد ما كان ، فهو زمان التحاقه بغاية ما يمكن أن ينتهي إليه في التعلق ، وأبعد الأشياء في الحس الكواكب الثابتة التي في فلك المنازل ، وعندما تنظر إليها يتعلق اللمح بها ، فهذه سرعة الحس ، فما ظنك بالمعاني المجردة عن التقييد في سرعة نفوذها ؟
فإن للسرعة حكما في الأشياء لا يكون لغير السرعة ، ومن هنا يعرف قول الحق للشيء ؛ كن فيكون ؛ فحال كن الإلهية حال المكون المخلوق »وَما أَمْرُنا »وهو قوله : كن« إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ »
ومن أراد أن يعرف ذلك في صورة نشء العالم وظهوره ، وسرعة نفوذ الأمر الإلهي فيه وما أدركت الأبصار والبصائر منه ، فلينظر إلى ما يحدث في الهواء من سرعة الحركة بجرة النار في يد المحرك لها ، إذا أدارها ، فتحدث في عين الرائي دائرة أو خطا مستطيلا إن أخذ بالحركة طولا أو أي شكل شاء ، ولا تشك أنك أبصرت دائرة نار ولا تشك أن ما ثمّ دائرة ، وإنما أنشأ ذلك في نظرك سرعة الحركة ،
فالدائرة مثل عين الصورة المخلوقة الظاهرة لإدراك العين عن قوله : كن ، فتحكم من حيث نظرك ببصرك وبصيرتك وفكرك أنه خلق وبعلمك وكشفك أنه حق مخلوق به ، واعلم أن الكيفيات لا تنقال ، ولكن تقال بضرب من التشبيه ، فإن أمره واحدة أي كلمة واحدة مثل لمح بالبصر ، فإن اللمحة الواحدة من البصر تعمّ من أحكام المرئيات من حيث الرائي إلى الفلك الأطلس جميع ما يحوي عليه في تلك اللمحة من الذوات والأعراض القائمة بها من الأكوان والألوان ، وشبّه الإمضاء بلمح البصر ، وسبب ذلك أن الذي يصدر منه الأمر لا يتقيد ، فهو في كل مأمور بحيث أمر ، فينفذ الأمر بحكمه دفعة واحدة .

[سورة القمر : (54) الآيات 51 إلى 53]
وَلَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ(53)

ص 230

" وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ »في اللوح المحفوظ ، وهو القضاء والقدر ، فما فيه إلا ما يقع ، ولا ينفذ الملائكة الولاة في العالم إلا ما فيه ، وما من حدث يحدث الله في العالم إلا وقد وكل الله بإجرائه ملائكة .

[سورة القمر (54) : آية 54]
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54)
[إشارة : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ » الآية :]
أي في ستر وسعة - إشارة - في ستور علوم جارية واسعة ، كلما قلت : هذا ؛ جاء غيره ، لأن النهر جار على الدوام بالأمثال .

[سورة القمر (54) : آية 55]
فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)
« فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ »في حضرة منيعة ، وما أقعدهم ذلك المقعد إلا صدقهم« عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ »
[الاسم الإلهي القادر والمقتدر :]
فإن الاقتدار يناسب الصدق ، فإن معناه القوي ، يقال : رمح صدق ، أي صلب قوي ، ولما كانت القوة صفة هذا الصادق ، حيث قوي على نفسه فلم يتزين بما ليس له ، والتزم الحق في أقواله وأحواله وأفعاله وصدق فيها ، أقعده الحق عند مليك مقتدر ، أي أطلعه على القوة الإلهية التي أعطته القوة في صدقه الذي كان عليه ، فإن الملك هو الشديد أيضا ، فهو مناسب للمقتدر ،
يقال : ملكت العجين إذا شددت عجنه ، فالمتقي ما نال مقعد الصدق إلا من كونه محقا ، لأنه صادق في تقواه« عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ »عند ملك ماضي الكلمة في ملكه ، لأنهم كل ما همّوا به انفعل لهم ، وحكم الاقتدار ما هو حكم القادر ،
فالاقتدار حكم القادر في ظهور الأشياء بأيدي الأسباب ، والأسباب هي المتصفة بكسب القدرة ، فهو تعالى المقتدر على كل ما يوجده عند سبب أو بسبب ، كيف شئت قل ، فما أوجده على أيدي الأسباب هو قوله :(مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا) وليست سوى الأسباب
- اعتبار -
اعترضت لي عقبة *** وسط الطريق في السفر
فأسفرت عن محن *** فيمن طغى أو من كفر
من دونها جهنم *** ذات زفير وسعر
ترمي من الغيظ وجوه *** المجرمين بشر
ربحورها قد سجرت *** وسقفها قد انفطر

ص 231

وشمسها قد كورت *** ونجمها قد انكدر
أتيتكم أخبركم *** لتعرفوا معنى الخبر
ولا تقولوا مثل من *** قال فما تغني النذر؟
فكان من أمرهم *** ما قد سمعتم وذكر
قالوا : وقد دعاكم *** الداعي إلى شيء نكر
فيخرجون خشّعا *** مثل الجراد المنتشر
شعثا حفاة حسرا *** في يوم نحس مستمر
إلى عذاب وثوى *** إلى خلود في سقر
فلو ترى نبيهم *** حين دعاهم فازدجر
وقد دعا مرسله *** أني ضعيف فانتصر
فقال: ياعين انسكب *** وأنت يا أرض انفجر
حتى التقى الماء على *** أمر حكيم قد قدر
فاصطفقت أمواجه *** وذاكم البحر الزخر
فالحكم حكم فاصل *** والأمر أمر مستقر
وأمره واحدة *** كمثل لمح بالبصر
سفينة قامت من أل *** واح نجاة ودسر
تجري بعين حفظه *** وعدا لمن كان كفر
تسوقها الأرواح عن *** أمر مليك مقتدر
أنزلها الجود على ال *** جودي فقالوا:لا وزر
ناداهم الحق اخرجوا *** منها أنا عين الوزر
حطوا وقالوا : ربنا *** لديك نعم المستقر
فيا سماء أقلعي *** من سح ماء منهمر
وأنت يا أرض ابلعي *** ماءك واخزن واحتكر
قد قضي الأمر فمن *** كان عدوا قد غبر
تركتها تذكرة *** لكم فهل من مدّكر ؟
وكل ما كان وما *** يكون منكم مستطر
وإن ما يفعله *** في الكون من خير وشر
مقدّر مؤقت *** كذا أتانا في الزّبر
الموت سم ناقع *** والحشر أدهى وأمر
سفينكم أجسامكم *** في بحر دنيا قد زخر
وأنتم ركابها *** وأنتم على خطر
ما لكم من ساحل *** غير القضاء والقدر
فابتهلوا واجتهدوا *** فما من الله مفر
هذا الذي أشهدته *** في ليلتي حتى السحر
فازدجروا واعتبروا *** واتعظوا بمن غبر
فالكل والله بلا *** شك على ظهر سفر
ص 232

(55) سورة الرحمن مدنيّة

[سورة الرحمن (55) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمنُ (1)

مبالغة في الرحمة العامة التي تعم الكون أجمعه .

[سورة الرحمن (55) : آية 2]

عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)

[« عَلَّمَ الْقُرْآنَ » الآية :] نصب القرآن ، يعني علّم القرآن أين ينزل من الإنسان ، هل في النفس ، أو في الجنان ؟ وفي أي قلب يكون ويستقر ، وعلى أي قلب ينزل ، فالرحمن علّم القرآن النزول إلى قلوب عباده المؤمنين التي وسعته ، فهو نزول منه إليه .

[سورة الرحمن : (55) آية 3]

خَلَقَ الْإِنْسانَ (3)

[ترتيب الخلائق من العقل إلى الإنسان :]

فعين له الصنف المنزل عليه . اعلم أن الله كان ولا شيء معه ، لم يرجع إليه من إيجاد العالم صفة لم يكن عليها ، بل كان موصوفا لنفسه ، ومسمى قبل خلقه بالأسماء التي يدعونه بها خلقه ، فلما أراد وجود العالم وبدأه على حد ما علمه بعلمه بنفسه ، انفعل عن تلك الإرادة المقدسة بضرب تجل من تجليات التنزيه إلى الحقيقة الكلية ، انفعل عنها حقيقة تسمى الهباء ، هي بمنزلة طرح البناء الجص ليفتح فيها ما شاء من الأشكال والصور ، وهذا هو أول موجود في العالم ، ثم أنه سبحانه تجلى بنوره إلى ذلك الهباء ، والعالم كله فيه بالقوة والصلاحية ، فقبل منه تعالى كل شيء في ذلك الهباء على حسب قوته واستعداده ، كما تقبل زوايا البيت نور السراج ، وعلى قدر قربه من ذلك النور يشتد ضوؤه وقبوله ، فلم يكن أقرب إليه قبولا في ذلك الهباء إلا حقيقة محمد صلّى الله عليه وسلّم المسماة بالعقل ، فكان سيد العالم بأسره ، وأول ظاهر في الوجود ، فكان وجوده من ذلك النور الإلهي ، ومن الهباء ومن الحقيقة الكلية ، وفي الهباء وجد عينه ، وعين العالم من تجليه ، ثم انتهى ترتيب نضد العالم وإيجاده إلى الإنسان ، فهو آخر المولّدات ، وهو نظير العقل الأول وبه ارتبط ، لأن الوجود دائرة ، فكان ابتداء الدائرة وجود العقل الأول الذي ورد في الخبر أنه أول ما خلق الله العقل ؛ فهو أول الأجناس وانتهى الخلق إلى الجنس الإنساني فكملت الدائرة ، واتصل الإنسان بالعقل كما يتصل آخر الدائرة بأولها ، فكانت دائرة ، وما بين طرفي الدائرة جميع ما خلق الله من أجناس العالم ، بين العقل الأول الذي هو القلم أيضا ، وبين الإنسان الذي هو الموجود الآخر ، ولما كانت الخطوط الخارجة من النقطة التي في وسط الدائرة إلى المحيط الذي وجد عنها ، تخرج على السواء لكل جزء من المحيط ، كذلك نسبة الحق تعالى إلى الموجودات نسبة واحدة فلا يقع هناك تغيير البتة ، كانت الأشياء كلها ناظرة إليه ، وقابلة منه ما يهبها ، نظر أجزاء المحيط إلى النقطة ، واعلم أن الله ما خلق العالم الخارج عن الإنسان إلا ضرب مثال للإنسان ، ليعلم

ص 233

أن كل ما ظهر في العالم هو فيه ، فكل مولد يجمع حقائق ما فوقه حتى ينتهي إلى الإنسان ، وهو آخر مولد ،[الإنسان الكامل إنسان عين الوجود :]
فتجمع فيه جميع قوى العالم والأسماء الإلهية بكمالها فسمي إنسانا لعموم نشأته وحصره الحقائق كلها ، وهو للحق بمنزلة إنسان العين من العين الذي يكون به النظر ، وهو المعبر عنه بالبصر ، فلهذا سمي إنسانا ، فإنه به نظر الحق سبحانه إلى خلقه فرحمهم ، فلا موجود أكمل من الإنسان الكامل ، ومن لم يكمل في الدنيا من الأناسي فهو حيوان ناطق ، جزء من الصورة ، لا يلحق بدرجة الإنسان ، بل نسبته إلى الإنسان نسبة جسد الميت إلى الإنسان ، فهو إنسان بالشكل لا بالحقيقة ، فالإنسان هو العين المقصودة ، وهو مجموع الحكم ، ومن أجله خلقت الجنة والنار ، والدنيا والآخرة ، والأحوال كلها والكيفيات ، وفيه ظهر مجموع الأسماء الإلهية وآثارها ، فهو المنعّم والمعذّب ، والمرحوم والمعاقب ، ثم جعل له أن يعذب وينعم ويرحم ويعاقب ، وهو المكلف المختار ، وهو المجبور في اختياره ، وله يتجلى الحق بالحكم والقضاء والفصل ، وعليه مدار العالم كله ، ومن أجله كانت القيامة ، وبه أخذ الجان ، وله سخر ما في السماوات وما في الأرض ، ففي حاجته يتحرك العالم كله علوا وسفلا ، دنيا وآخرة ، وجعل نوع هذا الإنسان متفاوت الدرجات ، فسخر بعضه لبعضه ، وسخره لبعض العالم ليعود نفع ذلك عليه ، فما سخر إلا في حقّ نفسه ، وانتفع ذلك الآخر بالعرض ، وما خص أحد من خلق الله بالخلافة إلا هذا النوع الإنساني ، وملّكه أزمة المنع والعطاء ،
فالسعداء خلفاء ونواب ، ومن دون السعداء فنواب لا خلفاء ، ينوبون عن أسماء الله في ظهور حكم آثارها في العالم على أيديهم ، وقدم الله الإنس على الجان في آيات هذه السورة ، وفي قوله تعالى »:خَلَقَ الْإِنْسانَ «فابتدأ به تقديرا ومرتبة نطقية ، تهمما به على الجن ، وإن كان الجن موجودا قبله ، يؤذن بأنه وإن تأخرت نشأته فهو المعتنى به في غيب ربه ، لأنه المقصود من العالم لما خصه به من كمال الصورة في خلقه باليدين
[إشارة واعتبار : العوالم أربعة]
-إشارة واعتبار - <u>اعلم أن العوالم أربعة</u> :
العالم الأعلى وهو عالم البقاء ،
ثم عالم الاستحالة وهو عالم الفناء ،
ثم عالم التعمير وهو عالم البقاء والفناء ،
ثم عالم النسب ،
وهذه العوالم في موطنين : في العالم الأكبر وهو ما خرج عن الإنسان ،
وفي العالم الأصغر وهو الإنسان ،
(فأما العالم الأعلى)
فالحقيقة المحمدية وفلكها الحياة ، نظيرها من الإنسان اللطيفة والروح القدسي ،
ومنهم العرش المحيط ، ونظيره من الإنسان الجسم ، ومن ذلك الكرسي ،
ص 234

ونظيره من الإنسان النفس ،
ومن ذلك البيت المعمور ، ونظيره من الإنسان القلب ،
ومن ذلك الملائكة ونظيرها من الإنسان الأرواح التي فيه والقوى ،
ومن ذلك زحل وفلكه نظيره من الإنسان القوة العلمية والنفس ،
ومن ذلك المشتري وفلكه نظيرها القوة الذاكرة ومؤخر الدماغ ،
ومن ذلك الأحمر وفلكه نظيرهما القوة العاقلة واليافوخ ،
ومن ذلك الشمس وفلكها نظيرهما القوة المفكرة ووسط الدماغ ،
ثم الزهرة وفلكها نظيرهما القوة الوهمية والروح الحيواني ،
ثم الكاتب وفلكه نظيرهما القوة الخيالية ومقدم الدماغ ،
ثم القمر وفلكه نظيرهما القوة الحسية والجوارح التي تحس ، فهذه طبقات العالم الأعلى ونظائره في الإنسان ،
(وأما عالم الاستحالة)
فمن ذلك كرة الأثير وروحها الحرارة واليبوسة وهي كرة النار ونظيرها الصفراء وروحها القوة الهاضمة ، ومن ذلك الهواء وروحه الحرارة والرطوبة ونظيره الدم وروحه القوة الجاذبة ، ومن ذلك الماء وروحه البرودة والرطوبة نظيره البلغم وروحه القوة الدافعة ، ومن ذلك التراب وروحه البرودة واليبوسة نظيره السوداء وروحها القوة الماسكة ، وأما الأرض فسبع طباق ، أرض سوداء ، وأرض غبراء ، وأرض حمراء ، وأرض صفراء ، وأرض بيضاء ، وأرض زرقاء ، وأرض خضراء ، نظير هذه السبعة من الإنسان في جسمه ، الجلد والشحم واللحم والعروق والعصب والعضلات والعظام(وأما عالم التعمير)
فمنهم الروحانيون نظيرهم القوى التي في الإنسان ، ومنهم عالم الحيوان نظيره ما يحس من الإنسان ، ومنهم عالم النبات نظيره ما ينمو من الإنسان ، ومن ذلك عالم الجماد نظيره ما لا يحس من الإنسان(وأما عالم النسب)
فمنهم العرض ثم الكيف ثم الكم ثم الأين ، ثم الزمان ، ثم الإضافة ، ثم الوضع ثم أن يفعل ثم أن ينفعل ، وكلها تنسب إلى الإنسان ، ومنهم اختلاف الصور في الأمهات كالفيل والحمار والأسد والصرصر ، نظير هذا القوة الإنسانية التي تقبل الصور المعنوية من مذموم ومحمود ، هذا فطن فهو فيل ، هذا بليد فهو حمار ، هذا شجاع فهو أسد ، هذا جبان فهو صرصر وعلم الرحمن الإنسان الأسماء ، والإفصاح عما علمه بقوله :

[سورة الرحمن (55) : آية 4]
عَلَّمَهُ الْبَيانَ (4)
-الوجه الأول - أي القرآن ، وهو عين الهدى ، فإنه قال فيه :(هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ)
ص 235

وهو القرآن (وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) فعلم القرآن قبل الإنسان أنه إذا خلق الإنسان لا ينزل إلا عليه ، فينزل على الإنسان القرآن ليترجم عنه بما علمه الحق من البيان ، الذي لم يقبله إلا هذا الإنسان ، فكان للقرآن علم التمييز ، فعلم أين محله الذي ينزل عليه من العالم ،
وكذلك كان ، فإنه نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلّى الله عليه وسلّم ، ليبين للناس ما نزل إليهم ، ثم لا يزال ينزل على قلوب أمته إلى يوم القيامة ، فهو ينزل على كل قلب تال في حال تلاوته ، فنزوله في القلوب لا يبرح دائما ، جديد لا يبلى
- **الوجه الثاني** -« عَلَّمَهُ الْبَيانَ »بما بيّن له ، فعلم كيف يبين لغيره ، فأبان عن المراد الذي في الغيب ، وعلمه البيان وهو ما ينطق به اللسان ، وعرفه المواطن وكيف يكون فيها
- **الوجه الثالث**– " عَلَّمَهُ الْبَيانَ »وهو الفرقان
- **الوجه الرابع** -« عَلَّمَهُ الْبَيانَ «علّم القرآن تكن نائب الرحمن ، فإن الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ،
فإنه قال فيه :(هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ) وهو القرآن ، فعلم الله القرآن كما علم الإنسان القرآن ، فخيركم من علم القرآن وعلمه

[إشارة : قطع الله حكم الأسباب :]
-**إشارة** - بهذه الآيات الأربع قطع الله حكم الأسباب ، فأضاف الكل إليه تعالى .

[سورة الرحمن (55) : آية 5]

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (5)

ليجمع للإنسان بين ما يثبت على حالة واحدة وبين ما يقبل الزيادة والنقصان ، وذلك ميزان حركات الأفلاك .

[سورة الرحمن (55) : آية 6]

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ (6)

لهذا الميزان ، أي من أجل هذا الميزان ، فالنجم والشجر يسجدان ، وهما ما ظهر وما قام على ساق فعلا ، حكمت بذلك القدمان ، فمنه ذو ساق وهو الشجر ، ومنه ما لا ساق له وهو النجم ، فاختلفت السجدتان ، فإن الشجر كل نبات قام على ساق والنجم هو كل نبات لم يقم على ساق ، بل له الطلوع والظهور على وجه الأرض خاصة .

[سورة الرحمن (55) : آية 7]

وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ(7)

ص 236

»وَالسَّماءَ »وهي قبة الميزان« رَفَعَها »في البنيان ، لما ها من الولاية والحكم في الأكوان ، فهي السقف المرفوع على الأركان" وَوَضَعَ الْمِيزانَ "

[" وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ " الآية :]

-الوجه الأول - وضع الميزان في سباحة الكواكب في أفلاكها ، التي هي طرق في السماوات ، لتجري بالمقادير الكائنة في العالم ، على قدر معلوم لا تتعدّاه ، فهي تعطي وتمنع بذلك الميزان الذي وضع الحق لها ، لأنها تشاهد الميزان بيد الحق حين يخفض به ويرفع ، فإذا نظرت إلى من رفعه الحق بميزانه أعطته ما يستحقه مقام الرفع ، وإذا رأت الحق يضع بميزانه من شاء أعطته ما يستحقه مقام الوضع ، وذلك هو التسخير الذي ورد في القرآن أنها مسخرات بأمره ، فصاحب الشهود يقول : مطرنا بفضل الله ورحمته ؛ بالوزن الذي جعله في سباحة كوكب من الكواكب ، وما قدره الله له من المنازل التي ينزل فيها ،

والمحجوب عن هذا المقام يقول : مطرنا بنوء كذا وكذا ؛

فيذكر الكوكب المجبور في ذلك ويضيف ما ظهر من المطر الصائب إليه ، كما يضيف أفعاله خلقا إلى نفسه ، فسمي عند ذلك كافرا باللّه مؤمنا بمن رأى الفعل منه ، ويسمى الأول مؤمنا باللّه كافرا بمن رأى الحسن الفعل صادرا منه ، من حيث ما هو محل ،

ومن المكلفين من ليس له هذا الشهود ، ولا تركه الإيمان يقف مع الحجاب الذي على عينه ، فيقول مثل ما يقول صاحب الشهود : مطرنا بفضل الله ورحمته ، تقليدا لا علما ، حتى يتميز المؤمن من العالم ، فإن المؤمن يقول ذلك لورود الخبر الصادق به ،

ويقوله صاحب النظر لما يعطيه دليل عقله مثل المؤمن سواء ، إلا أن له درجة زائدة ، وهذان الصنفان لا يبلغان مبلغ صاحب الشهود في الدرجة ، فإنه يزيد عليهما بالعين - الوجه الثاني - « وَوَضَعَ الْمِيزانَ »في الأرض ،

أي وضع ميزانا عندنا في الأرض ، وهو ميزان الشرع ، لنصرفه بحسب وضع الحق ، فلا يتعدى الميزان الذي يطلبه منه ، وهو الميزان الإلهي المشروع ، فمن عرفه ووقف عنده وتأدب بآداب الله التي أدب بها رسله فقد فاز ، وحاز درجة العلم باللّه ، وعلم أن الله وضع الميزان ليظهر به إقامة العدل في العالم بصورة محسوسة ، ليرتفع النزاع بين المتنازعين ، لوجود الكفتين المماثلة للخصمين ، ولسان الميزان هو الحاكم ،

فإلى أية جهة مال حكم لتلك الجهة بالحق ، وإن هو بقي في قبته من غير ميل إلى جهة إحدى الكفتين ، علم أن المتنازعين لكل واحد منهما حق فيما ينازع فيه ، فيقع له الإنصاف لما شهد له به حاكم لسان الميزان ، فارتفع الخصام والمنازعة ، فلو أن اللّه يفتح عين بصائر الخصماء لمشاهدة

ص 237

الحق ، ويعلمون أنه بالمرصاد ، وهو الحاكم وبيده الميزان يرفع ويخفض ، لم يصح نزاع في العالم ، فدل وقوعه أن الكل في حجاب عن الحاكم صاحب الوزن والميزان ، فإذا رأيت من ينازع في العالم فاعلم أنه في حجاب عن الله ، فإنه تعالى وضع الميزان للنقصان والرجحان ، ليزن به الثقلان .

[سورة الرحمن (55 : (آية 8]
أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (8)
لكم بالرجحان وعليكم بالنقصان ، فذلك الإفراط والتفريط من أجل الخسران .

[سورة الرحمن (55) : آية 9]
وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ(9)
" وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ »فإن الله وضع لنا في العالم الموازين الشرعية لنقيم بها الوزن بالقسط ، وهو الاعتدال ، مثل لسان الميزان والكفتين ومثل اعتدال الإنسان ،
إذ الإنسان لسان الميزان ، فلا بد فيه من الميل إلى جانب داعي الحق ، فالواجب إقامة الوزن بالقسط ، فإن رجحت الوزن في القضاء فهو أفضل ، فإنك امتثلت أمر الله ، فإنه ما رجح الميزان حتى اتصف بالإقامة التي هي حد الواجب ثم رجح ،
والذي يخسر الميزان ما بلغ بالوزن حد الإقامة حتى يحصل الواجب ، مثل ما فعل المرجح ، فما حمدنا المرجح إلا لحصول إقامة الوزن لا للترجيح ، ثم أثنينا عليه ثناء آخر بالترجيح ، فالمرجح محمود من وجهين ، وحمده من جهة الإقامة أعلى لأنه الحمد الوجوبي »وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ »وهو الموزون من الأعيان ، فلا تفرطوا بترجيح إحدى الكفتين إلا بالفضل ، فإنه إذا أقيمت موازين الشرع الإلهي في العالم سرى العدل في العالم .
واعلم أنه ما من صنعة ولا مرتبة ولا حال ولا مقام إلا والوزن حاكم عليه علما وعملا ، فللمعاني ميزان بيد العقل يسمى المنطق ، يحوي على كفتين تسمى المقدمتين ،
وللكلام ميزان يسمى النحو ، يوزن به الألفاظ ، لتحقيق المعاني التي تدل عليه ألفاظ ذلك اللسان ، ولكل ذي لسان ميزان ، فالأمر محصور في علم وعمل ،
<u>والعمل على قسمين :</u> **حسي وقلبي** ،
<u>والعلم على قسمين :</u> **عقلي وشرعي** ،
وكل قسم على وزن معلوم عند الله في إعطائه ، وطلب من العبد لما كلفه أن يقيم الوزن بالقسط ، فلا يطغى فيه ولا يخسره ، وميزان العمل حسي وقلبي ، كل من جنسه ، فميزان العمل أن ينظر إلى

ص 238

الشرع ، وكيف أقام صور الأعمال على أكمل غاياتها ، قلبيا كان ذلك العمل أو حسيا ، أو مركبا من حس وقلب ، كالنية والصلاة من الحركات الحسية ،
فقد أقام الشرع لها صورة روحانية يمسكها عقلك ،
فإذا شرعت في العمل فلتكن عينك في ذلك المثال الذي أخذته من الشارع ، واعمل ما أمرت بعمله في إقامة تلك الصورة ،
فإذا فرغت منها قابلها بتلك الصورة الروحانية ، المعبر عنها بالمثال الذي حصلته من الشارع ، عضوا عضوا ومفصلا مفصلا ظاهرا وباطنا ،
فإن جاءت الصورة فيها بحكم المطابقة من غير نقصان ولا زيادة ، فقد أقمت الوزن بالقسط ولم تطغ فيه ولم تخسره ، فإن الزيادة في الحد عين النقص في المحدود ،
وقد قال تعالى :(لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)وهو معنى(أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ)(وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)وهو قوله »: وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ «
فطلب العدل من عباده في معاملتهم مع الله ، ومع كل ما سوى الله من أنفسهم وغيرهم ، فإذا وفق الله العبد لإقامة الوزن ،
فما أبقى له خيرا إلا أعطاه إياه ، وترجيح الميزان في موطنه هو إقامته ، وخفة الميزان في موطنه إقامته ، فهو بحسب المقامات ، فالمحقق هو الذي يقيم الميزان في العلم والعمل ، على حسب ما يقتضيه الموطن ، من الرجحان والخفة في الموزون ، بالفضل في موضعه والاستحقاق ،
فإن النبي صلّى الله عليه وسلّم ندب في قضاء الدين وقبض الثمن إلى الترجيح ، فقال : [أرجح له] حين وزن له ، فما أعطاه خارجا عن استحقاقه بعين الميزان ،
فهو فضل لا يدخل الميزان ، إذ الوزن في أصل وضعه إنما وضع للعدل لا للترجيح ، وكل رجحان يدخله فإنما هو من باب الفضل ، وإن الله لم يشرع قط الترجيح في الشر جملة واحدة ، وإنما قال :(وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ)
وقال :(وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها)ولم يقل : أرجح منها ،
وقال :(فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ (ولم يقل : بأرجح(فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)
فرجح في الإنعام[تنبيه وإشارة : خلق الله آدم على صورته :]
-تنبيه وإشارة - جمع الله تعالى في هذه السورة قوله تعالى :(خَلَقَ الْإِنْسانَ)وقوله تعالى :(وَوَضَعَ الْمِيزانَ)فقد خلق الإنسان على صورة الميزان ، وجعل كفتيه يمينه وشماله ، وجعل لسانه قائمة ذاته ، فهو لأي جانب مال ، وقرن الله السعادة باليمين وقرن الشقاء بالشّمال ،
وأمرنا تعالى في قوله :(وَوَضَعَ الْمِيزانَ)أن نقيمه من غير طغيان ولا خسران ، ومن إقامته أن تعلم أن قول الله تعالى : [خلق الله آدم على صورته] فوازن بصورته حضرة موجده ذاتا وصفة وفعلا ، ولا يلزم من الوزن
ص 239

الاشتراك في حقيقة الموزونين ، فإن الذي يوزن به الذهب المسكوك هو صنجة حديد ، فليس يشبهه في ذاته ولا صفته ولا عدده ، فيعلم أنه لا يوزن بالصورة الإنسانية إلا ما تطلبه الصورة ، بجميع ما تحوي عليه ، بالأسماء الإلهية التي توجهت على إيجاده وأظهرت آثارها فيه ، وكما لم تكن صنجة الذهب توازن الذهب في حد ولا حقيقة ولا صورة عين ، كذلك العبد وإن خلقه الله على صورته ، فلا يجتمع معه في حد ولا حقيقة ، إذ لا حد لذاته ، والإنسان محدود بحد ذاتي لا رسمي ولا لفظي ، وكل مخلوق على هذا الحد ، والإنسان أكمل المخلوقات وأجمعها من حيث نشأته ومرتبته ، فإذا وقفت على حقيقة هذا الميزان زال عنك ما توهمته في الصورة ، من أنه ذات وأنت ذات ، وأنك موصوف بالحي العالم وسائر الصفات وهو كذلك ، وتبين لك بهذا الميزان أن الصورة ليس المراد بها هذا ، ولهذا جمع في سورة واحدة(خَلَقَ الْإِنْسانَ)(وَوَضَعَ الْمِيزانَ)وأمرك أن تقيمه من غير طغيان ولا خسران ، وما له إقامة إلا على هذا الحد ، فإن الله الخالق وأنت العبد المخلوق ، وكيف للصنعة أن تعلم صانعها ؟ وإنما تطلب الصنعة من الصانع صورة علمه بها لا صورة ذاته ، وأنت صنعة خالقك ، فصورتك مطابقة لصورة علمه بك ، فاعلم بأي ميزان تزن نفسك مع ربك ، ولا تعجب بنفسك ، واعلم أنك صنجة حديد وزن بها ياقوتة يتيمة لا أخت لها ، وإن اجتمعت معها في المقدار فما اجتمعت معها في القدر ولا في الذات ولا في الخاصية ، تعالى الله ، فالزم عبوديتك والزم قدرك .

[سورة الرحمن (55) : آية 10]
وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ (10)
من أجل المشي والمنام .

[سورة الرحمن (55) : آية 11]
فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ (11)
لحصول المنافع ودفع الآلام .

[سورة الرحمن (55) : آية 12]
وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ (12)
وهو ما يقوت الإنسان والحيوان .

[سورة الرحمن (55) : آية 13]
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (13)
« فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ »[كان الجن أحسن استماعا لسورة الرحمن من الإنس :]
أيها الإنس والجان ، وقد غمر كما بالإنعام والإحسان ، ولما تلا
ص 240

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سورة الرحمن - العامة لجميع ما خلق الله دنيا وآخرة ، وعلوا وسفلا - على الجن ، فما قال في آية منها :« فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ »إلا قالت الجن : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ؛ فمدحهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه بحسن الاستماع ، حين تلاها عليهم ولم يقولوا شيئا من ذلك ،

فقال لهم : [لقد تلوتها على إخوانكم من الجن فكانوا أحسن استماعا لها منكم ، وذكر الحديث]

وفيه [فما قلت لهم« فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ »إلا قالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب] فكان ذلك المدح في شرف الجن علينا ، ولم يكن سكوت الصحابة عن جهل بأن الآلاء من الله ، ولا أن الجن أعرف منهم بنسبة الآلاء إلى الله ، ولكن الجن وفّت بكمال المقام الظاهر حيث قالت : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ؛ فإن الموطن يقتضيه ، ولم تقل ذلك الصحابة من الإنس حين تلاها عليهم ، شغلا منهم بتحصيل علم ما ليس عندهم مما يجيء به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ،

فشغلهم ذلك الحرص على تعمير الزمان الذي يقولون فيه ما قالت الجن ، أن يقول النبي صلّى الله عليه وسلّم ما يقول من العلم ، فيستفيدون ،

فهم أشد حرصا على اقتناء العلم من الجن ، والجن أمكن في توفية الأدب بما يقتضيه هذا الموطن من الجواب من الإنس ،

فمدحهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بما فضلوا به على الإنس ،

وما مدح الإنس بما فضلوا به على الجن ، من الحرص على مزيد العلم بسكوتهم عنده تلاوته ، ولا سيما والحق يقول لهم :(وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا)والسورة واحدة في نفسها ، كالكلام غير التام ، فهم ينصتون حتى يتمها ، فجمع الصحابة من الإنس بين فضيلتين لم يذكرهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وذكر فضل الجن فيما نطقوا به ، فإن نطقهم تصريح بالعبودية بلسان الظاهر ، وهم بلسان الباطن أيضا عبيد ،

فجمعوا بين اللسانين بهذا النطق والجواب ، ولم يفعل الإنس من الصحابة ذلك عند التلاوة ، فنقصهم هذا اللسان ، فكان توبيخ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إياهم تعليما بما تستحقه المواطن ، أعني مواطن الألسنة الناطقة ليتنبهوا ، فلا يفوتهم ذلك من الخير العملي ، فإنهم كانوا في الخير العلمي في ذلك الوقت ، وحكم العمل في موطنه لا يقاومه العلم ، فإن الحكم للموطن ، وحكم العلم في موطنه لا يقاومه العمل ، فنبّه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الصحابة على الأكمل في موطنه ، وهو المعلم فنعم المؤدب ، وانظر ما أعلم الجن بحقائق ما خوطبوا ، كيف أجابوا بنفس ما خوطبوا به ، حتى بالاسم الرب ، ولم يقولوا : يا إلهنا ولا غير ذلك ، ولم يقولوا : ولا بشيء منها ؛ وإنما قالوا : من آلائك ؛ كما

ص 241

قيل لهم ، لاحتمال أن يكون الضمير يعود على نعمة مخصوصة في تلك الآية ، وهم يريدون جميع الآلاء حتى يعم التصديق .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 14 إلى 15]
خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (15)

فالإنسان ما يفخر إلا بالجان ، وبما في الجان من الضلال كان الصلصال ، وهو الثناء الذميم على من خلق في أحسن تقويم ، فيبقى الإنسان على التقديس ، ويأخذ صلصاله إبليس ، فيرجع أصله إليه ، ويحور وباله عليه ، والجياد على أعراقها تجري ، ونجومها في أفلاكها تسبح ، وتسري

-باب في خلق الجان -

المرج الاختلاط ، والمارج المختلط ، ومنه سمي المرج مرجا لاختلاط النبات فيه ، لأنه يحوي على أخلاط من الأزهار والنبات ، فلما خلق الله الأركان الأربعة دون الفلك ، وأدارها على شكل الفلك ، والكل أشكال في الجسم الكل ،
فأول حركة فلكية ظهر أثرها فيما يليها من الأركان وهو النار ، فأثّر فيه اشتعالا بما في الهواء من الرطوبة ، فكان ذلك الاشتعال واللهب من النار والهواء وهو المارج ، فلما اختلط الهواء بالنار اشتعل وحمي واتقد مثل السراج وأحدث اشتعالا ولهبا ، فتح الله في تلك الشعلة الجان ، وهو في الأصل من عنصرين هواء ونار ،
كما كان آدم من عنصرين ماء وتراب ، عجن به فحدث له اسم الطين ، كما حدث لامتزاج النار بالهواء اسم المارج ، ففتح سبحانه في ذلك المارج صورة الجان ، فبما فيه من الهواء يتشكل في أي صورة شاء ، وبما فيه من النار سخف وعظم لطفه ، وكان فيه طلب القهر والاستكبار والعزة ،
فإن النار أرفع الأركان مكانا ، وله سلطان على إحالة الأشياء التي تقتضيها الطبيعة ، وهو السبب الموجب لكونه استكبر عن السجود لآدم ، عندما أمره الله عزّ وجل ،
بتأويل أداه أن يقول :(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)
يعني بحكم الأصل ، كما في الجان من بقية الأركان ، ولذا سمي مارجا ، ولكن ليس لها في نشأته ذلك السلطان ، فالتكبر في الجان بالطبع للنارية ، فإن تواضع فلأمر يعرض له يقبله بما فيه من الترابية ، كما أن تواضع آدم للطينية بالطبع ،
فإن تكبر فلأمر يعرض له يقبله بما فيه من النارية ، وللجن التشكل في الصور كالملائكة ، وأخذ الله بأبصارنا عنهم فلا نراهم إلا إذا شاء الله أن يكشف لبعض عباده فيراهم ، ولما كانوا من عالم السخافة واللطافة قبلوا التشكل فيما يريدونه من الصور الحسية ، فالصورة الأصلية التي ينسب إليها الروحاني
ص 242

إنما هي أول صورة قبل عندما أوجده الله ، ثم تختلف عليه الصور بحسب ما يريد أن يدخل فيها ، ولما نفخ الروح في اللهب وهو كثير الاضطراب لسخافته ، وزاده النفخ اضطرابا ، وغلب الهواء عليه ، وعدم قراره على حالة واحدة ، ظهر عالم الجان في تلك الصورة ، وكما وقع التناسل في البشر بإلقاء الماء في الرحم ،

فكانت الذرية والتوالد في هذا الصنف البشري الآدمي ، كذلك وقع التناسل في الجان بإلقاء الهواء في رحم الأنثى منهم ،

فكانت الذرية والتوالد في صنف الجان ، وخلق الله الجان شقيا وسعيدا ،

وكذلك خلق الإنس ، وخلق الله الملك سعيدا لاحظ له في الشقاء ، فسمي شقي الإنس والجان كافرا ، وسمي السعيد من الجن والإنس مؤمنا ، وكذلك شرك بينهما في الشيطنة ،

فقال تعالى :(شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ) فمن ثبت على إغوائه من الجن كان شيطانا ،

ومن ثبت على الطاعات لم يكن شيطانا ، وهذا الثبات على الحالين بما في الجن من الترابية ، وبما فيها من المائية ذهبت حمية النارية ، فمنهم الطائع والعاصي مثلنا ، والتوالد من الجن إلى اليوم باق ، وكذلك فينا ،

فأصل أجسام الملائكة نور ، والجن نار مارج ، والإنسان مما قيل لنا ، ولكن كما استحال الإنس عن أصل ما خلق منه ،

كذلك استحال الملك والجن عن أصل ما خلقا منه إلى ما هما عليه من الصور ، فالملائكة أرواح منفوخة في أنوار ، والجان أرواح منفوخة في رياح ، والأناسي أرواح منفوخة في أشباح ، والجن مع كونهم موصوفين باللطافة فهم من نار مركبة ، فيها رطوبة المواد ، والشياطين من الجن هم الأشقياء المبعدون من رحمة الله منهم خاصة ، والسعداء بقي عليهم اسم الجن ، وهم خلق بين الملائكة والبشر الذي هو الإنسان ، فالجن عنصري ولهذا تكبر ، فلو كان طبيعيا خالصا من غير حكم العنصر ما تكبر وكان مثل الملائكة ، فهو برزخي النشأة ، له وجه إلى الأرواح النورية بلطافة النار منه ، فله الحجاب والتشكل ، وله وجه إلينا ، به كان عنصريا ومارجا ، ولما غلب على الجان عنصر الهواء والنار ، لذلك كان غذاؤهم ما يحمله الهواء مما في العظام من الدسم ، فإن الله جاعل لهم فيها رزقا ، فإنا نشاهد جوهر العظم وما يحمله من اللحم لا ينقص منه شيء ، فعلمنا قطعا أن الله جاعل لهم فيها رزقا ، ولهذا قال النبي صلّى الله عليه وسلّم في العظام : [إنها زاد إخوانكم من الجن]

وفي حديث : [إن الله جاعل لهم فيها رزقا]

وأما اجتماع بعضهم ببعض عند النكاح فالتواء ، مثل ما تبصر الدخان الخارج من الأتون أو من فرن الفخار ، يدخل بعضه في بعضه ، فيلتذ

ص 243

كل واحد من الشخصين بذلك التداخل ، ويكون ما يلقونه كلقاح النخلة بمجرد الرائحة كغذائهم سواء ، وهم قبائل وعشائر ، وتقع بينهم حروب عظيمة ، وبعض الزوابع قد يكون عين حربهم ، وما كل زوبعة حربهم ،

[تشكل العالم الروحاني وكيفية تقييده :]
وهذا العالم الروحاني إذا تشكل وظهر في صورة حسية يقيده البصر ، بحيث لا يقدر أن يخرج عن تلك الصورة ما دام البصر ينظر إليه بالخاصية ، ولكن من الإنسان ، فإذا قيده ولم يبرح ينظر إليه ،
وليس له موضع يتوارى فيه ، أظهر له الروحاني صورة جعلها عليه كالستر ، ثم يخيل له مشي تلك الصورة إلى جهة مخصوصة ، فيتبعها بصره ، فإذا تبعها بصره خرج الروحاني عن تقييده ، فغاب عنه ، وبمغيبه تزول تلك الصورة عن نظر الناظر الذي أتبعها بصره ، فإنها للروحاني كالنور مع السراج المنتشر في الزوايا نوره ،
فإذا غاب جسم السراج فقد ذلك النور ، فهكذا هذه الصورة ، فمن يعرف هذا ويحب تقييده لا يتبع الصورة بصره ، وليست الصورة غير الروحاني بل هي عينه ، ولو كانت في ألف مكان أو في كل مكان ومختلفة الأشكال ،
وإذا اتفق قتل صورة من تلك الصور وماتت في ظاهر الأمر ، انتقل ذلك الروحاني من الحياة الدنيا إلى البرزخ ، كما ننتقل نحن بالموت ، ولا يبقى له في عالم الدنيا حديث ، مثلنا سواء ، وتسمى تلك الصورة المحسوسة التي تظهر فيها الروحانيات أجسادا ،
وهو قوله تعالى :(وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ) والفرق بين الجان والملائكة وإن اشتركوا في الروحانية ، أن الجان غذاؤهم ما تحمله الأجسام الطبيعية من المطاعم ، والملائكة ليست كذلك ،
وأعطى الاسم اللطيف الجان أن يجري من ابن آدم مجرى الدم ، ولا يشعر به ، وأورثت اللطافة الجان الاستتار عن أعين الناس ، فلا تدركهم الأبصار إلا إذا تجسدوا ،
قال تعالى :(إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ)، ولما تمت نشأة الموجود الأول من الجان واستقامت بنيته ، توجه الروح من عالم الأمر فنفخ في تلك الصورة روحا ، سرت فيها بوجودها الحياة ، فقام ناطقا بالحمد والثناء لمن أوجده جبلة جبل عليها ،
وفي نفسه عزة وعظمة لا يعرف سببها ، ولا على من يعتز بها ، إذ لم يكن ثمّ مخلوق آخر من عالم الطبائع سواه ، فبقي عابدا لربه ، مصرا على عزته ، متواضعا لربوبية موجده بما يعرض له مما هو عليه في نشأته ، إلى أن خلق آدم ،
فلما رأى الجان صورته ، غلب على واحد منهم اسمه الحارث بغض تلك النشأة ، وتجهم وجهه لرؤية تلك الصورة الآدمية ، فظهر ذلك منه لجنسه ، فعتبوه لذلك لما رأوه عليه من الغم
ص 244

والحزن لها ، فلما كان من أمر آدم ما كان ، أظهر الحارث ما كان يجد في نفسه منه ، وأبى امتثال أمر خالقه بالسجود لآدم ، واستكبر على آدم بنشأته وافتخر بأصله ، وغاب عن سر قوة الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي ، ومنه كانت حياة الجان وهم لا يشعرون ، وكان أول من سمي شيطانا ، أي مبعودا من رحمة الله ، من الجن الحارث ، فأبلسه الله ، أي طرده من رحمته ، ومنه تفرعت الشياطين بأجمعها ، وجعل الله سماع الجن للقرآن إذا تلي عليهم أحسن من سماع الإنس ، فلما تلا عليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سورة الرحمن ، فما قال في آية منها .

[سورة الرحمن (55) : آية 16]
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (16)
إلا قالت الجن : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ؛ وكيف وفي نعمائك نتقلب ، ثم تلاها بعد ذلك صلّى الله عليه وسلّم على الإنس من أصحابه ، فلم يظهر منهم من القول عند التلاوة ما ظهر من الجن ، فقال صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه : [إني تلوت هذه السورة على الجن ، فكانوا أحسن استماعا لها منكم] وذكر الحديث ، كما ذكر تعالى عنهم الإنصات عند سماع القرآن ،
فقال تعالى :(وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا)إلى آخر الآية ، وقال عن الجن :(وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا) إلى آخر الآية ، ولا روي عن أحد من الإنس أنه قال مثل هذا القول .

[سورة الرحمن : (55) آية 17]
رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17)
-**الوجه الأول -** لشروق الشمس وغروبها في زمان الصيف والشتاء
- **الوجه الثاني** »-رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ »في ظاهر النشأتين« وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ »في باطن الصورتين .

[سورة الرحمن (55) : آية 18]
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (18)
يا هذان

[سورة الرحمن (55) : الآيات 19 إلى 20]
مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (19) بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ (20)
أي لا يختلط أحدهما بالآخر ، وإن عجز الحس عن الفصل بينهما ، والعقل يقضي أن

ص 245

بينهما حاجزا يفصل بينهما ، فذلك الحاجز المعقول هو البرزخ ، فلو لا ذلك البرزخ لم يتميز أحدهما عن الآخر ولأشكل الأمر ، فهو خط وهمي بين النقيضين لئلا يقع الالتباس .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 21 إلى 22]
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ (22)
اللؤلؤ هو ما كبر من الجوهر ، والمرجان هو ما صغر منه .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 23 إلى 26]
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (23) وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (24) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (25) كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ (26)
بزوال شكله وصورته وانتقال روحه إلى البرزخ ، فإنه سبحانه ما يسوي صورة محسوسة في الوجود إلا وينفخ الله فيها روحا من أمره ، لا يزال يسبحه ذلك الشكل بصورته وروحه إلى أن يزول ، فينتقل روحه إلى البرزخ ، وقال تعالى »: كُلُّ مَنْ عَلَيْها «ولم يقل : كل من فيها« فانٍ »لأنه إذا كان فيها انحفظ بها وإذا كان عليها تجرد عنها .

[سورة الرحمن (55) : آية 27]
وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (27)
الجلال من صفات الوجه فله البقاء دائما ، وهو من أدل دليل على أن كل ما في الدنيا في الآخرة بلا شك ، قال تعالى :« وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ »فقال قائل : بأي نسبة يكون له هذا البقاء ؟ فقال :« ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ »فرفع بنعت الوجه ، فلو خفض نعت الرب ، وكان النعت بالجلال وله النقيضان ، فيبقى الوجه الذي له النقيضان ولا يفنى ، وإنما يفنى ما كان على هذه الأرض فناء انتقال في الجوهر وفناء عدم في الصورة ، فيظهر مثل الصورة لا عينها في الجوهر الباقي الذي هو عجب الذنب ، الذي تقوم عليه النشأة الآخرة
[نصيحة -للإنسان وجهان : وجه إلى ذاته ووجه إلى ربه]
-نصيحة - اعلم أن للإنسان وجهين : وجها إلى ذاته ووجها إلى ربه ،
ومع أي وجه توجهت غبت عن الآخر ، غير أن هنا لطيفة أنبهك عليها ،
وذلك أنّك إذا توجهت إلى مشاهدة وجهك غبت عن وجه ربك ذي الجلال والإكرام ،
ووجهك هالك ، فإذا انقلبت إليه فني عنك وجهك ، فصرت غريبا في الحضرة تستوحش فيها ، وتطلب وجهك الذي كنت تأنس به

ص 246

فلا تجده ، وإن توجهت إلى وجه ربك وتركت وجهك أقبل عليك ولم يكن لك مؤنس سواه ، ولا مشهود إلا إياه ، فإذا انقلبت إليه الانقلاب الخاص الذي لا بد لكل إنسان منه ، وجدت من كان لك قبل هذا الانقلاب أنيسا وجليسا وصاحبا ، ففرحت بلقائه وعاد الأنس أعظم ، وتتذكر الأنس الماضي فتزيد أنسا على أنس ، وترى عنده وجه ذاتك ولا تفقده ، فتجمع بين الوجهين في صورة واحدة ، فيتحد الأنس لاتحاد الوجهين ، فيعظم الابتهاج والسرور ، فالمؤمن الكامل يكون بباطنه مع الله في كل حال .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 28 إلى 29]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (28) يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29)

« يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ »بلسان حال ولسان مقال ، وهكذا ينبغي أن يكون الملك يستشرف كل يوم على أحوال أهل ملكه ، فما له شغل إلا بها ،

فيقول تعالى :« كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ »

[تعريف الأيام كبيرها وصغيرها :]

اليوم هنا قدر نفس المتنفس في الزمان الفرد ، فإن الأيام كثيرة ، ومنها كبير وصغير ، وأصغر الأيام الزمن الفرد الذي لا يقبل القسمة ،

وعليه يخرج قوله تعالى :« كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فسمى الزمان الفرد يوما ، لأن الشأن يحدث فيه ، فهو أصغر الأزمان وأدقها ،

ولا حد لأكبرها يوقف عنده ، وبينهما أيام متوسطة ، أولها اليوم المعلوم في العرف وتفصّله الساعات ، فاليوم في هذه الآية هو الزمن الفرد في كل شيء الذي لا ينقسم ،

وذلك من اسمه تعالى الدهر ، لأن من صفة الدهر التحول القلب ، والله هو الدهر ،

وثبت أنه يتحول في الصور وأنهكُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، والشأن هو ما يحدثه الله من التغييرات في الأكوان ،

وهو ما نحن فيه وهو يخلقه ، فالشأن ليس إلا الفعل وهو ما يوجده الله في كل يوم من أصغر الأيام ، فوصف الحق نفسه أنه كل يوم في شأن ، يعني أنه هو في شؤون ،

وليست التصريفات والتقليبات والعالم سوى هذه الشؤون التي الحق فيها ،

وذلك راجع إلى التحول الإلهي في الصور الوارد في الصحيح ، فمن هناك ظهر التغيير في الأكوان أبد الآبدين إلى غير نهاية ، لتغير الأصل ، ومن هذه الحقيقة ظهر حكم الاستحالة في العالم ، وهو الشؤون المختلفة ، لأنه ما ثمّ إلا الله والتوجه وقبول الممكنات لما أراد الله بذلك التوجه ،

ص 247

[شؤون الحق أحوال الخلق]
فالحق في شؤون على عدد ما في الوجود من أجزاء العالم الذي لا ينقسم كل جزء منه بهذا الشرط ، فهو في شأن مع كل جزء من العالم ، بأن يخلق فيه ما يبقيه ، سوى ما يحدثه مما هو قائم بنفسه في كل زمان فرد ، وتلك الشؤون أحوال المخلوقين ، وهم المحال لوجودها فيهم ، فإنه فيهم يخلق تلك الشؤون دائما ، وهي الأحوال ،
فهي أعراض تعرض للكائنات يخلقها فيهم ، عبّر عنها بالشأن الذي هو فيه دنيا وآخرة ، فلا يزال العالم مذ خلقه الله إلى غير نهاية في الآخرة والوجود في أحوال تتوالى عليه ، الله خالقها دائما بتوجهات إرادية ، فشئون الحق لا تظهر إلا في أعيان الممكنات ،
وشؤون الحق هي عين استعدادك ، فلا يظهر فيك من شؤون الحق التي هو عليها إلا ما يطلبه استعدادك ، فإن حكم استعداد الممكن بالإمكان أدى إلى أن يكون شأن الحق فيه الإيجاد ،
ألا ترى أن المحال لا يقبله ، فشئون الحق هي أحوال خلقه ، يجددها لهم في كل يوم ، أي زمان فرد ، فلا يتمكن للعالم استقرار على حالة واحدة وشأن واحد ،
لأنها أعراض ، والأعراض لا تبقى زمانين مطلقا ، فلا وجود لها إلا زمان وجودها خاصة ، ثم يعقبها في الزمان الذي يلي زمان وجودها الأمثال والأضداد ،
فأعيان الجواهر على هذا لا تخلو من أحوال ، ولا خالق لها إلا الله ، فالحق في شؤون أبدا ، فإنه لكل عين حال ، فللحق شؤون حاكمة إلى غير نهاية ،
ولا بلوغ غاية ، ولنا الأحوال ، فليس في العالم سكون البتة ، وإنما هو متقلب أبدا دائما ، من حال إلى حال دنيا وآخرة ، ظاهرا وباطنا ، إلا أن ثمّ حركة خفية وحركة مشهودة ،
فالأحوال تتردد وتذهب على الأعيان القابلة لها ، والحركات تعطي في العالم آثارا مختلفة ، ولولاها ما تناهت المدد ولا وجد حكم العدد ، ولا جرت الأشياء إلى أجل مسمى ، ولا كان انتقال من دار إلى دار ، فمن المحال ثبوت العالم زمانين على حالة واحدة ،
بل تتغير عليه الأحوال والأعراض في كل زمان فرد ، وهو الشؤون التي هو الحق فيها ، ولا يظهر سلطان ذلك إلا في باطن الإنسان ، فلا يزال يتقلب في كل نفس في صور تسمى الخواطر ، لو ظهرت إلى الأبصار لرأيت عجبا ،
فلو راقب الإنسان قلبه لرأى أنه لا يبقى على حالة واحدة ، فيعلم أن الأصل لو لم يكن بهذه المثابة لم يكن لهذا التقليب مستند ، فإنه بين إصبعين من أصابع خالقه وهو الرحمن ،
ولما كان الله كل يوم هو في شأن كان تقليب العالم الذي هو صورة هذا القلب من حال إلى حال مع الأنفاس ، فلا يثبت العالم قط على حال واحدة زمانا فردا ، لأن الله

ص 248

خلّاق على الدوام ، ولو بقي العالم على حالة واحدة زمانين لاتصف بالغنى عن الله ، ولكن الناس في لبس من خلق جديد ، والخلق الجديد حيث كان دنيا وآخرة وبرزخا . فمن المحال بقاء حال على عين نفسين أو زمانين للاتساع الإلهي ، لبقاء الافتقار على العالم إلى الله ، فالتغيير له واجب في كل نفس ، والله خالق فيه في كل نفس ، فالأحوال متجددة مع الأنفاس على الأعيان ، لذلك نزل في سورة الرحمن أنه عزّ وجل كل يوم هو في شأن ، والشؤون لا تنحصر فلا تقتصر ، واليوم مقداره النفس ، فراقب الصبح إذا تنفس بما تنفس ، واحذر من الليل إذا عسعس ، فإنه أبلس فيه من أبلس ، فإن الحق سبحانه في كل نفس في الخلق في شأن ، وهو أثره في كل عين موجودة بكيفية خاصة ، فمن فاته مراعاة أنفاسه في الدنيا والآخرة فاته خير كثير ، فإن الحق في كل يوم من أيام الأنفاس في شأن ، ما وكّلته فيه ، فإنه لك يتصرف ولك يصرف فيما استخلفك فيه ، فأنت تتصرف عن أمر وكيلك ، فأنت خليفة خليفتك . واعلم أن الأسماء الإلهية التي يظهر بها الحق في عباده ، وبها يتلون العبد في حالاته ، هي في الحق أسماء وفينا تلوينات ، وهي عين الشؤون التي هو فيها الحق ، فكل حال في الكون هو عين شأن إلهي ، فالعالم كله على الصورة ، وليس هو غير الشؤون التي يظهر بها ، وهذه الانتقالات في الأحوال من أثر كونه كل يوم هو في شأن ، فالشئون الإلهية هي الاستحالات في الدنيا والآخرة ، فلا يزال الحق يخلع صورة فيلحقها بالثبوت والعدم ، ويوجد صورة من العدم في هذا الملأ ، فلا يزال التكوين والتغيير فيه أبدا ، ويتميز الحق عن الخلق بأنه يتقلب في الأحوال ، لا تتقلب عليه الأحوال ، لأنه يستحيل أن يكون للحال على الحق حكم ، بل له تعالى الحكم عليها ، فلهذا يتقلب فيها ولا تتقلب عليه ، فإنها لو تقلبت عليه أوجبت له أحكاما ، وعين العالم ليس كذلك ، تتقلب عليه الأحوال فتظهر فيها أحكامها ، وتقليبها عليها بيد الله تعالى ، ولولا الأحوال ما تميزت الأعيان ، فإنه ما ثمّ إلا عين واحدة تميزت بذاتها عن واجب الوجود ، كما اشتركت معه في وجوب الثبوت ، فله تعالى الثبوت والوجود ، ولهذه العين وجوب الثبوت ، فالأحوال لهذه العين كالأسماء الإلهية للحق ، فكما أن الأسماء للعين الواحدة لا تعدد المسمى ولا تكثّره ، كذلك الأحوال لهذه العين لا تعددها ولا تكثرها ، مع معقولية الكثرة والعدد في الأسماء والأحوال ، فحصل لهذه العين الكمال بالوجود ، الذي هو من جملة الأحوال التي تقلبت عليها ، فما نقصها من الكمال إلا نفي

ص 249

حكم وجوب الوجود ، للتمييز بينها وبين الله ، إذ لا يرتفع ذلك ولا يصح لها فيه قدم ، وهو تعالى في شؤون العالم بحسب ما يقتضيه الترتيب الحكمي ، فشأنه غدا لا يمكن أن يكون إلا في غد ، وشأن اليوم لا يمكن أن يكون إلا اليوم ،

وشأن أمس لا يمكن أن يكون إلا في أمس ، هذا كله بالنظر إليه تعالى ، وأما بالنظر إلى الشأن ، يمكن أن يكون في غير الوقت الذي تكون فيه لو شاء الحق تعالى ،

وما في مشيئته جبر ، ولا تحير ، تعالى الله عن ذلك ، بل ليس لمشيئته إلا تعلق واحد لا غير ، فكل يوم هو في شأن وهو ما يحدث في أصغر يوم في العالم من الآثار الإلهية والانفعالات ، من تركيب وتحليل وتصعيد وتنزيل وإيجاد وشهادة ، وكنّى عزّ وجل عن هذا اليوم الصغير باليوم المعروف في العامة ، فوسّع في العبارة من أجل فهم المخاطبين

وقال :« يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ »فالشأن مسألة السائلين ، فإنه ما من موجود إلا وهو سائله تعالى ، لكن هم على مراتب في السؤال ، فأما الذين لم يوجدهم الله عن سبب فإنهم يسألونه بلا حجاب ، لأنهم لا يعرفون سواه علما وغيبا ،

ومنهم من أوجده الله تعالى عند سبب يتقدمه ، وهو أكثر العالم ،

وهم في سؤاله على قسمين : منهم من لم يقف مع سببه أصلا ولا عرّج عليه ، وفهم من سببه أنه يدله على ربه لا على نفسه ، فسؤال هذا الصنف كسؤال الأول بغير حجاب ،

ومنهم من وقف مع سببه وهم على قسمين : منهم من عرف أن هذا سبب قد نصبه الحق ، وأن وراءه مطلبا آخر فوقه ، وهو المسبب له ، ولكن ما تمكنت قدمه في درج المعرفة لموجد السبب ، فلا يسأله إلا بالسبب ، لأنه أقوى للنفس ،

ومنهم من لم يعرف أن خلف السبب مطلبا ، ولا أن ثمّ سببا ، فالسبب عنده نفس المسبب ، فهذا جاهل ، فسأل السبب فيما يضطر إليه ، لأنه تحقق عنده أنه ربه ، فما سأل إلا الله ، لأنه لو لم يعتقد فيه القدرة على ما سأله فيه لما عبده ، وذلك لا يكون إلا الله ، فهو ما سأل إلا الله ، ومن هذا المقام يجيبه الحق على سؤاله لأنه المسؤول ،

ولكن بهذه المثابة ، فعلى هذا هو المسؤول بكل وجه وبكل لسان ، وعلى كل حال ،

والمشهود له بالقدرة المطلقة النافذة في كل شيء ، فما من جوهر فرد في العالم إلا وهو سائله سبحانه في كل لحظة وأدق من اللحظة ، لكون العالم في كل لطيفة ودقيقة مفتقر إليه ومحتاج ، أولها في حفظه لبقاء عينه ومسك الوجود عليه بخلق ما به بقاؤه ، وليس من شرط السؤال هنا بالأصوات فقط ، وإنما السؤال من كل عالم بحسب

ص 250

ما يليق به ويقتضيه أفقه وحركة فلكه ومرتبته ،
وقد قال تعالى فيما شرّف سليمان به أنه علمه منطق الطير ، فعرف لغتها ، وتبسم ضاحكا من قول النملة للنمل ،
وفي القرآن وفي الأخبار الصحيحة من هذا كثير ، فكلام كل جنس ما يشاكله ، وعلى حسب ما يليق بنشأته ويعطيه استعداد القبول للروحانية الإلهية السارية في كل موجود ، وكل يعمل على شاكلته ، فما من موجود بعد هذا إلا ويتفق منه السؤال ،
فشأنه في كل دقيقة خلق السؤال في السائلين وخلق الإجابة بقضاء الحاجات ، وتنزل على أصحابها بحسب دورة الفلك الذي يخلق منه الإجابة ،
فإن كان الفلك بعيدا أعني حركة التقدير التي بها تنزل على صاحبها بعد كذا وكذا حركة ، فتتأخر الإجابة ، وقد تتأخر للدار الآخرة بحسب حركتها ،
وإن كان فلكها قريبا أعني حركة التقدير التي خلقت الإجابة فيها ، ظهر الشيء في وقته أو يقرب ، ولهذا أخبر النبي عليه السلام أن كل دعوة مجابة ، لكن ليس من شرطها الإسراع في الوقت ، فمنها المؤجل والمعجل ، بحسب الذي بلغ حركة التقدير ،
فلا زال الخالق في شأن ، فلا تزال هذه الأيام دائمة أبدا ، ولا يزال الأثر والفعل والانفعال في الدنيا والآخرة ،
وقد أثبت الحق تعالى دوام هذه الأيام فقال :(خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ)وخلودهم لا يزال ، هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار ، والسماوات والأرض لا تزال ، والأيام دائمة لا تزال دائرة أبدا بالتكوين ، فالتنوعات والتبديلات ينبغي للعاقل أن لا ينكرها ، فإن لله في حق كل موجود في العالم شأنا ،
فانظر في هذا التوسع الإلهي ما أعظمه ، فقد تبين أن الأيام لا تزال أبدا ، والشأن لا يزال أبدا ، فإن العقل لا يزال أبدا ، فلا بد أن يكون الانفعال لا يزال .
[سورة الرحمن (55) : الآيات 30 إلى 31]
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (30) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (31)
[« سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ » الآية :]
وفيه ترتيب الفعل ، وقال تعالى ذلك في حق الثقلين خاصة على طريق الوعيد والتخويف ، حيث لم يجعلوا نواصيهم بيده ، وهو أن يتركوا إرادتهم لإرادته فيما أمر به ونهى ، وما سمى الله الإنس والجان بهذا الاسم إلا ليميزهما بالثقل عمن سواهما ، دائما حيث كانا ، فلا تزال أرواحهما تدبر أجساما طبيعية وأجسادا دنيا وبرزخا وآخرة ، فما لهما نعيم إلا بالمشاكل لطبعهما ، وسمانا الحق بالثقلين لما فينا من الثقل ، ثقل الكون ، وهو عين تأخرنا بالوجود ، فأبطأنا ، ومن عادة الثقيل الإبطاء ، كما أنه من عادة الخفيف الإسراع ، فنحن

ص 251

والجن من الثقلين ونحن أثقل من الجن للركن الأغلب علينا وهو التراب ، فالإنسان آخر موجود في العالم ، فما سمي الإنس والجن بالثقلين إلا لما في نشأتهما من حكم الطبيعة ، فهي التي تعطي الثقل ،
وأما قوله تعالى :« سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ »فمن وجوه
- الوجه الأول - كلمة تهديد للجن والإنسان الحيوان ، لهما يفرغ الحق ليقيم عليهما ميزان ما خلقا له ، والإنسان الكامل لا يتوجه عليه هذا الخطاب
- الوجه الثاني - وصف الحق تعالى نفسه في هذه الآية بأنه لا يفعل أمرا حتى يفرغ من أمر آخر ، مع أنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ، ولكن لخلقه أصناف العالم أزمانا مخصوصة وأمكنة مخصوصة لا يتعدى بها زمانها ولا مكانها ، لما سبق في علمه ومشيئته في ذلك فقال :« سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ »
أي سنفرغ لكم من الشؤون التي قال فيها :(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) في هذه الدنيا ، فيفرغ لنا منا ، ولا شغل له إلا بنا ، فمنا يفرغ لنا ، وتنتقل الشؤون إلى البرزخ والدار الآخرة ، فلا يزال الأمر من فراغ إلى فراغ ، إلى أن يصل أوان عموم الرحمة التي وسعت كل شيء ، فلا يقع بعد ذلك فراغ يحده حال ولا يميزه ، بل وجود مستمر ، ووجوده ثابت مستقر إلى غير نهاية في الدارين ، دار الجنة ودار النار ،
هكذا هو الأمر في نفسه ، فإن الفراغ الإلهي إنما كان من الأجناس في الأيام الستة التي خلق فيها الخلق ، وأما أشخاص الأنواع فلا ، فبقي الفراغ بالأزمان لا عن الأشخاص ، وهو قوله تعالى :« سَنَفْرُغُ لَكُمْ »ففي هذه الآية نسبة الزمان إلى الحق ،
وهو انقضاء المدة التي سبق في علم الله مقدارها ، وهو زمان الحياة الدنيا في كل شخص شخص

- إشارة - في هذه الكلمة »سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ »إشارة للحوق الرحمة بهما ، وذلك في فتح اللام الداخلة على ضمير المخاطب في« لَكُمْ »وإن كان الفتح الإلهي قد يكون بما يسوء كما يكون بما يسر ، ولكن رحمته سبقت غضبه ، وجاء بآلة الاستقبال وهي السين ،
وآخر درجة الاستقبال ما يؤول إليه أمر العالم من الرحمة التي لا غضب بعدها ، لارتفاع التكليف واستيفاء الحدود ، ولما جاء بضمير المخاطب في قوله« لَكُمْ »
وعلمنا من الكرم الإلهي أبدا أنه يرجح جانب السعداء وجانب الرحمة على النقيض لذلك ، جاء بحرف الخطاب ليفتح اللام ، وليعلم بآلة الخطاب أنهم قوم مخصوصون ،
لأنه لا يفقد من العالم ضمير الغائب ، فلا بد له من أهل ،
مثل قوله في السعداء :(لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي (فأتي بضمير الغائب فغابوا عن هؤلاء المخاطبين ، وفتح اللام فتح رحمة تعطيها قرائن الأحوال

ص 252

[تحقيق : من أي حقيقة نودي محمد ص قف إن ربك يصلي]
-تحقيق - من هذه الحقيقة نودي صلّى الله عليه وسلّم لما طلب الدنو في معراجه : يا محمد قف إن ربك يصلي ، أي لا يجمع بين شغلين ، يريد بذلك العناية بمحمد صلّى الله عليه وسلّم ، حيث يقيمه في مقام التفرغ له ، فهو تنبيه على العناية به .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 32 إلى 37]
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (32) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطانٍ (33) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (34) يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ (35) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (36) فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (37)
أي مثل الدهن الأحمر في اللون والسيلان ، فهو ذهاب صورة لا ذهاب عين ، فعادت دخانا أحمر كالدهان السائل ، مثل شعلة النار كما كانت أول مرة.

[سورة الرحمن (55) : الآيات 38 إلى 54]
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (38) فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (40) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ (41) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (42) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (45) وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ (46) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (47) ذَواتا أَفْنانٍ (48) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (49) فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ (50) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (51)فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ (52)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ (54)

ص 253

" جَنَى الْجَنَّتَيْنِ " الحسية والمعنوية للعارفين « دانٍ ».

[سورة الرحمن (55) : آية 55]
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (55)
ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب .

[سورة الرحمن (55) : آية 56]
فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (56)
« فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ »لا تشاهد في نظرها أحسن منه ، ولا يشاهد أحسن منها ، قد زينت له وزين لها ، وطيبت له وطيب لها« لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ »أي أبكار لم يفتضهن أحد.

[سورة الرحمن (55) : الآيات 57 إلى 60]
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ (58) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (59) هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلاَّ الْإِحْسانُ (60)
« هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ »الآية الإحسان رؤية أو كالرؤية ، فالإحسان من الحق رؤية ومن العبد كأنه ؛
قال جبريل عليه السلام لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [ما الإحسان ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنك إن لا تراه فإنه يراك]
وفي رواية [فإن لم تكن تراه فإنه يراك] فأمره أن يخيله ويحضره في خياله على قدر علمه به ، فيكون محصورا له ،
وقال تعالى :« هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ »هل جزاء الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، إلا الإحسان وهو أنك تراه حقيقة ، فالصورة الأولى الإلهية في العبادة مجعولة للعبد من جعله ، فهو الذي أقامها نشأة يعبدها عن أمره عزّ وجل له بذلك الإنشاء ، فجزاؤه أن يراه حقيقة ، جزاء وفاقا في الصورة التي يقتضيها موطن ذلك الشهود ، كما اقتضى تجليه في الصور الإلهية المجعولة من العبد في موطن العبادة والتكليف ، فإن الصور تتنوع بتنوع المواطن والأحوال والاعتقادات من المواطن ، فلكل عبد حال ، ولكل حال موطن ، فبحاله يقول في ربه ما يجده في عقده ، وبموطن ذلك الحال يتجلى له الحق في صورة اعتقاده ، والحق كل ذلك ، والحق وراء ذلك ، فينكر ويعرف ، وينزّه ويوصف ، وعن كل ما ينسب إليه يتوقف.

ص 254

[سورة الرحمن (55) : الآيات 61 إلى 70]
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (61) وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ (62) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (63) مُدْهامَّتانِ (64) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (65) فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ (66) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (67) فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (69) فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ (70)

الخيرات جمع خيرة ، وهي الفاضلة من كل شيء ، والفضل يقتضي الزيادة على ما يقع فيه الاشتراك ، مما لا يشترك فيه من ليس من ذلك الجنس .

[سورة الرحمن : (55) الآيات 71 إلى 72]
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (71) حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ (72)

[من باب الإشارة : « حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ]
مقصورات أي مصونات ، فهن في ستر ، فالقصر هنا صيانة لا سجنا ، فالحياء حبس المقصورات في الخيام ، لئلا تدركهن أبصار الأنام ، وذلك حجاب الغيرة على من يغار عليه من ذوات الخدور ، وهن المحتجبات
- من باب الإشارة لا التفسير –
هم العارفون المجهولون في العالم ، فلا يظهر منهم ولا عليهم ما يعرفون به ، وهم لا يشهدون في الكون إلا الله ، لا يعرفون ما العالم ، لأنهم لا يشهدونه عالما ، وهم طبقة الملامية أهل مقام القربة في الولاية ، وما فوقهم إلا درجة النبوة ، فنبّه تعالى بنعوت نساء أهل الجنة وحورها على نفوس رجال الله الذين اقتطعهم إليه وصانهم ، وحبسهم في خيام صون الغيرة الإلهية في زوايا الكون أن تمتد إليهم عين فتشغلهم .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 73 إلى 76]
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (73) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (74) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (75 (مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ (76)
الاتكاء : الاعتماد.

ص 255

[سورة الرحمن (55) : آية 77]
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (77)
فإن عطايا الحق كلها نعم ، إلا أن النعم في العموم موافقة الغرض ، وعطايا الحق كلها عند العارف إنما هي معارف باللّه جهلها غير العارف وعرفها دون غيره ، وعوارف الحق مننه ونعمه على عباده ، فما أطلعك منها على شيء إلا ليردك منك إليه ، فهو دعاء الحق في معروفه لما رأى عندك من الغفلة عنه ، فتحبب إليك بالنعم .

[سورة الرحمن (55) : آية 78]
تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (78)
[مناسبة الإكرام للجلال :]
الجلال نعت إلهي يعطي في القلوب هيبة وتعظيما ، وبه ظهر الاسم الجليل ، وهو يدل على الضدين ، فيعطى حكمه نعوت التنزيه والتشبيه ، ولحضرة الجلال السبحات الوجهية المحرقة ، ولهذا لا يتجلى في جلاله أبدا ، لكن يتجلى في جلال جماله لعباده ، فهو« ذُو الْجَلالِ »أي صاحب الجلال الذي نجده في نفوسنا« وَالْإِكْرامِ »بنا ،
فالكرم يتبع أبدا الجلال من حيث ما يعطيه وضع الجلال ، فإن السامع إذا أخذ الجلال على العظمة أدركه القنوط ، لعدم الوصول إلى من له العظمة ، لما يرى نفسه عليه من الاحتقار والبعد عن التفات ما يعطيه مقام العظمة إليه ، فأزال اللّه عن وهمه ذلك الذي تخيله بقوله: " وَالْإِكْرامِ »
أي وإن كانت له العظمة ، فإنه يكرم خلقه وينظر إليهم بجوده وكرمه ، نزولا منه من هذه العظمة ، فلما سمع القانط ذلك ، عظم في نفسه أكثر مما كان عنده أولا من عظمته ،
وذلك لأن العظمة الأولى التي كان يعظّم بها الحق كانت لعين الحق عن انكسار من العبد وذلة ، فلما وصف الحق نفسه بأنه يكرم عباده بنزوله إليهم ، حصل في نفس المخلوق أن اللّه ما اعتنى به هذه العناية إلا وللمخلوق في نفس هذا العظيم ذي الجلال تعظيم ،
فرأى نفسه معظما ، فلذلك زاد في تعظيم الحق في نفسه إيثارا لجنابه لاعتناء الحق به على عظمته ، فزاد الحق بالكرم تعظيما في نفس هذا العبد أعظم من العظمة الأولى ،
فإن كرامته بنا إعطاؤنا الوجود ، وهو تعالى كريم بما وهب وأعطى وجاد وامتن به من جزيل الهبات والمنح ، والتزام الجلال والإكرام التزام الألف واللام ، فكان الجلال للتنزيه عن التشبيه ، وكان الإكرام للتنويه به في نفي التشبيه بالشبيه.

ص 256

(56) سورة الواقعة مكيّة

[سورة الواقعة (56) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ (2) خافِضَةٌ رافِعَةٌ (3) إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4) وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا (5)

من أعجب علوم الرجال ما لم يسم فاعله ، مثل رج الأرض وبس الجبال ، وهما دليلان على وقوع الواقعة التي ليس لوقعتها كاذبة .

[سورة الواقعة (56) : آية 6]

فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (6)

فلا بد للجبال من صيرورتها عهنا منفوشا ، وهباء منبثا مفروشا ، فتلحق بالأرض لاندكاكها .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 7 إلى 8]

وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً (7) فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (8)

رأى آدم عليه السلام نفسه بين يدي الحق حين بسط يده ، ورأى نفسه وبنيه في اليد حين اختار يمين الحق ، ويمين الحق تقتضي السعادة ، وما فرق الحق بين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال إلا بالنسبة لآدم ، فهم أصحاب يمين آدم وأصحاب شمال آدم ، فإن بنيه السعداء عن يمينه ، وبنيه الأشقياء عن شماله ،

وكلتا يدي الحق يمين مباركة ، فبنو آدم عن يمينه وعن شماله ، وهو وبنيه في يمين الحق ، فلا يشقى الإنسان ، إذ لو دام الغضب لدام الشقاء ، فالسعادة دائمة وإن اختلف المسكن ، فإن الله جاعل في كل دار ما يكون به نعيم أهل تلك الدار ، فلا بد من عمارة الدارين ، وقد انتهى الغضب في يوم العرض الأكبر ، وأمر بإقامة الحدود فأقيمت ،

وإذا أقيمت زال الغضب ، فإن إرساله يزيله ، فهو عين إقامة الحدود على المغضوب عليه ، فلم يبق إلا الرضا ، وهو الرحمة التي وسعت كل شيء ، فإذا انتهت

ص 247

الحدود صار الحكم للرحمة العامة في العموم .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 9 إلى 11]
وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ (9) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11)
[السابقون هم الأولياء المقربون :]
أهل القربة هم خصوص في السعداء ، أورثهم ذلك المقام المسابقة إلى الخيرات على طريق الاقتصاد ، من إعطاء كل ذي حق حقه ، وذلك بما سبق لهم عند الله ، ومقامهم يسمى مقام القربة في الولاية ، وهم الرجال الذين حلّوا من الولاية أقصى درجاتها ، وما فوقهم إلا درجة النبوة ، اقتطعهم الله تعالى إليه ، وحبسهم في خيام صون الغيرة الإلهية في زوايا الكون أن تمتد إليهم عين فتشغلهم ، لا والله ، ما يشغلهم نظر الخلق إليهم ، لكنه ليس في وسع الخلق أن يقوموا بما لهذه الطائفة من الحق عليهم لعلو منصبها ،
فتقف العباد في أمر لا يصلون إليه أبدا ، فحبس ظواهرهم في خيمات العادات والعبادات ، من الأعمال الظاهرة والمثابرة على الفرائض منها والنوافل ، فلا يعرفون بخرق عادة ،
فلا يعظمون ولا يشار إليهم بالصلاح الذي عرف في العامة ، مع كونهم لا يكون منهم فساد ، فهم الأخفياء الأبرياء الأمناء في العالم ، الغامضون في الناس ،
فيهم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن ربه عزّ وجل : [إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر والعلانية وكان غامضا في الناس]
يريد أنهم لا يعرفون بين الناس بكبير عبادة ، ولا ينتهكون المحارم سرا وعلنا ، فصانهم الحق بأداء الفرائض في الجماعات والدخول مع الناس في كل بلد بزي ذلك البلد ،
ولا يوطن مكانا في المسجد ، وتختلف أماكنه في المسجد الذي تقام فيه الجمعة ، حتى تضيع عينه في غمار الناس ،
وإذا كلم الناس فيكلمهم ويرى الحق رقيبا عليه في كلامه ، وإذا سمع كلام الناس سمع كذلك ، ويقلل من مجالسة الناس إلا من جيرانه ، حتى لا يشعر به ، ويقضي حاجة الصغير والأرملة ، ويلاعب أولاده وأهله بما يرضي الله تعالى ، ويمزح ولا يقول إلا حقا ،
وإن عرف في موضع انتقل عنه إلى غيره ، فإن لم يتمكن له الانتقال استقضى من يعرفه وألح عليهم في حوائج الناس حتى يرغبوا عنه ، هذا كله ما لم يرد الحق إظهاره وشهرته من حيث لا يشعر ، وإنما نالت هذه الطائفة هذه المرتبة عند الله لأنهم صانوا قلوبهم أن يدخلها غير الله ، أو تتعلق بكون من الأكوان سوى

ص 258

الله ، فليس لهم جلوس إلا مع الله ، ولا حديث إلا مع الله ، فهم بالله قائمون ، وفي الله ناظرون ، وإلى الله راحلون ومنقلبون ،
وعن الله ناطقون ، ومن الله آخذون ، وعلى الله متوكلون ، وعند الله قاطنون ، فما لهم معروف سواه ، ولا مشهود إلا إياه ، صانوا نفوسهم عن نفوسهم فلا تعرفهم نفوسهم ، فهم في غيابات الغيب محجوبون ، هم ضنائن الحق المستخلصون ،
يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق مشي ستر وأكل حجاب ، فهم التابعون للرسل على بصيرة ، العاملون بمن اتبعوه وفيما اتبعوه ، وهم العارفون بمنازل الرسل ومناهج السبل من الله ومقاديرهم عند الله ، فهم المقربون بين أسمائه وأنبيائه ،
وهم بين يدي الله في مقابلة الذات الموصوفة باليدين ، فإنهم لتنفيذ الأوامر الإلهية في الخلق في كل دار ، وأما أهل اليمين فليس لهم هذا التصريف ،
بل هم أهل سلامة وبراءة لما كانوا عليه - وهم عليه - من قوة الحكم على نفوسهم وقمع هواهم باتباع الحق ، وأما أهل اليد الأخرى فهم أصحاب الشمال وأما المقربون فهم .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 12 إلى 22]
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14) عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ (16) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ (19) وَفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22)
الحور في العين الشديد شديد بياضه ، الشديد شديد سواده .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 23 إلى 33]
كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (24) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً (25) إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً (26) وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30) وَماءٍ مَسْكُوبٍ (31) وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (33)

ص 259

[كيف تكون الفاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة]
يتأول ذلك من لا علم له بحمله على فصول السنة ، أن الفاكهة تنقضي بانقضاء زمانها ثم تعود في السنة الأخرى ، وفاكهة الجنة دائمة التكوين لا تنقطع ،
وهي عندنا كما قال الله :« لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ »فإن الله جاعل لنا في الجنة رزقا يسمى قطفا وتناولا ، كما جعل الله لعالم الجن في العظام رزقا ، وما نرى ينقص من العظم شيء ، ونحن بلا شك نأكل من فاكهة الجنة قطفا دانيا ، مع كون الثمرة في موضعها من الشجرة ما زال عينها ، لأنها دار بقاء لما يتكون فيها ، فهي دار تكوين لا دار إعدام ،
فإن من إدراكات الجنة أن فاكهتها لا مقطوعة ولا ممنوعة ، مع وجود الأكل وارتفاع الحجر ، فيأكلها من غير قطع بمجرد القطف وقربه من الشخص ،
وعدم امتناعها من القطف ، ووجود الأكل وبقاء العين في غصن الشجرة ، فتشاهدها غير مقطوعة ، وتشاهدها قطفا في يدك تأكلها ،
وتعلم وما تشك أن عين ما تأكله هو عين ما تشهده في غصن شجرته غير مقطوع ، ففاكهة الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، بل قطف دان من غير فقد مع وجود أكل وطيب طعم .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 34إلى 40]
وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34) إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً (35) فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً (36) عُرُباً أَتْراباً (37) لِأَصْحابِ الْيَمِينِ (38) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40)
ثم أخبر تعالى عن ما أعد في جهنم لمن عصاه وأشرك به فقال :

[سورة الواقعة (56) : الآيات 41 إلى 43]
وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43)
اليحموم هو الهواء المظلم .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 44 إلى 46]
لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46)
الإصرار : الإقامة .

ص 260

[سورة الواقعة (56) : الآيات 47 إلى 59]
وَكانُوا يَقُولُونَ أَ إِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَ وَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55) هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56) نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ (57) أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ (58) أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ (59)

ولم يقل تعالى : أأنتم تخلقون منه ولا فيه ، وإنما قال : تخلقونه ، فأراد عين إيجاده منيا خاصة ، والاسم المصور هو الذي يتولى فتح الصورة فيه .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 60 إلى 61]
نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ(61)
[» وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ » الآية :]
- الوجه الأول - الله يحدث نشأة الإنسان مع الأنفاس ولا يشعر
، وفي كل نفس له فينا إنشاء جديد بنشأة جديدة ، ومن لا علم له بهذا فهو في لبس من خلق جديد ، لأن الحس يحجبه بالصورة التي يحس بتغييرها ، مع ثبوت عين القابل للتغيير مع الأنفاس
- الوجه الثاني - من ذلك علمنا أن الله ينشئ كل منشأ فيما لا يعلم
، أي لا يعلم له مثال إلا إن أعلمه الله
- الوجه الثالث - لو كانت إعادة أرواحنا إلى أجسادنا على
هذا المزاج الخاص الذي كان لنا في النشأة الدنيا لم يصح قوله تعالى :« فِي ما لا تَعْلَمُونَ »، فإنه قد قال :(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ)
وقال :(كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) يعني في النشأة الآخرة أنها تشبه النشأة الدنياوية في عدم المثال ، فالأخرى تجديد نشأة أخرى في الكل ، لا يعرفها العقل الأول ولا اللوح المحفوظ ، فاعلم أن الدار داران تسكنهما الأرواح الناطقة ، وهو البدن الطبيعي المسوى المعدل الذي خلقه الله بيديه ووجه عليه صفتيه ، فلما أنشأه أسكنه دارا أخرى هي دار الدار ،
وقسم سبحانه دار الدار قسمين : **قسما سماه الدنيا وقسما سماه الآخرة**

ص 261

، ثم علّم ما يصلح لسكنى كل دار ، من الساكنين الذين هم ديار النفوس الناطقة ، فخلق للدار الدنيا لفنائها وذهاب عينها وتبدل صورتها ووضعها وشكلها وخفاء حياتها ساكنا هو هذه الدار التي أسكنها النفس الناطقة ، فجعل هذه النشأة مثل دار سكناها ،
خفية الحياة فانية ذاهبة العين متبدلة الصورة والوضع والشكل ، فاتصف ساكنها وهو النفس الناطقة بالجهل والحجاب والشك والظن والكفر والإيمان ،
وذلك لكثافة هذه الدار التي هي نشأته البدنية ، وحال بينه وبين شهود الله ،
وجعله في حجر أمه ترضعه وتقوم به ، فما شهد من حين أسكن هذه النشأة سوى عين أمه ، حتى إنه جهل أباه بعض الساكنين ، ولولا أن الله منّ عليه بالنوم ،
وجعل له في ذلك أمرا يسمى الرؤيا في قوة تسمى الخيال ، فإذا نام كأنه خرج عن هذه النشأة فنظر إليه أبوه وسرّ به ، وألقى إليه روحا وآنسه ، وبادرت إليه الأرواح ،
وتراءى له الحق من تنزيهه ، وبدا له ذلك كله في أجساد ألف شهودها من جنس دار نشأته التي فارقها بالنوم ، فيظن في النوم أنه في دار نشأته التي ألفها ويعرفها ،
ويظن في كل ما يراه في تلك المواد أنها على حسب ما شهدها ، فهذا القدر هو الذي له في هذه النشأة الدنيا من الأنس بأبيه وإخوانه من الأرواح ومن الأنس بربه ،
ومنهم من يتقوى في ذلك بحيث إنه يرى ذلك في يقظته ، وأعطاه علما سماه علم التعبير ، عبر به في مشاهدة تلك الصور إلى معانيها ، فإذا أراد الله أن يخلي هذه الدار الدنيا من هذه النشأة التي هي دار النفس الناطقة ، أرحل عن هذه النشأة روحها المدبر لها ،
وأسكنه صورة برزخية من الصور التي كان يلبسها في حال النوم ،
فإذا كان يوم القيامة وأراد الله أن ينقله إلى الدار الأخرى دار الحيوان - وهي دار ناطقة ظاهرة الحياة ثابتة العين غير زائلة - أنشأ لهذه النفس الناطقة دارا من جنس هذه الدار الأخرى ، مجانسة لها في صفتها ، لأنها لا تقبل ساكنا لا يناسبها ، فخلق نشأة بدنية طبيعية للسعداء عنصرية للأشقياء ، فسواها فعدلها ، ثم أسكنها هذه النفس الناطقة ، فأزال عنها حجب العمى والجهل والشك والظن وجعلها صاحبة علم ونعيم دائم ، وأراها أباها ففرحت به ،
وأراها خالقها ورازقها ، وعرف بينها وبين إخوتها وانتظم الشمل بالأحباب ، وأشهدها كل شيء كان في الدار الأولى غائبا ، وأسكن هذه النشأة الدار الأخرى المسماة جنة منها ، فإنه قسّم الدار الأخرى إلى منزلين : هذا هو المنزل الواحد ، والمنزل الآخر المسمى جهنم ، جعل نشأة بدن أنفسها الناطقة عنصرية تقبل التغيير ، وأصحبها الجهل

ص 262

وسلب عنها العلم ، فأعطى جهل المؤمنين من أهل التقليد من كان من أهل هذه الدار دار الشقاء عالما بدقائق الأمور ،
فدخل بذلك الجهل النار إذ كان من أهلها وهي لا تقبل العلماء ، وأعطى هذا العالم الذي كان في الدنيا عالما بدقائق الأمور ولم يكن من أهل الجنة جهل المؤمن المقلد ، فإن الجنة ليست بدار جهل ،
فيرى المؤمن الأبله المقلد ما كان عليه من الجهل على ذلك العالم فيستعيذ بالله من تلك الصفة ، ويرى قبحها ويشكر الله على نعمته التي أعطاه إياها ، بما كساه وخلع عليه من علم ذلك العالم الذي هو من أهل النار ، وينظر إليه ذلك العالم فيزيد حسرة إلى حسرته ،
ويعلم أن الدار أعطت هذه الحقائق لنفسها فيقول :(يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)لعلمهم إذا كانوا مؤمنين وإن كانوا جاهلين أنهم إذا انتقلوا إلى دار السعادة خلعت عنهم ثياب الجهالة ،
وخلع عليهم خلع العلم فلا يبالون بما كانوا عليه من الجهل في الدنيا لحسن العاقبة ، وما علموا أنهم لو ردوا إلى الدنيا في النشأة التي كانوا عليها لعادوا إلى حكمها.
واعلم أن العلم هو السعادة ، وأن الله إذا أراد شقاوة العبد أزال عنه العلم ،
فإنه لم يكن العلم له ذاتيا بل اكتسبه ، وما كان مكتسبا فجائز زواله ويكسوه حلة الجهل ،
فإن عين انتزاع العلم جهل ، ولا يبقى عليه إلا العلم بأنه قد انتزع عنه العلم ،
فلو لم يبق الله تعالى عليه هذا العلم بانتزاع العلم لما تعذب ،
فإن الجاهل الذي لا يعلم أنه جاهل فرح مسرور ، لكونه لا يدري ما فاته ،
فلو علم أنه فاته خير كثير ما فرح بحاله ، ولتألم من حينه ، فما تألم إلا بعلمه ما فاته ،
أو مما كان عليه فسلبه ، والإنسان في الآخرة مقلوب النشأة ، فباطنه ثابت على صورة واحدة كظاهره هنا ، وظاهره سريع التحول في الصور كباطنه هنا ،
وعلى ذلك الحكم يكون تصرف ظاهر النشأة الآخرة ، فينعم بجميع ملكه في النفس الواحد ، ولا يفقده شيء من ملكه من أزواج وغيرهن دائما ولا يفقدهم ،
فهو فيهم بحيث يشتهي ، وهم فيه بحيث يشتهون ، فإنها دار انفعال سريع لا بطء فيه ، كباطن هذه النشأة الدنياوية في الخواطر التي لها .

[سورة الواقعة (56) : آية 62]
وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ (62)
نشأة الخلق وأحوالهم ، وما يكون منهم في القيامة والدارين ، على غير نشأة الدنيا وإن أشبهتها في الصورة ، ولذلك قال :(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ)أن النشأة
ص 263

الدنيا كانت على غير مثال سبق كما هو الأمر في نفسه ، كذلك ينشئكم فيما لا تعلمون يوم القيامة .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 63 إلى 73]
أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ (63) أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67)
أَ فَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ (70) أَ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ (72) نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ (73)« نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً »أي تذكرة للعلماء« وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ ".

[سورة الواقعة (56) : آية 74]
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74)
[« فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » الآية :]
اعلم أن العظمة حال المعظّم - اسم فاعل - لا حال المعظّم - اسم مفعول - إلا أن يكون الشيء يعظم عنده ذاته ، فعند ذلك تكون العظمة حال المعظم ،
لأن المعظم - اسم فاعل - ما عظمت عنده إلا نفسه ، فهو من كونه معظما نفسه كانت الحال صفته ، وما عظم سوى نفسه ، فالعظمة حال نفسه ،
وهذه الحالة توجب الهيبة والإجلال والخوف فيمن قامت بنفسه ، فعظمة الحق في القلوب لا توجبها إلا المعرفة في قلوب المؤمنين ، وهي من آثار الأسماء الإلهية ، فإن الأمر يعظم بقدر ما ينسب إلى هذه الذات المعظمة ، من نفوذ الاقتدار وكونها تفعل ما تريد ، ولا راد لحكمها ولا يقف شيء لأمرها ، فبالضرورة تعظم في قلب العارف بهذه الأمور ،
وهي العظمة الأولى الحاصلة لمن حصلت عنده من الإيمان ،
والمرتبة الثانية من العظمة هي ما يعطيه التجلي في قلوب أهل الشهود والوجود ، من غير أن يخطر لهم شيء من تأثير الأسماء الإلهية ، ولا من الأحكام الإلهية ، بل بمجرد التجلي تحصل العظمة في نفس من يشاهده ، وهذه العظمة الذاتية ،
وقوله تعالى :« فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ »أي لا تنزهه إلا بأسمائه ، لا بشيء من أكوانه ، وأسماؤه لا تعرف إلا منه ، ولا ينزه

ص 263

إلا بها ، فكأن العبد ناب مناب الحق في الثناء عليه بما أثنى هو على نفسه ، لا بما أحدثه العبد من نظره ، ولما نزل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم« فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ »
قال صلّى الله عليه وسلّم لنا : [اجعلوها في ركوعكم]
فاقترن بأمر الله بقوله« فَسَبِّحْ » أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لنا بمكانها من الصلاة ، يقول نزهوا عظمة ربكم عن الخضوع ، فإن الخضوع إنما هو لله ، لا بالله ، فإنه يستحيل أن تقوم به صفة الخضوع ، وأضافه إلى الاسم الرب ، لأنه يستدعي المربوب ،
ثم إن هذا الاسم لما تعلق التسبيح به لم يتعلق به مطلقا من حيث ما يستحقه لنفسه ، وإنما تعلق به مضافا إلى نفس المسبح ،
فقال : [سبحان ربي العظيم] وإنما تعلق به مضافا في حق كل مسبح ، لأن العلم به من كل عالم يتفاضل ، والعالم من الناس يسبح الله بلسان كل مسبح ، وينظر في عظمة الله وتنزيهها عن قيام الخضوع بها ، ويجوز الدعاء في الركوع في الصلاة ، فإن الصلاة معناها الدعاء ، فصح أن يكون الدعاء جزءا من أجزائها ، ويكون من باب تسمية الكل باسم الجزء ، والدعاء في الركوع جاءت به السنة ، وهو مذهب البخاري رحمه الله ، والأدب الصحيح أن ننظر إلى أن الله قد شرع الأدعية في القرآن ، فالعدول عنها إلى ألفاظ من كلام الناس من مخالفة النفس التي جبلت عليها حتى لا توافق ربها ، فإنا كما لا نناجيه في الصلاة إلا بكلامه ، كذلك لا ندعوه إلا بما أنزل علينا وشرعه لنا في القرآن أو في السنة ، مما شرع أن يقال في الصلاة ، وهو أن يقول : [اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي] .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 75 إلى 77]
فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77)
[« إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » الآية - صفة التالي للقرآن بهذا الوصف]
قيد القرآن ووصف هنا بصفة الكرم ، لأنه يؤثر عند من يتلوه بهذا الاستحضار كرم النفس ، بما يؤثر به على نفسه مع وجود الحاجة ، كما آثر به وسعى في قضاء حوائج الناس من مؤمن وغير مؤمن ، ونظر جميع العالم بعين الرحمة ، فرحمه ولم يخص بذلك شخصا من شخص ، ولا عالما من عالم ، بل بذل الوسع في إيصال الرحمة إليهم ، وقبل أعذارهم ،

ص 265

وتحمل أعباءهم ، وجهلهم وأذاهم ، وجازاهم بالإساءة إحسانا ، وبالذنب عفوا ، وعن الإساءة تجاوزا ، وسعى في كل ما فيه راحة لمن سعى له ، ولما كان من المحال أن يعم الإنسان بخلقه ويبلغ به رضى جميع العالم ، لما هو العالم عليه في نفسه من المخالفة والمعاداة ، فإذا أرضى زيدا أسخط عدوه عمرا ، فلم يعم بخلقه جميع العالم ، فلما رأى استحالة ذلك التعميم عدل إلى تصريف خلقه مع الله ، فنظر إلى كل ما يرضي الله فقام فيه ، وإلى كل ما يسخطه فاجتنبه ، ولم يبال ما وافق ذلك من العالم مما يخالفه ، وإذا تصرف التالي في العالم تصرف الحق من رحمته ، وبسط رزقه وكنفه على العدو والولي ، والبغيض والحبيب ، بما يعم مما لا يقدح ، ويخص جناب الحق بطاعته وإن أسخط العدو ، كما خص الحق بتوفيقه بعض عباده ولم يعم كما عم في الرزق ، فمن هذه صفته في حال تلاوته فإنه يتلو القرآن الكريم الذي في كتاب مكنون ، وهو قوله تعالى:

[سورة الواقعة (56) : آية 78]
فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ (78)
يعني بالكتاب المكنون الذي هو صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 79 إلى 80]
لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (80)
وما قال : رب المؤمنين ؛ لعموم الكرم في الرزق والحياة الدنيا .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 81 إلى 83]
أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82) فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ(83)
يعني خروج النفس بالموت .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 84 إلى 85]
وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ (85)
ذلك في حق المحتضر وما خصّ ميتا من ميت ، أي ما خصّ سعيدا في القرب من شقي ، يقول تعالى :« وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ »يعني المحتضر ، فإنه ما فارق الدنيا ، إلا أنه على أهبة

ص 266

الرحيل ، رجله في غرز ركابه ، وهنالك ينكشف له شهودا حقيقة قوله تعالى :(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ) وفي حق طائفة
(وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) غير أن الذين بقيت لهم أنفاس من الحاضرين لا يبصرون معية الحق في أينية هذا العبد ، فإنهم في حجاب عن ذلك ،
وهو قوله تعالى :(وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ)وإنما هو يبصر فإنه مكشوف الغطاء ، فبصره حديد ، ومن وجه آخر« وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ »يعني الأسباب التي أوقف الله وجوده عليه ، أو ربطه به على جهة العلّية أو الشرط« وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ »أي لا تميزون ، يعني نسبته إلينا لا إلى السبب ، يقول : تبصرون ، ولكن لا تعرفون ما تبصرون ، فكأنكم لا تبصرون ، فأثبت قربه إلى الأشياء ونفى العلم بكيفية قربه من الأشياء بقوله »: وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ »فعم البصيرة والبصر ، إذ كان إدراك البصر في الباطن يسمى بصيرة ، فسمي في إدراك المحسوس بصرا ، وفي إدراك المعاني بصيرة ،
قال صلّى الله عليه وسلّم : [إن لله سبعين حجابا من نور وظلمة ، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه]
فانظر ما ألطف هذه الحجب وأخفاها ، فتمنعنا هذه الحجب من رؤيته في القرب العظيم ، وما نرى لهذه الحجب عينا ، فهي أيضا محجوبة عنا ؛ نعم يا ربنا ما نبصرك ولا نبصر الحجب ، فنحن خلف حجاب الحجب ، وأنت منا بمكان الوريد أو أقرب إلينا من أنفسنا ،
فغاية القرب حجاب ، كما أن غاية البعد حجاب ، قصمت الظهور وحيّرت العقول ، فبالحس ما تدرك ، وبالعقل ما تدرك ؛ واعلم أن الشارع أمرنا بتلقين المحتضر عند الموت ، فإن الهول شديد والمقام عظيم ، وهو وقت الفتنة التي هي فتنة المحيا ،
بما يكشفه المحتضر عند كشف الغطاء عن بصره ، فيعاين ما لا يعاينه الحاضر ، ويتمثل له من سلف من معارفه على الصور التي يعرفهم فيها ، وهم الشياطين تتمثل إليه على صورهم بأحسن زي وأحسن صورة ، ويعرفونه أنهم ما وصلوا إلى ما هم فيه من الحسن إلا بكونهم ماتوا مشركين بالله ،
فينبغي للحاضرين عنده في ذلك الوقت من المؤمنين أن يلقنوه شهادة التوحيد ، ويعرفوه بصورة هذه الفتنة لينتبه بذلك ، فيموت مسلما موحدا مؤمنا ، فإنه عندما يتلفظ بشهادة التوحيد ويتحرك بها لسانه ، أو يظهر نورها من قلبه بتذكره إياها ، فإن ملائكة الرحمة تتولاه وتطرد عنه تلك الصور الشيطانية التي تحضره.

ص 267

[سورة الواقعة (56) : الآيات 86 إلى 89]
فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (87) فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89)
الروح ما يستريحون إليه ، والريحان الرزق ، ومنه ما يتغذون به من العلوم الإلهية والتجليات ، والمقرب صاحب سلامة وغنيمة

[إشارة : من قوله تعالى » : فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . . . » الآية [:
-إشارة - « فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَفَرَوْحٌ »لما هو عليه من الراحة ، حيث رآه عين كل شيء« وَرَيْحانٌ »لما رآه عين الرزق الذي يحيى بتناوله« وَجَنَّةُ نَعِيمٍ »أي ستر ينعم به وحده ، لما علم أن كل أحد ما له من الله تعالى هذا المشهد .

[سورة الواقعة (56) : آية 90]
وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (90)
يريد يمين المبايعة التي بيدها الميثاق ، ما يريد يمين الجارحة .

[سورة الواقعة (56) : آية 91]
فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (91)
لما سلم منهم الحق سبحانه وتعالى ، فلم يدّعوا شيئا مما هو له ، وسلّم منهم العالم فلم يزاحموهم فيما هم فيه ، وكانوا مع الحق على نفوسهم في وجودهم ، وما برحوا منهم ، فلهذا سلم منهم كل موجود سواهم ، فهم أصحاب سلامة.

[سورة الواقعة (56) : الآيات 92 إلى 95]
وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94) إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95)
العلم الذي هو حق اليقين هو الذي لا يتطرق إليه تهمة ، فحق اليقين هو حق استقراره في القلب ، أي لا يزلزله شيء عن مقره ، وحق استقراره هو حكمه الذي أوجبه على العلم وعلى العين ، فلا يتصرف العلم إلا فيما يجب له التصرف فيه ، ولا تنظر العين إلا فيما يجب لها النظر إليه وفيه ، فذلك هو حق اليقين.

ص 268

[سورة الواقعة (56) : آية 96]
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)

(57) سورة الحديد مدنيّة

[سورة الحديد (57) : آية 1]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1)« سَبَّحَ لِلَّهِ »فهو المسبّح« ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ »من حيث أعيانهم . واعلم أنه ما في السماوات موضع قدم إلا وهو معمور بملك يسبح الله ، ويذكره بما قد حدّ له من الذكر ، ولله تعالى في الأرض من الملائكة مثل ذلك ، لا يصعدون إلى السماء أبدا ، وأهل السماوات لا ينزلون إلى الأرض أبدا ، كل قد علم صلاته وتسبيحه« وَهُوَ الْعَزِيزُ »المنيع الحمى من هويته« الْحَكِيمُ »بمن ينبغي أن يسبح له .

[سورة الحديد : (57) آية 2]
لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2)
« لَهُ »الضمير يعود على الله من(لِلَّهِ)« مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ »ولهذا يسبحه أهلهما لأنهم مقهورون محصورون في قبضة السماوات والأرض« يُحْيِي »العين« وَيُمِيتُ »الوصف ، فالعين لها الدوام من حيث حييت ، والصفات تتوالى عليها ، فيميت الصفة بزوالها عن هذه العين ويأتي بأخرى« وَهُوَ »الضمير يعود على الله« عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »أي شيئية الأعيان الثابتة ، يقول : إنها تحت الاقتدار الإلهي.

[سورة الحديد (57) : آية 3]
هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3)

- الوجه الأول - ظهرت هذه النسب الأربعة من حيث ما نسب الحق إلى نفسه من الصورة ، ولما كان الأمر الإلهي في التالي أتم منه وأكمل منه في المتلو الذي هو قبله ،

ص 269

أخر الاسم الباطن لما عبر عن هذه النعوت الإلهية ، فالآخر يتضمن ما في الأول ، والظاهر يتضمن ما في الآخر والأول ، والباطن يتضمن ما في الظاهر والآخر والأول ، ولو جاء شيء بعد الباطن لتضمن الباطن وما قبله ، ولكن الحصر منع أن يكون سوى هذه الأربعة ، ولا خامس لها إلا هويته تعالى ، وما ثمّ في العالم حكم إلا من هذه الأربعة ، وعلى صورة هذه الأربعة ظهر عالم الأرواح وعالم الأجسام ، فأقام الحق الوجود على التربيع ، وجعله لنفسه كالبيت القائم على أربعة أركان ،

واعلم أن الذات الأزلية لا توصف بالأولية وإنما يوصف بها الله تعالى ،

فقوله« هُوَ الْأَوَّلُ »الضمير يعود على الله من لله ، والأول خبر الضمير الذي هو المبتدأ ، وهو في موضع الصفة لله ، ومسمى الله إنما هو من حيث المرتبة ، فهو الأول له منزلة الأولية الإلهية ، ومن هذه الأولية صدر ابتداء الكون ومنه تستمد كلها ، وهو الحاكم فيها ، وهي الجارية على حكمه ، ونفى السبب عنه ، فإن أولية الحق تمدّ أولية العبد ، فإن لابتداء الأكوان شواهد فيها أنها لم تكن لأنفسها ثم كانت ، فمعقولية الأولية للواجب المطلق نسبة وضعية لا يعقل لها العقل سوى استناد الممكن إليه ،

فيكون أولا بهذا الاعتبار ، ولو قدر أن لا وجود لممكن - قوة وفعلا - لانتفت النسبة الأولية ، إذ لا تجد متعلقا ، فلما كان أول مخلوق ظهر هو العقل أو القلم الإلهي كان الله الأول بالمرتبة ، فهو الأول بأولية الأجناس وأولية الأشخاص« وَالْآخِرُ »فهو الآخر آخرية الأجناس لا آخرية الأشخاص ، فإليه يعود الأمر كله ، فلله الأولية لأنه موجد كل شيء ، ولله الآخرية فإنه قال :(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)وقال): وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

وقال :(أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (فهو الآخر كما هو الأول ، وما بين الأول والآخر تظهر مراتب الأسماء الإلهية كلها ، فلا حكم للآخر إلا بالرجوع إليه في كل أمر ، وكل مقام إلهي يتأخر عن مقام كوني فهو من الاسم الآخر ، مثل قوله تعالى :(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

وقوله : [من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم]

وقوله : [من تقرب إلي شبرا تقرّبت إليه ذراعا]

وقوله تعالى :(فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) فالأمر يتردد بين الاسمين الإلهيين الأول والآخر ، وعين العبد مظهر لحكم هذين الاسمين

- بحث في الأزل -

اعلم أن الأزل عبارة عن نفي الأولية لمن يوصف به ، وهو وصف لله تعالى من كونه إلها ، وإذا انتفت الأولية عنه تعالى من كونه إلها ، فهو المسمى بكل اسم يسمي به نفسه أزلا ، ولم يزل مسمى بهذه الأسماء ،

ص 270

وانتفت عنه أولية التقييد ، فسمع المسموع وأبصر المبصر إلى غير ذلك ، وأعيان المسموعات منا والمبصرات معدومة غير موجودة ، وهو يراها أزلا كما يعلهما أزلا ، ويميزها ويفصّلها أزلا ولا عين لها في الوجود النفسي العيني ، بل هي أعيان ثابتة في رتبة الإمكان ، فالإمكانية لها أزلا كما هي لها حالا وأبدا ، لم تكن قط واجبة لنفسها ثم عادت ممكنة ، ولا محالا ثم عادت ممكنة ، بل كان الوجوب الذاتي لله تعالى أزلا ،
كذلك وجوب الإمكان للعالم أزلا ، فالله في مرتبته بأسمائه الحسنى يسمى منعوتا وموصوفا بها ، فعين نسبة الأول له نسبة الآخر والظاهر والباطن ،
لا يقال : هو أول بنسبة كذا وآخر بنسبة كذا ، فإن الممكن مرتبط بواجب الوجود في وجوده وعدمه ارتباط افتقار إليه في وجوده ، فإن أوجده لم يزل في إمكانه ، وإن عدم لم يزل عن إمكانه ، فكما لم يدخل على الممكن في وجود عينه بعد أن كان معدوما صفة تزيله عن إمكانه ، كذلك لم يدخل على الخالق الواجب الوجود في إيجاده العالم وصف يزيله عن وجوب وجوده لنفسه ، فلا يعقل الحق إلا هكذا ، ولا يعقل الممكن إلا هكذا ،
فأولية العالم وآخريته أمر إضافي ، فالأول من العالم بالنسبة إلى ما يخلق بعده ، والآخر من العالم بالنسبة إلى ما يخلق قبله ، وليس كذلك معقولية الاسم الله الأول والآخر والظاهر والباطن ،
فإن العالم يتعدد والحق واحد لا يتعدد ، ولا يصح أن يكون أولا لنا ، بل كان ينطلق علينا اسم الثاني لأوليته ، ولبسنا بثان له ، تعالى عن ذلك ، فليس هو بأول لنا ،
فلهذا كان عين أوليته عين آخريته ، فإن الله تعالى هو الأول الذي لا أولية لشيء قبله ، ولا أولية لشيء يكون قائما به أو غير قائم به معه ، فهو الواحد سبحانه ، في أوليته ، فلا شيء واجب الوجود لنفسه إلا هو
[مسألة : العالم لم يبرح من رتبة إمكانه سواء كان معدوما أو موجودا :]
-مسألة - العلة متقدمة على معلولها بالمرتبة بلا شك ، سواء كان ذلك سبق العلم أو ذات الحق ، ولا يعقل بين الواجب الوجود لنفسه وبين الممكن بون زماني ولا تقدير زماني ، وإذا لم يعقل بين الحق والخلق بون زماني فلم يبق إلا الرتبة ،
فلا يصح أن يكون أبدا الخلق في رتبة الحق ، كما لا يصح أن يكون المعلول في رتبة العلة من حيث ما هو معلول عنها ، فالعالم لم يبرح في رتبة إمكانه سواء كان معدوما أو موجودا ، والحق تعالى لم يبرح في مرتبة وجوب وجوده لنفسه سواء كان العالم أو لم يكن ،
فلو دخل العالم في الوجوب النفسي ، لزم قدم العالم ومساوقته في هذه الرتبة لواجب الوجود لنفسه وهو الله ، ولم يدخل ، بل بقي على إمكانه وافتقاره إلى موجده وسببه وهو

ص 271

الله تعالى ، فلم يبق معقول البينية بين الحق والخلق إلا التمييز بالصفة النفسية ، فبهذا نفرق بين الحق والخلق ، أما كون الله علة في وجود العالم فهو أدل دليل على توحيد الله تعالى ، غير أن إطلاق هذا اللفظ عليه لم يرد به الشرع فلا نطلقه عليه ولا ندعوه به ،
فنقول :« هُوَ الْأَوَّلُ »في الوجود« وَالْآخِرُ »في الشهود .
فالأول الحق بالوجود *** والآخر الحق بالشهود
إليه عادت أمور كوني *** فإنما الرب بالعبيد
فكل ما أنت فيه حق *** ولم تزل في مزيد
وهو الإله الظاهر والباطن ، فإنه لما كان العالم له الظهور والبطون ، كان هو سبحانه الظاهر لنسبة ما ظهر منه ، والباطن لنسبة ما بطن منه ، وهو تعالى« الظَّاهِرُ »لنفسه لا لخلقه ، فلا يدركه سواه أصلا ، وأما ما ظهر فإنما هو ظهور أحكام أسمائه الحسنى وظهور أحكام أعياننا في وجود الحق ، وهو من وراء ما ظهر ،
فلا أعياننا تدرك رؤية ، ولا عين الحق تدرك رؤية ، ولا أعيان أسمائه تدرك رؤية ، ونحن لا نشك أنا قد أدركنا أمرا ما رؤية ،
وهو الذي تشهده الأبصار منا ، فما ذلك إلا الأحكام التي لأعياننا ظهرت لنا في وجود الحق ، فكان مظهرا لها ، فظهرت أعياننا ظهور الصور في المرائي ،
ما هي عين الرائي ولا هي عين المجلى« وَالْباطِنُ »البطون يختص بنا كما يختص به الظهور ، وإن كان له البطون فليس هو باطنا لنفسه ولا عن نفسه ، كما أنه ليس ظاهرا لنا ، فالبطون الذي وصف نفسه به إنما هو في حقنا ،
فلا يزال باطنا عن إدراكنا إياه حسا ومعنى ، فإنه ليس كمثله شيء ، ولا تدرك إلا الأمثال ، فظهر الحق باحتجابه فهو الظاهر المحجوب ، فهو الباطن للحجاب لا لك ،
وهو الظاهر لك وللحجاب ، فسبحان من احتجب في ظهوره ، وظهر في حجابه ، فلا تشهد عين سواه ، ولا ترتفع الحجب عنه ، ولا يزال ربا ولم نزل عبيدا في حال عدمنا ووجودنا

- الوجه الثاني - [معنى قوله تعالى : " وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ "]
اعلم أن الحق تسمى بالظاهر والباطن من حيث ما نسب الحق إلى نفسه من الصورة ، فالظاهر للصور التي يتحول فيها ، والباطن للمعنى الذي يقبل ذلك التحول والظهور في تلك الصور ، فهو عالم الغيب من كونه الباطن ، والشهادة من كونه الظاهر ،
وتجلى الحق لكل من تجلى له - من أي عالم كان من عالم الغيب والشهادة - إنما هو من الاسم الظاهر ، وأما الاسم الباطن فمن حقيقة هذه النسبة أن لا يقع فيها تجل أبدا ،

ص 272

لا في الدنيا ولا في الآخرة ، إذ كان التجلي عبارة عن ظهوره لمن تجلى له في ذلك المجلى ، وهو الاسم الظاهر ، فالظاهر للصور والباطن للعين ، فالعين غيب أبدا والصور شهادة أبدا ، وكل زيادة في العلم أي علم كان لا تكون إلا عن التجلي الإلهي ،
فالتجلي الصوري يدرك بعالم الحس في برزخ التمثل لظاهر النفس ، وإذا وقع التجلي بالاسم الظاهر لباطن النفس وقع الإدراك بالبصيرة في عالم الحقائق والمعاني المجردة عن المواد ، وهو المعبر عنها بالنصوص ، فالحق هو الظاهر الذي تشهده العيون ، والباطن الذي تشهده العقول ، فهو مشهود للبصائر والأبصار ، غير أنه لا يلزم من الشهود العلم بأنه هو ذلك المطلوب إلا بإعلام الله ، فكل ما هو العالم فيه من تصريف وانقلاب وتحول من صور في حق وخلق فذلك من حكم الاسم الظاهر ، وهو منتهى علم العالم والعلماء بالله ، وأما الاسم الباطن فهو إليه لا إلينا ، وما بأيدينا منه سوى(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)على بعض وجوه محتملاته ، إلا أن أوصاف التنزيه لها تعلق بالاسم الباطن وإن كان فيه تحديد ، ولكن ليس في الإمكان أكثر من هذا ، فإنه غاية الفهم عندنا الذي يعطيه استعدادنا .
واعلم أن أحوال العالم مع الله على ثلاث مراتب :
مرتبة يظهر فيها تعالى بالاسم الظاهر فلا يبطن عن العالم شيء من الأمر ، وذلك في موطن مخصوص ، وهو في العموم موطن القيامة ؛
ومرتبة يظهر فيها الحق في العالم في الباطن ، فتشهده القلوب دون الأبصار ، ولهذا يرجع الأمر إليه ، ويجد كل موجود في فطرته الاستناد إليه والإقرار به ، من غير علم به ولا نظر في دليل ، فهذا من حكم تجليه سبحانه في الباطن ؛
ومرتبة ثالثة له فيها تجل في الظاهر والباطن فيدرك منه في الظاهر قدر ما تجلى به ، ويدرك منه في الباطن قدر ما تجلى به ، فله تعالى التجلي الدائم العام في العالم على الدوام ، وتختلف مراتب العالم فيه لاختلاف مراتب العالم في نفسها ، فهو يتجلى بحسب استعدادهم ، فهو عند العارفين اليوم في الدنيا على حكم تجليه في القيامة ، فيشهده العارفون في صور الممكنات المحدثات الوجود ، وينكره المحجوبون من علماء الرسوم ، ولهذا يسمى بالظاهر في حق هؤلاء العارفين ، والباطن في حق هؤلاء المحجوبين ،
وليس إلا هو سبحانه ، فأهل الله الذين هم أهله لم يزالوا ولا يزالون دنيا وآخرة في مشاهدة عينية دائمة ، وإن اختلفت الصور فلا يقدح ذلك عندهم ، ولما سمى الله نفسه بالظاهر والباطن ، اقتضى ذلك أن يكون الأمر الوجودي بالنسبة إلينا بين جلي وخفي ، فما جلّاه لنا فهو الجلي ، وما ستره عنا فهو الخفي ، وكل

ص 273

ذلك له تعالى جلي ، ولا يخلو العالم من هاتين النسبتين دنيا وآخرة ، فالجلي من سؤال السائلين يسمعه الحق من الاسم الظاهر ، والخفي منه يسمعه من الاسم الباطن ، فإذا ما أعطاه ما سأل ، فالاسم الباطن يعطيه الظاهر ، والظاهر يعطيه للسائل

- **الوجه الثالث** - اعلم أن الحق سبحانه هو الباطن فلا يظهر لشيء

، لو ظهر لشيء لأحرقت السبحات ما أدركه البصر ، وهو الحافظ للأشياء فلا يظهر لها ، فإن سألت : من الظاهر الذي لا يعرف والباطن الذي لا يجهل ؟

فقل : هو الحق

- **إشارة** - [إشارة : كيف تصح المعرفة بالله ؟]

لا تصح المعرفة بالله لأحد حتى يتعرف إليه ويعرفه بظهوره ، فيبصره من القلب عين اليقين بنور اليقين ، وقد قال عليه السلام مخبرا عن الله

[ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن]

- **الوجه الرابع** - الاسم الظاهر هو ما أعطاه الدليل

، والباطن هو ما أعطاه الشرع من العلم بالله ، والأول بالوجود ، والآخر بالعلم« وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » فالضمير يعود على الضمير الأول في" هُوَ الْأَوَّلُ "

فالأمر من غيب إلى غيب ، وضمير« هُوَ الْأَوَّلُ »يعود على« وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »وذلك الضمير يعود على الله ، وهو الاسم ، والاسم يطلب المسمى ف« لِلَّهِ »الأول« وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »الآخر« هُوَ الْأَوَّلُ »الظاهر« وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »الباطن« وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »عليم بشيئية الأعيان وشيئية الوجود ، من حيث أجناسه وأنواعه وأشخاصه .

إن الذي أظهر الأعيان لو ظهرا *** ما زاد حكما على الأمر الذي ظهرا

هو الجلي الخفي في تصرفه *** فليس يظهر منه غير ما ظهرا

مقدس الذات عن إدراك ما ظهرا *** لكنه يهب الأرواح والصورا

فكل صورة روح عين صورته *** وهو الذي عيّن الأفلاك والبشرا

من آدم خمرت يداه طينته *** بذاك سمي في ما قد روي بشرا

لما أتى من وراء الستر كلمني *** وما رأيت له عينا ولا خبرا

علمت أن حجابي لم يكن أحدا *** غيري فلم أتعب الألباب والفكرا

فما رأيت وجود الحق في أحد *** إلا رأيت له في كونه أثرا

[تحقيق : الحق لا يتصف أبدا بنسبتين مختلفتين كما يقرره العقل :]

-**تحقيق** - النظر العقلي يعطي أن الحق في مرتبة يتقدم فيكون له الاسم الأول ، وفي مرتبة يتأخر فيكون له الاسم الآخر ، والاسم الظاهر له أصل والباطن فرع ، فيحكم له بالأصل من نسبة خاصة ، ويحكم له بالفرع من نسبة أخرى ، وأما ما تعطيه المعرفة الذوقية فهو

ص 274

أنه ظاهر من حيث ما هو باطن ، وباطن من عين ما هو ظاهر ، وأول من عين ما هو آخر ، وكذلك القول في الآخر ،
لا يتصف أبدا بنسبتين مختلفتين كما يقرره العقل من حيث ما هو ذو فكر ،
إذ لو كانت معقولية الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية في نسبتها إلى الحق ، معقولية نسبتها إلى الخلق ، لما كان ذلك مدحا في الجناب الإلهي ،
ولا استعظم العارفون بحقائق الأسماء ورود هذه النسب ، بل يصل العبد إذا تحقق بالحق أن تنسب إليه الأضداد وغيرها ، من عين واحدة لا تختلف ،
وإذا كان العبد يتصور في حقه وقوع هذا ، فالحق أجدر وأولى ، إذ هو المجهول الذات ،
فالحق تعالى عين الضدين ، إذ لا عين زائدة ، فالظاهر عين الباطن والأول والآخر« وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »ذكر ذلك عن نفسه بطريق المدحة لذاته ،
فالعلم من كمال الألوهية ، بل لا تصح الألوهية إلا به ، وهو كونه عالما بكل شيء ، وهذه الآية إشارة لأهل الكشف والصوفية ، تنبيها أنه الوجود كله ،
فإن هذا تقسيمه ، فليس إلا هو ، فلو وقفت النفوس مع ما ظهر لعرفت الأمر على ما هو عليه ، لكن طلبت أمرا غائبا عنها ، فكان طلبها عين حجابها ،
فما قدرت ما ظهر حق قدره ، لشغلها بما تخيلت أنه بطن عنها ، وما بطن شيء ، وإنما عدم العلم أبطنه ، فما في حق الحق شيء بطن عنه ،
فقال تعالى :« وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ »أي الذي تطلبه في الباطن هو الظاهر فلا تتعب ، فمن شم رائحة من العلم بالله لم يقل : لم فعل كذا ؟ وما فعل كذا ؟ وكيف يقول العالم بالله لم فعل كذا ؟ وهو يعلم أنه السبب الذي اقتضى كل ما ظهر وما يظهر ، وما قدم وما أخر ،
وما رتب لذاته فهو عين السبب ، فلا يوجد لعلة سواه ولا يعدم ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، فمشيئته عرش ذاته ، فمن علم نسب الأسماء الإلهية في أعيان الممكنات فتنوعت وتجنست وتشخصت ، علم أنّ سبب ظهور كل حكم في عينه اسمه الإلهي ، وليست أسماؤه سوى نسب ذاتية

- مناجاة -

إلهي كيف أوحدك ولا وجود لي في عين الأحدية ؟ وكيف لا أوحدك والتوحيد سر العبودية ؟
سبحانك لا إله إلا أنت ، ما وحدك من أحد ، إذ أنت كما أنت في سابق الأزل ولا حق الأبد ، فعلى التحقيق ما وحدك أحد سواك ، وفي الجملة ما عرفك إلا إياك ، بطنت وظهرت ، فلا عنك بطنت ، ولا لغيرك ظهرت.
ص 275

[سورة الحديد (57) : آية 4]
هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)
[« وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ » الآية - ولسنا معه :]
« وَهُوَ مَعَكُمْ »بهويته وبأسمائه ، بحسب ما يليق بجلاله من غير تكييف ولا تشبيه ولا تصور ، بل كما تعطيه ذاته وما ينبغي أن ينسب إليها من ذلك ، فإنه القائم على كل شيء ، القائم به كل شيء ، فهو مع كل شيء حيث كان ذلك الشيء ، ليحفظ عليه الوجود« أَيْنَ ما كُنْتُمْ »من الأحوال ، ولا يخلو موجود عن حال ، بل ما تخلو عين موجودة ولا معدومة أن تكون على حال وجودي أو عدمي ، في حال وجودها أو عدمها ،
فهو تعالى مع الخلق بإعطاء كل شيء خلقه من كونهم خلقا ، ومعهم بكل ما تطلبه ذواتهم من لوازمها على أي حالة يكون الخلق عليها ، من الوصف بالعدم أو الوجود ، فهو معكم أينما كنتم أي على أي حال كنتم ، من عدم ووجود وكيفيات ،
وذلك بأسمائه المؤثرة فينا خاصة ، والحافظة لنا والرقيبة علينا ، وأما الأسماء التي تختص بالعالم الخارج عن الثقلين فأسماء أخر ، ما هي الأسماء التي معنا أينما كنا ، فالحق معك على ما أنت عليه بحسب قبولك ، ما أنت معه ،
فلا يصح أن يكون أحد مع الله ، فالله مع كل أحد بما هو عليه ذلك الواحد من الحال ، وكما لم يقيد الحق الاستواء على العرش عن النزول إلى السماء الدنيا ، لم يقيده النزول إلى السماء الدنيا عن الاستواء على العرش ، كما لم يقيده سبحانه الاستواء والنزول عن أن يكون معنا أينما كنا ، بالمعنى الذي يليق به وعلى الوجه الذي يراه ،
فالحكم الذي يصحب الحق ولا يحكم عليه زمان خاص« وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ »
فهو في العرش مع الحافين به ، وفي تلك الحالة هو في النزول مع أرواح العروج والنزول ، وفي تلك الحالة هو في السماء يخاطب أهل الليل ، وفي تلك الحال هو في الأرض ، أي موجود غير الله يوصف بهذه الصفات ؟ ذلكم الله لا إله إلا هو فأنى يصرفون ؛ فأينما كنا كان الحق معنا ، كينونة وجودية منزهة كما يليق به ،
وكان قوله تعالى :« وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ »تصديقا لقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في دعائه ربه [اللهم أنت الصاحب في السفر] فسمى الحق صاحبا ، فهو تعالى الصاحب على كل حال مع العبد

ص 276

في أينيته ، فهو تعالى مع عباده المكلفين يحفظ عليهم أنفاسهم في حدوده التي حدّها لهم ، وهو مع من ليس بمكلّف ينظر ما يفعل معه المكلفون ، بأن لا يتعدوا حدوده ، فهو مع كل شيء بهذه المثابة في الدنيا ، وأما في الآخرة فما هو معهم إلا لحفظ أنفاسهم ولما يوجده فيهم ،
ولم يقل تعالى : وأنتم معه ؛ لأنه مجهول المصاحبة ، فيعلم سبحانه كيف يصحبنا في كل حال نكون عليه ، ونحن لا نصحبه إلا في الوقوف عند حدوده ، فما نصحب على الحقيقة إلا أحكامه لا هو ، فهو معنا ما نحن معه ، لأنه يعرفنا ونحن لا نعرفه ،
فالله مع الخلق ما الخلق مع الله ، لأنه يعلمهم فهو معهم أينما كانوا في ظرفية أمكنتهم وأزمانهم وأحوالهم ، ما الخلق معه تعالى جل جلاله ، فإن الخلق لا تعرفه حتى تكون معه ، وليس بين الحق والعالم بون يعقل أصلا إلا التمييز بالحقائق ،
فالله ولا شيء معه سبحانه ، ولم يزل كذلك ولا يزال كذلك لا شيء معه ، فمعيته معنا كما يستحق جلاله وكما ينبغي لجلاله ، ولولا ما نسب لنفسه أنه معنا لم يقتض العقل أن يطلق عليه معنى المعية ،
كما لا يفهم منها العقل السليم حين أطلقها الحق على نفسه ما يفهم من معية العالم بعضه مع بعض ، لأنه ليس كمثله شيء ، فنقول : إن الحق معنا على حد ما قاله وبالمعنى الذي أراده ، ولا نقول : إنّا مع الحق ؛
فإنه ما ورد والعقل لا يعطيه ، فما لنا وجه عقلي ولا شرعي يطلق به أننا مع الحق ، وأما من نفى عنه إطلاق الأينية من أهل الإسلام فهو ناقص الإيمان ،
فإن العقل ينفي عنه معقولية الأينية ، والشرع الثابت في السنة لا في الكتاب قد أثبت إطلاق الأينية على الله ، فلا تتعدى ولا يقاس عليها ، وتطلق في الموضع الذي أطلقها الشارع ،
قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للسوداء التي ضربها سيدها
[أين الله ؟ فأشارت إلى السماء ، فقبل إشارتها ، وقال : أعتقها فإنها مؤمنة]
لأن الله أخبر عن نفسه أنه في السماء ، فصدقته في خبره فكانت مؤمنة ، ولم يقل صلّى الله عليه وسلّم فيها عند ذلك إنها عالمة ؛ وأمر بعتقها ، والعتق سراح من قيد العبودية ، تنبيه من النبي صلّى الله عليه وسلّم بالعتق في حقها من قيد العبودية والملك ،
على أنه(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)سراح من قيد الأينية وفاء الظرف التي أتت به السوداء ، والسائل بالأينية أعلم الناس بالله تعالى ،
وفي هذه الآية رد على القائل : إن الله تعالى لا يعلم الجزئيات ، فيكون قوله تعالى »:وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ «
هو قوله تعالى :(ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ)الآية ، فهو تعالى ثالث اثنين ، ورابع ثلاثة ، وخامس أربعة ، بالغا ما بلغ ، فهو مع المخلوقين حيث كانوا ، فهو تعالى رفيقنا

ص 277

في كل وجهة نكون فيها ، غير أننا حجبنا ، فسمى انفصالنا عن هذا الوجود الحسي بالموت لقاء الله ، وما هو لقاء وإنما هو شهود الرفيق الذي أخذ الله بأبصارنا عنه ،
فقال : [من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه]
فلم يعرفه المحجوب رفيقا حتى لقيه ، فإذا لقيه عرفه- دلالة هذه الآية على التوحيد -
اعلم أنه مهما نظرت الوجود جمعا وتفصيلا ، وجدت التوحيد يصحبه لا يفارقه البتة ، صحبة الواحد الأعداد ، فإن الاثنين لا توجد أبدا ما لم تضف إلى الواحد مثله ،
وهو الاثنين ، ولا تصح الثلاثة ما لم تزد واحدا على الاثنين ، وهكذا إلى ما لا يتناهى ،
فالواحد ليس العدد وهو عين العدد ، أي به ظهر العدد ، فالعدد كله واحد ،
لو نقص من الألف واحد انعدم الألف وحقيقته ، وبقيت حقيقة أخرى وهي تسعمائة وتسعة وتسعون ، لو نقص منها واحد لذهب عينها ، فمتى انعدم الواحد من شيء عدم ، ومتى ثبت وجد ذلك الشيء ، هكذا التوحيد إن حققته « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ »
إشارة - العالم كله حرف جاء لمعنى ، معناه الله ، ليظهر فيه أحكامه ، إذ لا يكون في نفسه محلا لظهور أحكامه ، فلا يزال المعنى مرتبطا بالحرف ، فلا يزال الله مع العالم ، وهو قوله تعالى :« وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ »
- فائدة - [الجاهل كل الجاهل من طلب الحاصل] غاية العامة إذا كانت مؤمنة أن تعلم أن الله معها ، والفائدة أن تكون أنت مع الله لا في أنه معك ، فكذلك هو الأمر في نفسه ، فمن كان مع الحق فلا بد أن يشهد الحق ، ومن شهده فليس إلا وجود العلم عنده ، فإنه معك أينما كنت ، فلا تقع عينك إلا عليه ، لكن بقي عليك أن تعرفه ، فإن عرفته لم تطلبه ، فإنك لم تفقده ، فإذا رأيت من يطلبه فإنما يطلب سعادته في طريقه ، وسعادته دفع الآلام عنه ، ليس غير ذلك كان حيث كان ، فالجاهل كل الجاهل من طلب الحاصل ، فما أحد أجهل ممّن طلب الله ؛ لو كنت مؤمنا بقوله تعالى« وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ »وبقوله(فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)لعرفت أن أحدا ما طلب الله ، وإنما طلب سعادته حتى يفوز من المكروه« وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ».

[سورة الحديد (57) : (الآيات 5 إلى 7]
لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (6) آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ(7)

ص 278

لما أقام الله الإنسان خليفة فهو وكيل أمره بقوله :« وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ »والاستخلاف نيابة ، فإن المال لله والتصرف لك فيه على حد من استخلفك فيه ، فهي نيابة العبد عن الله ، فإن الله ما خلق الأشياء - والأموال من الأشياء - إلا له تعالى لتسبيحه ،
ووقعت المنفعة لنا بحكم التبعية ، فالوكيل يملك التصرف في مال الموكل ولا يملك المال ، فحد لنا في الوكالة أمورا لا نتعداها ، فما هي وكالة مطلقة مثل ما وكلناه نحن بأمره (فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا) فحد حدودا لنا ، إن تعديناها تعدينا حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ،
فإن زدنا على ما رسم لنا أو نقصنا عاقبنا ، فلو كانت الأموال لنا لكان تصرفنا فيها مطلقا ، وما وقع الأمر هكذا ، بل حجر علينا التصرف فيها ، فما هي وكالة مفوضة ،
بل مقيدة بوجوه مخصوصة من رب المال الذي هو الحق الموكل ،
فأمرنا بالإنفاق بما حد لنا أن ننفقه فيه ، امتثالا وأداء أمانة لمن شاء من عبيده ، فلنا الإنفاق بحكم الخلافة ، والإنفاق ملك لنا ، والإنفاق تصرف ،
فجعلنا الحق عن أمره وكيلا عنا في الإنفاق لقوله تعالى :(فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا)
أي خليفة ، لعلمنا بأنه يعلم من مواضع التصرف ما لا نعلمه ، فهو المالك وهو الخليفة ، فهو أعلم بالمصالح ومواضع الإنفاق التي لا يدخلها حكم الإسراف ولا التقتير ،
فتولى الله الإنفاق علينا بأن ألهمنا حيث ننفق ومتى ننفق ، فإن النفقة على أيدينا تظهر ، فيدنا يد الوكيل في الإنفاق ، فإن الله لما أخبر أن لقوم في أموالهم حقا يؤدونه ، وما له سبب ظاهر تركن النفس إليه لا من دين ولا بيع ،
إلا ما ذكر الله تعالى من ادخار ذلك له ثوابا إلى الآخرة ، شق ذلك على النفوس للمشاركة في الأموال ، ولما علم الله هذا منهم في جبلة نفوسهم ،
أخرج ذلك القدر من الأموال من أيديهم ، بل أخرج جميع الأموال من أيديهم
فقال تعالى :« وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ »أي هذا المال ما لكم منه إلا ما تنفقون منه ، وهو التصرف فيه ، كصورة الوكلاء ، والمال لله ، وما تبخلون به فإنكم تبخلون بما لا تملكون ، لكونكم فيه خلفاء ، وعلى ما بأيديكم أمناء فينبههم بأنهم مستخلفون فيه ، وذلك ليسهل عليهم الصدقات رحمة بهم.

ص 279

[سورة الحديد (57) : الآيات 8 إلى 10]
وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (9) وَما لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10)

« وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ »لما كان بيننا وبين الحق نسب ودين ، لهذا ما يرث الأرض عزّ وجل إلا بعد موت الإنسان الكامل ، حتى لا يقع الميراث إلا في مستحق له ، كما يرث السماء لما فيها من حكم أرواح الأنبياء عليهم السلام ، لا من كونها محلا للملائكة ، فإذا صعقوا بالنفخة ورث الله السماء ، فأنزل الاسم الوارث الملائكة من السماء ، وبدّل الأرض غير الأرض والسماوات« لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ ، أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا »النفقة بعد الهجرة لا يبلغ أجرها أجر النفقة قبل الهجرة ، في أهل مكة ولا في كل موضع يكون العبد مخاطبا فيه بالهجرة منه إلى غيره ، فيعمل فيه خيرا وهو فيه مستوطن ، ثم يعمل خيرا بعد هجرته ، فهذا الخير يتفاضل بقدر المشقة« وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ».

[سورة الحديد (57) : آية 11]
مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11)

الأجور أربعة : أجر مطلق لا يتقيد ، وأجر عظيم ، وأجر كريم ، وأجر كبير ، فالأجور مراتب ، لكل واحد أجر يخصه على صفة مخصوصة ، فينسب كل أجر إلى ما يناسبه .

[سورة الحديد (57) : الآيات 12 إلى 13]
يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(12)

ص 280

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ (13)

»يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا »وهم المؤمنون« انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ »لهم من جانب الحق »ارْجِعُوا وَراءَكُمْ »كما رجعتم عندما رأيتم نور الهدى في الدنيا على أعقابكم ، فكانوا في ظلمة الكون« فَالْتَمِسُوا نُوراً »
هنالكم ولن تجدوه ، انظروا إلى موجدكم هنالكم ، ولن تجدوه ، وقيل لهذه الطائفة ذلك القول وهو حق ، لأن الله من ورائهم محيط وهو النور ، فلو لم يضرب بالسور بينه وبينهم لوجدوا النور الذي التمسوه حين قيل لهم« فَالْتَمِسُوا نُوراً »أي لا يكون لأحد نور إلا من حياته الدنيا ، فإن الحياة الدنيا محل اكتساب الأنوار بالتكاليف ، وإنها دار عمل مشروع ، فهي دار ارتقاء واكتساب ، فلما أقبلوا على الآخرة صارت الدنيا وراءهم ، فقيل لهم« ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً »فحال سور المنع بينهم وبين الحياة الدنيا ،
فقال تعالى« فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ »

- الوجه الثاني - [سور الأعراف :]
السور يسمى الأعراف بين الجنة والنار ، وجعله الله مكانا لمن اعتدلت كفتا ميزانه ، فلم ترجح إحداهما على الأخرى ،
وقال فيه :« لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ »هذه الآية يستدل بها على عموم رحمة الله في المآل ، فإن السور الذي بين الجنة والنار أخفى الله رحمته في باطنه ، وجعل العذاب في ظاهره لاقتضاء الموطن والزمان والحال ، فالسور الحائل بين الدارين الجنة والنار ، لا بين الصفتين الرحمة والعذاب ، فإن السور في نفسه رحمة ، وعينه عين الفصل بين الدارين ، لأن العذاب من قبله ما هو فيه والرحمة فيه ، فلو كان العذاب فيه لتسرمد العذاب على أهل النار كما تتسرمد الرحمة على أهل الجنة ، فالسور لا يرتفع ، وكونه رحمة لا يرتفع ، ولا بد أن يظهر ما في الباطن على الظاهر ، فلا بد من شمول الرحمة لمن هو قبل ظاهر السور ، وأهل الجنة مغموسون في الرحمة ، فإذا أراد أهل الجنة أن يتنعموا

ص 281

برؤية أهل النار ، يصعدون على ذلك السور ، فينغمسون في الرحمة ، فيطلعون على أهل النار ، فيجدون من لذة النجاة منها ما لا يجدونه من نعيم الجنة ، لأن الأمن الوارد على الخائف أعظم لذة عنده من الأمن المستصحب ، وينظر أهل النار إليهم بعد شمول الرحمة فيجدون من اللذة بما هم في النار ، ويحمدون الله تعالى حيث لم يكونوا في الجنة ، وذلك لما يقتضيه مزاجهم في تلك الحالة ، فلو دخلوا الجنة بذلك المزاج لأدركهم الألم ولتضرروا ، فالسور باطنه فيه الرحمة الخالصة ، وظاهره من قبله العذاب ،

ولم يقل : الآلام ؛ آلام العذاب ، لعلمه بما يؤول إليه الأمر ، فأبان تعالى أن باطن هذا الموجود فيه الرحمة ، والظاهر منه لا يتصرف إلا بحكم الباطن ، فلا يكون أمر مؤلم في الظاهر إلا عن رحمة في الباطن ، فإن الحكم للباطن في الظاهر ، فما كان العذاب في ظاهر السور إلا عن قصد الرحمة به التي في باطن السور ،

فليس الألم بشيء سوى عدم اللذة ونيل الغرض ، فما عند الله باب يفتح إلا أبواب الرحمة ، غير أنه ثمّ رحمة ظاهرة لا ألم فيها ، وثم رحمة باطنة يكون فيها ألم في الوقت لا غير ، ثم يظهر حكمها في المآل ، فالآلام عوارض واللذات ثوابت ، فالعالم مرحوم بالذات متألم بما يعرض له ، ولا بد من الكشف فتظهر رحمة باطن السور فتعم ، فهناك لا يبقى شقي إلا سعد ولا متألم إلا التذ ، ومن الناس من تكون لذته عين انتزاح ألمه ، وهو الأشقى ، وهو في نفسه في نعيم ، ما يرى أن أحدا أنعم منه ، كما قد كان يرى أنه لا أحد أشد عذابا منه ،

وسبب ذلك شغل كل إنسان أو كل شيء بنفسه ، الإنسان يضرب ابنه أدبا ، ويؤلمه بذلك الضرب عقوبة لذنبه ، وهو يرحمه بباطنه ، فإذا وفّى الأمر حقه أظهر له ما في قلبه وباطنه من الرحمة به وشفقة الوالد على ولده ، جعلنا الله والسامعين من أهل الرحمة الخالصة التي لا ألم لها بمنّه- إشارة - أنت سر الأعراف

، سور باطنه الرحمة ، وهو ما عندك من الرحمة بنفسك ، حيث تسلك بها مسالك السعادة ، وظاهره من قبله العذاب ، حيث تظهر على ذلك من المجاهدات ما يكون أشد العذاب على النفوس .

[سورة الحديد (57) : آية 14]

يُنادُونَهُمْ أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14)

ص 282

و"غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ " وهي الأماني المذمومة ، فهي التي لا يكون لها ثمرة ، ولكن صاحبها يتنعم بها في الحال ولكن تكون حسرة في المآل ، فذم المتمني بغير الجهد وبذل المجهود وصحة القصد ، وقد قال تعالى في المتعني): وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ) فلا تتمن على الله وأنت تسلك على غير طريق تحصيل السعادة ،

فإن الله يقول :(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً) فجعل الطريق التقوى لحصول هذا الفرقان الذي أنزله على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، أي معلما لهم ، فلا بد لكل طالب أمر أن يسلك في طريق تحصيله ، لأن الطريق له ذاتي فلا تحصل إلا به ، ولكن أكثر الناس لا يشعرون .

[سورة الحديد (57) : آية 15]

فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (15)

" فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا «هو قوله تعالى :(وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ) أي فدية .

[سورة الحديد : (57) آية 16]

أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (16)

لا يؤثر في الأشياء إلا ما قام بها وليس إلا العلم ، ألا ترى شخصان يقرآن القرآن ، فيخشع أحدهما ويبكي ، والآخر ما عنده من ذلك كله خبر ولا يؤثر فيه ، هل ذلك إلا من أثر علمه القائم به لما تدل عليه تلك الآية وشهوده ما تضمنته من الأمر الذي أبكاه وخشع له ؟

والآخر أعمى عن تلك المعاني لا يجاوز القرآن حنجرته ،

ولا أثر لتلاوته فيه ، فلم يكن الأثر لصورة لفظ الآية ،

وإنما الأثر لما قام بنفس العالم بها ، المشاهد ما نزلت له تلك الآية ،

فقال تعالى :« أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ »ولما كان

ص 283

لطول الأمد حكم يغير الحال ، قال :« وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ ».

[سورة الحديد (57) : الآيات 17 إلى 19]
اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (19)
الصديقون هم أتباع الرسل لقول الرسل ، فالصديق من لا يكذب بشيء من الأخبار إذا تلقى ذلك من الصادق - راجع الصديق« وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ »راجع سورة النساء آية 69 – « لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ »
- **الوجه الأول-** لَهُمْ أَجْرُهُمْ »أي ما اكتسبوه« وَنُورُهُمْ »ما وهبهم الحق تعالى من ذلك ، حتى لا ينفرد الأجر من غير أن يختلط به الوهب ، حتى يشغل الوهب العبد عن معاينة سلطان الاستحقاق الذي يعطيه الأجر ، إذ كان معاوضة عن عمل متقدم مضاف إلى العبد ، فلا أجر إلا ويخالطه نور لما ذكرناه

- **الوجه الثاني–** " لَهُمْ أَجْرُهُمْ »من حيث الشهادة« وَنُورُهُمْ »من حيث الصديقية ، فجعل النور للصديقية ، والأجر للشهادة ، إذ الصديقون لهم النور لصدقهم ، إذ لولا النور ما عاينوا صدق المخبر وصدق الخبر

- **الوجه الثالث -** اعلم أن من الناس عبيدا ومنهم أجراء ، ولأجل الإجارة نزلت الكتب الإلهية بها بين الأجير والمستأجر ، فلو كانوا عبيدا ما كتب الحق كتابا لهم على نفسه ، فإن العبد لا يوقت على سيده ، إنما هو عامل في ملكه ومتناول ما يحتاج إليه ، فالأجراء لهم أجرهم والعبيد لهم نورهم وهو سيدهم ، فإنه نور السماوات والأرض ، فقوله تعالى :« لَهُمْ أَجْرُهُمْ »يعني الأجراء ، وهم الذين اشترى الحق منهم أنفسهم« وَنُورُهُمْ »وهم العبيد والإماء
- **الوجه الرابع -** برأ الله الصديقين من الأعواض وطلب

ص 284

الثواب ، إذ لم يقم بنفوسهم ذلك ، لعلمهم أن أفعالهم ليست لهم فلا يطلبون عليها عوضا ، بل هم العبيد على الحقيقة والأجراء مجازا ،
فقال عزّ وجل »: وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ «ولم يذكر لهم عوضا على عملهم ، إذ لم يقم لهم به خاطر أصلا ، لتبريهم من الدعوى ،
ثم قال :« وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ »فهم العاملون على الأجرة جعلنا الله وإياكم من أعلاهم مقاما وأحبهم إليه ، إنه الولي المحسان

- مسئلة - [الفرق بين الأجير والعبد :]
الأجير لا يفترض عليه حتى يؤجر نفسه ، والعبد فرض عليه طاعة سيده ، فمن أي نسبة استحق العبد الأجر ؟ اعلم أن الإنسان هنا مع الحق على حالين : حالة عبودية وحالة إجارة ، فمن كونه عبدا يكون مكلفا بالفرض ، كالصلاة المفروضة والزكاة وجميع الفرائض ، ولا أجر له عليها جملة واحدة في أداء فرضه ، بل له ما يمتن به عليه سيده من النعم التي هي أفضل من الأجور ، لا على جهة الأجر ، ثم إن الله تعالى ندبه إلى عبادته في أمور ليست عليه فرضا ، فعلى تلك الأعمال المندوب إليها فرضت الأجور ، فإن تقرب العبد بها إلى سيده أعطاه إجارته عليها ، وإن لم يتقرب لم يطلب بها ولا عوتب عليها ، فمن هنا كان العبد حكمه حكم الأجنبي في الإجارة ، فالفرض له الجزاء الذي يقابله ، فإنه العهد الذي بين الله وعباده ، والنوافل لها الأجور ، والعلة في ذلك أن المتنفل عبد اختيار كالأجير ، فإذا اختار الإنسان أن يكون عبدا لله لا عبد هواه فقد آثر الله على هواه ، وهو في الفرائض عبد اضطرار لا عبد اختيار ، فتلك العبودية أوجبت عليه خدمة سيده فيما افترضه عليه ، وأما في الدار الآخرة فترتفع عبودية الاختيار .

[سورة الحديد (57) : الآيات 20 إلى 21]
اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ (20) سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(21)

ص 285

" سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ »فإن الأولية أفضل للعبد ، والمبادرة إلى أول الأوقات في العبادات هو الأحوط والمطلوب من العباد في حال التكليف ، وأثنى الله تعالى على من هذه حالته فقال :(أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ) .

[سورة الحديد (57) : الآيات 22 إلى 25]

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (23) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24) لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)

[معنى قوله تعالى » : وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » :]
« وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ »يريد أنه أنزله عن رتبة الكمال المعدني التي هي للذهب ، لأجل ما في الحديد من منافع الناس ، فمنع الحق الحديد من بلوغ رتبة الكمال المعدني التي هي للذهب لمصالح هذا النوع الإنساني ، لعلمه تعالى بأنه يحتاج إلى آلات وأمور لا بد له منها ،
فلو ارتفع الحديد إلى رتبة الذهب في العزة لم توجد تلك المنافع ، وبقي الإنسان الذي هو العين المقصودة معطل المنافع المتعلقة بالحديد ، التي لا تكون إلا فيه ،
ففيه كما قال الله« بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ »« وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ »فإن الاسم العزيز هو الذي توجه على إيجاد المعادن والأحجار النفيسة ،
ومن أثر هذا الاسم أن أثر فيها عزة ومنعا ، فلم يقو سلطان الاستحالة التي تحكم في المولدات والأمهات من العناصر يحكم فيها بسرعة

ص 285

الإحالة من صورة إلى صورة ، مثل ما يحكم في باقي المولدات ، فإن الاستحالة تسرع إليهم ، ويظهر سلطانها فيهم بزيادة ونقص وخلع صورة منهم وعليهم ، وهذا يبعد حكمه في المعادن ، فلا تتغير الأحجار مع مرور الأزمان والدهور إلا عن بعد عظيم ، وذلك لعزتها التي اكتسبتها من الاسم الإلهي العزيز ، الذي توجه على إيجادها من الحضرة الإلهية .

[سورة الحديد (57) : الآيات 26 إلى 27]
وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (26) ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (27)
[البدعة والسنة الحسنة :]
الرهبة المطلقة من غير تقييد بأمر معين ، هي كل خوف يكون بالعبد حذرا أن لا يقوم بحدود ما شرع له ، سواء كان حكما مشروعا إليها أو حكما حكميا ، قال تعالى :« وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها »وهي النواميس الحكمية التي لم يجيء الرسول المعلوم بها في العامة من عند الله ، بالطريقة المخصوصة في العرف ، فمجموع ما ابتدعوه من العبادة ما كان الحق شرع ذلك لهم ، فلا بديع من المخلوقات إلا من له تخيل ، ولا يشترط في المبتدع أنه لا مثل له على الإطلاق ، إنما يشترط فيه أنه لا مثل له عند من ابتدعه ولو جاء بمثله خلق كثير ، فلما وافقت الحكمة والمصلحة الظاهرة فيها الحكم الإلهي في المقصود بالوضع المشروع الإلهي ، اعتبرها الله اعتبار ما شرعه من عنده تعالى ، وما كتبها الله عليهم ، فقال :« ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ »أي ما أوجبناها عليهم ابتداء ، فاعتبرها الحق فأصبحت شرعا إليها ، وأخذهم بعدم مراعاتها »إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ »ولما فتح الله بينه وبين قلوبهم باب العناية والرحمة من حيث لا يشعرون ، جعل في قلوبهم تعظيم ما شرعوه ، يطلبون بذلك رضوان الله ، على غير الطريقة النبوية المعروفة ، فأثنى على المراعين لها ليحسن القصد والنية في ذلك« فَما رَعَوْها »هؤلاء الذين شرعوها وشرعت لهم« حَقَّ رِعايَتِها »فيما ابتدعوه من الرهبانية ،

ص 287

فذمهم الله لما لم يرعوها ، وقد يكون في الكلام تقديم وتأخير ، كأنه يقول : فما رعوها حق رعايتها إلا ابتغاء رضوان الله ،
وكذلك اعتقدوا ، يعني المراعين لها« فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا »بها« مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ »« وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ »أي من هؤلاء الذين شرع فيهم هذه العبادة« فاسِقُونَ «أي خارجون عن الانقياد إليها والقيام بحقها .
وتدل هذه الآية على أن الاجتهاد ومشروعيته كان مقررا فيما سبقنا من الأمم ، فإنهم ما ابتدعوها إلا باجتهاد منهم وطلب مصلحة عامة أو خاصة ، وأثنى على من رعاها حق رعايتها ، وذكر هذا في بني إسرائيل ،
وفي شرعنا من هذه الرهبانية من سن سنة حسنة ، وهذا هو عين الابتداع ، فهي في هذه الأمة السنن التي ابتدعت على طريق القربة إلى الله ، وهو قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا]
فأجاز لنا ابتداع ما هو حسن ، وجعل فيه الأجر لمن ابتدعه ولمن عمل به ، فالخير يطلب الثواب بذاته ، والشرع مبين توقيت ذلك الثواب ، لما جمع عمر بن الخطاب الناس على أبيّ في قيام رمضان ،
قال : نعمت البدعة هذه ؛ فسماها بدعة ، ومشت السنة على ذلك إلى يومنا هذا ، فاستمر الشرع والعبادة المرغب فيها مما لا ينسخ حكما ثابتا إلى يوم القيامة ،
وهذا الحكم خاص بهذه الأمة ، وأعني بالحكم تسميتها سنة ، تشريفا لهذه الأمة ، وكانت في حق غيرها من الأمم السالفة تسمى رهبانية ابتدعوها ،
فمن قال : بدعة في هذه الأمة مما سماها الشارع سنة فما أصاب السنة ، إلا أن يكون ما بلغه ذلك ، والاتباع أولى من الابتداع ، والفرق بين الاتباع والابتداع معقول ،
ولهذا جنح الشارع إلى تسميتها سنة وما سماها بدعة ، لأن الابتداع ، إظهار أمر على غير مثال ، هذا أصله ، فلو شرع الإنسان اليوم أمرا لا أصل له في الشرع لكان ذلك إبداعا ، ولم يكن يسوغ لنا الأخذ به ، فعدل الشارع إلى لفظ السنة إذ كانت السنة مشروعة ، وقد شرع لمحمد صلّى الله عليه وسلّم الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم السلام .

[سورة الحديد (57) : آية 28]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28)
« وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ »وهو النور الذي تنظر به عين البصيرة ، وهو علم اليقين ،

ص 288

فإن لله في القلب نورين : نورا يهدي به ، ونورا يهدي إليه ، كما أن له في القلب عينين : عين بصيرة وهو علم اليقين ، والعين الأخرى عين اليقين .

[سورة الحديد (57) : آية 29]
لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)
لا يعظم الفضل الإلهي إلا في المسرفين والمجرمين ، وأما في المحسنين فما على المحسنين من سبيل ، فإن الفضل الإلهي جاءهم ابتداء وكانوا به محسنين ، وما بقي الفضل الإلهي إلا في غير المحسنين .

(58) سورة المجادلة مدنيّة

[سورة المجادلة (58) : آية 1]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1)
« قَدْ سَمِعَ اللَّهُ »قال الله تعالى ذلك ولم يقل : سمعت ؛ لأن الآية قد تكون تعريفا من جبريل الروح الأمين بأمر الله أن يقول لعبده عليه السلام مثل هذا ، أي قل يا جبريل« قَدْ سَمِعَ اللَّهُ »كما قيل لمحمد صلّى الله عليه وسلّم :(قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ)وهو بشر ، ويحتمل أن يكون الكلام من مرتبة خاصة ، فيقول الحق من كونه متكلما : يا محمد« قَدْ سَمِعَ اللَّهُ »فيريد بالله هنا الاسم السميع أو العليم.

[سورة المجادلة (58) : آية 2]
الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(2)

ص 289

[إشارة : لا عين للشريك إذ لا شريك في العالم]
-إشارة - « وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً «المنكر الشريك الذي أثبته المشركون بجعلهم فلم يقبله التوحيد الإلهي ، وأنكره فصار منكرا من القول وزورا ، فلم يكن ثمّ شريك له عين أصلا ، بل هو لفظ ظهر تحته العدم المحض ، فلا عين للشريك إذ لا شريك في العالم عينا وإن وجد قولا ولفظا .

[سورة المجادلة (58) : آية 3]

وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3)

المظاهر تلزمه الكفارة قبل الوطء .

[سورة المجادلة (58) : آية 4]

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (4)

[إشارة واعتبار : تحرير الرقبة والصيام والإطعام]
-إشارة واعتبار - عتق الرقبة من الرق إما أن يكون مطلقا أو مقيدا ، فالعتق من الرق مطلقا هو أن يقيم نفسه في حال كون الحق عينه في قواه وجوارحه التي بها تميز عن غيره من الأنواع بالصورة والحد ،
وإذا كان في هذا الحال وكان هذا نعته ، كان سيدا وزالت عبوديته مطلقا ، لأن العبودية هنا راحت إذ لا يكون الشيء عبد نفسه ،
وأما إذا كان العبد مقيدا فهو أن يعتق نفسه من رق الكون ، فيكون حرا عن الغير ، عبدا للّه ، فإن عبوديتنا للّه يستحيل رفعها وعتقها ، لأنّها صفة ذاتية له ، واستحال العتق منها في هذه الحال لا في الحال الأول ،
وأما اعتبار الإطعام في الكفارة ، فالطعام سبب في حفظ الحياة على متناولة ، فهو في الإطعام متخلق بالاسم المحيي لما أمات بما فعله ، وأما صوم شهرين في الاعتبار ،
فالشهر عبارة في المحمديين عن استيفاء سير القمر في المنازل المقدرة ، وذلك سير النفس في المنازل الإلهية ،
فالشهر الواحد يسير فيها بنفسه ليثبت ربوبية خالقه عليه عند نفسه ، والشهر الآخر يسير فيه بربه من باب أن الحق جميع قواه وجوارحه ، فإنه بقواه قطع هذه المنازل.

ص 290

[سورة المجادلة (58) : الآيات 5 إلى 7]
إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (5) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)

[الحق واحد أبدا لكل كثرة وجماعة ، ولا يدخل معها في الجنس :]
« ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ »يسمع ما يتناجون به ، ولذلك قال لهم :(فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ) فإنه معكم أينما كنتم فيما تتناجون به ،
فإنكم إليه تحشرون« وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ » وهو ما دون الثلاثة ، وهو الواحد وقد يعني الاثنين« وَلا أَكْثَرَ " وهو ما فوق الثلاثة إلى ما لا يتناهى من العدد ،
وقد يعني السبعة فما فوقها من الأفراد« إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا »من المراتب التي يطلبها العدد ، فإن كان واحدا فهو الثاني له لأنه معه ، ثم ما زاد على واحد ، فهو مع ذلك المجموع من غير لفظه ، فهو سبحانه معهم أينما كانوا وجودا أو عدما حيثما فرضوا ،
فهو سبحانه ثان للواحد ، فإن المعية لا تصح للواحد في نفسه ، لأنها تقتضي الصحبة وأقلها اثنان ، وهو ثالث للاثنين ورابع للثلاثة وخامس للأربعة بالغا ما بلغ ،
وإذا أضيفت المعية للخلق دون الحق فمعية الثاني ثاني اثنين ، ومعية الثالث للاثنين ثالث ثلاثة ، ومعية الرابع للثلاثة رابع أربعة ، بالغا ما بلغ ، لأنه عين ما هو معه في المخلوقية ، والحق ليس كمثله شيء ، لأنه ليس من جنس ما أضيف إليه بوجه من الوجوه ،
فلو كان الحق ثالث ثلاثة أو رابع أربعة على ما تواطأ عليه أهل اللسان لكان من جنس الممكنات ، وهو تعالى ليس من جنس الممكنات ، فلا يقال فيه إنه واحد منها ،
فهو واحد أبدا لكل كثرة وجماعة ، ولا يدخل معها في الجنس ، فهو رابع ثلاثة فهو واحد ، وخامس أربعة فهو واحد ، بالغا ما بلغت ،

ص 291

لذلك قال :(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ)
ولم يكفر من قال : إنه رابع ثلاثة ، ومعيته تعالى هنا من كونه سميعا من كونهم يتناجون .
واعلم وفقك الله أن الله ما خلق الأشياء إلا في مقام أحديته التي بها يتميز عن غيره ،
فبالشفعية التي في كل شيء يقع الاشتراك بين الأشياء ، وبأحدية كل شيء يتميز كل شيء عن شيئية غيره ، وليس المعتبر في كل شيء إلا ما يتميز به ، وحينئذ يسمى شيئا ، فلو أراد الشفعية لما كان شيئا ، وإنما يكون شيئين ،
وقد قال تعالى :(إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ) ولم يقل لشيئين ، فإذا كان الأمر على ما قررناه ثم جاء الحق لكل شيء بمعيته فقد شفع فردية ذلك الشيء ، فجعل نفسه رابعا وسادسا ، وأدنى من ذلك وهو أن يكون ثانيا ، وأكثر وهو ما فوق الستة من العدد الزوج ، إعلاما منه تعالى أنه على صورة العالم أو العالم على صورته ،
فالثلاثة أول الأفراد في العدد إلى ما لا يتناهى ،
والشفعية المعبر عنها بالاثنين أول الأزواج إلى ما لا يتناهى في العدد ،
فما من شفع إلا ويوتره واحد يكون بذلك فردية ذلك الشفع ، وما من فرد إلا ويشفعه واحد يكون به شفعية ذلك الفرد ،
فالأمر الذي يشفع الفرد ويفرد الشفع هو الغني الذي له الحكم ولا يحكم عليه ، ولا يفتقر ويفتقر إليه ، فمتى فرضت عددا فاجعل الحق الواحد الذي يكون بعد ذلك اللاصق به ولا بد ، فإنه يتضمنه ، فالخامس للأربعة يتضمن الأربعة ولا تتضمنه ، فهو يخمّسها وهي لا تخمسه فإنها أربعة لنفسها ، وهكذا في كل عدد ،
وإنما كان هذا لحفظ العدد على المعدودات ، والحفظ لا يكون إلا لله وليس الله سوى الواحد ، فلا بد أن يكون الواحد أبدا له حفظ ما دونه من شفع ووتر ، فهو يوتر الشفع ويشفع الوتر ، والفردية عندنا لا تكون إلا للواحد الذي يشفع الوتر وللواحد الذي يوتر الشفع ، ولولا ذلك ما صح أن تقول في فردية الحقّ إنه رابع ثلاثة وسادس خمسة وأدنى من ذلك وأكثر ، وهو فرد في كل نسبة ، فتارة ينفرد بتشفيع الوتر ، وتارة بإيتار الشفع وهو قوله :« ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ »فما بيّن في فرديته بالذكر المعين إلا فردية تشفع الوتر الذي لا يقول به الحكماء في اصطلاح الفردية ،
ثم قال في العام :« وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ » سواء كان عددهم وترا أو شفعا ، فإن الله لا يكون واحدا من شفعيتهم ولا واحدا من وتريتهم ، بل هو الرقيب عليهم الحفيظ الذي هو من ورائهم محيط ، فمتى انتقل الخلق إلى المرتبة التي كانت للحق انتقل الحق إلى المرتبة التي تليها ، لا يمكن له الوقوف

ص 292

في تلك المرتبة التي كان فيها عند انتقال الخلق إليها ، فانظر في هذا السرّ ما أدقه وما أعظمه في التنزيه الذي لا يصح للخلق مع الحق فيه مشاركة ، فالخلق أبدا يطلب أن يلحق بالحق ولا يقدر على ذلك ، فالخلق خلق لنفسه والحق حق لنفسه ، وفي هذه الآية لما لم يقل الحق تعالى : ولا أربعة إلا هو خامسهم ؛ عرفنا من أدنى من ذلك وأكثر أنه يريد الأفراد يشفعها بما ليس منها ، فتحققنا أن الغيرة حكمت هنا ، فلم تثبت لأحد فردية إلا شفعتها هوية الحق حتى لا تكون الأحدية إلا له ، فلا يشفع فرديته مخلوق ويشفع هو فردية المخلوقين ،
فلم يقل : ولا أربعة إلا هو خامسهم ، ولا اثنين إلا هو ثالثهما ؛ لأن الغيرة لا تتعلق بالشفعية في الأكوان ، لأن الشفعية لها حقيقة ، وإنما تتعلق بالوترية إذا نسبت إلى الأكوان
« إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »
- **الوجه الأول** - لما علم سبحانه أن بعض عباده يقولون في مثل قوله تعالى :« إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا » أنه معهم بعلمه ، أعلم في هذه الآية أنه بكل شيء عليم ليغلب على ظن السامع أنه ليس على ما تأولوه ، فإنا لا نشك أنه يحيط بنا علما أينما كنا ، وكيف لا يعلم ذلك وهو خلقنا وخلق الأينية التي نحن فيها ؟ وكذلك لو قال في تمامها :
على كل شيء شهيد ؛ فعلمه تعالى محيط بما لا يتناهى
- **الوجه الثاني** -« إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »فيعمل بما علم أنه يكون يكوّنه ، وما علم أنه لا يكون لم يكونه .

[سورة المجادلة (58) : الآيات 8 إلى 9]
أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9)

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى »فإن الله يسمع ذلك كله ، لأنه ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ، يسمع ما يتناجون به ولذلك

ص 293

قال لهم :« فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ »فإنه معكم أينما كنتم فيما تتناجون به ، فإنكم إليه تحشرون
لذلك قال :« الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »وإن كان معهم ، فكنى بالحشر إذا فتح الله بإزالة الغطاء عن أعينهم ، فيرون عند ذلك من هو معهم فيما يتناجون به فيما بينهم ، فعبر عنه بالحشر للسؤال عما كانوا فيه ، فليتحفظ العبد في نطقه لعلمه بمن يسمعه ، وأنه مسؤول عن نطقه وأنه يتبع نطقه في عاقبة الأمر ليقرأ كتابه حيث كان ذلك الكتاب .

[سورة المجادلة (58) : الآيات 10 إلى 11]
إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11)
[« يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ » الآية :]
اعلم أن الرفعة لله سبحانه بالذات وهي للعبد بالعرض ، فإن الخفض للعبد بالأصالة والرفعة للحق فإنه رفيع الدرجات ،
قال تعالى :« يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ »فللبشر مقامات معلومة ، منها يكون المزيد لهم لا يتعدونها ، وإن زادوا علما فمن ذلك المقام ، فبالمقامات فضل الله كل صنف بعضه على بعض ، وهذا المقام هو الذي يكون فيه الإنسان عند آخر نفس يكون منه ، ويفارق الروح تركيب هيكله المسمى موتا ،
فمن ذلك المقام يكون له المزيد ، ولهذا يقع التفاضل بين الناس في الدار الآخرة ، ويزيد الله الذين أوتوا العلم وهم مؤمنون على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم درجات ، فإن العلم في حق المخلوق وإن كان له الشرف التام الذي لا تجهل مكانته ولكن لا يعطي السعادة في القرب الإلهي إلا بالإيمان ، فنور الإيمان في المخلوق أشرف من نور العلم الذي لا إيمان معه ، فإذا كان الإيمان يحصل عنه العلم ،
فنور العلم المولد من نور الإيمان أعلى ، وبه يمتاز على المؤمن الذي ليس بعالم ، ويزيد العلم فيرفع الله الذين أوتوا العلم على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم درجات ، يظهر فيها العلماء بالله ليراهم المؤمنون ، ويحتمل أن يراد به العلماء بتوحيد

ص 294

الله أنه لا إله إلا الله من حيث الأدلة العقلية ، فإن الطريق الموصلة إلى العلم بالله طريقان لا ثالث لهما ، ومن وحّد الله من غير هذين الصنفين فهو مقلد في توحيده ، الطريق الواحدة طريق الكشف ، وهو علم ضروري يحصل عند الكشف يجده الإنسان في نفسه لا يقبل معه شبهة ولا يقدر على دفعه ، ولا يعرف لذلك دليلا يستند إليه سوى ما يجده في نفسه ، وقد يكشف له عن الدليل ، وإما أن يحصل له هذا العلم عن تجل إلهي يحصل له ، وهم الرسل والأنبياء وبعض الأولياء ؛ والطريق الثاني طريق الفكر والاستدلال بالبرهان العقلي ، وهذا الطريق دون الطريق الأول ، فإن صاحب النظر في الدليل قد تدخل عليه الشبه القادحة في دليله ، فيتكلف الكشف عنها والبحث عن وجه الحق في الأمر المطلوب ،

وما ثمّ طريق ثالث ، فهؤلاء هم أولوا العلم الذين شهدوا بتوحيد الحق ، فتوحيد الحق يدرك بالإيمان ويدرك بالنظر ، فالمقلد مؤمن ، والناظر والمستدل بالأدلة العقلية على وجود الصانع وتوحيده عالم

- **وجه** - لما كان الأمر في الحقيقة في نسبة الأفعال أن الحق مجراها على أيدي الخلق ومنشئها فيهم ، اطلع العباد على ذلك أو لم يطلعوا ، شرف العالم بالاطلاع على من لم يطلع وفضل ، قال تعالى :« يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ».

[سورة المجادلة (58) : آية 12]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12)

ينبغي لك إذا ناجيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وذلك زمان قراءتك الأحاديث المروية عنه صلّى الله عليه وسلّم أن تقدم بين يدي نجواك صدقة ، أي صدقة كانت ، فإن ذلك خير لك وأطهر ، بهذا أمرت ، فإن الصدقات التي نص الشارع عليها كثيرة ، ولذلك ورد أنه يصبح على كل سلامي منا صدقة في كل يوم تطلع فيه الشمس ،

ثم أخبر صلّى الله عليه وسلّم : [أن كل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة ، وكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وأمر بمعروف صدقة ، ونهي عن منكر صدقة]

فانظر حالك عندما تريد قراءة الحديث النبوي ، فهي التي بقيت في العامة من مناجاة الرسول ، فالذي يعيّن لك حالك عند ذلك من الصدقات تقدمها بين يدي قراءتك الحديث كانت ما كانت ، فقد أوسع الله عليك في ذلك ، فلم يبق لك عذر في التخلف بعد أن أعلمك

ص 295

صلّى الله عليه وسلّم بأنواع الصدقات ، فقدّم منها بين يدي نجواك ما أعطاه حالك بلغ ما بلغ ، وحينئذ تشرع في قراءة الحديث النبوي

-فائدة – [النافلة القبلية في الصلاة]

اعلم أن المصلي مناج ربه ، فإذا كان الحق أمر بالصدقة بين يدي مناجاة الرسول ، فما ظنك بمناجاة الحق تعالى ؟ فهي آكد وأوجب ، وهي النافلة قبل الفريضة ، فإنها صدقة من الشخص على نفسه ، وهي كالرياضة للنفس ، وكالعزلة بين يدي الخلوة للحضور التام بما ينبغي للسيد المعبود من الآداب والجلال والتنزيه ، فإن دخول العبد للفرض من النفل ما يكون مثل دخوله من الفعل المباح ، لأنه لا بد أن يبقى للداخل في خاطره مما تقدم له قبل دخوله أثر

- إشارة لأهل المقامات -

أفضل الصدقات تصدق الإنسان بنفسه وأفضل ما يخرجها عليه من يخرجها على نفسه ، فإذا أراد العبد نجوى ربه فليقدم بين يدي نجواه نفسه لنفسه ، فإن النجوى سامع ومتكلم ، والعبد إن لم يكن الحق سمعه فمن المحال أن يطيق فهم كلام الله ، وإن لم يكن الحق لسان عبده عند النجوى فمن المحال أن تكون نجواه صادقة الصدق الذي ينبغي أن يخاطب به الحق ، فإذا الحق ناجى نفسه بنفسه كان العبد محل الاستفادة .

[سورة المجادلة (58) : الآيات 13 إلى 22]

أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (13) أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (16) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ (18)

ص 296

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ (19) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21) لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(22)

" لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ »ولو كانوا قرابتهم ، لذلك قال تعالى :« وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ »فكونهم حادوا الله ورسوله هو الذي عاد عليهم ، فجنوا على أنفسهم ، ومن لم يطلعك الله على عداوته لله فلا تتخذه عدوا ، وأقل أحوالك إذا جهلته أن تهمل أمره ، فمتى لم تعلم عداوته لله فلا تعاده بالإمكان ولا بما يظهر على اللسان ، والذي ينبغي لك أن تكره فعله لا عينه ، والعدو لله إنما تكره عينه ، ففرّق بين من تكره عينه وهو عدو لله ، وبين من تكره فعله وهو المؤمن ، أو من تجهل خاتمته ممن ليس بمسلم في الوقت » أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ »
والكتابة من الله في قلب عبده دون واسطة ، وأوجب للعبد ذلك حكما سمي به مؤمنا ، والإيمان المكتوب في القلوب يمنع من أن تصدر منهم معصية أصلا انتهاكا لحرمة الله ، وإن وقعت فتكون بحكم القدر النافذ لا بقصد انتهاك حرمات الله ، أو عن غفلة منهم »وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ »
وتأييدهم بعد إيراد نور الإيمان على قلوبهم ، إنما يكون بتقويته بأوصاف الروح الروحانية ، من الطهارة وعدالة الأخلاق والأوصاف ، والنزاهة عن أحكام النقص والانحراف ، فبهذه الأوصاف الروحانية الوحدانية الاعتدالية يظهر القلب وآثاره ، ويتميز

ص 297

بعد أن كان مغمورا ومستورا ومقهورا تحت سلطنة النفس وآثارها ، وكما أن الحق ما تجلى لشيء قط ثم انحجب عنه بعد ذلك ، كذلك من كتب الله في قلبه الإيمان فإنه لا يمحوه أبدا ، ومن هؤلاء نواب الحق ، فما كذبوا شيئا مما له وجود في الكون ووجدوا له مصرفا ،
ولذلك قال :« وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ »فهذا المؤيد به إذا توجه على معدوم أوجده ، وعلى معدل مسوى نفخ فيه روحا »وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ »إن أردت أن تكون من عباد الله الذين اختصهم لخدمته ، واصطنعهم لنفسه ، ورضي عنهم فرضوا عنه ، فتطهّر بالموافقة من المخالفة ،
وكن فيما يرضيه سبحانه من الأعمال في الأقوال والأفعال والأحوال« أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »فما يدري أحد ما لهم من المنزلة عند الله ،
لأنهم ما تحركوا ولا سكنوا إلا في حق الله لا في حق أنفسهم ، إيثارا لجناب الله على ما يقتضيه طبعهم .

(59) سورة الحشر مدنيّة

[سورة الحشر (59) : (آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1)

اعلم - فهمك الله - أن كل ما سوى الله أرواح مطهرة منزهة موجدها وخالقها ، وهي تنقسم إلى : مكان وإلى متمكن ، والمكان ينقسم إلى قسمين : مكان يسمى سماء ومكان يسمى أرضا ، والمتمكن فيهما ينقسم إلى قسمين ، إلى متمكن فيه " 1 " وإلى متمكن عليه ، فالمتمكن فيه يكون بحيث مكانه ، والمتمكن عليه لا يكون بحيث مكانه ، وهذا حصر كل ما سوى الله ، وكل ذلك في الحقيقة أجسام وجواهر في الحق المخلوق به ،
وهذه الأرواح على مراتب في التنزيه تسمى مكانة ، وما من منزه لله تعالى إلا وتنزيهه على قدر مرتبته ، لأنه لا ينزه خالقه ، إلا من حيث هو ، إذ لا يعرف إلا نفسه ،
فيثمر له ذلك التنزيه عند

---

(1)المتمكن فيه هي أرواح الأجسام.

ص 298

الله مكانة يتميز بها كل موجود عن غيره ؛ ثم إن الله تعالى عاد بالمكانة على هذا المنزه بأن كان الحقّ مجلاه فرأى نفسه ورتبته فسبح على قدر ما رأى ، فإذا هو نفسه لا غيره ، وذلك أن الحق أسدل بينه وبين عباده حجاب العزة فوقف التنزيه دونه ، فعلم أن الحق لا يليق به تنزيه خلقه ، وأن حجاب العزة أحمى ، وقهرها أغلب ،
ثم رأى من سواه من العارفين بالله المنزهين بنعوت السلوب على مراتب ،
وقد أقر الجميع منهم بأنهم كانوا غالطين في محل تنزيههم ، وأن تنزيههم ما خرج عنهم ، وذلك لحكمته التي سرت في خلقه ،
فكان ذلك تنزيه الحكمة لا غيره ، ولولا ستر حجاب العزة ما عرفوا ذلك ، ومن هذا الحجاب ظهر الكفر في العالم وصارت المعرفة خبرا بما وراء هذا الحجاب ، فظهر الإيمان في العالم .

[سورة الحشر (59) : آية 2]
هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ (2)
[الحشر :]
بالحشر يقع الازدحام ، وبه يكون الالتحام ، لولا الحشر ما زوجت النفوس بأبدانها ، ولا أقيمت المآدب بميدانها ،« فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ »لولا الحواس ما ثبت القياس ، ولولا البصر ما صدق من اعتبر ، الاعتبار جواز من أين إلى أين ، وانتقال من عين إلى عين ، ومن كون إلى كون وعدم ، لا من عدم إلى كون ،
فالاعتبار تعجب من الاقتدار ، والاعتبار شرعا هو الجواز من الصورة التي ظهر حكمها في الحس إلى ما يناسبه في ذاتك ، أو في جناب الحق مما يدل على الحق ، هذا معنى الاعتبار ، فإن الله قد ربط بكل صورة حسية روحا معنويا ،
لهذا يعتبر خطاب الشارع في الباطن على حكم ما هو في الظاهر قدما بقدم ، لأن الظاهر منه هو صورته الحسية ، والروح الإلهي المعنوي في تلك الصورة هو الذي نسميه الاعتبار في الباطن ، فإنه من عبرت الوادي إذا قطعته وجزته ،
قال تعالى :« فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ »أي تعجبوا وجوزوا ، واعبروا إلى ما أردته بهذا التعريف مما رأيتموه من

ص 299

الصور بأبصاركم إلى ما تعطيه تلك الصور من المعاني والأرواح في بواطنكم ، فتدركونها ببصائركم ، فأمر وحث على الاعتبار ، وهذا باب أغفله العلماء ولا سيما أهل الجمود على الظاهر ، فليس عندهم من الاعتبار إلا التعجب ، فلا فرق بين عقولهم وعقول الصبيان الصغار ؛ فهؤلاء ما عبروا قط من تلك الصورة الظاهرة كما أمرهم الله ، وإذا ارتقى الإنسان في درج المعرفة علم أنه نائم في حال اليقظة المعهودة ، وأن الأمر الذي هو فيه رؤيا إيمانا وكشفا ، ولهذا ذكر الله أمورا واقعة في الحس وقال :« فَاعْتَبِرُوا »وقال :(إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً)أي جوزوا واعبروا مما ظهر لكم من ذلك إلى علم ما بطن به وما جاء له ،
قال صلّى الله عليه وسلّم : [الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا]
ولكن لا يشعرون ، ولهذا قلنا : إيمانا ، فالإنسان في الدنيا في رؤيا ولذلك أمر بالاعتبار ، فإن الرؤيا قد تعبر في المنام ، فإذا كان بلسان الصادق صلّى الله عليه وسلّم الحس خيالا والمحسوس متخيلا ، وجعلك نائما في الحال الذي تعتقد أنك فيه صاحب يقظة وانتباه ، فإذا كنت في رؤيا في يقظتك في الدنيا ، فكل ما أنت فيه هو أمر متخيل مطلوب لغيره ، ما هو في نفسه على ما تراه ؛ فاليقظة والحس الصحيح الذي لا خيال فيه في النشأة الآخرة ، ولذلك قال تعالى :« فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ »أي جوزوا مما أعطاكم البصر بنوره مما أدركه من المبصرات وأحكامها إلى ما تدركونه بعين بصائركم شهودا ، وهو الأتم الأقوى ، أو عن فكرة وهو الشهود الأدنى عن المرتبة العليا ، وكلاهما عابر عما ظهر إلى ما استسرّ وبطن ، فهم أولو أبصار بالاعتبار في مخلوقاته . واعلم أن أهل الاعتبار يكون منهم أصحاب أذواق ، ويعتبرون عن ذوق لا عن فكر ، وقد يكون الاعتبار عن فكر ،
فيلتبس على الأجنبي بالصورة ، فيقول عن كل واحد إنه معتبر ومن أهل الاعتبار ، وما يعلم أن الاعتبار قد يكون عن فكر وعن ذوق ، والاعتبار في أهل الأذواق هو الأصل ، وفي أهل الأفكار فرع ، وصاحب الفكر ليس من أهل الإرادة إلا في الموضع الذي يجوز له الفكر فيه إن كان ثمّ ما لا يمكن أن يحصل الأمر المفكّر فيه إلا به - بفتح الكاف - فحينئذ يأخذه من بابه ، وهل ثمّ أمر بهذه المثابة لا يمكن أن ينال من طريق الكشف والوجود أم لا ؟
فنحن نقول : ما ثمّ ، ونقول : إن الكشف أتم في التحصيل ، لأن الكشف يعيّن لك العلة على خصوصها ، والاعتبار الفكري يجملها لك من غير تعيين ، أو يخرج عللا محتملة .

[سورة الحشر (59) : الآيات 3 إلى 5]
وَلَوْ لا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ (3) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (4) ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ(5)

ص 300

[سورة الحشر (59) : الآيات 3 إلى 5]
وَلَوْ لا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ (3) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (4) ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ (5)
« ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ »الإذن الأمر الإلهي ، أمر بعض الشجر أن تقوم فقامت ، وأمر بعض الشجر أن تنقطع فانقطعت بإذن الله لا بقطعهم ، وبإذن الله قامت لا بتركهم ، مع كونهم موصوفين بالقطع والترك ، فإنه لا يناقض إذن الله ، فإن إذن الله لها في هذه الصورة كالاستعداد في الشيء ، فالشجرة مستعدة للقطع فقبلته من القاطع« فَبِإِذْنِ اللَّهِ »يعني للشجرة ،
ولهذا قال :« وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ »الخارجين عن معرفة هذا الإذن الإلهي الذي قطع هذه الشجرة وترك الأخرى .

[سورة الحشر (59 : (الآيات 6 إلى 7]
وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ وَلكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (7)
[الأخذ بقول الرسول هو الذي أمرنا به ، وأما أفعاله فليست على الوجوب :]
« وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »
إن الرسول صلّى الله عليه وسلّم ما بعثه الله ليمكر بنا - أعني بأمته - وإنما بعثه ليبين لهم ما نزل إليهم ، فلهذا أطلق لنا الأخذ عن الرسول والوقوف عند قوله من غير تقييد ، فإنا آمنون فيه من مكر الله ، فإن لله مكرا في عباده لا يشعر به ،
قال تعالى :(وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)
وقال :(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ)
وقال :(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) وقال :(وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ)
ولم يجعل للرسل في هذه الصفة قدما ، لأنهم بعثوا مبينين فبشروا وأنذروا ، وأعطى الرسول صلّى الله عليه وسلّم الميزان الموضوع ، فمن أراد السلامة من مكر الله فلا يزل الميزان المشروع من يده ، الذي

ص 301

أخذه عن الرسول وورثه ، فكل ما جاءه من عند الله وضعه في ذلك الميزان ، فإن قبله ملكه ، وإن لم يقبله سلمه لله وتركه ، فإن تركه عمل به ، فأخذك من الرسول أنفع لك وأحصل لسعادتك ، فما جاءك على يد الرسول فخذه من غير ميزان ، وما جاءك من يد الله فخذه بميزان . والأخذ بقول الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو الذي أمرنا الله أن نأخذ به ، وأما أفعال النبي صلّى الله عليه وسلّم فليست على الوجوب ، فإن في ذلك غاية الحرج إلا فعلا بين به أمرا تعبدنا به ،

فذلك الفعل واجب ، فلا يلزمنا اتباعه في أفعاله إلا إن أمر بذلك ، فمعنى الاتباع أن نفعل ما يقول لنا ، فإن قال : اتبعوني في فعلي ، اتبعناه ، وإن لم يقل فالذي يلزمنا الاتباع فيما يقول .

[سورة الحشر (59) : الآيات 8 إلى 9]

لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8) وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)

الإيثار إعطاء ما أنت محتاج إليه في الوقت أو توهم الحاجة إليه .

واعلم أن الله تعالى جبل الإنسان على الشح ، فإنه فطر على الاستفادة لا على الإفادة ، فما تعطي حقيقته أن يتصدق ، فإذا تصدق كانت صدقته برهانا على أنه قد وقي شح نفسه الذي جبله الله عليه ،

لذلك ورد في الصحيح عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : [والصدقة برهان]

وسبب ذلك أن الفقر والحاجة ذاتي لنا ، والمكون عن الطبيعة شحيح بالذات كريم بالعرض ، ومن شح النفس الادخار والشبهة لها إلى وقت الحاجة ، فإذا تعين المحتاج كان العطاء ، وعلى هذا أكثر بعض نفوس الصالحين« وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »يعني الناجون ،

يقول صلّى الله عليه وسلّم في فضل الصدقة وزمانها : [أن تصدق وأنت شحيح تخاف الفقر وتأمل الحياة والغنى]

- **إشارة** - أين الكرم من الإيثار ؟

الكرم سيادة ، والإيثار عبادة ، الكرم مع

ص 302

الرئاسة ، والإيثار مع الخصاصة ، لولا الكرم ما لاحت الحكم ، ولولا الإيثار ما بدت الأسرار .

[سورة الحشر (59) : الآيات 10 إلى 16]
وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (10) أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (12) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (13) لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (14) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (15) كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (16)
[« كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ . . . » الآية :]
أبان الله لنا في هذه الآية عن معرفة الشيطان بربه وخوفه منه ، ولكن لما كان للجن شياطينهم وغير شياطينهم الإغواء ، قال الشيطان للإنسان : اكفر ،
قال تعالى :« كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ »بما يزين له ،
فإذا كفر يقول الله تعالى :« فَلَمَّا كَفَرَ قالَ "يقول الشيطان" إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ " فشهد الله للشيطان بالخوف من الله رب العالمين في دار التكليف ، وبالإيمان به بإخبار الله عنه ، فإنه لا يوجد في الجن

ص 303

لا في مؤمنهم ولا في كافرهم من يجهل الحق ولا من يشرك ، ولهذا ألحقوا بالكفار ، ولم يلحقهم الله بالمشركين ، وإن كانوا هم الذين يجعلون الإنس أن يشركوا ،
فإذا أشركوا تبرءوا ممن أشرك كما قال تعالى :« كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ »وهو وحي الشيطان إلى وليه ليجادل بالباطل أهل الحق ،
فإذا كفر« قالَ »يقول له :« إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ »فوصف الشيطان بالخوف من الله ، ولكن على ذلك الإنسان لا على نفسه ، فخوف الشيطان على الذي قبل إغواءه لا على نفسه ، وسبب ارتفاع الخوف من الشيطان على نفسه علمه بأنه من أهل التوحيد ، فهو يعلم أن الله واحد ، ويعلم مآل الموحدين إلى أين يصير ،
فاعتمد إبليس على هذا في حق نفسه ، وطمع في الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء ، وطمعه فيها من عين المنة لإطلاقها ، لأنه علم في نفسه أنه موحد
ولهذا قال : (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)فأقسم به تعالى لعلمه به ، فما طغى أحد من الخلائق ما طغى الإنسان وعلا في وجوده ، فادعى الربوبية ، فإن أكبر العصاة إبليس هو الذي يقول :« إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ »عندما يكفر الإنسان إذا وسوس في صدره الكفر ،
وما ادعى قط الربوبية وإنما تكبر على آدم لا على الله ، فلو لا كمال الصورة في الإنسان ما ادعى الربوبية ، فطوبى لمن كان على صورة تقتضي له هذه المنزلة من العلو ولم تؤثر فيه ، ولا أخرجته من عبوديته ، فتلك العصمة ، ولا يكن الشيطان مع كفره أدرك للأمور وأخوف من الله منك ، واعتبر في تبريه من ذلك ، وما أخذ الشيطان قط بعلمه لشرف علمه ،
وإنما يؤخذ لصدق الحق فيما قال فيما شرعه فيمن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، فالشيطان يوم القيامة يحمل أثقال غيره ، فإنه في كل إغواء يتوب عقيبه ،
ثم يشرع في إغواء آخر فيؤاخذ بعمل غيره ، لأنه من وسوسته ،
والإنسان الذي لا يتوب إذا سن سنة سيئة يحمل أثقالها وأثقال من عمل بها ، فيكون الشيطان أسعد حالا منه بكثير ، وقد قال تعالى :

[سورة الحشر (59) : آية 17]
فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (17)
المقلد إن مشى متبوعه مشى وإن وقف وقف ، فهو معه حيثما كان إما في النجاة وإما في التلف (كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ ، فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ)« فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ » فأسكنه تقليده دار البوار« فَكانَ

ص 304

عاقِبَتَهُما «أي جاءهما عقيب هذا الواقع« أَنَّهُما فِي النَّارِ »فأعقب الشيطان برجوعه إلى أصله ، فإنه مخلوق من النار فرجع إلى موطنه ، وكان للإنسان عقوبة على كفره ، حيث ظلم بقبول ما جاء به الشيطان ، ولم يقبل ما جاء به الرسول ،

ثم قال :« خالِدَيْنِ فِيها »لأنها موطنهما ، الواحد خلق منها وهو الشيطان ، والآخر خلق لها وإن كان فيه منها ، فسكناها بحكم الأهلية ، وعذّبا فيها بحكم الجريمة ما شاء الله ، فخلد الشيطان في منزله وداره ، وخلد الإنسان جزاء لكفره ، ولهذا تبرأ منه للافتراق الذي بينهما في العاقبة ،

وقوله :« وَذلِكَ »أشار ببنية الواحد ولم يثن الإشارة إلى العقاب فإنهما ما اشتركا فيه ، لأن الذي أتى للإنسان عقيب ذنبه إنما هو العذاب ، والذي كان سهم الشيطان الذي أتاه عقيب فعله وقوله رجوعه إلى أصله الذي منه خلق ، فلا يغتر العاقل« جَزاءُ الظَّالِمِينَ »لأن الكفر هنا هو الشرك وهو الظلم العظيم ،

فكان قوله تعالى :« وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ »يريد المشركين ، فإنهم الذين لبسوا إيمانهم بظلم ، فإن قيل : كيف يخلد إبليس في النار وهو لم يكفر ؟

قيل : إن إبليس لا ينفعه تبريه من المشرك ومن الشرك ، فإنه هو الذي قال له : اكفر ؛ فحار عليه وزر كل مشرك في العالم وإن كان موحدا ، فإن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، وما سن إبليس الشرك ووسوس به حتى تصوره في نفسه على الصورة التي حصلت في نفس المشرك ، فزالت عنه صورة التوحيد ، فكان إبليس مشركا في نفسه بلا شك ولا ريب ، ولا بد أن يحفظ في نفسه بقاء صورة الشريك ليمد بها المشركين مع الأنفاس ، فإنه خائف منهم أن تزول عنهم صفة الشرك فيوحدوا الله فيسعدوا ،

فلا يزال إبليس يحفظ صورة الشرك في نفسه ، ويراقب بها قلوب المشركين الكائنين شرقا وغربا وجنوبا وشمالا ، ويرد بها الموحدين في المستقبل إلى الشرك ممن ليس بمشرك ، فلا ينفك إبليس دائما على الشرك ، فبذلك أشقاه الله ، لأنه لا يقدر أن يتصور التوحيد نفسا واحدا لملازمته هذه الصفة ، وحرصه على بقائها في نفس المشرك ،

فإنها لو ذهبت من نفسه لم يجد المشرك من يحدثه في نفسه بالشرك فيذهب الشرك عنه ، فدل أن الشريك يستصحب إبليس دائما ، فهو أول مشرك بالله ، وأول من سن الشرك ، وهو أشقى العالمين .

[سورة الحشر (59) : الآيات 18 إلى 19]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (18) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ(19)

ص 305

" وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ " فإن من نسي حق الله الذي أمره الله بإتيانه فقد نسي الله فإنه ما شرعه له إلا الله ، فترك حق الله« فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ » وصورة ذلك أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : [من عرف نفسه عرف ربه]
فمن نسي الله نسي نفسه بالضرورة ، نسي ما لله عليها من الحقوق ، وما لها من الحقوق ؛ فكان في نسياننا لله أن أنسانا الله أنفسنا ، فنهينا عن ذلك ، فهذه وصية إلهية صحيحة ، وقد نهانا الله أن نكون كالذين نسوا الله فنسيهم ، فنهانا أن ننسى الله مثل ما نسوه لنقوم بحق الله ، ونقيم حق الله في الأشياء على نية صالحة وحضور مع الله ، فيجازينا الله جزاء استحقاق استحققناه بأعمالنا التي وفقنا الله لها ،
والذين نسوا الله تركوا حق الله« أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ »فأعاد الضمير عليهم ، أي الخارجون عن الطريق المشروع .

[سورة الحشر (59) : الآيات 20 إلى 21]
لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ (20) لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(21)
[العلم وتحمل نزول القرآن على القلب :]
أترى هذا الخشوع والتصدع من خشية الله عن غير علم بقدر ما أنزل الله عليه ؟ وما خاطب من التخويفات التي تذوب لها حمم الجبال الشامخات ؟
وقد وصف الحق الجبل بالخشية ، وعين وصفه بالخشية عين وصفه بالعلم بما أنزل عليه ، قال تعالى :(إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ) فهذه الآية تشير إلى شرف الجماد على الإنسان ، أترى خشوعه وتصدعه لجهله بما أنزل عليه ؟
لا والله إلا بقوة علمه بذلك وقدره ، ألا تراه عزّ وجل يقول لنا في هذه الآية :« وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »فإنهم إذا تفكروا في ذلك

ص 306

علموا شرف غيرهم عليهم ، فإن شهادة الله بمقدار المشهود له بالتعظيم كالواقع منه لأنه قول حق ، وعلموا إذا تفكروا جهلهم بقدر القرآن حيث لم تظهر منهم هذه الصفة التي شهد الله بها للجبل ، فلو علم الإنسان قدر القرآن وما حمله لما كانت حالته هكذا ، كما أن هذه الآية تدل على القوة الإلهية التي أعطاها الله لمن أنزل عليه الوحي ،

فإنهم علموا قدر من أنزله ، فرزقهم الله من القوة ما يطيقون به حمل ذلك الجلال ، إذ لا أقوى من العلم ،

ولو نزل هذا القرآن على من ليست له هذه القوة لذاب في عينه لعظيم ما جاءه ، فإن الله وصفه بأنه يضعف عن حمل ذلك ، فانظر إلى ما كان يقاسي صلّى الله عليه وسلّم في باطنه من حمله القرآن لمعرفته به ، وما أبقى الله عليه جسده وعصم ظاهره من أن يتصدع كالجبل لو أنزل عليه القرآن إلا لكون الله تعالى قد قضى بتبليغه إلينا على لسانه ، فلا بد أن يبقي صورته الظاهرة على حالها ، حتى نأخذه منه ، وكذلك بقاء صورة جبريل النازل به ،

- ومن وجه آخر - لما كان القرآن جامعا تجاذبته الحقائق الإلهية والكونية على السواء ، فلم يكن فيه عوج ولا تحريف فمنزلته الاعتدال ؛ والاعتدال منزل حفظ بقاء الوجود على الموجود ، فكان له الديمومية ، والبقاء ، فله بقاء التكوين وبقاء الكون ، فلو نزل عن منزله لنزل من الاعتدال إلى الانحراف ،

وهو قوله :« لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ » يعني عن منزله « عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً » يعني الجبل ، فلم يحفظ عليه صورته لأنه نزل عن منزلته ، ولما كان هذا منزله وتجاذبته الحقائق على سواء ، كان من به أنزل عليه رحمة للعالمين ، لأن الرحمة وسعت كل شيء ، فإذا أنزل القرآن عن منزله - فإنه كلامه ، وكلامه على نسبة واحدة لما يقبله الكلام من التقسيم - فإنه ينزل وفيه حقيقة الاعتدال في النسب ، وهو جديد عند كل تال أبدا ،

فلا يقبل نزوله إلا مناسبا له في الاعتدال ، فهو معرى عن الهوى ، وما كل تال يحس بنزوله لشغل روحه بطبيعته ، فينزل عليه من خلف حجاب الطبع ، فلا يؤثر فيه التذاذا ،

فهو قرآن منزل على الألسنة لا على الأفئدة ، وأما من نزل القرآن على قلبه فإنه يجد لنزوله عليه حلاوة لا يقدر قدرها ، تفوق كل لذة .

فإذا وجدها فذلك الذي نزل عليه القرآن الجديد الذي لا يبلى ، والفارق بين النزولين أن الذي ينزل القرآن على قلبه ينزل بالفهم ، فيعرف ما يقرأ وإن كان بغير لسانه ، ويعرف معاني ما يقرأ وإن كانت تلك الألفاظ لا يعرف معانيها في غير القرآن لأنها ليست بلغته ، ويعرفها في تلاوته إذا كان ممن ينزل القرآن على قلبه عند تلاوته.

ص 307

[سورة الحشر (59) : آية 22]
هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (22)« هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ »
[التوحيد الثالث والثلاثون في القرآن ، وهو توحيد العلم :]
بدأ بهو ، وأتى بالاسم المحيط بجميع الأسماء التي تأتي مفصلة ، ثم بالنفي فنفى أن تكون هذه المرتبة لغيره ، ثم أوجبها لنفسه بقوله :« إِلَّا هُوَ »فبدأ بهو وختم بهو ، فكل ما جاء من تفصيل أعيان الأسماء الإلهية فقد دخل تحت الاسم الله الآتي بعد قوله« هُوَ »فإن« هُوَ »أعم من كلمة« اللَّهُ »فإنها تدل على الله وعلى كل غائب وكل من له هوية ،
فكان الهو ختم الأسماء الإلهية وهو عين سابقتها ،
فإن الاسم الله دلالة على الرتبة ، والهوية دلالة على العين ، لا تدل على أمر آخر غير الذات ، فتدل على عين غائبة عن أن يحصرها علم مخلوق ، فلا يزال غيبا عند كل من يزعم أنه عالم به ، ولذلك كان الهو عند الطائفة أتم الأذكار وأرفعها وأعظمها ،
وهو ذكر خواص الخواص ، وليس بعده ذكر أتم منه ، فيكون ما يعطيه الهو في إعطائه أعظم من إعطاء اسم من الأسماء الإلهية حتى الاسم الله .
« هُوَ اللَّهُ »واختار الحق الاسم الله فأقامه في الكلمات مقامه ، فهو الاسم الذي ينعت ولا ينعت به ، فجميع الأسماء نعته وهو لا يكون نعتا ، ولهذا يتكلف فيه الاشتقاق ، فهو اسم جامد علم موضوع للذات في عالم الكلمات والحروف ، لم يتسمّ به غيره جلّ وعلا ، فعصمه من الاشتراك ، كما دل أن لا يكون ثم إله غيره بقوله :« الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ »اعلم أن الوحدة في الإيجاد والوجود والموجود لا تعقل إلا في« لا إِلهَ إِلَّا هُوَ »
فهذه أحدية المرتبة وهي أحدية الكثرة ، فإذا أطلقت الأحدية فلا تطلق عقلا ونقلا إلا بإزاء أحدية المجموع ،
مجموع نسب أو صفات أو ما شئت على قدر ما أعطاه دليلك ، ولكل نسبة أو صفة أحدية تمتاز بها عن غيرها في نفس الأمر ،
فمن أراد أن يميزها عند السامع أو المتعلم فما يقدر على ذلك إلا بمجموع حقائق ، كل حقيقة معلومة عند السامع ، ولذلك ما طلب الحق تعالى في الإيمان منا إلا توحيد الإله خاصة ، وهو أن نعلم أنه ما ثمّ إلا إله واحد لا إله إلا هو ،
فلم يكن ثمّ جمع يقتضي هذا الحكم ، وهو أن يكون إلها إلا هذا المسمى بهذه الأسماء الحسنى ، فأهل الحق يقولون بنسبة الألوهة لهذا الموجد للممكن المألوه ، ومعقول الألوهة ما هو معقول الذات ، فالأحدية معقولة لا تتمكن العبارة عنها إلا بمجموع ، مع كون العقل يعقلها وهي أحدية المجموع وآحاده ، فالتجلي الإلهي لا يصح في الأحدية أصلا ،
وما ثمّ غير الأحدية ، وما يتعقل أثر عن واحد لا جمعية له ، فلا أعلم من الله بالله ، حيث لم يفرض الوحدة إلا أحدية المجموع ، وهي

ص 308

أحدية الألوهة له تعالى ، فقال :« هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ »وكل اسم واحد مدلوله ليس مدلول عين الاسم الآخر ، وإن كان المسمى بالكل واحدا ، فما عرف الله إلا الله ، فإن معرفتنا بالله بالأدلة العقلية والشرعية إثبات وجود الذات مع جهلنا حقيقتها ، فلا نصل إلى معرفة حقيقتها ولا يمكن الوصول إلى ذلك ، وإثبات الألوهة للذات مع جهلنا بنسبة ما نسبناه إليها من الأحكام ، فإنا وإن كنا نعرف النسبة من كونها نسبة ، فقد نجهل النسبة الخاصة لجهلنا بالمنسوب إليه ، وهذا هو التوحيد الثالث والثلاثون في القرآن ، وهو توحيد العلم ، وهو من توحيد الهوية ، وهو توحيد من حيث التفرقة ، لأنه ميّز بين الغيب والشهادة ، وجمع بين العلم والرحمة ، فقال :« عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ »[علم الغيب وأقسامه :]
أما قوله تعالى :« عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ »فاعلم أن الله تعالى لما خلق العالم جعل له ظاهرا وباطنا ، وجعل منه غيبا وشهادة لنفس العالم ، فما غاب من العالم عن العالم فهو الغيب ، وما شاهد العالم من العالم فهو شهادة ، وكله لله شهادة ظاهر ، فكان قوله تعالى :« عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ »أي ما غاب عنا وما نشهد ، فإنه لا يتصور في حق الله غيب ، فالغيب أمر إضافي لما غاب عنا ، فالعالم عالمان ما ثم ثالث : عالم يدركه الحس وهو المعبر عنه بالشهادة ، وعالم لا يدركه الحس وهو المعبر عنه بعالم الغيب ، فإن كان مغيبا في وقت وظهر في وقت للحس فلا يسمى ذلك غيبا ، وإنما الغيب ما لا يمكن أن يدركه الحس لكن يعلم بالعقل ، إما بالدليل القاطع وإما بالخبر الصادق ، وهو إدراك الإيمان ،
فالشهادة مدركها الحس ، وهو طريق إلى العلم ما هو عين العلم ، وذلك يختص بكل ما سوى الله ممن له إدراك حسي ، والغيب مدركه العلم عينه ، والغيب في هذه الآية هو الذي يقابل الشهادة ، فوصف نفسه بعلم المتقابلين ، وما هو الغيب الذي انفرد الحق به سبحانه في قوله تعالى :(عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً) وما قرنه بالشهادة ، فإن هذا الغيب وإن اشترك مع ذلك في الاسمية إلا أن هناك فرقا ، وهو أن هذا الغيب المقابل للشهادة هو الغيب المغيب الذي يتصف في وقت بالشهادة ، لا بالغيب الذي يستحيل عليه أن يكون شهادة بوجه من الوجوه ، فهو الغيب الإمكاني الذي تبرز منه الأشياء إلى عالم الشهادة ، فإما أن تبقى في عالم الشهادة أو لا تبقى كالأعراض ، فإن لم تبق فلا بد أن تفارق الشهادة ، وإذا فارقت الشهادة فإنها تدخل إلى الغيب الذي لا يمكن أن يدرك أبدا شهادة ، ولا يكون لها رجوع بعد ظهورها إلى الغيب الذي خرجت منه ، بل تنتقل إلى الغيب المحالي

ص 309

الذي لا يظهر عنه أبدا شيء يتصف بالشهادة ، فهذان غيبان : الغيب الذي يوجد منه الكائنات ، والغيب الذي ينتقل إليه بعض الكائنات بعد اتصافها بالشهادة ، وهما بخلاف الغيب الذي لا يدرك بالحس ، والذي انفرد الحق بعلمه في قوله): عالِمُ الْغَيْبِ)فالغيب في هذه الآية ظرف لعالم الشهادة ، وعالم الشهادة هنا كل موجود سوى الله تعالى مما وجد ولم يوجد ، أو وجد ثم ردّ إلى الغيب ، كالصور والأعراض وهو مشهود لله تعالى ، ولهذا قلنا إنه عالم الشهادة ، ولا يزال الحق سبحانه يخرج العالم من الغيب شيئا بعد شيء إلى ما لا يتناهى عددا من أشخاص الأجناس والأنواع ، ومنها ما يرده إلى غيبه ومنها ما لا يرده أبدا ، فالذي لا يرده أبدا إلى الغيب كل ذات قائمة بنفسها وليس إلا الجواهر خاصة ، وكل ما عدا الجواهر من الأجسام والأعراض الكونية واللونية ، فإنها ترد إلى الغيب ويبرز أمثالها ، والله يخرجها من الغيب إلى شهادتها أنفسها ، فهو عالم الغيب والشهادة ، والأشياء في الغيب لا كمية لها ، إذ الكمية تقتضي الحصر ، فيقال كم كذا وكذا ؟ وهذا لا ينطلق عليها في الغيب فإنها غير متناهية ، فكم وكيف والأين والزمان والوضع والإضافة والعرض وأن يفعل وأن ينفعل ، كل ذلك نسب لا أعيان لها ، فيظهر حكمها بظهور الجوهر لنفسه إذا أبرزه الحق من غيبه ، فإذا ظهرت أعين الجواهر تبعتها هذه النسب ، فليس في الوجود المحدث إلا أعيان الجواهر والنسب التي تتبعه ، فكان الغيب بما فيه كأنه يحوي على صورة مطابقة لعالمه ، إذ كان علمه بنفسه علمه بالعالم ،[حضرة الخيال والغيب والشهادة :]

فالعالم عالمان ، والحضرة حضرتان ، وإن كان قد تولد بينهما حضرة ثالثة من مجموعهما ، فالحضرة الواحدة حضرة الغيب ولها عالم الغيب ، والحضرة الثانية حضرة الحس والشهادة ويقال لعالمها عالم الشهادة ، ومدرك هذا العالم بالبصر ، ومدرك عالم الغيب بالبصيرة ، والمتولد من اجتماعهما حضرة وعالم ، فالحضرة حضرة الخيال ،

والعالم عالم الخيال ، وهو ظهور المعاني في القوالب المحسوسة ، كالعلم في صورة اللبن ، والثبات في الدين في صورة القيد ، والإسلام في صورة العمد ، والإيمان في صورة العروة ، وجبريل في صورة دحية الكلبي وفي صورة الأعرابي ، وتمثل لمريم في صورة بشر سوي ، ولذلك كانت حضرة الخيال أوسع الحضرات ، لأنها تجمع العالمين عالم الغيب والشهادة ، فإن حضرة الغيب لا تسع عالم الشهادة فإنه ما بقي فيها خلاء ، وكذلك حضرة الشهادة ، وحضرة الخيال العامة لا تعرفها ولا تدخلها إلا إذا نامت ورجعت القوى الحساسة إليها ، والخواص يرون ذلك في اليقظة لقوة التحقق بها ، وفي هذه الحضرة

ص 310

حضرة الخيال إن أكلت شبعت ، وإن مسكت فيه شيئا من ذهب أو ثياب أو ما كان بقي معك على حاله لا يتغير ، ومن ذلك المقام قال صلّى الله عليه وسلّم وقد نهى عن الوصال فقيل له : إنك تواصل ، فقال صلّى الله عليه وسلّم : [لست كهيئتكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني] فلم يكن في تلك الجماعة التي خاطبها في ذلك الوقت من له هذا المقام ، ولم يقل لست كهيئة الناس ، فكان إذا أكل شبع وواصل على قوة معتادة ،

ولما كان الأكل في حضرة الخيال لا في حضرة الحس صح أن يكون مواصلا ،

كذلك تقدمه صلّى الله عليه وسلّم لقطف عنقود من العنب ، وتأخره وهو في الصلاة من النار التي مثلت له في عرض الحائط ، وليس ذلك المقام إلا للعبد المحض الخالص« الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ »بالرحمة العامة والرحمة الخاصة .

[سورة الحشر (59) : آية 23]

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23)

لما كان وجود العالم مرتبطا بوجود الحق فعلا وصلاحية ، لهذا كان اسم الملك لله تعالى أزلا - وإن كان عين العالم معدوما في العين - لكن معقوليته موجودة باسم المالك ، فهو مملوك لله تعالى وجودا وتقديرا قوة وفعلا ، وقال تعالى :« هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ »

[التوحيد الرابع والثلاثون في القرآن ، وهو توحيد النعوت :]

بنسبة ملك السماوات والأرض إليه فإنه رب كل شيء ومليكه ، والاسم الملك هو المهيمن على الأجناد الأسمائية ، فإن أسماءه سبحانه وتعالى عساكره ، وهي التي يسلطها على من يشاء ويرحم بها من يشاء« الْقُدُّوسُ »بقوله :(وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

وتنزيهه عن كل ما وصف به ، فتقدست الألوهة أي تنزهت أن تدرك وفي منزلتها أن تشرك ، والقدوس من القدس وهي الطهارة الذاتية ، كتقديس الحضرة الإلهية التي أعطيها الاسم القدوس ، فهو اسم إلهي منه سرت الطهارة في الطهارات كلها ،

وهو قدوس مطهر من الأسماء النواقص ، وهي التي لا تتم إلا بصلة وعائد ، فإن من أسمائه سبحانه الذي وما ، فهو القدوس أي المطهر عن نسبة الأسماء النواقص إليه ، وهو قدوس عن تغيره في نفسه بتغير الأحكام- إشارة

-اعلم أن الاسم القدوس يصحب الموجودات وبه ثبت قوله تعالى :(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ) فلا ينبغي أن يحال بين العبد وسيده ، ولا يدخل بين العبد وسيده إلا بخير ، ولا شك أن النجاسة أمر عرضي عيّنه حكم شرعي ، والطهارة أمر ذاتي ، فلا أصل للنجاسة في الأعيان،

ص 311

إذ الأعيان طاهرة بالأصل ، فما في الوجود بحكم الحقيقة إلا طاهر .« السَّلَامُ »بسلامته من كل ما نسب إليه مما كره من عباده أن ينسبوه إليه ». الْمُؤْمِنُ »هنا له وجهان : بمعنى المصدق ، وبمعنى معطي الأمان بما أعطاهم من الأمان إذا وفوا بعهده ، فهو المؤمن بما صدق عباده ، ورد في الخبر أن العبد يقول في حال من الأحوال : الله أكبر ، فيقول الله : أنا أكبر ، يقول العبد : لا إله إلا أنت ، يقول الله : لا إله إلا أنا ، يقول العبد : لا إله إلا الله له الملك وله الحمد ، يقول الله : لا إله إلا أنا لي الملك ولي الحمد ، يصدق عبده ، ومن هنا كان اسمه المؤمن ، فهو مصدق الصادقين من عباده عند من لم يثبت صدقهم عنده ،

فإذا صدق المؤمن في جميع أقواله وأفعاله وأحواله وإعطاء الأمان منه لكل خائف من جهته ، فإذا صدق في ذلك كله ، صدّقه الله تعالى ، لأنه لا يصدق سبحانه إلا الصادق ،

ولا يصدقه تعالى إلا من اسمه المؤمن لا غير ؛ - ومن وجه آخر - لما كان الإيمان نصف صبر ونصف شكر ، والله هو الصبور الشكور ، فمن اسمه المؤمن شكر عباده على ما أنعموا به على الأسماء الإلهية ، بقبولهم لآثارها ، وصبر على أذى من جهله من عباده فنسب إليه ما لا يليق به ونسبوا إليه عدوا بغير علم - كما أخبرنا عنهم - فصبر على ذلك ، ولا شخص أصبر على أذى من الله لاقتداره على الأخذ ، فهو المؤمن الكامل في إيمانه بكمال صبره وشكره ، ومن كون الحياء من الإيمان فإنه يستحي أن يكذب ذا شيبة يوم القيامة ، فيصدقه مع كذبه ويأمر به إلى الجنة .« الْمُهَيْمِنُ »هو الشاهد على الشيء بما هو له وعليه ، فهو الشاهد على عباده بما هم فيه من جميع أحوالهم مما لهم وعليهم. " الْعَزِيزُ " لغلبه من غالبه إذ هو الذي لا يغالب ، وامتناعه في علو قدسه أن يقاوم« الْجَبَّارُ »في اللسان : الملك العظيم ، وهو الجبار بما جبر عليه عباده في اضطرارهم واختيارهم ، فهم في قبضته تعالى ، فهو تعالى الجبار بما للذات من جبر في العالم بالأسماء الإلهية ، وله الجبر بالإحسان على الظاهر والباطن ، فله الجبر بطريق القهر والمغالبة على الظاهر ، وله الجبر الذاتي بالتجلي في العظمة الحاكمة على كل نفس فتذهل عن ذاتها وعزتها ، فلله قهر خفي في العالم لا يشعر به ، وهو ما جبرهم عليه في اختيارهم ، وقهر جلي وهو ما ليس فيه اختيار يحكم عليهم ، فللحق الرفعة أصلا وذلك بقوله« الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ »ولكنه لما نزل لعباده حتى ظن بعض الناس أن ذلك له حقيقة قال »الْمُتَكَبِّرُ »فهي رفعة للحق بعد نزوله إلى عباده ، لما حصل في النفوس الضعيفة من نزوله إليهم في خفي ألطافه لمن تقرب بالحد والمقدار ، من شبر وذراع وباع وهرولة وتبشيش وفرح وتعجب

ص 312

وضحك وأمثال ذلك ، فكان التكبر من صفات الحق لما كان من نزوله في الصفات إلى ما يعتقده أصحاب النظر وأكثر الخلق أنه صفة المخلوق ، فلما علم ذلك منهم وهو سبحانه قد وصف لهم نفسه بتلك الصفات حتى طمعوا فيه ، وضل بها قوم عن طريق الهدى ، كما اهتدى بها قوم في طريق الحيرة ، قام لهم تعالى في صفة التكبر عن ذلك النزول ، ليعلمهم أنه وإن اشترك معهم في الاسمية فإن نسبتها إليه تعالى ليست كنسبتها إلى المخلوق ، فيكون مثل هذا تكبرا فإن نسبة التكبر محيرة ، فتحير من تحير في نسبة التكبر إلى الحق وتحقيقها أن لو علم نزول الحق لعباده - إذ ليس في قوة الممكن نيل ما يستحقه الحق من الغنى عن العالم ، وفي قوة الحق مع غناه من باب الفضل والكرم النزول لعباده - لعلمنا تلك النسبة ، فإن جهل أحد من العباد قدر هذا النزول الإلهي ، وتعاظم العبد في نفسه لنزول الحق له ، ولم يعلم أن نزول الحق لعباده ما هو لعين عباده ، وإنما ذلك لظهور أحكام أسمائه الحسنى في أعيان الممكنات ، فما علم أنه لنفسه نزل لا لخلقه ، كما قال تعالى :(وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)فما خلقهما إلا من أجله ، والخلق نزول من مقام ما يستحقه من الغنى عن العالمين ، فالمتخيل من العباد خلاف هذا وأنه تعالى ما نزل إلا لما هو المخلوق عليه من علو القدر والمنزلة ، فهذا أجهل الجاهلين ، فأعطى الحق هذا النزول أو ما توهمه الجاهل أن يتسمى الحق بالمتكبر عن هذا النزول ، ولكن بعد هذا النزول لا قبله وجودا وتقديرا لا بد من ذلك .
واعلم أن التكبر لا يكتسبه الكبير وإنما يكتسبه الأدنى في الرتبة ، فيكسب العبد الكبرياء بما هو الحق صفته ، فالكبرياء لله لا للعبد ، فهو محمود مشكور في كبريائه وتكبره ، ويكسب الحق هذا الاسم ، فإنه تعالى ذكر عن نفسه أنه متكبر ، وذلك لنزوله تعالى إلى عباده في خلقه آدم بيديه ، وغرسه شجرة طوبى بيده ، وكونه يمينه الحجر الأسود ، وفي يد المبايع بالإمامة من الرسل في قوله :(إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ (ونزوله في قوله [جعت فلم تطعمني ، وظمئت فلم تسقني ، ومرضت فلم تعدني [وما وصف الحق به نفسه مما هو عندنا من صفات المحدثات ، فلما تحقق بهذا النزول عندنا حتى ظن أكثر المؤمنين أن هذه له صفة استحقاق ، وتأولها آخرون من المؤمنين ، فمن اعتقد أن اتصاف الحق بهذا أن المفهوم منه ما هو المفهوم من اتصاف الخلق به ، أعلم الحق هذه الطائفة خاصة أنه يتكبر عن هذا ، أي عن المفهوم الذي فهمه القاصرون من كون نسبته إليه تعالى على حد نسبته إلى المخلوق ، وبه يقول أهل الظاهر أهل الجمود منهم القاصرة أفهامهم عن استحقاق كل مستحق حقه ،

ص 313

فقال عن نفسه تعالى إنه« الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ »عن هذا المفهوم وإن اتصف بما اتصف به ، فله تعالى الكبرياء من ذاته ، وله التكبر عن هذا المفهوم لا عن الاتصاف ، لأنه لو تكبر عما وصف به نفسه مما ذكرنا لكان كذبا ، والكذب في خبره محال ، فالاتصاف بما وصف به نفسه حق يعلمه أولو الألباب .
ومن كون الحق متكبرا أن يجد العبد في قلبه كبرياء الحق فلا يعصه ، فالذي اجرأ العصاة ومن اجترأ على الله من عباده على المخالفة ، ما وصف الحق به نفسه من العفو والمغفرة ، ونهاهم عن القنوط من رحمة الله ، فما عندهم رائحة من نعت التكبر الإلهي الذي هو به متكبر في قلوب عباده ، إذ لو كبر عندهم ما اجترءوا على شيء من ذلك ،
ولا حكمت عليهم هذه الأسماء التي أطمعتهم ، فإن كبرياء الحق إذا استقر في قلب عبد وهو التكبر ، من المحال أن تقع منه مخالفة لأمر الحق بوجه من الوجوه ، فالحق المتكبر إنما هو في نفس هذا الموافق الطائع عبد الله على الحقيقة ،
والتوحيد في هذه الآية هو التوحيد الرابع والثلاثون في القرآن ، وهو توحيد النعوت ، وهو من توحيد الهوية المحيطة ، فله النعوت كلها ، نعوت الجلال ، فإن صفات التنزيه لا تعطي الثبوت ، والأمر وجودي ثابت ، فلهذا قدم الهوية وأخرها حتى إذا جاءت نعوت السلب ، وحصلت الحيرة في قلب السامع ، منعت الهوية بإحاطتها أن يخرج السامع إلى العدم ، فيقول : فما تمّ شيء وجودي ، إذ قد خرج عن وجود العقل والحس فيلحقه بالعدم فتمنعه الهوية ، فإن الضمير لا بد أن يعود على أمر مقرر:

[سورة الحشر (59) : آية 24]
هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)
هُوَ اللَّهُ الْخالِقُبالتقدير والإيجاد ، والخالق هنا صفة لله موصوف للبارئ ، وعلى ذلك تؤخذ الأسماء الإلهية إذا وقعت بين اسمين إلهيين ، فالخالق صفة لله موصوف للبارئ« الْبارِئُ »بما أوجده من مولدات الأركان« الْمُصَوِّرُ »بما فتح في الهباء من الصور ، وفي أعين المتجلى لهم من صور التجلي المنسوبة إليه ، ما نكر منها وما عرف ، وما أحيط بها وما لم يدخل تحت إحاطة .« لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى »وهي تسعة وتسعون اسما ، مائة إلا واحد ، وكل اسم واحد مدلوله ليس مدلول عين الاسم الآخر ، وإن كان المسمى بالكل واحدا ،

ص 314

فهذه أحدية المجموع وآحاده ، فما ثمّ جمع يقتضي هذا الحكم وهو أن يكون إلها إلا هذا المسمى بهذه الأسماء الحسنى المختلفة المعاني ، التي افتقر إليها الممكن في وجود عينه .« يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ »ولم يقل .« وَما فِي الْأَرْضِ »لأن كثيرا من الناس في الأرض لا يسبحون الله ، وممن يسبح الله منهم ما يسبحه في كل حال ، والأرض تسبحه في كل حال ، والسماوات وما فيها من الملائكة والأرواح المفارقة تسبحه كما قال)يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ) فراعى هنا من يدوم تسبيحه وهو الأرض ، كما راعى في موطن آخر من القرآن تسبيح من في الأرض وإن كان البعض من العالم ،
فقال عزّ من قائل (تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)
بجمع من يعقل ، ثم أكد ذلك بقوله (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)
وزاد في التأكيد بقوله(وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) فأتى بلفظة من ولم يأت بما ، وأتى هنا بما ولم يأت بمن ، فإن سيبويه يقول : إن اسم ما يقع على كل شيء ؛ إلا أنه لم يعم الموجودات .
واعلم أن حضرة التصوير هي آخر حضرة الخلق وليس وراءها حضرة للخلق جملة واحدة ، فهي المنتهى والعلم أولها ، والهوية هي المنعوتة بهذا كله ، أعني الهوية فابتدأ بقوله« هُوَ »لأن الهوية لا بد منها ، ثم ختم بها في السلب والثبوت
وهو قوله (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ) وابتدأ من الصفات بالعلم بالغيب والشهادة وختم بالمصور ، ولم يعين بعد ذلك اسما بعينه ، بل قال« لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى »ثم ذكر أن له يسبح ما في السماوات والأرض ، فإن إنشاء الصور لا يتناهى دنيا ولا آخرة ، فالإنشاء متصل دائم وإن تناهت الدنيا ، فسبحان من يجهل فلا يعلم ويعلم فلا يجهل« لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »ومن خصائص هذه السورة سورة الحشر :
جعل الرحمن آخرها *** عصمة لنا من الفتن
عصم الرحمن قارئها *** أبدا في السر والعلن

تحقيق - [تحقيق : ما خلق الله تعالى الثقلين إلا بأسماء اللطف والحنان]
اعلم أن الثقلين ما خلقهم الله تعالى إلا بأسماء اللطف والحنان ، والرأفة والرحمة ، والتنزل الإلهي ، فخلقهم بالاسم الرحمن ، فلما نظروا إلى الأسماء التي وجدوا عنها ما رأوا اسما إليها منها يقتضي أخذهم وعقوبتهم إن عصوا أمره ونهيه ، وتكبروا على أمره ، فلم يطيعوه وعصوه ، لأنه تعالى بالرحمة أوجدنا ، لم يوجدنا بصفة القهر ، وكذلك تأخرت المعصية فتأخر الغضب عن الرحمة في الثقلين ، فالله يجعل حكمهما في الآخرة كذلك ، ولو كانت بعد حين ، ألا ترى الله تعالى إذا ذكر أسماءه لنا يبتدي بأسماء الرحمة ويؤخر أسماء الكبرياء ،

ص 315

لأنا لا نعرفها ، فإذا قدّم لنا أسماء الرحمة عرفناها وحننا إليها ، عند ذلك يتبعها أسماء الكبرياء لنأخذها بحكم التبعية ، فقال تعالى :« هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ »فهذا نعت يعم الجميع أي جميع المخلوقات ، وليس واحدته بأولى من الآخر ، ثم ابتدأ فقال« هُوَ الرَّحْمنُ »فعرفنا« الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ »لأنا عنه وجدنا ، ثم قال بعد ذلك« هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ »ابتدأ ليجعله فصلا بين« الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ »وبين« الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ »فقال« الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ »وهذا كله من نعوت الرحمن ، ثم جاء وقال« الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ »فقبلنا هذه النعوت بعد أن آنسنا بأسماء اللطف والحنان وأسماء الاشتراك التي لها وجه إلى الرحمة ، ووجه إلى الكبرياء وهو« اللَّهُ »و« الْمَلِكُ »فلما جاء بأسماء العظمة والمحل قد تأنس بترادف الأسماء الكثيرة الموجبة الرحمة ، قبلنا أسماء العظمة لما رأينا أسماء الرحمة قد قبلتها حيث كانت نعوتا لها ، فقبلناها ضمنا تبعا لأسمائنا ، ثم إنه لما علم الخالق أن صاحب القلب والعلم بالله وبمواقع خطابه إذا سمع مثل أسماء العظمة لا بد أن تؤثر فيه أثر خوف وقبض ، نعتها بعد ذلك وأردفها بأسماء لا تختص بالرحمة على الإطلاق ، ولا تعرى عن العظمة على الإطلاق فقال :« هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى »وهذا كله تعليم من الله عباده وتنزل إليهم ، ولهذا قدّم سبحانه في كتابه بسم الله الرحمن الرحيم في كل سورة إذ كانت تحوي على أمور مخوفة تطلب أسماء العظمة والاقتدار ، فقدم أسماء الرحمة تأنيسا وبشرى ، وما طلب الله تعالى من عباده في حقه إلا أن يعلموا أنه إله واحد لا شريك له وبشرى ، وما طلب الله تعالى من عباده في حقه إلا أن يعلموا أنه إله واحد لا شريك له في ألوهته لا غير ، وأن له الأسماء الحسنى بما هي عليه من المعاني في اللسان ، وقرن النجاة والسعادة بمن وقف عندما جاء من عنده عزّ وجل في كتبه وعلى ألسنة رسله« لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ».

(60) سورة الممتحنة مدنيّة

[سورة الممتحنة (60) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ(1)

ص 316

قال تعالى يخاطب المؤمنين« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي »
[السعيد من لم يتخذ عدوا لله محبوبا ولا محبا :]
فجعلهم أعداء له كما قال في جزائه إياهم(ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ)فإن كان لله أعداء ، فكيف بأجناس العالم ؟
فهم عبيده أعداؤه ؛ فكيف حال عبيده بعضهم مع بعض بما فيهم من التنافس والتحاسد ؟« وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ »لكونهم أمثالا لكم ؟ ولما بين المثلين من الضدية قال للمؤمن : عامل العدو بضدية المثل لا بمودة المثل ، فإن العدو يريد إخراجك من الوجود ، فقال تعالى« وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ »
فما عاملكم العدو وإن كان مثلكم إلا بضدية المثل لا بمودته ، فأمرنا الحق إذا أرادوا ذلك بنا أن نقاتلهم ، فنذهب أعيانهم من الموضع الذي يكونون فيه ،
وإن لم تسر هذه الضدية في ذات المثل فليس بمؤمن ، ولا هو عند الله بمكان ، فإن الله لما علم ما هو عليه الإنسان في جبلته من حبه المحسن لإحسانه ، ومن استجلابه الود من أشكاله بالتودد إليهم ،
علم أنه تعالى إذا قال لهم« لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي »أنهم لما ذكرناه لا يقومون في هذا النهي في جانب الحق مقام ما يستحقه الحق ، فزاد في الخطاب فقال« وَعَدُوَّكُمْ » وذلك ليبغضهم إلينا ، لعلمه بأنا نحب أنفسنا ونؤثر هوانا عليه تعالى ،
فليس في القرآن ذم في حقنا من الله أعظم من هذا ، فإنه لو علم منا إيثاره على أهوائنا لاكتفى بقوله« عَدُوِّي »
ثم تمم على نسق واحد فقال« يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ »يعني من موطنه ، فإن مفارقة الأوطان من أشق ما يجري على الإنسان ،
فلما علم الله أنكم لا يقوم عندكم إخراج الرسول - مع بقائكم في أوطانكم ذلك المقام - ما يستحقه الرسول منكم قال (وَإِيَّاكُمْ) فشرككم في الإخراج مع الرسول ، كما شرككم في العداوة مع الله ، لتكونوا أحرص على أن لا تلقوا إليهم بالمودة ، وأن نتخذهم أعداء ، والمؤمنون هنا كل ما سوى الرسول ،
فإن الرسول إذا تبين له أن شخصا ما عدو لله تبرأ منه ، كما تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه ، ومن لم يطلعك الله على عداوته فلا تتخذه عدوا ، وأقل أحوالك إذا جهلته أن تهمل أمره ، فلا تعاد عباد الله بالإمكان ، والذي ينبغي لك أن تكره فعله

ص 317

لا عينه ، والعدو لله إنما تكره عينه ، ففرّق بين من تكره عينه وهو عدو الله ، وبين من تكره فعله وهو المؤمن ، أو من تجهل خاتمته ممن ليس بمسلم في الوقت ،

فإذا تبين لك وتحققت من عداوته لله يتعين عليك عند ذلك أن تتخذهم أعداء ، لأمر الله لك بذلك ، حيث نهاك أن تتخذ عدوه ووليا تلقي إليه بالمودة ،

فإن اضطرك ضعف يقين إلى مداراتهم فدارهم من غير أن تلقي إليهم بمودة ، ولكن مسالمة لدفع الشر عنك ، والله يجعلنا ممن آثر الحق على هواه ، وأن يجعل ذلك مناه ، فما أعظمها عندي حسرة حيث لم نكن بهذه المثابة عند الله ،

حتى نكتفي بذكر عداوتهم لله وإخراج الرسول ، فهنا ينبغي أن تسكب العبرات ، فالسعيد من وجد ذلك من نفسه ، فلم يدخل تحت هذا الخطاب ، فلا يتخذ عدوا لله محبوبا ولا محبا« أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ »أن وما بعدها بتأويل المصدر ، كأنه يقول : يخرجون الرسول وإياكم من أجل إيمانكم بالله ربكم ،« إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ ».

[سورة الممتحنة (60 : (الآيات 2 إلى 6]

إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ) (2لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3) قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5 (لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(6)

ص 318

فلم يذم من تولى ليعلمنا الأدب ، بل نزه نفسه بالغنى عما دعاهم إليه ، وأنهم إن أجابوا لذلك فإن الخير الذي فيه عليهم يرجع ، والله غني عنه ، ثم أتبعه بالحميد ، أي هو أهل الثناء بالمحامد في الأولى والآخرة ، فله الحمد على كل حال .

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 7 إلى 10]

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7) لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10)

ليس للمؤمن أن يبتلي المؤمن إلا بأمر إلهي
، فيكون الابتلاء لله تعالى ومنه لا منهم ، مثل قوله تعالى »فَامْتَحِنُوهُنَّ »فالله أمر بذلك ، فامتثل العبد أمر سيده ، فالابتلاء لا يكون إلا لله ، وكل من ابتلى أحدا من المؤمنين بغير أمر إلهي فإن الله يؤاخذه على ذلك« وَلا تُمْسِكُوا

ص 319

بِعِصَمِ الْكَوافِرِ »يؤيد تحريم نكاح المشركات .

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 11 إلى 12]
وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12)
البهتان هو أن ينسب إلى الشخص ما لم يكن منه ، ولقد مات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما مست يده يد امرأة لا يحل له لمسها ، وهو رسول الله ، وما كانت تبايعه النساء إلا بالقول ، وقوله للواحدة قوله للجميع .

[سورة الممتحنة (60) : آية 13]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ (13)

(61) سورة الصّفّ مدنيّة

[سورة الصف (61 : (آية 1]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1)
اعلم أن مقام العزة حاكم على الكل بالقهر والعجز عن بلوغ الغاية فيما قصدوه من الثناء على الله ، مثل قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [لا أحصي ثناء عليك] ما قال ذلك حتى عجز عن

ص 320

بلوغ الغاية التي في نفسه طلبها ، فلم تف الجوارح بذلك ، ولا ما عندنا من الأسماء الإلهية ، فإنه ما يثنى عليه عزّ وجل إلا بأسمائه الحسنى ، ولا يعلم منها إلا ما أظهر ، ولا يثنى عليه إلا بالكلام بتلك الأسماء وهو الذكر ، ولا يكون إلا منه ، لا بالوضع منا .

[سورة الصف (61) : آية 2]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ(2)
»يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا «
[« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ » الآية :]
التأيه على نوعين ، تأيّه بالصفة مثل قوله(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (و(يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ)وتأيّه بالذات ، مثل قوله)يا أَيُّهَا النَّاسُ)وقد يؤيه بأمر ، وقد يؤيه بنهي ، والتأيه في هذه الآية تأيه إنكار
- الوجه الأول - « لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ »وله وجه للأمر ووجه للنهي ، كأنه تعالى يقول في الأمر فيه (افعلوا ما تقولون) ؛ وفي النهي (لا تقولوا على الله ما لا تفعلون) فإنكم تمقتون نفوسكم عند الله في ذلك أكبر المقت .
- الوجه الثاني - قال تعالى« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا »ولم يقل الحق : يا أولي الألباب ، ولا يا أولي العلم ، لأن درجات العقلاء تتفاوت« لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ »فإن العالم العاقل لا يقول ما لا يفعل إلا بالاستثناء ، لأنه يعلم أن الفعل للّه لا له ، فكأن الحق يقول للمعتزلي الذي يقول بإضافة الفعل إلى نفسه في اعتقاده »يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ »إن الفعل لكم وما هو كذلك ، فأضفتم إليكم« ما لا تَفْعَلُونَ »، وكبر مقتا منكم عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون .

[سورة الصف (61) : آية 3]
كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ (3)

وهذه حالة من أمر بالبر غيره ونسي نفسه ، والناس يأخذون في هذه الآية غير مأخذها ، فيقولون إن الله مقتهم ، وما يتحققون قوله تعالى(عِنْدَ اللَّهِ) أي تمقتون أنفسكم أكبر المقت عند الله إذا رجعتم إليه ، فتعلق المقت بمن قال خيرا يمكن له فعله فلا يفعله ، وذلك القول الخير لا بد أن يجني ثمرته القائل به ، ولا سيما إن أعطى عملا في عامل من عباد الله إلا أنه محروم ، فما يكبر عند الله إلا لكون هذا القائل قال هذا القول ولم يفعل ما قاله إذا اطلع على ما حرم من الخير بترك الفعل ، فمقت نفسه أعظم المقت ، ولا سيما إذا رأى غيره قد انتفع به عملا ، فهو أكبر مقت عنده يمقت به نفسه عند الله في شهوده في الآخرة ، فهو
ص 321

أكبر مقت عند الله من مقت آخر ، لا أن الله مقته ، بل هو يمقت نفسه عند الله إذا صار إليه ، وللمقت درجات بعضها أكبر من بعض ، وهذا من أكبرها عنده ، فإن قال القائل ما يعتقد صحته ولم يقل ذلك إيمانا فذلك المنافق ، وإن قال ذلك إيمانا ولم يفعل فذلك المفرط ، وهو الذي يكبر مقته عند الله ، لأن إيمانه يعطيه الفعل فلم يفعل .

[سورة الصف (61) : آية 4]

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ (4)

يريد لا يدخله خلل ، فإن الخلل في الصفوف طرق الشيطان ، والتراص في سبيل الله يطلب الكثرة ، فلا يبقى خلل يدخل منه العدو .

[سورة الصف (61) : الآيات 5 إلى 6]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (5) وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (6)

« وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ »فهو صلّى الله عليه وسلّم من حيث كونه حامل لواء الحمد أحمد ، ومن حيث تكرار حمده محمد .

[سورة الصف (61) : الآيات 7 إلى 10]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7)يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (8) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ(10)

ص 322

لما كان الأمر تجارة تتصف بالربح والخسران ، مدح الله المؤمنين بالتجارة ، وهو البيع والشراء في أي شيء كان مما أمر الله بالتجارة فيه ، قال تعالى »يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ »فسماها تجارة ، لأن التاجر يحمل إلى الناس ما يحتاجون إليه ، والأنبياء عليهم السلام جاءوا من عند الله إلى عباد الله بما فيه سعادتهم ، فأجروا على ذلك الأجر التام ، فللمؤمن تجارة في نفس إيمانه ، وهي التجارة المنجية من العذاب الأليم ، قال تعالى« تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ »فقيل : وما هي ؟ فذكر ما هي التجارة فقال :

[سورة الصف (61) : آية 11]

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11)

مع حصول المشقة في ذلك من مفارقة الأهل في دخوله في الإيمان دونهم ، ومفارقة الأوطان بالهجرة إلى دار الإسلام ، وإنما عدل في هذه الأمور إلى التجارة دون غيرها ، فإن القرآن نزل على قرشي بلغة قريش بالحجاز ، وكانوا تجارا دون غيرهم من الأعراب ، فلما كان الغالب عليهم التجارة كسى الله ذات الشرع والإيمان لفظ التجارة ، ليكون أقرب إلى أفهامهم ومناسبة أحوالهم ، فالمؤمن ممدوح في القرآن بالتجارة والبيع فيما ملك بيعه ، وما صرح الله فيه بأنه يشتري خاصة ، فإن التجارة معاوضة وقبض ثمن ، والبيع بيع ما تملكه ، والشراء شراء ما ليس عندك ، فلا تسلك من الطرق إلا ما تقع لك فيه المنفعة والربح فإنها تجارة ، وهكذا سماها الله .

[سورة الصف (61) : الآيات 12 إلى 14]

يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ(14)

ص 323

[من نصر دين الله فقد نصر الله وأدى واجبا :]
أعلم أن من نصر دين الله فقد نصر الله وأدى واجبا في نصرته ، فله أجر النصر وأجر أداء الواجب ، بما نواه من امتثال أمر الله في ذلك وتعين عليه ذلك ، ولو كفاه غيره مئونة ذلك فلا يتأخر عن أمر الله ، ونصرة الله قد تكون بما يعطي من العلم المظهر للحق الدافع للباطل ، فهو جهاد معنوي محسوس ، فكونه معنويا لأن الباطن يقبله ، فإن العلم متعلقه النفس ، وأما كونه محسوسا فما يتعلق بذلك من العبارة عنه باللسان أو الكتابة ، فيحصل للسامع ، أو الناظر بطريق السمع من المتكلم ، أو بطريق النظر من الكتابة .
وجهاد العدو نصرة محسوسة ، ما هي معنوية ، فإنه ما نال العدو من المقاتل له شيئا في الباطن يرده عن اعتقاده ، كما ناله من العلم إذا علّمه وأصغى إليه ، ووفقه الله للقبول وفتح عين فهمه لما يورده عليه العالم في تعليمه ، وهي أعظم نصرة ، وهو أعظم أنصاري لله ، يقول النبي صلّى الله عليه وسلّم
[لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس]
وقوله تعالى »فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا »بالغلبة والقهر ، وهو التأييد الإلهي الذي يقع به ظهورهم على الأعداء ، فأيدهم« عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ »على المنازع .

(62) سورة الجمعة مدنيّة

[سورة الجمعة (62) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(1)

ص 324

الاسم الملك هو المهيمن على الأجناد الأسمائية فإن أسماءه سبحانه وتعالى عساكره ، وهي التي يسلطها على من يشاء ويرحم بها من يشاء ، فهو تعالى« الْمَلِكِ »بنسبة ملك السماوات والأرض إليه ، فإنه رب كل شيء ومليكه« الْقُدُّوسِ »أي الطاهر ، والتقديس الذاتي يطلب التبري من تنزيه المنزهين ، فإنهم ما نزهوا حتى تخيلوا وتوهموا ، وما ثمّ متخيل ولا متوهم يتعلق به أو يجوز أن يتعلق به فينزه عنه ، بل هو القدوس لذاته ، لذلك قال« الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ »-إشارة - في التقديس

، كأنه تعالى يقول : عبدي أنا الواحد الذي لا تحيط بي الأفكار ، ولا تنتهي إليّ الأسرار ، ولا تدركني البصائر ولا الأبصار ، وأنا اللطيف الخبير ، الحكيم القدير ، أنا كما كنت ، عدمت أو وجدت ، ما طرأ حال كنت عدمته ، ولا فقدت شيئا ثم وجدته ، علمي محيط ببسيطك ، وقدرتي ظاهرة في تخطيطك ، تنزهت عن التنزيه ، فكيف عن التشبيه ؟ في العجز معرفتي على الكمال ، وهي حضرة الجلال ، ليس لي مثل معقول ، ولا دلت عليه العقول ، الألباب حائرة في كبريائي ، والأسرار مطيفون بعرش ردائي ، أنت وأنا حرف ومعنى ، بل معنى ومعنى ، أنت المثل الخفي ، المنقول اللغوي « 1 » ، وأنا الواحد الجلي ، أنت الواحد وأنا الواحد ، والواحد في الواحد بالواحد ، فإذا ضرب الفرد في الفرد ، بقي الرب وفني العبد .

شرح بعض ما يوهم مما جاء مرموزا ، قوله (أنت وأنا حرف ومعنى) أي أن الحرف يتضمن المعنى ، وأنت لا تتضمن ربك ، فلذلك قال (بل معنى ومعنى) أي هو أشد بيانا ، وإن دللت عليه بحرفيتك فإنما تدل عليه من كونه موجدك فقط ، فما دللت إلا على نفسك ، أما قوله (أنت المثل الخفي) أي لكونك على الصورة ، وقوله (اللغوي) أي بأدنى ما يقع به التشبيه في مجرد اللفظ ، كقولك : عالم وعالم ، وقوله (وأنا الواحد الجلي) أي الذي لا يقبل التشبيه .

[سورة الجمعة (62) : آية 2]

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ(2)

---

(1)راجع تفسير قوله تعالى :« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »سورة الشورى آية 11.

ص 325

**بحث في الأمية - ** [تعريف الأمي والأمية]
الأمية لا تنافي حفظ القرآن ولا حفظ الأخبار النبوية ، ولكن الأمية عندنا من لم يتصرف بنظره الفكري وحكمه العقلي في استخراج ما تحوي عليه من المعاني والأسرار وما تعطيه من الأدلة العقلية في العلم بالإلهيات ، وما تعطيه للمجتهدين من الأدلة الفقهية والقياسات والتعليلات في الأحكام الشرعية ، فإذا سلم القلب من علم النظر الفكري شرعا وعقلا كان أميا ، وكان قابلا للفتح الإلهي على أكمل ما يكون بسرعة دون بطء ، ويرزق من العلم اللدني في كل شيء ما لا يعرف قدر ذلك إلا نبي أو من ذاقه من الأولياء ، وبه تكمل درجة الإيمان ونشأته ، وتقف بهذا العلم على إصابة الأفكار وغلطاتها ، وبأي نسبة ينسب إليها الصحة والسقم ، وكل ذلك من الله ، فإن الموازين العقلية وظواهر الموازين الاجتهادية في الفقهاء ترد كثيرا من الأمور ، إذ كان جله ومعظمه فوق طور العقل ، وميزانه لا يعمل هنالك ، وفوق ميزان المجتهدين من الفقهاء لا فوق الفقه ، فإن ذلك عين الفقه الصحيح والعلم الصريح ، وفي قصة موسى والخضر دليل قوي على ما ذكرناه ، فكيف حال الفقيه ؟ وأين الأينية وما شاكلها التي نسبها الشارع إلى الإله من الموازين النظرية والبراهين العقلية على زعم العقل وحكم المجتهد ؟ فالرحمة التي يعطيها الله عبده أن يحول بينه وبين العلم النظري والحكم الاجتهادي من جهة نفسه ، حتى يكون الله يحابيه بذلك في الفتح الإلهي والعلم الذي يعطيه من لدنه ، فيعطي البصر حقه في حكمه وسائر الحواس ، ويعطي العقل حكمه وسائر القوى المعنوية ، ويعطي النسب الإلهية والفتح الإلهي حكمهم ، فبهذا يزيد العالم الإلهي على غيره ، وهو البصيرة التي نزل القرآن بها في قوله تعالى :(أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)وهو تتميم قوله تعالى :« بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ »فهو النبي الأمي الذي يدعو على بصيرة مع أميته ، والأميون هم الذين يدعون معه إلى الله على بصيرة ، فهم التابعون له في الحكم إذ كان رأس الجماعة . والمجتهد وصاحب الفكر لا يكون أبدا على بصيرة فيما يحكم به ، فأما المجتهد فقد يحكم اليوم في نازلة شرعية بحكم ، فإذا كان في غد لاح له أمر آخر أبان له خطأ ما حكم به بالأمس في النازلة ، فرجع عنه وحكم اليوم بما ظهر له ، ويمضي حكمه في الأول والآخر ، ويحرم عليه الخروج عما أعطاه الدليل في اجتهاده في ذلك الوقت ، فلو كان على بصيرة لما حكم بالخطإ في النظر الأول ، بخلاف حكم النبي ، فإن ذلك صحيح ، أعني الحكم الأول ، ثم رفع الله ذلك الحكم بنقيضه

ص 325

وسمّي ذلك نسخا ، وأين النسخ من الخطأ ؟ فالنسخ يكون مع البصيرة ، والخطأ لا يكون مع البصيرة ، وكذلك صاحب العقل ، وهو واقع من جماعة من العقلاء ، إذ نظروا واستوفوا في نظرهم الدليل وعثروا على وجه الدليل أعطاهم ذلك العلم بالمدلول ، ثم تراهم في زمان آخر أو يقوم له خصم من طائفة أخرى كمعتزلي أو أشعري أو برهمي أو فيلسوف بأمر آخر يناقض دليله الذي كان يقطع به ويقدح فيه ، فينظر فيه فيرى أن ذلك الأول كان خطأ ، وأنه ما استوفى أركان دليله وأنه أخل بالميزان في ذلك ولم يشعر ، وأين هذا من البصيرة ؟

[سورة الجمعة (62 : (الآيات 3 إلى 9]

وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5) قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (6) وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7)
قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9)

[صلاة الجمعة :]

اعلم أن يوم الجمعة هو آخر أيام الخلق ، وفيه خلق من خلقه الله على الصورة وهو آدم ، فيه ظهر تمام الخلق وغايته ، وبه ظهر أكمل المخلوقات وهو الإنسان ، ولما جمع الله خلق الإنسان فيه بما أنشأه تعالى عليه من الجمع بين الصورتين - صورة الحق وصورة العالم-

ص 327

سماه الله بلسان الشرع يوم الجمعة ، ولما زينه الله بزينة الأسماء الإلهية وحلّاه بها وأقامه خليفة فيها بها فظهر بأحسن زينة إلهية في الكمال ، - ومن كان مجلى كمال الحق فلا زينة أعلى من زينة الله - أطلق الله عليه اسما على ألسنة العرب في الجاهلية ، وهو لفظ العروبة ، أي هو يوم الحسن والزينة ، فظهر الحق في أكمل الخلق وهو آدم ، فلم يكن في الأيام أكمل من يوم الجمعة ، فإن فيه ظهرت حكمة الاقتدار بخلق الإنسان فيه ، الذي خلقه الله على صورته ، فيوم الجمعة خير يوم طلعت فيه الشمس ، وما بيّنه الله لأحد إلا لمحمد صلّى الله عليه وسلّم لمناسبته الكمالية ، فإنه أكمل الأنبياء ونحن أكمل الأمم ، وسائر الأمم وأنبيائها ما أبان الحق لهم عنه ، لأنهم لم يكونوا من المستعدين له لكونهم دون درجة الكمال ، أنبياؤهم دون محمد صلّى الله عليه وسلّم ، وأممهم دوننا في الكمال ، فلما كان يوم الجمعة أكمل الأيام وخلق فيه أكمل الموجودات ، خصّه الله بالساعة التي ليست لغيره من الأيام ، والزمان كله ليس سوى هذه الأيام ، فلم تحصل هذه الساعة لشيء من الزمان إلا ليوم الجمعة ، وكان خلق الإنسان في هذه الساعة المذكورة المخصصة من يوم الجمعة ، فإنها أشرف ساعاته ، فالحمد لله الذي اصطفانا وهدانا إلى يوم الجمعة ، وخصّنا بساعته فإنه من أعظم الهداية التي هدى الله إليها هذه الأمة خاصة ، فإنه اليوم الذي اختلفوا فيه ، فيوم الجمعة أشرف أيام الأسبوع وشرفه ذاتي لعينه ، ولا يفاضل بيوم عرفة ولا غيره ، فإن فضل يوم عرفة وعاشوراء لأمور عرضت ، إذا وجدت في أي يوم كان من أيام الأسبوع كان الفضل لذلك اليوم لهذه الأحوال العوارض ، ولهذا شرع الغسل - وهو فرض عندنا - ليوم الجمعة لا لنفس الصلاة ، فإن اتفق أن يغتسل في ذلك اليوم لصلاة الجمعة ، فلا خلاف أنه أفضل بلا شك ، وصلاة الجمعة واجبة على من تجب عليه الصلوات المفروضة ، واتفق العلماء على أن من شروطها الذكورة والصحة ، وأنها لا تجب على المرأة والمريض ، وعندنا واجبة على المسافر ، وتجب على العبد ، فللعبد أن يتأهب فإن منعه سيده فيكون السيد من الذين يصدون عن سبيل الله ، وكل من ذكرناه ونذكر أنه لا تجب عليه الجمعة إذا حضرها صلاها ، وشروط الجمعة شروط الصلاة المفروضة ، ووقتها مخيّر فيه أن تكون قبل الزوال أو أن تكون وقت الزوال يعني وقت الظهر ، وهي لا تجوز للمنفرد ، فمن شروطها الجماعة وأقلها واحد مع الإمام ، حضرا وسفرا ، والذي أذهب إليه أن صلاتها قبل الزوال أولى لأنه وقت لم يشرع فيه فرض ، فينبغي أن يتوجه إلى

ص 328

الحق سبحانه بالفرضية في جميع الأوقات ، فكانت صلاتها قبل الزوال أولى ، والسعي إلى صلاة الجمعة من وقت النداء ، ويكون الثواب من البدنة إلى البيضة ، وهو حين يشرع الخطيب في خطبته ، ومن جاء من وقت طلوع الشمس إلى وقت النداء فله من الأجر بحسب بكوره ، فالبدنة من وقت تعيين السعي ،

والأذان وقته إذا جلس الإمام على المنبر ، وهو كالأذان للصلوات المفروضة كلها ، ولا توقيت في عدد المؤذنين ، ولا يجوز أن يؤذن اثنان ولا جماعة معا ؛ بل واحد بعد واحد ، فإن ذلك خلاف السنة ، ومن حين الأذان يحرم البيع والشراء ،

فالأذان إعلام وإعلان للإتيان والسعي ، ويجوز أن يقام جمعتان في مصر واحد إلا أن فيه ما لا يثلج الصدر به ، والأولى أن لا يكون ، ولا يشترط المصر ولا المسجد ، فإنه لم يأت في هذه الأمور كلها نص من كتاب ولا سنة ،

فإذا صحت الجماعة وجبت الجمعة لا غير ، والخطبة ليست بفرض وفي النفس من ذلك شيء ، فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما نص على وجوبها ولا على خلافه ، بل نقل بالتواتر أنه لم يزل يخطب فيها ، والوجوب حكم وتركه حكم ،

ولا ينبغي لنا أن نشرع وجوبها ولا غير وجوبها ، فإن ذلك شرع لم يأذن به الله ، فمذهبنا التوقف في الحكم عليها مع العمل بها ولا بد ، فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يزل يصليها بخطبة ، كما لم يزل يصلي العيدين بخطبة ، مع اجتماعنا على أن صلاة العيدين ليست من الفروض ولا خطبتها ،

وما جاء عيد قط إلا وصلى صلّى الله عليه وسلّم صلاة العيد وخطب ، ولذلك يحتمل المعنى في قوله تعالى« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ » أنه يريد هنا بالذكر الخطبة ، فإنها شرعت للموعظة ، والعبد مأمور بالإنصات في حال الخطبة ليسمع ما يقول الواعظ والمذكر ،

وإنما قلنا إنه يريد بالسعي إلى ذكر الله الخطبة لأن الصلاة بذاتها تنهي عن الفحشاء والمنكر ، ولما لم يرد نص من الشارع بإيجاب الخطبة ولا بما يقال فيها إلا مجرد فعله ،

لم يصح عندنا أن نقول يخطب شرعا ولا لغة ، إلا أنا ننظر ما فعل فنفعل مثله على طريق التأسي لا على طريق الوجوب ، ويقبله الله على ما يعلمه من ذلك ،

ومن جاء والإمام يخطب يوم الجمعة عليه أن يركع ركعتين تحية المسجد قبل أن يجلس ، فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمر بهما ، وما ورد نهي برفع هذا الأمر ، غير أنه إذا ركع لا يجهر بتكبير ولا قراءة ، بل يسر ذلك جهد الطاقة ، ولا يزيد على التحية شيئا ولا سيما إن كان بحيث يسمع الإمام ، والداخل والإمام يخطب قد أبيح له أن يسلم وما خطأه أحد

ص 329

في ذلك ، ولا توقيت لما يقرأ به الإمام في صلاة الجمعة ، والاتباع أولى ، فقد ثبت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قرأ سورة الجمعة في الركعة الأولى والمنافقين في الثانية ، وقد قرأ سورة الغاشية بدلا من المنافقين ،
وقرأ في الأولى بسبح اسم ربك الأعلى ، وفي الثانية بالغاشية ، وغسل الجمعة واجب على كل محتلم عندنا ، وهو لليوم ، وإن اغتسل فيه للصلاة فهو أفضل ، يعني أنه إذا اغتسل فيه قبل الصلاة للصلاة فهو أفضل ، وإلا فواجب عليه أن يغتسل لليوم ولو بعد الصلاة ، وإذا كان الإنسان على مسافة بحيث أنه إذا سمع النداء يقوم للطهارة فيتطهر ، ثم يخرج إلى المسجد ويمشي بالسكينة والوقار ،
فإذا وصل أدرك الصلاة ، وجبت عليه الجمعة ، فإن علم أنه لا يلحق الصلاة فلا تجب عليه ، لأنه لبس بمأمور بالسعي إليها إلا بعد النداء ، وأما قبل النداء فلا ، وفضل الرواح إلى الجمعة من وقت النداء الأول إلى أن يبتدئ الإمام بالخطبة ، ومن بكر قبل ذلك فله من الأجر بحسب بكوره مما يزيد على البدنة مما لم يوقته الشارع ،
فالسعي من أول النهار إلى وقت النداء سعي مندوب إليه ، ومن وقت النداء إلى أن يدرك الإمام راكعا من الركعة الثانية سعي واجب ، والأجر الموقت للساعي إلى أول الخطبة ، وما بعد ذلك فأجر غير موقت ، لأنه لم يرد في ذلك شرع ،
فأمر الأجر الموقت وهو بدنة إلى بيضة ، وبينهما بقرة وهي تلي البدنة ، ويليها كبش ، وتلي الكبش دجاجة ، والبيضة تأتي بعد الدجاجة آخرا ، وليس بعدها أجر موقت ، وقصد من الحيوانات في التمثيل ما يؤكل لحمه دائما غالبا مما لا خلاف في أكله ، وبه تعظم قوة الحياة في الشخص المتغذي ، فكأن المتقرب به تقرب بحياته
وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ)
وقال عليه السلام في الجهاد [إنه جهاد النفس] وهو الجهاد الأكبر ، وأحق بيع النفس من الله إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ، فيترك العبد جميع أغراضه ومراداته ، ويأتي إلى مثل هذا السوق فيبيع من الله نفسه ، لذلك قال تعالى« وَذَرُوا الْبَيْعَ »وهو مما لكم فيه أغراض« ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »وآداب الجمعة ثلاثة : وهو الطيب والسواك والزينة وهو اللباس الحسن ، ولا خلاف فيه بين أحد من العلماء .

[سورة الجمعة (62) : الآيات 10إلى 11]
فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10) وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)

ص 330

(63) سورة المنافقون مدنيّة

[سورة المنافقون (63) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (1)

« إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ »على ما قررهم الشيطان ، فقال الله »وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ »فأكذبهم الله في أنهم قالوا ذلك لقولك ، لا في قولهم : إنك رسول الله ، فهم كاذبون لا في قولهم ، فإنهم قالوا حقا ، ولا في بواطنهم فإنهم عالمون أنه رسول الله من كتابهم ، فلم يبق تكذيب الله لهم إلا أنهم أظهروا أنهم قالوها لقوله صلّى الله عليه وسلّم ولم يكن كذلك .

[سورة المنافقون (63) : الآيات 2 إلى 6]

اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (3) وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ(6)

ص 331

الذين لا يصدقون إما عنادا وجحدا ، وإما جهالة ، هم الذين جعل الله جزاءهم عدم المغفرة .

[سورة المنافقون (63) : الآيات 7 إلى 8]
هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (8)

[منزلة الناس هي الذلة والافتقار :]
اعلم أن منزلة الناس هي الذلة والافتقار ، وذلك قوله تعالى(يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ)وكل ما ورد في القرآن من وصف الإنسان بما ليس له بحقيقة ، فإنما هو في مقابلة أمر قد ادعاه من ليس من أهله ، فقوبل به من جنسه ليكون أنكى في حقه ، قال في ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول« لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ »فنخرج منها محمدا وأصحابه ، فجاء ولده فأخبر بذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، واستأذنه في قتل أبيه لما سمع الله يقول)لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ)وكان من المنافقين ،
فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [ما أريد أن يتحدث بأن محمدا يقتل أصحابه] فأضاف الله العزة لرسوله وللمؤمنين في مقابلة دعوى المنافقين إياها ، فنزلت الآية وقال تعالى :« وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » فالعزة لله بالأصالة ، ولرسوله وللمؤمنين خلعة إلهية لا بالأصالة ، وأوقع الاشتراك في العزة وما قال : للناس ؛ بل ذكر الله تعالى العزة لهؤلاء الموصوفين بالرسالة المضافة إليه تعالى والإيمان ، فهؤلاء المذكورون لهم الإعزاز الإلهي ،
فلا تخلعن ثوبا ألبسكه الله ، في دعائك عباد الله طمعا فيما بأيديهم من عرض الدنيا ولا فيما

ص 332

هم عليه من الجاه ، ثم قال تعالى " وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ " لمن ينسبون العزة وأن العزة للرسول وللمؤمنين ، وتتميز العزة في كل موطن عن الآخر ، فالعزة لله لذاته إذ لا إله إلا هو ، وعزة رسوله بالله ، وعزة المؤمنين بالله وبرسوله ، ولما سمع أولو الألباب هذا الخطاب تنبهوا لما ذكر المؤمنين ، فلله العزة في المؤمنين ، فإنه المؤمن في المؤمنين ،
فإن الحق إذا كان سمع العبد المؤمن وبصره كانت العزة لله بما كان للعبد به في هذا المقام عزيزا ، ألا تراه في هذا المقام لا يمتنع عليه رؤية كل مبصر ولا مسموع ولا شيء مما تطلبه قوة من قوى هذا العبد ، لأن قواه هوية الحق ، ولله العزة ، ويمتنع أن يدركه من ليست له هذه القوة من المخلوقين ، ولهذا ما ذكر الله العزة إلا للمؤمنين ،
ثم إن عزة الرسول بالمؤمنين إذا كانوا هم الذين يذبون عن حوزته ، فلا عزة إلا عزة المؤمن ، فبالعزة يغلب ، وبالعزة يمتنع ، فهي الحصن المنيع ، وهي حمى الله وحرمه ،
ولا يعرف حمى الله ويحترمه إلا المؤمن خاصة ، والمؤمن بالعزة يمتنع أن يؤثر فيه المخالف الذي يدعوه إلى الكفر بما هو به مؤمن ،
واعلم أن إعزاز الله عبده أن لا يقوم به من نعوت الحق في العموم نعت أصلا ، فهو منيع الحمى من صفات ربه ، فإنه أعظم الاعتزاز من حمى نفسه من أن يقوم به وصف رباني ، وليس إلا العبد المحض ،
فإن ظهر بأمر الله ، فأمر الله أظهره ، واعلم أن العزة إن أخذها العبد عن أمر الله ، ولكنه لما قام بها في الخلق وظهر بها اعتز في نفسه على أمثاله ، لحق بالأخسرين أعمالا ، وهم ملوك الإسلام وسلاطينهم وأمراؤهم ، يفتخرون بالرئاسة على المرءوسين جهلا منهم ،
ولذلك لا يكون أحد أذل منهم في نفوسهم وعند الناس إذا عزلوا عن هذه المرتبة ،
ومن كان في ولايته حاله مع الخلق حاله دون هذه الولاية ثم عزل ، لم يجد في نفسه أمرا لم يكن عليه ، فبقي مشكورا عند الله وعند نفسه وعند المرءوسين الذين كانوا تحت حكم رئاسته ، وهذا هو المعتز بالله ، بل العزيز الذي منع حماه أن يتصف بما ليس له إلا بحكم الجعل ،
فمن اعتز بالحق سعد ، ومن اعتز بغيره شقي وإن نصر في الوقت- إشارة - العزة لله ولرسوله
وللمؤمنين ، فلا يتواضع إلا مؤمن ، فإن له الرفعة الإلهية بالإيمان .

[سورة المنافقون (63) : الآيات 9 إلى 11]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (9) وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ(11)

ص 333

فإنها أنفاس معدودة وآجال مضروبة محدودة ، يبلغ الكتاب فيها أجله ، ويرى كل مؤمل ما أمله .

(64) سورة التغابن مدنيّة

[سورة التغابن (64) : الآيات 1 إلى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1
) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) خَلَقَ السَّماواتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ
وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (4)
أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (5) ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ
تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)
(6زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرٌ(7)

ص 334

-فائدة –

إذا كنت في شيء ولا بد قائلا *** فقل فيه علما لا تقل فيه بالزعم
فإن الذي قد قال بالزعم مخطئ *** كذا جاء في القرآن إن كنت ذا فهم
ولا تك ذا فكر إذا كنت طالبا *** مشاهدة الأعيان واحذر من الوهم
وكن مع حكم الله في كل حالة *** فقد فاز بالإدراك من قام بالحكم

[سورة التغابن (64) : الآيات 8 إلى 9]

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)

[يوم التغابن :]

« ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ »فإنه غبن كله ، فهو يوم التغابن ، يريد عذاب النفوس ، فيقول : يا ويلتا على ما فرطت ، فإن العبد كان متمكنا من ذلك فلم يفعل وهو يوم كشف الغطاء ، وتتبين الأمور الواقعة في الدنيا ما أثمرت هنالك ، فيقول الكافر وهو الجاهل (يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي) لعلمه أنه كان متمكنا من ذلك فلم يفعل ، فعذابه ندمه ، وما غبن فيه نفسه أشد عليه من أسباب العذاب من خارج ، وهذا هو العذاب الأكبر .
والتغابن يدرك في ذلك اليوم الكل الطائع والعاصي ، فالطائع يقول : يا ليتني بذلت جهدي ؛ والمخالف يقول :
يا ليتني لم أخالف ربي ، فيوم القيامة يوم التغابن للكل ، فالسعيد فاعل الخير يقول : يا ويلتا ليتني زدت ؛ والشقي فاعل الشر يقول : يا حسرتا على ما فرطت يا ليتني فعلت خيرا ؛ وهو يوم التغابن للمعطي والمانع ، فيود المعطي المقبول لو أعطى جميع ما عنده ، ويود المانع لو أعطى ما منع ، ويود المعطي من غير وجهه أنه أعطى من الوجه الذي يليق ويكون معه القبول . ومن التغابن الذي في ذلك اليوم الانتقال الذي بين أهل السعادة وأهل الشقاء ، فإن المؤمن هنا في عبادة ، والعبادة تعطيه الخشوع والذلة ، والكافر في عزة وفرحة ، فإذا كان يوم القيامة يخلع عز الكافر وسروره وفرحه على المؤمن ، ويخلع ذل المؤمن وخشوعه

ص 335

الذي كان لباسه في عبادته في الدنيا على الكافر يوم القيامة ، فذلك يوم التغابن حيث يرى الإنسان صفة عزه وسروره وفرحه على غيره ، ويرى ذل غيره وغمه وحزنه على نفسه .

[سورة التغابن (64) : الآيات 10 إلى 13]
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (10) ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (12) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13)

[التوحيد الخامس والثلاثون في القرآن :]
هذا هو التوحيد الخامس والثلاثون في القرآن ، وهو توحيد الرزايا والرجوع فيها إلى الله ، ليزول عنه ألمها إذ رأى ما أصيب فيه قد حصل بيد من يحفظ عليه وجوده ، ولهذا أثنى الله على من يقول إذا أصابته مصيبة(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ)فهم لله في حالهم ، وهم إليه راجعون عند مفارقة الحال ، فمن حفظ عليه وجوده ، وحفظ عليه ما ذهب عنه ، وكان ما حصل عنده أمانة إلى وقتها ، فما أصيب ولا رزئ . فتوحيد الرزايا أنفع دواء يستعمل ، ولذلك أخبر بما لهم منه تعالى في ذلك فقال " أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ."

[سورة التغابن (64) : آية 14]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14)
« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ «ومنهم الولد العاق ، لا يزال يطرد أباه ويهجحه ليلا ونهارا على قدر ما يقدر عليه.

ص 336

[سورة التغابن (64) : آية 15]
إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)
أعظم البلايا والمحن وقوع الفتن ، وأي فتنة أعظم عند الرجال من فتنة الولد والمال ، الولد مجهلة مجبنة مبخلة ؛ والمال مالك ، وصاحبه بكل وجه وإن فاز هالك ، إن أمسكه أهلكه ، وإن جاد به تركه - راجع سورة الأنفال آية 28. -

[سورة التغابن (64) : آية 16]
فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16)
« فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ »[« فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . . . » الآية :]
وإن كان المؤمنون قد تقدم ذكرهم فأعاد الضمير عليهم ، ولكن مثل هذا لا يسمى تصريحا ولا تعيينا ، فينزل عن درجة التعيين ، مثل قوله(اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ)من كوننا مؤمنين ، فيحدث لذلك حكم آخر ، فقال« فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ »ابتداء آية بفاء عطف وضمير جمع لمذكور متقدم قريب أو بعيد ، والمضمر صالح لكل معين ، لا يختص به واحد دون آخر فهو مطلق ، والمعين مقيد ، فالضمير الخطابي يعم كل مخاطب كائنا من كان ، من مؤمن وغير مؤمن وإنسان وغير إنسان ؛ واعلم أن الاستطاعة لو بذلها الإنسان وقع في الحرج ، لأنه يكون قد بذلها عن جهد ومشقة ، وقد رفع الله الحرج عن عباده في دينه ، فعلمنا أن المراد بالاستطاعة في مثل قوله تعالى « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » و(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها) و(ما آتاها)أن حدها أول درجات الحرج ، فإذا أحس به أو استشرف عليه قبل الإحساس به فذلك حد الاستطاعة المأمور بها شرعا ، ليجمع بين قوله تعالى« فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ »وبين قوله(ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)(ودين الله يسر) و(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ)
في قوله« مَا اسْتَطَعْتُمْ »ولما فهمت الصحابة من الاستطاعة ما ذكرناه لذلك كانت رخصة لعزمة قوله تعالى :(حَقَّ تُقاتِهِ) وتخيل الصحابة أن الله خفف عن عباده في قوله (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ) بقوله « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ »
وما علموا أنهم انتقلوا إلى الأشد ، فإن تقوى الله بالاستطاعة أعظم في التكليف ، فإنه عزيز أن يبذل الإنسان في عمله جهد استطاعته ، لا بد من فضلة يبقيها ، وعلمنا أن الله أثبت العبد

ص 337

في الاستطاعة ، فلا ينبغي أن ننفيه عن الموضع الذي أثبته الحق فيه ، ولولا ما ظهر العبد بالدعوى ما قيل له " فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ " بالقوة التي جعلتها لكم فيكم بين الضعفين ، فمن تنبه على أن قوته مجعولة ، وأنها لمن جعلها لم يدع فيها ، بل هي أمانة عنده ، لا يملكها ، والإنسان لا يكون غنيا إلا بما يملكه ، والأمانة عارية لا تملك ، مأمور من هي عنده بردها إلى أهلها ،

وهو قوله [لا حول ولا قوة إلا بالله] أي القوة قائمة بالله لا بنا ، فالمدعون في القوة يجعلون« مَا »في قوله« مَا اسْتَطَعْتُمْ »مصدرية ؛ وأهل التبري يجعلونها للنفي في الآية ، فنفى عندهم الاستطاعة في التقوى ، وأثبتها عند من جعلها مصدرية

- **إشارة** - لما فتح الله باب الرحمتين ،

وبان الصبح لذي عينين ، أوقف الحق من عباده من شاء بين يديه ، وخاطبه مخبرا بما له وعليه ، وقال له : إن لم تتق الله جهلته ، وإن اتقيته كنت به أجهل ، ولا بد لك من إحدى الخصلتين ، فلهذا خلقت لك الغفلة حتى تتعرى عن حكم الضدين ، وكذا النسيان ، لأنه بدون الغفلة يظهر حكم أحدهما ، فاشكر الله على الغفلة والنسيان .

« وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ » الشح في الحيوان من أثر الطبيعة ، وأوفره في الإنسان لما ركّبه الله عليه في نشأته من وفور العقل وتحكيم القوى الروحانية والحسية ، وقد جبله الله على الحرص والطمع أن يكون كل شيء له وتحت حكمه ، فالإنسان مجبول على العجز والبخل ، قال تعالى): وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)من نظر في هذا الأصل زكت نفسه وتطهر من الدعوى« فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »

- **تحقيق** - المخلوق ضعيف ، ولولا المصالح ما شرع التكليف ،

فخذ ما استطعت ، ولا يلزمك العمل بكل ما جمعت ، فإن الله ما كلف نفسا إلا ما آتاها ، وجعل لها بعد عسر يسرا لما تولاها ، وشرع في أحكامه المباح ، وجعله سببا للنفوس في السراح والاسترواح إلى الانفساح ، ما قال في الدين برفع الحرج ، إلا رحمة بالأعرج ، وعلى منهج الرسول صلّى الله عليه وسلّم درج ، دين الله يسر ، فما يمازجه عسر ، بعث بالحنيفية السمحاء ، والسنة الفيحاء ، فمن ضيق على هذه الأمة ، حشر يوم القيامة مع أهل الظلمة .

[سورة التغابن (64) : الآيات 17 إلى 18]

إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(18)

ص 338

(65) سورة الطّلاق مدنيّة

[سورة الطلاق (65) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً (1)

« يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ »أي لاستقبال عدتهن ، والطلاق المشروع لا يكون إلا في طهر لم تجامع فيه ، فإذا طلق فيه كانت الأطهار غير كاملة ، ولا بد أن تكون الثلاثة قروء كاملة« وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ »

[« وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » الآية] :

حدود الله أحكامه في أفعال المكلفين ، وأحكام الله التي هي حدوده : وجوب وحظر وكراهة وندب وإباحة ، فكل متصرف بحركة وسكون فلا بد أن يكون تصرفه في واجب أو محظور أو مندوب أو مكروه أو مباح ، لا يخلو من هذا ،

فإن كان تصرفه في واجب عليه فعله بترك فقد تعدى حدود الله بتركه ما وجب عليه فعله ، فإن تركه على أنه ليس بواجب عليه فقد تعدى في ذلك تعدي كفر ، ولا بد أن يحكم فيه بغير حكم الله ،

وينتقل فيه إلى حكم آخر من حكم الله ، لكن في غير هذا العين ، فأباح ترك ما أوجب الله عليه فعله ،

وترك ما حرم الله عليه تركه ، وإن قال بوجوب الترك فيما قال الشرع فيه بوجوب الفعل ، فهذا تعد عظيم فاحش واتباع هوى مضل عن سبيل الله ، فالتعدي بالفعل والترك معصية ، والتعدي بالاعتقاد كفر ، ومن قلب أحكام الله . فقد كفر وخسر .

وثمّ تعد آخر لحدود الله وهو قلب الحقائق ، ويسمى المتعدي جاهلا وتعديه جهلا ، وهي الحدود الذاتية للأشياء ، فمن تعدى هذه الحدود فقد ظلم نفسه بظلم يسمى جهلا« وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ »لأن لنفسه حدا تقف

ص 339

عنده وهي عليه في نفسها ، وذلك الحد هو عين عبوديتها ، ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم ،
وأما قوله تعالى« لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً »
وذلك لأنا ما عرفنا من القوى الموجودة في الإنسان إلا قدر ما أوجد فيه ، وربما في علم الله عنده أو في الإمكان قوى لم يوجدها الله تعالى فينا اليوم ،
ومنها قوى فوق طور العقل ، وهي قوة يوجدها الله في بعض عباده من رسول ونبي وولي ، تعطي خلاف ما أعطته قوة العقل ،
وجاءت كلمة" لَعَلَّ " وهي كلمة ترج - وكل ترج إلهي فهو واقع لا بد منه - وهذه القوة قد يحدثها الله في هذه النشأة الدنيا ،
وأما في الأحكام فمعلوم أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم لما قرر حكم المجتهد لا يزال حكم الشرع ينزل من الله على قلوب المجتهدين إلى انقضاء الدنيا ،
فقد يحكم اليوم مجتهد في أمر لم يتقدم فيه ذلك الحكم واقتضاه له دليل هذا المجتهد من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس جلي ، فهذا أمر قد حدث في الحكم إذا تعداه المجتهد أو المقلد له فقد ظلم نفسه .

[سورة الطلاق (65) : آية 2]
فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2)
"وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ »يقول مؤمنين لم تروا منهم ما يؤدي إلى تجريحهم ، وليس لكم أن تبحثوا عنهم إذ ليس في الآية ذلك . . .« وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ».
وهو قوله تعالى :(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً) فيخرج مما كان فيه فيفارقه إلى أمر آخر ، فيخرج من الضيق إلى السعة ، ومن عدم الرضى بحاله إلى الرضى بحاله ، فمن اتخذ الله وقاية أخرجه من الضيق ، أي أزال الضيق عنه ،
فاتسع في مدلول الاسم الله من غير تعيين ، ولذلك رزقه من حيث لا يحتسب ، لأنه لم يقيد فلم يتقيد ، فكل شيء أقامه الحق فيه فهو له ، فيرجع محيطا بما أعطاه الله فله السعة دائما أبدا ، فإن الانتقال يعم الجميع ، والرضا وعدم الرضا الموجب للضيق هو الذي يتفاضل فيه الخلق ؛ فمن اتقى الله خرج إلى سعة هذا الاسم ،
فيتسع باتساع هذا الاسم اتساعا لا ضيق بعده ، ومن لم يتق الله خرج من ضيق إلى ضيق ، ومن أراد أن يجرب نفسه ويأتي إلى الأمر من فصه ، فلينظر في نفسه ، إلى علمه برزقه ما هو ؟ فإن لم

ص 340

يعلم رزقه فذلك الذي خرج من الضيق إلى السعة ، وهو قوله تعالى :

[سورة الطلاق (65) : آية 3]
وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (3)
من حكم الاسم الإلهي اللطيف إيصال أرزاق العباد المحسوسة والمعنوية المقطوعة الأسباب من حيث لا يشعر بها المرزوق ، وهو قوله تعالى »وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ «
[وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ :]
وكما أن الله ما خلق الإنسان إلا لعبادته سبحانه وتعالى ، فهو يرزقه من حيث شاء ، فلا يشغل نفسه برزقه ، كما لا يشغل نفسه بأجله ، فإن حكمهما واحد ، وما يختص بهما حيوان دون حيوان ؛ فيعيش هذا المتقي الذي يجيئه رزقه من حيث لا يحتسب ، طيب النفس في سعة الرجاء ، وسعة من أمله ، فإن من علامة التحقق بالتقوى أن يأتي رزق المتقي من حيث لا يحتسب ، وإذا آتاه من حيث يحتسب فما تحقق بالتقوى ولا اعتمد على الله ،
فإن معنى التقوى في بعض وجوهه أن تتخذ الله وقاية من تأثير الأسباب في قلبك بالاعتماد عليها ، والإنسان أبصر بنفسه ، وهو يعلم من نفسه بمن هو أوثق ،
وبما تسكن إليه نفسه ، ولا يقول : إن الله أمرني بالسعي على العيال وأوجب عليّ النفقة عليهم ، فلا بد من الكد في الأسباب التي جرت العادة أن يرزقهم الله عندها ، فهذا لا يناقض ما قلناه ، وإنما نهينا عن الاعتماد على الأسباب بقلبك والسكون عندها ،
وما قلنا لك : لا تعمل بها ، ومن معنى قوله :« يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً »هو أن الله وإن رزقك من السبب المعتاد الذي في خزانتك وتحت حكمك وتصريفك وأنت متق أنك مرزوق من حيث لا تحتسب ، فإنه ليس في حسبانك أن الله يرزقك ولا بد مما بيدك ومن الحاصل عندك ،
فما رزقك إلا من حيث لا تحتسب وإن أكلت وارتزقت من ذلك الذي بيدك ، فهذه الآية وصية الله عبده ، وإعلامه بما هو الأمر عليه« وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ »أي به تقع له الكفاية ، فلا يفتقر إلى أحد سواه ،
يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [ليس وراء الله مرمى]
فلهذا كان حسبك لأنه الغاية التي إليها تنتهي ، عن أبي سعيد الخدري أنه قال إنه أصبح ذات يوم وليس عندهم طعام ، وأصبح وقد عصب على بطنه حجرا من الجوع ،
فقالت له امرأته : ائت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقد أتاه

ص 341

فلان فأعطاه وفلان فأعطاه ، قال : فأتيته ألتمس شيئا فأطلبه ، فانتهيت إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو يخطب ويقول
[من يستعف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن سألنا شيئا أعطيناه وواسيناه ، ومن استعف عنا واستغنى فهو أحب إلينا ممن سألنا]
قال : فرجعت وما سألته ، فرزقني الله تعالى حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالا منا« إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ».

[سورة الطلاق (65) : آية 4]
وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (4)
فأقام الأشهر مقام الحيض .

[سورة الطلاق (65) : الآيات 5 إلى 6]
ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (5) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى (6)
« وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى »هذا دليل الذي يقول إنه لا يجب على الوالدة إرضاع ولدها .

[سورة الطلاق (65) : آية 7]
لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ ما آتاها سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً(7)

" لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها »من القوة على إقامة الدين ، فقد أعطاها الله أمرا وجوديا ، وهو التمكن الذي يجده الإنسان من نفسه ، وبذلك القدر صح أن يكون مكلفا ، فإن الشارع إنما يكلف العبد على حاله الذي يقدر عليه ، وخفف عليه أكثر من هذا بقوله تعالى« سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً »
متصلا بقوله تعالى« لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها » وإن أعطاها وفعلته بمشقة هي عسر في حق المكلف ، فكان اليسر قوله (ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) فما أشد رفقه بعباده ! وإن اجتهد الإنسان وأخطأ بعد الاجتهاد فلا بأس عليه ، وهو غير مؤاخذ ، فإن الله ما كلف نفسا إلا ما آتاها ، فقد وفت بقسمها الذي أعطاها الله.

[سورة الطلاق (65) : الآيات 8 إلى 12]

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً)
(8فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يا
أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (10) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ
مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ
صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً (11)
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12)

[تنزل الأمر بين السماوات والأرضين :]
فتق الله الأرض وجعلها سبعة أطباق كما فعل بالسماوات ، وجعل لكل أرض استعداد انفعال لأثر حركة فلك من أفلاك السماوات وشعاع كوكبها ، فالأرض الأولى التي نحن عليها للفلك الأول من هناك ، ثم تنزل إلى أن تنتهي إلى الأرض السابعة والسماء الدنيا ، وقوله

ص 343

تعالى :" وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ " الظاهر يريد طباقا ، ثم قال" يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ "
أي بين السماوات والأراضين ، ولو كانت أرضا واحدة لقال بينهما ، هذا هو الظاهر ، والأمر النازل بينهن هو الذي أوحي في كل سماء ، وهذا الأمر الإلهي الذي يكون بين السماء الدنيا والأرض التي نحن عليها ينزل من السماء ثم يطلب أرضه ،
وهو قوله تعالى : (وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها) فذلك الأمر هو الذي ينزل إلى أرضه بما أوحى الله فيه على عامر تلك الأرض من الصور والأرواح ؛ والأرض وإن كانت سبعة أطباق فقد يعسر في الحس الفصل بينهن ، مع علمنا بأن كل واحدة منهن لا تكون بحيث الأخرى ، كما لا يكون الجوهر بحيث جوهر آخر .
وفي هذا التنزل أسرار عظيمة ، وقد روي عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : لو فسرتها لقلتم إني كافر ، وفي رواية لرجمتموني ؛ وإنها من أسرار آي القرآن .
واعلم أن لله تعالى أرواحا من الملائكة الكرام مسخرة قد ولّاهم الله تعالى ، وجعل بأيديهم ما أوحى الله في السماوات من الأمور التي شاء سبحانه أن يجريها في عالم العناصر ، وأن الله جعل من السماء إلى الأرض معارج على عدد الخلائق ، وجعل سبحانه معارج الملائكة من الكرسي إلى السماوات ينزلون بالأوامر الإلهية المخصوصة بأهل السماوات ،
وهي أمور فرقانية ، وجعل من العرش إلى الكرسي معارج لملائكة ينزلون إلى الكرسي بالكلمة الواحدة غير منقسمة إلى الكرسي ،
فإذا وصلت الكلمة واحدة العين إلى الكرسي انفرقت فرقا على قدر ما أراد الرحمن أن يجري منها في عالم الخلق والأمر ، ومن النفس رقائق ممتدة إلى العرش منقسمة إلى فرقتين للقوتين اللتين النفس عليهما ، وهو اللوح المحفوظ وهو ذو وجهين ،
وتلك الرقائق التي بين اللوح والعرش بمنزلة المعارج للملائكة ، والمعاني النازلة في تلك الرقائق كالملائكة ، وينزل الأمر الإلهي من الكرسي على معراجه إلى السدرة إن كان لعالم السماوات القصد ، وإن كان لعالم الجنان لم ينزل من ذلك الموضع وظهر سلطانه في الجنان بحسب ما نزل إليه ؛
ثم إن الأمر الإلهي يتفرع من السدرة كما تتفرع أغصان الشجرة ، ويظهر فيه صور الثمرات بحسب ما يمده من العالم الذي ينزل إليه وقد انصبغ بصورة السدرة ، فينزل على المعراج إلى السماء الأولى فيتلقاه أهلها بالترحيب وحسن القبول والفرح ،
ويتلقاه من أرواح الأنبياء والخلق الذين قبضت أرواحهم بالموت وكان مقرها هنالك ، وتجد هنالك نهر الحياة يمشي إلى الجنة ، فإن كان له عنده أمانة ولا بد منها في كل أمر إلهي - فإن الأمر الإلهي يعم جميع الموجودات - فيلقيه

ص 344

في ذلك النهر مثل ما أعطى السدرة ، فيجري به النهر إلى الجنان . وفي كل نهر يجده هنالك مما يمشي إلى الجنة ،
وهنالك يجد النيل والفرات فيلقي إليهما ما أودع الله عنده من الأمانة التي ينبغي أن تكون لهما ، فتنزل تلك البركة في النهرين إلى الأرض فإنهما من أنهار الأرض ،
ويأخذ أرواح الأنبياء وعمار السماء الأولى منه ما بيده مما نزل به إليهم ، ويدخل البيت المعمور فيبتهج به وتسطع الأنوار في جوانبه وتأتي الملائكة السبعون ألفا الذين يدخلونه كل يوم ولا يعودون إليه أبدا .
ثم ينصب المعراج من السماء الأولى إلى السماء الثانية فينزل فيه الأمر الإلهي وهو على صورة السماء الأولى ، فينصبغ بصورة المعراج الذي ينزل فيه ،
ومعه الملائكة الموكلون به من السماء الأولى ومعه أرواح البروج والكواكب الثابتة كلها ، وينزل معه ملك من قوة كيوان لا بد من ذلك ،
فإذا وصل إلى السماء الثانية تلقته ملائكتها وما فيها من أرواح الخلائق وقوة بهرام في السماء الثانية فيعطيهم ما بيده لهم ،
وينزل إلى الثالثة وهو على صورة الثانية فينصبغ بصورة السلم الذي ينزل فيه ، والحال الحال مثل ما ذكرنا إلى أن ينتهي إلى السماء السابعة وهي السماء الدنيا ، فإذا أدّى إليهم ما بيده لهم ومعه قوة صاحب كل سماء فتحت أبواب السماء لنزوله ،
ونزلت معه قوى جميع الكواكب الثوابت والسيارة ، وقوى الأفلاك وقوى الحركات الفلكية كلها ، وكل صورة انتقل عنها مبطونة فيه ؛ فكل أمر إلهي ينزل فهو اسم إلهي عقلي نفسي عرشي كرسي ، فهو مجموع صور كل ما مر عليه في طريقه ،
فيخترق الكور ويؤثر في كل كرة بحسب ما تقبله طبيعتها إلى أن ينتهي إلى الأرض ، فيتجلى لقلوب الخلق فتقبله بحسب استعدادها وقبولها متنوع ، وذلك هو الخواطر التي تجدها الناس في قلوبهم ، فبها يسعون ، وبها يشتهون ، وبها يتحركون ،
طاعة كانت تلك الحركة أو معصية أو مباحة ، فجميع حركات العالم من معدن ونبات وحيوان وإنسان وملك أرضي وسماوي فمن ذلك التجلي ، الذي يكون من هذا الأمر الإلهي النازل إلى الأرض ، فيجد الناس في قلوبهم خواطر لا يعرفون أصلها وهذا هو أصلها ، ورسله إلى جميع ما في العالم الذي نزل إليه ما نزل معه من قوى الكواكب وحركات الأفلاك ، فهؤلاء هم رسل هذا الأمر الإلهي إلى حقائق هؤلاء العالم ، فتنمو به الناميات ، وتحيي به أمور ، وتموت به أمور ، ويظهر التأثيرات العلوية والسفلية في كل عالم بتلك الرسل التي يرسلها في العالم هذا الأمر الإلهي ، فإنه كالملك فيهم ، ولا يزال يعقبه أمر آخر ، ويعقب الآخر

ص 345

آخر في كل نفس بتقدير العزيز العليم ، فإذا نفذ فيهم أمره وأراد الرجوع ، جاءته رسله من كل موجود بما ظهر من كل من بعثوا إليه صورا قائمة ، فيلبسها ذلك الأمر الإلهي من قبيح وحسن ، ويرجع على معراجه من حيث جاء إلى أن يقف بين يدي ربه اسما إليها ظاهرا بكل صورة ، فيقبل الحق ما شاء ويرد منها ما شاء على صاحبها من صور تناسبها ، فجعل مقر تلك الصور حيث شاء من علمه ،

فلا يزال تتابع الرسل إلى الأرض على هذه المعارج كما ذكرنا ، والأمر الإلهي ينزل من السماء الدنيا إلى الأرض في ثلاث سنين ، فكل شيء يظهر في كل شيء في الأرض فعند انقضاء ثلاث سنين من نزوله من السماء في كل زمان فرد ،

فالآثار في الأرض هي الأمر الإلهي الذي يتنزل بين السماء والأرض ، وهو في كل ما يتولد بينهما بين السماء بما ينزل منها وبين الأرض بما تقبل من هذا النزول للتكوين ، يدل على ذلك قوله تعالى« لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

إشارة إلى الصفة العملية فيهما ، فإن القدرة ما لها تعلق إلا بالإيجاد ، فعلمنا أن المقصود بهذا التنزل إنما هو التكوين ،

ثم تمم في الإخبار فقال :« وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً »إشارة إلى الصفة العلمية فيهما أي في القوتين العملية والعلمية ، فإن القدرة للإيجاد وهو العمل ، وهو العليم سبحانه بما يوجد ، القدير على إيجاد ما يريد إيجاده ، لا مانع له ، فجعل الأمر يتنزل بين السماء والأرض كالولد يظهر بين الأبوين ، وأحاط الله بكل شيء علما عند من رزقه الله فهما ،

فلا تعم الإحاطة كل شيء إلا إذا كانت معنى ، ولا يعلم الشيء من جميع وجوهه إلا الله عزّ وجل الذي أحاط بكل شيء علما ، سواء كان الشيء ثابتا أو موجودا أو متناهيا أو غير متناه ، فالمعلوم لا يزال محصورا في العلم ، لهذا كان المعلوم محاطا به

فقال تعالى :« أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً »من الواجبات والجائزات والمستحيلات ، وهو تعلق أعم من تعلق قوله تعالى : (وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً)

وإن كان بعض العلماء لا يسمي شيئا إلا الموجود ، فلا نبالي فإن الله قد أحاط بكل شيء علما ، وقد علم المحال ، ولو خصص صاحب هذا الاصطلاح العلم المحيط في هذه الآية بالموجودات ، فليس له دليل على ذلك إلا كونه اصطلح على أنه لا يسمي شيئا إلا الموجود ، فالإحاطة هنا على بابها في العموم ، والإحاطة عبارة عن تعلق العلم بالمعلومات الغير المتناهية هنا ، فيحيط بالمحال العلم أي معنى ، لعلمه من جميع الوجوه.

ص 346

(66) سورة التحريم مدنيّة

[سورة التحريم (66) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3)

لما خلق سبحانه من كل شيء زوجين خلق كتابين : كتابا سماه أمّا ، فيه ما كان قبل إيجاده وما يكون ، كتبه بحكم الاسم المقيت ، فهو كتاب ذو قدر معلوم ، فيه بعض أعيان الممكنات وما يتكون عنها ؛ وكتابا آخر ليس فيه سوى ما يتكون عن المكلفين خاصة ،
فلا تزال الكتابة فيه ما دام التكليف ، وبه تقوم الحجة للّه على المكلفين ،
وبه يطالبهم لا بالأم ، من الكتاب الثاني يسمى الحق خبيرا ، ومن الأم يسمى عليما ، فهو العليم بالأول الخبير بالثاني .

[سورة التحريم (66) : آية 4]

إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ (4)

[ليس في العالم المخلوق أعظم قوة من المرأة :]
اعلم أنه ليس في العالم المخلوق أعظم قوة من المرأة ، لسر لا يعرفه إلا من عرف فيم وجد العالم ؟ وبأي حركة أوجده الحق تعالى ؟ وأنه عن مقدمتين فإنه نتيجة ،
والناكح طالب ، والطالب مفتقر ، والمنكوح مطلوب ، والمطلوب له عزة الافتقار إليه ، والشهوة غالبة ، فقد

ص 347

بان لك محل المرأة من الموجودات ، وقد نبه الله على ما خصها به من القوة
في قوله في حق عائشة وحفصة« وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ » أي تتعاونا عليه " فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ " أي ناصره" وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ "
هذا كله في مقاومة امرأتين ، وما ذكر إلا الأقوياء الذين لهم الشدة والقوة ،
فلو نظر الإنسان وتأمل العظمة التي جعل الله نفسه في مقابلتها وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة ،
وذلك في حق امرأتين من نساء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، لعلم الإنسان لمن استندتا ومن يقويهما ،
وما أظن أن أحدا من خلق الله استند إلى ما استند هاتان المرأتان ،
وقد عرفت عائشة وحفصة ، ولو علم الناس علم ما كانتا عليه لعرفوا معنى الآية ،
ولولا ما ذكر الله نفسه في النصرة ما استطاعت الملائكة والمؤمنون مقاومتهما ، فإنه لا يعلم قدر النساء إلا من علم وفهم عن الله ما قاله في حق زوجتي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عندما تعاونتا عليه وخرجتا عليه ،
وجعل في مقابلة هاتين المرأتين في التعاون عليه من يعاون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليهما وينصره ،
وهو الله وجبريل وصالح المؤمنين ثم الملائكة بعد ذلك ،
وليس ذلك إلا لاختلاف السبب الذي لأجله يقع التعاون ، فثمّ أمر لا يمكن إزالته إلا بالله لا بمخلوق ، ولذلك أمرنا أن نستعين بالله في أشياء ، وبالصبر في أشياء ، وبالصلاة في أشياء ، فثمّ أمر وإن كان بيد الله ، فإن الله قد أعطى جبريل اقتدارا على دفع ذلك الأمر ،
فأعان محمدا صلّى الله عليه وسلّم في دفعه إن تعاونتا عليه ، وإن رجعتا عنه وأعطيتا الحق من نفوسهما سكت عنهما ،
وكذلك صالح المؤمنين كان عندهما أمر نسبته في الإزالة بصالحي المؤمنين أقرب من نسبته إلى غيرهم ،
فيكون صالح المؤمنين معينا لمحمد صلّى الله عليه وسلّم ، وصالح المؤمنين يفعل بالهمة وهو أقوى الفعل ، ثم الملائكة بعد ذلك ،
إذ لم يبق إلا ما يناسب عموم الملائكة التي خلقت مسخرة ، يدفع بها ما لا يندفع في الترتيب الإلهي إلا بالملائكة ، مع انفراد الحق بالأمر كله في ذلك والقيام به ، ولكن للجواز العقلي أخبر الحق بالواقع لو وقع كيف كان يقع ، فما يقع إلا كما قاله ، وما قال إلا ما علم أنه يقع بهذه الصورة ، فأنزل الحق الملائكة بعد ذكر نفسه وجبريل وصالح المؤمنين منزلة المعينين ، فإن الظهير هو المعين ، ولا قوة إلا بالله ، فدل أن نظر الاسم القوي إلى الملائكة أقوى في وجود القوة فيهم من غيرهم ، فإنه منه أوجدهم ، فمن يستعان عليه فهو فيما يستعان فيه أقوى مما يستعان به ، فكل ملك خلقه الله من أنفاس النساء هو أقوى الملائكة ، فإنه من النفس الأقوى ، فتوجه الاسم الإلهي القوي
ص 348

في وجود القوة على إيجاد ملائكة أنفاس النساء أعطى للقوة فيهم من سائر الملائكة وإنما اختصت الملائكة بالقوة لأنها أنوار ، وأقوى من النور فلا يكون .

تعجبت من أنثى يقاوم مكرها *** بخير عباد الله ناصره الأعلى
وجبريل أيضا ناصر ثم بعده *** ملائكة بالعون من عنده تترى
ومن صلحاء المؤمنين عصابة *** سمعناه قرآنا بآذاننا يتلى
وما ذاك إلا عن وجود تحققت *** به المرأة الدنيا ومرتبة عليا
وقد صح عند الناس أن وجودها *** من النفس في القرآن والضلع العوجاء
فإن رمت تقويما لها قد كسرتها *** وما كسرها إلا طلاق به تبلى
وإن شئت أن تبقى بها متمتعا *** فمعوجها يبقى وراحتكم تفنى
فما أمها إلا الطبيعة وحدها *** فكانت كعيسى حين أحيا بها الموتى
لقد أيد الرحمن بالروح روحه *** وهذي تولاها الإله وما ثنّى
فإن كنت تدري ما أشرت به فقد *** أبنت لكم عنها وعن سرها الأخفى

- تحقيق - [خلق آدم من الفردانية والمرأة من الوحدانية]
خلق آدم من الفردانية ، وخلقت حواء من الوحدانية ، فآدم فرد وحواء واحد ، والواحد في الفرد مبطون فيه ، فقوة المرأة من أجل الوحدانية أقوى من قوة الفردانية ، فإن الفرد لا يكون إلا بعد وجود الاثنين ، فضعف عن عزة الوحدانية - راجع سورة النساء آية 1 .

[سورة التحريم (66) : آية 5]
عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً (5)
قال عليه الصلاة والسلام : [إن المرأة خلقت من ضلع أعوج ، فإن رمت تقويمها كسرتها ، وكسرها طلاقها ، وإن استمتعت استمتعت وبها عوج] .

[سورة التحريم : (66)آية 6]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ(6)

ص 349

[سورة التحريم (66) : آية 6]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (6)
لما كانت الملائكة نورا عمّت جميع الجهات ، فلا أثر للهواء في النور ، ألا ترى النور في الشمس والسراج وفي كل جسم مستنير ، نسبته إلى العلو والجنبات نسبة واحدة ، والملائكة مخلوقون من نور ، فلا أثر للهوى فيهم ، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فعالم الغيب أمر بلا نهي ، ولهذا سموا عالم الأمر ، وذلك لأن عالم الغيب عقل مجرد لا شهوة لهم ، فلا نهي عندهم في مقام التكليف ، فإن الله فطر الملائكة على المعرفة والإرادة لا الشهوة ، وأمرهم وأخبر أنهم لا يعصونه لما خلق لهم من الإرادة ، ولولا الإرادة ما أثنى عليهم بأنهم لا يعصونه ، فإن الملائكة لما أمرت بالسجود امتثلت وبادرت ، فأثنى الله عليهم بقوله :« لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ »فهم كما أثنى الله عليهم في كتابه العزيز ، فإن الأرواح الملكية لا نهي عندها ، ولهذا لم يذكر لهم نهي عن شيء لأن حقائقهم لا تقتضيه ، ولو لم تكن في قوة الملائكة ونشأتهم ما يقتضي رد أمر الله وما يقتضي قبوله ، ما أثنى الله عليهم بما أثنى به من نفي العصيان عنهم وفعلهم ما أمرهم به ، فإن المجبور لا ثناء عليه ، فالملك لا يتصور منه المخالفة ، وقد شهد الله له بذلك لتعريه عن لباس البشرية ، فلا يعصي الله ما أمره ، لأنه ما هو على حقائق متضادة تجذبه في أوقات ، وتغفله وتنسيه عما دعي إليه كما يوجد ذلك في النشأة العنصرية ، والإنسان نشأة عنصرية تطلبه حقائق متجاذبة بالفعل ، صاحب غفلة ونسيان ، يؤمر وينهى فيتصور منه المخالفة والموافقة ، فالملك أشد موافقة لله من الإنسان لما تعطيه نشأته ونشأة الإنسان ، فالملك أفضل في الموافقة لأمر الله ، والخليفة الإنسان أعلم بالأسماء الإلهية ، فالخليفة أتم في الجمعية وأفضل ، والملك أفضل من وجه خاص أو وجهين ، لكن ما له فضل الجمع ، والصورة لا تكون إلا بالمجموع- تحقيق - [« لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ » الآية]
أثنى الله تعالى على الملائكة بقوله :« لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ »والحقيقة تنادي من خلف هذا الثناء : لا يعصون الله ما أراد منهم ؛ ثم قرن الأمر منه بإرادته فقال :« وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ »ولما لم تعص الملائكة أمر الله أجابها الله في كل ما سألته فيه ، حتى أن العبد إذا وافق في الصلاة تأمينه تأمين الملائكة غفر له ، فكما أمر الله عبده فعصاه ، كذلك دعاه عبده فلم يجبه فيما سأل فيه كما أمره فلم يطعه ، فلا يلومن العبد إلا نفسه إذا دعا الحق في أمر فلم يجبه.

ص 350

[سورة التحريم (66) : الآيات 7 إلى 8]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (7) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8)
[الناس لا يسعون يوم القيامة إلا في أنوارهم :]
اعلم أن يوم القيامة ليس له ضوء جملة واحدة ، والناس لا يسعون فيه إلا في أنوارهم ، ولا يمشي مع أحد منهم غيره في نوره ، فلكل مخلوق نور على قدره ينفهق منه ، وهو النور الذي يمشون فيه يوم القيامة ، قال تعالى في المؤمنين »:نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ »يريد ما قدموه من الأعمال الصالحة عند الله ، فالمؤمن من كان قوله وفعله مطابقا لما يعتقده في ذلك الفعل ، ورد في الخبر أن الصراط يظهر يوم القيامة متنه للأبصار على قدر نور المارين عليه ، فيكون دقيقا في حق قوم عريضا في حق آخرين ، يصدق هذا الخبر قوله تعالى :« نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ »والسعي مشي ، وما ثمّ طريق إلا الصراط ، وإنما قال » وَبِأَيْمانِهِمْ »لأن المؤمن في الآخرة لا شمال له ، كما أن أهل النار لا يمين لهم .

[سورة التحريم (66) : آية 9]
يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)
كن جبارا ، على من تمرد واستكبر استكبارا ، والبس خلعة الحق وهو قوله »: وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ».

[سورة التحريم (66) : الآيات 10 إلى 11]
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(11)

ص 351

[الجار قبل الدار :]
شهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لآسية امرأة فرعون بالكمال ، فقالت العارفة المشهود لها بالكمال« رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ » دار المآل ، فقدّمت الحق على البيت ، وقدمت الجار على الدار ، لما علمت أن بالدار يصح الجوار ، وهو الذي جرى به المثل في قولهم : الجار قبل الدار ؛ ولم تطلب مجاورة موسى ولا أحد من المخلوقين ، بل قدمت الحق ، وطلبت جواره والعصمة من أيدي عداته ، فقالت« وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »حتى لا تنتهك الحرمة .

[سورة التحريم (66) : آية 12]
وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ (12)
روح عيسى منفوخ بالجمع والكثرة ، ففيه قوى جميع الأسماء والأرواح ، فإنه قال :« فَنَفَخْنا فِيهِ »بنون الجمع« مِنْ رُوحِنا »فإن جبريل عليه السلام وهب لها بشرا سويا ، فتجلى في صورة إنسان كامل ، فنفخ وهو نفخ الحق ، كما قال على لسان عبده [سمع الله لمن حمده]« وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها »وما هو إلا عيسى عليه السلام ،
وقد قال عنه تعالى :(وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ)فجعله كلمات لها لأنه كثير من حيث نشأته الظاهرة والباطنة ، فكل جزء منه ظاهرا كان أو باطنا فهو كلمة ، فلهذا قال فيه: " وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها »
لان عيسى روح الله من حيث جملته ، ومن حيث أحدية كثرته هو قوله :(وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ)
ولذلك كان شرف مريم وكمالها الذي شهد لها به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بنسبة عيسى عليه السلام إليها فقيل : عيسى ابن مريم.

ص 352

(67) سورة الملك مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

ورد أن هذه السورة تجادل عن قارئها في قبره .

تبارك ملك الملك جل جلاله *** وعز فلم يدرك بفكر ولا ذكر

تعالى عن الأمثال علو مكانة *** تبارك حتى ضمه القلب في صدري

ولم أدر ما هذا ولا ينجلي لنا *** مقالته فيه وبالشفع والوتر

عرفناه لما أن تلونا كتابه *** فللجهر ذاك الوتر والشفع للستر

[سورة الملك (67) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)

" تَبارَكَ »أي البركة والزيادة لله« الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »الملك والملكوت لهما الاسم الظاهر والباطن ، وهو عالم الغيب وعالم الشهادة ، وعالم الخلق وعالم الأمر ، وهو الملك المقهور ، فإن لم يكن مقهورا تحت سلطان الملك فليس بملك ،

ومن كان باختيار ملكه لا باختيار نفسه في تصرفه فيه فليس ذلك بملك ولا ملك ، فالملك المجبور تحت سلطان الملك ، فإذا نفذ أمره في ظاهر ملكه وفي باطنه فذلك الملكوت ، وإن اقتصر في النفوذ على الظاهر وليس له على الباطن سبيل فذلك الملك ، وقد ظهرت هاتان الصفتان بوجود المؤمن والمنافق في اتباع الرسل صلوات الله عليهم ،

فمنهم من اتبعه في ظاهره وباطنه وهو المؤمن المسلم ، ومنهم من اتبعه في ظاهره لا في باطنه وذلك المنافق ، ومنهم من اتبعه في باطنه لا في ظاهره فذلك المؤمن العاصي وهو تعالى على كل شيء قدير .

[سورة الملك (67 : (آية 2]

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2)

« الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ »

[الموت والحياة وأقسام الحياة :]

الحياة لعين الجوهر ، والموت لتبدل الصور ، كل ذلك« لِيَبْلُوَكُمْ »أي ليختبركم ، فجعل ليبلوكم إلى جانب الحياة ، فإن الميت لا يختبر« أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا »

- الوجه الأول - : أي ليختبركم بالتكليف ، وهو الابتلاء لما عليه الإنسان من الدعوى ،

ص 353

وأعظم الفتن والاختبار في النساء والمال والولد والجاه« أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا »لإقامة الحجة ، فإنه يعلم ما يكون قبل كونه ، لأنه علمه في ثبوته أزلا ، وأنه لا يقع في الكون إلا كما ثبت في العين

- الوجه الثاني - لما كان للمحب رغبة في لقاء محبوبه ، وهو لقاء خاص عيّنه الحق ، إذ هو المشهود في كل حال ، ولكن لما عيّن ما شاء من المواطن وجعله محلا للقاء مخصوص ، رغبنا فيه ، ولا نناله إلا بالخروج من الدار التي تنافي هذا اللقاء ، وهي الدار الدنيا ، خيّر النبي صلّى الله عليه وسلّم بين البقاء في الدنيا والانتقال إلى الأخرى

فقال [الرفيق الأعلى] وورد في الخبر أنه [من أحب لقاء الله] يعني بالموت [أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه]

فلقيه في الموت بما يكرهه ، وهو أن حجبه عنه ، وتجلى لمن أحب لقاه من عباده ، ولقاء الحق بالموت له طعم لا يكون في لقائه في الحياة الدنيا بالحال ، فالموت فيه فراغ لأرواحنا من تدبير أجسامها ، وهذا الذوق لا يكون إلا بالخروج من الدار الدنيا بالموت لا بالحال ، وهو أن يفارق هذا الهيكل الذي وقعت له به هذه الألفة من حين ولد وظهر به ، بل كان السبب في ظهوره ، ففرّق الحق بينه وبين هذا الجسم لما ثبت من العلاقة بينهما ،

وهو من حال الغيرة الإلهية على عبيده لحبه لهم ، فلا يريد أن يكون بينهم وبين غيره علاقة ، فخلق الموت وابتلاهم به تمحيصا لدعواهم في محبته

- الوجه الثالث - اعلم أن الحياة للأرواح المدبرة للأجسام كلها النارية والترابية والنورية كالضوء للشمس سواء ، فالحياة لها وصف نفسي ، فما يظهرون على شيء إلا حيي ذلك الشيء ، وسرت فيه حياة ذلك الروح الظاهر له ،

كما يسري ضوء الشمس في جسم الهواء ووجه الأرض وكل موضع تظهر عليه الشمس ، ولما كان كل ما سوى الله حيا ، فإنّ كل شيء مسبح بحمد ربه ولا يسبح إلا حي ،

وقد وردت الأخبار بحياة كل رطب ويابس وجماد ونبات وأرض وسماء ، فكانت الحياة للأعيان والموت للنّسب ، فظهور الروح للجسم حياة ذلك الجسم ، كظهور الشمس لاستنارة الأجسام التي ظهرت لها ، وغيبة الروح عن الجسم زوال الحياة من ذلك الجسم وهو الموت ، فالاجتماع حياة والفرقة موت ،

والاجتماع والافتراق نسب معقولة ، لها حكم ظاهر وإن كانت معدومة الأعيان ، فتركيب الروح والجسم ينتج عنه النفس الناطقة المدبرة للأجسام ، وهذا النوع من التركيب هو الذي يتصف بالموت ، فإذا فارق الروح الجسم انحلّ التركيب ، وجعل الروح مدبرا لجسد آخر برزخي ، وألحق الجسم بالتراب ، ثم ينشئ

ص 354

له نشأة أخرى يركبه فيها في الآخرة ، فقال تعالى« الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ »أي يختبر عقولكم بالموت والحياة « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » بالخوض فيهما والنظر ، فيرى من يصيب منكم ومن يخطئ ؛
واعلم أن القوى كلها التي في الإنسان وفي كل حيوان ،
- مثل قوة الحس وقوة الخيال وقوة الحفظ والقوة المصورة وسائر القوى كلها المنسوبة إلى جميع الأجسام علوا وسفلا - إنما هي للروح ،
تكون بوجوده وإعطائه الحياة لذلك الجسم ،
وينعدم فيها ما ينعدم بتوليه عن ذلك الجسم من ذلك الوجه الذي تكون عنه تلك القوة الخاصة ، فإذا أعرض الروح عن الجسم بالكلية زال بزواله جميع القوى والحياة ، وهو المعبر عنه بالموت ،
كالليل بمغيب الشمس ، وأما بالنوم فليس بإعراض كلي ، وإنما هي حجب وأبخرة تحول بين القوى وبين مدركاتها الحسية مع وجود الحياة في النائم ،
كالشمس إذا حالت السحب بينها وبين موضع خاص من الأرض ، يكون الضوء موجودا كالحياة ، وإن لم يقع إدراك الشمس لذلك الموضع الذي حال بينه وبينها السحاب المتراكم ،
وكما أن الشمس إذا فارقت هذا الموضع من الأرض وجاء الليل بدلا منه ، ظهرت في موضع آخر بنوره أضاء به ذلك الموضع ، فكان النهار هنالك كما كان هنا ،
كذلك الروح إذا أعرض عن هذا الجسم الذي كانت حياته به ، تجلى على صورة من الصور الذي هو البرزخ
- وهو بالصاد جمع صورة - فحييت به تلك الصورة في البرزخ ، وكما تطلع الشمس في اليوم الثاني علينا فتستنير الموجودات بنورها ، كذلك الروح يطلع في يوم الآخرة على هذه الأجسام الميتة فتحيا به ، فذلك هو النشر والبعث ؛
واعلم أن الحياة في جميع الأشياء حياتان : حياة عن سبب وهي الحياة التي ذكرناها ونسبناها إلى الأرواح ، وحياة أخرى ذاتية للأجسام كلها كحياة الأرواح للأرواح ، غير أن حياة الأرواح يظهر لها أثر في الأجسام المدبرة بانتشار ضوئها فيها وظهور قواها التي ذكرناها ، وحياة الأجسام الذاتية لها ليست كذلك ، فإن الأجسام ما خلقت مدبرة ،
فبحياتها الذاتية - التي لا يجوز زوالها عنها فإنها صفة نفسية لها - بها تسبح ربها دائما ، سواء كانت أرواحها فيها أو لم تكن ، وما تعطيها أرواحها إلا هيئة أخرى عرضية في التسبيح بوجودها خاصة ، وإذا فارقتها الروح فارقها ذلك الذكر الخاص ،
وهو الكلام المتعارف بيننا المحسوس ، تسبيحا كان أو غيره ، ولكل صورة في العالم روح مدبرة وحياة ذاتية ، تزول الروح بزوال تلك الصورة ، وتزول الصورة بزوال ذلك الروح ، والحياة الذاتية لكل

ص 355

جوهر فيه غير زائلة ، وبتلك الحياة الذاتية - التي أخذ الله بأبصار بعض الخلق عنها - بها تشهد الجلود يوم القيامة على الناس والألسنة والأيدي والأرجل ، وبها تنطق فخذ الرجل في آخر الزمان فتخبر صاحبها بما فعل أهله ، وبها تنطق الشجرة في آخر الزمان إذا اختفى خلفها اليهود حين يطلبهم المسلمون للقتل ، فتقول للمسلم إذا رأته يطلب اليهودي
[يا مسلم هذا يهودي خلفي فاقتله]
وإنما كانت هذه الحياة في الأشياء ذاتية لأنها عن التجلي الإلهي للموجودات كلها ، لأنه خلقها لعبادته ومعرفته ، ولا أحد من خلقه يعرفه إلا أن يتجلى له فيعرفه بنفسه ، إذ لم يكن في طاقة المخلوق أن يعرف خالقه ، والتجلي دائم أبدا مشاهد لكل الموجودات ظاهرا ، ما عدا الملائكة والإنس والجن ، فإن التجلي لهم الدائم إنما هو فيما ليس له نطق ظاهر ، كسائر الجمادات والنباتات ، وأما التجلي لمن أعطي النطق والتعبير عما في نفسه وهم الملائكة والإنس والجن من حيث أرواحهم المدبرة لهم وقواها ، فإن التجلي لهم من خلف حجاب الغيب ،
فالمعرفة للملائكة بالتعريف الإلهي لا بالتجلي ، والمعرفة للإنس والجن بالنظر والاستدلال ، والمعرفة لأجسامهم ومن دونهم من المخلوقات بالتجلي الإلهي ،
وذلك لأن سائر المخلوقات فطروا على الكتمان فلم يعطوا عبارة التوصيل ، وأراد الحق ستر هذا المقام رحمة بالمكلفين ، إذ سبق في علمه أنهم يكلفون وقد قدّر عليهم المعاصي ، فلهذا وقع الستر عنهم ، لأنهم لو عصوه بالقضاء والقدر على التجلي والمشاهدة لكان عدم احترام عظيم وعدم حياء ، وكانت المؤاخذة عظيمة ،
فكانت الرحمة لا تنالهم أبدا ، ولهذا كانت الغفلة والنسيان من الرحمة التي جعلها الله لعباده ، وما كلّف الله أحدا من خلقه إلا الملائكة والإنس والجن ، وما عداهم فإن دوام التجلي لهم أعطاهم الحياة الذاتية الدائمة ، وهم في تسبيحهم مثلنا في أنفاسنا »لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا »فأحسن المؤمنون فسعدوا ، ولم يحسن الكفار فخسروا« وَهُوَ الْعَزِيزُ »المنيع الحمى عن أن يدركه خلقه ، أو يحاط بشيء من علمه إلا بما شاء ، وهو« الْغَفُورُ »الذي ستر العقول عن إدراك كنهه أو كنه جلاله ، ولو كشف لكل أحد ما كشفه لبعض العالم لم يكن غفورا ، ولا كان فضل لأحد على أحد ، إذ لا فضل إلا بمزيد العلم .

[سورة الملك (67) : آية 3]
الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ(3)

ص 356

تدل هذه الآية على أن الله ما جعل في موجوداته من تفاوت في نفس الأمر ، فقال »ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ »فمنع أن يكون هناك تفاوت ، بل أراه الأمور على وضع الحكمة الإلهية ، فقال« فَارْجِعِ الْبَصَرَ »ينبه على النظر في المقدمتين« هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ »يعني خللا يكون منه الدخل فيما يقيمه الدليل ، فيخترق البصر الجو حتى يصل إلى السماء الدنيا فلا يرى من فطور فينفذ فيه ، ومع ذلك فمن المحال أن يكون في الوجود أمر يوافق أغراض الجميع ، فإن الله خلق نظرهم متفاوتا .

[سورة الملك (67) : آية 4]

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (4)

-الوجه الأول – " يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ »وهو النظر « 1 »

" خاسِئاً " بعيدا عن النفوذ فيه بدخل أو شبهة« وَهُوَ حَسِيرٌ »أي قد عيي أي أدركه العيا

- الوجه الثاني - فينقلب البصر خاسئا وهو حسير ، أي قد أعي ، فإن البصر لا يرى المحسوسات المبصرات ويحسر ، فينقلب خاسئا فإنه لا يجد فطرا ينفذ فيه .

[سورة الملك (67) : آية 5]

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (5)

[نور النجوم ذاتي ونور القمر مستمد :]

الكواكب عندنا كلها مستنيرة لا تستمد من الشمس كما يراه بعضهم ، والقمر على أصله لا نور له البتة ، قد محا الله نوره ، وذلك النور الذي ينسب إليه هو ما يتعلق به البصر من الشمس في مرآة القمر على حسب مواجهة الأبصار منه ، فالقمر مجلى الشمس ،

وليس فيه من نور الشمس لا قليل ولا كثير ،

وجعلت النجوم مصابيح لما بيدها من المفاتيح ، فالأنوار تظهر للأبصار ما سترته الأحلاك « وَجَعَلْناها » أي الكواكب ، فجعل الله الكواكب ذوات

---

(1)النظر هنا هو النظر العقلي.

ص 357

الأذناب من زمان بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم " رُجُوماً لِلشَّياطِينِ " بالشهب ، فإن الشياطين - **وهم كفار الجن** - لهم عروج إلى السماء الدنيا يسترقون السمع ، فقعدت الشهب على النقب ، فرمت الشياطين من قبل وعن جنب" وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ " السعير أحد الأبواب السبعة لجهنّم ،
وصف الحق في كتابه العزيز والسنة صفات من يدخلها ، وكذلك باقي الأبواب السبعة ، فإن الأبواب سميت بصفات ما وراءها مما أعدت له ، ووصف الداخلون فيها بما ذكر الله تعالى .

[سورة الملك (67) : الآيات 6 إلى 7]
وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6) إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (7)
فإن جهنم لها نفسان ، فما كان من سموم وحرور فهو من نفسها ، وما كان من برد وزمهرير فهو من نفسها ، وهي تأتي يوم القيامة بنفسها تسعى إلى الموقف تفور .

[سورة الملك (67) : آية 8]
تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8)
« تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ »على أعداء الله« كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ »فمن كان من أهل الإيمان وقاه الله من شرها وسطوتها .

[سورة الملك (67) : الآيات 9 إلى 14]
قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (9) وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ (11) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (13)
أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(14)

ص 358

[" أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ " الآية :]
اعلم أن الله تعالى لما خلق الخلق قدرهم منازل لا يتعدونها ، فخلق الملائكة ملائكة حين خلقهم ، وخلق الرسل رسلا والأنبياء أنبياء والأولياء أولياء والمؤمنين مؤمنين ، والمنافقين منافقين والكافرين كافرين ،
كل ذلك مميز عنده سبحانه معيّن معلوم ، لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم ، ولا يبدل أحد بأحد ، فليس لمخلوق كسب ولا تعمل في تحصيل مقام لم يخلق عليه ،
بل قد وقع الفراغ من ذلك ، وذلك تقدير العزيز العليم ، فمنازل كل موجود وكل صنف لا يتعداها ،
ولا يجري أحد في غير مجراه ، فكل موجود له طريق تخصه لا يسلك عليها أحد غيره ، روحا وطبعا ، فلا يجتمع اثنان في مزاج واحد أبدا ، ولا يجتمع اثنان في منزلة واحدة أبدا ، لاتساع فلك الأسماء الإلهية ، فجميع ما فيه خلقه خلقه تعالى ، وليس يخلق شيئا ليس يعلمه« وَهُوَ اللَّطِيفُ "-
-الوجه الأول - بسؤاله« الْخَبِيرُ »بما سأل عنه ، لأنه واقع ، فكل علم عنده عن وقوع فهو به خبير ، وتعلقه به قبل وقوعه هو به عليم ، فهو استفهام منه عزّ وجل عما هو به عالم ، مثل قوله تعالى للملائكة [كيف تركتم عبادي]
والملائكة تعلم أنه تعالى أعلم بعباده منهم
- الوجه الثاني - « وَهُوَ اللَّطِيفُ »لعلمه بالسر المتعلق بالإيجاد« الْخَبِيرُ »لعلمه بما هو أخفى.

[سورة الملك (67) : آية 15]
هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)
جعل الله الأرض ذلولا ، ووصفها بأنها ذلول ببنية المبالغة مبالغة في الذلة ، لكون الأذلاء يطئونها ، فإن أذل الأذلاء من وطئه الذليل ، والعبيد أذلاء ، فلا أذل ممن يطؤه الأذلاء ، ونحن وجميع الخلائق عبيد أذلاء نطؤها بالمشي في مناكبها ،
أي عليها ، فهي تحت أقدامنا ، فلهذا سماها ببنية المبالغة فهي أعظم في الذلة منهم ، ولما كانت بهذه المنزلة ، أمرنا أن نضع عليها أشرف ما عندنا في ظاهرنا وهو الوجه ، وأن نمرغه في التراب ، فعل ذلك جبرا لانكسار الأرض بوطء الذليل عليها الذي هو العبد ، فاجتمع بالسجود وجه العبد ووجه الأرض فانجبر كسرها ،
فإن الله عند المنكسرة قلوبهم ، فكان العبد في ذلك المقام بتلك الحالة أقرب إلى الله سبحانه من سائر أحوال الصلاة ، لأنه سعى في حق الغير لا في حق نفسه ، وهو جبر انكسار الأرض من ذلتها تحت وطء الذليل لها ، فانتبه لما أشرت إليك فإن الشرع ما ترك

شيئا إلا وقد أشار إليه إيماء ، علمه من علمه وجهله من جهله - اعتبار - .
هي الأم سماها ذلولا لخلقه *** وقد أعرضت عني كإعراض ذي ذنب
حياء وأعطتنا مناكب نظمها *** فنمشي بها عن أمر خالقها الرب

إذا كان حال الأم هذا فإنني *** لأولى به منها إلى انقضا نحبي
تمنيت منه أن أكون بحالها *** مع الله في عيش هنيء بلا كرب
فيأتي وجودي للدعاوى بصورة *** تنزله مني كمنزلة الرب
وهيهات أين الحق من حال خلقه *** بذا جاءت الإرسال منه مع الكتب

[سورة الملك (67) : آية 16]
أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ (16)
قال تعالى« مَنْ فِي السَّماءِ »وإلا كيف يسأل صلّى الله عليه وسلّم : بأين ؟
ويقبل من المسؤول فاء الظرف ، ثم يشهد له بالإيمان الصرف ، وشهادته حقيقة لا مجاز ، ووجوب لا جواز ، فلو لا معرفته صلّى الله عليه وسلّم بحقيقة ما ، ما قبل قولها مع كونها خرساء في السّماء .

[سورة الملك (67) : الآيات 17 إلى 19]
أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (18) أَ وَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19)
طيران الطير وإن كان بسبب ظاهر ، فإنه لا يمسكه إلا الله ، أي الله الذي وضع له أسباب الإمساك في الهواء .

[سورة الملك (67) : الآيات 20 إلى 22]
أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (20) أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21) أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ(22)

ص 360

"أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ " وهو الذي سقط على وجهه في النار من الصراط وهو من الموحدين« أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ».

[سورة الملك (67) : الآيات 23 إلى 30]
قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27)
قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (28) قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (29) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ (30)

وما عجبي من ماء مزن وإنما *** عجبت لماء سال من يابس الصخر
كضربة موسى بالعصا الحجر الذي *** تفجر ماء في أناس له تجري

(68) سورة القلم مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

من هذه السورة علم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم علم الأولين والآخرين ، وأنزل عليه الكتاب المكنون بحسن شيمه وتنزيهه عن الآفات وتقديسه ، فقال تعالى في سورة« ن ».

[سورة القلم (68) : آية 1]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ (1)

ص 361

[« ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ » من الملائكة :]
اعلم أن الله لما تسمى بالملك ، رتب العالم ترتيب المملكة ، فجعل له خواص من عباده هم الملائكة المهيمة ، جلساء الحق تعالى بالذكر ،
ثم اتخذ حاجبا من الكروبيين واحدا ، أعطاه علمه في خلقه وهو علم مفصل في إجمال ، فعلمه سبحانه كان فيه مجلى له ، وسمى ذلك الملك نونا ، فلا يزال معتكفا في حضرة علمه عزّ وجل ، وهو رأس الديوان الإلهي ، والحق من كونه عليما لا يحتجب عنه ،
ثم عين من ملائكته ملكا آخر دونه في المرتبة سماه القلم ، وجعل منزلته دون النون ، واتخذه كاتبا ، فيعلمه الله سبحانه من علمه ما شاء في خلقه بوساطة النون ،
ولكن من العلم الإجمالي ، ومما يحوي عليه العلم الإجمالي علم التفصيل ، وهو من بعض علوم الإجمال ، لأن العلوم لها مراتب من جملتها علم التفصيل ، فما عند القلم الإلهي من مراتب العلوم المجملة إلا علم التفصيل مطلقا ، وبعض العلوم المفصلة لا غير ،
واتخذ هذا الملك كاتب ديوانه ، وتجلى له من اسمه القادر ، فأمده من هذا التجلي الإلهي ، وجعل نظره إلى جهة عالم التدوين والتسطير ، فخلق له لوحا وأمره أن يكتب فيه جميع ما شاء سبحانه أن يجريه في خلقه إلى يوم القيامة خاصة ،
وأنزله منزلة التلميذ من الأستاذ ، فتوجهت عليه هنا الإرادة الإلهية فخصصت له هذا القدر من العلوم المفصلة ، وأمر الله النون أن يمد القلم بعلوم من علوم الإجمال ، تحت كل علم تفاصيل ولكن معينة منحصرة لم يعطه غيرها
- ومن وجه آخر إن الله لما خلق الملائكة وهي العقول المخلوقة ، وكان القلم أول مخلوق منها ، اصطفاه الله وقدمه وولاه على ديوان إيجاد العالم كله ،
وقلده النّظر في مصالحه ، وجعل ذلك عبادة تكليفه التي تقربه من الله ، فما له نظر إلا في ذلك ، وجعله بسيطا حتى لا يغفل ولا ينام ولا ينسى ، فهو أحفظ الموجودات المحدثة ، وأضبطه لما علمه الله من ضروب العلوم ،
وقد كتبها كلها مسطرة في اللوح المحفوظ عن التبديل والتحريف ، ومما كتبه فيه فأثبته علم التبديل ، أي علم ما يبدل وما يحرف في عالم التغيير والإحالة ، فهو على صورة علم الله لا يقبل التبديل ،
فقال تعالى للقلم [اكتب علمي في خلقي إلى يوم القيامة] وذلك أن الحق لما سوى الصورة العقلية بأمره ، أي صورة العقل الأول أو القلم كيفما شئت فسمّه ، نفخ فيه روحا من أمره ، فحملت صورة القلم في تلك النفخة بجميع علوم الكون إلى يوم القيامة ،
وجعلها أصلا لوجود العالم ، وأعطاها الأولية في الوجود الإمكاني ، فكان من علم القلم الذي علمه أن قال للحق أدبا مع المعلم : ما أكتب ؟

ص 362

هل ما علمتني أو ما تمليه علي ؟ فهذا من أدب المتعلم إذا قال له المعلم قولا مجملا يطلب التفصيل ، فقال له [اكتب ما كان وما قد علمته ، وما يكون مما أمليه عليك ، وهو علمي في خلقي إلى يوم القيامة لا غير]
فكتب ما في علمه مما كان ، فكتب العماء الذي كان فيه الحق قبل أن يخلق خلقه وما يحوي عليه ذلك العماء من الحقائق ، وكتب وجود الأرواح المهيمة وما هيمهم وأحوالهم وما هم عليه ، وذلك كله ليعلمه ، وكتب تأثير أسمائه فيهم ،
وكتب نفسه ووجوده وصورة وجوده ، وما يحوي عليه من العلوم ، وكتب اللوح ، فلما فرغ من هذا كله ، أملى عليه الحق ما يكون منه إلى يوم القيامة ، لأن دخول ما لا يتناهى في الوجود محال ، فلا يكتب ، فإن الكتابة أمر وجودي ، فلا بد أن يكون متناهيا ،
وكتب القلم منكوس الرأس أدبا مع المعلم ، لأن الإملاء لا تعلق للبصر به ، بل متعلق البصر الشيء الذي يكتب فيه ، والسمع من القلم هو المتعلق بما يمليه الحق عليه ، فأول أستاذ من العالم هو العقل الأول ،
وأول متعلم أخذ عن أستاذ مخلوق هو اللوح المحفوظ ، والمعلم على الحقيقة هو الله تعالى ، والعالم كله مستفيد ، طالب مفتقر ذو حاجة ، وهو كماله ،
واعلم أن في نفس النون الرقمية(ن)- التي هي شطر الفلك - من العجائب ما لا يقدر على سماعها إلا من شد عليه مئزر التسليم ، وتحقق بروح الموت الذي لا يتصور ممن قام به اعتراض ولا تطلع ، وكذلك في نفس نقطة النون أول دلالة النون الروحانية المعقولة فوق شكل النون السفلية ، التي هي النصف من الدائرة ، والنقطة الموصولة بالنون المرقومة الموضوعة ،
أول الشكل التي هي مركز الألف المعقولة ، التي بها يتميز قطر الدائرة ، والنقطة الأخيرة التي ينقطع بها شكل النون وينتهي بها هي رأس هذا الألف المعقولة المتوهمة ، فتقدر قيامها من رقدتها فترتكز لك على النون فيظهر من ذلك حرف اللام ،
والنون نصفها زاي مع وجود الألف المذكورة ، فتكون النون بهذا الاعتبار تعطيك الأزل الإنساني ، كما أعطاك الألف والزاي واللام في الحق ، غير أنه في الحق ظاهر ،
لأنه بذاته أزلي لا أول له ، ولا مفتتح لوجوده في ذاته بلا ريب ، والإنسان أزلي خفي فيه الأزل فجهل ، لأن الأزل ليس ظاهرا في ذاته ،
وإنما صح فيه الأزل لوجه ما من وجوه وجوده ، منها وجوده على صورته التي وجد عليها في عينه في العلم القديم الأزلي المتعلق به في حال ثبوته ، فهو موجود أزلا ، كما أن حقائقه مجردة عن الصورة المعينة معقولة أزلية تقبل القدم والحدوث.

ص 363

إذا جاء بالإجمال نون فإنه *** يفصله العلّام بالقلم الأعلى
فيلقيه في اللوح الحفيظ مفصلا *** حروفا وأشكالا وآياته تتلى
وما فصل الإجمال منه بعلمه *** وما كان إلا كاتبا حين ما يتلى
عليه الذي ألقاه فيه مسطر *** لتبلى به أكوانه وهو لا يبلى
هو العقل حقا حين يعقل ذاته *** له الكشف والتحقيق بالمشهد الأجلى

فالقلم واللوح أول عالم التدوين والتسطير ، وحقيقتهما ساريتان في جميع الموجودات علوا وسفلا ، ومعنى وحسا ، وبهما حفظ الله العلم على العالم ،
ولهذا ورد في الخبر عنه صلّى الله عليه وسلّم [قيدوا العلم بالكتابة] ومن هنا كتب الله التوراة بيده ، ومن هذه الحضرة اتخذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتّاب الوحي .

[سورة القلم (68) : آية 3]
وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3)
فإنه الإنسان الكامل ، فإنه أكمل من عين مجموع العالم ، إذ كان نسخة من العالم حرفا بحرف ويزيد ، فإذا قال : الله ؛ نطق بنطقه جميع العالم من كل ما سوى الله ، ونطقت بنطقه أسماء الله كلها ، المخزونة في علم غيبه ، والمستأثرة التي يخص الله تعالى بمعرفتها بعض عباده ، والمعلومة بأعيانها في جميع عباده ، فقامت تسبيحته مقام تسبيح ما ذكرته ، فأجره غير ممنون.

[سورة القلم (68) : آية 4]
وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)
أثنى الله على نبيه صلّى الله عليه وسلّم فقال« وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ »
[« وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ » الآية]
ولما سئلت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، قالت : كان خلقه القرآن ؛ تريد هذه الآية ، يحمد ما حمد الله ويذم ما ذم الله بلسان حق ، وإنما قالت ذلك لأنه أفرد الخلق ، ولا بد أن يكون ذلك الخلق المفرد جامعا لمكارم الأخلاق كلها ، ووصف الله ذلك الخلق بالعظمة كما وصف القرآن في قوله(وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)فكان القرآن خلقه ، فمن أراد أن يرى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممّن لم يدركه من أمته فلينظر إلى القرآن ، فإذا نظر فيه فلا فرق بين النظر إليه وبين النظر إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فكأن القرآن انتشأ صورة حسية يقال لها محمد بن عبد الله بن

ص 364

عبد المطلب ، والقرآن كلام الله وهو صفته ، فكان محمد صفة الحق تعالى بجملته ، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله ، لأنه لا ينطق عن الهوى ، فهو لسان حق ، فيكون محمد صلّى الله عليه وسلّم ما فقد من الدار الدنيا ، لأنه صورة القرآن العظيم ؛

واعلم أن الأخلاق على ثلاثة أنواع :

خلق متعد وخلق غير متعد وخلق مشترك ،

فالمتعدي على قسمين : متعد بمنفعة كالجود والفتوة ، ومتعد بدفع مضرة كالعفو والصفح واحتمال الأذى مع القدرة على الجزاء والتمكن منه ، وغير المتعدي كالورع والزهد والتوكل ، وأما المشترك فالصبر على الأذى من الخلق وبسط الوجه ،

قال صلّى الله عليه وسلّم [إن لله تعالى ثلاثمائة وستين خلقا من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة] قال أبو بكر : هل فيّ خلق منها يا رسول الله ؟

قال : كلها فيك يا أبا بكر ، وأحبها إلى الله تعالى السخاء ، وكل شيء عظمه الله يتعين تعظيمه على كل مؤمن ، ووصفه صلّى الله عليه وسلّم بقوله تعالى« وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ »فينظر المؤمن في القرآن ، فكل نعت فيه قد مدحه الله ومدح طائفة من عباده - كانوا ما كانوا - فيعلم أن ذلك صفة مدح إلهي ، فليعمل على الاتصاف بتلك الصفات ،

وإذا ذكر الله في القرآن صفة ذم بها طائفة من عباده - كانوا ما كانوا - تعين عليه اجتنابها ، فيأخذ القرآن منزلا فيه ، كأن الحق ما خاطب به غيره ،

فإذا فعل مثل هذا كان خلقه القرآن ، وعظمه الحق فعظم حيث تنفع العظمة ، ومكارم الأخلاق معلومة عقلا وشرعا وعرفا ، والتصرف بها وفيها معلوم شرعا ،

فمن اتصف بها على الوجه المشروع ، وزاد تتميم مكارم الأخلاق وهو إلحاق سفسافها بها ، فتكون كلها مكارم أخلاق بالتصرف المشروع والمعقول ، مثل الكذب في الإصلاح بين ذات البين ، والحرص في الدين ، والخداع في الحرب ،

فقد اتصف بكل ثناء إلهي ، فأثنى تعالى على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقوله« وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ »ثم وصف لنا تعالى من خلقه صلّى الله عليه وسلّم فقال الله تعالى(بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ) فللعبد أن يتخلق بالأسماء الإلهية حتى يرجع منها حقائق يدعى بها وينسب إليها ، سواء كان في حضرة الأفعال أو حضرة الصفات أو حضرة الذات .

[سورة القلم (68) : الآيات 5 إلى 9]

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7) فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(9)

ص 365

مراعاة حق الله أولى من مراعاة الخلق ، إذ مراعاة الخلق إن لم تكن عن مراعاة أمر الحق بها وإلا فهي مداهنة ، والمداهنة نعت مذموم .

[سورة القلم (68 : (الآيات 10 إلى 11]
وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11)
قال صلّى الله عليه وسلّم : [لا يدخل الجنة قتات] أي نمام ، وقد ثبت أن المجالس بالأمانة ، فلا تبلغ ذا سلطان حديثا بشرّ ، فإن ذلك نميمة ، ولا تنقل مجلسا .

[سورة القلم (68) : الآيات 12 إلى 13]
مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ (13)
فإنه بصورته دخل في الألوهية وليس بإله ، فكان زنيما .

[سورة القلم (68) : آية 14]
أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبَنِينَ (14)
والمال يوجب الغنى فله صفة الغنى بما هو عليه من الصورة .

[سورة القلم (68) : الآيات 15 إلى 35]
إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16) إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ (17) وَلا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نائِمُونَ (19)
فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخافَتُونَ (23) أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24)
وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ (28) قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (29)

ص 366

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (30) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ (31) عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ (32) كَذلِكَ الْعَذابُ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (33) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34)
أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)

المسلم هو المنقاد إلى ما يراد منه .

[سورة القلم (68) : الآيات 36 إلى 42]

ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37)إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ (39)سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (41) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (42)

« يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ »

[« يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ . . . » الآية]

أي عن أمر فظيع ، وهو الأمر الذي يقوم عليه بيان أمر الآخرة ، تقول العرب : كشفت الحرب عن ساقها ؛ وهو إذا حمي وطيسها واشتد الحرب وعظم الخطب ، وكشف الساق كما يؤذن بالشدة كذلك يؤذن بسرعة انقضاء المدة ، فمع كل زعزع رخاء ، وعند انتهاء الشدائد يكون الرخاء ، يقال : كشفت الحرب عن ساقها ، وعقدت عليها إزرة أطواقها ، فاشتد اللزام ، وكانت نزالا لما عظم القيام ،

وجاء ربك في ظلل من الغمام ، والملائكة للفصل والقضاء والنقض والإبرام ، وعظم الخطب واشتد الكرب ، وماج الجمع بحكم الصدع ، ففي الموقف ترفع الحجب بين الله وبين عباده ، وهو كشف الساق ، ويأمرهم داعي الحق عن أمر اللّه بالسجود ، فلا يبقى أحد سجد للّه خالصا على أي دين كان إلا سجد السجود المعهود ،

ومن سجد اتقاء ورياء جعل اللّه ظهره طبقة نحاس ، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، فهذا قوله :« فَلا يَسْتَطِيعُونَ »فقوله تعالى:

ص 367

" يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ »هو دعاء تمييز لا دعاء تكليف ، فإن الآخرة ليست بمحل تكليف إلا في يوم القيامة في موطن التمييز ، حين يدعون إلى السجود ، إلا الحديث الذي أخرجه الحميدي في كتاب الموازنة ولم يثبت ، ولما اقترن به الأمر أشبه التكليف ، فجوزوا بالسجود جزاء المكلفين ، فالتشريع لا يكون في الآخرة إلا في موطن واحد حين يدعون إلى السجود ، ليرجح بتلك السجدة ميزان أصحاب الأعراف ، فيقال بهذه السجدة يوم القيامة يرجح ميزان أهل الأعراف لأنها سجدة تكليف ، فيسعدون فينصرفون إلى الجنة بعد ما كان منزلهم في سور الأعراف ، ليس لهم ما يدخلهم النار ولا ما يدخلهم الجنة ، وإن شئت قلت سجود تمييز لا سجود ابتلاء ، فيتميز في دعاء الآخرة إلى السجود من سجد لله ممّن سجد اتقاء ورياء ، وفي الدنيا لم يتميز لاختلاط الصور.

[سورة القلم (68) : الآيات 43 إلى 45]

خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ (43) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45)

اعلم أن المكر الإلهي إنما أخفاه الله عن الممكور به خاصة لا عن غير الممكور به ، ولهذا قال :« مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ »فأعاد الضمير على المضمر في سنستدرجهم .

[سورة القلم (68) : الآيات 46 إلى 52]

أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50)
وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ(52)

ص 368

(69) سورة الحاقة مكيّة

[سورة الحاقة (69) : الآيات 1 إلى 10]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعادٌ بِالْقارِعَةِ (4)
فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ (6) سَخَّرَها
عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (7
) فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ (8) وَجاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ (9)
فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً (10)

فإنهم نازعوا الحق في صفاته ، فمن ظهر بصفته لم يؤاخذه الله ، فلما عصوا بالظهور بما ليس حقا لهم أهلكهم ، واعلم أن الله ما ذكر أخبار القرون الماضية إلا لنكون على حذر من الأسباب التي أخذهم الله بها أخذته الرابية ، وبطش بهم البطش الشديد .

[سورة الحاقة (69) : آية 11]

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ (11)

طغى الماء إذا ارتفع ، قال تعالى :« إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ »أي علا وارتفع ، فنسب الارتفاع وأضافه إلى الماء ، وما أضافه إلى نفسه ، فلما أضاف الحق العلو هنا للماء وارتفع ، حمل الله من أراد نجاته من سطوة ارتفاع الماء في أخشاب ضم بعضها إلى بعض حتى كانت سفينة ، فدخل فيها كل من أراد الله نجاته من المؤمنين ،

وأبطل الله هذه الرفعة بأن حمل نوحا وأتباعه في السفينة على ظهر الماء ، فكانت السفينة ونوح عليه السلام أرفع من الماء ، وعلت السفينة بمن فيها على علو الماء ، وصار الماء تحتها ، وزال في حق السفينة طغيان الماء ، فانكسر في نفسه ،

وسبب ذلك إضافة العلو له ، وإن كان من عند الله وبأمر الله ، ولكن ما أضاف

ص 369

الله العلو إلا للماء ، فلو أضاف علو الماء إلى الله تعالى لحفظ عليه علوه فلم تكن تعلو عليه سفينة ولا يطفو على وجه الماء شئ أبدا ، فهذا شؤم الدعوى.

[سورة الحاقة (69) : آية 12]
لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ (12)
[حقيقة السمع الفهم عن الله :]
يا صاحب الأذن إن الإذن ناداكا *** رفع الخطاب إذا الرحمن ناجاكا
فإن وعيت الذي يلقيه من حكم *** عليك كانت لك الأسرار أفلاكا
وإن تصاممت عن إدراك ما نثرت *** لديك كانت لك الأكوان أشراكا

فحقيقة السمع الفهم عن الله فيما يتلوه عليك سبحانه وتعالى ، فاستمع وتأهّب لخطاب مولاك إليك ، في أي مقام كنت ، وتحفظ من الوقر والصمم ، فالصمم آفة تمنعك من إدراك تلاوته عليك ، طوبى لمن كانت له أذن واعية لما يورده الحق في خطابه ، فيتأهب لقبول ما خاطبه به ، وينظر ما حكمه عند الله الذي قرره شرعا ، فيأخذه على ذلك الحد ، ومن لم يكن له أذن واعية ، ما سمع وإن سمع داعيه ، فمن أجاب الداعي فهو صاحب السمع الواعي .

[سورة الحاقة (69) : آية 13]
فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ (13)
الصور قرن من نور .

[سورة الحاقة (69) : آية 14]
وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً (14)
وذلك في القيامة ، تصير الجبال دكا دكا لتجلي الحق ، كما اندك جبل موسى لتجلي الحق ، فتصير كالعهن المنفوش ، وتصير الجبال بهذا الدك أرضا ، فمد الأرض إنما هو مزيد امتداد الجبال وتصييرها أرضا ، فما كان منها في العلو في الجو إذا انبسط زاد في بسط الأرض ، ولهذا جاء الخبر : [إن الله يمد الأرض مد الأديم] فشبه مدها بمد الأديم ،
وإذا مد الإنسان الأديم فإنه يطول من غير أن يزيد فيه شيء لم يكن في عينه ، وإنما كان فيه تقبض ونتوء ، فلما مد انبسط عن قبضه ،
وفرش ذلك النتوء الذي كان فيه فزاد في سعة الأرض ، ورفع المنخفض منها حتى بسطه ، فزاد فيها ما كان من طول من سطحها إلى القاع منها كما يكون الجلد سواء.

ص 370

[سورة الحاقة (69) : الآيات 15 إلى 16]
فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (15) وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ (16)
إذا زال الإنسان الكامل الذي هو العمد الذي من أجله أمسك الله السماء أن تقع على الأرض وانتقل إلى البرزخ هوت السماء ، وهو قوله تعالى »: وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ »أي واقعة ساقطة إلى الأرض ، والسماء جسم شفاف صلب ، فإذا هوت حلل جسمها حر النار ، فعادت دخانا أحمر كالدهان السائل ، مثل شعلة نار كما كانت أول مرة .

[سورة الحاقة (69 : (آية 17]
وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ (17)
[« وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ » الآية :]
تلا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هذه الآية ثم قال : [وهم اليوم أربعة]
وأما قوله « يَوْمَئِذٍ » يعني يوم الآخرة ، كذا ورد الخبر ، وغدا يكونون ثمانية ، فإن الآخرة فيها حكم الدنيا والآخرة ، فلذلك تكون غدا ثمانية فيظهر في الآخرة حكم سلطان الآخر ،
واعلم أن العرش في لسان العرب يطلق ويراد به الملك ، يقال : ثل عرش الملك إذا دخل في ملكه خلل ، ويطلق ويراد به السرير ، فإذا كان العرش عبارة عن الملك فتكون حملته هم القائمون به ، وإذا كان العرش السرير فتكون حملته ما يقوم عليه من القوائم ، أو من يحمله على كواهلهم ، والعدد يدخل في حملة العرش .
العرش والله بالرحمن محمول *** وحاملوه وهذا القول معقول
وأي حول لمخلوق ومقدرة *** لولاه جاء به عقل وتنزيل
جسم وروح وأقوات ومرتبة *** ما ثمّ غير الذي رتبت تفصيل
فهذا هو العرش إن حققت سورته *** والمستوي باسمه الرحمن مأمول
وهم ثمانية والله يعلمهم *** واليوم أربعة ما فيه تعليل
محمد ثم رضوان ومالكهم *** وآدم وخليل ثم جبريل
وألحق بميكال إسرافيل ليس هنا *** سوى ثمانية غرّ بها ليل

فالعرش بمعنى الملك ، وحملته القائمون بتدبيره عبارة عن : صورة عنصرية ، أو صورة نورية ، وروح مدبر لصورة عنصرية ، وروح مدبر مسخر لصورة نورية ، وغذاء لصورة عنصرية ، وغذاء علوم ومعارف لأرواح ، ومرتبة حسية من سعادة بدخول الجنة أو مرتبة

ص 372

حسية من شقاوة بدخول جهنم ، ومرتبة روحية علمية ، فتكون ثمانية ، وهم حملة عرش الملك ، أي إذا ظهرت الثمانية قام الملك وظهر واستوى عليه مليكه ، وانحصر الملك في ثمانية ، فالظاهر منها في الدنيا أربعة الصورة والغذاء والمرتبتان ، ويوم القيامة تظهر الثمانية بجميعها للعيان ، ففي الآخرة الامتياز والخلوص ،
وهو قوله تعالى :« وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ »وأما العرش الذي هو سرير ، فإن لله ملائكة يحملونه على كواهلهم ، هم اليوم أربعة وغدا يوم القيامة يكونون ثمانية ، لأجل الحمل إلى أرض المحشر ،
فالعرش محمول وهو حمل كرامة بالحاملين ، فإن لا حول ولا قوة إلا بالله ، مما اختص به الحملة ، والعرش قوائمه على الماء الجامد ، والحملة التي له إنما هي خدمة له تعظيما وإجلالا .

العرش يحمله من كان يحمله *** العرش فاعجب له من حامل محمول
إن كان عرش سرير كان حامله *** ملائك كالذي جاء في المنقول
أو كان ملكا فإن الحاملين له *** خمس ملائكة أدناهمو جبريل
ومن أناس ثلاث لا خفاء بهم *** أئمة روضهم بعلمهم مطلول
للصور والروح والأرزاق أجمعها *** والوعد ثم وعيد سيفه مسلول

[سورة الحاقة (69 : (الآيات 18 إلى 19]
يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ (18)
فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ (19)
" فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ »وهو المؤمن السعيد وإن لم يبذل الاستطاعة ، لكنه مع الجماعة« فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ ".

[سورة الحاقة (69) : آية 20]
إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ (20)
فيقول الرقيب وهو القول العجيب .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 21 إلى 23]
فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (22) قُطُوفُها دانِيَةٌ (23)
فإذا النداء من سميع الدعاء.

ص 372

[سورة الحاقة (69) : آية 24]
كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ (24)
يعني الماضية ، أيام الصوم في الدنيا في زمان التكليف .

[سورة الحاقة (69) : آية 25]
وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ (25)
وهو المنافق فإن الكافر لا كتاب له
- وجه آخر - هو الكافر والمنافق يؤتى كتابه وراء ظهره .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 26 إلى 33]
وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ (26) يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ (27) ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30)
ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33)
معناه لا يصدق بالله ، والذين لا يصدقون بالله هم طائفتان : طائفة لا تصدق بوجود الله وهم المعطلة وطائفة لا تصدق بتوحيد الله وهم المشركون ، وقوله« الْعَظِيمِ » في هذه الآية يدخل فيها المتكبر على الله ، فإنه لو اعتقد عظمة الله التي يستحقها من تسمى بالله لم يتكبر عليه ، والمنافق - فإن الآية لم تتعرض للإسلام -
فإن المنافق ينقاد ظاهرا ليحفظ ماله وأهله ودمه ، ويكون باطنه واحدا من هؤلاء الثلاثة ، وهؤلاء الطوائف الأربع المعطل والمشرك والمتكبر على الله والمنافق هم أهل النار الذين هم أهلها .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 34 إلى 37]
وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ (35) وَلا طَعامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (36) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخاطِؤُنَ (37)
[موقف القيامة :]
فاعلم أن الله تعالى إذا نفخ في الصور ، وبعث ما في القبور ، وحشر الناس والوحوش ، وأخرجت الأرض أثقالها ، ولم يبق في بطنها سوى عينها ، إخراجا لا نباتا ، وهو الفرق بين

ص 373

نشأة الدنيا الظاهرة وبين نشأة الآخرة الظاهرة ، فإذا أخرجت الأرض أثقالها وحدثت أنها ما بقي فيها مما اختزنته شيء ، جيء بالعالم إلى الظلمة التي دون الجسر ،
فألقوا فيها حتى لا يرى بعضهم بعضا ، ولا يبصرون كيف التبديل في السماء والأرض حتى تقع ،
فتمد الأرض أولا مد الأديم وتبسط ، فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، وهي الساهرة فلا نوم فيها ، فإنه لا نوم لأحد بعد الدنيا ، ويرجع ما تحت مقعر الفلك المكوكب جهنم ، ولهذا سميت بهذا الاسم لبعد قعرها ، فأين المقعر من الأرض ؟
ويوضع الصراط من الأرض علوا على استقامته إلى سطح الفلك المكوكب ، فيكون منتهاه إلى المرج الذي خارج سور الجنة ، وأول جنة يدخلها الناس هي جنة النعيم ، وفي ذلك المرج المأدبة ، وهي درمكة بيضاء نقية منها يأكل أهل المأدبة ، ووضع الموازين في أرض الحشر لكل مكلّف ميزان يخصه ، وضرب بسور يسمى الأعراف بين الجنة والنار ،
وجعله مكانا لمن اعتدلت كفتا ميزانه ، فلم ترجح إحداهما على الأخرى ، ووقفت الحفظة بأيديهم الكتب التي كتبوها في الدنيا من أعمال المكلفين وأقوالهم ، ليس فيها شيء من اعتقادات قلوبهم إلا ما شهدوا به على أنفسهم بما تلفظوا به من ذلك ، فعلقوها في أعناقهم بأيديهم ، فمنهم من أخذ كتابه بيمينه ، ومنهم من أخذه بشماله ،
ومنهم من أخذه من وراء ظهره ، وهم الذين نبذوا الكتاب في الدنيا وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا ، وليس أولئك إلا الأئمة الضلال المضلون الذين ضلوا وأضلوا ،
وجيء بالحوض يتدفق ماء ، عليه من الأواني على عدد الشاربين منه لا تزيد ولا تنقص ، ترمي فيه أنبوبان أنبوب ذهب وأنبوب فضة ، وهو لزيق بالسور ،
ومن السور تنبعث هذان الأنبوبان ، فيشرب منه المؤمنون ، ويؤتى بمنابر من نور مختلفة الإضاءة واللون فتنصب في تلك الأرض ، ويؤتى بقوم فيقعدون عليها قد غشيتهم الأنوار لا يعرفهم أحد ، في رحمة الأبد ، عليهم من الخلع الإلهية ما تقر به أعينهم ،
ويأتي مع كل إنسان قرينه من الشياطين والملائكة ، وتنشر الألوية في ذلك اليوم للسعداء والأشقياء بأيدي أئمتهم الذين كانوا يدعونهم إلى ما كانوا يدعونهم إليه من حق وباطل ،
وتجتمع كل أمة إلى رسولها ، من آمن منهم به ومن كفر ،
وتحشر الأفراد والأنبياء بمعزل من الناس بخلاف الرسل ، فإنهم أصحاب العساكر فلهم مقام يخصهم ، وقد عيّن الله في هذه الأرض بين يدي عرش الفصل والقضاء مرتبة عظمى ، امتدت من الوسيلة التي في الجنة ، يسمى ذلك المقام المحمود وهو لمحمد صلّى الله عليه وسلّم

ص 374

خاصة ، وتأتي الملائكة ملائكة السماوات ، ملائكة كل سماء على حدة متميزة عن غيرها ، فيكونون سبعة صفوف ، أهل كل سماء صف ، والروح قائم مقدّم الجماعة ، وهو الملك الذي نزل بالشرائع على الرسل ، ثم يجاء بالكتب المنزلة والصحف ،
وكل طائفة ممن نزلت من أجلها خلفها ، فيمتازون عن أصحاب الفترات وعمن تعبد نفسه بكتاب لم ينزل من أجله ، وإنما دخل فيه وترك ناموسه لكونه من عند الله ، وكان ناموسه عن نظر عقلي من عاقل مهدي ، ثم يأتي الله عزّ وجل على عرشه والملائكة الثمانية تحمل ذلك العرش فيضعونه في تلك الأرض ،
والجنة عن يمين العرش والنار من الجانب الآخر وقد علت الهيبة الإلهية وغلبت على قلوب أهل الموقف من إنسان وملك وجان ووحش ، فلا يتكلمون إلا همسا ، بإشارة عين وخفي صوت ، وترفع الحجب بين الله وبين عباده ، وهو كشف الساق ،
ويأمرهم داعي الحق عن أمر الله بالسجود ، فلا يبقى أحد سجد لله خالصا على أي دين كان إلا سجد السجود المعهود ، ومن سجد اتقاء ورياء خر على قفاه ،
<u>وبهذه السجدة يرجح ميزان أصحاب الأعراف - لأنها سجدة تكليف -</u> فيسعدون ويدخلون الجنة ، ويشرع الحق في الفصل والحكم بين عباده فيما كان بينهم ، وأما ما كان بينهم وبين الله فإن الكرم الإلهي قد أسقطه ، فلا يؤاخذ الله أحدا من عباد الله فيما لم يتعلق به حق للغير ،
وقد ورد في أخبار الأنبياء عليهم السلام في ذلك اليوم ما قد ورد على ألسنة الرسل ، ثم تقع الشفاعة الأولى من محمد صلّى الله عليه وسلّم في كل شافع أن يشفع ،
فيشفع الشافعون ، ويقبل الله من شفاعتهم ما شاء ويرد من شفاعتهم ما شاء ، لأن الرحمة في ذلك اليوم يبسطها الله في قلوب الشفعاء ،
فمن ردّ الله شفاعته من الشافعين لم يردها انتقاصا بهم ، ولا عدم رحمة بالمشفوع فيه ، وإنما أراد بذلك إظهار المنة الإلهية على بعض عباده ، فيتولى الله سعادتهم ورفع الشقاوة عنهم ، فمنهم من يرفع ذلك عنه بإخراجهم من النار إلى الجنان ،
وقد ورد شفاعته بشفاعة أرحم الراحمين عند المنتقم الجبار ، فهي مراتب أسماء إلهية لا شفاعة محققة ،
فإن الله يقول في ذلك اليوم [شفعت الملائكة والنبيون والمؤمنون وبقي أرحم الراحمين] فدل بالمفهوم أنه لم يشفع ، فيتولى بنفسه إخراج من يشاء من النار إلى الجنة ،
ونقل حال من هو من أهل النار من شقاء الآلام إلى سعادة إزالتها ، فذلك قدر نعيمه ، وقد يشاء ويملأ الله جهنم بغضبه المشوب وقضائه والجنة برضاه ، فتعم الرحمة وتنبسط النعمة.

ص 375

ولما كان لجميع الموجودات عند الله قدر وحظ ، لذلك أقسم بالكل دلالة على شرفهم ، فراع حظهم عند الحق من هذا الوجه ، ولا تقل فيمن ليس من جنسك من جماد ونبات وحيوان ليس من جنسي ، بل كل من أطاع الله فهو من جنسك إن كنت طائعا ،
قال تعالى :

[سورة الحاقة (69) : آية 38]
فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ (38)
وهو ما ظهر لنا .

[سورة الحاقة (69) : آية 39]
وَما لا تُبْصِرُونَ (39)
[« فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ ، وَما لا تُبْصِرُونَ » :]
وهو ما خفي عنا ، والظاهر هو ما أدركه الحس ، وما استتر هو ما لا يدركه الحس من المعاني ، وما استتر عن الأبصار من الملائكة والجن ، وأقسم الحق هنا بالوجود والعدم ، لأن الشرف عمّ إظهارا لعلو المقسم به ، ولكن لا تشعرون ،
فإن القسم عند العلماء تعظيم المقسوم به ، إذ لا يكون القسم إلا بمن له مرتبة في العظمة ، فعظّم الله بالقسم جميع العالم الموجود منه والمعدوم ، إذ كانت أشخاصه لا تتناهى ،
فإنه أقسم به كله في قوله« فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ وَما لا تُبْصِرُونَ »وما لا تبصرون هو الموجود الغائب عن البصر والمعدوم ،
ودخل في هذا القسم المحدث والقديم ، ويؤيد تعظيم المحدثات المقسوم بها قوله تعالى :(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ) وهي محدثات(فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) غير أنه لما علم الله عظمته في قلوب عباده موحدهم ومشركهم ومؤمنهم وكافرهم ،
وقد أقسم لهم بالمحدثات وبغير نفسه ، وعلم أنه قد تقرر عندهم أنه لا يكون القسم إلا بعظيم عند المقسم ، فبالضرورة يعتقد العالم تعظيم المحدثات ، ومن صفات الحق الغيرة ، حجّر من كونه غيورا علينا أن نقسم بغيره ، مع اعتقادنا عظمة الغير بتعظيم الله ،
فليس لمخلوق أن يقسم بمخلوق ، وإن أقسم بمخلوق فهو عاص ، ولا كفارة عليه إذا حنث ، وعليه التوبة مما وقع فيه لا غير ،
فإن قلت :أقسم تعالى بكل معلوم من موجود ومعدوم ، فأقسم بنفسه وبجميع المعلومات ، فهل لنا أن نقسم بما أقسم الله تعالى به أو محجور علينا ذلك ؟
قلنا : قد يقسم بالأمر مضافا أو مفردا ، فالمفرد : والله لأفعلن كذا ؛ والمضاف مثل قول عائشة رضي الله عنها في قسمها : ورب محمد ؛ فدخل المضاف في المضاف إليه في الذكر بالقسم ، فعلى هذا الحد يقسم الإنسان الكامل بكل معلوم ، سواء ذكر الاسم أو لم يذكره ، وهو بعض تأويلات وجوه قسم الله بالأشياء في مثل قوله تعالى(وَالشَّمْسِ)(وَالضُّحى)(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ) يريد ورب الشمس ، ورب

الضحى ، ورب التين ، فما أقسم إلا بنفسه ، فلا قسم إلا باللّه ، وما عدا ذلك من الأقسام فهو ساقط ما ينعقد به يمين في المقسوم عليه ، وقد صح عن النبي صلّى الله عليه وسلّم النهي عن اليمين بغير الله ، فإن قلت : لم أقسم الله ؟ قلنا : سبب القسم بالأشياء طلب التعظيم من الخلق للأشياء ، حتى لا يهملوا شيئا من الأشياء الدالة على الحق ، سواء كان ذلك الدليل عدما أو وجودا ، وقلنا : القسم نتيجة التهمة ، والحق يعامل الخلق من حيث ما هم عليه لا من حيث ما هو عليه ، ولهذا لم يول الحق تعالى للملائكة ، لأنهم ليسوا من عالم التهمة ، وأقسم الحق بنفسه حين أقسم بذكر المخلوقات ، وحذف الاسم يدل على إظهار الاسم في مواضع من الكتاب العزيز ، مثل قوله(فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ)فكان ذلك إعلاما في المواضع التي لم يجر للاسم ذكر ظاهر ، أنه غيب هنالك لأمر أراده سبحانه في ذلك ، والقسم دليل على تعظيم المقسم به ، ولا شك أنه قد ذكر في القسم من يبصر ومن لا يبصر ، فدخل في ذلك الرضيع والوضيع والموجود والمعدوم ، فهو القسم العام ، فإنه دخل في هذا القسم من الموجودات جميع الأشياء ، ودخل فيه العدم والمعدومات ، وهو قوله« وَما لا تُبْصِرُونَ »وما تبصرونه في الحال والمستقبل ، والمستقبل معدوم ، فللأشياء نسبة إلى الشرف والتعظيم ، وكذلك العدم المطلق فإنه يدل على الوجود المطلق ، فعظم من حيث الدلالة ، وأما شرف العدم المقيد فإنه على صفة يقبل الوجود ، والوجود في نفسه شريف ، ولهذا هو من أوصاف الحق ، فقد شرف على العدم المطلق بوجه قبوله للوجود ، فله دلالتان على الحق ، دلالة من حيث عدمه ودلالة من حيث وجوده ، وشرف العدم المطلق على المقيد بوجه وهو أنه من تعظيمه للّه وقوة دلالته أنه ما قبل الوجود ، وبقي على أصله في عينه ، غيرة على الجناب الإلهي أن يشركه في صفة الوجود .

[سورة الحاقة (69) : آية 40]
إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40)

فأقسم تعالى« إِنَّهُ » يعني القرآن وهو كلام الله « لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » فأضاف الكلام إلى الواسطة والمترجم.

ص 377

[سورة الحاقة (69) : الآيات 41 إلى 45]
وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ (41) وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (44) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45)
فإن اليمين محل الاقتدار والقوة .

[سورة الحاقة (69) : آية 46]
ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (46)
توعد الله عباده أشد الوعيد إذا هم افتروا على الله الكذب ، وهذا الحكم سار في كل من كذب على الله ، قيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أيزني المؤمن ؟ قال : نعم ؛ قيل : أيشرب المؤمن ؟ قال : نعم ؛ قيل أيسرق المؤمن ؟ قال : نعم ، قيل له : أيكذب المؤمن ؟ قال :
لا ؛ وقد ورد فيمن يكذب في حلمه أنه يكلف أن يعقد بين شعيرتين من نار وما هو بقادر .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 47 إلى 51]
فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (47) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51)
العلم الذي هو حق اليقين هو الذي لا يتطرق إليه تهمة ، فحق اليقين هو حق استقراره في القلب ، أي لا يزلزله شيء عن مقره ، وحق استقراره هو حكمه الذي أوجبه على العلم وعلى العين ، فلا يتصرف العلم إلا فيما يجب له التصرف فيه ، ولا تنظر العين إلا فيما يجب لها النظر إليه وفيه ، فذلك هو حق اليقين .

[سورة الحاقة (69) : آية 52]
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)

ص 378

(70) سورة المعارج مكيّة

[سورة المعارج (70) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ (1) لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ (2) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ (3) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4)

[الفرق بين عروج الرسول وعروج الملك :]

قيل في يوم القيامة إن مقداره خمسون ألف سنة لهول المطلع ، وما يرى الخلق فيه من الشدة ، وهو عند الآمنين الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر في الامتداد كركعتي الفجر ،

وأين زمان ركعتي الفجر من زمان خمسين ألف سنة ، واعلم أن للملائكة مدارج ومعارج يعرجون عليها ، ولا يعرج من الملائكة إلا من نزل ،

فيكون عروجه رجوعا إلّا أن يشاء الحق تعالى ، فلا تحجير عليه ، وإنما سمي النزول من الملائكة إلينا عروجا ، والعروج إنما هو لطالب العلو ، لأن لله في كل موجود تجليا ووجها خاصا به يحفظه ، ولا سيما وقد ذكر أنه سبحانه وسعه قلب عبده المؤمن ،

ولما كان للحق سبحانه صفة العلو على الإطلاق ، سواء تجلى في السفل أو في العلو ، فالعلو له ، والملائكة أعطاهم الله من العلم بجلاله بحيث إذا توجهوا من مقامهم لا يتوجهون إلا لله لا لغيره ، فلهم نظر إلى الحق في كل شيء ينزلون إليه ،

فمن حيث نظرهم إلى ما ينزلون إليه يقال تتنزل الملائكة ، ومن حيث إنهم ينظرون إلى الحق سبحانه عند ذلك الأمر الذي إليه - وله سبحانه مرتبة العلو - يقال تعرج الملائكة ،

فهم في نزولهم أصحاب عروج ، فنزولهم إلى الخلق عروج إلى الحق ، وإذا رجعوا منا إلى مقاماتهم يقال إنهم عرجوا بالنسبة إلينا ،

وإلى كونهم يرجعون إلى الحق لعرض ما بأيديهم مما نزلوا إليه ، فكل نظر إلى الكون ممن كان فهو نزول ، وكل نظر ممّن كان إلى الحق فهو عروج ، وإذا عرج الملك عرج بذاته لأنه رجوع إلى أصله ، وإذا عرج الرسول ركب البراق فعرج به البراق بذاته ،

وعرج الرسول لعروج البراق بحكم التبعية والحركة القسرية ، فكان محمولا في عروجه ، حمله من عروجه ذاتي ، فتميز عروج الرسول من عروج الملك.

ص 379

[سورة المعارج (70) : الآيات 5 إلى 15]
فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَراهُ قَرِيباً (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ (9) وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (10) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (14)
كَلاَّ إِنَّها لَظى (15)
لجهنم باب يسمى لظى ، فإن الأبواب السبعة لجهنم سميت بصفات ما وراءها مما أعدت له ، ووصف الداخلون فيها بما ذكر الله تعالى فقال هنا .

[سورة المعارج (70) : الآيات 16 إلى 19]
نَزَّاعَةً لِلشَّوى (16) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعى (18) إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً(19)
[" إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً "]
من حيث إنسانيته وفي أصل نشأته ، فإن النفوس الإنسانية قد جبلها الله على الجزع في أصل نشأتها ، فجبلة الإنسان تقتضي الجبن ، والشجاعة والإقدام لها عرضي والجزع في الإنسان أقوى منه في الحيوان إلا الصرصر ،
تقول العرب أجبن من صرصر ، وسبب قوته في الإنسان العقل والفكر الذي ميزه الله بهما على سائر الحيوانات ،
وما يشجع الإنسان إلا القوة الوهمية ، كما أنه أيضا بهذه القوة يزيد جبنا وجزعا في مواضع مخصوصة ،

فإنّ الوهم سلطان قوي ، وسبب ذلك أن اللطيفة الإنسانية متولدة بين الروح الإلهي الذي هو النفس الرحماني وبين الجسم المسوى المعدل ، ثم إن الجسم الحيواني مقهور بالضعف ،

قال اللّه عزّ وجل(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ)فالضعف أصله فإقدامه على الأهوال العظام إنما هو بغيره لا بنفسه ، وهو ما يؤيده الله به من ذلك ،
كما قال(وَأَيَّدْناهُ) والإنسان في أصل خلقه خلق هلوعا ، يخاف الفقر الذي تعطيه حقيقته ، والحيوان إذا اكتفى ما له همة في المستأنف ، والإنسان ليس كذلك ، لا يزال مهموما منهوما في الحال والاستقبال ، فيجمع ولا يشبع لأنه خلق هلوعا.

ص 380

[سورة المعارج (70) : آية 20]
إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20)
ومن ذلك نعلم أن العجز والجبن والبخل في الخلق ذاتي لازم في جبلته وأصل خلقه ، فإذا تكرم وتشجع فنصرته من المكانة والاكتساب والتخلق بأخلاق الله ، حيث كان في ذاته روحا منه ، قال تعالى :

[سورة المعارج (70) : آية 21]
وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21)
فقد جمع في هذه الآيات كل رذيلة في النفس ، وأبان فيها أن الفضائل مكتسبة لها ، ليست في جبلتها ، فالتحفظ واجب .

[سورة المعارج (70) : آية 22]
إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (22)
[« إِلَّا الْمُصَلِّينَ »]
وهم المتأخرون عن هذه الصفة التي جبلوا عليها ، فإن المصلي هو المتأخر عن السابق في الحلبة ، فهذا معنى قوله« إِلَّا الْمُصَلِّينَ »في الاعتبار ، وقد يكون تفسيرا للآية ، فإنه سائغ ، ولكن حمله على الإشارة أعصم ، واعلم أن مسمى الشر على الحقيقة ،
ومسمى الخير إنما هو راجع إما لوضع إلهي جاءت به ألسن الشرائع ، وإما لملاءمة المزاج ، فيكون خيرا في حقه ، أو منافرة مزاج فيكون شرا في حقه ،
وإما لكمال مقرر اقتضاه الدليل فيكون خيرا ،
أو نقص عن تلك الدرجة فيكون شرا ، وإما لحصول غرض فيكون خيرا في نظره ،
أو عدم حصوله فيكون شرا في نظره ، وما فعل الله سبحانه إلا ما قد حصل في الوجود ، من كمال ونقص وملاءمة ومنافرة ، وشرائع موضوعة بتحسين وتقبيح ، وأغراض موجودة في نفوس ، تنال وقتا ولا تنال وقتا .

[سورة المعارج (70) : آية 23]
الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ (23)
[تفسير من باب الإشارة : « الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ »]
المراد أنهم كلما جاء وقتها فعلوها ، وإن كان بين الصلاتين أمور ، فلهذا حصل الدوام في فعل خاص مربوط بأوقات معينة
- تفسير من باب الإشارة –
من رأى روح الصلاة

ص 381

هو الحضور مع الله دائما ومناجاته ، كانت جميع أفعاله صلاة ، فإن روح الصلاة لا ينفك دائما ، وهم أهل الحضور مع الله على الدوام ، والمشار إليهم بهذه الآية ، فإذا كان العبد في جميع أفعاله في صلاة فإنه يكون من الذين هم على صلاتهم دائمون ،
وهم الذاكرون الله في كل أحيانهم ، فهم يناجونه في جميع الأحوال كلها ، فإن المصلي يناجي ربه ، والمناجاة ذكر ، والله جليس من ذكره سبحانه ، والدوام على مناجاته أن يكون العبد في جميع أحواله وتصرفاته مع الله كما هو في صلاته ، يناجيه في كل نفس ،
وسبب ذلك كونه لا بد أن يكون في حال من الأحوال ، ولا بد أن يكون للشارع وهو الله في ذلك الحال حكم ، أي حكم كان ، وهو سبحانه حاضر مع أحكامه حيث كانت ،
فالمراتب تناجيه في كل حال محظور وغير محظور ، لأن الأفعال والتروك - وهي أحوال العبد التي تعلقت بها أحكام الحق - مقدرة فلا بد من وقوعها ، وهو سبحانه خالقها ، فلا بد من حضوره فيها ، فيناجيه هذا العبد الذي قد عرف بحضور الحق معه في حاله ، فهذا هو الدوام على الصلاة ،
وقالت عائشة تخبر عن حال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [إنه كان يذكر الله على كل أحيانه]
تشير إلى ما قلناه ، فإنه قد كان يأتي البراز ، وهو ممنوع أن يذكر بلسانه ربه في تلك الحال ، وقد كان من أحيانه يمازح العجوز والصغير ، ويكلم الأعراب ،
ويكون في هذه الأحوال كلها ذاكرا ، وهذا هو الذي يقال فيه ذكر القلب ،
الخارج عن اللفظ وذكر الخيال ، وهو قوله صلّى الله عليه وسلّم [اعبد الله كأنك تراه]
فمن ذكر الله بهذا الذكر فهو جليسه دائما ، وهو الذي أثنى عليه ربه وألحقه بالذين هم على صلاتهم دائمون ، ولما فسر الله الصلاة ما فسرها إلا بالذكر ،
وهو التلاوة ، فالعارف هو الذي على صلاته دائم ، وفي مناجاته بين يدي ربه قائم ، في حركاته وسكناته ، فما عنده وقت معين ولا غير معين .
- وجه آخر - ما أثنى الله تعالى على أحد من عباده في كتابه العزيز ، ولا على لسان نبيه في حديثه ، إلا كان الثناء عملا من الأعمال ، ما مدحهم إلا بالأعمال ،
وهذا غاية الكرم والجود ، أن يمنحك ويعطيك ويثني عليك بعد ذلك بما ليس لك ، فإنه سبحانه آخذ بناصيتك ، قائدك إلى كل فعل أراده منك أن يوجده فيك وعلى يدك ،
وأنت في غفلة لا تشعر ، فمن شعر بتولي الحق سبحانه وتعالى له في أفعاله فهو من الذين قال الله تعالى فيهم« الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ » لأنهم في مشاهدة الفاعل ومناجاته ، ومن لم يشعر فهو من الذين قال الله تعالى فيهم (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ).

ص 382

والله لو فتح الله لك بابا إلى مشاهدة توليه لك فيها ، وأخذه بناصيتك إلى عملك لبهرك المقام ، ولخرست وما أعطاك الحال أن تقول :
صليت ولا صمت ولا كنيت عن نفسك بشيء من هذه الأفعال ، فمن عرف سر وضع الصلوات ، لم يزل يستعمله في عموم الحالات على تنوع التصرفات ، فلا يبرح على صلاته دائما ، وبسرها حاكما ، ولا يقنع بالاقتصار على المحافظة على الأوقات ، فإنه لأهل الأشغال والغفلات ، ولا شغل للعارفين إلا بربهم ،
ولا مراقبة لهم في شيء إلا في قلبهم ، فإنه الذي وسعه ، وناداه فسمعه ، فهو في كل الأحيان شاهده ، وسره مع الأنفاس عابده ، فقابل الدوام بالدوام ، وزاد على اليقين المفضل عند أصحاب الليالي والأيام ، فجواد همته في ميدان الديمومية سائح ،
ونون سره في بحرها المتلاطم سابح ، وإن كانت الصلاة مرتبتين محققتين ، مرتبة عميمة ومرتبة مخصوصة ، وأسرارها عند المحققين الذين هم على بينة من ربهم منصوصة ،
والدوام إنما يقع في المرتبة العامة وهي المناجاة ، وأما المرتبة المخصوصة فلا يتمكن فيها الدوام لاختلاف المقامات ، وتنوع التنزلات لتنوع الحالات ، فمن وقف على سر الحضور ، لم يقتصر به على بعض الأمور ، وفيه يصح الدوام عند علماء الإلهام ، فقد تبينت الرتب ، وتحققت النسب ، جعلنا الله وإياكم ممن داوم على صلاته في الحكمين ، ففاز بالعلمين .

[سورة المعارج (70) : آية 24]
وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24)
وهي الزكاة ، وإنما اشتدت على الغافلين الجهلاء لكونهم اعتقدوا أن الذي عيّن ملك لهم ، وأن ذلك من أموالهم ، وما علموا أن ذلك المعيّن ما هو لهم ، وأنه في أموالهم لا من أموالهم ، فلا يتعين لهم إلا بالإخراج ، فإذا ميزوه حين ذلك يعرفون أنه لم يكن من مالهم ، وإنما كان في أموالهم مدرجا ، وكانوا يعتقدون أن كل ما بأيديهم هو مالهم وملك لهم ، فلما أخبر الله أن لقوم في أموالهم حقا يؤدونه ، وما له سبب ظاهر تركن النفس إليه ، لا من دين ولا بيع ، إلا ما ذكر الله تعالى من ادخار ذلك له ثوابا إلى الآخرة ، شق ذلك على النفوس للمشاركة في الأموال ، ولما علم الله هذا منهم في جبلة نفوسهم أخرج ذلك القدر من الأموال من أيديهم ، بل أخرج جميع الأموال من أيديهم ، فقال تعالى (وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ)
أي هذا المال ما لكم منه إلا ما تنفقون منه ، وهو التصرف فيه كصورة الوكلاء ، والمال

ص 383

لله ، وما تبخلون به ، فإنكم تبخلون بما لا تملكون ، لكونكم فيه خلفاء ، وعلى ما بأيديكم أمناء ، فنبههم بأنهم مستخلفون فيه ، وذلك ليسهل عليهم الصدقات رحمة بهم ، يقول الله :
كما أمرناكم أن تنفقوا مما أنتم مستخلفون فيه من الأموال ، أمرنا رسلنا ونوابنا فيكم أن يأخذوا من هذه الأموال التي لنا بأيديكم مقدارا معلوما سميناه زكاة ، يعود خيرها عليكم ، فما تصرف نوابنا فيما هو لكم ملك ، وإنما تصرفوا فيما أنتم فيه مستخلفون ، كما أيضا أبحنا لكم التصرف فيه ، فلما ذا يصعب عليكم ، فالمؤمن لا مال له وله المال كله عاجلا وآجلا ، وفرض الله علينا زكاة أو صدقة في أموالنا ، وجعل الأموال ظرفا للصدقة ، والظرف ما هو عين المظروف ، فمال الصدقة ما هو عين مالك بل مالك ظرف له ، فما طلب الحق منك ما هو لك ، فقال« وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ."

[سورة المعارج (70) : الآيات 25 إلى 27]
لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27)
أي من عذاب ربهم حذرون ، يقال : أشفقت منه فأنا مشفق إذا حذرته ، حذرون من عذاب ربهم غير آمنين ، يعني وقوعه بهم ، ولا يقال : أشفقت منه إلا في الحذر ، ويقال : أشفقت عليه إشفاقا من الشفقة ، والأصل واحد ، أي حذرت عليه ، لذلك قال تعالى :

[سورة المعارج (70) : آية 28]
إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28)
[من هم المشفقون من أولياء الله تعالى ؟ :]
والمشفقون من أولياء الله تعالى من خاف على نفسه من التبديل والتحويل ، فإن أمنه الله بالبشرى كان إشفاقه على خلق الله ، مثل إشفاق المرسلين على أممهم ، ومن بشّر من المؤمنين ، وهم قوم ذووا كبد رطبة ، لهم حنان وعطف ، إذا أبصروا مخالفة الأمر الإلهي من أحد ارتعدت فرائصهم إشفاقا عليه أن ينزل به أمر من السماء ، ومن كان بهذه المثابة فالغالب على أمره أنه محفوظ في أفعاله ، فلا يتصور منه مخالفة لما تحقق به من صفة الإشفاق ، لذلك أثنى الله عليهم بأنهم مشفقون ، للتغيير الذي يقوم بنفوسهم عند رؤية الموجب لذلك.

ص 384

[سورة المعارج (70) : الآيات 29 إلى 40]
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (29) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ (33)
وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (34) أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35) فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (37) أَ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38) كَلاَّ إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (39) فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ (40)
عين الشروق عين الغروب عين الاستواء ، عند العلماء بترحيل الشمس في منازل درج السماء ، فكل حركة جمعت الثلاثة الأحكام عند أرباب العقول والأفهام.

[سورة المعارج (70) : آية 41]
عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ(41)
[» فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ . . . » الآية :]
وهذا قسم الله جل ثناؤه بالربوبية ، على قدرته ونفوذها في تبديل الخلق بخلق آخر خير منه ، فأقسم سبحانه على نفسه بالاسم الرب المضاف إلى المشارق والمغارب ،
فإن الله سبحانه لما أقسم بذات الموجودات في قوله تعالى (فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ) أقسم أيضا بحالها ، وهو الشروق والغروب ، وهي حالة لا تعرف إلا بوجود الكوكب والسماء والأرض ، فأقسم بالمشرق والمغرب لا بالشروق والغروب ،
لأن القسم ينبغي أن يكون بالثابت لا بالزائل ، والمشرق ثابت والشروق زائل ، فأقسم بالذات من كونها مشرقا ومغربا ، فربط الصفة بموصوفها ،
وأقسم بالجمع لأنها مشارق ومغارب كثيرة ، وهي شهادته وغيبه ، وظاهره وباطنه ، وفي عالم الجسوم وفي عالم الأرواح ، وفي الدنيا وفي الآخرة ، وفي الجنة وفي النار ،
وفي كل حال من أحوال الوجود مطلقا ، فكما أقسم بذوات

385

الوجود مطلقا أقسم بها من حيث أحوالها مطلقا ، فلم يترك شيئا بعد هذا ينبغي أن يقسم به ، ثم اعلم أن القدرة الإلهية لا يعسر عليها إيجاد ممكن البتة ، ولكنها إذا لم توجد ممكنا من الممكنات فإن ذلك راجع إلى الإرادة لا إلى القدرة ،
ثم لتعلم أن الموجودات قد كملت أجناسها وأركانها ، فكل ما يظهر فإنه منها وفيها ، فلم يبق إلا التبديل ، سواء في الصور والأشكال ، فهو تبديل عرضي ، كما تبدل السماء والأرض ، وكما تبدلت النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، وكما تبدلت لنا اللقمة دما وثفلا ،
وهكذا بقي التبديل ، فإن كان التبديل من كون إلى كون كتبدل الماء هواء وشبه ذلك فهذا تبديل الأعيان ، وإن كان التبديل من صفة إلى صفة كالأبيض يصير أحمر ، والأحمر يصير أخضر ، والبارد يصير حارا . فهذا هو تغيير الموصوفات بالصفات ،
لا أن الحمرة عادت خضرة كما استحال الماء هواء ، فهذا هو التغيير ، وإن كان عندنا المائية والهوائية والنارية والأرضية صورا في الجوهر يسمى بها هواء وماء وغير ذلك ،
وهذا الخبر الذي وصف الله نفسه بتبديل الخلق في عمارة الموطن يحتمل أن يكون على الأمرين اللذين ذكرناهما ، إذ الذوات المشتركة في الجوهرية متماثلة ، واختلافها بالصور والأشكال ، والحدود الذاتية لها إنما هي ذاتية للصور والشكل لا للمشكل والمصور ،
ولكن لا يفعل هذا الشكل إلا في العين لا في المشكل ، فيظن الظان أنه يجد المشكل ، وهو على الحقيقة إنما يجد الشكل ، لكنه لا يقدر أن يتصوره في غير متشكل ،
فقد بان لك التبديل في الخلق ، وأن القدرة لا تعجز عن ذلك ، فإن لم تفعل فإن الإرادة لم تتعلق به ، ولا سبق في العلم تبدله ، ووقع الخطاب بما يقتضي حقيقة الممكن .

[سورة المعارج (70) : الآيات 42 إلى 44]
فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ(44)

ص 386

(71) سورة نوح مكية

[سورة نوح (71) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (1)

نوح عليه السلام هو أول الرسل قال تعالى« إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ »فنوح أول رسول أرسل ، ومن كان قبله إنما كانوا أنبياء ، كل واحد على شريعة من ربه ، فمن شاء دخل في شرعه معه ، ومن شاء لم يدخل ، فمن دخل ثم رجع كان كافرا ، ومن لم يدخل فليس بكافر ، ومن أدخل نفسه في الفضول وكذب الأنبياء كان كافرا ، ومن لم يفعل وبقي على البراءة لم يكن كافرا ، فأول شخص استفتحت به الرسالة نوح عليه السلام .

[سورة نوح (71) : الآيات 2 إلى 6]

قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4) قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلاَّ فِراراً (6)

[خطأ من قال : إن الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب :]

مما دعاهم إليه من توحيد الله ، وهذه الآية تبين خطأ من قال : إن الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب ، وإذا خرج من اللسان لم يتعد الآذان ؛ فهذا غاية الغلط ، فإنه ما من رسول دعا قومه إلا بلسان صدق ، من قلب معصوم ولسان محفوظ ، كثير الشفقة على رعيته ، راغب في استجابتهم لما دعاهم إليه ،

وقال تعالى لنبيه صلّى الله عليه وسلّم (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) فلو أثر كلام أحد في أحد لصدقه في كلامه لأسلم كل من شافهه النبي عليه السلام بالخطاب ، بل كذّب وردّ الكلام في وجهه وقوتل ، فإن لم يكن عناية بالسامع - بأن يجعل في قلبه صفة القبول حتى يلقى بها النور الإلهي من سراج النبوة - ما استنار القلب ولا آمن.

ص 387

[سورة نوح (71) : الآيات 7 إلى 14]

وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (12) ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (14)

الأطوار جمع طور وهو كل من مال لاستدارة كون ، ومنه سمي الطور طورا لانحنائه ، وجبل الخلق على الحركة ، فانتقل في الأطوار ، وحكمت عليه بمرورها الأعصار ، فإن لله في خلقه أسرارا ، فلما خلق الله عزّ وجل الخلق خلق الإنسان أطوارا ،

فمنا العالم والجاهل ، ومنا المنصف والمعاند ، ومنا القاهر ومنا المقهور ، ومنا الحاكم ومنا المحكوم ، ومنا المتحكم ومنا المتحكم فيه ، ومنا الرئيس والمرءوس ،

ومنا الأمير والمأمور ، ومنا الملك والسوقة ، ومنا الحاسد والمحسود ، وكل هذا من تصاريف الأقدار ، وما أودع الله في حركات الأكوار ، مما يجيء به الليل والنهار ، من تنوع الأطوار ، بين محو وإثبات ، لظهور آيات بعد آيات ، فسبحان من خلقنا أطوارا ، وجعل لنا على علم الغيب والشهادة دليلا ليلا ونهارا ، فمحا آية الليل لدلالتها على الغيب ، وجعل آية النهار مبصرة لدلالتها على عالم الشهادة فقال تعالى:

[سورة نوح (71) : الآيات 15 إلى 16]

أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً (16)

" وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً »فهو مجلى لنور الشمس ،« وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً »والسراج نور ممدود بالدهن الذي يعطيه بقاء الإضاءة عليه ، ولهذا جعل الشمس يضيء به العالم ، وتبصر به الأشياء التي كان يسترها الظلام ، فحدث الليل والنهار بحدوث كوكب

ص 388

الشمس والأرض ، فالليل ظلمة الأرض الحجابية عن انبساط نور الشمس ، والكواكب عندنا كلها مستنيرة لا تستمد من الشمس ، والقمر على أصله لا نور له البتة ، قد محا الله نوره ، وذلك النور الذي ينسب إليه هو ما يتعلق به البصر من الشمس في مرآة القمر ، على حسب مواجهة الأبصار منه ، فالقمر مجلى الشمس وليس فيه من نور الشمس لا قليل ولا كثير .

[سورة نوح (71) : آية 17]
وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (17)
ليس في الأرض إلا خزائن المعادن والنبات ، لا غير ، فإن الحيوان من حيث نموه نبات .
قال تعالى« وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » فنسب الحق الإنبات إليه وإلى الأرض ، فنبتم« نَباتاً »مصدر نبت وما قال : إنباتا ؛
كذلك قال تعالى في الأجسام الإنسانية ، فأخبرنا أنا من جملة نبات الأرض ، فجاء في ذكرهم بالإنبات أنه أنبتهم ، ولم يؤكده بالمصدر ، فإن مصدر أنبت إنما هو إنبات ، وجاء بمصدر آخر ليعرف بأنهم نبتوا حين أنبتهم ،
فأضاف النبات إلى الشيء الذي ينمو لأن الغذاء سبب في وجود النبات وبه ينمو ، فعبر عن نموه وظهور الزيادة فيه بقوله« نَباتاً »أي جعل غذاءكم منها ، أي مما تنبته فتنبتون به ، أي تنمي أجسامكم وتزيد ، ومن وجه آخر أوقع الحق الاشتراك بينه وبينهم في الخلق أنه لولا استعدادهم للإنبات ما نبتوا ، لأن نباتا مصدر نبت لا مصدر أنبت ،

فإن مصدر أنبت هو إنبات ، فانظروا ما أعجب مساق القرآن وإبراز الحقائق ، إذ لا ينفذ الاقتدار الإلهي إلا فيمن هو على استعداد النفوذ فيه ، ولا يكون ذلك إلا في الممكنات ، إذ لا نفوذ له في الواجب الوجود ، ولا في المحال ، وهنا نسب الحق ظهور النبات إلى النبات ، وفي النبات سر برزخي لا يكون في غيره ،

فإنه عالم وسط بين المعدن والحيوان ، فله حكم البرازخ ، لأنه يعطيك العلم بذاته وبغيره ، وغير البرزخ يعطيك العلم بذاته لا غير ، لأن البرزخ مرآة للطرفين ، فمن أبصره أبصر فيه الطرفين ، لا بد من ذلك
[فائدة : فعل الأزمان في الأجسام :]
-فائدة - يقول بعض العلماء بما تفعله الأزمان في الأجسام الطبيعية : تعرضوا لهواء الربيع ، فإنه يفعل بأبدانكم كما يفعل في أشجاركم ، وتحفظوا من هواء الخريف ، فإنه يفعل بأبدانكم كما يفعل في أشجاركم ، فقد نص الله تعالى على أننا من جملة نبات الأرض فقال« وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً »أراد فنبتم نباتا.

ص 389

[سورة نوح (71) : آية 18]
ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً (18)
« ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها » بالموت « وَيُخْرِجُكُمْ » منها« إِخْراجاً » بالبعث ، والفرق بين نشأة الدنيا الظاهرة وبين نشأة الآخرة الظاهرة ، أن الأولى أنبتنا فيها من الأرض ،
فنبتنا نباتا ، كما ينبت النبات على التدريج وقبول الزيادة في الجرم طولا وعرضا ، ونشأة الآخرة إخراج من الأرض على الصورة التي يشاء الحق أن يخرجنا عليها ،
ولذلك علّق المشيئة بنشر الصورة التي أعادها في الأرض ، الموصوفة بأنها تنبت ، فتنبت على غير مثال ، لأنه ليس في الصور صورة تشبهها ،
فكذلك نشأة الآخرة ، يظهرها الله على غير مثال صورة تقدمت تشبهها .

[سورة نوح (71) : آية 19]
وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (19)
بسط الله الأرض ليستقر عليها من خلقت له مكانا .

[سورة نوح (71) : الآيات 20 إلى 22]
لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً (20) قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَساراً (21) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (22)
روينا أن الله حين أنزل على نبيه صلّى الله عليه وسلّم هذه الآية لم يعرف هذا اللحن الحاضرون ، ولا عرفوا معناه ، فبينما هم كذلك إذ أتى أعرابي قد أقبل غريبا ، فدخل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فسلم عليه وقال : يا محمد إني رجل من كبّار قومي ؛ بضم الكاف وتشديد الباء ، فعلم الحاضرون أن هذه اللفظة نزلت بلحن ذلك العربي وأصحابه ، فعلموا معناها .

[سورة نوح : (71) الآيات 23 إلى 26]
وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (24) مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً (25) وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً(26)

ص 390

وذلك لغلبة الغيرة على نوح عليه السلام ، واستعجاله ، لكون الإنسان خلق عجولا .

[سورة نوح (71) : الآيات 27 إلى 28]

إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفَّاراً (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَباراً (28)

[لِمَ يقدم العبد نفسه في الدعاء على والديه ؟]

لا أحد أعظم من الوالدين وأكبر بعد الرسل حقا منهما على المؤمن ، ومع هذا أمر الداعي أن يقدم في الدعاء نفسه على والديه ، وذلك أولا مراعاة لحقها ، فهي أقرب جار إليه ،

والسر الآخر أنّ الداعي لغيره يحصل في نفسه افتقار غيره إليه ، ويذهل عن افتقاره ، فربما يدخله زهو وعجب بنفسه لذاك ، وهو داء عظيم ،

فأمره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يبدأ لنفسه بالدعاء ، فتحصل له صفة الافتقار في حق نفسه ، فتزيل عنه صفة الافتقار صفة العجب والمنة على الغير ،

وفي إثر ذلك يدعو للغير على افتقار وطهارة ، فلهذا ينبغي للعبد أن يبدأ بنفسه في الدعاء ، ثم يدعو لغيره ، فإنه أقرب إلى الإجابة ، لأنه أخلص في الاضطرار والعبودية ، قال الخليل عليه السلام في دعائه(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ) فقدم نفسه (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) وقال نوح عليه السلام« رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ » فبدأ بنفسه « وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ » وهو عليه السلام من الكمل ،

ولم يقل كما قالت الملائكة « وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ »فكأنه أبقى شيئا ، فإنه ما طلب المغفرة إلا للمؤمن ، ولم يذكر اتباع سبيل الله ، لأن المؤمن قد يكون مخالفا أمر الله ونهيه ،

والله يقول للمسرفين على أنفسهم (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) « وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً "ذ

دعا قومه نوح ليغفر ربهم *** لهم فأجابوه لما كان قد دعا
أجابوا بأحوال فغطوا ثيابهم *** لسر بستر والسميع الذي وعى
ولو أنهم نادوا ليكشف عنهمو *** غطاء العمى ما ارتد شخص ولا سعى

ص 391

وهذي إشارات لأمة أحمد *** وليست لنوح والحديث هما معا
رعى الله شخصا لم يزل ذا مهابة *** كريما إماما حرمة الحق قد رعى
لو أن إله الخلق ينزل وحيه *** على جبل راس به لتصدعا
وأثبت منه قلب شخص علمته *** ولما أتاه وحيه ما تزعزعا
وإن كان من قوم إذا ليلهم دجا *** تراهم لديه ساجدين وركعا
وتبصرهم عند المناجاة حسّرا *** حيارى سكارى خاضعين وخشّعا

(72) سورة الجنّ مكيّة

[سورة الجن (72 : (الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً (2) وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً (3)

« وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا »فوصف الرب بالعلو عن قيام الوصف المذكور لعظمة الرب المضاف إلى المربوب« مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً »لعدم الكفاءة إذ لم يكن له كفوا أحد ، والحقيقة تمنع من الولادة والتبني ، لأن النسبة مرتفعة عن الذات ، والنسبة الإلهية من الله لجميع الخلق نسبة واحدة لا تفاضل فيها - . راجع سورة الإخلاص - .

[سورة الجن (72) : الآيات 4 إلى 6]

وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (4) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (5) وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً(6)

ص 392

[الكَيِّس من الناس من يهرب من مجالسة الجن :]
الكيس من الناس من يهرب من مجالسة الجن ، فإن مجالستهم رديئة جدا ، قليل أن تنتج خيرا ، لأن أصلهم النار ، والنار كثيرة الحركة ، ومن كثرت حركته كان الفضول أسرع إليه في كل شيء ، فالجن أشد فتنة على جليسهم من الناس ، فإنهم قد اجتمعوا مع الناس في كشف عورات الناس التي ينبغي للعاقل أن لا يطلع عليها ، غير أن الإنس لا تؤثر مجالسة الإنسان إياهم تكبرا ، ومجالسة الجن ليست كذلك ، فإنهم بالطبع يؤثرون في جليسهم التكبر على الناس وعلى كل عبد لله ، وكل عبد لله رأى لنفسه شفوفا على غيره تكبرا فإنه يمقته الله في نفسه من حيث لا يشعر .
واعلم أن الجان هم أجهل العالم الطبيعي بالله ، ويتخيل جليسهم بما يخبرونه به من حوادث الأكوان ، وما يجري في العالم مما يحصل لهم من استراق السمع من الملأ الأعلى ، فيظن جليسهم أن ذلك كرامة الله به ، هيهات لما ظنوا ، ولهذا ما ترى أحدا قط جالسهم فحصل عنده منهم علم بالله جملة واحدة ، فرجال الله يفرون من صحبتهم أشد فرارا منهم من الناس ، فإنه لا بد أن تحصل صحبتهم في نفس من يصحبهم تكبرا على الغير بالطبع ، وازدراء بمن ليس له في صحبتهم قدم .
وكان للجن قبل مبعث محمد صلّى الله عليه وسلّم مسالك نحو السماء يسلكون فيها ليستمعوا حديث الملأ الأعلى الملكي ، لذلك قالوا بعد أن وصفهم الحق بقوله :

[سورة الجن (72 : (الآيات 7 إلى 8]
وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (7) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8)
قالوا

[سورة الجن (72) : آية 8]
وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8)
عند مبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أشعل الفلك الأثير إشعالا عظيما ، فكثرت النجوم ذوات الأذناب في الأثير والاحتراقات ، وجعلها الحق رجوما للشياطين ، فعمرت كل مسلك في الأثير ، فضاقت المسالك على الجن الذي يسترقون السمع ، ولم يعرفوا ما علة ذلك فقالوا« وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً »فالحرس الملائكة وهم الرصد ، وهو قوله تعالى :(مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (والشهب النجوم ذوات الأذناب .

[سورة الجن (72) : آية 9]
وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً(9)

ص 393

الشياطين وهم كفار الجن لهم عروج إلى السماء الدنيا يسترقون السمع ، أي ما تقوله الملائكة في السماء وتتحدث به مما أوحى الله به فيها ،
فإذا سلك الشيطان أرسل الله عليه شهابا رصدا ثاقبا ، ولهذا يعطي ذلك الضوء العظيم الذي تراه ويبقى ذلك الضوء في أثره طريقا ، فجعل الله ما نجم من ذوات الأذناب في ركن النار ، لرجم الأشرار ،
ولم تزل نجوما ، وما كانت رجوما حتى جاء صاحب البعث العام ، إلى جميع الأنام ، من الإنس والجان ، ولهذا قال): سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ)،
فلو ابتغى الربح باستراقه رشدا ، ما وجد له شهابا رصدا ، فحيل بينه وبين السمع ، لما نواه من عدم النفع ، فصاروا جهلا ، وقد كانوا علما . وكان من أعظم بلاء طرأ على الجن والشياطين منعهم على الغيب ، ولكن مع هذا كله يسلكون بحكم البحث ، فإن صادفهم شهاب أحرقهم« فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً »
وهي الكواكب ذوات الأذناب ، وهي احتراقات وتكوينات سريعة الاستحالة كما تراها في العين ، وهي نجوم سريعة التكوين والفساد .

[سورة الجن (72) : الآيات 10إلى 14]
وَأَنَّا لا نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (12) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً (13) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (14)
إذا حكم الحاكم بغير ما هي الأمور عليه كان حكم جور ، وكان قاسطا ، فقال تعالى :

[سورة الجن (72) : الآيات 15 إلى 16]
وَأَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (15) وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً(16)

ص 394

" وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا »في الحركات والسكنات« عَلَى الطَّرِيقَةِ «المشروعة ، والصراط المستقيم هو الشرع الإلهي ، والإيمان باللّه رأس هذا الطريق ، وشعب الإيمان منازل هذا الطريق ، الذي بين أوله وغايته ، وما بين المنزلين أحواله وأحكامه « لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً »لما كان الماء أصلا في كل حي حياته عرضية ،
كان من استقام سقاه اللّه ماء الحياة ، فإن كان سقي عناية كالأنبياء والرسل حيي به من شاء اللّه ، وإن كان سقي ابتلاء لما فيه من الدعوى كان بحكم ما أريد بسقيه .
وطلب الاستقامة من المكلف هو القيام بفرائض اللّه عليه ، لذلك قال تعالى :

[سورة الجن (72) : آية 17]
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً (17)
« لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ »فهذا سقي ابتلاء .

[سورة الجن (72) : آية 18]
وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (18)

[اللّه تعالى مع الخلق لا الخلق مع اللّه تعالى :]
فإن اللّه مع الخلق ما الخلق مع اللّه ، لأنه يعلمهم فهو معهم أينما كانوا ، في ظرفية أمكنتهم وأزمانهم وأحوالهم ، ما الخلق معه تعالى جل جلاله ، فإن الخلق لا تعرفه حتى تكون معه ، فمن دعا اللّه مع الخلق ما هو كمن دعا الخلق مع اللّه ؛ فلا تدعوا مع اللّه أحدا ، ولا يصح السجود إلى غير اللّه ، فالسجود على الحقيقة للّه ، فمن سجد لغير اللّه عن أمر اللّه قربة إلى اللّه طاعة للّه فقد سعد ونجا ، ومن سجد لغير اللّه عن غير أمر اللّه قربة إلى اللّه فقد شقي .

[سورة الجن (72) : آية 19]
وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (19)
« وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ »
[إضافة الحق محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم إليه صفة :]
يعني محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم فأضافه إليه صفة ، أي صفته العبودية ، فشهد اللّه تعالى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه عبد كامل العبودية ، فإنه لم يتحقق بهذا المقام على كماله مثل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ،
فكان عبدا محضا زاهدا في جميع الأحوال التي تخرجه عن مرتبة العبودية ، فشهد اللّه له بأنه عبد مضاف إليه من حيث هويته واسمه الجامع ، فقال في حق اسمه« وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ »وقال في حق هويته (سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ) فأسرى به عبدا ،

ص 395

فذكره بعبودية الاختصاص ليعلم بحريته عن كل ما سوى الله ، وخلوص عبوديته لله ، ليس فيه شقص لكون من الأكوان ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم] العبد من لا عبد له [ففهم منه المحجوب أنه من لا عبد له قام بأمور نفسه ، فهو عبد نفسه ، وما مقصود الحق في ذلك إلا أن العبد من ليس له وجه إلى ربوبية وسيادة أصلا ، فإذا ملك العبد أمرا ما فله سيادة على ما ملك ، فالعبد على الحقيقة من لا ملك له ، لأن المملوك ذليل تحت تصرف المالك ، ولا يقدر على دفع تصرفه فيه ، ولا يكون هذا إلا بملك الرقبة ، فإن ملك التصريف دون الرقبة فهو مالك التصريف لا مالك الرقبة ، كالذي استأجر أجيرا على فعل يفعله ، فعبده التصرف لا المتصرف وهو المسمى أجيرا ، فالأجير خادم أجرته فهو خادم نفسه ، وذلك العبد فإنه لا عبد له فما له سيادة على أحد ، والعارف عبد الله وإن ملكه التصريف ولا بد من ذلك فما له سيادة ، فإن الرقبى لله والعمرى للعبد .

[سورة الجن (72) : الآيات 20 إلى 26]

قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (20) قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (22) إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً (23) حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (24)

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (25) عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً (26)

الغيب الذي أفرده الحق في هذه الآية ولم يقرنه بالشهادة هو الغيب الذي انفرد الحق به سبحانه لأنه لا عين له يجوز أن تشهد ، فقال :« فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً »فأرسلت حجب الأسرار دون أعين الناس وهو ما أخفى عنهم من الغيوب ، فإن قلت : فما فائدة الاستثناء في قوله:

ص 396

[سورة الجن (72) : آية 27]
إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (27)
[الغيب الذي أطلع الحق تعالى عليه رسله :]
قلنا : تدبر ما هو الغيب الذي اطلع عليه الرسل ؟ وبما ذا ربطه ؟ فتعلم أن ذلك علم التكليف الذي غاب عنه العباد ، ولهذا جعل له الملائكة رصدا حذرا من الشياطين أن تلقي إلى ما ينقله إلى الخلق ويعمل به في نفسه من التكليف الذي جعله الله طريقا إلى سعادة من أمر ونهي« مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً »، حتى لا يلتبس عليه الإلقاء ، والرصد هم الحرس من الملائكة ، فاختار الله تعالى من الناس الرسل ليبلغوا عن الله ما هو الأمر عليه ،
فإنه ما أخرجهم إلا للعلم به ، لأنه أحب أن يعرف إليهم بالرسل بما بعثهم به من كتب وصحف ،
فعرفوه معرفة ذاتية ، كما عرفوه بالعقول التي خلق لهم وأعطاها قوة النظر الفكري ،
فعرفوه بالدلائل والبراهين معرفة وجودية سلبية ، لم يكن في قوة العقل من استقلاله أكثر من هذا ،
ثم بعد ذلك جاءت الرسل من بعده بمعرفة ذاتية ، فعبد الخلق الإله الذي تعرف إليهم بشرعه ،
إذ العقل لا يعطي عملا من الأعمال ، ولا قربة من القرب ، ولا صفة ثبوتية للحق ،
وما حظ العقل من الشرع مما يستقل به دليله إلا(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) على زيادة الكاف لا على إثباتها صفة ، فاختار الحق تعالى الرسل لتبليغ ما لا يستقل العقل بإدراكه من العلم بذاته ،
وبما يقرب إليه من الأعمال والتروك والنسب لذلك قال تعالى :

[سورة الجن (72) : آية 28]
لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (28)
« لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ »فكأنه مستثنى ، منقطع هذا الغيب من ذلك الغيب انقطاعا حقيقيا لا انقطاع جزء من كل ، لما وقع الاشتراك في لفظة الغيب ، لذلك قلنا :
مستثنى ، ولما خالفه في الحقيقة قلنا : منقطع ، ولكن بالحال بالذات ، تقول في المتصل :
ما في الدار إنسان إلا زيدا ، فهذا المستثنى متصل ، لأنه إنسان قد فارق غيره من الأناسي بحالة كونه في الدار لا بحقيقته ، إذ لم يكن في الدار إلا هو ،
فالانقطاع في الحال لا غير ، فإن قلت : ما في الدار إنسان إلا حمارا ، فهذا منقطع بالحقيقة والحال ، فكذلك الغيب الذي يطلع عليه الرسل بالرصد من الملائكة من أجل المردة من الشياطين هو الرسالة التي يبلغونها عن الله ، فإنه لا يحيط من علم غيب الله إلا بما شاء الله ، ولهذا قال« لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا

ص 397

رِسالاتِ رَبِّهِمْ »فأضاف الرسالة إلى قوله« رَبِّهِمْ »لما علموا أن الشياطين لم تلق إليهم أعني إلى الرسل شيئا ، فتيقنوا أن تلك الرسالة من الله لا من غيره ، وهل هذا القدر الذي عبر عنه في هذه السورة المعينة في قوله« إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ »هل ذلك الإعلام لهذا الرسول بوساطة الملك ؟ أو لم يكن في هذا الوحي الخاص ملك ؟

وهو الأظهر والأوجه والأولى ، وتكون الملائكة تحف أنوارها برسول الله صلّى الله عليه وسلّم كالهالة حول القمر ، والشياطين من ورائها لا تجد سبيلا إلى هذا الرسول حتى يظهر الله له في إعلامه ذلك من الوحي ما شاء ، ولكن من علم التكليف الذي غاب عنه وعن العباد علمه ، فإنه لا يصح القول بأن العبد يعلم بعض القربات إلى الله بعقله لا كلها ، فلا يعلم القربة إلى الله التي تعطي سعادة الأبد للعبد إلا من يعلم ما في نفس الحق ، ولا يعلم ذلك أحد من خلق الله إلا بإعلام الله ، لأن الغيب على قسمين :

غيب لا يعلم أبدا وليس إلا هوية الحق ، ونسبته إلينا ، وأما نسبتنا إليه فدون ذلك ، فهذا غيب لا يمكن ولا يعلم أبدا ،

والقسم الآخر غيب إضافي ، فما هو مشهود لأحد قد يكون غيبا لآخر ، فما في الوجود غيب أصلا لا يشهده أحد ، وأدقه أن يشهد الموجود نفسه الذي هو غيب عن كل أحد سوى نفسه ، فما ثم غيب إلا وهو مشهود في حال غيبته عمن ليس بمشاهد له ، فإذا ارتضى الله من ارتضاه لعلم ذلك أطلعه عليه علما ، لا ظنا ولا تخمينا ، فلا يعلم إلا بإعلام الله ، أو بإعلام من أعلمه الله عند من يعتقد فيه أن الله أعلمه ، وما عدا هذا فلا علم له بغيب أصلا ، وإنما اختص بهذا الإعلام مسمى « الرسول » لأنه ما أعلمه بذلك الغيب اقتصارا عليه ، وإنما أعلمه ليعلمه ، فتحصل له درجة الفضيلة على من أعلمه به ، لتعلم مكانته عند ربه ، فلهذا سماه رسولا ، وهذا النوع من الغيب لا يكون إلا من الوجه الخاص ، لا يعلمه ملك ولا غيره إلا الرسول خاصة ، سواء كان الرسول ملكا أو غيره ، فإن الله نفى أن يظهر على غيبه أحدا ، وإنما قال بأن الذي ارتضاه لذلك يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، عصمة له من الشبه القادحة فيه ، فهو علم لا دخول للشبه فيه على صاحبه ، وهذا هو صاحب البصيرة الذي هو على بينة من ربه في علمه ، وله ذوق خاص يتميز به ، لا يشاركه فيه غيره ، إذ لو شاركه لما كان خاصا ، فإذا جاء الرسول به لمن يعلمه فذلك ليس عند هذا المتعلم من علم الغيب ، فإن الرسول قد أظهره الله عليه ، فما هو عند هذا من علم الغيب الذي لا يظهر الله عليه أحدا ، وإنما

ص 398

هو ما يحصل لأي عالم كان من الوجه الخاص ، ولكنه الآن ليس بواقع في الدنيا ، لكنه يقع في الآخرة ، وسبب ذلك أن كل علم يحصل للإنسان في الدنيا من العلم بالله خاصة ، فإن محمدا صلّى الله عليه وسلّم قد علمه ،
فإنه علم علم الأولين والآخرين ، وأنت من الآخرين بلا شك ، وأما في غير العلم بالله فقد يعطاه الإنسان من الوجه الخاص ، فلا يعلم إلا منه ، فهو رسول في تعليمه إلى من يعلمه بذلك ، هذا أعطاه مقام محمد صلّى الله عليه وسلّم ،
وليست الفائدة إلا في العلم بالله تعالى ، فإنه العلم الذي به تحسن صورة العالم في نفسه ، فالعلم بالله من الرسول في المتعلم أعظم وأنفع من العلم الذي يحصل لك من الوجه الخاص ، إذا كان المعلوم كونا ما من الأكوان ليس الله ،
فما الشرف للإنسان إلا في علمه بالله ، وأما علمه بسوى الله تعالى فعلالة يتعلل بها الإنسان المحجوب ،
فإن المنصف ما له همة إلا العلم به تعالى ، فاجهد أن تكون ممن يأخذ العلم بالله عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فتكون محمدي الشهود ، إذ قطعنا أنه لا علم بالله اليوم عينا يختص به أحد من خلق الله

[الفرق بين الإحاطة والإحصاء :]

« وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً »الفرق بين الإحاطة والإحصاء هو أن الإحاطة عامة الحكم في الموجود والمعدوم وفي كل معلوم ، والإحصاء لا يكون إلا في الموجود ، فما هو شيئية« أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً » شيئية « أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً »
فشيئية الإحصاء تدخل في شيئية الإحاطة ، فكل موجود محصي ، وكل محصي محاط به ، وما كل محاط به محصي ، وكل ما يدخله الأجل يدخل الإحصاء ،
فقوله تعالى :« أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً »يريد إحصاء كل شيء موجود ، فأحصى كل شيء من حروف وأعيان وجودية عددا ، إذ كان التناهي لا يدخل إلا في الموجودات فيأخذه الإحصاء ، فهذه شيئية الوجود ،
وفيه إشارة إلى الإحاطة الإلهية بجميع الأسماء الكائنة الماضية والكائنة في الحال والكائنة في المستقبل ، فهي لا تختص إلا بالوجود الكائن والذي كان ويكون ، فهو تعلق أخص من تعلق قوله(أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)من الواجبات والجائزات والمستحيلات ،
وإن كان بعض العلماء لا يسمي شيئا إلا الموجود فلا نبالي ، فإن الله قد أحاط بكل شيء علما ، وقد علم المحال ، ولو خصص صاحب هذا الاصطلاح العلم المحيط في هذه الآية بالموجودات فليس له دليل على ذلك إلا كونه اصطلح على أنه لا يسمى شيئا إلا الموجود ، فالإحاطة هنا على بابها من العموم ، والإحصاء يقتضي التناهي في الشيء الذي أحصي ، والإحاطة إنما هي عبارة عن تعلق العلم بالمعلومات الغير المتناهية هنا ، وقد يكون

ص 399

الإحصاء هنا على العموم بمعنى الإحاطة ولكن كما قلنا في الكائنات المستقبلة وهي لا تتناهى ، فإن مقدورات الله لا تتناهى ، ومعلوماته كذلك أكثر من مقدوراته وغير ذلك ، والإحصاء بالعدد لا يتعلق به ، لأنه لا يجوز عليه ، فيحصي نفسه ، والمحال لا يوصف بالعدد فيتعلق به الإحصاء ، ولكن يحيط به العلم أي معنى ، لعلمه من جميع الوجوه .

(73) سورة المزّمل مكيّة

[سورة المزمل (73) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1)

لما فجأ الوحي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال [جئت منه رعبا]
وأتى خديجة فقال [زملوني زملوني] وذلك من تجلي الملك ، فكيف به بتجلّي الملك ؟
فمواجده صلّى الله عليه وسلّم من تجليات ربه على قلبه أعظم سطوة من نزول ملك ، ووارد في الوقت الذي لم يكن يسعه فيه غير ربه .

[سورة المزمل (73) : آية 2]

قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (2)

لكون الليل محل التجلي الإلهي الزماني ، فإن الليل للحق ينزل فيه إلى السماء الدنيا ليناجي عبده ويسامره ويقضي حوائجه ، جاء في الخبر [كذب من ادعى محبتي فإذا جنه الليل نام عني ، أليس كل محب يطلب الخلوة بحبيبه ؟
ها أنا ذا قد تجليت لعبادي ، هل من داع فأستجيب له ؟
هل من تائب فأتوب عليه ؟
هل من مستغفر فأغفر له ؟
حتى ينصدع الفجر ، فقم بين يدي وسلني حتى أعطيك مسألتك]
وقيام الليل عبارة عن الصلاة فيه .

[سورة المزمل (73) : الآيات 3 إلى 5]

نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5)

على غيرك ونهونه عليك.

ص 400

[سورة المزمل (73) : آية 6]
إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6)
[ناشئة الليل :]
كان صلّى الله عليه وسلّم ينشئ في الليل بما وفقه الله إليه من العمل الصالح الذي شرعه له صورا عملية ليلية ، ولم تكن هذه الصور إلا الصلاة بالليل دون سائر الأعمال ، وفيها يقرأ القرآن ، ولذلك قال« أَشَدُّ وَطْئاً »أي أعظم تمهيدا ، لأنه قال(ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ)وليس إلا القرآن الجامع ، وأشد ثباتا ، فإنه لا ينسخ كما نسخت سائر الكتب قبله به ، وإن ثبت ما ثبت منها مما ورد في القرآن ، ولهذا جاء بلفظة المفاضلة في الثبوت ، فهو أشد ثبوتا منها لاتصاله بالقيامة ، وفيه ما في الكتب وما ليس في الكتب ، ثم قال عن هذا العمل المنشإ« وَأَقْوَمُ قِيلًا »ولا أقوم قيلا من القرآن ، وإن كان القيل الإلهي كله قويما ، فإن الاستقامة سارية في الأقوال ، كما هي سارية في الجواهر والأعراض والأحوال ، ولكن فيه قويم وأقوم بالنسبة إلينا ، مثل قوله تعالى(فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ)هذا من أقوم القيل ، فإنه ما من شيء يكون فيه كثرة لأمثال إلا ولا بد فيه من التفاضل حتما ، فالقرآن أقوم قيلا ، وهو الحاوي على كل شيء أوتيناه وأهدى سبيلا :
نواشئ الليل فيها الخير أجمعه *** فيها النزول من الرحمن بالكرم
يدنو إلينا بنا حتى يساعدنا *** بما يدليه من طرائف الحكم
فالكل يعبده والكل يشكره *** إلا الذي خص بالخسران والنقم
إن الولي تراه وقت غفلته *** يبكي ويدعوه في داج من الظلم
يا رب يا رب لا يبغي به بدلا *** خلقا عظيما كما قد جاء في القلم

وفي إنشاء هذه الصور العملية يستعين صلّى الله عليه وسلّم وورثته من بعده بالله لإحيائها - حياة تقع بها الفائدة - وإنشائها على الشهود ،
وهو قوله تعالى(إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً).
- رقيقة - من كان خلقه القرآن
من ورثته صلّى الله عليه وسلّم وأنشأ صورة الأعمال في ليل طبيعته فقد بعث محمدا صلّى الله عليه وسلّم من قبره ، فحياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد موته حياة سنّته ، ومن أحياه فكأنما أحيا الناس جميعا .

[سورة المزمل (73) : آية 7]
إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً(7)

ص 401

سبحا أي فراغا لمعاشك ، وأمرنا بالتسبيح آناء الليل وأطراف النهار ، وما تعرض لذكر النهار في هذا الحكم ، فالنهار لك والليل له ، فإذا كنت له في الليل وأطراف النهار كان لك هو في النهار .

[سورة المزمل (73) : آية 8]
وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8)
التبتل الانقطاع عما سوى الله تعالى ، ومنه فاطمة البتول :
يا من إليه تضرعي *** كم ذا تريد تمنعي
كم ذا طلبت وصالكم *** بتبتل وتخشع

[سورة المزمل : (73) آية 9]
رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (9)
« رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ».
- إشارة - إلى التصرف في الجهات
، وما ذكر منها إلا المشرق وهو الظاهر ، والمغرب وهو الباطن ، وبالعين الواحدة التي هي الشمس إذا طلعت أحدثت اسم المشرق ، وإذا غربت أحدثت اسم المغرب ، والإنسان ظاهر وباطن« لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا »في ظاهرك وباطنك ، فإنه رب المشرق والمغرب ، وبهذا الاسم في قوله تعالى »وَكِيلًا »ثبت الملك والملك للخلق ، فإنا ما وكلناه إلا في التصرف في أمورنا فيما هو لنا ، لعلمنا بكمال علمه فينا ، فإنه يعلم منا ما لا نعلمه من نفوسنا ، والوكيل بلا شك خليفة الموكل فيما وكله فيه ، فكونه إلها ما هو كونه وكيلا ، ومن هذه الحقيقة
قال صلّى الله عليه وسلّم [اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل] فأمر الله العبد بأن يتخذه وكيلا بعد أن ملّكه جميع ما خلقه له من منافعه ، ليتفرغ الإنسان لما خلق له من عبادة ربه ، ولا تعارض بين ذلك وبين قوله تعالى (وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) فجعل الإنفاق بيد العبد والملك لله ،
وفي هذا القدر الذي أمرهم به من الإنفاق فيه ، أمرهم أن يتخذوه وكيلا ، فلا تنافي بين المقامين ، فالملك لله والإنفاق للعبد بحيث الأمر ، وما أطلق له في ذلك ،
وفي الإنفاق أمر الله أن يوكل الله في ذلك ، لعلمه بمواضع الإنفاق والمصارف التي ترضي رب المال في الإنفاق ، فنزلت الشرائع أبانت له مصارف المال ، فأنفق على بصيرة بنظر الوكيل ، فمن أنفق فيما لم يأمره الوكيل بالإنفاق فيه ، فعلى المنفق قيمة ما استهلك من مال

ص 402

من استخلفه فيه ، ولا شيء له ، فإنه مفلس بحكم الأصل ، فلا حكم عليه ، وهذا هو آخر تهليل ورد في القرآن الذي وصل إلينا ، وهي ستة وثلاثون مقاما ،

[التوحيد السادس والثلاثون في القرآن وهو توحيد الوكالة :]

وهذا التوحيد السادس والثلاثون ، هو توحيد الوكالة ، وهو من توحيد الهوية ، وفي هذا التوحيد ملّك الله العالم الإنساني جميع ما خلقه له من منافعه ، وأمره أن يوكل الله في ذلك ، فأعطى هذا التوحيد الإنسان رفع الحكم عنه فيما أتلف من مال من استخلفه ،

[تحقيق : « لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » الآية]

-تحقيق - الوكالة نيابة عن الموكل فيما وكله فيه أن يقوم مقامه ، فأثبت لك الشيء وسألك أن تستنيبه فيه بحكم الوكالة ، فمن كلّ وجه النيابة مشروعة ، وهل تصح من جهة الحقيقة أم لا ؟ فمنا من يقول : إنها تصحّ من جهة الحقيقة ،

فإن الأموال ما خلقت إلا لنا ، إذ لا حاجة لله إليها ، فهي لنا حقيقة ، ثم وكلنا الحق تعالى أن يتصرف لنا فيها ، لعلمنا أنه أعلم بالمصلحة ، فتصرف على وجه الحكمة التي تقتضي أن تعود على الموكل منه منفعة ، فأتلف ماله هذا الوكيل الحق تعالى ،

بغرق أو حرق أو خسف ، أو ما شاء ، تجارة له ، ليكسبه بذلك في الدار الآخرة أكثر مما قيل إنه في ظاهر الأمر إتلاف ، وما هو إتلاف بل هي تجارة ، بيع بنسيئة ،

يسمى مثل هذا تجارة رزء ، لكن ربحها عظيم ، وهذا علم يعرفه الوكيل لا الموكل ، وهو يحفظ عليه ماله لمصلحة أخرى يقتضيها علمه فيها ،

ومنا من وكّل الله ، فاستخلفه الوكيل في التصرف على حدّ ما يرسمه الوكيل ، لعلم الوكيل بالمصلحة ، فصار الموكل وكيلا عن وكيله ، وهو الذي لا يتعدى الأمر المشروع في تصرفه ، فهو وإن كان المال له فالتصرف فيه بحكم وكيله ، وهذا نظر غريب ، ومنا من قال : لا تصح من جهة الحقيقة ،

فإن الله ما خلق الأشياء - والأموال من الأشياء - إلا له تعالى ، لتسبيحه ، ووقعت المنفعة لنا بحكم التبعية ، فإذا خلق الأشياء من أجله لا من أجلنا ، فما لنا شيء نوكله فيه ، لكن نحن وكلاؤه في الأشياء ، فحدّ لنا حدودا فنتصرف فيها على ما حدّ لنا ،

فإن زدنا على ما رسم لنا أو نقصنا عاقبنا ، فلو كانت الأموال لنا لكان تصرفنا فيها مطلقا ، وما وقع الأمر هكذا ، بل حجر علينا التصرف فيها ،

فما هي وكالة مفوضة بل مقيدة بوجوه مخصوصة من رب المال الذي هو الحق الموكل ، وعلى كل وجه فالنيابة حاصلة ، إما منه تعالى ، وإما منا ،

وقد ثبتت في أي طرف كان وفي هذه الآية أمر الله عبده بالسكون تحت مجاري الأقدار ، وما يأتي به الله إليه في الليل والنهار ، فيكون هو سبحانه الذي يتصرف في أمر عبده ، حتى يوفيه ما قدر له

ص 403

من كل ما يصيبه ، حتى إنّه لو كان مما يصيبه السفر والانتقال ، لنقله الحق بهذه الصفة التي هو عليها من السكون في محفة عناية إلهية ، لا يعرف الحركة المتعبة ، مستريحا مظللا عليه مخدوما ، والتوكل اعتماد القلب على الله تعالى ،
مع عدم الاضطراب عند فقد الأسباب الموضوعة في العالم التي من شأن النفوس أن تركن إليها ، فإن اضطرب فليس بمتوكل ، وهو من صفات المؤمنين ، فالمؤمن العالم يتخذ الله وكيلا يسلم إليه أموره ، ويجعل زمامها بيده ،
فهو أعلم بما يصلح له ، ونبه تعالى بهذا الأمر أنه لا ينبغي الوكالة إلا لمن هو إله ، لأنه عالم بالمصالح إذ هو خالقها ، فاتخاذه تعالى وكيلا إنما هو في المصلحة لنا لا في عين الأشياء ، فالعبد يتخذ الله وكيلا نائبا عنه فيما ملّكه إياه ، شكرا على ما أولاه ،
والذين اتخذوه وكيلا صاروا أمواتا بين يديه ، فصاروا كالميت بين يدي الغاسل ، ولهذا أعطاهم صفة التقديس وهي الطهارة

- إشارة - العجب ممّن اتخذ مستخلفه وكيلا
، فلو لا الأمر الرباني ، لرده الأدب الكياني ، فإنه ليس للعبد من الجرأة أن يوكل سيده ، فلما تبرع بذلك لعباده ، ونزل إليهم من كبريائه بلطفه الخفي ، اتخذوه وكيلا ، وأورثهم هذا النزول إدلالا ، كما أنه لولا أن الحق أعطى العبد الاستقلال بالخلافة ما قال له عن نفسه تعالى آمرا« فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا »
ولا قال له صلّى الله عليه وسلّم [أنت الخليفة في الأهل والصاحب في السفر] وهو صلّى الله عليه وسلّم القائل [إن الله أدبني فأحسن أدبي]
- شعر :
أنا صاحب الملك الذي قال إنني *** أنا نائب فيه بأصدق قيل
ولو لم يكن ملكي لما صح أن أرى *** موكله والحق فيه وكيلي
وعن أمرنا كانت وكالتنا له *** وبرهان دعواي وعين دليلي
كتاب له حق وفيه اعترافه *** بما قلت فيه فالسبيل سبيلي
يقول بأضداد الأمور وجوده *** فقد حرت فيه وهو خير جليل
عجبت له من غائب وهو حاضر *** بتنفيذ أخبار وبعث رسول
إلى من ؟ وإن العين عين وجوده *** وممن ؟ فقد حرنا فكيف وصولي
إلى منزل ما فيه عين غريبة *** ولا حيرة فيها شفاء غليل

[حقيقة التوكيل ومخاطبة الحق للشيخ في سره :]
<u>يقول الشيخ الأكبر رضي الله عنه :</u>
خاطبني الحق في سري ، من اتخذني وكيلا فقد ولاني ، ومن ولاني فله مطالبتي وعليّ إقامة الحساب فيما ولاني فيه ، يقول الشيخ رضي
ص 604

الله عنه : فانعكس الأمر وتبدلت المراتب ، هذا صنع الله مع عباده الذين اصطفاهم وارتضاهم ، وما فوق هذا الامتنان امتنان ترقى الهمة إلى طلبه.

[سورة المزمل (73) : الآيات 10 إلى 11]
وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (10) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (11)
كما أبطن الله رحمته في عذابه ونقمته ، مثل ما يقع بالمريض من عذابه بالمرض ، رحمته به فيما يكفر عنه من الذنوب ، وكذلك من انتقم منه في إقامة الحد ارتفعت عنه المطالبة في الدار الآخرة ، كذلك أبطن نقمته في نعمته ، فهو ينعم الآن بما به يتعذب ، لبطون العذاب في الدار الآخرة ، فسبحان من أبطن رحمته في عذابه وعذابه في رحمته ، ونعمته في نقمته ونقمته في نعمته.

[سورة المزمل (73) : الآيات 12 إلى 20]
إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً (12) وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً أَلِيماً (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً (14) إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (15) فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلاً (16)
فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً (17) السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (18) إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (19) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(20)

ص 405

والله يقدر الليل والنهار ، بالإيلاج والغشيان والتكوير ، لإيجاد ما سبق في علمه أن يظهر فيه ، من الأحكام والأعيان في العالم العنصري ،
وأما قوله تعالى "فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ »اعلم أن التعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند افتتاح قراءة القرآن في صلاة وفي غيرها فرض ،
للأمر الإلهي الوارد في قوله تعالى (فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ)
وقراءة البسملة في القراءة في الصلاة فرضا كانت الصلاة أو نفلا في الفاتحة والسورة أولى من تركها ، فإن الفرض على المصلي أن يقرأ ما تيسر من القرآن ،
وقد عيّن الله الذي أراد من القرآن في الصلاة ، وهو الذي تيسر ، فقد عرّف بعد ما نكر ، وذلك هو الفاتحة ، فإن تيسر له قراءة البسملة قرأها ،
وإن لم يتيسر قراءتها في الفاتحة وغيرها فلا حرج ، وأما الفاتحة فلا بد منها في الصلاة ، وإن لم يقرأ الفاتحة فما هي الصلاة التي قسمها الحق بينه وبين عبده ،
والبسملة عندنا آية من القرآن حيثما وردت من القرآن ، وهي آية إلا في سورة النمل في كتاب سليمان عليه السلام ، فإنها جزء من آية ما هي آية كاملة ، فقراءة الفاتحة فاتحة الكتاب في الصلاة واجبة ، وإن تركها لم تجزه صلاته ، وما عداها من القرآن ما فيه توقيت ،
ويستحب القراءة في الصلاة كلها ، والعاقل الأديب مع الله إذا دخل في الصلاة لا يناجيه إلا بقراءة أم القرآن ، فهي الجامعة لكلامه ، فكان الحديث الصحيح عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي رواه عن ربه تعالى ، مفسرا لما تيسر من القرآن ،
وإذا ورد أمر مجمل من الشارع ، ثم ذكر الشارع وجها خاصا مما يكون تفسيرا لذلك المجمل،
[واجب الأدباء من العلماء تجاه المجمل من كلام الله تعالى :]
كان الواجب عند الأدباء من العلماء أن لا يتعدوا في تفسير ذلك المجمل ما فسره به قائله وهو الله تعالى ، وأن يقفوا عنده ، وشرع المناجاة بالكلام الإلهي في حال القيام في الصلاة خاصة ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [يقول

ص 406

الله قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين : نصفها لي ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل ، يقول العبد الحمد لله رب العالمين ، يقول الله : حمدني عبدي - الحديث –
[« فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ »]
فالفاتحة قرآن من حيث ما اجتمع العبد والرب في الصلاة ، وهي فرقان من حيث ما تميز به العبد من الربّ مما اختص به في القراءة من الصلاة ، والعبد في الفاتحة قد أبان الحق بمنزلته فيها ، وأنه لا صلاة له إلا بها ، فإنها تعرفه بمنزلته من ربه ، وأنها منزلة مقسمة بين عبد ورب .
كما ثبت ، فقال تعالى« وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ »الزكاة واجبة بالكتاب والسنة والإجماع ، فلا خلاف في ذلك ، وهي واجبة على كل مسلم حر بالغ عاقل مالك للنصاب ملكا تاما ،
والزكاة واجبة في المال لا على المكلف ، وإنما هو مكلف في إخراجها من المال ،
والأولى أن يكون كل ناظر في المال هو المخاطب بإخراج الزكاة منه ، وعلى ذلك فإن الوصي على المحجور عليه يخرج عنه الزكاة وليس له فيه شيء ،
ولهذا قلنا : إنها حق في المال ؛ فإن الصغير لا يجب عليه شيء ، وقد أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم بالتجارة في مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة ،
وعلى ذلك فإن الصدقة أي الزكاة واجبة في مال اليتيم يخرجها وليه ، وواجبة في مال المجنون والمحجور عليه يخرجها وليه ، وواجبة في مال العبد يخرجها العبد ، وأما أهل الذمة فالذي أذهب إليه أنه لا يجوز أخذ الزكاة من كافر ،
وإن كانت واجبة عليه مع جميع الواجبات ، لأنه لا يقبل منه شيء مما كلف به إلا بعد حصول الإيمان به ، فإن كان من أهل الكتاب ففيه عندنا نظر ،
فإن أخذ الجزية منهم قد يكون تقريرا من الشارع لهم على دينهم الذي هم عليه ، فهو مشروع لهم ، فيجب عليهم إقامة دينهم ، فإن كان فيه أداء زكاة وجاءوا بها . قبلت منهم ، وليس لنا طلب الزكاة من مشرك ، وإن جاء بها قبلناها ،
والكافر هنا المشرك ليس الموحد ، فلا زكاة على أهل الذمة بمعنى أنها لا تجزي عنهم إذا أخرجوها ، مع كونها واجبة عليهم كسائر فروض الشريعة ، لعدم الشرط المصحح لها وهو الإيمان بجميع ما جاءت به الشريعة ، لا بها ولا ببعض ما جاء به الشرع ، فلو آمن بالزكاة وحدها أو بشيء من الفرائض أنها فريضة ، أو بشيء من النوافل أنها نافلة ،
ولو ترك الإيمان بأمر واحد من فرض أو نفل لم يقبل منه إيمانه إلا أن يؤمن بالجميع ، ومع هذا فليس لنا أن نسأل ذميا زكاته ، فإن أتى بها من نفسه فليس لنا ردها ، لأنه جاء بها إلينا من غير مسئلة ، فيأخذها السلطان لبيت مال المسلمين ، لا يأخذها زكاة ولا يردها ، فإن ردها فقد عصى أمر

ص 407

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم- حكمة فرض الزكاة -
الأصل الذي ظهرت عنه الأشياء من أسمائه الاسم القدوس ، وهو الطاهر لذاته من دنس المحدثات ، فلما ظهرت الأشياء في أعيانها وحصلت فيها دعاوي الملاك بالملكية ، طرأ عليها من نسبة الملك إلى غير منشئها ما أزالها عن الطهارة الأصلية ، التي كانت لها من إضافتها إلى منشئها قبل أن يلحقها هذا الدنس العرضي بملك الغير لها ، وكفى بالحدث حدثا ، فجعل الزكاة طهارة للأموال.

واتفق العلماء على أن الزكاة تجب في ثمانية أشياء محصورة في المولدات ، من معدن ونبات وحيوان ، فالمعدن الذهب والفضة ، والنبات الحنطة والشعير والتمر ، والحيوان الإبل والبقر والغنم ، فكذلك من جهة الاعتبار في الإنسان ، جعل الله عليه زكاة جوارحه الثمانية ، وهي السمع والبصر واللسان واليد والرجل والبطن والفرج والقلب ، عيّن الله فيها نصيبا يرجع إلى الله عن أمر الله ، لينسبها إلى مالكها الأصلي ،
فتكتسب الطهارة في كل عضو ، فزكاة البصر ما يجب لله تعالى فيه من الحق ، كالغضّ عن المحرمات ، والنظر فيما يؤدي النظر إليه من القربة عند الله كالنظر في المصحف ، وفي وجه العالم ، وفي وجه من يسرّ بنظرك إليه من أهل وولد وأمثالهم ،
وكالنظر إلى الكعبة ، إلى غير ذلك ، وعلى هذا النحو تنظر في جميع الأعضاء المكلفة في الإنسان ، في تصريفها فيما ينبغي وكفها عما ينبغي « وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً »
خاطب الحق أصحاب الجدة واختبر عباده بالمال ، ثم اختبرهم بالسؤال منه ، وأنزل الحق نفسه منزلة السائلين من عباده أهل الحاجة أهل الثروة منهم ،
بقوله في الحديث [يا عبدي استطعمتك فلم تطعمني ، واستسقيتك فلم تسقني]
أما العلماء فالتذوا بسماع هذا الخطاب حيث كانوا ، فإذا أقرضوه رأوا أن الصدقة تقع بيد الرحمن ، فحصل لهم بالمال وإعطائه مناولة الحق منهم ذلك ، فكانت لهم وصلة المناولة ، وعلمنا بتقييد القرض بالحسن أنه تعالى يريد أن نرى النعمة منه وأنها نعمته ،
فالحسن في العمل أن تشهد الله فيه ، فإنه من الإحسان ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، وذلك أن تعلم أن المال مال الله ، وأن ملكك إياه بتمليك الله ،
وبعد التمليك نزل إليك في ألطافه إلى باب المقارضة .
يقول لك : يغيب عنك طلبي منك القرض في هذا المال ، من أن تعرف أن هذا المال هو عين مالي ، ما هو لك ، فكما لا يعز عليك ولا يصعب إذا رأيت أحدا يتصرف في ماله كيف شاء ، كذلك لا يعز عليك ولا يصعب ما أطلبه منك مما جعلتك مستخلفا فيه ،
لعلمك بأني ما طلبت منك إلا ما أمنتك

ص 408

عليه ، لأعطيه من أشاء من عبادي ، والزكاة معينة ، ما أعطيتها قط لك ، بل أمنتك عليها ، والأمين لا يصعب عليه أداء الأمانة إلى أهلها ، فإذا جاءك المصدق الذي هو رسول رب الأمانة ووكيلها ، أد إليه أمانته عن طيب نفس ،
فإن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنك إذا رأيته علمت أن المال ماله والعبد عبده ، والتصرف له ولا مكره له ، وتعلم أن هذه الأشياء إن عملتها لا يعود على الله منها نفع ، وإذا أنت لم تعملها لا يتضرر بذلك ، وأن الكل يعود عليك ، فالزم الأحسن إليك تكن محسنا إلى نفسك ، وإذا كنت محسنا كنت متقيا أذى شح نفسك ،

فجمع لك هذا الفعل الإحسان والتقوى ، ولما كان كل قرض جر نفعا فهو ربا ، والله لا ينهى عن الربا ويأخذه منا ، لذلك كان العبد المقرض أن لا يقرض لأجل التضاعف ، بل لأجل الأمر ، فلا يخطر له عند الإعطاء النفع ، وللمعطى الذي هو المقترض أن يحسن في الوفاء ، ويزيد فوق ذلك ما شاء من غير أن يكون شرطا في نفس القرض ،

فإن الله قد وعد بتضاعف الأجر في القرض ، فالإحسان في الجزاء يوم القيامة لله تعالى على ذلك ،
وهذا معنى قوله تعالى« حَسَناً »في وصف القرض ، فإن الله يعاملنا بما شرع لنا لا بغير ذلك ، والله تعالى أمر عباده هنا بهذه الثلاثة : الصلاة والزكاة والقرض الحسن ، والقرض هنا صدقة التطوع ، فورد الأمر بالقرض كما ورد بإعطاء الزكاة ،
والفرق بينهما أن الزكاة موقتة بالزمان والنصاب وبالأصناف الذين تدفع إليهم ، والقرض ليس كذلك ، وقد تدخل الزكاة هنا في القرض ،
فكأنه يقول« وَآتُوا الزَّكاةَ »قرضا لله بها فيضاعفها لكم ، فالقرض الذي لا يدخل في الزكاة غير موقّت لا في نفسه ولا في الزمان ولا بصنف من الأصناف ، والزكاة المشروعة والصدقة لفظتان بمعنى واحد ،
قال تعالى(خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها)وقال تعالى)إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ)فسماها صدقة ، فالواجب منها يسمى زكاة وصدقة ، وغير الواجب فيها تسمى صدقة التطوع ولا تسمى زكاة شرعا ، أي لم يطلق الشرع عليه هذه اللفظة ، مع وجود المعنى فيها من النمو والبركة والتطهير ، فإن الفرض قد عيّن الله أصنافه ورتبه على نصاب معين وزمان معين ، والتطوع من ذلك لا يقف عند شيء ،
فإن التطوع إعطاء ربوبية فلا يتقيد ، والفرض إعطاء عبودية فهو بحسب ما يرسم له سيده ، وإعطاء العبودية أفضل ، فإن الفرض أفضل من النفل ، وأين عبودية الاضطرار من عبودية الاختيار ؟ وسماها الله صدقة أي كلفة شديدة على النفس ،

ص 409

لخروجها عن طبعها في ذلك ، لأن النفس مجبولة على حب المال وجمعه ، ولهذا آنسها الحق تعالى بقول نبيه صلّى الله عليه وسلّم للأنفس [إن الصدقة تقع بيد الرحمن فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله]
وذلك لأمرين : أحدهما ليكون السائل يأخذها من يد الرحمن لا من يد المتصدق ،
فإن النبي صلّى الله عليه وسلّم يقول [إنها تقع بيد الرحمن قبل أن تقع بيد السائل] فتكون المنة لله على السائل لا للمتصدق ، فإن الله طلب منه القرض ، والسائل ترجمان الحق في طلب هذا القرض ،
فلا يخجل السائل إذا كان مؤمنا من المتصدق ، ولا يرى أن له فضلا عليه ، فإن المتصدق إنما أعطى الله القرض الذي سأل منه وليربيها له ،
وهذا من الغيرة الإلهية والفضل الإلهي ، والأمر الآخر ، ليعلمه أنها مودعة في موضع تربو له فيه وتزيد ، هذا كله ليسخو بإخراجها ويتّقي شح نفسه ، وفي جبلة الإنسان طلب الأرباح في التجارة ونمو المال ،
فلهذا جاء الخبر بأن الله يربي الصدقات ، ليكون العبد في إخراج المال من الحرص عليه الطبيعي لأجل المعاوضة والزيادة والبركة بكونه زكاة ، كما هو في جمع المال وشح النفس من الحرص عليه الطبيعي ، فرفق الله به حيث لم يخرجه عما جبله الله عليه ، فالبخيل بالصدقة بعد هذا التعريف الإلهي وما تعطيه جبلة النفوس من تضاعف الأموال ،
دليل على قلة الإيمان عند هذا البخيل ، إذ لو كان مؤمنا على يقين من ربه ، مصدقا له فيما أخبر به عن نفسه في قرض عبده وتجارته ، لسارع بالطبع إلى ذلك كما يسارع به في الدنيا مع أشكاله ، عاجلا وآجلا ، ولهذا سماها الله صدقة ،
أي هي أمر شديد على النفس ، تقول العرب : رمح صدق ؛ أي صلب شديد قوي ، أي تجد النفس لإخراج هذا المال لله شدة وحرجا ، كما قال ثعلبة ابن حاطب ، ولما كان القرض فيه سد الخلة ، قالت اليهود (إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ) أي من أجل فقره طلب القرض منا ، وغابوا عن الذي أراده الحق تعالى من ذلك ، من غاية وصلته بخلقه ،
كما جاء في الصحيح [جعت فلم تطعمني] ثم قال تعالى« وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ »وإن كان الخير كل فعل مقرب إلى الله من صدقة وغيرها ، ولكن مع هذا فقد انطلق على المال خصوصا اسم الخير ،
قال تعالى(وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)
وقال تعالى(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)يعني المال« هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .«

ص 410

(74) سورة المدّثر مكيّة

[سورة المدثر (74) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3)

- إشارة - في معنى قولك " الله أكبر "

أكبره في كل فعل على الذي *** تجلى من الأسماء لناظري.
فإن الذي يبدو إليّ هو الذي *** أراه بذاك الفعل ربي وآمري

اعلم أن للجمع حضرتين ، فإن الوجود كله مبني على اثنين ، فالله وأعني به الاسم حضرة جامعة لجميع الأسماء الحسنى ، والذات التي لها الألوهية حضرة جامعة لجميع الصفات القدسية الذاتية ، والصفات الفاعلة في العالم الأبعد والأدنى ، والأرفع والأسفل ،
فإذا كنت في حالة من الحالات ، من أحوال الأرض أو من أحوال السماء ، فلا شك أنك تحت اسم من الأسماء ، سواء عرفت ذلك أو لم تعرف ، أوقفت في مشاهدته أو لم تقف ،
فإن ذلك الاسم الذي يحركك ويسكنك ، أو يكونك أو يمكنك ، يقول لك : أنا إلهك ؛ ويصدق في قوله ،
فيجب عليك أن تقول : الله أكبر ، وأنت يا اسم سبب فعله ؛ تلك الرفعة السببية ، ولله الرفعة الإلهية ، ويصح فعل هذا على طريق المفاضلة ، فإنها في حضرة المماثلة ،
قال الله تعالى(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى) كذلك له الصفات العليا ، فإن الله هو الرحمن الرحيم ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارئ المصور ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، الشاكر العليم ، القادر الرؤوف الرحيم الرزاق إلى ما يعلم منها ، وما لا يعلم ، وما يفهم من صفاته وما لا يفهم ، وعلى هذا يصح الله أكبر ، وبه تثبت المعارف الإلهية وتتقرر ، وهذا أمر مجمل ، تفصله أعمالك ، وسر مبهم توضحه أحوالك ، واعلم أن الذات لا تتجلى إليك أبدا من حيث هي ، وإنما تتجلى إليك من حيث صفة ما معتلية ، وكذلك اسم الله لا يعرف أبدا معناه ، ولا يسكن وقتا ما في مغناه ، وبهذا السر تميز الإله من المألوه ، والرب من المربوب ، ولو

ص 411

لم يكن كذلك لالتحق المهلك بالهالك ، فقد بانت الرتب ، وعرفت النسب ، وثبتت حقيقة السبب ، جعلنا الله وإياكم ممن شاهد محركه فكبر ، فتجلى له ما هو أكبر - راجع سورة العنكبوت آية 45 .

[سورة المدثر (74) : آية 4]
وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ (4)
قيل في تفسيره إنه أمر بتقصير ثيابه ، يقول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في هذا المعنى:
تقصيرك الثوب حقا *** أنقى وأبقى وأتقى
- إشارة لا تفسير - الثوب في الاعتبار القلب
، وهو أن يطهر العبد قلبه ، وطهارته هو البراءة من نفسه ورد الأمر كله إلى الله ، فإن الله يقول(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ) فيا أيّها العقل طهّر ثوب سرك ، وبقعة قلبك لتجلي ربّك ، فإنّ سرّ الطهارة معقول ، كما أنّ فعلها منقول . ويا أيّها الحسّ طهّر ثوبك بالتقصير ، فإنّ الفائزين أهل التشمير ، وطهّر بقعتك النفيسة من عالم التخليط ، فإنك من عالم التخطيط ، عسى يفيض عليك شيء من العالم البسيط ، فإن فاض عليك منه شيء فهو نور أنت فيؤه ، وعود أنت بدؤه ، وظهور أنت خبؤه ، فلو لا ظهورك ما سرى إليك نوره فيك ، وبفيضه عليك وحاجتك إليه تعزّز ، فاعرف قدرك وقدره ، وتحقّق شمسه وبدره ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، وذلك النور طهور تربها .

[سورة المدثر (74) : الآيات 5 إلى 6]
وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6)
إن الله يمن على عباده بما يمتن عليهم من المنن الجسام ، ولذا سميت مننا ، وليس للعباد أن يمتنوا ، لأن النعم ليست إلا لمن خلقها ، فلهذا كان المن من الله محمودا ، لأنه ينبه عباده بما أنعم عليهم ليرجعوا إليه ، وكان مذموما من العباد لأنه كذب محض .

[سورة المدثر (74) : الآيات 7 إلى 8]
وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7) فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)
الناقور هو الصور ، وهو الحضرة البرزخية التي ننتقل إليها بعد الموت ونشهد نفوسنا فيها ، وينقر في الناقور ، وينفخ في الصور ، وهو هو بعينه ، واختلفت عليه الأسماء لاختلاف الأحوال والصفات .

ص 412

[سورة المدثر (74 : (الآيات 9 إلى 18]
فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً (12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13)
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلاَّ إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً (16)
سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17 (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18)
[خطأ الفكر أكثر من إصابته :]
اعلم أن جميع الحواس لا تخطئ أبدا ، فإن إدراك الحواس الأشياء إدراك ذاتي ، ولا تؤثر العلل الظاهرة العارضة في الذاتيات ، وإدراك العقل على قسمين : إدراك ذاتي فهو فيه كالحواس لا يخطئ ، وإدراك غير ذاتي ، وهو ما يدركه بالآلة التي هي الفكر وبالآلة التي هي الحس ، فالخيال يقلد الحس فيما يعطيه ، والفكر ينظر في الخيال فيجد الأمور مفردات ، فيحب أن ينشئ منها صورة يحفظها العقل ، فينسب بعض المفردات إلى بعض ،
فقد يخطئ في النسبة الأمر على ما هو عليه وقد يصيب ،
فحكم العقل على ذلك الحد يخطئ ويصيب ، فالفكر يصيب العاقل به ويخطئ ، ولكن خطأه أكثر من إصابته ، لأن له حدا يقف عنده ، فمتى وقف عند حده أصاب ولا بد ، ومتى جاوز حده إلى ما هو لحكم قوة أخرى قد يصيب ويخطئ .

[سورة المدثر (74) : الآيات 19 إلى 23]
فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23)
إخبار بعجز من أراد معارضة القرآن ، وإقراره بأن الأمر عظيم ، فإن النظر الفكري ينقسم إلى صحيح وإلى فاسد ، فلا يتعدّى بالفكر محله.

ص 413

[سورة المدثر (74) : آية 24]
فَقالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24)
السحر هو الذي يظهر فيه وجه إلى الحق وهو في نفس الأمر ليس حقا ، مشتق من السحر الزماني ، وهو اختلاط الضوء والظلمة ، فما هو بليل لما خالطه من ضوء الصبح ، وهو ليس بنهار لعدم طلوع الشمس للأبصار ، فكان هذا الذي يسمى سحرا ما هو باطل محقق فيكون عدما ، فإن العين أدركت أمرا لا تشك فيه ، وما هو حق محض فيكون له وجود في عينه ، فإنه ليس في نفسه كما تشهده العين ويظنه الرائي .

[سورة المدثر (74) : الآيات 25 إلى 30]
إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ (27) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ (30)
[شفاعة ملائكة العذاب التسعة عشر :]
وهم ملائكة العذاب ، فإذا لم يبق في النار إلا أهلها القاطنون بها ، الذين لا خروج لهم منها ، وأرادت ملائكة العذاب التسعة عشر عذاب أهل النار ، تجسد من الرحمة المركبة تسعة عشر ملكا ، فحالوا بين ملائكة العذاب . وأهل النار ، ووقفوا دونهم ، وعضدتهم الرحمة التي وسعت كل شيء ، فتجد ملائكة العذاب في نفوسهم رحمة بأهل النار ، فيشفعون لهم عند الله ، ويكونون لهم بعد ما كانوا عليهم ، فإذا شفعت التسعة عشر ملكا في أهل جهنم - للرحمة التي سبقت - قبل الله شفاعتهم وارتفعت الآلام ، فراحتهم ارتفاع الآلام لا وجود النعيم ، وهذا القدر هو نعيم أهل جهنم .

[سورة المدثر (74) : آية 31]
وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَما هِيَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْبَشَرِ(31)

ص 414

" وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ "
أي ما يحصيهم عددا إلا هو ، فإذا كانت الجنود لا يعلمها إلا هو ، وليس للحق منازع يحتاج هؤلاء الجنود إلى مقابلته فاعجب ! ،
لذلك قال« وَما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ »فإن عالم الإنسان لما كان ملكا لله تعالى ، كان الحق تعالى ملكا لهذا الملك بالتدبير فيه وبالتفصيل ، ولهذا وصف تعالى بأنلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، وقال « وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ »
فهو تعالى حافظ هذه المدينة الإنسانية لكونها حضرته التي وسعته ، وهي عين مملكته ، وما وصف نفسه بالجنود والقوة إلا وقد علم أنه تعالى قد سبقت مشيئته في خلقه أن يخلق له منازعا ينازعه في حضرته ،
ويثور عليه في ملكه بنفوذ مشيئته فيه وسابق علمه وكلمته التي لا تتبدل ، سماه الحارث ، وجعل له خيلا ورجلا ،
وسلطه على هذا الإنسان ، فأجلب هذا العدو على هذا الملك الإنساني بخيله ورجله ، ووعده بالغرور بسفراء خواطره التي تمشي بينه وبين الإنسان ، فجعل الله في مقابلة أجناده أجناد ملائكته ، فلما تراءى الجمعان ، وهو في قلب جيشه ،
جعل له ميمنة وميسرة وتقدمة وساقة ، وعرفنا بذلك لنأخذ حذرنا منه من هذه الجهات ، فقال الله تعالى لنا إنه قال هذا العدو (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ) وهو في قلب جيشه في باطن الإنسان ، فحفظ الله هذا الملك الإنساني بأن كان الله في قلب هذا الجيش ، وهذا العسكر الإنساني في مقابلة جيش الشيطان ،
ولا يزال القتال يعمل على هذا الإنسان المؤمن خاصة ، فيقاتل الله عنه ليحفظ عليه إيمانه ، ويقاتل عليه إبليس ليرده إليه ويسلب عنه الإيمان ويخرجه عن طريق سعادته ، حسدا منه ، فإنه إذا أخرجه تبرأ منه وجثا بين يدي ربه ، وعرفنا الله بذلك كلّه لنعرف مكايده ، فهو يقول للإنسان بما يزين له :
اكفر ، فإذا كفر يقول (إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها .)

[سورة المدثر (74) : الآيات 32 إلى 34]
كَلاَّ وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ (34)
معناه أظهر إلى الأبصار المبصرات ، يقال : سفرت المرأة عن وجهها ، إذا أزالت برقعها
ص 415

الذي يستر وجهها ، فبان للبصر ما هي عليه الصور من الحسن والقبح ، وسمى السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال ، معناه أنه يظهر ما ينطوي عليه كل إنسان من الأخلاق المذمومة والمحمودة .

[سورة المدثر (74) : الآيات 35إلى 38]
إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37) كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38)
أي قيدها كسبها ، فإن الله ما كلف أحدا إلا بحاله ووسعه ، ما كلف أحدا بحال أحد قال صلّى الله عليه وسلّم [إنما هي أعمالكم ترد عليكم] إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

[سورة المدثر (74) : آية 39]
إِلاَّ أَصْحابَ الْيَمِينِ (39)
يريد يمين المبايعة التي بيدها الميثاق لا يمين الجارحة .

[سورة المدثر (74) : الآيات 40 إلى 41]
فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41)
ووصف تعالى أهل سقر إذا قيل لهم .

[سورة المدثر (74) : الآيات 42 إلى 46]
ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43 (وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46)
فيدخلون بهذه الصفات من باب سقر ، أحد أبواب جهنم السبعة .

[سورة المدثر (74) : الآيات 47 إلى 48]
حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ (47) فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ (48)
قال تعالى(لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً)فإنهم في ذلك اليوم يعرفون ، بل عند موتهم ، أنهم ليسوا ممن يقبل كلامهم.

ص 416

[سورة المدثر (74) : الآيات 49 إلى 51]
فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51)
القسورة الأسد .

[سورة المدثر (74) : الآيات 52 إلى 56]
بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (52 (كَلاَّ بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (55) وَما يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56)

(75) سورة القيامة مكيّة

[سورة القيامة (75) : آية 1]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ (1)
يوم القيامة هو يوم العدل في القضاء ، وهو يوم قيام الناس من قبورهم لرب العالمين لفصل القضاء .

[سورة القيامة (75) : آية 2]
وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2)
لوامة نفسها إذا قبلت من الشيطان ما يأمرها به .

[سورة القيامة (75) : الآيات 3 إلى 8]
أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ (3) بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (5) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ (6) فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ(8)

ص 417

[بحث في الكسوف والخسوف :]
إن النفوس ما تنبعث وتهتز إلا للآيات الخارقة للعادة ، والآيات الإلهية منها معتاد وغير معتاد ، والقرآن قد ورد في الآيات المعتادة كثير في قوله(وَمِنْ آياتِهِ)
(وَمِنْ آياتِهِ) ويذكر أمورا معتادة ثم يقول :(إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ) ولكن لا ترفع العامة بها رأسا لجري العادة ، واستيلاء الغفلة ، وعدم الحضور .
والكسوف آية من آيات الله يخوف الله به عباده ، وسبب كسوف الشمس والقمر معروف ، وقد جعل الله الكسوف آية على ما يريد أن يحدثه من الكوائن في العالم العنصري ، وفي العالم الذي يظهر فيه الكسوف وفي الزمان ،
فإنه قد يكسف ليلا ، ويكون الحدث أيضا بحسب البرج الذي يقع الكسوف فيه ، وهو علم قطعي ، أعني علم وقوع الكسوف ، لا علم ما يحدث الله فيه أو عنده ، ويكون الكسوف في مكان أكثر منه في مكان آخر ،
وفي مكان دون مكان ، ويبتدئ في مكان وفي مكان آخر ما ابتدأ ، بل هو على حاله ، وهذا كله يعرفه العلماء به ، فإنه راجع إلى حركات معلومة معدودة عند أهل هذا الشأن ، وسبب كسوف الشمس من القمر إذا كان في مسامتتها ، فعلى قدر ما يسامتها منه يغيب منها عن أبصارنا ، فذلك الظل الذي نراه في الشمس هو من جرم القمر ،
وقد يحجبها كلها فيظلم الجو ، فيقع الإبصار على جرم القمر ، فتتخيل العامة أن ذلك المرئي هو ذات الشمس ، والشمس نيرة في ذاتها على عادتها إلى أن يشاء الله تكويرها ، ولذلك يعرف زمان كسوفها ومقداره عند العارفين بتسيير الكواكب ،
ولا يكون أبدا إلا في آخر الشهر العربي ، فإن القمر في ذلك الزمان يكون في المحاق والاحتراق تحت الشعاع ، فإن أعطى الحساب ما يؤدي إلى المسامتة عندنا وقع الكسوف بلا شك . وكذلك كسوف القمر إنما هو أن يحول ظل الأرض بينه وبين الشمس ، فعلى قدر ما يحول بينهما يكون الكسوف في ذلك الموضع ، ولهذا يعرف ، والخطأ فيه قليل جدا ، ولو لم يكن الأمر على هذا ما علم ، فإن الأمور العوارض لا تعلم إلا بإعلام الله على لسان من شاء من عباده ، والأمور جارية على أصولها ثابتة لا تنخرم ، يعلمها العالم بتلك الأصول ، وهي معتادة موضوعة لله تعالى واضعها ، ما هي عقلية ، ولا سبب ذلك طبيعي ، ولهذا يجوز خرق العادة فيها ، وهكذا كل موضوع إلى أن يخرم الله ذلك الأصل ، فلله المشيئة في ذلك .
فالكسوف لا يكون إلا عند الكمال في النيرين في القمر ليلة بدره ، وكسوف الشمس في ثمانية وعشرين يوما من سير القمر في جميع منازل الفلك . ولا يكون للكسوفات حكم في الأرض إلا في

ص 418

الأماكن التي يظهر فيها الكسوف ، وأما الأماكن التي لا يظهر فيها الكسوف فلا حكم يظهر فيها له ولا أثر ، أي ما يفعل الله عند ذلك شيئا في العالم من الكوائن التي يفعلها عند ظهور الكسوف ، حتى أن الشمس إذا أعطى الحساب أنها تكسف ليلا لم يكن لذلك الكسوف حكم في ظاهر الأرض التي لم يظهر الكسوف فيها ، وكذلك كسوف القمر في الحكم ، سئل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الكسوف فقال [ما تجلى الله لشيء إلا خشع له] .

وهو ما يظهر لعين الرائي من التغيير في الشمس أو القمر وإن لم يتغيرا في أنفسهما ، فأبدى الحق لعين الرائي ما في نفس الشمس والقمر في ذلك الزمان من الخشوع لله في صورة ذهاب النور ، فما هلك من البدر إلا نوره لا عينه ، وبقيت ذاته وكونه ،
فقد كان ذا نور فاظلم ، واستترت الأشياء حين أعتم ، فقال تعالى مع علمه بالخبر خسف القمر،
وعين القمر هو الظاهر في الكسوفين ، والمتجلي في الوجودين ، وهذا لا يمنع الأسباب المؤدية للكسوف المعلومة لدى العلماء بالفلك ، فإن الله من وراء الأسباب ،
وكما لا يتعين للكسوف وقت ، لا يتعين للصلاة له ، لأن الصلاة تابعة للأحوال ، وقد ثبت الأمر بالصلاة لها ، وما خص وقتا من وقت ، وهي صلاة مأمور بها بخلاف النافلة ، فإن حملنا الصلاة على الدعاء ،
دعونا في الوقت المنهي عن الصلاة فيه وصلينا في غيره من الأوقات ، فصلاة الكسوف سنّة ، والخلاف في صفتها وردت فيها روايات مختلفة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ما بين ثابت وغير ثابت ، وما من رواية إلا وبها قائل ،
فأي شخص صلاها على أي رواية كانت جاز له ذلك فإنه مخير ، والرواية التي هي أحب إليّ هي دعاء الله تعالى بتضرع وخشوع حتى تنجلي ، فإذا انجلى صلى الإنسان ركعتين شكرا لله تعالى وانصرف ،
وهذه الرواية أحب إليّ لما فيها من احترام الجناب الإلهي ، والرحمة بالأمة المصلين لها ، فإنهم لاستيلاء الغفلات والبطالات عليهم لا يوفون بشروط ما تستحقه الصلاة من الحضور والآداب ، فربما يمقت المصلي ولا يشعر ، أو تثقل عليه تلك العبادة فيتبرم منها ،
فلذلك جعلنا رواية الدعاء من غير صلاة أولى ، والصلاة في جماعة أولى إن قدر عليها ، والذي أذهب إليه أنه يستحب للإمام أن يخطب الناس ليذكرهم ويحذرهم ، فإن الكسوف من الآيات التي يخوف الله بها عباده ، وقد ثبت أن النبي صلّى الله عليه وسلّم ذكر الناس بعد الفراغ من الصلاة.

ص 419

[سورة القيامة (75) : الآيات 9 إلى 11]
وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلاَّ لا وَزَرَ (11)
لا ملجأ ، فإن تيقنت النفس بورودها على تلك الأهوال ، سهل عليها عند ذلك ركوب شدائد الأعمال ، فراقب يا أخي الأوقات وخف الفوات ، واتق الأوقات ، وقدم ما تحبه بين يديك ، وثق به سبحانه وعول عليه ، فمن إليه الرجوع حتما ، ينبغي للعاقل أن يتخذ عنده يدا .

[سورة القيامة (75) : آية 12]
إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12)
فثبت المقر وجعل إليه المفرإشارة : « كَلَّا لا وَزَرَ «
لمن قال لا مفر« إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ »مستقر قلبك ، ومقر لبّك .

[سورة القيامة (75) : الآيات 13 إلى 15]
يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ (15)
انظر أيها الولي الحميم إلى ما يحوك في صدرك ، لا تنظر إلى العوارض ، فإنك بحسب ما يحوك ، فإن حاك الإيمان فأنت مؤمن ، وإن حاك صرف ما وجب به الإيمان إلى ما لا يقتضيه ظاهر الحكم فأنت بحسب ذلك ، وبه يختم لك ، ولا تنظر إلى ما يبدو للناس منك ، ولا تعول إلا على ما يحوك في صدرك ، فإنه لا يحوك في صدرك إلا ما سبق في الكتاب أن يختم به لك ، إلا أن الناس في غفلة عما نبهتهم عليه ، ولا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وذلك الذي يحوك في صدرك ، وهو عين تجلي الأمر الذي لك ، وقسمك من الوجود الحق .

[سورة القيامة (75 : (آية 16]
لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16)
وذلك أدبا مع أستاذه جبريل عليه السلام ، فإنه كان يعجل بالقرآن إعلاما بالحال أن الله تولى تعليمه بنفسه من الوجه الخاص الذي لا يشعر به الملك ، ولذلك قال مؤيدا:

ص 420

[سورة القيامة (75) : الآيات 17 إلى 19]
إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (19)
فما ذكر سوى نفسه ، وما أضافه إلا إليه ، ولم يجر لغير الله في هذا التعريف ذكر ، وبهذا جاء لفظ النبي صلّى الله عليه وسلّم في قوله [إن الله أدبني فأحسن أدبي] ولم يذكر إلا الله ، ما تعرض لواسطة ، ولا لملك ، وهذه الآية تؤيد أن القرآن أنزل عليه صلّى الله عليه وسلّم بهذه الألفاظ المخصوصة قال تعالى :(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا).

[سورة القيامة (75) : الآيات 20 إلى 22]
كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (22)
وصف تعالى حال أهل السعادة بذلك وبقوله :

[سورة القيامة (75) : آية 23]
إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (23)

[رؤية الله تعالى :]
إثباتا لرؤيته في الدار الآخرة بظاهر قوله ، على أن تكون إلى حرف أداة غاية ، فإن الرؤية غاية البصر ، واللذة البصرية لا تشبهها لذة ، فإنها عين اليقين في المعبود ، فلا نشك أنا نرى ربنا بالأبصار عيانا على ما يليق بجلاله ، وهو مرئي لنا ، ولا نقول إنه محسوس لما يطلبه الحس من الحصر والتقييد ، فهي رؤية غير مكيفة ،
فنراه منزها كما علمناه منزها ، لا نقول بالكيف والحصر والتقييد ، ومن وجه آخر« إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ »إلى نعم ربها مع تقدير محذوف ، فتكون إلى اسم جمع النعمة ، فإن ذلك في اللفظ يحتمل ، ولهذا ما هي هذه الآية نص في الرؤية يوم القيامة .
واعلم أنه سبحانه نزل في جماله مباسطة معنا إلى أن ندركه بأبصارنا ، وينظر إلى هذا قوله عليه السلام [وترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر وكما ترون الشمس بالظهيرة ليس دونها سحاب لا تضارون في رؤيته]
وقال تعالى في حق أصحاب الجحيم (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)
والنظر بـ : إلى في كلام العرب لا يكون إلا بالبصر ، وب : في يكون بالعقل وبالفكر ، وباللام يكون للرحمة ، وبغير أداة يكون للتقابل والمكافحة والتأخير ، والأبصار من صفات الوجوه ، وليس العقل منها ، فلا بد

ص 421

من رؤيته ، وقوله(لَنْ تَرانِي)لموسى عليه السلام حكم يرجع إلى حال ما علمه من سؤال موسى عليه السلام ، لا يسعنا التكلم فيه ، وقد أحاله على الجبل ودكّ الجبل ، وصعق موسى ، والإدراك لا يصعق ، وليس من شرطه بنية مخصوصة ولا البنية من شرطه ، وإنما من شرطه موجود يقوم به ، لأنه معنى ، والصعق قام بالبنية الكثيفة ،

فلما أفاق سبح ، ولا فائدة للتسبيح عند القيام من ذلك الموطن إلا لمشاهدة ما ، ثم أعطته المعرفة التوبة من اشتراط البنية ، ثم أقر بأنه أول المؤمنين بما رآه في تلك الصعقة ، لأن الإيمان لا يتصور إلا بالرؤية في أي عالم كان ،

ولهذا قال النبي عليه السلام لحارثة : [ما حقيقة إيمانك ؟ قال : كأني انظر إلى عرش ربي بارزا] – الحديث

- فأثبت الرؤية في عالم ما ، وبها صحت له حقيقة الإيمان وأقر له النبي صلّى الله عليه وسلّم فيها بالمعرفة .

وما عدا هذا فهو الإيمان المجازي ، فلا فائدة للإيمان بالغيب إلا لحوقه بالمشاهدة ، ولهذا لا يدخله الريب . فموسى عليه السلام أول من أدرك بالبصر على وجه ما . واعلم أن الكثيب هو مسك أبيض في جنة عدن ، وجعل في هذا الكثيب منابر وأسرة وكراسي ومراتب ،

لأن أهل الكثيب أربع طوائف : **مؤمنون ، وأولياء ، وأنبياء ، ورسل ،**

وكل صنف ممن ذكرنا أشخاصه يفضل بعضهم بعضا ، فإذا أخذ الناس منازلهم في الجنة استدعاهم الحق إلى رؤيته ، فيسارعون على قدر مراكبهم ومشيهم هنا في طاعة ربهم ، فمنهم البطيء ، ومنهم السريع ، ومنهم المتوسط ، ويجتمعون في الكثيب ، وكل شخص يعرف مرتبته علما ضروريا ، يجري إليها ولا ينزل إلا فيها ،

كما يجري الطفل إلى الثدي ، والحديد إلى المغناطيس ، لو رام أن ينزل في غير مرتبته لما قدر ، ولو رام أن يتعشق بغير منزلته ما استطاع ، بل يرى في منزلته أنه قد بلغ منتهى أمله وقصده ، فهو يتعشق بما هو فيه من النعيم تعشقا طبيعيا ذاتيا ، لا يقوم بنفسه ما هو عنده أحسن من حاله ، ولولا ذلك لكانت دار ألم وتنغيص ،

ولم تكن جنة ولا دار نعيم ، غير أن الأعلى له نعيم بما هو فيه في منزلته ، وعنده نعيم الأدنى . وأدنى الناس منزلة - على أنه ليس ثمّ من دني - من لا نعيم له إلا بمنزله خاصة ، وأعلاهم من لا أعلى منه له نعيم بالكل . فكل شخص مقصور عليه نعيمه ، فما أعجب هذا الحكم ! !

فإذا نزل الناس في الكثيب للرؤية ، وتجلى الحق تعالى تجليا عاما على صور الاعتقادات في ذلك التجلي الواحد ، فهو واحد من حيث هو تجل ، وهو كثير من حيث اختلاف الصور ، فإذا رأوه انصبغوا عن آخرهم بنور ذلك التجلي ،

ص 422

وظهر كل واحد منهم بنور صورة ما شاهده ، فمن علمه في كل معتقد فله نور كل معتقد ، ومن علمه في اعتقاد خاص معيّن لم يكن له سوى نور ذلك المعتقد المعيّن ، ومن اعتقد وجودا لا حكم له فيه بتنزيه ولا تشبيه بل كان اعتقاده أنه على ما هو عليه ،
فلم ينزه ولم يشبه ، وآمن بما جاء من عنده تعالى على علمه فيه سبحانه ،
فله نور الاختصاص لا يعلم إلا في ذلك الوقت ، فإنه في علم الله فلا يدرى ، هل هو أعلى ممن عمم الاعتقادات كلها علمه ، أو مساو له ؟ وأما دونه فلا ،
فإذا أراد الله رجوعهم إلى مشاهدة نعيمهم بتلك الرؤية في جناتهم ، قال لملائكته وزعة الكثيب : ردوهم إلى قصورهم ؛ فيرجعون بصورة ما رأوا ، ويجدون منازلهم وأهليهم منصبغين بتلك الصورة فيتلذذون بها ،
فإنهم في وقت المشاهدة كانوا في حال فناء عنهم ، فلم تقع لهم لذة في زمان رؤيتهم ، بل اللذة عند أول التجلي ، حكم سلطانها عليهم فأفنتهم عنها وعن أنفسهم ، فهم في اللذة في حال فناء لعظيم سلطانها ؛ وإذا أبصروا تلك الصورة في منازلهم وأهليهم استمرت لهم اللذة ،
وتنعموا بتلك المشاهدة ، فتنعموا في هذا الموطن بعين ما أفناهم في الكثيب ،
ويزيدون في ذلك التجلي وفي تلك الرؤية علما بالله - أعطاهم إياه العيان - لم يكن عندهم ، فإن المعلوم إذا شوهد تعطي مشاهدته أمرا لا يمكن أن يحصل من غير مشاهدة ، ثم إنه إذا أراد الله أن يتجلى لعباده في الزور العام نادى منادي الحق في الجنات كلها : يا أهل الجنان حي على المنة العظمى ،
والمكانة الزلفى ، والمنظر الأعلى ، هلموا إلى زيادة ربكم في جنة عدن ؛ فيبادرون إلى جنة عدن ، فيدخلونها وكل طائفة قد عرفت مرتبتها ومنزلتها فيجلسون ، ثم يؤمر بالموائد فتنصب بين أيديهم ، موائد الاختصاص ما رأوا مثلها ، ولا تخيلوه في حياتهم ولا في جناتهم جنات الأعمال ، وكذلك الطعام ما ذاقوا مثله في منازلهم ،
وكذلك ما تناولوه من الشراب ، فإذا فرغوا من ذلك خلعت عليهم من الخلع ما لم يلبسوا مثلها فيما تقدم ، ومصداق ذلك قوله صلّى الله عليه وسلّم في الجنة [فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر]
فإذا فرغوا من ذلك قاموا إلى كثيب من المسك الأبيض ، فأخذوا منازلهم فيه على قدر علمهم بالله لا على قدر عملهم ، فإن العمل مخصوص بنعيم الجنان لا بمشاهدة الرحمن ، فبيناهم على ذلك إذا بنور قد بهرهم فيخرون سجدا ،
فيسري ذلك النور في أبصارهم ظاهرا ، وفي بصائرهم باطنا ، وفي أجزاء أبدانهم كلها ، فهذا يعطيهم ذلك النور ، فبه يطيقون المشاهدة والرؤية ، وهي أتم من
ص 423

المشاهدة ، فيأتيهم رسول من الله يقول لهم : تأهبوا لرؤية ربكم جل جلاله ، فها هو يتجلى لكم ؛ فيتأهبون ، فيتجلى الحق جل جلاله وبينه

وبين خلقه ثلاثة حجب : حجاب العزة ، وحجاب الكبرياء ، وحجاب العظمة ،
فلا يستطيعون نظرا إلى تلك الحجب ، فيقول الله ، جل جلاله لأعظم الحجبة عنده . ارفعوا الحجب بيني وبين عبادي حتى يروني ، فترفع الحجب ، فيتجلى لهم الحق جل جلاله خلف حجاب واحد في اسمه الجميل اللطيف إلى أبصارهم ، وكلهم بصر واحد ، فينفهق عليهم نور يسري في ذواتهم فيكونون به سمعا كلهم ،
وقد أبهرهم جمال الرب ، وأشرقت ذواتهم بنور ذلك الجمال الأقدس ؛
فيقول الله جل جلاله : سلام عليكم عبادي ومرحبا بكم ، حياكم الله ، سلام عليكم من الرحمن الرحيم الحي القيوم ، طبتم فادخلوها خالدين ، طابت لكم الجنة فطيبوا أنفسكم بالنعيم المقيم ، والثواب الكريم ، والخلود الدائم ، أنتم المؤمنون الآمنون ،
وأنا الله المؤمن المهيمن ، شققت لكم اسما من أسمائي ، لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ، أنتم أوليائي وجيراني وأصفيائي وخاصتي وأهل محبتي وفي داري ،
سلام عليكم يا معشر عبادي المسلمين ، أنتم المسلمون وأنا السلام وداري السلام ، سأريكم وجهي كما سمعتم كلامي ، فإذا تجليت لكم وكشفت عن وجهي الحجب فاحمدوني وادخلوا إلى داري غير محجوبين عني بسلام آمنين ، فردوا علي ،
واجلسوا حولي ، حتى تنظروا إليّ ، وتروني من قريب فاتحفكم بتحفي ، وأجيزكم بجوائزي ، وأخصكم بنوري ، وأغشيكم بجمالي ، وأهب لكم من ملكي وأفاكهكم بضحكي ، وأعلفكم بيدي وأشمكم روحي ، أنا ربكم الذي كنتم تعبدوني ولم تروني ، وتحبوني وتخافوني ،
وعزتي وجلالي وعلوي وكبريائي وبهائي وسنائي إني عنكم راض ، وأحبكم وأحب ما تحبون ، ولكم عندي ما تشتهي أنفسكم ، وتلذ أعينكم ،
ولكم عندي ما تدعون وما شئتم وكل ما شئتم فاسألوني ولا تحتشموا ، ولا تستحيوا ولا تستوحشوا ، وإني أنا الله الجواد الغني الملي الوفي الصادق ، وهذه داري قد أسكنتكموها ، وجنتي قد أبحتكموها ، ونفسي قد أريتكموها ،
وهذه يدي ذات الندى والطل مبسوطة ممتدة عليكم لا أقبضها عنكم ، وأنا انظر إليكم لا أصرف بصري عنكم ، فاسألوني ما شئتم واشتهيتم ، فقد آنستكم بنفسي ، وأنا لكم جليس وأنيس ، فلا حاجة ولا فاقة بعد هذا ، ولا بؤس ولا مسكنة ، ولا ضعف ولا هرم ، ولا سخط ولا حرج ، ولا تحويل أبدا سرمدا ، نعيمكم

ص 424

نعيم الأبد ، وأنتم الآمنون المقيمون الماكثون المكرمون المنعمون ، وأنتم السادة الأشراف الذين أطعتموني واجتنبتم محارمي ، فارفعوا إليّ حوائجكم أقضها لكم وكرامة ونعمة ، فيقولون :
ربنا ما كان هذا أملنا ، ولا أمنيتنا ، ولكن حاجتنا إليك النظر إلى وجهك الكريم أبدا أبدا ، ورضى نفسك عنا ، فيقول لهم العلي الأعلى ، مالك الملك ، السخي الكريم ، تبارك وتعالى : فهذا وجهي بارز لكم أبدا سرمدا ، فانظروا إليه وأبشروا ، فإن نفسي عنكم راضية فتمتعوا ، وقوموا إلى أزواجكم فعانقوا وانكحوا ، وإلى ولائدكم ففاكهوا ، وإلى غرفكم فأدخلوا ، وإلى بساتينكم فتنزهوا ، وإلى دوابكم فاركبوا ، وإلى فرشكم فاتكئوا ، وإلى جواريكم وسراريكم في الجنان فاستأنسوا ، وإلى هداياكم من ربكم فاقبلوا ، وإلى كسوتكم فالبسوا ، وإلى مجالسكم فتحدثوا ، ثم قيلوا قائلة ، لا نوم فيها ولا غائلة ، في ظل ظليل ، وأمن مقيل ، ومجاورة الجليل ، ثم روحوا إلى نهر الكوثر والكافور ،
والماء المطهر والتسنيم ، والسلسبيل والزنجبيل فاغتسلوا ، وتنعموا ، طوبى لكم وحسن مآب ؛ ثم روحوا فاتكئوا على الرفارف الخضر والعبقري الحسان ، والفرش المرفوعة في الظل الممدود ، والماء المسكوب ، والفاكهة الكثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، ثم تلا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :(إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ ، لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)
ثم تلا هذه الآية(أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا)- انتهى حديث أبو بكر النقاش –
ثم إن الحق تعالى بعد هذا الخطاب يرفع الحجاب ، ويتجلى لعباده ، فيخرون سجدا فيقول لهم : ارفعوا رءوسكم فليس هذا موطن سجود ، يا عبادي ما دعوتكم إلا لتنعموا بمشاهدتي ، فيمسكهم في ذلك ما شاء الله ،
فيقول لهم :هل بقي لكم شيء بعد هذا ؟ فيقولون : يا ربنا وأي شيء بقي وقد نجيتنا من النار ، وأدخلتنا دار رضوانك ، وأنزلتنا بجوارك ، وخلعت علينا ملابس كرمك ، وأريتنا وجهك ، فيقول الحق جل جلاله : بقي لكم ،
فيقولون : يا ربنا وما ذاك الذي بقي ؟ فيقول : دوام رضاي عنكم فلا أسخط عليكم أبدا ، فما أحلاها من كلمة وما ألذها من بشرى ؛ وتتفاضل الناس في رؤيته سبحانه ويتفاوتون تفاوتا عظيما على قدر علمهم ، فمنهم ومنهم ،
ثم يقول سبحانه لملائكته : ردوهم إلى قصورهم فلا يهتدون لأمرين : لما طرأ عليهم من سكر الرؤية ، ولما زادهم من الخير في طريقهم فلم يعرفوها ، فلو لا أن الملائكة تدل بهم ما عرفوا منازلهم ،

ص 425

فإذا وصلوا منازلهم تلقاهم أهلهم من الحور والولدان ، فيرون جميع ملكهم قد كسي بهاء وجمالا ونورا ، من وجوههم أفاضوه إفاضة ذاتية على ملكهم ، فيقولون لهم : لقد زدتم نورا وبهاء وجمالا ما تركناكم عليه ، فيقول لهم أهلهم : وكذاكم أنتم قد زدتم من البهاء والجمال ما لم يكن فيكم عند مفارقتكم إيانا ، فينعم بعضهم ببعض ، قال تعالى« وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ ».

فإن قلت : قال تعالى(لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ)وجاء في الحديث [لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره] فكان إرسال الحجب بين السبحات وبين الخلق رحمة بهم ، وإشفاقا على وجودهم ، وقد وعد بالرؤية في الدار الآخرة ،

فكيف يكون البقاء هناك ، ولا فرق بين الدارين من كونهما مخلوقتين وممكنتين ؟ قلنا : إذا فهمت معنى إضافة السبحات إلى وجهه ، وفرقت بين هذا القول وقوله [ترون ربكم] وقوله« وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ » فعلق الرؤية بالرب ، والإحراق بالوجه ، عرفت حينئذ الفرق بين الخبرين ، ثم عطف فقال في أهل الشقاء.

[سورة القيامة (75) : آية 24]

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ (24)

الوجه هنا هو حقيقة المسمى وعينه وذاته ، لأن الوجوه التي هي في مقدم الإنسان ليست توصف بالظنون ، وإنما الظن لحقيقة الإنسان ، فإنه تعالى قال :

[سورة القيامة (75) : آية 25]

تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ (25)

فالوجوه في هذه الآيات عبارة عن النفوس الإنسانية ، لأن وجه الشيء حقيقته وذاته وعينه ، لا الوجوه المقيدة بالأبصار ، فإنها لا تتصف بالظنون ، ومساق الآية يعطي أن الوجوه هنا هي ذوات المذكورين .

[سورة القيامة (75) : الآيات 26 إلى 29]

كَلاَّ إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ راقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ(29)

ص 426

[" وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ " الآية:]

الوجه الأول - هو اجتماع أمر الدنيا والآخرة ، أي دخلت الأهوال والأمور العظام بعضها في بعض يوم القيامة فالتف أمر الدنيا بأمر الآخرة

- الوجه الثاني : الخلق كله مرتبط بالله ارتباط ممكن بواجب ، سواء عدم أو وجد ، وسعد أو شقي ، والحق من حيث أسماؤه مرتبط بالخلق ، فإن الأسماء الإلهية تطلب العالم طلبا ذاتيا ،

فالتفت الساق بالساق ، أي التف أمرنا بأمره وانعقد ، فهو التفاف فلا ننحل عن عقده أبدا ، ويوضح المعنى أنه تمم وهو الصادق .

[سورة القيامة (75) : آية 30]

إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (30)

« إِلى رَبِّكَ »

[« إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ » الآية :]

أثبت وجود رتبته بك« يَوْمَئِذٍ »يعني يوم يكشف عن الساق ، وأتى بالاسم الرب ومعناه الثابت والمصلح والمربي والسيد والمالك ، ولكل من ذلك معنى في هذه الآية« الْمَساقُ »رجوع الكل إليه من سعد أو من شقي ، أو من تعب أو من استراح ، فمن حيث أنه الثابت يعطي الثبات ، والأمر ملتف بالأمر ، وإلى الرب المساق ، فلا بد من ثبات هذا الالتفاف في الدار الآخرة ، فعين أمر الدنيا عين أمر الآخرة ، غير أن موطن الآخرة لا يشبه موطن الدنيا لما في الآخرة من التخليص القائم بوجود الدارين ، فوقع التمييز بالدار ، والكل آخرة ، فلا تزال الناس في الآخرة ينتقلون بالأحوال كما كانوا في الدنيا ينتقلون بالأحوال ، والأعيان ثابتة ، فإن الرب يحفظها

- **الوجه الثاني -** لما كان إلى ربك يومئذ المساق ، والرب المصلح ، فإن الله يصلح بين عباده يوم القيامة ، هكذا جاء في الخبر النبوي ، والكريم إذا كان من شأنه أن يصلح بين عباده بمثل هذا الصلح الوارد في الخبر حتى يسقط المظلوم حقه ، ويعفو عن أخيه ، فالله أولى بهذه الصفة من العبد في ترك المؤاخذة بحقوقه من عباده ، فيعاقب من شاء بظلم الغير لا بحقه المختص به

- **الوجه الثالث -** الرب أيضا المغذي والمربي فهو يربي عباده ، والمربي من شأنه إصلاح حال من يربيه ، فمن التربية ما يقع بها الألم كمن يضرب ولده ليؤدبه ، وذلك من جملة تربيته وطلب المصلحة في حقه لينفعه ذلك في موطنه ، كذلك حدود الله تربية لعباده حيث أقامها الله عليهم ، فهو يربيهم بها لسعادة لهم في ذلك من حيث لا يشعرون ، كما لا يشعر الصغير بضرب من يربيه إياه

- **الوجه الرابع -** والرب أيضا : السيد ، والسيد أشفق على عبده من العبد على نفسه ،

ص 427

فإنه أعلم بمصالحه ، ولن يسعى السيد في إتلاف عبده ، لأنه لا تصح له السيادة إلا بوجود العبد ، فعلى قدر ما يزول من المضاف يزول من حكم المضاف إليه

- **الوجه الخامس** - وأما الرب الذي هو المالك فلشدة ما يعطيه هذا الاسم من النظر فيما تستحقه المرتبة فيوفيها حقها ، فقد بان لك في هذا المساق معنى اختصاص الاسم الرب الذي إليه المساق عند التفاف الساق بالساق ، فبه انتظم الأمران ، وثبت الانتقالان .

[سورة القيامة (75) : آية 31]

فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى (31)

وهو نقيض الذاكر ربه ، لما جاءه ذكر ربه وهو القرآن يذكره بنفسه وبربه »فَلا صَدَّقَ «من أتى به أنه من عند ربه« وَلا صَلَّى »يقول : ولا تأخر عن دعواه وتكبره ، وقد سمع قول الله الحق ، ومن ردّ الحق فما صدق ذلك القول فيما دل عليه ، قاله من قاله ، فذمه الله وقال :

[سورة القيامة (75 : (آية 32]

وَلكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32)

« وَلكِنْ »استدراك لتمام القصة« كَذَّبَ «من أتى به إليه وهو الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، وكذب الحق إما بجهله فلم يعلم أنه الحق ، وإما بعناد وهو على يقين أنه حق في نفس الأمر فغالط نفسه ، ثم قال :« وَتَوَلَّى »بعد تكذيبه بالحق وبمن جاء به ، فتولى عن الحق .

[سورة القيامة (75) : آية 33]

ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33)

وهذا شغل المتكبر المشغول الخاطر المفكر الحائر الذي كسّله ما سمعه ، فإنه بالوجه الظاهر يعلم أنه الحق لأن المعجزة لم يأت بها الله إلا لمن يعلم أن في قوته قبولها بما ركب الله فيه من ذلك .

[سورة القيامة (75) : آية 34]

أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (34)

لولا لولا ، ما ظهر الأولى ، ولا تزال أولى لك فأولى.

ص 428

[سورة القيامة (75) : الآيات 35 إلى 36]
ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (35) أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (36)
فلينظر الإنسان ويتفكر ويعتبر أن الله ما خلقه سدى ، وإن طال المدى ، ومن نظر واهتدى ، وباع الضلالة بالهدى ، عجّل بالفدا ، من أجل تحكم الأعدا ، ومن عرف الضلالة والهدى لم يطل عليه المدى ، وعلم أن الله لا يترك خلقه سدى ، كما لم يتركه ابتدأ ،
وإن لم ينزل منازل السعداء ، فإن الله برحمته التي وسعت كل شيء لا يسرمد عليه الردا ، وكيف يسرمده وهو عين الردا ، فهو في مقام الفدا ، وإشارة سهام العدا ، فله الرحمة آخرا خالدا مخلدا فيها أبدا .

[سورة القيامة (75) : الآيات 37 إلى 40]
أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى (37) ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (39) أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى (40)

(76) سورة الإنسان مدنيّة

[سورة الإنسان (76) : آية 1]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1)
« هَلْ أَتى »أي قد أتى« عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ »الدهر هنا الزمان ، والحين جزء منه« لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً » مذكورا هنا بمعنى موجودا ، يريد عدمه في عينه ، لأنه كان مذكورا للّه تعالى ، أي قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا موجودا في عينه ، لأنه أتى على الإنسان أزمنة ودهور قبل أن يظهر في هذه الصورة الآدمية ،
وهو في الصورة التي له في كل مقام وحضرة ، من فلك وسماء وغير ذلك ، مما تمر عليه الأزمان والدهور ،

ص 429

ولم يكن قط في صورة من تلك الصور مذكورا بهذه الصورة الآدمية العنصرية ، وهذه الآية من أصعب ما نزل في القرآن في حق نقصان الإنسان ، ومساق الآية يؤذن بتقرير النعم عليه ، وقوله تعالى« مَذْكُوراً »وإنما وقعت الصعوبة في هذا الذكر كونه نكرة ، والنكرة تعم في مساق النفي ، فالتنكير يؤذن بتعميم نفي الذكر عنه من كل ذاكر ، وهو دليل على أن اللّه ما ذكره لما أوجده قبله من الأعيان ، وإن كان مذكورا له في نفسه ، ويعني ذلك أن الإنسان في ذلك الحين موجود في عينه مع وجود الأعيان ، ولكن ما تعرفه حتى تذكره ، ولا هي ذات فكر حتى تجمعه في ذهنها تقديرا فتذكره ، فإن الفكر من القوى التي اختص بها الإنسان لا توجد في غيره ، ثم ذكره تعالى لملائكته برتبته التي خلق لها ، لا باسمه العلم الذي هو آدم ، فقوله تعالى في الإنسان« لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً »لأن الذكر له تعالى ، فحدث الإنسان لما حدث ذكره

[إشارة : لولا ما نحن ثابتون في العدم ، ما صح أن تحوي علينا خزائن الكرم :]

-**إشارة - لولا ما نحن ثابتون في العدم** ، ما صح أن تحوى علينا خزائن الكرم ، فلنا في العدم شيئية ، غير مرئية ، فقوله« لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً »، فذلك إذ لم يكن مأمورا ، فقيده بالذكر ، في محكم الذكر .

[سورة الإنسان : (76)الآيات 2 إلى 3]

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2) إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3)

-**الوجه الأول -**« إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ »إلى النعم امتنانا إلهيا »إِمَّا شاكِراً »فنزيده منها« وَإِمَّا كَفُوراً »بنعمه فيسلبها عنه ويعذبه على ذلك

- **الوجه الثاني -** لما تبينت طرق السعادة بالرسل قال تعالى« إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ »أي بينا له طريق السعادة والشقاء ، وخلقنا له الإرادة في محله ، فإذا وقع بالاختيار دون الاضطرار والكره نسب إلى من وقع منه نسبة صحيحة ، والتعلق نسبة لا تتصف بالوجود فتكون مخلوقة لأحد ، فتعلقت بأمر ما متعين ، مما يسمى به شاكرا أو كفورا ،

فقال تعالى" إِمَّا شاكِراً " فيعمل في السبيل بمقتضاه ، إن كان نهيا انتهى وإن كان أمرا فعل ،" وَإِمَّا كَفُوراً " يقول يستر على نفسه فيخادعون أنفسهم ، فإنه ما ضل أحد إلا على علم ، فإن بيان الحق ليس بعده بيان ، ولا فائدة للبيان إلا حصول العلم ، ثم يستره العالم به عن نفسه لغرض يقوم له ، فتقوم الحجة للّه عليه ، فقوله تعالى« إِمَّا شاكِراً

ص 430

وَإِمَّا كَفُوراً » راجع للمخاطب المكلف ، فإن نوى الخير أثمر خيرا ، وإن نوى الشر أثمر شرا ، فإن الله لما بين السبيل للعبد إلى سعادته جعله ذا اختيار في أفعاله ، ولهذا يصح منه القبول والرد ، ويعاقب ويثاب ، وعلى هذا قام أصل الجزاء من الله تعالى لعباده ، واعلم أن الله تعالى خلق جميع من خلق في مقام الذلة والافتقار ، وفي مقامه المعين له ، فلم يكن لأحد من خلق الله من هؤلاء ترقّ عن مقامه الذي خلق فيه إلا الثقلين ،

فإن الله خلقهم في مقام العزة ، وفي غير مقامهم الذي ينتهون إليه عند انقطاع أنفاسهم التي لهم في الحياة الدنيا ، فلهم الترقي إلى مقاماتهم التي تورثهم الشهود ، والنزول إلى مقاماتهم التي تورثهم الوقوف خلف الحجاب ،

فهم في برزخ النجدين « إِمَّا شاكِراً » فيعلو فله منزل السرور« وَإِمَّا كَفُوراً »فيسفل فله سوء المصير والثبور .

قال تعالى (وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) فمن أراد طريق العلم والسعادة فلا يضع ميزان الشرع من يده نفسا واحدا ، فإن الله بيده الميزان لا يضعه ، وكذلك ينبغي للمكلف بل للإنسان أن لا يضع الميزان المشروع من يده ما دام مكلفا ،

فإن كل حركة في المكلف ومن المكلف وسكون ، لميزان الشرع فيه حكم ، فلا يصح وضعه مع بقاء الشرع.

[سورة الإنسان (76) : الآيات 4 إلى 5]

إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً (4) إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً (5)

أهل الجنة لا يظمئون فيها ، وهم فيها يشربون شرب شهوة والتذاذ ، لا شرب ظمأ ، ولا دفع ألمه .

[سورة الإنسان (76) : آية 6]

عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً (6)

وتفجيرهم إياها عين المزاج ، فلو جرت من غير تفجير ، من كونه على كل شيء قديرا ، لكان شراب المقربين ، الآتي من تسنيم ، على البار المنعم بالتنعيم ، فبين المقرب والبار ، ما بين الأعين والآثار.

ص 431

[سورة الإنسان (76) : آية 7]
يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7)

- نصيحة - لا تزد في العهود ويكفيك ما جبرت عليه
، ولهذا كره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم النذر وأوجب الوفاء به ، لأنه من فضول الإنسان ، فهو واجب في جميع المذاهب ، فما قرر الله وأوجبه على العبد مما أوجبه العبد على نفسه ، وهو النذر ، إلا لتحقق عبده أنه خلقه على صورته ، وقد أوجبه على نفسه ، وذكر - وهو الصادق - أنه يوفي به لمن أوجبه له ، فأوجب عليك الوفاء بما أوجبته على نفسك .

[سورة الإنسان (76) : الآيات 8 إلى 17]
وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (8)إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً (9) إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10)فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (11) وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (12)
مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً (13) وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً (14) وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (15) قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً (16) وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً (17)
اعلم أن أهل الجنة بعد شربهم من الحوض عن ظمأ لا يظمئون بعد ذلك أبدا ، فإن أهل الجنة لا يظمئون فيها .

[سورة الإنسان (76) : الآيات 18 إلى 24]
عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً (18) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (19) وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20) عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً (21) إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (22)
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (24)

ص 432

الشريعة حكم الله في خلقه لا حكم المخلوق ، فالشرع حكم الله لا حكم العقل .

[سورة الإنسان (76) : الآيات 25 إلى 27]
وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (26) إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27)
ثقيلا ، من أجل المطالبة بما كلف الإنسان مما أتت به شرائعه .

[سورة الإنسان (76) : الآيات 28 إلى 30]
نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً (28) إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (29) وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (30)
« وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ »
[« وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ « . . .الآية - **الفرق بين الأثر والحكم** :]
أن تشاءوا ، فتلك على الحقيقة مشيئة الله لا مشيئتك ، وأنت تشاء بها ، ونحن نقول في النسبة الاختيارية : إن الله خلق للعبد مشيئة شاء بها ،
حكم هذه النسبة وتلك المشيئة الحادثة عن مشيئة الله ، فأثبت سبحانه المشيئة له ولنا ، وجعل مشيئتنا موقوفة على مشيئته ، هذا في الحركة الاختيارية ،
وأما في الاضطرارية ، كحركة المرتعش فالأمر عندنا واحد فالسبب الأول مشيئة الحق ، والسبب الثاني المشيئة التي وجدت عن مشيئة الحق ،
فالله هو المشيء ، وإن وجد العبد في نفسه إرادة لذلك فالحق عين إرادته ، فحكم المشيئة التي يجدها في نفسه ليست سوى الحق ، فإذا شاء كان ما شاءه ، فهو عين

ص 433

مشيئة كل مشيء ، فإن مشيئة العبد إذا وقعت وتعلقت بالمشاء قد يكون المشاء وقد لا يكون ، ولهذا شرع الله لنا إذا قلنا نفعل كذا أن نقول : إن شاء الله ، حتى إذا وقع ذلك الفعل الذي علقناه على مشيئة الله كان عن مشيئة الله بحكم الأصل ، ولم يكن لمشيئتنا فيه أثر في كونه ، لكن لها فيه حكم ، وهو أنه ما شاء سبحانه تكوين ذلك الشيء إلا بوجود مشيئتنا ، إذ كان وجودها عن مشيئة الله ، فلا بد من وجود عين مشيئتنا وتعلقها بذلك الفعل ، ومن عرف الأمور عرف حكم مقت الله بمن يقول ما لا يعمل من غير أن يقرن به المشيئة الإلهية ، فإذا علق المشيئة الإلهية بقوله أن يعمل فلا يكون ذلك العمل ، لم يمقته الله ، فإنه غاب عن انفراد الحق في الأعمال كلها التي تظهر على أيدي المخلوقين بالتكوين ، وأنه لا أثر للمخلوق فيها من حيث تكوينها ، وإن كان للمخلوق فيها حكم لا أثر ، فالناس لا يفرقون بين الأثر والحكم ، فإن الله إذا أراد إيجاد حركة أو معنى من الأمور التي لا يصح وجودها إلا في مواد ، لأنها لا تقوم بأنفسها ، فلا بد من وجود محل يظهر فيه تكوين هذا الذي لا يقوم بنفسه ، فللمحل حكم في الإيجاد لهذا الممكن ، وما له أثر فيه ، فهذا الفرق بين الأثر والحكم ، ولذلك شرع الحق الاستثناء الإلهي ليرتفع المقت الإلهي عنهم ، ولهذا لا يحنث من استثنى إذا حلف على فعل مستقبل ، فإنه أضافه إلى الله لا إلى نفسه ، وهذا لا ينافي إضافة الأفعال إلى المخلوقين ، فإنهم محل ظهور الأفعال الإلهية ، فقوله تعالى »وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ »عزاء أفاد علما ، ليثبت به العبد في القيامة حكما ، فهو تلقين حجة ، ورحمة من الله وفضل ، أي أن العبد مجبور في اختياره .

[سورة الإنسان (76) : آية 31]
يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (31)

لو كان الأمر كما يتوهمه من لا علم له ، من عدم مبالاة الحق بأهل الشقاء ما وقع الأخذ بالجرائم ، ولا وصف الله نفسه بالغضب ، ولا كان البطش الشديد ، فهذا كله من المبالاة والتهمم بالمأخوذ ، إذ لو لم يكن له قدر ما عذب ولا استعد له ،
وقد قيل في أهل الشقاء (أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً) فلو لا المبالاة ما ظهر هذا الحكم.

ص 434

(77) سورة المرسلات مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

جاء في نزول سورة المرسلات وغيرها أنها نزلت مرتين .

[سورة المرسلات (77) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (1)

هذه أصناف من الملائكة المسخرات ، والوكلاء على ما يخلقه الله من التكوينات ،« وَالْمُرْسَلاتِ »بالأنباء« عُرْفاً »، تنبيه على التتابع والكثرة .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 2 إلى 3]

فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً (2) وَالنَّاشِراتِ نَشْراً (3)

بالترغيب والترحيب ، وهم الملائكة عمار الأرض ، وقد نبه الشارع عليها أن الملائكة تنشر أجنحتها لطالب العلم ، وهم هؤلاء ، فإن الأرض إنما هي لعباده الصالحين ، وهم العلماء بالله.

[سورة المرسلات (77) : آية 4]

فَالْفارِقاتِ فَرْقاً (4)

وهم الملائكة عمار السماء الخامسة .

[سورة المرسلات (77) : آية 5]

فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً (5)

بالإلهام واللمات ، وهم الملائكة عمار السماء السادسة ، وكل هؤلاء أنبياء ملكيون ، عبدوا الله بما وصفهم به ، فهم في مقامهم لا يبرحون ، إلا من أمر منهم بأمر يبلغه .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 6 إلى 8]

عُذْراً أَوْ نُذْراً (6) إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ (7) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8)

[« فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ » الآية]

الوجه الأول : إذا انشقت السماء وهوت طمست النجوم ، فلم يبق لها نور ، إلا أن سباحتها لا تزول في النار ، ووقع التغيير في الصور لا في الذوات ، فيبقى آثارها على أهل

ص 435

النار الذين هم أهلها ، بما أودع الله عليهم في الأفلاك وحركات الكواكب من الأمر الإلهي ، والنجوم هنا هي السبعة الدراري تكون مطموسة الأنوار ، فهي كواكب لكنها ليست بثواقب-
الوجه الثاني - « فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ » أي نزع الله نورها في أعينهم
، طالعة على أهل النار وغاربة ، كما تطلع على أهل الدنيا في حال كسوفها ، فهي مطموسة في أعينهم ، فعلى ما هو الأمر في نفسه هم الذين طمس الله أعينهم إذا شاء عن إدراك الأنوار التي في المنيرات ، فالحجاب على أعينهم ، فيشهد أهل النار أجرام السيارة طالعة عليهم وغاربة ، ولا يشهدون لها نورا ، لما في الدخان من التطفيف ، فكما كانوا في الدنيا عميا عن إدراك أنوار ما جاءت به الشرائع من الحق ، كذلك هم في النار عمي عن إدراك أنوار هذه السيارة وغيرها من الكواكب ، فإذا طمست النجوم ، علم عند ذلك ما فات الناس من العلوم .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 9 إلى 20]
وَإِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13) وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ (14) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15) أَ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17) كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19) أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (20)
وإهانته ذلته .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 21 إلى 25]
فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ (21) إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ (23) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24) أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً (25)
الكفت الضم .

[سورة المرسلات (77) : آية 26]
أَحْياءً وَأَمْواتاً (26)
أي تضم الأحياء على ظهرها والأموات في بطنها .

ص 436

[سورة المرسلات (77) : الآيات 27 إلى 50]
وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً (27) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (28)
انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (30) لا ظَلِيلٍ وَلا
يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (33) وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (34) هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (35)وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36)
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38) فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ
فَكِيدُونِ (39)وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (40) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ (41)
وَفَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ (44) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (45) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46)
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)
(49فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ(50)
436

(78) سورة النّبإ مكيّة
[سورة النبأ (78) : الآيات 1 إلى 6]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
عَمَّ يَتَساءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (4)
ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (5) أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (6)
فهي مهاد موضوع ، والسماء سقف مرفوع.

ص 437

[سورة النبأ (78) : آية 7]
وَالْجِبالَ أَوْتاداً (7)
فإنه بالجبال سكن ميد الأرض ، لما تحركت من خشية الله ، آمنها الله بالجبال التي جعلها الله أوتادها ، فهي مسكنة لكونها متمكنة ، فلها الرسوخ والشموخ ، ومع هذه العزة والمنع ، وقوة الردع والدفع ، فلا بد من صيرورتها عهنا منفوشا ، وهباء منبثا مفروشا ، فتلحق بالأرض لاندكاكها
[تفسير من باب الإشارة : « وَالْجِبالَ أَوْتاداً » الآية]
-تفسير من باب الإشارة - صليت مع شيخي أبي جعفر أحمد العريبي في دار وليي وصفيي أبي عبد الله محمد الخياط المعروف بالعصاد وأخيه أبي العباس أحمد الحريري ، فقرأ الإمام(عَمَّ يَتَساءَلُونَ)فلما وصل إلى قوله تعالى« أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً وَالْجِبالَ أَوْتاداً »غبت عن قراءة الإمام ، وما سمعت شيئا ، ورأيت شيخنا أبا جعفر وهو يقول : المهاد العالم والأوتاد المؤمنون والمهاد المؤمنون والأوتاد العارفون ، والمهاد العارفون والأوتاد النبيون ، والمهاد النبيون والأوتاد المرسلون ، وذكر من الحقائق ما شاء الله أن يذكر ، فرددت إليّ والإمام يقرأ(وَقالَ صَواباً ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ)فلما فرغنا من الصلاة سألته فوجدته قد خطر له في تلك الآية ما شهدته .

[سورة النبأ (78) : الآيات 8 إلى 9]
وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (8) وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (9)
[أقسام النوم :]
النوم برزخ ، والبرازخ موطن الراحات ، ولذلك جعل الله النوم سباتا أي راحة ، لأنه بين الضدين الموت والحياة ، فالنائم لا حي ولا ميت ، ولذلك قال تعالى« وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً »يقول : وجعل النوم لكم راحة تستريح به النفوس لأجل التعب الذي كانت عليه هذه النشأة في حال اليقظة من الحركة ، وإن كان في هواها ، والنوم على قسمين : قسم انتقال وفيه بعض راحة ، أو نيل غرض ، أو زيادة تعب ، والقسم الآخر قسم راحة خاصة ، وهو النوم الخالص الصحيح ، الذي ذكر الله أنه جعله راحة لما تعبت فيه هذه الآلات والجوارح والأعضاء البدنية حال اليقظة ، وجعل زمانه الليل وإن وقع بالنهار ، كما جعل النهار للمعاش وإن وقع بالليل ، ولكن الحكم للغالب ، فالنوم راحة بلا شك ، وهو بالليل أقوى ، فإنه فيه أشد استغراقا من نوم النهار ، وأما قسم الانتقال فهو النوم الذي يكون معه الرؤيا ، فتنتقل هذه الآلات من ظاهر الحس إلى باطنه ، ليرى ما تقرر في خزانة الخيال ، الذي رفعت
ص 438

إليه الحواس ما أخذته من المحسوسات ، وما صورته القوة المصورة ، وقسم الراحة هو النوم الذي لا يرى فيه رؤيا ، فهو لمجرد الراحة البدنية لا غير - إشارة -« وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً »أي راحة لأهل الليل إلهية ، كما هو راحة للناس طبيعية ، فإذا نام الناس استراح هؤلاء مع ربهم وخلوا به حسا ومعنى ، لأنه جعل النوم في أعين الرقباء ، فيسألونه من قبول توبة ، وإجابة دعوة ، ومغفرة حوبة وغير ذلك ، فنوم الناس راحة لهم ، فإن الله ينزل إليهم بالليل إلى السماء الدنيا ، فلا يبقى بينه وبينهم حجاب فلكي ، ونزوله إليهم رحمة بهم ، لذلك قال تعالى .

[سورة النبأ (78) : آية 10]
وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (10)
الليل محل الستر ، ولذلك جعل الليل لباسا ، والنهار محل الظهور والحركة ، ولذلك جعله معاشا ، فقال تعالى :

[سورة النبأ (78) : آية 11]
وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (11)
لابتغاء الفضل ، يعني طلب الرزق هنا من وجهه ، فالفضل المبتغى فيه من الزيادة ومن الشرف هو زيادة الفضائل ، فإن الإنسان يجمع ما ليس له برزق ، فهو فضول لأنه يجمعه لوارثه أو لغيره ، فإن رزق الإنسان ما هو ما يجمعه ، وإنما هو ما يتغذى به ، وكما جعل النهار معاشا ، جعل الأعمال رياشا ، فعليك بالاشتغال ، والتزين بأحسن الأعمال ، واحذر من زينة الدنيا والشيطان ، وعليك بزينة الله المنصوص عليها في القرآن ، واغتنم حياة لست فيها بهالك ، ودارا أنت فيها مالك ، ميزانك فيها موضوع ، وكلامك مسموع ، وأذنك واعية ، ومواعظك داعية ، وأنفاسك باقية ، وأعمالك الخيرات واقية ، فنور بيتك المظلم ، وأوضح سرك المبهم ، ما دامت أركان بيتك غير واهية ، قبل أن تحصل في الهاوية .

[سورة النبأ (78) : الآيات 12 إلى 14]
وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (12) وَجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (13) وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً(14)
ص 439

المطر للأرض ليس سوى بخارها ، صعد منها بخارا ، ثم نزل إليها ماء ، فتغيرت صورته لاختلاف المحل .

[سورة النبأ (78) : الآيات 15 إلى 18]
لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَباتاً (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفافاً (16) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً (17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً (18)
الصور قرن من نور ، اتساعه في علين ، وفيه ما أعطى الله من الدرجات لأصحاب اليمين ، وضيقه في سجين في أسفل سافلين ، وفيه ما أودع الله من الدركات للمحجوبين .

[سورة النبأ (78) : الآيات 19 إلى 22]
وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً (20) إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً (21) لِلطَّاغِينَ مَآباً (22)
الطاغي المرتفع ، فمن ادعى الرفعة والارتفاع جعله الله في نقيض دعواه ، فرده إلى أصله من البعد في جهنم ، وهي من جهنام ، يقال : بئر جهنام إذا كانت بعيدة القعر ، فمرجع الطاغين إلى جهنم ، فينزلون إلى قعرها .

[سورة النبأ (78) : آية 23]
لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً (23)
أحقابا بوزن أفعال ، وهو من أوزان جمع القلة ، والحقبة السنة ، والعشرة آخر نهاية الأحقاب ، فأرجو أن يكون المآل إلى الرحمة في أي دار شاء ، فإن المراد أن تعم الرحمة الجميع حيث كانوا :مراتب النار بالأعمال تمتاز *** وليس فيها اختصاصات وإنجاز
بوزن أفعال قد جاء العذاب له *** بشرى وإن عذبوا فيها بما حازوا

[سورة النبأ (78) : الآيات 24 إلى 26]
لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَراباً (24) إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً (25) جَزاءً وِفاقاً (26)
لا ينقص ولا يزيد.

ص 440

[سورة النبأ (78) : الآيات 27 إلى 33]
إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً (27) وَكَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذاباً (30) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً (31)
حَدائِقَ وَأَعْناباً (32) وَكَواعِبَ أَتْراباً (33)
الكاعب التي صار ثديها كالكعب ، وهو أول شباب الجارية .

[سورة النبأ (78) : الآيات 34 إلى 36]
وَكَأْساً دِهاقاً (34) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذَّاباً (35) جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً (36)
ما ثمّ من الله للعبد إلا جزاء ، والابتداء للعبد ، فإن النفس إذا أكلت من كسبها لها إدلال ، كما أن لها انكسارا في الهبة ، فلهذا كان الجزاء عاما لأنه على الصورة ، ولا انكسار ينبغي للنفس .

[سورة النبأ (78) : الآيات 37إلى 38]
رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً (37) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً (38)
يوم الفصل والقضاء تأتي الملائكة بين يدي عرش الفصل والقضاء ، ملائكة السماوات ، ملائكة كل سماء على حدة متميزة عن غيرها ، فيكونون سبعة صفوف ، أهل كل سماء صف ، والروح قائم مقدم الجماعة ، وهو الملك الذي نزل بالشرائع على الرسل ، فيوم يقوم الروح وهو الإمام ، والملائكة صفا صفا فالإمام صف وحده
- الفرق بين الملك والروح -
كل روح مما هو تحت العقل الأول صاحب الكلمة فهو ملك ، وما فوقه فهو روح لا ملك ، فالملائكة ما بين مسخر ومدبر ، وكلهم رسل الله عن أمر الله حفظة ، وهم على مراتب ، ولهم معارج ونزول وصعود دنيا وآخرة ، فمنهم المسخرون في الدعاء والاستغفار للمؤمنين ، وآخرون في الاستغفار لمن في الأرض ، ومنهم المسخرون في مصالح

ص 341

العالم المتعلقة بالدنيا ، ومنهم المسخرون في مصالح العالم المتعلقة بالآخرة ، وهذا القدر من العمل الذي هم عليه هو عبادتهم وصلاتهم ، وأما تسبيحهم فذكر الله في هذه الصلوات التي لهم ، كالقراءة والذكر لنا في صلاتنا ، ولا يزال الأمر كذلك إلى الوقت الذي يشاء الله أن تعم الرحمة جميع خلقه التي وسعت كل شيء ، فإذا عمتهم الرحمة لم يبق لبعض الملائكة الذي كان لهم الاستغفار من عبادتهم إلا التسبيح خاصة ، وبقيت الملائكة الذين لهم تعلق بأحوالنا في الجنان وحيث كان من كان من الدارين فذلك منهم لا ينقطع ، وزال عن أولئك اسم الملائكة وبقوا أرواحا لا شغل لهم إلا التسبيح والتمجيد لله تعالى كسائر الأرواح المهيمة ، فـ« لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً »اعلم أن خير الشفاعة والكلام ما أذن فيهما الرحمن .

[سورة النبأ (78) : الآيات 39 إلى 40]

ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً (39) إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَيَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً(40)

(79)سورة النّازعات مكيّة

[سورة النازعات (79) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً (1)

وهم ملائكة مسخرة بالتشتيت ، وهم عمار السماء السابعة .

[سورة النازعات (79) : آية 2]

وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً (2)

بالترهيب وهم الملائكة عمار السماء الثانية .

[سورة النازعات (79) : آية 3]

وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً (3)

بالسوق وهم الملائكة عمار السماء الدنيا.

ص 442

[سورة النازعات (79) : آية 4]
فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (4)
بالاعتناء وهم الملائكة عمار كرة الأثير .

[سورة النازعات (79) : آية 5]
فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (5)
بالأحكام ، وهم الملائكة ، عمار الكرسي .

[سورة النازعات (79) : الآيات 6 إلى 12]
يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ (8) أَبْصارُها خاشِعَةٌ (9) يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ (10)
أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً (11) قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ (12)
وليس إلا صورا ظاهرة هنا وفي البرزخ والآخرة ، ومن كانت تجارته بايرة ، فكرته خاسرة إذا رد في الحافرة .

[سورة النازعات (79) : الآيات 13 إلى 14]
فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ (13) فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)
وهي أرض المحشر فإنه لا نوم لأحد بعد الدنيا ، وهي نفس الأرض التي نحن عليها ، غير أن نعوتها تتبدل ، فتكون الخاصية في الحشر الساهرة ، أي لا ينام عليها أحد لهذه الخاصية ، فالساهرة هي هذه الأرض التي نحن عليها بعد أن يبدلها الله تعالى كيف يشاء ، إما بالصورة ، وإما بأرض أخرى ما نيم عليها تسمى بالساهرة .

[سورة النازعات (79) : الآيات 15 إلى 24]
هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (15) إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (16) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى (19)
فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى (20) فَكَذَّبَ وَعَصى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى (22) فَحَشَرَ فَنادى (23) فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى(24)

ص 443

يريد أنه ما في السماء إله غيري ، فانظر إلى من خذله الله كيف اعتز على أمثاله بهذا القول ، هل جعله في ذلك إلا علمه بمرتبته لا علمه بنفسه ؟ فالإنسان عبد عينا ورتبة ، كما هو سيد عينا لا رتبة ، ولهذا إذا ادعى الرتبة قصم ، وحرم ، وإذا ادعى العين عصم ، ورحم .

[سورة النازعات (79) : آية 25]
فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى (25)

[« فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى » الآية - نجاة فرعون] :
النكال في اللسان : هو القيد ،
- **الوجه الأول** - الأولى هي قوله(ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي)والآخرة وهي كلمة(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى)
- **الوجه الثاني** - على اعتبار صحة إيمان فرعون في علم الله »فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى »النكل القيد ، لما رأى فرعون ما عند موسى وهارون عليهما السلام من اللين في الخطاب ، رق لهما ، وسرت الرحمة الإلهية بالعناية الربانية في باطنه ، فعلم أن الذي أرسلا به هو الحق ، فقيده الله بعبوديته مع ربه في الأولى بعلمه أنه عبد الله ، وفي الآخرة إذا بعثه الله يبعثه على ما مات عليه من الإيمان به علما وقولا ، وليس بعد شهادة الله شهادة ، وقد شهد له أنه قيده في الأولى والآخرة.

[سورة النازعات (79) : آية 26]
إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى (26)
-**الوجه الأول** - « إِنَّ فِي ذلِكَ »أي في هذا الأخذ« لَعِبْرَةً »أي تعجبا وتجاوزا مما يسبق منه إلى فهم العامة إلى ما فيه مما يفهمه الخاصة من عباد الله وهم العلماء ، ولذلك قال« لِمَنْ يَخْشى »وقد عرّفنا أنه إنما يخشى الله من عباده العلماء ،
وقد قال تعالى (لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى)ولا يخشى حتى يعلم بالتذكّر ما كان نسيه من العلم بالله ، ومن قيده الحق فلا يتمكن له الإطلاق والسراح من ذلك القيد
- **الوجه الثاني**– " إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى »العبرة في ذلك للعالم ، فيعتبر العالم كما أخبر الله من أين أخذ فرعون ، فإن الله سبحانه هو الأعلى حقيقة ، فهو ربنا الأعلى ، وادعى هذه الصفة فرعون وما لبسها قط عند نفسه ،
ففي قوله « في ذا » إشارة إلى ما تقدم في القصة والذي تقدم قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى)، وأخذ الله له نكال الآخرة والأولى أي هذه الدعوى أوجبت هذا الأخذ ، وأن الصفة طلبت موصوفها وهو الله ، وبقي فرعون عريا عنها ، فلم يكن له من يحميه عن الأخذ ، فإن الصفة تطلب

ص 444

موصوفها ، فإنه لا يقبلها إلا من هي له ، فإذا تضمن الكلام صفة لا تنبغي إلا للعبد فالعبد صاحبها وإن وصف الحق بها نفسه ، وإذا تضمن الكلام صفة لا تنبغي إلا لله فالله صاحبها وإن وصف العبد بها نفسه

- **الوجه الثالث** - رحمة الله أوسع من حيث أن لا يقبل إيمان المضطر ، وأي اضطرار أعظم من اضطرار فرعون في حال الغرق ،

والله يقول (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ) فقرن للمضطر إذا دعاه الإجابة وكشف السوء عنه ، وهذا آمن لله خالصا ، وما دعاه في البقاء في الحياة الدنيا ، خوفا من العوارض أو يحال بينه وبين هذا الإخلاص الذي جاءه في هذه الحال ، فرجح جانب لقاء الله على البقاء بالتلفظ بالإيمان ،

وجعل ذلك الغرق « نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى » فلم يكن عذابه أكثر من غم الماء الأجاج ، وقبضه على أحسن صفة ، هذا ما يعطي ظاهر اللفظ ، وهذا معنى قوله » إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى »يعني في أخذه نكال الآخرة والأولى ، وقدم ذكر الآخرة وأخر الأولى ، ليعلم أن العذاب أعني عذاب الغرق هو نكال الآخرة ، فلذلك قدمها في الذكر على الأولى ، وهذا هو الفضل العظيم .

[سورة النازعات (79) : آية 27]

أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها (27)

وذكر ما يختص بالسماء فقال .

[سورة النازعات (79) : الآيات 28 إلى 29]

رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها (29)

ثم ذكر الأرض ودحاها وما يختص بها فقال :

[سورة النازعات (79) : آية 30]

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها (30)

وذلك في معرض التفضيل على الإنسان .

[سورة النازعات (79) : الآيات 31 إلى 40]

أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها (31) وَالْجِبالَ أَرْساها (32) مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ (33) فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى (35) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى (36) فَأَمَّا مَنْ طَغى (37) وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى (39) وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى(40)

445

اعلم أن كل مقام سيد عند كل عبد ذي اعتقاد إنما هو بحسب ما ينشئه في اعتقاده في نفسه ، ولهذا قال الله« مَقامَ رَبِّهِ »فأضافه إليه وما أطلقه ، وما تجد قط هذا الاسم الرب إلا مضافا مقيدا ، لا يكون مطلقا في كتاب الله ، والاسم الرب من حيث دلالته هو الذي يعطي في أصل وضعه أن يسع كلّ يعتقد يعتقد فيه ، ويظهر بصورته في نفس معتقده ، ولذا يتجلّى لهم يوم القيامة في صور اعتقادهم .

فممن يخاطب الحق بهذه الآية أهل المقامات العلى ، من إطلاق اسم الرب الذي يقبل التجلي في صور الاعتقادات ، فصاحب هذا المقام لا يزال خائفا حتى يأتيه البشرى في الحياة الدنيا بأن الأمر كما قال

[" وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى » الآية]

- **الموت الأحمر :** « وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى »

- **الوجه الأول -** الهوى هو تقييد الرب بصورة معينة في نفسه ، وعدم إطلاقه في التحول في صور الاعتقادات

- **الوجه الثاني -** اعلم أن الهوى ما هو غير عين الإرادة ، وكل مراد إذا حصل لمن أراده فهو ملذوذ للنفس ، فكل إرادة فهي هوى ، لأن الهوى تستلذه النفوس ، وما لا لذة لها فيه فليس بهواها ، وما سمي هوى إلا لسقوطه في النفس ، وقد جعل الله زمام كل نفس بيد صاحبها ، وأمرها إليه ، وأنزلها منزلة الأجنبي وليس إلا عينها ،

فقال تعالى« وَنَهَى النَّفْسَ "يعني نفسه« عَنِ الْهَوى " المردي ، وهو إرادة النفس ما لم يشرع لها العمل به أو تركه ، فيأمره الهوى بمخالفة ما أمره الله به أن يفعله أو ينهاه عنه ، فيكون هواها لا تأتيه من حيث ما هو هواها ،

بل من حيث ما هو إرادة الحق ، وهذه الآية نص في المجاهدة بكسر الصفات البشرية ، وإنما يتيسر ذلك تماما بتربية شيخ كامل يخرجك عن كل مألوف معتاد ، ويقطعك عن كل أستاذ سوى رب العالمين ، ولا يمكن حصر ذلك تفصيلا ، فمن لم تنفعه الكلمة لم تنفعه القناطير ، فإن أوصاف الخلق لا تحصر بالأساطير ،

فالعمل في ذلك خلاف كل هوى نفساني ، والخروج عن العادة سوى الفرائض بغير المحظورات ، فمن حيث تعدد الهوى بتعدد المهويات والمشتهيات والمألوفات قيل : الطريق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق ؛ ومن حيث اتحاده قيل الطريق واحد ، والنفس واحد متعدد بحسب القوابل .

فليحذر الإنسان أن تقوم عليه حجة الدنيا والشيطان ، فليس لهما عليه من سلطان ، فلا تقل تزينت لي الدنيا ودعاني الشيطان ، فأوقعاني في الخسران ، أنت الذي أجبتهما ووقعت معهما ، وليس لعنهما غير طردهما عنك بتنحيك عنهما ،

من حيث أنت لا من حيث هما ، فذاك لعنهما بلسان الحال ، وهو أصدق من لسان المقال ، وقد نبّهت على ذلك بالنهي عن لعن الدنيا ، وليس

ص 446

لك نص ، وإن لعن الشيطان فبالمعنى الأول ، فبهذا المعنى تخالف الشيطان ، فإنه قد نص عليه بالعصيان ، وليس لك سبيل إلى مخالفة الهوى وحصول الإسلام إلا بمفارقة قرناء السوء في الظاهر أولا ، ومجانبة صحبة الأحداث والاستقامة ، وينضبط لك إن كنت منفردا عن حضرة شيخ كامل بالعزلة عن كل قاطع ، سيما أربعة أشياء : الكلام ، والتأذي بأذى الأنام ، والطعام ، والمنام ، أو بعبارة أخرى : بالصمت ، والعزلة ، والجوع ، والسهر .
قال صلّى الله عليه وسلّم [من صمت نجا] وهو من آثار العزلة ،
وقال صلّى الله عليه وسلّم [الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش]
وقال صلّى الله عليه وسلّم لعائشة رضي الله عنها [داومي قرع باب الجنة ، قالت : بما ذا يا رسول الله ؟ قال : بالجوع والعطش] ،
وبه يحصل صمت اللسان ، وقلة الكلام ، والذلة والانكسار من جميع الشهوات ، ويذهب الوسواس بها فيسلم من آفاتها ، وبالجوع يحصل السهر للعين . ومخالفة النفس هو الموت الأحمر ، وهو حال شاق عليها ، ولا تخالف النفس إلا في ثلاثة مواطن : في المباح ، والمكروه ، والمحظور لا غير ؛ ولا يعتبر هنا إلا جانب الشريعة خاصة ، فإنها التي وضعت الأسباب الفاضلة ، التي بفعل ما أمرت بفعله ، وترك ما نهت عن فعله ، وجبت السعادة ، وحصلت المحبة الإلهية .
فإذا كان عملك عن أثر إلهي مشروع خرجت عن هوى نفسك ، ولو وافقت الهوى ، وتكون ممن نهى النفس عن الهوى ، وهنا نكتة فإنه تعالى قال :

[سورة النازعات (79) : آية 41]
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى (41)
والجنة ستر والإيواء ستر ، فإن النهي عن الهوى لا يكون إلا من أديب أو مستور عنه الحق في الأشياء ، فإنه لو كان صاحب كشف لكان هواه ما ارتضاه الله وأراد إمضاءه ، ويقول تعالى لصاحب المقام المطلق في تجلي الحق في صور الاعتقادات : إن مقامه ستر هذا العلم بالله الذي حصل له حتى لا ينكره عليه صاحب الاعتقاد المقيد أو يجهّله وربما كفّره - اعتبار - النفس إذا سافرت في صحبة هواها أضلها عن طريق الرشد والنجاة وما فيه سعادتها ، فقال تعالى :« وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى »يعني أن تسافر معه ، فإنه على الحقيقة عبدها ، لأنه من جملة أوصافها الذي ليس له عين إلا بوجودها ، فهي المالكة له ، فإذا تبعته صار مالكا لها ، وهو لا عقل له ولا إيمان ، فيرمي بها في المهالك

ص 447

فتضيع ، وقد اعتبر الشارع ذلك في السفر المحسوس في المرأة مع عبدها ، وجعله تنبيها لما ذكرناه ، فقال صلّى الله عليه وسلّم [سفر المرأة مع عبدها ضيعة]

[سورة النازعات (79) : الآيات 42 إلى 44]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها (43) إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها (44)

فمنتهاها ربها .

[سورة النازعات (79) : الآيات 45 إلى 46]

إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها (46)

(80) سورة عبس مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

إن الأنبياء وإن شاهدوا أولياء الله في حال شهودهم للوجه الذي أرادوه من الله تعالى ، فإنهم من حيث أنهم أرسلوا لمصالح العباد لا يتقيدون بهم على الإطلاق ، وإنما يتقيدون بالمصالح التي بعثوا بسببها ، فوقتا يعتبون مع كونهم في مصلحة ، مثل هذه الآية ، آية الأعمى الذي نزل فيه : -

[سورة عبس : (80) آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى (1)

[« عَبَسَ وَتَوَلَّى » الآية :]

وكان خباب بن الأرت وبلال وابن أم مكتوم وغيرهم من الأعبد والفقراء ، لما تكبر كبراء قريش وأهل الجاهلية عن أن يجمعهم عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مجلس واحد ، وأجابهم إلى ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فيقول لسان الظاهر إن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان يفعل لهم ذلك ليتألفهم على الإسلام ، لأن واحدا منهم كان إذا أسلم أسلم لإسلامه بشر كثير ، لكونه مطاعا في قومه ، فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما أعرض عن الأعمى الذي عتبه فيه الحق إلا حرصا وطمعا في إسلام من يسلم لإسلامه خلق كثير ، ومن يؤيد الله به الدين ، ولما كان من مكارم الأخلاق الإقبال على الفقراء والإعراض عن الأغنياء بالعرض - من جاه أو مال - ما عتب الله نبيه صلّى الله عليه وسلّم

ص 448

في الأول إلا لعزة قامت بنفس أولئك ، مثل الأقرع بن حابس وغيره ، فقالوا : لو أفرد لنا محمد مجلسا جلسنا إليه ، فإنا نأنف أن نجالس هؤلاء الأعبد ، يعنون بذلك بلالا وخبابا وغيرهما ، فرغب النبي صلّى الله عليه وسلّم لحرصه على إيمانهم ولعلمه أنه يرجع لرجوعهم إلى الله بشر كثير ، فأجابهم إلى ما سألوا ، وتصدى إليهم لما حضروا ، وأعرض عن الفقراء ، فانكسرت قلوبهم لذلك ،

فأنزل الله ما أنزل جبرا لقلوب الفقراء ، فانكسر الباقي من نفوس أولئك الأغنياء الأعزاء ، وقيل له :(إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ) و(لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ ، وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ)ونزل عليه« عَبَسَ وَتَوَلَّى »ومع هذا وقع عليه صلّى الله عليه وسلّم العتب من حقيقة أخرى لا من هذه الحقيقة ، فإن الله تعالى ما يريد أن يعامله العبد بمعاملة واحدة في كل شيء ، بل يحمده في المواضع التي تطلب منه المحامد ، ويقبل عليه ، ويعرض عنه في المواضع التي يطلب منه الإعراض عنه فيها ، فلا يتعدى الميزان الذي يطلبه منه ولذلك قال تعالى معلما ومؤدبا لمن عظم صفة الله على غير ميزان .

[سورة عبس (80) : الآيات 2 إلى 3]

أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى (2) وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3)

يعني ذلك الجبار ، وأن الله عند المنكسرة قلوبهم ،

- أصحاب العاهات - غيبا ، وهو في الجبابرة المتكبرين ظاهر عينا ، وللظهور حكم أقوى ، وكان صلّى الله عليه وسلّم حريصا على الناس أن يؤمنوا بوحدانية الله ، وإزالة العمى الذي كانوا عليه ، ويترجم عن هذا الإعراض منه صلّى الله عليه وسلّم لسان الحقيقة ، فإنه صلّى الله عليه وسلّم : كان يحب الفأل الحسن ، وبعثه بدعوة الحق ، وإظهار الآيات إنما يظهرها لمن يتصف بأنه يرى ، فلما جاءه الأعمى قام له حقيقة من بعث إليهم وهم أهل الأبصار ، فأعرض وتولى لأنه ما بعث لمثل هذا ،

فهذا كان نظره صلّى الله عليه وسلّم ، وما عتبه سبحانه فيما علمه ، وإنما عتبه جبرا لقلب ابن أم مكتوم وأمثاله ، لأنهم غائبون عن الذي يشهده صلّى الله عليه وسلّم ، وهو أنه لم يشاهد سوى الحق ، فأينما يرى الصفة التي لا تنبغي إلا لله عظّمها ، ولم يشاهد معها سواها ، وقام لها ووفّاها حقها ، مثل العزة والكبرياء والغنى ،

فالنبي صلّى الله عليه وسلّم ليس له مشهود إلا صفة الحق حيث ظهرت من الأكوان ، فإذا رآها أعمل الحيلة في سلبها عن الكون الذي أخذها على غير ميزانها ، وظهر بها في غير موطنها ، وهو صلّى الله عليه وسلّم غيور ، فمن العجب أن المشاهد غنى الحق الذي هو صفته في غنى العالم ، فلا يشاهد

ص 449

إلا حقا ، ولا يكون القبول والإقبال إلا على صفة حق ، كيف يعتب على ذلك من هو بهذه المثابة ؟ فقيل له عندما جاء الجبار الأعمى البصيرة ، تأديبا لنبيه صلّى الله عليه وسلّم في ظاهر الأمر ، وهو يؤدبنا به لنتعلم » أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى »فنبهه ببنية الاستفعال ، وهنا ذكر الحق الصفة ولم يذكر الشخص ، والغنى صفة إلهية ، فما حادت عين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلا إلى صفة إلهية ، لتحققه صلّى الله عليه وسلّم ، فأراد الحق أن ينبهه على الإحاطة الإلهية ، فلا تقيده صفة عن صفة ، فليس شهوده صلّى الله عليه وسلّم لغناء الحق في قوله (اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ) بأولى من شهوده صلّى الله عليه وسلّم لطلب الحق في قوله (وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) وأين مقام الغنى من هذا الطلب ؟

فغار عليه سبحانه أن تقيده صفة عن صفة ، فكان صلّى الله عليه وسلّم يظهر لأولئك من البشاشة على قدر ما يليق بهم ، ويظهر للأعمى من الفرح به على قدر ما تقع به المصلحة في حق أولئك الجبابرة ، فإن التواضع والبشاشة محبوبة بالذات من كل أحد ، فإنها من مكارم الأخلاق ، وما زال الله يؤدب نبيه صلّى الله عليه وسلّم حتى تحقق بالأدب الإلهي

فقال [إن الله أدبني فأحسن أدبي]

فإن الله له نسبة إلى الأغنياء كما له نسبة إلى الفقراء ، فقال تعالى :

[سورة عبس (80) : الآيات 4 إلى 5]

أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى (5)

[لمن تصدى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؟]

لأن الغني يعطى الزهو والفخر لما يشاهده من الطالبين رفده ، وسعي الناس في تحصيل مثل ما عنده ، فكان مشهود محمد صلّى الله عليه وسلّم الصفة الإلهية ، وهي الغنى ، فتصدى لها لما تعطيه حقيقتها من الشرف ، والنبي في ذلك الوقت في حال الفقر في الدعوة إلى الله ، وأن تعمّ دعوته ، وعلم أن الرؤساء والأغنياء ، تبع الخلق لهم أكثر من تبع من ليس له هذا النعت ، فإذا أسلم من هذه صفته أسلم لإسلامه خلق كثير ، والنبي صلّى الله عليه وسلّم له على مثل هذا حرص عظيم ، وقد شهد الله تعالى عندنا له بذلك فقال :(عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ)أي عنادكم يعز عليه للحق المبين(حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ)في أن تسلموا وتنقادوا إلى ما فيه سعادتكم ، وهو الإيمان بالله وما جاء من عند الله ، ومع هذا الحضور النبوي أوقع العتب عليه تعليما لنا ، وإيقاظا له ، فإن الإنسان محل الغفلات ، وهو فقير بالذات ، وقد استحق الجاه والمال أن يستغني بهما من قاما به ، ولذلك قال :« أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى »

وما قال : أما من هو غني ؛ فإنه على التحقيق ليس بغني ، بل هو فقير لما استغنى به ، وقد علم الحق أنه لمن تصدى محمد صلّى الله عليه وسلّم ،

ص 450

فيقول له : وإن كنت تعظم صفتي حيث تراها لغلبة شهودك إياي ، فقد أمرتك أن لا تشاهدها مقيدة في المحدثين ؛ فهذا من التأديب الإلهي لرسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، فترك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم تعظيم عزة اللّه إذا اتصف بها أحد من عباد اللّه .
واعلم أن الغنى وإن كان باللّه ، والعزة وإن كانت باللّه ، فإنهما صفتان لا يصح للعبد أن يدخل بهما على اللّه تعالى ، وإن كان باللّه فيهما ، فلا بد أن يتركهما ويدخل فقيرا ذليلا
. ومعنى الدخول التوجه إلى اللّه ، فلا يتوجه إلى اللّه بغناه به ولا بعزته به ، وإنما يتوجه إلى اللّه بذله وافتقاره ، فإن حضرة الحق لها الغيرة الذاتية ، فلا تقبل عزيزا ولا غنيا .
وهذا ذوق لا يقدر أحد على إنكاره من نفسه ، فإن الغنى معظم في العموم حيث ظهر وفيمن ظهر ، والخصوص ما لهم نظر إلا في الفقر فإنه شرفهم ، فلا يبرحون في شهود دائم مع اللّه ، وما راعى الحق في عتبه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلا جهل من جهل من الحاضرين ، أو من يبلغه ذلك من الناس بمن تصدى له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلو عرفوا الأمر الذي تصدى له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ما عتبه ، ولا كان يصدر منهم ما صدر من الأنفة في مجالسته صلّى اللّه عليه وسلّم الأعبد ، فهل هذا إلا لذهولهم عن عبوديتهم للذي اتخذوه إلها ؟ !
فإن كانت الآية جاءت عتبا في حق فهم العرب ، لكن من يعلم مرتبة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وذوقه وشهوده يجعل الضمير في له في قوله تعالى:

[سورة عبس (80) : آية 6]
فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6)
للّه فلم يكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم له شهود إلا غنى الحق ، وأن عزته تعالى هي الظاهرة في كل عزيز ، فما تعدى ، من إذا شهد صفة الحق تصدى ، ولكن خاطبه اللّه تعالى بما يناسب الموطن ، والتكليف للدعوة يقول : إنه لما شاهد صفة الحق وهي غناه عن العالم تصدى لها ، حرصا منه أن يزكي من ظهر بها عنده فقيل له :

[سورة عبس (80) : آية 7]
وَما عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (7)
ولك ما نويت وحكمه ، لو تزكى لما فاتك شيء ، سواء تزكى أم لم يتزكّى .

[سورة عبس (80) : الآيات 8 إلى 10]
وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى (8) وَهُوَ يَخْشى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى(10)

ص 451

لكونه أعمى ، أي لا تتطير ، فنهاه عن الطيرة ، فمن هنا كان يحب الفأل الحسن ويكره الطيرة ، وهو الحظ من المكروه ، والفأل الحسن الحظ والنصيب من الخير ، فما تلهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الأعمى إلا لحبه في الفأل ، وما جاء الله تعالى بالأعمى ، إلا لبيان حال مخبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعمى هؤلاء الرؤساء ، وعلم بذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ولكن وقف مع حرصه على إيمانهم والوفاء بالتبليغ الذي أمره الله به ، ولأن صفة الفقر صفة نفس المخلوق ، وقد علم صلّى الله عليه وسلّم أنه الدليل ، فإن الدليل لا يجتمع هو والمدلول ، وهو دليل على غنى الحق ، وقد تجلى في صفة هؤلاء الرؤساء ، فلا بد من وقوع الإعراض عن الأعمى والإقبال على أولئك الأغنياء ، ومع هذا كله وقع العتاب جبرا للأعمى ، وتعريفا بجهل أولئك الأغنياء ، فجبر الله قلب الأعمى وأنزل الأغنياء عما كان في نفوسهم من طلب العلو فانكسروا لذلك ، ونزلوا عن كبريائهم بقدر ما حصل في نفوسهم من ذلك العتاب الإلهي . واعلم أن الملك العزيز في قومه ما جاء إليك ولا نزل عليك إلا وقد ترك جبروته خلف ظهره ، أو كان جبروتك عنده أعظم من جبروته ، فعلى كل حال قد نزل إليك ، فأنزله أنت منزلته من نفسه التي يسر بها تكن حكيما ، وما عاتب الله نبيه في الأعمى والأعبد إلا بحضور الطائفتين ، فبالمجموع وقع العتب ، وبه أقول لا مع الانفراد ، فتعظيم الملوك والرؤساء من تعظيم ربك ، وتعظيم الفقراء جبر لا غير لانكسارهم في فقرهم.

[سورة عبس (80) : الآيات 11 إلى 13]
كَلاَّ إِنَّها تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13)
اللوح المحفوظ فيه قدر ما يقع به التصريف في الدنيا إلى يوم القيامة ، يتضمن ما في العالم من حركة وسكون ، واجتماع وافتراق ، ورزق وأجل ، وعمل ، ثم أنزل ذلك كله في كتاب مكنون إلى السماء الدنيا ، وهي قوله تعالى« فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ».

[سورة عبس (80) : آية 14]
مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14)
يعني التذكرة التي هي الرسالة ، التي تنزل بها الملائكة فيها توقيعات إلهية بما وعد الله المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاءت به رسله من اليوم الآخر والبعث الآخر ، وما يكون في ذلك اليوم من حكم الله في خلقه.

ص 452

[سورة عبس (80) : آية 15]
بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15)
والسفرة هم الرسل من الملائكة .

[سورة عبس (80) : آية 16]
كِرامٍ بَرَرَةٍ (16)
[الكرام البررة :]
مطهرين أرواح قدس« كِرامٍ »بما يجودون به على المرسلين إليهم في رسالتهم »بَرَرَةٍ »أي محسنين ، وهؤلاء هم سفراء الحق إلى الخلق بما يريد أن ينفذه فيهم من الحكم من عالم الأركان ، فإذا أراد الله إنفاذ أمر في خلقه ، أوحى إلى الملك الأقرب إلى مقام التنفيذ ، وينزل الأمر من ملك إلى ملك ، ومن سماء إلى سماء حتى السماء الدنيا ، فينادي بملك الماء فيودع تلك الرسالة ، وينادي ملائكة اللمات ، وهم ملائكة القلوب ، فيلقّنوها فيجعلها لمّات في قلوب العباد ، وأما ملك الماء فيلقي ما أوحي به إليه في الماء ، فلا يشرب الماء حيوان إلا ويعرف ذلك السر إلا الثقلين ، ولكن لا يعرف من أين جاء ، ولا كيف حصل . ومن هذا الباب ما يجده الإنسان من بعض شخص ، وحب شخص من غير سبب ظاهر معلوم له ، ويكون بالسماع وبالرؤية ، وورد خبر في مثل هذا ، كما أن بين السماء السابعة والفلك المكوكب كراسي عليها صور كصور المكلفين من الثقلين ، وستور مرفوعة بأيدي ملائكة مطهرة ، ليس لهم إلا مراقبة تلك الصور ، وبأيديهم تلك الستور ، فإذا نظر الملك إلى الصور قد سمجت وتغيرت عما كانت عليه من الحسن ، أرسل الستر بينها وبين سائر الصور ، فلا يعرفون ما طرأ ، ولا يزال الملك من الله مراقبا تلك الصورة فإذا رأى تلك الصورة قد زال عنها ذلك القبح وحسنت رفع الستر ، فظهرت في أحسن زينة ، وتسبيح تلك الصور ، وهؤلاء الأرواح الملكية الموكلة بالستور ،
[سبحان من أظهر الجميل وستر القبيح] .

[سورة عبس (80) : آية 17]
قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (17)
كل ما في الكون مسخّر للإنسان ومع ذلك كفر ، فالويل لمن زهد في اعتبار وجوده وحقره ، والصغار له فما أذله وأصغره ، فليته كما كفره شكره ، فيكون من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، فانتظموا في سلك عسى المدخرة في الدار الباقية المؤخرة.

ص 453

[سورة عبس (80) : الآيات 18 إلى 22]
مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21 (ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (22)

-الوجه الأول - يعني المزاج الذي كان عليه في الدنيا ، أي هو قادر على إعادة ذلك المزاج ، لكن ما شاء ، ولهذا علق المشيئة به فقال« ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ »فلو كان هو بعينه لقال : ثم ينشره ؛ ولا يعلم أحد ما في مشيئة الحق إلا أن يعلمه الحق بذلك - الوجه الثاني - لما كانت النشأة الآخرة على غير مثال من النشأة الدنيا ، فهو تعالى يخرجنا إخراجا لا نباتا ، فهو يخرجنا من الأرض على الصورة التي يشاء الحق أن يخرجنا عليها ، لذلك علّق المشيئة بنشر الصورة التي أعادها في الأرض الموصوفة بأنها تنبت ، فتنبت على غير مثال لأنه ليس في الصور صورة تشبهها .

[سورة عبس (80 : (الآيات 23 إلى 42]
كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ (23) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (27) وَعِنَباً وَقَضْباً (28) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (29) وَحَدائِقَ غُلْباً (30) وَفاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ (32) فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37)
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (41) أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ(42)

ص 454

(81) سورة التّكوير مكيّة

[سورة التكوير (81) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1)

اعلم أن الشمس والقمر والدراري تكون يوم القيامة في النار ، والشمس مكورة قد نزع الله نورها من أعين أهل النار ، بالحجاب الذي بينها وبين أعينهم ، فهي طالعة عليهم غاربة ، كما تطلع على أهل الدنيا في حال كسوفها ، وكذلك القمر وجميع الدراري على صورة سباحتهم الآن في أفلاكهم ، لكنّها مطموسات في أعينهم للحجاب الذي على أعينهم ، قال تعالى :

[سورة التكوير (81) : آية 2]

وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2)

-الوجه الأول - فيشهد أهل النار أجرام السيارة طالعة عليهم وغاربة ، ولا يشهدون لها نورا لما في الدخان من التطفيف ، فكما كانوا في الدنيا عميا عن إدراك أنوار ما جاءت به الشرائع من الحق ، كذلك هم في النار عمي عن إدراك أنوار هذه السيارة وغيرها من الكواكب ، فأهل النار في ظلمة لا تزال أبدا ، لأن ليلهم لا صباح له - الوجه الثاني -« وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ »بما ترميهم من الشرر .

[سورة التكوير (81) : الآيات 3 إلى 5]

وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5)

[« وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ » الآية فإنها أمم أمثالنا:]

للشهادة يوم الفصل والقضاء ، ليفصل الله بينهم كما يفصل بيننا ، فيأخذ للجماء من القرناء كما ورد ، وهذا دليل على أنهم مخاطبون مكلفون من عند الله ، فإنها أمم أمثالنا ، والوحوش كلها تحشر في النار إنعاما من الله على النار ، إلا الغزلان وما استعمل من الحيوان في سبيل الله ، فإنهم في الجنان على صور يقتضيها ذلك الموطن ، وكل حيوان تغذى به أهل الجنة في الدنيا خاصة.

ص 455

[سورة التكوير (81) : آية 6]
وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ (6)
أي أججت نارا ، من سجرت التنور إذا أوقدته ، ولهذا كان يقول ابن عمر إذا رأى البحر يقول : يا بحر متى تعود نارا ؛ وكان يكره الوضوء بماء البحر ويقول : التيمم أعجب إليّ منه.

[سورة التكوير (81) : آية 7]
وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7)
بأبدانها ، فإن النفس تحشر يوم القيامة على صورة علمها ، والجسم على صورة عمله .

[سورة التكوير (81) : الآيات 8 إلى 10]
وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10)
النشر ضد الطي ، وبه يتبين الرشد من الغي .

[سورة التكوير (81) : الآيات 11 إلى 15]
وَإِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ (14) فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15)
الخنس هي الجواري الخمسة التي لها الإقبال والإدبار ، ولم يجعل الله معهن في هذا القسم الشمس والقمر وإن كانا من الجواري ولكنهما ليسا من الخنس.

[سورة التكوير (81) : آية 16]
الْجَوارِ الْكُنَّسِ (16)
[« الْجَوارِ الْكُنَّسِ » الآية :]
فهي الخنس الكنس السيارة ، تسير في المنازل التي قدرها الله للقمر وتنزلها لإيجاد الكائنات ، فيكون عند هذا السير ما يتكون من الأفعال في العالم العنصري بتقدير العزيز العليم ، والسيارة لا نزول لها ولا سكون في المنازل ، بل هي قاطعة أبدا ، ولما كان عين البروج المقدرة في الفلك الأطلس ليس لها علامة تعرف بها جعل لها المنازل علامة على تلك المقادير ، تقطع في هذا الفلك الأطلس الجواري الخنس الكنس ، فيعرف بالمنازل كم قطعت من ذلك

ص 456

الفلك ، ولهذه المنازل أيضا ، وكل كوكب في الفلك المكوكب قطع في الفلك الأطلس ، لكن لا يبلغ عمر الشخص الواحد إلى الشعور به ،
ويقول أصحاب تسيير الكواكب إن هذه الكواكب الثابتة تقطع في كل ستين سنة من الفلك درجة واحدة ، ونقلت عن بعضهم مائة سنة ، فمتى يدرك الحس انتقاله كما يدرك الجواري الخنس الكنس ؟
التي قد يكون مرورها على عين كواكب المنزلة ، وقد يكون فوقها وتحتها ، على الخلاف الذي في حد المنزلة ما هو ، فسميت منزلة مجازا ،
فإن الذي يحل فيها لا استقرار له ، وإنه سابح كما كان قبل وصوله إليها في سباحتها ، فراعى المسمّي ما يراه البصر من ذلك ، فإنه لا يدرك الحركة ببصره إلا بعد المفارقة ، فبذلك القدر يسميها منزلة ، لأنه حظ البصر فغلّبه - راجع سورة يس آية 39 –

[سورة التكوير (81) : آية 17]
وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ (17)
فظهرت كواكبه .

[سورة التكوير (81) : آية 18]
وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (18)
الأوجه عندنا أنّه الفجر المستطيل لانقطاعه ، كما ينقطع نفس المتنفس ، ثم بعد ذلك تتصل أنفاسه .

[سورة التكوير (81) : آية 19]
إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19)
قال تعالى مقسما« إِنَّهُ »يعني القرآن« لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ »فأضاف الكلام إلى الواسطة والمترجم .

[سورة التكوير (81) : الآيات 20 إلى 21]
ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21)
اعلم أيدك الله أن للأرواح العلوية السماوية المعبر عنها بالملائكة مقدّمين ، لهم أمر مطاع فيمن قدموا عليه من الملأ الأعلى ، وهم أصحاب أمر لا أصحاب نهي ، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وقد نبه الله تعالى على أن جبرائيل عليه السلام منهم بقوله " مُطاعٍ " ، ولا يكون مطاعا إلا من له الأمر فيمن يطيعه ،« ثَمَّ أَمِينٍ »قال : بينه وبين الله أسرار لا تعرف منه ، ولا يظهر بها في الدنيا .
ص 457

[سورة التكوير (81) : آية 22]
وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22)
أي ما ستر عنه شيء .

[سورة التكوير (81) : آية 23]
وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23)
فإنه محل كشف المقربين ، أراد به الوضوح والبيان والنص الجلي الذي لا يتداخله شك ولا ريب ، وهو نصيب المقربين ، وكان التجلي بالأفق تنبيها على علو الخلق ، أي كل حالة تبقي الإنسان على حالة اعتداله بغير انحراف ، لأن الأفق ما قابل نظرك على الاعتدال .

[سورة التكوير (81) : آية 24]
وَما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24)
أي ما بخل بشيء مما هو لكم ، ولا بظنين ، على قراءة ، أي ما يتهم في أنه بخل بشيء من الله هو لكم .

[سورة التكوير (81) : الآيات 25 إلى 26]
وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26)
- إشارة لا تفسير -
فإنني معكم حيثما كنتم .

[سورة التكوير (81) : آية 27]
إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (27)
بما هو الأمر عليه فإنّ العالم كلّه هو عين تجلي الحق لمن عرف الحقّ .

[سورة التكوير (81) : الآيات 28 إلى 29]
لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (29)
« وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ »أن تشاءوا ، إلا أنه في حضرة الخيال مشيئة العبد

ص 458

كمشيئة الحق في النفوذ ، وفي الحس في الدنيا يقع بعض ما يشاء العبد ، وفي الآخرة الحق مع العبد على كل ما يشاؤه ، فالحق في الإيجاد لمشيئة العبد في الحضرة الخيالية في الدنيا خاصة ، وفي الآخرة في الجنة عموما
[تحقيق : المشيئة الإلهية من حيث أن العلم تابع للمعلوم]
-تحقيق - اعلم أن الإمكان للممكن هو الحكم الذي أظهر الاختيار من المرجّح ، والذي عند المرجح أمر واحد ، وهو أحد الأمرين لا غير ، فما ثمّ بالنظر إلى الحق إلا أحدية محضة خالصة لا يشوبها اختيار ،
ألا تراه يقول تعالى : لو شاء كذا لكان كذا ، فما شاء ، فما كان ذلك ، فنفى عن نفسه تعلق هذه المشيئة ، فنفى الكون عن ذلك المذكور ، غير أن لله تعالى نسبتين في الحكم الواقع في العالم بالامتناع أو بالوقوع ، فالنسبة الواحدة ما ظهر من العالم في العالم من الأحكام الواقعة والممتنعة بمشيئتهم ، أعني بمشيئة العالم التي أوجدها الله في العالم ، والنسبة الأخرى ما يظهر في الأحكام في العالم لا من العالم ، مشاءة لله تعالى من الوجه الخاص ، ثم هي لله كالآلة للصانع ظاهرة التعلق منفية الحكم ،
فالعلماء بالله ينسبون الواقع بالآلة إلى الله ، والذين لا علم لهم ينسبوها إلى الآلة ، وطائفة متوسطة ينسبون إلى الآلة ما ينسب الحق إليها على حد علمه في ذلك ، وينسبون الكل إلى الله أدبا مع الله وحقيقة ، فهم الأدباء مع الله المحققون ، وهم الذين جمعوا بين الشرع والعقل ، والوجه الصحيح في العلم الإلهي لا يتمكن للعقل أن يصل إليه من حيث نظره ، لا بل ولا من جهة شهوده ولا من تجليه ، وإنما يعلم بإعلامه ، فإن العلم بالله من حيث النظر والشهود على السواء ، ما يضبط الناظر ولا المشاهد إلا الحيرة المحضة ، فإذا وقع الإعلام الإلهي لمن وقع حيث وقع - من دنيا وآخرة - حصل المقصود .

(82) سورة الانفطار مكيّة

[سورة الانفطار (82) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (1)
ويحق لها أن تنفطر .

[سورة الانفطار (82) : آية 2]

وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ(2)

ص 459

إذا طمست النجوم ، فلم يبق لها نور إلا سباحتها لا تزول في النار ، لا بل انتثرت ، فهي على غير النظام الذي كان سيرها في الدنيا ، ويحتمل أن يكون المعنى« إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ »أي انتثر ضوؤها ، فتبقى مظلمة ، وفعلها المودع فيها باق ، فتعطي من الأحكام في أهل النار على قدر ما أوحى فيها اللّه تعالى ، فاختلف حكمها في أهل النار بزيادة ونقص ، لأن التغيير وقع في الصور لا في الذوات ، فالكواكب كلها في جهنم ، مظلمة الأجرام عظيمة الخلق ، وكذلك الشمس والقمر ، والطلوع والغروب لهما في جهنم دائما ، فشمسها شارقة لا مشرقة ، والتكوينات عن سيرها بحسب ما يليق بتلك الدار من الكائنات ، فذوات الكواكب في جهنم صورتها صورة الكسوف عندنا.

[سورة الانفطار (82) : الآيات 3 إلى 5]

وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5)

لأنها تجده محضرا ، يكشفه لها النور الذي أشرقت به أرض المحشر في قوله تعالى(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها).

[سورة الانفطار (82) : آية 6]

يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6)

[« يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » الآية - تلقين الحجة للعبد :]

وجودك عن تدبير أمر محقق *** وتفصيل آيات لو أنك تعقل
فيا أيها الإنسان ما غرّ ذاتكم *** برب يرى الأشياء تعلو وتسفل
فإن كنت ذا عقل وفهم وفطنة *** علمت الذي قد كنت بالأمس تجهل
وذلك أن تدري بأنك قابل *** لقرب وبعد بالذي أنت تعمل
فخف رب تدبير وتفصيل مجمل *** فذاك الذي بالعبد أولى وأجمل
إذا كان هذا حالك اليوم دائبا *** لعل بشارات بسعدك تحصل
فإن جلال الحق يعظم قدره *** وفي الخلق يقضي ما يشاء ويفصل

فالرب الكريم خلق ، فعيّن الشكل وفصّل الأجزاء في الكل ، لذلك قال« يا أَيُّهَا

ص 460

الْإِنْسانُ »حدث اسم الإنسان باجتماع النفس والجسم ، وتعلق التكليف وظهرت الطاعات والمخالفات ، فالإنسان العاقل البالغ هو المكلف لا غير ، ومن زالت عنه هذه الشروط من هذا النوع ، فليس بمكلّف ولا مذموم على ترك فعل أو فعل منهي عنه ،
ولما أنس الإنسان برتبة الكمال فوقع بما رآه الأنس له سماه إنسانا ، فالألف والنون فيه زائدتان في اللسان العربي ، ولما كان الإنسان مخلوقا على الصورة الإلهية سمي باسم ينصرف ، ليعلم في صورته الإلهية أنه مقهور ممنوع عبد ذليل مفتقر ، إذ كانت الصورة الإلهية تعطيه التصرف في جميع المراتب ،
ولهذا سمي بإنسان فرفع وخفض ونصب ، فهو إنسان من حيث الصورة ، ومنها يتصرف في المراتب كلها ، ومنع الصرف من حيث هو في قبضة موجده ،
ملك يبقيه ما شاء ويعدمه إن شاء ، فبالصورة تنال الخلافة والتصريف واسم الإنسانية ، فمن إنسانيته ثبت أنه غير يؤنس به ، ومن الخلافة ثبت أنه عبد فقير ما له قوة من استخلفه ،
بل الخلافة خلعت عليه ، يزيلها متى شاء ، ويجعلها على غيره ، فقال تعالى معلما ومنبها ينبه الإنسان« يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ »وما يعني بالإنسان هنا إلا المسئ صاحب الكبيرة ، فنبه الله المسئ أن يقول : بكرم الحق ، لكونه يحكم بالكرم في حقه ، فنبهه بهذه الآية ليقول : كرمك ؛ فإنه لا يقاوم كبير كرمه إلا بأكبر الكبائر ، وهناك يظهر عموم الكرم الإلهي ،
فلا يعرف الكريم إلا المسئ ، ولا أكرم من الله ، فيقول تعالى لهذا الإنسان« ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ »فهذه الآية من باب تعليم الخصم الحجة خصمه ، ليحاجه بذلك إن كان محبوبا ، ليقول : كرمك ، وتنبيه من الله لعبده ، كما يفعله الحاكم المؤمن العالم ،
إذ يقول للسارق والزاني : قل لا زنيت أو قل لا سرقت أو قل لا ، لعلمه أنه إذا اعترف أقام عليه الحد ، فربما يكون الزاني يدهش بين يدي الحاكم فينبهه ، فيقول بهذه المقالة : لا ، فيدرأ عنه الحد بذلك ، وجاء بلفظة الإنسان بالألف واللام والإغرار ليعم جميع الناس ، فلقد فزت بحظ عظيم« يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ »والكريم هو الذي يترك ما له ويؤدي ما أوجبه على نفسه من الحقوق ، كرما منه قبل أن يسألها ، ثم إنه يمنع وقتا ويطالب وقتا ، لتظهر بذلك منزلة الشافع عنده في مثل هذا ، وكرمه بالسائل فيما سأله فيه بإجابته ، فقوله تعالى هذا ذكّر العبد بالحجة ، وأبان له عن المحجة ، ليقول :كرمك غرني ، والكريم لا يضرني وهو الغيور على اسمه ، والمبقي في قلب عبده رسمه لسابق علمه ، فمن رحمة الله تعالى تلقين عبده حجته ، فلو قال : الشديد

ص 461

العقاب ، ذهل وتحير ، وهذا مما يدل على أن إرادة الحق بالناس السعادة في المآل ، ولو نالهم ما نالهم مما يناقضها ، فإن الحق لم يخص شخصا من شخص ، بل الظاهر أنه يريد من خالف أمره وعصاه مطلقا لا من أطاعه ، فنبه الغافل عن صفة الحق التي هي كرمه ، فإنه من كرمه أوجده ، ليقول له العبد : يا رب كرمك غرني ؛ فقد يقولها لبعض الناس هنا في خاطره وفي تدبره عند التلاوة ، فيكون سبب توبته ، وقد يقولها في حشره ، وقد يقولها له وهو في جهنم ، فتكون سببا في نعيمه حيث كان ، فإنه ما يقولها له إلا في الوقت الذي قد شاء أن يعامله بصفة الكرم والجود ، فإن رحمته سبقت غضبه .

[سورة الانفطار (82 : (آية 7]
الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7)

« الَّذِي خَلَقَكَ »وهو ما ذكره في التفصيل من التقلب في الأطوار« فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ »وهي هذه النشأة الظاهرة ، والتسوية هي الاعتدال في الشيء ، فقال تعالى« فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ »يمتن بذلك على الإنسان ، فسواه بخلقه بيديه ، وعدله وهو التهيؤ والاستعداد للتركيب والحمل ، ولم يذكر في غير نشأة الإنسان قط تسوية ولا تعديلا ، وإن كان قد جاء(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)فقد يعني خلق الإنسان ، لأن التسوية والتعديل لا يكونان معا إلا للإنسان ، ولم يكن ذلك لغيره من المخلوقين من العناصر ، ثم قال له بعد ذلك .

[سورة الانفطار (82) : آية 8]
فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ (8)

[« فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ » الآية - الصور الروحية :]

قد يعني قوله تعالى(ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ)أو سواه وعدله على مزاج يقبل كل صورة إذا شاء الحق ، وجعل التركيب لله لا له ، فهذه النشأة المسواة المعدلة قابلة لجميع الصور ، في أي صورة من صور الأكوان ما شاء ركبك ،

- ومن باب الإشارة -

في أي صورة من صور التجلي ، ما شاء ركبك في المعارف ، فأعلمنا أن هذه النشأة تعطي القبول لأي صورة كانت ، وهذا يعرفه ذوقا من اختصه الله من عباده بالتشكل في حضرة الغيب والشهادة والخيال ، فإذا فتح له فيه ظهر في عالم الشهادة في أي صورة من صور عالم الشهادة ، وظهر في عالم الغيب والملكوت في أي صورة من صوره شاء ، فلو لا قبولك عند

ص 452

تسويتك وتعديلك لكل صورة ما ثبت قوله« فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ »ووجه آخر -« فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ »إذا سوى الله الصور الجسمية ، إن شاء ركبك في صورة الكمال فيجعلك خليفة عنه في العالم ، أو في صورة الحيوان فتكون من جملة الحيوان بفصلك المقوم لذاتك ، الذي لا يكون إلا لمن ينطلق عليه اسم الإنسان ، فالصورة الجسمية في أي صورة ما شاء من الصور الروحية ركبها ، إن شاء في صورة خنزير ، أو كلب ، أو إنسان ، أو فرس ، على ما قدّره العزيز العليم ، فثمّ شخص الغالب عليه البلادة والبهيمية ، فروحه روح حمار وبه يدعى إذا ظهر حكم ذلك الروح ، ف
يقال : فلان حمار ، وكذلك كل صفة تدعى إلى كتابها ، فيقال : فلان كلب ، وفلان أسد ، وفلان إنسان ، وهو أكمل الصفات ، وأكمل الأرواح ، فقوله تعالى)الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)وتمت النشأة الظاهرة للبصر« فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ »من صور الأرواح فتنسب إليها كما ذكرنا ، وقرن التركيب بالمشيئة ، فالظاهر أنه لو اقتضى المزاج روحا معينا خاصا ما قال« فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ »وأي حرف نكرة ، مثل حرف ما ، فإنه حرف يقع على كل شيء ، فأبان لك أن المزاج لا يطلب صورة بعينها ، ولكن بعد حصولها تحتاج إلى هذا المزاج وترجع به ، فإنه بما فيه من القوى التي لا تدبره إلا بها ، فإنه بقواه لها كالآلات لصانع النجارة أو البناء مثلا إذا هيئت وأتقنت وفرغ منها ، تطلب بذاتها وحالها صانعا يعمل بها ما صنعت له ، وما تعيّن ، زيدا ، لا عمروا ولا خالدا ولا واحدا بعينه ، فإذا جاء من جاء من أهل الصنعة مكّنته الآلة من نفسها تمكينا ذاتيا ، لا تتصف بالاختيار فيه ، فجعل يعمل بها صنعته بصرف كلّ آلة لما هيئت له ، فمنها مكمّلة وهي المخلّقة يعني التامة الخلقة ، ومنها غير مكمّلة وهي غير المخلّقة ، فينقص العامل من العمل على قدر ما نقص من جودة الآلة ، وذلك ليعلم أنّ الكمال الذاتي لله سبحانه ، فأجمل خلق النفس الناطقة الذي هو بها إنسان في هذه الآية ، وبيّن لك الحق مرتبة جسدك بقوله(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (، وروحك بقوله« فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ »، لتنظر وتتفكر فتعتبر أن الله ما خلقك سدى ، وإن طال المدى .

[سورة الانفطار (82) : الآيات 9 إلى 10]

كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ (10)

ليس هؤلاء من حفظة الوجود ، وإنما هؤلاء هم المراقبون أفعال العباد.

ص 463

[سورة الانفطار (82) : آية 11]

كِراماً كاتِبِينَ (11)

[كن نعم الجليس للملك القرين الموكل بك :]

ورد في الحديث أن الملائكة - وهم المذكورون في هذه الآية - تقول : ذاك عبدك فلان يريد أن يعمل سيئة ، وهو أبصر به ، فيقول الحق لهم : ارقبوه ، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جرائي ، أي من أجلي ، فأعطتهم المرتبة والتولية أن يتكلموا بما تكلموا به ، فلهم كتابة الحسن من غير تعريف ، بما تقدم الله إليهم به في ذلك ، ويتكلمون في السيئة لما يعلمونه من فضل الله وتجاوزه ، ولولا ما تكلموا في ذلك ما عرفنا ما هو الأمر فيه عند الله ، فكلامهم عليهم السلام تعليم ورحمة ، وإن كان ظاهره ما يسبق إلى الأفهام القاصرة ، فكن نعم الجليس للملك القرين الموكل بك ، وأصغ إليه واحذر من الجليس الثاني الذي هو الشيطان ، ولا تنصر الشيطان على الملك بقبولك منه ما يأمرك به ، واخذله ، واستعن بقبولك من الملك ، وأكرم جلساءك من الملائكة الكرام الكاتبين الحافظين عليك ، فلا تمل عليهم إلا خيرا ، فإنك لا بد لك أن تقرأ ما أمليته عليهم ، فإن من علم أن عليه حافظا يكتب ما يعلمه من أفعاله ، حفظ ما يملي عليه ، قال تعالى :

[سورة الانفطار (82) : آية 12]

يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ (12)

الحفظة تعلم ما يفعل العبد ، ولكنها ما تكتب له عملا حتى يتلفظ به ، فإذا تلفظ كتبت ، فهم شهود إقرار ، وسبب ذلك عدم اطلاعهم على ما نواه العبد في ذلك الفعل ، ولهذا ملائكة العروج بالأعمال تصعد بعمل العبد وهي تستقله فيقبل منها ويكتب في عليين ، وتصعد بالعمل وهي تستكثره فيقال لها : اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، فإنه ما أراد به وجهي(وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ)فلو علمت الحفظة ما في نية العبد عند العمل ما ورد مثل هذا الخبر ، فالنية في الأعمال لا تكون من العبد إلا من الوجه الخاص ، ولهذا لا يعلمه من العامل إلا الله والعامل الذي نوى فيه ما نوى .

[سورة الانفطار (82) : آية 13]

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (13)

بما غمرهم به من إحسانه.

ص 464

[سورة الانفطار (82) : الآيات 14 إلى 19]

وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ (15) وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ (16)
وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (18)
يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)

(83) سورة المطفّفين مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

للقراء في مثل هذه السورة مذهب مستحسن فيمن يثبت البسملة من القراء ، وفيمن يتركها كقراءة حمزة ، وفيمن يخيّر فيها كقراءة ورش ، والبسملة إثباتها عنده أرجح ، فأثبتناها عند قراءتنا بحرف حمزة لما فيه من قبح الوصل بالقراءة ، وهو أن يقول(وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)« وَيْلٌ »فبسملوا هنا ، وأما مذهبنا فيه فهو أن يقف على آخر السورة ، ويقف على آخر البسملة ، ويبتدئ بالسورة من غير وصل .

[سورة المطففين (83) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4)
لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (6)

سمي يوم القيامة بالقيامة لقيام الناس فيه من قبورهم لرب العالمين في النشأة الآخرة ، ولقيامهم أيضا إذا جاء الحق للفصل والقضاء والملك صفا صفا ، قال الله تعالى« يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ »من قبورهم« لِرَبِّ الْعالَمِينَ »أي من أجل رب العالمين ، حين يأتي بالاسم الرب ، إذ كان الرب المالك ، فله صفة القهر وله صفة الرحمة ، ولم يأت بالاسم الرحمن لأنه لا بد

ص 465

من الغضب في ذلك اليوم ، غير أنه سبحانه أتى باسم إلهي تكون الرحمة فيه أغلب ، وهو الاسم الرب ، فإنه من الإصلاح والتربية ، فتقوى ما في المالك والسيد من فضل الرحمة على ما فيه من صفة القهر ، فتسبق رحمته غضبه ويكثر التجاوز عن سيئات أكثر الناس ،- إشارة - قيام الناس يوم عرفه يذكرهم قيامهم يوم القيامة لرب العالمين .

[سورة المطففين (83) : آية 7]
كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7)
كتاب أعمال الفجار لا تفتح له أبواب السماء ، ومحل وصولها فلك الأثير ، فتودع في سجين ، وفيه أصول السدرة التي هي شجرة الزقوم .

[سورة المطففين : (83) آية 8]
وَما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ (8)
سجين من السجن ، فهناك تنتهي أعمال الفجار في أسفل سافلين .

[سورة المطففين (83) : آية 9]
كِتابٌ مَرْقُومٌ (9)
الأعين لا تكون ناظرة إلا إلى موضع كتابها ، فمن كان كتابه في عليين فنظره في عليين ، ومن كان كتابه في سجين فعينه مصروفة إلى سجين ، فالكتاب يقيده بالخاصية .

[سورة المطففين (83) : آية 10]
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (10)
ثم وصف تعالى أهل الجحيم فقال :

[سورة المطففين (83) : الآيات 11 إلى 12]
الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَما يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12)
فوصفه بالإثم والاعتداء .

[سورة المطففين (83) : الآيات 13 إلى 14]
إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلاَّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (14)

ص 466

الران هو صدأ وطخاء ، وليس إلا ما تجلى في مرآة القلب من صور ما لم يدعه الله إلى رؤيتها ، وجلاؤها من ذلك بالذكر والتلاوة ، فمن كان على قلبه ران فإن الله قد حال بينه وبين الفهم عن الله تعالى وإن تأوله ، ولهذا يتخذ آيات الله هزوا ودينه لهوا ولعبا ، لعدم فهمه عن الله ما خاطب به عباده .

[سورة المطففين (83) : آية 15]
كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15)
قال تعالى ذلك في معرض الذم ، فأهل النار محجوبون عن ربهم ، والرب هو المربي والمصلح ، فالحق لا يتجلى لأهل الشقاء في اسم الرب المضاف إليهم ، لا في إطلاق الاسم ، فهم في الحجاب في زمان مختص من اسم مضاف خاص بهم ، فلا يمنع تجليه في هذا الاسم الخاص لهم في غير ذلك الزمان ، وفي اسم الرب المطلق وفي غيره من الأسماء ،
فقال تعالى« كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ »فأضافه إليهم ، وهي النسبة التي يرجونها منه لم يجدوها ، لأنهم طلبوها من غير جهة ما تكون فيه ،
فكانوا كمن يقصد الشرق بنيته وهو يمشي إلى المغرب بجسمه ، ويتخيل أن حركته إلى جهة قصده ، وهو قوله تعالى(وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)« يَوْمَئِذٍ »فجعله زمانا معينا« لَمَحْجُوبُونَ ».
- **الوجه الأول** - ليعرفوا ذوقا عذاب الحجاب فيزيد في عذابهم ، فإنهم لما استيقظوا من نوم غفلتهم ووصلوا إلى منزل وحطوا عن رحالهم ، طلبوا ما قصدوه ، فقيل لهم : من أول قدم فارقتموه ، فما ازددتم منه إلا بعدا ؛
فيقولون : يا ليتنا نرد ؛ ولا سبيل إلى ذلك ، فلهذا وصفوا بالحجاب عن ربهم الذي قصدوه بالتوجه على غير الطريق الذي شرع لهم ، وذلك قبل انقضاء أجل العذاب وعموم الرحمة الشاملة ، وأما بعد عموم الرحمة فلهم رؤية على قدر ما اتصفوا به في الدنيا من مكارم الأخلاق
- **الوجه الثاني** - لما كانت الرؤية لأهل الجنان ، جعل الحجاب في مقابلته لأهل النار ، وحجابهم مدة عذابهم حتى لا تزيدهم الرؤية عذابا ،
فإذا انقضت المدة بقي الحجاب دونهم مسدلا لينعموا ، فإنه لو تجلى لهم هنالك مع ما تقدم لهم من الإساءة واستحقاق العقوبة ، أورثهم ذلك التجلي الإحساني حياء من الله مما جرى منهم ، والحياء عذاب وقد انقضت مدته ، وهم لا يعلمون لذة الشهود والرؤية ، فلهم نعيم بالحجاب ، والغرض النعيم وقد حصل ولكن بمن ؟
فأين النعيم برؤية الله من النعيم بالحجاب ؟
فهم عن ربهم يومئذ محجوبون
ـ الوجه
ص 467

الثالث - في قوله تعالى« لَمَحْجُوبُونَ »عن علمهم بما يرونه ، فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول [إن أحدكم لا يرى ربه حتى يموت] فإذا ماتوا رأوا الحق غير أنهم محجوبون عن العلم به أنه هو ، مثل إذا كان في نفسك لقاء شخص لست تعرفه بعينه وأنت طالب له من اسمه وحاجتك إليه ، فلقيته وسلمت عليه من جملة من لقيت ، ولم يتعرف إليك ، فقد رأيته وما رأيته ، فلا تزال طالبا له وهو بحيث تراه ، فلا معول إلا على العلم ، فما هو محجوب ، هو مرئي للجميع لكنه لا يعلم ، فلأهل الجنة الرؤية متى شاءوا ، ولأهل النار في أحيان مخصوصة الرؤية ، فإن الله ما أرسل الحجاب عليهم مطلقا ، وإنما قال« يَوْمَئِذٍ »في قوله« كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » لما تعود عليهم وأغلظ في حال الغضب ، والربوبية لها الشفقة ، فإن المربى ضعيف يتعين اللطف به ،
فلذلك كان في حال الغضب عن ربه محجوبا ، فأورثه ذلك الحجاب أن جعله يصلى الجحيم ، لأنه قال بعد قوله »لَمَحْجُوبُونَ »الآية .

- **تحقيق** – " كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ "
مع قوله تعالى(وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ (فالكافر والمؤمن كلهم يرجعون إلى الله ، غير أنه ما كل من يرجع إليه يلقاه ، لذلك قال تعالى« كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ».

[سورة المطففين (83) : آية 16]
ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ (16)
فأتى بقوله« ثُمَّ »فما صلى الجحيم إلا بعد وقوع الحجاب ، ولذلك قيده بيومئذ ، فيدخلون من باب الجحيم أحد أبواب النار السبعة .

[سورة المطففين : (83) الآيات 17 إلى 18]
ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17) كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18)
في سدرة المنتهى حيث ترفع أعمال الأبرار ، ويدخل فيهم العصاة أهل الكبائر والصغائر .

[سورة المطففين (83) : الآيات 19 إلى 21]
وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ (19) كِتابٌ مَرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21)
إن المقرب من كانت سجيته *** سجية البر والأبرار تجهله

ص 468

[سورة المطففين (83) : آية 22]
إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (22)
بما غمرهم به من إحسانه .

[سورة المطففين (83) : الآيات 23 إلى 24]
عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24)
أي أن الله خلقهم على هذه الصفة ، فأنشأهم نشأة نعماء .

[سورة المطففين (83) : الآيات 25 إلى 26]
يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ (26)
أصحاب الهمم يتنافسون في السباق إلى أسماء الكرم والجود الإلهي ليقاموا بها فيدعون بها ، ولا يكون التنافس إلا في النفائس ، ولا نفائس إلا الأنفس ، ولا أنفس من الأنفس إلا الأنفاس ، فمن تقاعس عن التنافس فيما ينبغي أن يتنافس فيه ، فهو كسلان مهين لا همة له .

[سورة المطففين (83) : آية 27]
وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27)
فهو منزل لذة ونعيم ، يسقى فيه من عين مزاجها من تسنيم ، فهو نهر أعلى ، ينزل من العلى إلى عين أدنى ، فله علو المرتبة .

[سورة المطففين (83) : آية 28]
عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28)
وهم الأكابر من عباد الله الذين هم في زمانهم بمنزلة الأنبياء في زمان النبوة ، وهي النبوة العامة ، فهو مقام عند الله يناله البشر ، وهو مختص بالأكابر من البشر ، يعطى للنبي المشرع ويعطى للتابع لهذا النبي المشرع ، الجاري على سنته .

[سورة المطففين (83) : الآيات 29 إلى 34]
إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ (32) وَما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34)
الصورة بالصورة .

ص 469

[سورة المطففين (83) : الآيات 35 إلى 36]
عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (36)
فعمّ بالألف واللام ، ورد الفعل عليهم ، وهو قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ) فانتقلت صفات هؤلاء إلى هؤلاء ، وهؤلاء إلى هؤلاء ،
انتقل ذل الأولياء وتعبهم ونصبهم ومكابدتهم وكدهم في الدنيا في طاعة ربهم إلى الأشقياء من الجبابرة في النار ، وانتقل سرور الجبابرة وراحة أهل الثروة في الدنيا إلى أهل السعادة أهل الجنة في الآخرة .

(84) سورة الانشقاق مكيّة

[سورة الانشقاق (84 : (الآيات 1 إلى 3]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3)
أي زيد في سعتها ما شاء ، فإن الجبال ما كانت أرضا ثم صارت أرضا ، ففي يوم القيامة تصير الجبال دكا دكا لتجلي الحق ، فما كان منها في العلو في الجو إذا انبسط زاد في بسط الأرض ، ولهذا جاء في الخبر [إن الله يمد الأرض يوم القيامة مد الأديم]
فشبه مدها بمد الأديم ، وإذا مد الإنسان الأديم فإنه يطول من غير أن يزيد فيه شيء لم يكن في عينه ، وإنما كان فيه تقبض ونتوء ، فلما مد انبسط عن قبضه ،
وفرش ذلك النتوء الذي كان فيه ، فزاد في سعة الأرض ، ورفع المنخفض منها حتى بسطه ، فزاد فيها ما كان من طول سطحها إلى

ص 470

القاع منها ، كما يكون في الجلد سواء ، فلا ترى في الأرض عوجا ولا أمتا ، فيأخذ البصر جميع من في الموقف بلا حجاب من ارتفاع وانخفاض ، ليرى الخلق بعضهم بعضا ، فيشهدوا حكم الله بالفصل والقضاء في عباده .

[سورة الانشقاق (84) : الآيات 4 إلى 7]
وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ (5) يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ (7)
وهم أهل السعادة .

[سورة الانشقاق (84) : آية 8]
فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً (8)
[« فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً » الآية - السؤال عام في الجميع :]
القيامة الكبرى هي قيامة البعث والحشر الأعظم الذي يجمع الناس فيه ، والإنسان في القيامة الكبرى ما بين مسؤول ومحاسب ، ومناقش في حسابه وغير مناقش ،
وهو الحساب اليسير ، وهو عرض الأعمال على العبد من غير مناقشة ، والمناقشة السؤال عن العلل في الأعمال ، فالسؤال عام في الجميع حتى في الرسل ،
سألت عائشة أم المؤمنين عن قوله تعالى« فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً »
فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [ذلك العرض يا عائشة من نوقش الحساب عذب] .

[سورة الانشقاق (84) : الآيات 9 إلى 10]
وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ (10)
يوم القيامة تتطاير الكتب فتتميز المراتب ، فمن الناس من يأخذ كتابه بيمينه لقوة يقينه ، ومنهم الآخذ بشماله لإهماله ، ومنهم من يأخذه من وراء ظهره لجهله بأمره ، لأنهم حين أتاهم به الرسول نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا في الدنيا ، فبئس ما يشترون في الأخرى« وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ ».

- **الوجه الأول** - وليس أولئك إلا الأئمة الضلال المضلون ، الذين ضلوا وأضلوا ، باعوا العالي بالدون ، وابتاعوا الحقير بالعظيم ، فهم المغبونون ، فإذا كان يوم القيامة قيل له : خذ كتابك من وراء ظهرك ؛ أي الموضع

ص 471

لذي نبذته فيه في حياتك الدنيا ، فهو كتابهم المنزل عليهم لا كتاب الأعمال ، فإنه حين نبذه وراء ظهره ظن أنه لن يحور أي تيقن

- الوجه الثاني - هم المنافقون ، يعطى المنافق كتابه بشماله من وراء ظهره يضرب به في صدره فينفذ إلى ظهره .

[سورة الانشقاق (84) : الآيات 11 إلى 14]

فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً (11) وَيَصْلى سَعِيراً (12) إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14)

ظن أي تيقن ، قال الشاعر : فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج ؛ أي تيقنوا ، ورد في الصحيح يقول الله له يوم القيامة [أظننت أنك ملاقي]« يَحُورَ »حار يحور وهو الرجوع .

[سورة الانشقاق (84) : الآيات 15 إلى 19]

بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً (15) فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (19)

فما ثمّ إلا تغير أحوال ، في أفعال وأقوال .

[سورة الانشقاق (84) : الآيات 20 إلى 21]

فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (21)

« وَإِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ »الذي هو جامع صفات الله من التنزيه والتقديس« لا يَسْجُدُونَ »فهذه سجدة الجمع ، لأنه سجود عند القرآن ، فيسجد لمن له جميع صفات التنزيه ، وفي السجدة هنا خلاف ، وسجدها أبو هريرة خلف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

[سورة الانشقاق : (84) الآيات 22 إلى 24]

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (24)

[« فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ » الآية - البشرى اللغوية :]

كل خبر يؤثر وروده في بشرة الإنسان الظاهرة فهو خبر بشرى ، فالبشرى لا تختص بالسعداء في الظاهر وإن كانت مختصة بالخير ، والكلام على هذه البشرى لغة وعرفا ، فأما البشرى من طريق العرف فالمفهوم منها الخير ولا بد ، ولما كان هذا الشقي ينتظر البشرى

ص 472

في زعمه ، لكونه يتخيل أنه على الحق قيل : بشره ؛ لانتظاره البشرى ، ولكن كانت البشرى له بعذاب أليم ، وأما من طريق اللغة فهو أن يقال له ما يؤثر في بشرته ، فإنه إذا قيل له خير أثر في بشرته بسط وجه وضحكا وفرحا واهتزازا وطربا ،

وإذا قيل له شر أثر في بشرته قبضا وبكاء وحزنا وكمدا واغبرارا وتعبيسا ، فلهذا كانت البشرى تنطلق على الخير والشر لغة ، وأما في العرف فلا ، ومن عينته الرسل بالبشرى أنه شقي فقد تميز بالشقاء .

[سورة الانشقاق (84) : آية 25]

إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)

(85) سورة البروج مكيّة

[سورة البروج (85) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ (1)

خلق الله في جوف الكرسي جسما شفافا مستديرا قسمه اثني عشر قسما ، سمى الأقسام بروجا ، وهي التي أقسم بها لنا في كتابه فقال« وَالسَّماءِ »لعلوها علينا ، وهي الفلك الأدنى ، خلقه الله وقسّمه اثني عشر قسما سماها البروج ، فجعل كل قسم برجا« ذاتِ الْبُرُوجِ »وتسمى هذه السماء الفلك الأطلس ، قسّمه الحق على اثنى عشر مقدارا ، فعمت المقادير ،

وإنما كانت الفروض المقدرة في الفلك الأطلس اثني عشر فرضا لأن منتهى أسماء العدد إلى اثنى عشر اسما ، وهو من الواحد إلى العشرة ، إلى المائة وهو الحادي عشر ،

إلى الألف وهو الثاني عشر ، وليس وراءه مرتبة أخرى ، ويكون التركيب فيها بالتضعيف إلى ما لا نهاية له بهذه الأسماء الخاصة ، وجعل سبحانه البروج محلات لسكنى اثنى عشر ملكا ،

أنزلهم الله فيها فهي بروج لأرواح ملكية على طبائع مختلفة ، سمى كل برج باسم ذلك الملك الذي جعل ذلك المقدار برجا له يسكنه ، كالأبراج الدائرة بسور البلد ، وكمراتب الولاة في الملك ، وهي البروج المعلومة عند أهل التعاليم ، وجعل الله لكل وال ساكن في هذا البرج أحكاما معلومة عن دورات مخصوصة ، وأسماء هذه الملائكة التي تسمت بها البروج هي:

ص 473

الميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة ، وجعل الله لهؤلاء الملائكة مراتب في الفلك المحيط ، وجعل بيد كل ملك ما شاء أن يجعله مما يبرزه فيمن هو دونهم إلى الأرض حكمة ، ورفع الله الحجاب الذي بين هؤلاء الملائكة وبين اللوح المحفوظ ، فرأوا ما فيه مسطرا أسماءهم ومراتبهم وما شاء الحق أن يجريه على أيديهم في عالم الخلق إلى يوم القيامة ، وجعل الله لكل واحد من هؤلاء الملائكة حاجبين ينفذان أوامرهم ، فمجموعهم أربع وعشرون ملكا ، وجعل بين كل حاجبين سفيرا يمشي بينهما بما يلقي إليه كل واحد منهما ، وعيّن الله لهؤلاء الذين جعلهم الله حجّابا لهؤلاء الولاة في الفلك الثاني منازل يسكنونها ، وأنزلهم إليها وهي الثمانية والعشرون منزلة التي تسمى المنازل التي ذكرها الله في كتابه ، فقال(وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ)يعني في سيره ، وقد أوحى الله في سماء البروج أمرها ، فلكل برج فيها أمر يتميز به عن غيره من البروج ، وجعل لهذه البروج أثرا من أمر الله الموحى به فيها فيما دون هذه السماء ، من عالم التركيب والإنسان من حيث جسمه وطبيعته ، وذلك بأن جعل الله البروج ترجع إلى أربعة من الطبيعة ، ثم كرر كل واحد من الأربعة في ثلاثة مواضع منه ، وجعل هذه الأقسام كالمنازل والمناهل التي ينزل فيها المسافرون ويسير فيها السائرون في حال سيرهم وسفرهم ، لينزل في هذه الأقسام عند سير الكواكب فيها وسباحتهم ما يحدث الله في جوف هذا الفلك من الكواكب التي تقطع بسيرها في هذه البروج ، ليحدث الله عند قطعها وسيرها ما شاء أن يحدث من العالم الطبيعي والعنصري ، وجعلها علامات على أثر حركة فلك البروج ، فقسم من هذه الأربعة طبيعته الحرارة واليبوسة ، والثاني البرودة واليبوسة ، والثالث الحرارة والرطوبة ، والرابع البرودة والرطوبة ، وجعل الخامس والتاسع مثل الأول ، وجعل السادس والعاشر مثل الثاني ، وجعل السابع والحادي عشر مثل الثالث ، وجعل الثامن والثاني عشر مثل الرابع ، أعني في الطبيعة ، ولما خلق الله هذا الفلك الأول دار دورة غير معلومة الانتهاء إلا لله تعالى ، لأنه ليس فوقه شيء محدود من الأجرام يقطع فيه - فإنه أول الأجرام الشفافة - فتتعدد الحركات وتتميز ، ولا كان قد خلق الله في جوفه شيئا فتتميز الحركات وتنتهي عند من يكون في جوفه ، ولو كان لم تتميز أيضا لأنه أطلس لا كوكب فيه ، متشابه الأجزاء ، فلا يعرف مقدار الحركة الواحدة منه ولا تتعين ، فلو كان فيه جزء مخالف لسائر الأجزاء عدّ به حركاته بلا شك ،

ص 474

ولكن علم الله قدرها وانتهاءها وكرورها ، فحدث عن تلك الحركة اليوم ، ولم يكن ثمّ ليل ولا نهار في هذا اليوم ، ثم استمرت حركات هذا الفلك ، فخلق الله ما شاء من الأملاك والأفلاك والدار الدنيا والدار الآخرة ، وخلق الجان من النار والطير والدواب البرية والبحرية والحشرات ، ولما استوت المملكة وتهيأت ما عرف أحد من هذه المخلوقات كلها من أي جنس يكون الخليفة الذي مهّد الله هذه المملكة لوجوده .
واعلم أن هؤلاء الاثني عشر ملكا هم لأهل الجنة كالعناصر لأهل الدنيا ، جعل لكل نائب من هؤلاء الأملاك الاثني عشر في كل برج ملكه إياه ثلاثين خزانة ، تحتوي كل خزانة منها على علوم شتى ، يهبون منها لمن نزل بهم على قدر ما تعطيه رتبة هذا النازل ، وهذه الخزائن تسمى عند أهل التعاليم درجات الفلك ، والنازلون بها هم الجواري ، والمنازل وعيوقاتها من الثوابت ، والعلوم الحاصلة من هذه الخزائن الإلهية هي ما يظهر في عالم الأركان من التأثيرات ، بل ما يظهر من مقعر فلك الكواكب الثابتة إلى الأرض ، وسميت ثابتة لبطئها عن سرعة الجواري السبعة ، وجعل لهؤلاء الاثني عشر نظرا في الجنات وأهلها وما فيها مخلصا من غير حجاب ، فما يظهر في الجنان من حكم فهو عن تولي هؤلاء الاثني عشر بنفوسهم ، تشريفا لأهل الجنان ، وأما أهل الدنيا وأهل النار فما يباشرون ما لهم فيها من الحكم إلا بالنواب ، وهم النازلون عليهم ، فكل ما يظهر في الجنات من تكوين وأكل وشرب ونكاح وحركة وسكون وعلوم واستحالة ومأكول وشهوة ، فعلى أيدي هؤلاء النواب الاثني عشر من تلك الخزائن بإذن الله عزّ وجل الذي استخلفهم ، ولهذا كان بين ما يحصل عنهم بمباشرتهم وبين ما يحصل عنهم بغير مباشرتهم - بل بواسطة النازلين بهم الذين هم لهم في الدنيا والنار كالحجاب والنواب - بون عظيم وفرقان كبير ، فهؤلاء النواب الاثنا عشر هم الذين تولوا بناء الجنات كلها إلا جنة عدن ، فإن الله خلقها بيده ، وجعل بأيديهم غراس الجنات إلا شجرة طوبى ، فإن الحق تعالى غرسها بيده في جنة عدن ، وأما البروج فهي الفروض المؤقتة الاثنا عشر شهرا ، وبقطع الشمس الفروض تسمى الشهر ، وسمي قطع الفروض كلّها السنة الشمسية .

[سورة البروج (85) : الآيات 2 إلى 3]
وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3)
الحق تعالى لا يصح أن يقسم بما ليس هو ، لأن المقسوم به هو الذي ينبغي له العظمة ،

ص 475

فما أقسم بشيء ليس هو ، فهو تعالى الشاهد من كل كون ، وهو المشهود في كل عين ، فهو الشاهد والمشهود ، لأنه عين الوجود(كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ). ألا كل شيء ما خلا الله باطل .

[سورة البروج (85 : (آية 4]
قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ (4)
[قصة أصحاب الأخدود :]
صاحب الأخدود أعطي حروف الاسم الأعظم دون معناه ، فإنه تلقاه من الراهب كلمات وفي رواية من حديث ابن إسحاق قال : كان أهل نجران أهل شرك ، يعبدون الأوثان ، وكان في قرية من قراها قريبا من نجران ، فإن نجران هي القرية العظمى ، يأتي إليها - جماعة أهل تلك البلاد - ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزلها ميمون ، قالوا : رجل ابتنى خيمة بين نجران وبين ملك القرية التي بها الساحر ، فبعث الثامر ابنه عبد الله بن ثامر ، مع غلمان أهل نجران ، فكان إذ مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من صلاته وعبادته ، فجعل يجلس إليه ، ويسمع منه حتى أسلم ، فوحّد الله وعبده ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام ، حتى إذا فقه فيهم ، جعل يسأله عن الاسم الأعظم ، وكان يعلمه ، فكتمه إياه ، وقال له : يا ابن أخي ، إنك إن تحمله أخشى ضعفك عنه ، والثامر أبو عبد الله يظن أن ابنه يختلف إلى الساحر كما تختلف الغلمان ، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضنّ به عليه ، وتخوف ضعفه عنه ، عمد إلى قداح فجمعها ، ثم لم يبق لله اسما يعلمه إلا كتبه على قدح ، لكل اسم قدح ، حتى إذا أحصاها أوقد لها نارا ، فجعل يقذفها فيها قدحا قدحا ، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه ، فوثب القدح حتى خرج منها لم يضره شيء ، فأخذه ثم أتى صاحبه ، فأخبره أنه قد علم الاسم الذي كتمه ، فقال :
وما هو ؟ قال : هو كذا وكذا ، قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع ، قال : أي ابن أخي ، قد أصبته ، فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل ، فجعل عبد الله بن ثامر إذا دخل نجران لم يبق أحد به ضرر إلا قال له عبد الله : أتوحد الله ، وتدخل في ديني ، وأدعو الله فيعافيك مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم ، فيوحد الله ويسلم ، ويدعو له فيشفى ، حتى لم يبق بنجران أحد به ضرر إلّا أتاه ، فاتّبعه على أمره ودعا له فعوفي ، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال له : أفسدت عليّ أهل قريتي ، وخالفت ديني ودين

ص 476

آبائي ، لأمثلن بك . قال : لا تقدر على ذلك ، قال : فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل ، فيطرح على رأسه ، فيقع على الأرض ليس به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه نجران ، بحور لا يقع فيها شيء إلا هلك ، فيلقى فيها ، فيخرج ليس به بأس ، فلما غلبه ، قال له عبد الله ابن الثامر : إنك والله لا تقدر على قتلي حتى توحد الله ، فتؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت سلّطت عليّ فقتلتني .

قال : فوحد الله ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر ، ثم ضربه بعصا في يده فشجه شجة غير كبيرة ، فقتله ، وهلك الملك مكانه ، فاجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر ، وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام من الإنجيل وحكمه ،

فسار إليهم ذو نواس ذرعة بن شنار بجنوده ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيرهم بين ذلك والقتل ، فاختاروا القتل ، فخذلهم ، فحرق بالنار وقتل بالسيف ، ومثّل بهم حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفا ،

وفيه نزل قوله تعالى« قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ »والأخدود الحفر الطويل في الأرض كالخندق ، والجمع أخاديد .

[سورة البروج : (85) الآيات 5 إلى 10]

النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ (10)

العذاب عذاب نفوس روحاني وعذاب محسوس جسماني ، ولا يكون إلا لمن حاد عن الطريق المشروع في ظاهره وباطنه ، فإذا وفق للاستقامة وسبقت له العناية عصم من ذلك ، وتنعم بنار المجاهدة لجنة المشاهدة .

[سورة البروج (85) : آية 11]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11)

ص 477

إن الإيمان لا يكون إلا بالخبر لا بالعيان ، فليس المؤمن إلا من يؤمن بالغيب وهو الخبر الذي جاء من عند ربه ، فإن الخبر بما هو خبر يقبل الصدق والكذب .

[سورة البروج (85) : آية 12]
إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12)
ليس لله وعيد وبطش مطلق شديد ليس فيه شيء من الرحمة واللطف ، فبطش الله تعالى وإن كان شديدا فإنه للاتساع الإلهي في بطشه رحمة بالمبطوش به ، لأنه تعالى يبطش بمن خلق ، فالرحمة مندرجة في بطشه حيث كان ، وبطشه تعالى لسبق العلم ، يأخذ هذا المبطوش به للسبب الموجب لا غير ، والمنتقم لغيره ما هو كالمنتقم لنفسه .

[سورة البروج (85) : آية 13]
إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13)
فهو تعالى المبدئ ، ولا يزال حكم البدء في كل عين عين من أعيان الممكنات ، فلا يزال المبدئ دائما ، لأنه يحفظ الوجود علينا بما يوجده فينا لبقاء وجودنا مما لا يصح بقاء إلا به ، فهو تعالى في حق كل ما يوجده دائما مبدئ له ، والبدء والإعادة حكمان لله تعالى ، فإنه ما أعاد شيئا بعد ذهابه ، إلا أنه في إيجاده الأمثال عاد إلى الإيجاد ، فهو معيد لا أنه يعيد عين ما ذهب فإنه لا يكون ، لأنه أوسع من ذلك ، فهو المعيد للحال الذي كان يوصف به ، فما من موجود يوجده الحق إلا وقد فرغ من إيجاده ، ثم ينظر ذلك الموجود إلى الله تعالى قد عاد إلى إيجاد عين أخرى ، هكذا دائما أبدا ، فهو المبدئ المعيد ، المبدئ لكل شيء والمعيد لشأنه ، فهو يبدئ كل شيء خلقا ، ثم يعيده أي يرجع الحكم إليه بأن يخلق .

[سورة البروج (85) : آية 14]
وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14)
الودود أي الثابت المحبة ، فلم يزل يحبنا فلم يزل ودودا ، وكيف لا يحب الصانع صنعته ؟ ونحن مصنوعاته بلا شك ، فإنه خالقنا وخالق أرزاقنا ومصالحنا ، فهو يوجد دائما في حقنا ، فهو كل يوم في شأن ، ولا معنى للوداد إلا هذا ، فهو تعالى الثابت المحبة في غيبه ، فإنه عزّ وجل يرانا فيرى محبوبه فله الابتهاج به ، والعالم كله إنسان واحد هو المحبوب ، وأشخاص

ص 478

العالم أعضاء ذلك الإنسان ، وما وصف المحبوب بمحبة محبه ، وإنما جعله محبوبا لا غير ، وأتى مع الاسم الودود الغفور لأجل الستر ، فإن الأمر مستور بين الحق والخلق بالخلق والحق ، ومن هذه الحقيقة لولا عابد الوثن ما اعتقد فيه الألوهة بوجه ما عبده ،
إلا أنه بالستر المسدل في قوله تعالى « وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ » لم يعرفه ، وليس إلا الأسماء ، فعبد المخلوق هنا ما عبده ، وما عبد إلا الله .

[سورة البروج (85) : آية 15]
ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15)
بخفض الدال على قراءة حمزة والكسائي ، وصف العرش بأنه مجيد لأنه تنزه أن يحيط به غير من الأجسام ، فكان له الشرف ، وهو العرش الذي استوى عليه بالاسم الرحمن ، فإنه ما رحم إلا صبابة المحب ، وهو رقة الشوق إلى لقاء المحبوب ، ولا يلقاه إلا بصفته ، وصفته الوجود ، فأعطاه الوجود ، ولو كان عنده أكمل من ذلك ما بخل به عليه ، ولو كان وادخره لكان بخلا ينافي الجود ، وعجزا يناقض القدرة .

[سورة البروج (85) : آية 16]
فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (16)
فهو الودود المحب ، وهو فعال لما يريد فهو المحبوب ، لأن المحبوب فعال لما يريد بمحبه ، والمحب سامع مطيع مهيأ لما يريد به محبوبه ، لأنه المحب الودود أي الثابت على لوازم المحبة وشروطها ، فالودود هنا هو الفعال لما يريد ، فهو المحب المحبوب
[تحقيق : « فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ » الآية]
-تحقيق - ولما كانت إرادة الحق مجهولة التعلق لا يعرف مرادها إلا بتعريف إلهي ، فإذا أكده بالقسم والإيلاء كان أرفع للحرج في نفس المقسوم له ، لذلك نفّس الله عن المقسوم له ما كان يجده من الحرج والضيق الذي يعطيه في الموجودات قوله« فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ »بالأقسام الإلهية الواردة في القرآن والسنة ،
فإنه تعالى لو رحم العالم كله لكان ، ولو عذب العالم كله لكان ، ولو رحم بعضه وعذب بعضه لكان ، ولو عذبه إلى أجل مسمى لكان ، فإن الواجب الوجود لا يمتنع عنه ما هو ممكن لنفسه ، ولا مكره له على ما ينفذه في خلقه ، بل هو الفعال لما يريد ،
فهو المطلق في أفعاله وأنت المقيد ، وهو تعالى فعّال لما يريد ، وما يريد إلا ما هو عليه العلم ، والعلم تابع للمعلوم ، ولا يظهر في الوجود إلا ما هو المعلوم عليه ، فلله الحجة البالغة ، فما وقع

ص 479

ما وقع إلا بعلم الله ، وما علم الله إلا ما كان عليه المعلوم ، وهذا هو عين سر القدر لمن فهمه ، وكم منع الناس من كشفه لما يطرأ على النفوس الضعيفة الإيمان من ذلك ، فليس سر القدر الذي يخفى عن العالم عينه إلا اتباع العلم للمعلوم ، فلا شيء أبين منه ، ولا أقرب مع هذا البعد.

[سورة البروج (85) : الآيات 17 إلى 20]
هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ (20)

[« وَاللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ » الآية - الحفظ الإلهي :]
جعل الله الإحاطة هنا بالوراء للحفظ الإلهي ، وذلك لما جعل للإنسان عينين وجعلهما في وجهه الذي هو الأمام منه والجنبات ، وجعلهما لحفظ الإنسان من الأمام والجنبات ، ولم يكن للوراء سبب يقع به الحفظ لهذا المذكور ، فحفظه الله بذاته ولم يجعل له سببا يحفظه به سواه ، فالإنسان من أمامه محفوظ بنفسه ، ومن خلفه محفوظ بربه ،
ولو لم يكن الحق من ورائهم محيط لأخذ الإنسان من ورائه ، فأمن مما يحذره ، واعتمد على حفظه بما شاهده من أمامه ، فحصل له الأمان من أمامه غيبا وشهادة ، وحصل له الأمان من ورائه إيمانا ،
فالله من ورائنا محيط لأنه الوجود ، فلو لم يكن من ورائنا لكان انتهاؤنا إلى العدم ،
ولو وقعنا في العدم ما ظهر لنا عين ، فمن المحال وقوعنا في العدم لأنّ الله وهو الوجود المحض من ورائنا محيط بنا ، إليه ننتهي فيحول وجوده وإحاطته بيننا وبين العدم ،
فلا يزال العدم سابحا في فلك الوجود دائما إلى غير نهاية ، إذ لا نهاية هناك ، فليس وراء الله مرمى لرام ، ووراء العالم الله فهو المنتهى وما له انتهاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

[سورة البروج (85) : آية 21]
بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21)
أضرب بأداة« بَلْ »« هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ »أي جمع شريف ، فالقرآن أحق بالتعظيم من السلطان ، لأنه الكلام المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

[سورة البروج (85) : آية 22]
فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ(22)

ص 480

[اللوح المحفوظ:]
من التبديل والتغيير ، فإما يدل على توحيد ، وإما صفة توحيد ، وإما صفة فعل ، وإمّا ما يعطي الاشتراك ، وإما تشبيه ، وإما حكم ، وإما قصص ، وإما موعظة بترغيب أو ترهيب ، أو دلالة على مدلول عليه ، فهو محصور بين محكم ومتشابه ، وسمى اللوح بالمحفوظ لما حفظ الله عليه ما كتب فيه ، فلم ينله محو بعد ذلك ولا تبديل ، فكل شيء فيه ، وهو أي اللوح المحفوظ المسمى في القرآن بكل شيء ، تسمية إلهية ، ومنه كتب الله كتبه وصحفه المنزلة على رسله وأنبيائه ،
مثل قوله تعالى (وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) أي من اللوح المحفوظ ، فهو موضع تنزيل الكتب ، وهو أول كتاب سطر فيه الكون ، أمر الله تعالى القلم أن يجري على هذا اللوح بما قدره وقضاه ، مما كان من إيجاده ، ما فوق اللوح إلى أول موجود ، وإيجاد الأرواح المهيمة في جلال الله تعالى وجماله ،
ومما يكون إلى أن يقال (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) ويذبح الموت ، ويقوم منادي الحق على قدم الصدق ،
فيقول [يا أهل الجنة خلود فلا خروج من النعيم الدائم الجديد ، ويا أهل النار خلود فلا خروج من العذاب المقيم الجديد] إلى هنا حد الرقم بما بينهما ، وما بعد هذا فله حكم آخر ،
فهذا اللوح محل الإلقاء العقلي ، هو للعقل بمنزلة حواء لآدم ، وليس فوق القلم موجود محدث يأخذ منه يعبر عنه بالدواة وهي النون ،
وإنما نونه التي هي الدواة عبارة عما يحمله في ذاته من العلوم بطريق الإجمال من غير تفصيل ، فلا يظهر لها تفصيل إلا في اللوح الذي هو اللوح المحفوظ ، فالقلم محل التجميل واللوح محل التفصيل ، وهذا الملك الكريم الذي هو اللوح المحفوظ هو أيضا قلم لما دونه ، وهكذا كل فاعل ومنفعل لوح وقلم ، وجعل الله أمر التركيب وعالم الأجسام والإنشاءات كلها بيد هذا الملك الكريم ، كما جعل القلم الأعلى واهب الأرواح فيها ، ويسمى اللوح المحفوظ النفس الناطقة الكلية الثابتة عند أهل الإشارات ، لأن النفس الناطقة وجدت من نفس الرحمن ، فنفّس الله بها عن العقل إذ جعلها محلا لقبول ما يلقي إليها ،
ولوحا لما يسطره فيها ، وهو محفوظ عن المحو والتبديل والتحريف ، لأن كتابته نقش فلا تقبل المحو ، ومما كتب فيه وأثبت علم التبديل ، أي علم ما يبدل ويحرّف في عالم التغيير والإحالة ، والذي كتبه القلم الأعلى لا يتبدل ،
فلا يمحى ما كتب في هذا اللوح ، فالقلم الأعلى يثبت في اللوح المحفوظ كل شيء يجري من أقلام المحو والإثبات ، ففي اللوح المحفوظ إثبات المحو في الألواح ، وإثبات الإثبات ، ومحو الإثبات عند وقوع الحكم وإنشاء أمر آخر ، فهو لوح

ص 481

مقدس عن المحو ، فهو الذي يمده القلم الأعلى باختلاف الأمور ، وعواقبها مفصلة مسطرة بتقدير العزيز العليم .

(86) سورة الطارق مكيّة

[سورة الطارق (86) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ (1) وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ (4)

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ (5)

المخاطب هنا هم البنون .

[سورة الطارق (86) : آية 6]

خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ (6)

[لما ذا يعتز الإنسان ويعلو ويتكبر وهو مخلوق من ماء مهين ؟ !]

وهو الماء المهين ، فلما ذا يعتز ويعلو ويتكبر ؟ فلينظر مم خلق ، فإذا نظر الإنسان في هذا الأصل زكت نفسه وتطهرت من الدعوى .

[سورة الطارق (86) : الآيات 7 إلى 9]

يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ (7) إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ (9)

فإن الشرع ينظر إلى ظاهر الإنسان ويراعيه في الدار الدنيا - دار التكليف - أكثر من باطنه ، وفي الآخرة بالعكس ، هنالك تبلى السرائر ، هل عملوا لخطاب الحق أو عملوا لغير ذلك .

[سورة الطارق (86) : آية 10]

فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا ناصِرٍ (10)

ثم أقسم تعالى بالجمع فقال:

ص 482

[سورة الطارق (86) : الآيات 11 إلى 14]
وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَما هُوَ بِالْهَزْلِ (14)
فليس جهول بالأمور كمن درى ، فألق سمعك واحضر بكلك ، عسى أن تكون من أهل التحصيل فتكون من المفلحين .

[سورة الطارق (86) : آية 15]
إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (15)
الكيد من كاد يكيد ، أي كاد يقارب الحق ، فقال تعالى« إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً »أي يقاربون الحق فيما يظهر لكم ، وكاد من أفعال المقاربة ،
تقول العرب : كاد العروس يكون أميرا ؛ أي قارب أن يكون أميرا ، وكاد أن يكون حقا لظهوره بصفة حق ، فقال تعالى :

[سورة الطارق (86) : الآيات 16 إلى 17]
وَأَكِيدُ كَيْداً (16) فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (17)

(87) سورة الاعلى مكيّة
[سورة الأعلى (87) : آية 1]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1)
لأن صفة العلو للّه تعالى فإنه رفيع الدرجات لذاته ، فإنه تعالى قال)وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ)فقال تنزيها للاشتراك بالمعية« سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى »
[« سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » الآية :]
عن هذا الاشتراك المعنوي .
-الوجه الأول - ولما نزل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم« سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى »قال [اجعلوها في سجودكم] فاقترن بأمر الله بقوله« سَبِّحِ »أمر رسول اللّه صلّى الله عليه وسلّم لنا بمكانها ، يقول : نزهوا الله في علوه عن السجود ، فعمنا القرآن في أحوالنا في الصلاة ، من قيام وركوع وسجود ،

ص 483

فإنه لا يصح لنا أن نناجي الله في الصلاة بغير كلامه ، لأنه لا يليق ، وكذا ورد في الخبر أن الصلاة لا يصح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح ؛ ثم يقول الساجد بعد التسبيح [اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين ، اللهم اجعل في قلبي نورا ، وفي سمعي نورا ، وفي بصري نورا ، وعن يميني نورا ، وعن شمالي نورا وأمامي نورا وخلفي نورا ، وفوقي نورا وتحتي نورا ، واجعل لي نورا ، واجعلني نورا]
- الوجه الثاني -« سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى »التسبيح ثناء عن التقييد ، فله سبحانه الإطلاق فلا تقيده صفة دون صفة .

إن الثناء على الأسماء أجمعها *** بها وليس سواها يعرفون ولا
أليس هذا صحيحا قد أتاك به *** في محكم الذكر قرآنا عليك تلا
في أخذه الذر ثم الحق أشهدنا *** ألست ربكمو كان الجواب بلى
ولم يخص بهذا الحكم امرأة *** عند الشهود ولا أيضا به رجلا

[سورة الأعلى (87) : آية 2]
الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2)
-الوجه الأول - ما من صورة محسوسة أو خيالية أو معنوية إلا ولها تسوية من جانب الحق كما يليق بها وبمقامها وحالها ، وذلك قبل التركيب أعني اجتماعها بالمحمول وهو الروح المنفوخ فيها ، فإذا سواها الرب بما شاء من قول أو يد أو يدين أو أيد - وما ثمّ سوى هذه الأربعة - وتهيأ بالاستعداد للتركيب ، توجه عليه نفس الرحمن فنفخ فيه من روحه - الوجه الثاني -« الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى »قد يعني به خلق الإنسان ، لأن التسوية والتعديل لا يكونان معا إلا للإنسان ، لأنه سواه على صورة العالم وعدله عليه ، ولم يكن ذلك لغيره من المخلوقين من العناصر .

[سورة الأعلى (87) : الآيات 3 إلى 11]
وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى (4) فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى (5) سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى (6) إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَما يَخْفى (7)
وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى (8) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى(11)

ص 484

الأشقى أشقى ما دام يصلي النار الكبرى ، كما قال تعالى :

[سورة الأعلى (87) : الآيات 12 إلى 13]
الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى (12) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى (13)

[« ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى » الآية :]
فجاء بثم بعد حكم كونه يصلى النار ، فبين كونه يصلى وبين كونه لا يموت ولا يحيى ، قدر ما تعطيه حقيقة ثم في اللسان التي للعطف ، فينتقل الحكم عليه بذبح الموت ، فأهل النار بعد انقضاء فترة العذاب لا يموتون فيها ولا يحيون ، كما يقال في النائم ما هو بميت ولا حي ، فراحة أهل النار بذبح الموت راحة النائم ، فلا يموت ولا يحيى ، أي لا تزول هذه الراحة له مستصحبة ، فنعيمهم نعيم النائم في النار ، فلا يستيقظ أبدا من نومته ، فتلك الرحمة التي يرحم الله بها أهل النار الذين هم أهلها وأمثالها ، كالمحرور يتنعم بالزمهرير ، والمقرور منهم يجعل في الحرور ، فهم في نعيم النار دائمون مؤبدون ، كنعيم النائم بالرؤيا التي يراها في حال نومه من السرور ، وربما يكون في فراشه مريضا ذا بؤس وفقر ، ويرى نفسه في المنام ذا سلطان ونعمة وملك ، فإن نظرت إلى النائم من حيث ما يراه في منامه ويلتذ به قلت :
إنه في نعيم وصدقت ، وإن نظرت إليه من حيث ما تراه في فراشه الخشن ومرضه وبؤسه وفقره وكلومه ، قلت : إنه في عذاب ، وذلك كلّه بعد قوله(لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)ذلك زمان عذابهم وأخذهم بجرائمهم قبل أن تلحقهم الرحمة .

[سورة الأعلى (87) : الآيات 14 إلى 15]
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15)

أثنى الله تعالى على الذاكر ، وهو الذي كان له علم بأمر ما ثم نسيه ، لما جبل عليه الإنسان من النسيان ، ولما توهم بعض الناس بما أضاف الله إليهم من الأعمال والأموال والتمليك أن لهم حظا في الربوبية ، وأنها من نعوته وله قدم فيها ، اعتنى الله بمن اعتنى به فقال« وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى »أي تأخر إلى مقام عبوديته ، وأفرد الربوبية لله تعالى ، فأفلح من جميع

ص 485

وجوهه ، وليست هذه الصفة مشاهدة لغير الذاكر ، فالذاكر عبد مخلص لله تعالى ، فإن العبد قد حيل بينه وبين شهود ذلك بما جعل الله فيه من النسيان والسهو والغفلة ، فيتخيل أن له قدما في السيادة ، ألا ترى ما قال في الذي اتصف بنقيض هذه الحال ، لما جاءه ذكر ربه وهو القرآن يذكره بنفسه وبربه)فَلا صَدَّقَ)من أتى به أنه من عند ربه(وَلا صَلَّى)ولا تأخر عن دعواه وتكبره وقد سمع قول الله الحق

[نصيحة : ليجتهد العبد أن يكون عند الموت عبدا محضا]

-**نصيحة** - إذا كان عزيزا أن ينزه العبد نفسه أن يكون ربا أو سيدا من وجه ما ، أو من كل وجه ، فإن الإنسان يغفل ويسهو وينسى ويقول : أنا ؛ ويرى لنفسه مرتبة سيادة في وقت غفلته على غيره من العباد ، فإذ ولا بد من هذا فليجتهد أن يكون عند الموت عبدا محضا ليس فيه شيء من السيادة على أحد من المخلوقين ، ويرى نفسه فقيرة إلى كل شيء من العالم ، من حيث أنه عين الحق من خلف حجاب الاسم .

[سورة الأعلى (87) : الآيات 16 إلى 17]

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى (17)

فتتعلق بها الهمة ، فإن الماضي والحال قد حصلا ، والمستقبل آت فلا بد منه ، فتعلق الهمة به أولى ، فإنه إذا ورد عن همة متعلّقة به كان لها لا عليها ، لحسن الظن بالآتي ، وهذه فائدة من حافظ عليها حاز كل نعيم .

[سورة الأعلى : (87) الآيات 18 إلى 19]

إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى (18) صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى(19)

(88) سورة الغاشية مكيّة

[سورة الغاشية (88) : الآيات 1 إلى 17]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ (2) عامِلَةٌ ناصِبَةٌ (3) تَصْلى ناراً حامِيَةً (4) تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6)

ص 486

لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (8) لِسَعْيِها راضِيَةٌ (9)
فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (10) لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً (11) فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ (12)
فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ (14)
وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)
أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17)

اعلم أن حرمة الله ذاتية فهو يقتضي التعظيم لذاته ، بخلاف الأسباب المعظمة ، فإن الناظر في الدليل ما هو الدليل له مطلوب لذاته ، فينتقل عنه ويفارقه إلى مدلوله ، فلهذا العالم دليل على الله ، لأنا نعبر منه إليه تعالى ، لذلك قال تعالى« أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى »
[« أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » الآية :]
كذا يعدد المخلوقات لتتخذ أدلة عليه لا ليوقف معها ، والنظر إلى الكيفيات المراد به بالضرورة المكيفات لا التكييف ، فإن التكييف راجع إلى حالة معقولة ، لها نسبة إلى المكيّف وهو الله تعالى ، وما أحد شاهد تعلق القدرة الإلهية بالأشياء عند إيجادها ، فالكيفيات المذكورة التي أمرنا بالنظر إليها لا فيها إنما ذلك لنتخذها عبرة ودلالة على أن لها من كيّفها ، أي صيرها ذات كيفيات ، وهي الهيئات التي تكون عليها المخلوقات المكيفات ، فقال« أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ »يعني السحاب الكائن من الأبخرة هنا الصاعدة للحرارة التي فيها« كَيْفَ خُلِقَتْ ».

[سورة الغاشية (88) : الآيات 18 إلى 20]
وَإِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)
وغيرها لا يصح أن تنظر حتى تكون موجودة فننظر إليها وكيف اختلفت هيئاتها ، ولو أراد بالكيفية حالة الإيجاد لم يقل : انظر إليها ، فإنها ليست بموجودة ، فعلمنا أن الكيف المطلوب منا في رؤية الأشياء ما هو ما يتوهم من لا علم له بذلك ، ألا تراه سبحانه لما أراد النظر الذي هو الفكر قرنه بحرف (في) ولم يصحبه لفظ كيف.

ص 487

[سورة الغاشية (88) : آية 21]
فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21)
أي إنما أنت مبلغ عن الله لا غير ، كما قال له(يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ)وقوله(وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ)وقوله« إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ »والمذكر لا يكون إلا لمن كان على حالة منسية ، ولو لم يكن كذلك لكان معلما لا مذكرا ، فدل أنه لا يذكرهم إلا بحال إقرارهم بربوبيته تعالى عليهم حين قبض الذرية من ظهر آدم في الميثاق الأول .

[سورة الغاشية (88) : آية 22]
لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22)
عليك أيها المذكر بأن تبلغ ما تحقق في علمك ، ما عليك أن تهديهم ، فلما ذا تقتل نفسك إذا لم تر القبول فيما تقول من السامعين ؟ أمالك في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أسوة(لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ)« إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ »
(لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ).

[سورة الغاشية (88) : الآيات 23 إلى 26]
إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (26)

(89) سورة الفجر مكيّة

[سورة الفجر (89) : آية 1]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَالْفَجْرِ (1)
بطلوع الفجر يكون رجوع الحق إلى عرشه من السماء الدنيا التي نزل إليها ، وفيه
[إشارة : الرفيق الأعلى]
-إشارة - فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لما خيّر عند الموت ما قال ، ولا سمع منه إلا الرفيق

ص 488

الأعلى ، فإنه تعالى كان مرافقه في الدنيا ، وعلم منه أنه يريد بطلوع الفجر الرجوع إلى عرشه من السماء الدنيا التي نزل إليها في ليل نشأته الطبيعية ، فلم يرد صلّى الله عليه وسلّم مفارقة رفيقه ، فانتقل لانتقاله ورحل لرحلته ، ولذلك قال صلّى الله عليه وسلّم
[الرفيق] .

[سورة الفجر : (89) آية 2]
وَلَيالٍ عَشْرٍ (2)
عشر الحج أيام ترك زينة ، ولهذا شرع للمحرم ترك الزينة ، وشرع لمن أراد أن يضحي إذا أهل هلال ذي الحجة أن لا يقص ظفرا ولا يأخذ من شعره .

[سورة الفجر : (89)آية 3]
وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3)
[« وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ » الآية :]
لا بد من رب وعبد ، فقد ثبت الجمع وتعين الشفع ، فالشفعية حقيقة العبد ، إذ العبادة تناقض التوحيد ، فإنها تطلب عابدا ومعبودا ، والعابد لا يكون المعبود ، فإن الشيء لا يذل لنفسه ، والوترية لا تنبغي إلا لله من حيث ذاته ، وتوحيد مرتبته أي مرتبة الإله لا تنبغي إلا لله من غير مشاركة ، فأبرز العالم في الشفعية لينفرد سبحانه بالوترية ، فيصح الاسم الواحد الفرد ، ويتميز السيد من العبد ، والعبودية عبوديتان : عبودية اضطرار ويظهر ذلك في أداء الفرائض ، وعبودية اختيار ويظهر ذلك في النوافل ،
وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [إن الله وتر يحب الوتر]
وأوتر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بواحدة وبثلاث وبالخمس وبالسبع وبالتسع وبإحدى عشرة ، وكل فرد وتر بالغا ما بلغ ، وكل مشفع وترا أحد ، وكل موتر شفعا وتر وفرد وأحد ، ويسمى وترا لأنه طالب ثأر من الأحد الذي شفع فرديته ، فإن الحكم للأحد في شفع الفرد ، ليس للفرد ولا للوتر ، فلما انفرد به الأحد طلب الفرد ثأره من الأحد بالوتر ،
فإن الوتر في اللسان العربي بلحنهم هو الذّحل ، وهو طلب الثأر ، وهو قوله صلّى الله عليه وسلّم في الذي تفوته صلاة العصر في الجماعة [كأنما وتر أهله وماله]
كأن صلاة الجماعة في العصر طلبت ثأرها من المصلي فذا مع تمكنه من الجماعة ، وإذا أوتر بواحدة سميت البتيرا ،
لأن من شأن الوتر على حكم الأصل أن يتقدمه الشفع ، فإذا أوتر بواحدة لم يتقدمها شفع فكانت البتيرا على التصغير ، والأبتر هو الذي لا عقب له ،
وهذه البتيرا ما هي بتيرا لكونها لا عقب لها ، وإنما هي بتيرا لكونها ليست بمنتجة ولا نتجت ، فإذا تقدمها الشفع لم تكن

ص 489

بتيرا لأنها ما ظهرت إلا عن شفع ، ولهذا كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يسلم من شفعه إلا في وتر ذلك الشفع ، فيصله بالشفع ليعلم أنه منه ،
هذا كله ليتميز من الأحد فإن الأحد لا يدخله اشتراك ولا يكون نتيجة عن شفع أصلا ،
وإن كان عن شفع فليس بواحد ، وإنما هو ثلاثة أو خمسة فما فوق ذلك ، وتقول في سادس الخمسة أنه واحد لأنه ليس بسادس ستة ، فقد تميز عن الشفع بما هو منفصل ، وليس إلا الأحد ،
بخلاف الفرد والوتر ، فإنه لما كانت الثلاثة أول الأفراد من العدد إلى ما لا يتناهى ، والشفعية المعبر عنها بالاثنين أول لأزواج إلى ما لا يتناهى في العدد ،
فما من شفع إلا ويوتره واحد ، يكون بذلك فردية ذلك الشفع ، وما من فرد إلا ويشفعه واحد ، يكون به شفعية ذلك الفرد ، فالأمر الذي يشفع الفرد ويفرد الشفع هو الغني الذي له الحكم ولا يحكم عليه ، ولا يفتقر ويفتقر إليه ،
فأحدية الحق اتصفت بالوتر لطلب الثأر من الأحدية للواحد الذي أظهر الاثنين بوجوده ، فما زاد إلى ما لا يتناهى ، فلما أزال بهذا الظهور حكم الأحدية ،
فصارت أحدية الحق تطلب ثأر الأحدية المزالة التي أذهب عينها هذا الواحد ، الذي بوجوده ظهرت الكثرة ، وتطلب الوحدانية ، فتسمى بالوتر لهذا الطلب ،
ولكن لما كانت الأحدية لم تذهب ، بل الذي أعطاه الواحد هو ما يقتضيه حقيقة ذاته ، وهي أحدية الاثنين وأحدية الثلاثة والأربعة ، بالغا ما بلغ العدد ،
وذلك لتستدل أعيان الأعداد بأحديتها تلك على أحدية الحق ، فما سعى الواحد إلا في حق الأحدية ومن أجلها ، فإن الأعداد ما ظهرت في الكون إلا من حكم الأسماء الإلهية ، فإنها كثرة ، ومع كثرتها فالأحدية لها متحققة ،
فأراد الواحد أن لا يجهل أعيان الأعداد أحدية الأسماء ، حتى لا تتوهم الكثرة في جناب الله ، فأعطى في كل عدد أحدية ذلك العدد ، غيرة من وجود الكثرة المذهبة لعين الأحدية والوحدة ، فقبل الاسم الوتر عذر الاسم الواحد ،
وعلم أنه متخلق في ذلك بأخلاق أحدية الحق في إقامة أحدية الأسماء الكثيرة ، ومشى عليه اسم الوتر للغيرة ، فإن الله يحب الوتر ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، فإنّ الله وتر يحبّ الوتر] فأوتر التسعة والتسعين واستثنى الواحد من المائة ،
ولم يقل : مائة إلا وترا أو فردا ، لأن الاشتراك في الفردية والوترية ، وليس في الأحدية اشتراك ، فقوة الأحد ليست لسواه ، وأحدية الكثرة أبدا إنما هي فرد أو وتر ، لا يصح أن تكون واحدا ، وسواء كانت الكثرة

ص 490

شفعا أو وترا ، وإنما أحب الله الوتر لأنه طلب الثأر ، والحقّ سبحانه قد نوزع في أحديته بالألوهية ، فلمّا نوزع في ألوهيته جاء بالوتر ، أي بطالب الثأر ، ليفني المنازع ويفرد الحق بالأحدية ، أحدية الذات ، لا أحدية الكثرة التي هي أحدية الأسماء ، فإن أحدية الأسماء شفع الواحد ، لأن الله كان من حيث ذاته ولا شيء معه ، فما شفع أحديته إلا أحدية الخلق ، فظهر الشفع

- لطيفة - غارت الأحدية إذ سمعت الوترية تصحب العبادة

وذلك بصلاة المغرب ، فشرعت وتر صلاة الليل لتشفع وتر صلاة النهار ، فتأخذ بوتر الليل ثأرها من وتر صلاة النهار .

[سورة الفجر (89) : آية 4]

وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ (4)

[إشارة : تنبيه على سير الواحد في المراتب :]

إشارة : لما كان للوتر حظ كثير في المبدأ « 1 » لكن ليس هو كالواحد ، فإن الواحد هو أصله ، لهذا قرن معه الشفع دون غيره

فقال عز من قال« وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ »فأقسم بهما ، ولم يكن له ذلك السريان ، فجاءت الفهوانية بالوحدانية من جهة غيبها لا من جهة عينها ، من أجل الوتر أن يقوم بالشفعية ، فتعارض الوحدانية في السريان ،

وليس له ذلك فقال« وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ »فهو تنبيه على سير الواحد في المراتب لإظهار الأعداد ، وكنى عنه بالليل لطموس عين الوحدانية في الأعداد من جهة الظاهر ، إلا من كل مبدأ ، فإنها تظهر بذاتها ، فإنك لا تقول بعد الواحد واحد أبدا ،

وإنما تقول اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، كذلك إلى عشرة ، وأشبهت بسائط العدد التي هي اثنى عشر ، لفظة الواحد من كونها تظهر في المراتب ، ظهور الواحد فيها ، فهي نائبة عنه من حيث الاسم لا من حيث المعنى ،

وهي واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثمانية تسعة ، عشرة ، مائة ، ألف ، وما ثم أكثر ، فإن الحكم إنما هو للاثني عشر الذي قد ربط الله الوجود بها ، فالواحد سار في جميع الأشياء كما ذكرنا ، فصار لا يظهر في الأعداد إلا هذه الاثنا عشر ، فنقول واحد وعشرون ، اثنان وثلاثون ، ثلاثة وأربعون ، أربعة آلاف ، خمسة عشر ألفا ، مائة ألف.

---

(1)الإيجاد عن الفردية.

ص 491

[سورة الفجر (89) : الآيات 5 إلى 14]
هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5) أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ (6) إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (11 (فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ (14)
يعني على الجسور المضروبة على الصراط على جهنم ، وهي أدق من الشعر وأحد من السيف ، وهناك ملائكة يرصدون الخلق عليها ، ليسأل الحق العبد
- راجع البقرة آية - 210 - .

[سورة الفجر (89) : آية 15]
فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15)
وهو الحيوان الذي في صورة الإنسان ، فإنه تعالى أردف قائلا :

[سورة الفجر (89) : الآيات 16 إلى 17]
وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ (16) كَلاَّ بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ 17) (
من يمسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة ، وليس ذلك لغير اليتيم لعدم الناصر الظاهر .

[سورة الفجر (89) : آية 18]
وَلا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (18)
المسكين قد بالغ الله فيه بالضعف ، فهو صاحب ضعفين : ضعف الأصل وضعف الفقر ، وهو من سكن تحت مجاري الأقدار ، ونظر إلى ما يأتي به حكم الله في الليل والنهار ، واطمأن بما أجرى الله به وعليه ، وعلم أنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، وأنه الفعال لما يريد ،

ص 492

وتحقق بأن قسمه من الله ما هو عليه في الحال ، فجبر الله كسره بقوله [أنا عند المنكسرة قلوبهم] .

[سورة الفجر (89) : الآيات 19 إلى 20]
وَتَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلاً لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا (20)
إنما سمي المال مالا لأنه يميل بالنفوس إليه ، وإنما مالت النفوس إليه لما جعل الله عنده من قضاء الحاجات به ، وجبل الإنسان على الحاجة لأنه فقير بالذات ، فمال إليه بالطبع الذي لا ينفك عنه .

[سورة الفجر (89) : آية 21]
كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21)
لتجلي الحق ، إذا كانت كالعهن المنفوش ، فإن الجبال وهي لا تعرف التواضع ظهرت ابتداء بصورة القهر ، حيث سكنت ميد الأرض ، ويتجلى الحق يوم القيامة فتصير الجبال دكا دكا ، فتمد الأرض بمزيد امتداد الجبال وتصيرها أرضا ، فما كان منها في العلو في الجو إذا انبسط زاد في بسط الأرض .

[سورة الفجر (89) : (آية 22]
وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22)
وهو إتيان عام للاسم الرب للفصل والقضاء ، لأن هناك إتيان خاص بالرحمة لمن اعتنى به من عباده ، مثل قوله صلّى الله عليه وسلّم [إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن]
وهذا الإتيان يوم القيامة للفصل والقضاء بين الناس ، فمن الناس من يقضى له بما فيه سعادته ، ومن الناس من يقضى له بما فيه شقاوته.

[سورة الفجر (89) : آية 23]
وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى (23)
« وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ »وما وصفها الحق بالمجيء من ذاتها ، فقال« وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ »يعني يوم القيامة ، وإنما امتنعت من الإتيان حتى جيء بها ، لما علمت بما هي عليه وبما فيها من أسباب الانتقام بالعصاة من المؤمنين ، وما وقعت عينها إلا على مسبح للّه بحمده ،

ص 493

وفيها رحمة الله لكونها دخلت في الأشياء ، قال الله تعالى(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)فمنعتها الرحمة القائمة بها من الإتيان ، وأشهدتها تسبيح الخلائق وطاعتهم لله ، فجيء بها ليعلم من لا يدخلها ما أنعم الله عليه به بعصمته منها ، ويعلم من يدخلها أنه بالاستحقاق يدخلها ، فتجذبه بالخاصية إليها جذب المغناطيس الحديد ،

وهو قوله صلّى الله عليه وسلّم [إنه آخذ بحجز طائفة من النار وهم يقتحمون فيها تقحم الفراش] .

[سورة الفجر : (89)آية 24]

يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي (24)

فإن الكافر الجاهل يكشف له الغطاء وتتبين له الأمور الواقعة في الدنيا ما أثمرت هنالك ، فيقول« يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي »لعلمه أنه كان متمكنا من ذلك فلم يفعل ، فعذابه ندمه ، وما غبن فيه نفسه أشد عليه من أسباب العذاب من خارج ، وهذا هو العذاب الأكبر .

[سورة الفجر (89 : (الآيات 25 إلى 28]

فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ (25) وَلا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ (26) يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً (28)

النفس المطمئنة إذا رجعت راضية فهي النفس العالمة ، لأنها إن لم ترجع راضية من ذاتها رجعت كرها وأجبرت على الرجوع . واعلم أن الرضا والتسليم نزاع خفي لا يشعر به إلا أهل الله ، فإن كان متعلق الرضا المقضي به . فيحتاج إلى ميزان شرعي ، وإن كان متعلق الرضا القضاء ، فإن كان القضاء يطلب القهر ويجد الراضي ذلك من نفسه ،

فيعلم أن فيه نزاعا خفيا ، فيبحث عنه حتى يزيله ، وإن لم ير أن ذلك القضاء يطلب القهر ، فيعلم أنه الرضا الخالص الجبلي ، لأن الرضا من راض يروض ، ومنه الرياضة ،

ورضت الدابة وهو الإذلال ، ولا يوصف به إلا الجموح ، والجموح نزاع ، إنما يراض المهر الصغير لجموحه وجهله بما خلق له ، فإنه خلق للتسخير والركوب والحمل عليه ، والمهر يأبى ذلك فإنه ما يعلمه ، فيراض حتى ينقاد في أعنة الحكم الإلهي ،

وكذلك رياضة النفوس ، لولا ما فيها من الجموع لما راضها صاحبها ، فإذا خلقت مرتاضة بالأصالة فكان ينبغي أن لا يطلق عليها اسم راضية بل هي مرضية ،

وإنما النفوس الإنسانية لما خلقها الله على الصورة الإلهية شمخت

ص 494

على جميع العالم ممن ليست له هذه الحقيقة ، وانحجبت عن الحقائق الإلهية التي تستند إليها حقائق العالم حقيقة حقيقة ، فاكتسبت الرياضة لأجل هذا الشموخ ، فذلت تحت سلطانه
وحمدت على ذلك ، وكذلك التسليم لم يصح إلا مع التمكن من الجموح ، فالنفس الراضية هي النفس العالمة المرضية عند الله ، فدخلت في عباده فقيل لها .

[سورة الفجر (89) : آية 29]
فَادْخُلِي فِي عِبادِي (29)
فلم تنسب ولا انتمت إلى غيره ، ممن اتخذ إلهه هواه .

[سورة الفجر (89) : آية 30]
وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)
ودخلت في جنته أي في كنفه وستره
[إشارة واعتبار لا تفسير - « ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ » :]
-إشارة واعتبار لا تفسير –
« ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ »إن الله سبحانه لما أوجد الروح خليفة على مملكة البدن ، وأوجده على الكمال ، أراد أن يعرفه سبحانه مع ذلك أنه فقير ، ولا حول ولا قوة إلا لسيده الرب تعالى ، فلهذا أوجد له منازعا ينازعه فيما قلده ، فلما رأى الروح أنه ينادي والنفس لا تجيبه ،
وقد قيل له : هي ملكك ، قال لوزيره : ما السبب المانع لها من إجابتي ؟ فقال له العقل : أيها السيد الكريم إن في مقابلتك موجودا قام لها في مقامك ، أميرا قويا مطاعا ،
صعب المرتقى عزيز المنال ، يقال له الهوى ، أعطيته معجلة مشهودة ، كثير الرجل والخول ، قوي العدد والعدد ، أرسل وزيره واسمه شهوة إليها ، فبسط لها حضرته وعجّل لها أمنيتها في أدنى زمان ، فأجابت لدعائه وانقادت له ،
وحصلت تحت قهره ، واتبعها أجنادك وبادية رعيتك ، فرجع الروح بالشكوى إلى القديم سبحانه ، فثبتت له في نفسه عبوديته بالافتقار والعجز والذلة ،
وتحقق التميز وعرف قدره فلما رجع الروح بالشكوى إلى ربه صار سبحانه واسطة بينها وبينه فقال لها :« يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ »
أي سيدك وهو الروح« راضِيَةً مَرْضِيَّةً . . . " فلما أتاها النداء برفع الوسائط حنت وأنّت ، واشتاقت فأجابت وأنابت بالعناية الإلهية« فَادْخُلِي فِي عِبادِي »
يعني عباد الاختصاص ، أهل الحضرة« وَادْخُلِي جَنَّتِي »يريد المكاره التي هي نعم الخليفة.

ص 495

(90) سورة البلد مكيّة

[سورة البلد (90) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ (2) وَوالِدٍ وَما وَلَدَ (3)

ينسب الولد لوالده فإن له عليه ولادة بوضعه في الرحم ، وينسب إلى الأم لأن لها عليه ولادة بخروجه من بطنها .

[سورة البلد (90) : آية 4]

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ (4)

- **إشارة** - وما خلقه الله في كبد إلا ليشفق عليه كل أحد .

[سورة البلد (90) : الآيات 5 إلى 8]

أَ يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً (6) أَ يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8)

[« أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ « الآية :]

ومن أوجه ذلك أن كان الإنسان ذا بصر وبصيرة ، فما جعل الله للإنسان عينين إلا ليدرك بهما الصفتين ، عين حس وعين عقل ، بصيرة وبصر ، فكل عين لها طريق وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى ، فالعين التي أدركت أن الرمي لله غير العين التي أدركت بها أن الرمي لمحمد صلّى الله عليه وسلّم ، فإن الله خلق من كل زوجين اثنين ، خلق لإدراكهما عينين ، عينا يشهد بها خالقه الواجب الوجود ، وعينا يشهد بها إمكانه ،

فلا تنظر إلى الحق نظرا يفنيك عن إمكانك فتدعي أنك الحق فتقع في الجهل ، ولا تنظر إلى إمكانك نظرا يفنيك عن الحق فيورثك الصمم فتجهل ما خلقت له ، فكن تارة وتارة ،

فإن الإنسان الكامل الخليقة جعل له عينين ، ينظر بالعين الواحدة إلى الحق تعالى من كونه غنيا عن العالمين فلا يراه في شيء ولا في نفسه ،

وينظر إليه بالعين الأخرى من اسمه الرحمن بكونه يطلب العالم ويطلبه العالم فيراه ساري الوجود في كل شيء ، فيفتقر بهذه النظرة من هذه العين إلى كل شيء من حيث

ما هي الأشياء أسماء للحق لا من حيث أعيانها ، فلا أفقر من الإنسان الكامل إلى العالم لأنه يشهده مسخرا له ، فعلم أنه لولا ما هو عليه من الحاجة إلى ما سخروا فيه من أجله ما سخروا ، فيعرف نفسه أنه أحوج إلى العالم من العالم إليه .

[سورة البلد (90) : آية 9]

وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ (9)

[« وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ » الآية :]

اعلم أن اللسان أملك شيء للإنسان ، سريع الحركة ، حركته أقرب إلى الهلاك منها إلى النجاة ، كثير العثرات ، قال صلّى الله عليه وسلّم : [وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا

حصائد ألسنتهم] وهو ترجمان إرادة الحق بما شاء أن يجريه في عالم الشهادة ، لا ترجمان الأمر إلا بالموافقة ، فإما صادق وإما دجال ، فاللسان قلم القلب ، تكتب به يمين القدرة ما تملي عليه الإرادة من العلوم في قراطيس ظاهر الكون ،

فالكلام من موارده عمل من الأعمال ، يحصيه الملك ،

كما قال تعالى :(ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) ثم يصعد به في المساء والصباح إلى الواحد جل جلاله ، فما كان خالصا له سبحانه ألقاه في عليين ، وما كان غير خالص بنوع ما من أنواع الكدر ، مثل الزيادات في الحديث ، والكذب والرياء والمراء والجدال في نصرة الباطل ، ألقاه في سجين .

واللسان إذا تحقق في مراعاة ما توجه إليه من الشارع ، ووقف عندما حدّ له ، فاشتغل بالواجب عليه فيه ، كشهادة التوحيد ، وقراءة القرآن في بعض المواطن ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإصلاح ذات البين وشهادة التعيين ،

وتبيين العالم ، وإرشاد الضال ، ورد السلام وما أشبه ذلك كله ، فهذا كله من الترغيبات في النطق المقرب إليه ، كتلاوة القرآن ودوام التسبيح والتحميد وجميع الأذكار والمواعظ ، كما يجب عليه الكف عن التضريب بين الناس والفرية والجهل من القول والنميمة والغيبة وكل نطق مذموم شرعا ، فإذا تحقق العبد بهذه الأوصاف على ما حدّ له كان مالكا للسانه ، وشهابا ثاقبا لشيطانه .

إن اللسان رسول القلب للبشر *** بما قد أودعه الرحمن من درر
فيرتدي الصدق أحيانا على حذر *** ويرتدي المين أحيانا على خطر
كلاهما علم في رأسه لهب *** لا يعقل الحكم فيه غير معتبر
فانظر إلى صادق طابت موارده *** وكاذب رائج غاد على سفر
مع اتحادهما والكيف مجهلة *** من سائل كيف حكم الحق في البشر

ص 497

[سورة البلد (90) : آية 10]
وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ (10)
[« وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ » الآية]
أي بيّناهما له ، أي بيّنا له الطريقين ، فبان الصبح لذي عينين ، لما هداه النجدين ، وأقيم المكلف في الوسط ، فمنهم من أقسط ومنهم من قسط ، فالمقسط أخذ ذات اليمين ، فارتفع في عليين ، والقاسط أخذ ذات الشمال فنزل إلى سجين ، فما عدل بكل واحد سوى طريقه ، وطريقه ما خرج عن حكم تحقيقه ، فالطريق ساقه وقاده ، إما إلى شقاء وإما إلى سعادة ، فاعرف الطريق واختر الرفيق ، تنج من عذاب الحريق ، فإنه وإن كان المآل إلى السعادة في الدارين ، فإنه لا يعلم قدر ما قررناه إلا ذو عينين ، لا ذو عين واحدة ، ومن وقف بين النجدين فرأى غاية كل طريق ، فسلك طريق سعادته التي لا يتقدمها شقاء ، فإنها طريق سهلة بيضاء ، مثلي نقية لا شوب فيها ولا عوجا ولا أمتا ، والطريق الأخرى وإن كانت غايتها سعادة ، ولكن في الطريق مفاوز ومهالك وسباع عادية وحيات مضرة ، فلا يصل مخلوق إلى غايتها حتى يقاسي هذه الأهوال ، والطريقان متجاوران ، ينبعثان من أصل واحد ، وينتهيان إلى أصل واحد ، ويفترقان ما بين الأصلين ، ما بين البداية والغاية ، فيشاهد صاحب المحجة البيضاء ما في طريق صاحبه ، لأنه بصير وصاحبه أعمى ، فليس يرى الأعمى طريق البصير ، فيطرأ على البصير من مشاهدة تلك الآفات التي في طريق الأعمى مخاوف ، لما يرى من الأهوال ويتوهم في نفسه لو كان فيها ما يقاسيه ، ويرى الأعمى ليس عنده خبر من هذا كله لما هو عليه من العمى ، فلا يبصر شيئا فيسير ملتذا بسيره ، حتى يتردى في حفرة أو تلدغه حية من تلك الحيات ، فحينئذ يحس بالألم ويستغيث بصاحبه ، فمن الأصحاب من يغيثه ومن الأصحاب من يكون قد سبقه ، فلا يسمعه فيبقى مضطرا ما شاء الله فيرحمه الله فيسعده - وجه آخر - اعلم أن التجلي دائم لا حجاب عليه ، ولكن لا يعرف أنه هو ، وذلك أن الله لما خلق العالم أسمعه كلامه في حال عدمه ، وهو قوله كن ، وكان مشهودا له سبحانه ، ولم يكن الحق مشهودا له ، وكان على أعين الممكنات حجاب العدم ، لم يكن غيره ، فلا تدرك الموجود وهي معدومة ، كالنور ينفر الظلمة ، فإنه لا بقاء للظلمة مع وجود النور ، كذلك العدم والوجود ، فلما أمرها بالتكوين لإمكانها واستعداد قبولها سارعت لترى ما ثمّ ، لأن في قوتها الرؤية كما في قوتها السمع من حيث الثبوت لا من حيث الوجود ، فعند ما وجد الممكن انصبغ بالنور ، فزال العدم ، وفتح عينيه فرأى

ص 498

الوجود الخير المحض ، فلم يعلم ما هو ، ولا علم أنه الذي أمره بالتكوين ، فأفاده التجلي علما بما رآه ، لا علما بأنه هو الذي أعطاه الوجود ، فلما انصبغ بالنور التفت على اليسار فرأى العدم فتحققه ، فإذا هو منبعث منه ، كالظل المنبعث من الشخص إذا قابله النور ، فقال : ما هذا ؟

فقال له النور من الجانب الأيمن : هذا هو أنت ، فلو كنت أنت النور لما ظهر للظل عين ، فأنا النور وأنا مذهبه ، ونورك الذي أنت عليه إنما هو من حيث ما يواجهني من ذاتك ، ذلك لتعلم أنك لست أنا ، فأنا النور بلا ظل ، وأنت النور الممتزج لإمكانك ، فإن نسبت إليّ قبلتك ، وإن نسبت إلى العدم قبلك ، فأنت بين الوجود والعدم ، وأنت بين الخير والشر ،

فإن أعرضت عن ظلك فقد أعرضت عن إمكانك ، وهو شهودك ظلك ، وإن أعرضت عن إمكانك جهلتني ولم تعرفني ، فإنه لا دليل لك على أني إلهك وربك وموجدك إلا إمكانك ، وهو شهودك ظلك ، وإن أعرضت عن نورك بالكلية ، ولم تزل مشاهدا ظلك لم تعلم أنه ظل إمكانك ، وتخيلت أنه ظل المحال ،

والمحال والواجب متقابلان من جميع الوجوه ، فإن دعوتك لم تجبني ولم تسمعني ، فإنه يصمك ذلك المشهود عن دعائي ، فلا تنظر إليه نظرا يفنيك عن ظلك ، فتدعي أنك أنا فتقع في الجهل ، ولا تنظر إلى ظلك نظرا يفنيك عني فإنه يورثك الصمم فتجهل ما خلقتك له ، فكن تارة وتارة ، وما خلق الله لك عينين إلا لتشهدني بالواحدة ، وتشهد ظلك بالعين الأخرى ، وقد قلت لك في معرض الامتنان« أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ »أي بيّنا له الطريقين ، طريق النور والظل »إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً »فإن العدم المحال ظلمة ، وعدم الممكن ظل لا ظلمة ، ولهذا في الظل راحة الوجود .

[سورة البلد (90) : الآيات 11 إلى 20]

فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ(20)

ص 499

(91) سورة الشّمس مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

[القسم الإلهي]
في القسم الإلهي أقوال : هل أقسم بنفسه ، أو بمخلوقاته ، أو بهذا وقتا وبهذا وقتا آخر ، فإن كان قسمه بمخلوقاته هل أضمر أم لا ؟ وعلى كل حال فلها شرف عظيم بإضافتها إليه ، سواء أظهر الاسم أو لم يظهر ، وإذا كان القسم بالمخلوقات كان سبب القسم بالأشياء طلب التعظيم من الخلق للأشياء حتى لا يهملوا شيئا من الأشياء الدالة على الله ،
سواء كان الدليل سعيدا أو شقيا ، وعدما أو وجودا ، أي ذلك كان ، وإن كان القصد الإلهي بالقسم نفسه لا الأشياء ، وأضمر الأسماء الإلهية لتدل الأشياء على ما يريده من الأسماء الإلهية ، فما تخرج عن الدلالة وشرفها ،
وعلم من الله ما ينبغي أن يطلق عليه من الأسماء في المعنى فيما أضمر ، وفي اللفظ فيما أطلق ، إذ لو أراد إطلاق ما أضمره عليه لأظهره ،
كما أظهره في قوله (فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ)
وقال تعالى في القسم بأسمائه المضمرة من حيث المعنى .

[سورة الشمس (91) : آية 1]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَالشَّمْسِ وَضُحاها (1)
لما أنارها وما محاها .

[سورة الشمس (91) : آية 2]
وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها (2)
بما ابتلاها ، فإن القمر بالنص ، له الصورة والمقدار بالزيادة والنقص ،

[سورة الشمس (91) : آية 3]
وَالنَّهارِ إِذا جَلَّاها (3)
في مجلاها .

[سورة الشمس (91) : آية 4]
وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها (4)
فأسرها وما أفشاها .

[سورة الشمس (91) : آية 5]
وَالسَّماءِ وَما بَناها(5)
ص 500

بما عناها ، و (الذي وما) من الأسماء النواقص ، وقد تكون أسماء الله عزّ وجل ، فما هنا قد تكون مصدرية ، وقد تكون في بعض الوجوه في هذا الموضع بمعنى الذي ، فتكون اسما للّه عزّ وجل ، فيكون قوله تعالى« وَالسَّماءِ وَما بَناها »أي وباني السماء .

[سورة الشمس (91) : آية 6]
وَالْأَرْضِ وَما طَحاها (6)
لما أدار رحاها ، أو وباسط الأرض .

[سورة الشمس (91) : آية 7]
وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها (7)
بما ألهمها من فجورها وتقواها ، وهي نفس كل مكلف ، وما ثم إلا مكلف ، ومن وجه آخر« وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها »من التسوية وهو الاعتدال في الشيء ، وهو جعل المباح للنفس ذاتيا لها لا يحتاج إلى إلهام ، فهو من خاصية النفس ،
فلذلك لم يصفها بأنها ملهمة فيه ، ولما كانت النفس محل الفرقان ، ومحل التغيير والتطهير ، ومقر الأمر والنهي ، وهي بين أميرين قويين مطاعين ، العقل والهوى ، هذا يناديها وهذا يناديها ، والكل بإذن الله تعالى الأصلي قال تعالى في إثر« وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها ».

[سورة الشمس (91) : آية 8]
فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها (8)
[« فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها » الآية]
لهذا جعلناها محل التطهير والتغيير ، فإن أجابت الهوى كان التغيير ، وحصل لها اسم الأمّارة بالسوء ، وإن أجابت العقل كان التطهير وصح لها اسم المطمئنة شرعا ، ووقوع هذا الأمر لحكمة لطيفة وسر عجيب ، وهو أن الله سبحانه لما أوجد الروح وهو الخليفة على الكمال ، أراد أن يعرّفه سبحانه مع ذلك أنه فقير لا حول ولا قوة إلا لسيده الرب تعالى ، فلهذا أوجد له منازعا ينازعه فيما قلّده ، فرجع الروح بالشكوى إلى الله القديم سبحانه ، فثبتت له في نفسه عبوديته بالافتقار والعجز والذلة ، وتحقق التميز وعرف قدره ، فذلك كان المراد ، فإن الإنسان لو نشأ على الخير والنعم طول عمره لم يعرف قدر ما هو فيه حتى يبتلى ، فإذا مسه الضر عرف قدر المنعم ، والإلهام ضرب من ضروب الوحي لا يخلو عنه موجود ، وهو خبر من الله للعبد على يد ملك مغيّب عن هذا الملهم ، وقد يلهم من الوجه الخاص ، فالرسول والنبي يشهد الملك ويراه عندما يوحي إليه ، وغير الرسول يحس بأثره

ص 501

ولا يراه رؤية بصر ، فيلهمه الله به ما شاء أن يلهمه ، أو يعطيه من الوجه الخاص بارتفاع الوسائط ، وهو أجلّ الإلقاء وأشرفه ، فالإلهام إعلام إلهي ، ما هو مثل وحي الكلام ، ولا وحي الإشارة والعبارة ، وهو الخاطر الخاطر ، فلا يعول إلا على الخاطر الأول ، فإنه الحق المبين ، والصادق الذي لا يمين ، ولهذا يصيب ولا يخطئ ، ويمضي ما يقول ولا يبطئ ، فدخل الملك بالتقوى في هذه الآية إذ لا نصيب له في الفجور ، وكذلك سائر نفوس ما عدا الإنس والجان ، فالإنس والجن ألهموا الفجور والتقوى ، وما ذكر سبحانه من الملهم لها بالفجور والتقوى ، فأضمر الفاعل ، فالظاهر أن الضمير المضمر يعود على المضمر في(سَوَّاها)وهو الله تعالى ، فإن سبيل الوحي قد انقطع بموت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وقد كان الوحي قبله ، ولم يجئ خبر إلهي أن بعده وحيا ، وإن لم يلزم هذا ،

وقد جاء الخبر النبوي الصادق في عيسى عليه السلام - وقد كان ممن أوحي إليه قبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم - أنه لا يؤمنا إلا منا ، أي بسنتنا ، فله الكشف إذا نزل والإلهام ، كما لهذه الأمة ، فالإلهام الإلهي أكثره لا واسطة فيه ، فمن عرفه عرف كيف يأخذه ، ومحله النفس ، قال تعالى« فَأَلْهَمَها »فالفاعل هويته ، فهو الملهم لا غيره(فُجُورَها)ليعلمه لا ليعمل به« وَتَقْواها »ليعلمه ويعمل به ، فهو إلهام إعلام لا كما يظنه من لا علم له ، فبين لها الفجور من التقوى إلهاما من الله لها ، لتتجنب الفجور وتعمل بالتقوى ، فألهمها فعلمت أن الفجور فجور فاجتنبته ، وعلمت أن التقوى تقوى فلزمته ، فتسلك طريق التقوى وتجانب طريق الفجور ، وكذلك ليفصل بين الفجور والتقوى ، إذ النفس محل لظهور الأمرين فيها ، فربما التبس عليها الأمر وتخيلت فيه أنه كله تقوى ، فعلمها الله فيما ألهمها ما يتميز به عندها الفجور من التقوى ، ولذا جاء بالإلهام ولم يجئ بالأمر ، فإن الله لا يأمر بالفحشاء ، والفجور فحشاء ، فله الإلهام فينا ، ولنا العمل بما ألهم ، ولذلك قال(وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها)والدس إلحاق خفي بازدحام ، فألحق العمل بالفجور بالعمل بالتقوى وما فرق في موضع التفريق ، فجمع بينهما في العلم والعمل ، والأمر ليس كذلك ، وسبب جهله بذلك أنه رمى ميزان الشرع من يده ، فلو لم يضع الميزان من يده لرأى أنه مأمور بالتقوى منهي عن الفجور ، مبيّن له الأمران معا ، ولما أضاف الله الفجور لها والتقوى ، علمنا أنه لا بد من وقوعهما في الوجود من هذه النفس الملهمة ، وكما أن الله سبحانه لم يأمر بالفحشاء لم يلهم العبد العمل بالفحشاء كما يراه بعضهم ،

ص 502

ولو ألهمه العمل بالفحشاء لما قامت الحجة لله على العبد ، بل هذه الآية مثل قوله (وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ)- .
لا تحكمن بإلهام تجده فقد *** يكون في غير ما يرضاه واهبه
واجعل شريعتك المثلى مصححة *** فإنها ثمر يجنيه كاسبه
له الإساءة والحسنى معا فكما *** تعطي طرائفه تردي مذاهبه
فاحذره إن له في كل طائفة *** حكما إذا جهلت فينا مكاسبه
لا تطلبن من الإلهام صورته *** فإن وسواس إبليس يصاحبه
في شكله وعلى ترتيب صورته *** وإن تميز فالمعنى يقاربه
فجعل الله النفس محلا قابلا لما تلهمه من الفجور والتقوى ، فتميز الفجور فتجتنبه ، والتقوى فتسلك طريقه ، ومن نظر قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [إن للملك في الإنسان لمة ، وللشيطان لمة]
يعني بالطاعة وهي التقوى ، والمعصية وهي الفجور ، فيكون الضمير في ألهمها للملك في التقوى ، وللشيطان في الفجور ، فيكون قوله تعالى« فَأَلْهَمَها فُجُورَها »عملا أو تركا ، لمجيئه على يد شيطان ،« وَتَقْواها »عملا أو تركا لمجيئه على يد ملك ، ولم يجمعهما في ضمير واحد لبعد المناسبة بينهما ،
وكل بقضاء الله وقدره ، ولا يصح أن يقال في هذا الموضع : إن الله هو الملهم بالتقوى ، وإن الشيطان هو الملهم بالفجور ، لما في ذلك من الجهل وسوء الأدب ، لما في ذلك من غلبة أحد الخاطرين ، والفجور أغلب من التقوى ،
فإنه في ذلك يجمع بين الله والشيطان في ضمير واحد ، وهو غاية سوء الأدب مع الله ، وما أحسن ما جاء بالواو العاطفة في قوله« وَتَقْواها »فتعالى الله الملك القدوس أن يجتمع مع المطرود من رحمة الله في ضمير ، مع احتمال الأمر في ذلك ، فالفاعل في ألهمها مضمر ، وكذلك لا يترجح أن ننسب الإلهام بالفجور إلى الله ، فلم يبق بعد هذا الاستقصاء إلا أن يكون الضمير في ألهمها بالفجور إلى الشيطان ،
وبالواو بالتقوى إلى الملك ، فمقابلة مخلوق بمخلوق أولى من مقابلة مخلوق بخالق ، ومن وجه آخر تطلبه الآية ، وهو أنه بما ألهمها عرّاها أن يكون لها في الفجور والتقوى كسب أو تعمل ، وإنما هي محل لظهور الفعل ، فجورا كان أو تقوى شرعا

- الفرق بين الإلهام والعلم اللدني -

العلم بالطاعة إلهامي ، والعلم بنتائج الطاعة لدني ، فالإلهام عارض طارئ ، يزول ويجيء ، والعلم اللدني ثابت لا يبرح ،

ص 503

والإلهام هو ما يلهمه العبد من الأمور التي لم يكن يعرفها قبل ذلك ، والعلم اللدني الذي لا يكون في أصل الخلقة ، فهو العلم الذي تنتجه الأعمال ، فيرحم الله بعض عباده بأن يوفقه لعمل صالح ، فيعمل به فيورثه الله من ذلك علما من لدنه لم يكن يعلمه قبل ذلك ، ولا يلزم من العلم اللدني أن يكون في مادة ، والإلهام لا يكون إلا في مواد ، والعلم يصيب ولا بد ، والإلهام قد يصيب وقد يخطئ ، فالمصيب منه يسمى علم الإلهام ، وما يخطئ منه يسمى إلهاما لا علما ، أي لا علم إلهام ،

قال صلّى الله عليه وسلّم [قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الله] فالإلهام هنا هو التقليب ، والأصابع للسرعة ، والاثنينية لها خاطر الحسن وخاطر القبيح

- بشرى -

قال تعالى« فَأَلْهَمَها فُجُورَها ، وَتَقْواها »قدم تعالى الفجور على التقوى عناية بنا إلى الخاتمة ، والغاية للخير ، فلو أخر الفجور على التقوى لكان من أصعب ما يمر علينا سماعه ، فالفجور يعرض للبلاء ، والتقوى محصل للرحمة ، وقد تأخر التقوى فلا يكون إلا خيرا .

[سورة الشمس (91) : آية 9]

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (9)

يعني النفس التي سواها ، يريد قد أفلح من طهرها بامتثال أوامر الله ، فأنزل الله تعالى نفوسنا منا منزلة الأموال منا في الحكم ، فجعل فيها الزكاة كما جعلها في الأموال ، كما ألحقها بالأموال في البيع والشراء ، فتزكية النفس بتحليتها وتطهيرها من مذام الأخلاق وإتيان مكارمها ، فمن زكى نفسه بالتقوى فاتقى من الفجور ما ينبغي أن يتّقى منه ، وأخذ من الإلهام ما ينبغي أن يؤخذ منه فقد أفلح ، ومن دس نفسه في موضع قيل له لا تدخل منه فقد خاب ، ولذلك قال تعالى :

[سورة الشمس (91) : آية 10]

وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (10)

[« وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها » الآية - زكاة النفوس]

لما كان معنى الزكاة التطهير ، ولم يكن المال الذي يخرج في الصدقة من جملة مال المخاطب بالزكاة ، وكان بيده أمانة لأصحابه ، لم يستحقه غير صاحبه ، وإن كان عند هذا الآخر ، ولكنه هو عنده بطريق الأمانة إلى أن يؤديه إلى أهله ، كذلك في زكاة النفوس ، فإن النفوس لها صفات تستحقها ، وهي كل صفة يستحقها الممكن ، وقد يوصف الإنسان بصفات

ص 504

لا يستحقها الممكن من حيث ما هو ممكن ، ولكن يستحق تلك الصفات الله إذا وصف بها ، ليميزها عن صفاته التي يستحقها ، كما أن الحق سبحانه وصف نفسه بما هو حق للممكن تنزلا منه سبحانه ورحمة بعباده ، فزكاة نفسك إخراج حق الله منها ، فهو تطهيرها بذلك الإخراج من الصفات التي ليست بحق لها ، فتأخذ ما لك منه وتعطي ما له فيك ،
فقد أفلح من زكاها فلم يتعد قدره والتزم عبوديته ، وقد خاب من دساها في صفات الربوبية ، والإمكان للممكن واجب لنفسه ، فلا يزال انسحاب هذه الحقيقة عليه لأنها عينه ،
والله تعالى لا حق له في الإمكان ، يتعالى الله علوا كبيرا ، فإنه تعالى واجب الوجود لذاته ، غير ممكن بوجه من الوجوه ، وقد وجدنا هذه النفس قد اتصفت بالوجود ، فقلنا : هذا الوجود الذي اتصفت به النفس ، هل اتصفت به لذاتها أم لا ؟
فرأينا أن وجودها ما هو عين ذاتها ، ولا اتصفت به لذاتها ، فنظرنا لمن هو ، فوجدناه لله ، كما وجدنا القدر المعين من مال زيد المسمى زكاة ليس هو بمال لزيد ، وإنما هو أمانة عنده ، كذلك الوجود الذي اتصفت به النفس ما هو لها ، إنما هو لله الذي أوجدها ، فالوجود لله لا لها ، ووجود الله لا وجودها ،
فقلنا لهذه النفس : هذا الوجود الذي أنت متصفة به ما هو لك ، وإنما هو لله خلعه عليك ، فأخرجه لله وأضفه إلى صاحبه ، وابق أنت على إمكانك لا تبرح فيه ، فإنه لا ينقصك شيء مما هو لك ، وأنت إذا فعلت هذا كان لك من الثواب عند الله ثواب العلماء بالله ، ونلت منزلة لا يقدر قدرها إلا الله ، وهو الفلاح الذي هو البقاء ، فيبقي الله هذا الوجود لك لا يأخذه منك أبدا ، فهذا معنى قوله(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها)أي قد أبقاها موجودة من زكاها ، وجود فوز من الشر ، أي من علم أن وجوده لله أبقى الله عليه هذه الخلعة يتزين بها منعما دائما ، وهو بقاء خاص ببقاء الله ، فإن الخائب الذي دساها هو أيضا باق ، ولكن بإبقاء الله لا ببقاء الله ، فإن المشرك الذي هو من أهل النار ما يرى تخليص وجوده لله تعالى من أجل الشريك ، وكذلك المعطل ، وإنما قلنا ذلك لئلا يتخيل من لا علم له أن المشرك والمعطل قد أبقى الله الوجود عليهما ، فبينا أن إبقاء الوجود على المفلحين ليس على وجه إبقائه على أهل النار ، ولهذا وصف الله أهل النار بأنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، بخلاف صفة أهل السعادة ، فإنهم في الحياة الدائمة ، وكم بين من هو باق ببقاء الله وموجود بوجود الله وبين من هو باق بإبقاء الله وموجود بالإيجاد لا بالوجود ،

ص 505

وبهذا فاز العارفون ، لأنهم عرفوا من هو المستحق لنعت الوجود ، وهو الذي استفادوه من الحق ، فهذا معنى قوله(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها)فوجبت الزكاة في النفوس كما وجبت في الأموال ، ووقع فيها البيع والشراء كما وقع في الأموال ،

والزكاة في النفوس آكد منها في الأموال ، ولهذا قدمها الله في الشراء فقال(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ)ثم قال(وَأَمْوالَهُمْ)واعلم أن النفوس لا تزكو إلا بربها ، فبه تشرف وتعظم في ذاتها ، لأن الزكاة ربو ، فمن كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه ،

والصورة في الشاهد صورة خلق فقد زكت نفس من هذا نعته ، ولذلك قال« قَدْ أَفْلَحَ »ففرض له البقاء والبقاء ليس إلا لله« وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها »لأنه جهل أنه هكذا في نفس الأمر ، فإن الخلق كله بهذا النعت في نفس الأمر ،

وإلا ما صح لصورة الخلق ظهور ولا وجود ، فوصف بالخيبة حيث لم يعلم هذا ، فهو محروم من نيل غرضه بهذا العلم ، وما ثمّ في الآخرة إلا داران ، جنة ولها أهل ، وهم الموحدون بأي وجه وحدوا ، وهم الذين زكوا أنفسهم ،

والدار الثانية النار ولها أهل ، وهم الذين لم يوحدوا الله ، وهم الدّاسون أنفسهم فخابوا ، ومن وجه آخر(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها)بالأعمال الصالحة ، »وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها »فأدخلها في الصالحين وليست منهم ، فإن من أمراض الأحوال صحبة الصالحين حتى يشتهر في الناس أنه منهم ، وهو في نفسه مع شهوته ، فإن حضروا سماعا ، وهو قد تعشق بجارية أو غلام - والجماعة لا تعلم بذلك - فأصابه وجد وغلب عليه الحال لتعلقه بذلك الشخص الذي في نفسه ، فيتحرك ويصيح ويتنفس الصعداء ،

ويقول : الله الله ؛ أو : هو هو ؛ ويشير بإشارات أهل الله ، والجماعة تعتقد في حاله أنه حال إلهي ، مع كونه ذا وجد صحيح وحال صحيحة ، ولكن فيمن ؟ !

دواؤه« وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها »وما أشبه هذه الآية من الأخبار ، فمن أراد طريق العلم والسعادة فلا يضع ميزان الشرع من يده نفسا واحدا ما دام مكلفا ، لأنه إن وضعه من يده نفسا واحدا فني الشرع ، فإن كل حركة في المكلف ومن المكلف وسكون لميزان الشرع فيه حكم ، فلا يصح وضعه مع بقاء الشرع .

[سورة الشمس (91) : الآيات 11 إلى 15]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها (12) فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَسُقْياها (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها (14) وَلا يَخافُ عُقْباها(15)

ص 506

إذا نهيت النفس عن هواها *** كانت لها جناته مأواها
بها حباها الله إذ حباها *** وكان في فردوسه مثواها
أقسمت بالشمس التي أجراها *** قسما وبالبدر إذا تلاها
وليله المظلم إذ يغشاها *** وبالنهار حين ما جلاها
وحكمة الله التي أخفاها *** عن العيون حين ما أبداها
وبالسماوات ومن بناها *** وفوق أرض فرشه علّاها
لتبلغن اليوم منتهاها *** حتى نراها بلغت مناها
حين رأت ما قدمت يداها *** من كل خير منه قد أتاها
بأطعمة قد بلغت إناها *** ما كان أحلاها وما أشهاها

(92) سورة الليل مكيّة

[سورة الليل (92) : الآيات 1 إلى 3]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى (1) وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى (2) وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (3)
اعلم أن الذكورة والأنوثة ليست من خصائص النوع الإنساني ، وقد يدخل الخنثى تحت هذا الخطاب ، فإنه مخلوق ينسب إليه الأمران .

[سورة الليل (92 : (الآيات 4 إلى 6]
إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى (6)
ولا يكون هذا إلا بعد السماع والعقل ممن خلق للنعيم ،
فقال تعالى :

[سورة الليل (92) : آية 7]
فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى(7)

ص 507

قال صلّى الله عليه وسلّم : [من خلق للنعيم فسييسر لليسرى] وأما من خلق للجحيم ويسرّ للعسرى ، فهو الذي قال فيه :

[سورة الليل (92) : آية 8]
وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى (8)
« بَخِلَ »بنفسه على ربه ، حيث طلب منه قلبه ليتخذه بيتا له بالإيمان أو التوحيد ،« وَاسْتَغْنى »بنفسه عن ربه في زعمه .

[سورة الليل (92) : آية 9]
وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى (9)
وهي أحكام الأسماء الحسنى .

[سورة الليل (92) : آية 10]
فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى (10)
وهو تيسير التعسير[إشارة : اترك الوجود على ما هو عليه ، فكل ميسر لما يسر إليه]
-إشارة - اترك الوجود على ما هو عليه ، فكل ميسر لما يسر إليه ، فإذا كان الأمر في غيرك فدع حكمة الله تسري في عباده ، واشتغل بنفسك ، وأما إذا كان في نفسك فاجعل الأصنام جذاذا .

[سورة الليل (92) : الآيات 11 إلى 15]
وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى (11) إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى (12) وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى (14) لا يَصْلاها إِلاَّ الْأَشْقَى (15)
فهو أشقى ما دام يصلى النار الكبرى - راجع سورة الأعلى آية 11 - .

[سورة الليل (92) : الآيات 16 إلى 21]
الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى (19) إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى (20)
وَلَسَوْفَ يَرْضى(21)

ص 508

(93) سورة الضّحى مكيّة

[سورة الضحى (93) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحى (1) وَاللَّيْلِ إِذا سَجى (2)

أي أظلم ، فقد يكون الليل ولا ظلمة ، فإنه ليس من شرط وجود الليل وجود الظلمة ، إنما عين الليل غروب الشمس إلى حين طلوعها ، سواء أعقب المحل نور آخر سوى نور الشمس أو ظلمة ، فلو كان عين الليل عين الظلمة ما نعته بأنه أظلم .

[سورة الضحى (93) : الآيات 3 إلى 4]

ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى (4)

الأولى هي الدار الدنيا ، والدار الآخرة هي الآخرة ، فكان بين خلق الدنيا والآخرة تسع آلاف سنة مما تعدون ، ولهذا سميت الآخرة آخرة لتأخر خلقها عن خلق الدنيا ، وسميت الدنيا الأولى لأنها خلقت قبلها ، وقد جعل الله للدار الدنيا أمدا معلوما تنتهي إليه ،
وتنقضي صورتها وتستحيل من كونها دارا لنا ، ولم يجعل للآخرة مدة ينتهي إليها بقاؤها ، فلها البقاء الدائم ، وإنما قال الله تعالى لمحمد صلّى الله عليه وسلّم « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى »لأن الآخر ما وراءه مرمى ، فهو الغاية فمن حصل في درجته فإنه لا ينتقل ، فله الثبوت والبقاء والدوام ، والأول ليس كذلك ،
فإنه ينتقل في المراتب حتى ينتهي إلى الآخر وهو الغاية فيقف عنده ، فلهذا قال له « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى »فإن مآل الناس في الآخرة إلى رفع التحجير ،
ومن وجه آخر فإن الماضي والحال قد حصلا ، والمستقبل آت فلا بد منه ، فتعلق الهمة به أولى ،
فإنه إذا ورد عن همة متعلقة به كان لها لا عليها ، وإذا ورد عن غير همة متعلقة به كان إما لها وإما عليها ، وإنما أثّر فيه تعلق الهمة أن يكون لها لا عليها ،
لما يتعلق من صاحب الهمة من حسن الظن بالآتي ، والهمم مؤثرة ،
فلو كان إتيانه عليه لا له لعاد له لا عليه ، وهذه فائدة من حافظ عليها حاز كل نعيم ،

ص 509

[سورة الضحى (93) : آية 5]
وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى (5)
« وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ »هناك« فَتَرْضى »وهو عطاء كن في ظاهر العين ، كما هو له في الباطن ، فإن الإنسان له في باطنه قوة كن ، وما له منها في ظاهره إلا الانفعال ، وفي الآخرة يكون حكم كن منه في الظاهر ، وأعطاه صفة البقاء والدوام والنعيم الدائم الذي لا انتقال عنه ولا زوال ، وتميز صلّى الله عليه وسلّم بهذا المقام عمن قال(وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى)فمن عناية الله بالرسول المبجل تخليص الاستقبال في قوله« وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى »، حتى لا يعجل ، فمن علم أنه لا بد من يومه ، فلا يعجل عن قومه ، ومما أعطى الحق لرسوله صلّى الله عليه وسلّم في الدنيا ليرضيه استقبال الكعبة ، قال تعالى(فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها).

[سورة الضحى : (93) آية 6]
أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى (6)
فلم يذلّك ولا طردك بالقهر ليتمك وكسرك .

[سورة الضحى (93) : آية 7]
وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدى (7)
يقول الله تعالى في معرض الامتنان على عبده« وَوَجَدَكَ ضَالًّا »أي حائرا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان« فَهَدى »فأبان لك عن الأمر ، وبين لك طريق الهدى من طريق الضلالة ، والهدى هنا هو معرفة ما خلقك من أجله حتى تكون على ذلك ، فتكون على بينة من ربك .

[سورة الضحى (93) : آية 8]
وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى (8)
أول درجة الغنى القناعة ، والاكتفاء بالموجود ، فلا غنى إلا غنى النفس ، ولا غني إلا من أعطاه الله غنى النفس ، فليس الغنى ما تراه من كثرة المال مع وجود طلب الزيادة من رب المال ، فالفقر حاكم عليه ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس].

[سورة الضحى (93) : آية 9]
فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ(9)

ص 510

وذلك في حق الإنسان ، فإنه قال له صلّى الله عليه وسلّم (أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى)
ولذلك قال له« فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ »، إذا وجدته فلا تقهره والطف به وآوه وأحسن إليه ، فإن القهر لا يأتي بالرحمة والمودة في قلب المقهور .

[سورة الضحى (93) : آية 10]
وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (10)
[« وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ » الآية - يدخل فيه السائل عن العلم]
سواء كان في القوت المحسوس أو المعنوي ، فإن العلم من هذا الباب ويدخل فيه ، والإفادة ، فإن الضال يطلب الهداية ، والجائع يطلب الطعام ، والعاري يطلب الكسوة التي تقيه برد الهواء وحره وتستر عورته ، والجاني العالم بأنك قادر على مؤاخذته يطلب منك العفو عن جنايته ، فاهد الحيران ، وأطعم الجائع ، واسق الظمآن ، واكس العريان ، فعمم بقوله« وَأَمَّا السَّائِلَ »وإن كان المقصود في سبب نزولها السؤال في العلم ، لأنه تعليم لحال سابق كان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وهو قوله(وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى)
فقال له« وَأَمَّا السَّائِلَ » إذا جاءك يسألك فإنما هو بمنزلتك حين كنت ضالا »فَلا تَنْهَرْ »فلا تنهره كما لم أنهرك ، وبيّن له كما بينت لك ، ولقد علمنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من هذا الباب في تأديب الصحابة ما يتأدب به في ذلك ،
وذلك أن رجلا جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو بين ظهراني أصحابه ،
فقال [يا رسول الله إني أسألك عن ثياب أهل الجنة ، أخلق تخلق أم نسيج تنسج ؟
فضحك الحاضرون من سؤاله ، فغضب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم
وقال : (أتضحكون أن جاهلا سأل عالما ، يا هذا الرجل إنها تشقق عنها ثمر الجنة)
فأجابه بما أرضاه ، وعلّم أصحابه الأدب مع السائل ، فأزال خجله وانقلب عالما فرحا ، فقد جرت العادة عند العلماء القاصرين عما ذكرناه أن المتعلم السائل إذا جاء ليسأل العالم عن أمر لا يعلمه ، فإن كانت المسألة بالنظر إلى حالة السائل عظيمة
قال له : لا تسأل عما لا يعنيك ، وهذا ليس قدرك ، وتقصر عن فهم الجواب على هذا السؤال ، وليس الأمر كذلك ، ولا في نفس الأمر ، وإنما القصور في المسؤول حيث لم يعلم الوجه الذي تحتمله المسألة بالنظر إلى هذا السائل ، فيعلمه به ليحصل له الفائدة فيما سأل عنه ، ويستر عنه الوجوه التي فيها مما لا يحتمله عقله ، ولا يبلغ إليه فهمه ، فيسر السائل بجواب العالم ويصير عالما بتلك المسألة من ذلك الوجه ، وهو وجه صحيح ،
فما سأل سائل قط في مسئلة ليس فيه أهلية لقبول جواب عنها ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [إن الله أدبني فأحسن تأديبي]

ص 511

فينبغي لنا أن نتبع الآداب الإلهية التي أدب الله سبحانه بها أنبياءه ، فإن الحائر إذا سأل يسأل إما بحاله وإما بقوله ، والعالم بما حار فيه يجب عليه أن يبيّن له ما حار فيه ، فإن كان المسؤول فيه مما تكون حقيقته الحيرة فيه أبان له هذا العالم أن العلم به أنّه يحار فيه ، فأزال عنه الحيرة في الحيرة ، وإن كانت من العلوم التي إذا بينت زالت الحيرة فيه وبان بيان الصبح لذي عينين أبانه له فعلمه ، فأزال عنه الحيرة ، ولا يرده ، ولا يقول له : ليس هذا عشك فادرج ، ولا سألت ما لا يعطيه مقامك ، فإن الإنسان إذا قال مثل هذا القول لمن سأله عن علم ما فليس بعالم ، وهو جاهل المسألة وبالوجه الذي ينبغي من هذه المسألة أن يقابل به هذا السائل ، والعلم وسوء الخلق لا يجتمعان في موفق ، فكل عالم فهو واسع المغفرة والرحمة ، وسوء الخلق إنما هو من الضيق والحرج ، وأما إذا كان السؤال خطأ فلا يلزم الجواب عنه ، فإن سأل سائل ذو وهم : متى كان وجود العالم من وجود الحق ؟ قلنا : متى سؤال زماني ، والزمان من عالم النسب ، وهو مخلوق لله تعالى ، لأن عالم النسب له خلق التقدير لا الإيجاد ، فهذا سؤال باطل ، فانظر كيف تسأل فنهى الله نبيه عن انتهار سائل العلم ، تعليما لنا ، فقال« وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ »لأنه قال له (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى) أي حائرا(ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ) وقد ورد في الخبر

[استوصوا بطالب العلم خيرا ، ومن سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار]،

ومن هذه الآية كان سؤال الرجل السلطان أولى من سؤال غير السلطان ، لأن وجود الحق أظهر فيه من غيره من السوقة والعامة ، ولهذا رفعت الكدية عن الذين يسألون الملوك ، فإنهم نواب الله ، وهم موضع حاجة الخلق ، وهم المأمورون أن لا ينهروا السائل ،

يقول الله لنبيه صلّى الله عليه وسلّم وهو النائب الأكبر« وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ »ولهذا يسأل الله تعالى يوم القيامة النواب وهم الرعاة عمن استرعاهم عليه ، ويسأل الرعايا ما فعلوا فيهم ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [المسائل كدوح يكدح بها الرجل في وجهه ، فمن شاء أبقى على وجهه ، ومن شاء ترك ، إلا أن يسأل ذا سلطان في أمر لا يجد منه بدا] .

[سورة الضحى (93) : آية 11]

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

حتى تبلغ القاصي والداني ، لأنه لما كانت النعم محبوبة لذاتها وكان الغالب حب المنعم

ص 512

حتى قالت طائفة : إن شكر المنعم واجب عقلا ، جعل الله التحدث بالنعم شكرا ، فإذا سمع المحتاج ذكر المنعم مال إليه بالطبع وأحبه ، فلذلك أمر الله نبيه صلّى الله عليه وسلّم أن يتحدث بنعم الله عليه ، لأن التحدث بنعم الله شكر لفظي ، لما فيه من الثناء على الله ، لما يكون منه وبما أنعم به عليه من النعم المعلومة في العرف ، من المال والعلم ،
فإظهار النعم عين الشكر وحقه ، وبمثل هذا يكون المزيد ،
كما يكون بالكفران لها زوال النعم ،
والكفران سترها ، فإن الكفر معناه ستر ، وإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من النّعم المعروفة في العرف من المال والعلم فقد عرض نفسه ليقصد في ذلك ، فيجود به على القاصد ،
فيدخل بذلك في الشكر العملي ، لأن من النعم ما يكون مستورا لا يعرف صاحبها أنه صاحب نعمة فلا يقصد ، فإذا حدث بما أعطاه الله وأنعم عليه به قصد في ذلك ،
فلهذا أمر بالحديث بالنعم ، والتحدث بالنعم شكر ، والإعطاء منها شكر ، فيجمع بين الذكر والعمل ، ومن هذا نعلم أن الله لا يحب من عباده من يستر نعمه ، كانت النعم ما كانت ، فما تحدث به لم يستر ،
وقال [التحدث بالنعم شكر] وإذا أنعم الله على عبده نعمة أحب أن ترى عليه ، ونعمه التي أسبغها على عباده ظاهرة وباطنة ، ومن ستر النعمة فقد كفر بها ،
ومن كفر بها أذاقه الله لباس الجوع والخوف لستر النعم وجحدها والأشر والبطر بها ، وفي هذه الآية نص لمن قام الدليل على عصمته ، فله أن يثني على نفسه بما أعلمه الله أنه عليه من الصفات المحمودة ، فإنها من أعظم النعم الإلهية على عبده . قال يوسف عليه السلام(اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)[نصيحة : إذ ولا بد من الحديث فلا تتحدث إلا بنعمة ربك] :
-نصيحة - إذ ولا بد من الحديث فلا تتحدث إلا بنعمة ربك ، وأعظم النعم ما أعطيت الأنبياء والرسل فبنعمهم تحدث .

(94) سورة الشّرح مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

لقد حاز صلّى الله عليه وسلّم المقام الأدنى في الآخرة والأولى فالعالي يقول(وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى)والأعلى يقال له (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى) العالي يقول(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي) والأعلى تقرر عليه النعم.

[سورة الشرح (94) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3)

العالي يدعو(اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)
والأعلى يقال له .

[سورة الشرح (94) : آية 4]
وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ (4)
يعني في المقربين[نصيحة : لا تضف إلى أثقالك أثقالا :]
-نصيحة - ما أثقل الظهر سوى الوزر فلا تضف إلى أثقالك أثقالا ، وكن لرحى ما يراد منك ثقالا ، هنا تحط الأثقال ، أثقال الأفعال والأقوال .

[سورة الشرح (94) : الآيات 5 إلى 6]
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (6)
-الوجه الأول - المعية هنا امتزاج لا معية مقارنة ولا تعاقب ، ولذلك كررها ، فلو لا وجود اليسر مع العسر لم يكن عسر العموم الهلاك ، ولولا وجود العسر في اليسر لم يكن يسرا ، وبضدها تتبين الأشياء ، ثم إن العسر يؤول كله إلى اليسر ، فقد سبقت الرحمة الغضب وذلك عناية من الله تعالى
- الوجه الثاني - اليسر الذي ذكره الله تعالى في قوله :(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)فعرف بالألف واللام يشير به إلى اليسر المنكر في هذه السورة ، أي ذلك اليسر الذي أردت بكم هو قوله: " فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً " في عسر المرض يسر الإفطار
« إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ »عسر السفر« يُسْراً » يسر الإفطار أيضا« فَإِذا فَرَغْتَ »من المرض أو السفر« فَانْصَبْ »نفسك للعبادة وهو الصوم ، يقول : اقضه« وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ »في المعونة ، فأتى بعسر واحد بين يسرين ، فلا يكن الحق يراعي اليسر في الدين ورفع الحرج ويفتي المفتي بخلاف ذلك ،
قال بعضهم في يسرين بينهما عسر :
إذا ضاق عليك الأمر *** ففكر في ألم نشرح
فعسر بين يسرين *** إذا ذكرته فافرح
لأنه سبحانه نكرّ اليسر وأدخل الألف واللام اللتين للعهد والتعريف على العسر ، أي العسر الثاني هو عين الأول ، وليس ذلك في اليسر ، فمن سلك هنا ما توعر تيسر له في آخرته ما تعسّر ، إن مع العسر في الدنيا يسرا فيها ، ثم إن مع العسر في الدنيا يسرا في الآخرة

ص 514

لمن فهم معانيها بما يعانيها .

[سورة الشرح (94) : آية 7]
فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7)
فالعبد مطلوب بالاجتهاد والجد ، ما هذه الدار دار راحة« فَإِذا فَرَغْتَ «من أمر أنت فيه« فَانْصَبْ »في أمر يأتيك في كل نفس ، فأين الفراغ ؟ وأين الراحة في دار التكليف ؟

[سورة الشرح (94) : آية 8]
وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)
فإنه من قنع بالجهل وأساء الأدب ، فلا يزهد في الطلب ، ومن هنا أمره الحق أمرا حتما ، أن يقول : رب زدني علما ، فإن الله ما أراد منك في هذا الأمر إلا دوام الافتقار ، ووجود الاضطرار ، فلا تقطع المعاملة ، وعليك باستعمال المراسلة في طلب المواصلة ، مواصلة لا أمد لانقضائها ولا راد لقضائها
[إشارة : « فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ : «]
-إشارة - كان شيخنا أبو مدين رحمه الله يقول في هذه الآية« فَإِذا فَرَغْتَ »من الأكوان« فَانْصَبْ »قلبك لمشاهدة الرحمن« وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ »في الدوام فإذا دخلت في عبادة فلا تحدث نفسك بالخروج منها ، وقل يا ليتها كانت القاضية

- إشارة - إذا أردت أيها المصلي أن يقبل كلامك
، ويتلقى بالترحيب سلامك ، فلا تدخل مصلاك ، حتى تعرف من تولاك ، وتتفرغ عن أهلك ودكانك ، وعمادك وسلطانك ، فإذا فرغت من الأكوان ، فانصب ذاتك لمشاهدة الرحمن ، وإلى ربك فارغب في الدوام ، إن أردت أن تفوز بلذة السلام .

(95) سورة التّين مكيّة
[سورة التين (95) : الآيات 1 إلى 3]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)
وصف الحق البلد بالأمانة فسماه أمينا ، وهو أرض ذو جدران وأسوار وتراب وطين ولبن ، وأقسم به كما أقسم بغيره تعظيما لمخلوقات الله ، وتعليما لنا أن نعظم خالقها ، ونعظمها

ص 515

بتعظيم الله إياها لا من جهة القسم بها ؛ فإنه لا يجوز لنا أن نقسم بها ، ومن أقسم بغير الله كان مخالفا أمر الله .

[سورة التين (95) : آية 4]
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)
أي التقويم الذي خلقه عليه أفضل من كل تقويم ، فكلّ موجود على التقويم الذي يعطيه خلقه بقوله تعالى : (أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ)
وما صحت هذه الصفة التي فضل بها على غيره إلا بكونه خلقه الله على صورته التي خصّه بها ، وهي التي أعطته هذه المنزلة ،
فكان أحسن تقويم في حقه لا عن مفاضلة أفعل من كذا ، بل مثل قوله (الله أكبر) لا عن مفاضلة ، بل الحسن المطلق للعبد الكامل كالكبرياء المطلق الذي للحق ،
فهو أحسن تقويم لا من كذا كما هو الحق أكبر لا من كذا ، فالإنسان هو أكمل المكلفين وجودا وأعمه وأتمه خلقا وأقومه ،
فما فضّل القديم إلا المخلوق في أحسن تقويم ، فهو العالم لا بل هو العلّام ، مصباح الظلام ، معيّن الأيام ، الإمام ابن الإمام ، المؤتى جوامع الكلم وجميع الأسماء والكلام ، فافصح وأبان لما علمه البيان ، ووضع له الميزان ،
فأدخله في الأوزان ، وزان وما شان ، فبالصورة علا وفضل ، ونزل وسفل إذ جار وما عدل ، الأسفل في أسفل سافلين بالطين والماء المهين ،
وإن تساووا في النشأة العنصرية بالقرار المكين ، والتنقل في الأطوار ، والانحصار خلف الأسوار ، بالكل والبعض ، والإبرام والنقض ،
والتقويض والبناء ، والقالة بالثناء ، فمحمد ومذمّم ، ومؤخر ومقدّم ، فالعبد هو المصمت في عبوديته ، فإن حاد العبد عن هذه المرتبة بوصف ما رباني ، وإن كان محمودا من صفة رحمانية وأمثالها ، فقد زال عن المرتبة التي خلق لها ،
وحرم الكمال والمعرفة بالله على قدر ما اتصف به من صفات الحق ، فليقلل أو يكثر ،
واعلم أن للإنسان حالتين : حالة عقلية نفسية مجردة عن المادة ، وحالة عقلية مدبرة للمادة ، فإذا كان في حال تجريده عن نفسه ، وإن كان متلبسا بها حسا فهو على حالته في أحسن تقويم ، فإذا قال : الله ؛ نطق بنطقه جميع العالم من كل ما سوى الله ، فقامت تسبيحته مقام تسبيح ما ذكرته ، فأجره غير ممنون ، وفيه قال تعالى :« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ »
[« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ « الآية]
أبرزه نسخة كاملة جامعة لصور حقائق المحدث وأسماء القديم ، أقامه سبحانه معنى رابطا للحقيقتين ، وأنشأه برزخا جامعا للطرفين والرقيقتين ، أحكم بيديه صنعته ، وحسّن

ص 516

بعنايته صبغته ، فكانت مضاهاته للأسماء الإلهية بخلقه ، ومضاهاته للأكوان العلوية والسفلية بخلقه ، فتميز عن جميع الخلائق بالخلقة المستقيمة والخلائق ،
عيّن سبحانه سره مثالا في حضرة الأسرار ، وميز نوره من بين سائر الأنوار ، ونصب له كرسي العناية بين حضرتيه ، وصرف نظر الولاية والنيابة فيه وإليه ، فلو لا ما صح لهذا الإنسان أحسن تقويم ،
وفطر على صورة القديم ، لما صح عنه وجود خلق ، ولا دان له الملأ الأعلى ،
ولا ظهر بالموقف الأجلى ، ولا عنت له وجوه الأملاك ، ولا دارت بنفسه أجرام الأفلاك ،
فاشكر الله يا أيها الإنسان على ما خصك به الجواد الرحمن من كمال هذه النصبة ،
وأوقفك على حقائق هذه النسبة فإن الإنسان ذو نسبتين كاملتين : نسبة يدخل بها إلى الحضرة الإلهية ، ونسبة يدخل بها إلى الحضرة الكيانية ، فيقال فيه : عبد من حيث أنه مكلّف ولم يكن ثم كان كالعالم ، ويقال فيه : رب من حيث أنه خليفة ومن حيث الصورة ومن حيث أحسن تقويم ، فله الكمال المطلق في الحدوث والقدم ، والحق له الكمال المطلق في القدم ،
وليس له في الحدوث مدخل يتعالى عن ذلك ، والعالم له الكمال في الحدوث وليس له في القدم مدخل ، فصار الإنسان جامعا ، لله الحمد على ذلك ، فما أشرفها من حقيقة ،
وما أظهره من موجود ، وما أخسها وما أدنسها في الوجود ، إذا قد كان منها محمد صلّى الله عليه وسلّم وأبو جهل ، وموسى عليه السلام وفرعون ، فتحقق أحسن تقويم واجعله مركز الطائعين المقربين ، وتحقق أسفل سافلين واجعله مركز الكافرين الجاحدين ،
لذلك قال تعالى :« فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ »فما بعده أحسن منه .إشارة - إلى الإنسان الكامل الخليفة بقوله« فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ »فقال في معرض التشريف والتنزيه ، والتعريف والتنبيه ، على التقويم الأكمل الأحسن ، والخلق الأجمل الأتقن « 1 » ، المحفوظ المصون ،
في ألم تنزيل والتين والزيتون ، كأنه يقول عبدي أنت حمدي ، وحامل أمانتي وعهدي ، أنت طولي وعرضي ، وخليفتي في أرضي ، والقائم بقسطاس حقي والمبعوث إلى جميع خلقي ، عالمك الأدنى ، بالعدوة الدنيا والعدوة القصوى ، أنت مرآتي ، ومجلى صفاتي ، ومفصل أسمائي ، وفاطر سمائي ، أنت موضع نظري من خلقي ، ومجتمع جمعي وفرقي ، أنت ردائي ، وأنت أرضي وسمائي ، وأنت عرشي

....
(1) إشارة إلى قوله تعالى في سورة ألم تنزيل « وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .
ص 517

وكبريائي ، أنت الدرة البيضاء ، والزبرجدة الخضراء ، بك ترديت ، وعليك استويت ، وإليك أتيت ، وبك إلى خلقي تجليت ، فسبحانك ما أعظم شانك ، سلطانك سلطاني ، فكيف لا يكون عظيما ؟ ويدك يدي ، فكيف لا يكون عطاؤك جسيما ؟

لا مثل لك يوازيك ، ولا عديل يحاذيك ، أنت سر الماء ، وسر نجوم السماء ، وحياة روح الحياة ، وباعث الأموات ، أنت جنة العارفين ، وغاية السالكين ، وريحان المقربين ، وسلام أصحاب اليمين ، ومراد الطالبين ، وأنس المعتزلين المتفردين المنقطعين ، وراحة المشتاقين ، وأمن الخائفين ، وخشية العالمين ، وميراث الوارثين ، وقرة عين المحبين ، وتحفة الواصلين ، وعصمة اللائذين ، ونزهة الناظرين ،

وريّا المستنشقين ، وحمد الحامدين ، أنت درر الأصداف ، وبحر الأوصاف ، وصاحب الاتصاف ، ومحل الإنصاف ، وموقف الوصاف ، ومشرف الأشراف ، وسر الأنعام والأعراف ، طوبى لسر وصل إليك ، وخر ساجدا بين يديك ، له عندي ما خبأته وراء حدي ، وقد ناجيتك به في مشهد المطلع ، عند ارتقائك عن المحل الأرفع ،

عبدي أنت سري ، وموضع أمري ، هذا موقف تعريفك ، بعلوك على كل الموجودات وتشريفك ، أنت روضة الأزهار ، وأزهار الروضات ، ومغرب الأسرار ، وأسرار المغرب ، ومشرق الأنوار ، وأنوار المشرق ، لولاك ما ظهرت المقامات والمشاهد ، ولا وجد المشهود ولا الشاهد ، ولا حدّت المعالم والمحامد ، ولا ميّز بين ملك وملكوت ، ولا تدرع لاهوت بناسوت ، بك ظهرت الموجودات وترتبت ، وبك تزخرفت أرضها وتزينت ، عبدي لولاك ما كان سلوك ولا سفر ، ولا عين ولا أثر ، ولا وصول ولا انصراف ، ولا كشف ولا إشراف ، ولامكان ولا تمكين ، ولا حال ولا تلوين ، ولا ذوق ولا شرب ، ولا قشر ولا لب ، ولا عبد ولا رب ، ولا ذهاب ولا نفس ، ولا هيبة ولا أنس ، ولا نفس ولا قبس ، ولا فرس ولا جرس ، ولا جناح ولا رفرف ، ولا رياح ولا موقف ، ولا معراج ولا انزعاج ، ولا تحلي ولا تجلي ، ولا وجد ولا وجود ، ولا حمد ولا محمود ، ولا تداني ولا ترقي ، ولا تدلي ولا تلقي ، ولا هين ولا لين ، ولا غان ولا رين ، ولا كيف ولا أين ، ولا فتق ولا رتق ، ولا ختم ولا ختام ، ولا وحي ولا كلام ، ولا وميض ولا برق ، ولا جمع ولا فرق ، ولا إصاخة ولا استماع ، ولا لذة ولا استمتاع ، ولا سلخ ولا انخلاع ، ولا صدق ولا يقين ، ولا خفي ولا مبين ، ولا مشكاة ولا نور ،

ص 518

ولا ورود ولا صدور ، ولا ظهر لصفاتي عين ، ولا تحقق وصل ولا بين ، ولا كان عرش ، ولا مهّد فرش ، ولا رفع غمام ، ولا أحرق اصطلام ، ولا كان فناء ولا بقاء ، ولا قبض ولا عطاء ، إلى غير ذلك من الأسرار ، ولا أشرقت الأنوار على الأسرار ، ولا جرت بحار الخلق على الأطوار ، لولاك ما عبدت ، ولا وحدت ، ولا علمت ، ولا دعوت ولا أجبت ، ولا دعيت ولا أجبت ، ولا شكرت ولا كفرت ، ولا بطنت ولا ظهرت ، ولا قدمت ولا أخرت ، ولا نهيت ولا أمرت ، ولا أعلنت ولا أسررت ، ولا أخبرت ولا أوضحت ، ولا أشرت ، أنت قطب الفلك ، ومعلم الملك ، رهين المحبس ، وسلطان المقام الأقدس ، أنت كيميائي ، وأنت سيميائي ، أنت إكسير القلوب ، وحياض روض الغيوب ، بك تنقلب الأعيان ، أيها الإنسان ، أنت الذي أردت ، وأنت الذي اعتقدت ، ربك منك إليك ، ومعبودك بين عينيك ، ومعارفك مردودة عليك ، ما عرفت سواك ، ولا ناجيت إلا إياك .

هذا كله في شرف الإنسان الكامل وإليه يشير ما جاء في الخبر

[ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي]

- يراجع الشرح في كتاب النجاة شرح كتاب الإسراء .

[سورة التين (95) : آية 5]

ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (5)

-**الوجه الأول** - فما بعده أسفل منه .

- **الوجه الثاني** -« ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ »أي هوى به مركب أعماله إلى أسفل سافلين إذا كان عمله فاسدا ، وقد كان في أحسن تقويم

- **الوجه الثالث** -« ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ »ليجمع له كمال الصورة بالأوصاف كما ذكر عن نفسه أنه عليه ، فأين اتصافه بنفي المثل عن نفسه ، من اتصافه بالحد والمقدار ، من استواء ونزول واستعطاف وتلطف في خطاب وغضب ورضا ، وكلها نعوت المخلوق ؟

فنحن بينه وبين معقولية الطبيعة التي أنشأ منها الأجسام الطبيعية ، وأنشأ من نسبة توجهه عليها الأرواح المدبرة ،

والإنسان ما ذكره الله في كتابه في موضع إلا وذكر عند ذكره صفة نقص تدل على خلاف ما خلق له ، لأن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وهو أنه خلقه له ،

ثم رده إلى أسفل سافلين ليكون له الرقي إلى ما خلقه الله له ، ليقع الثناء عليه بما ظهر منه من رقيه ، فمن الناس من بقي في أسفل سافلين الذي ردّ إليه ، وإنما ردّ إليه لأنه منه خلق ، ولولا ذلك لما صح رده ، وليس أريد بأسفل سافلين إلا حكم الطبيعة التي منها

ص 519

نشأ عندما أنشأ الله صورة جسده وروحه المدبرة له ، فرده إلى أصل ما خلقه منه ، فلم ينظر ابتداء إلا إلى طبيعته وما يصلح ، وأين هو من قوله : بلى ، عن معرفة صحيحة . فما أشرف الإنسان من حيث هو مجتمع الموجودات ومحل المضاهاة ومرآة المؤمن في الذات والصفات ، وما أوضعه حيث عمي عن معاينة ما أخفي له من قرة أعين ، يا أسفاه ما أشقاه ، إذا فاز بلذة سواه .

[سورة التين (95) : آية 6]
إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6)
" إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ " فإن عمله يصعد به إلى عليين (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) فيكون له أجر غير ممنون ، وهو الأجر المكتسب ، ولا يكون الأجر إلا مكتسبا ، فإن أعطى ما هو خارج عن الكسب لا يقال فيه أجر ،
بل هو نور وهبات ، إذا فهمت ذلك علمت أن الإنسان سر الوجود وروحه ومعناه ، وهو البداية والنهاية وهو المقصد الأقصى والعمد الذي لا يرى ، الممسوك لأجله السماوات العلى أن تقع على الأرض ، وهو الختم الحافظ للدنيا ، وبفكه منها يكون ختما على الآخرة ،
فقد جمعت صورته من العوالم ما لا يحصى ، ومن الرقائق والدقائق والحقائق ما لا يستقصى ، فبه دارت الأفلاك ، وله سجدت الأملاك ، فما أشرفه إن عرف نفسه ،
هكذا ، فيعرف ربه الغفار ، فهو إذا في أحسن تقويم وله أجر غير ممنون ، وما أسخفه إن جهلها فيدعى الظالم الكفار ، في لسان الأغيار ، ويرد إلى أسفل سافلين ، فو الله ما سبق مقصر مجدا أبدا .

[سورة التين (95) : الآيات 7 إلى 8]
فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (8)

(96) سورة العلق مكيّة

[سورة العلق (96) : الآيات 1 إلى 3]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3)

ص 520

اعلم أن الرحمن خلق الإنسان علمه البيان وهو ما ينطق به اللسان ، ثم الرب الأكرم هو .

[سورة العلق (96) : آية 4]
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)
ما يخطه البنان ، فالإنسان بنيان ، صنعة رب كريم وأكرم ورحمان .

[سورة العلق (96) : الآيات 5 إلى 6]
عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى (6)
أبان الله عن أرفع طريق الهدى ، وزجر عن طريق الردى ، فقال« كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى »ردعا وزجرا لحالة تحجبك ، فإن عزة الإيمان أعلى ، وعزة الفقر أولى ، فقال :

[سورة العلق (96) : آية 7]
أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى (7)
وذلك بأن يغلق الله عليه باب العطاء ، لما جعل في قلبه من خوف الفقر إن أعطى ، فيطغى في غناه في عين فقره ، فإن هو أعطى ما به استغنى افتقر فاحتقر ، فلا يزال الغني خائفا ولا يزال الفقير طالبا ، فالرجاء للفقير فإنه يأمل الغنى ، والخوف للغني فإنه يخاف الفقر .

[سورة العلق (96) : آية 8]
إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى (8)
- **إشارة -** لا راحة مع الخلق ، فارجع إلى الحق فهو أولى بك ، إن عاشرتهم على ما هم عليه بعدت عنه ، فإنهم على ما لا يرضاه ، وإن لم تعاشرهم وقعوا فيك ، فلا راحة .

[سورة العلق (96) : الآيات 9 إلى 14]
أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى (9) عَبْداً إِذا صَلَّى (10) أَ رَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى (12) أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى (14)
ما قال الله تعالى ذلك توبيخا وتنبيها وعرف بذلك عباده إلا لاختلاف أهل النظر في ذلك ، بين أنه يرانا وبين أنا نراه ، فالمؤمن على كل حال يعلم بأن الله يراه من هذا التعريف ،

ص 521

فما عرفهم إلا ليلزموا الحياء منه تعالى في تعدي حدوده ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [استحيوا من الله حق الحياء] ومن هذه الآية نعلم أن الممكنات وإن كانت لا تتناهى وهي معدومة ، فإنها عندنا مشهودة للحقّ عزّ وجل من كونه يرى ،
فإنّا لا نعلل الرؤية بالموجود ، وإنما نعلل الرؤية للأشياء بكون المرئي مستعدا لقبول تعلق الرؤية به ، سواء كان معدوما أو موجودا ، وكل ممكن مستعد للرؤية ، فالممكنات وإن لم تتناه فهي مرئية لله عزّ وجل ، لا من حيث نسبة العلم ، بل من نسبة أخرى تسمى رؤية ، كانت ما كانت ،
لذلك لم يقل تعالى هنا : ألم يعلم بأن الله يعلم ؛ وبهذه الآية قصم الظهر وحير العقل ، فإنه صلّى الله عليه وسلّم قال [إن لله سبعين حجابا من نور وظلمة ، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه] .

[سورة العلق (96) : الآيات 15إلى 19]
كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (15) ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ (18) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)
جاء الأمر بالسجود هنا بعد كلمة ردع وزجر ، وهو قوله« كَلَّا »« لا تُطِعْهُ »
لما جاء به من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، يقول له ربه :وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ »
[« كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ « الآية :]
لما تعتصم مما دعاك إليه فتأمن من غائلة ذلك ، وقد جعل الله القربة في الصلاة في حال السجود ، وليس الإنسان بمعصوم من الشيطان في شيء من صلاته إلا في السجود ، فإنه إذا سجد اعتزل عنه الشيطان يبكي على نفسه ، ويقول : أمر ابن آدم بالسجود فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار ؛ وإنما أمرت الملائكة والخلق بالسجود وجعل معه القربة ، وقال صلّى الله عليه وسلّم [أقرب ما يكون العبد من الله في سجوده]

ليعلموا أن الحق في نسبة الفوق إليه من قوله :(وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ)
و(يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ)كنسبة التحت إليه ، فإن السجود طلب السفل بوجهه ، كما أن القيام يطلب الفوق إذا رفع وجهه بالدعاء ويديه ، وقد جعل الله السجود حالة القرب من الله ، فلم يقيده سبحانه الفوق عن التحت ولا التحت عن الفوق ، فإنه خالق الفوق والتحت ، فشرع الله للعبد السجود ، وجعل له فيه القربة ، لأنه ربما يتخيل العبد تنزيه الحق عن التحت أن يكون له نسبة إليه ، فطلبت الوجوه بالسجود رؤية ربها ، لأن الوجوه مكان الأعين ، والأعين محل الأبصار ، فطلبه العبد في سجوده ليراه من حيث

ص 522

حقيقته ، فإن التحت للعبد لأنه سفل ، ونبّه الشرع على ذلك بحديث الهبوط ، وهو أنا روينا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : [لو دليتم بحبل لهبط على الله]
فنسبة التحت والفوق إليه سبحانه على السواء ، لا تحده الجهات ولا تحصره ، وكل أحد إنما يطلب ربه من حقيقته ، ومن حيث هو ، فنسبة العلو والسفل من الله واحدة ، فالعلو لله عرفا وعلما ، والمعية علما وشرعا لا عرفا ، ولما كان السجود في العرف بعدا عما يجب لله من العلو ، أراد الله أن يرى حكمه في الغاية وليس إلا السجود ، فمن سجد اقترب من الله ضرورة ، فيشهده الساجد في علوه ،
ولهذا شرع للعبد أن يقول في سجوده [سبحان ربي الأعلى] ينزهه عن تلك الصفة ، ولما كان السجود حال القربة وصفة المقربين
قال له :« اسْجُدْ وَاقْتَرِبْ »يعني اقتراب كرامة وبر وتحف ، كما يقول الملك للرجل إذا دخل عليه فحياه بالسجود له بين يديه ،
فيقول له الملك : أدنه أدنه ، حتى ينتهي منه حيث يريد من القربة ، فهذا معنى قوله »وَاقْتَرِبْ »في حال السجود ، إعلاما بأنه قد شاهد من سجد له ، وأنه بين يديه ، وهو يقول له : اقترب ؛ ليضاعف له القربة ،
كما قال [من تقرب إلي شبرا تقربت منه ذراعا] فإذا كان اقتراب العبد عن أمر إلهي كان أعظم وأتم في بره وإكرامه ، لأنه ممتثل أمر سيده على الكشف والشهود ،
ودلّت هذه الآية على أن أول شيء يمنحك السجود هو القربة ، ثم بعد ذلك تعطى من مقام القربة ما يليق بالمقربين من الملائكة والنبيين ،
وليس في العبادات ما يلحق العبد بمقامات المقربين - وهو أعلى مقام أولياء الله من ملك ورسول ونبي وولي ومؤمن - إلا الصلاة ، فإن الله في هذه الحالة يباهي به المقربين من ملائكته ،
وذلك أنه يقول لهم : يا ملائكتي أنا قربتكم ابتداء وجعلتكم من خواصّ ملائكتي ، وهذا عبدي جعلت بينه وبين مقام القربة حجبا كثيرة وموانع عظيمة ، من أغراض نفسية وشهوات حسية ، وتدبير أهل ومال وولد وخدم وأصحاب وأهوال عظام ،
فقطع كل ذلك وجاهد حتى سجد واقترب فكان من المقربين ، فانظروا ما خصصتكم به يا ملائكتي من شرف المقام حيث ما ابتليتكم بهذه الموانع ولا كلفتكم مشاقها ،
فاعرفوا قدر هذا العبد وراعوا له حق ما قاساه في طريقه من أجلي ، فتقول الملائكة : يا ربنا لو كنا ممن يتنعم بالجنان وتكون محلا لإقامتنا ألست كنت تعيّن لنا فيها منازل تقتضيها أعمالنا ؟
ربنا نحن نسألك أن تهبها لهذا العبد ، فيعطيه الله ما سألته فيه الملائكة ، فانظروا ما أشرف الصلاة ، وأفضل ما فيها ذكر الله من الأقوال ،

ص 523

والسجود من الأفعال ، وفيه العصمة من الشيطان ، فإنه لا يفارق المصلي في شيء من أفعال الصلاة إلا في السجود خاصة ، لأنه خطيئته ، وعند السجود يبكي ويتأسف ثم يعود إلى الإغواء عند الرفع من السجود ، ومن جهة أخرى ، لما كان الإنسان مظهرا للأسماء الإلهية ، وكونه على الصورة أعطاه ذلك الرفعة ، ولاتصافه بالرفعة أمر بالسجود ليمنحه التقريب ، فهذه السجدة سجدة طلب القرب من الله

[إشارة : الحق قبلة القلب]

-إشارة - اعلم أن الله تعالى لما خلق العالم جعل له ظاهرا وباطنا ، وجعل منه غيبا وشهادة ، وكله لله شهادة وظاهر ، فجعل القلب من عالم الغيب وجعل الوجه من عالم الشهادة ، وعيّن للوجه جهة يسجد لها سماها بيته وقبلته ،

أي يستقبلها بوجهه إذا صلى ، وجعل استقبالها عبادة ، وجعل أفضل أفعال الصلاة السجود وأفضل أقوالها ذكر الله بالقرآن ، وعيّن للقلب نفسه سبحانه ، فلا يقصد غيره ، وأمره أن يسجد له ، فإن سجد عن كشف لم يرفع رأسه أبدا من سجدته دنيا وآخرة ،

ومن سجد من غير كشف رفع رأسه ، ورفعه المعبر عنه بالغفلة عن الله ونسيان الله في الأشياء ، فمن لم يرفع رأسه في سجود قلبه فهو الذي لا يزال يشهد الحق دائما في كل شيء ، فلا يرى شيئا إلا ويرى الله قبل ذلك الشيء ، وهذه حالة أبي بكر الصديق .

[شاهد السجدتين]

-إشارة - شاهد السجدتين ، أنت كل من حيث حقك وحقيقتك ، وأنت جزء من حيث أحدهما ، فله عليك سجدتان ، لكونك على حقيقتين ، فاسجد له من حيث كلك سجود العالم كله ، فتجدك قد استوفيت حقائق سجودهم في سجدتك ، وإن لم تجد ذلك فما سجدت ، واسجد له أيضا السجدة الثانية التي لا تعم ، وهو سجود الاختصاص ، بما تختص به خاصيتك التي لا مشاركة فيها ، ولا يقبل السجود الخاص إلا في الصلاة ، وهو سجود القلب ، وسجود كل قلب على حدّ علمه ، وعلمه على حدّ ما يتجلى له ، وهاتان السجدتان ، خلع الثياب ، وتحجير الأسباب ، وذبح النفس ، ورمي الكون ، وإلا فكيف يصح سجود الاختصاص بوجود الكثرة ؟

- إشارة – " وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ "

دعاك إلى الاقتراب الاسم القريب ، فإنك المحب ليس الحبيب ، ولهذا قال لك »وَاقْتَرِبْ «ولو كنت محبوبا لقال لك : تقترب ؛ فإذا لاحت لك عبوديتك في سجودك ، وصحت لك القربة من معبودك ، وتحققت كبرياءه فيها ، وقلت عند ذلك : نوفيها ، غلطت وأصبت ، وأحطت وخبتّ ، فانظر في علوه ، ونزاهته في

ص 524

سموه ، وسبحه على قدر ما ظهر ، كما شرع وأمر ، يبدو لك في هذا الخضوع ، ما بدا لك في الركوع ، من إعادة التنزيه إليك ، ورده عليك « 1 » ،
واجتهد في الدعاء ، مع أن قبلته في السماء ، وقبلتك في سجودك في الأرض ، محل الانحطاط والخفض ، لا تجزع أيها الساجد ، فإنك لفخذ نقطة الدائرة المشاهد ، وهي الغيب الحقيقي ، والإله الخالقي ، فمكّن كفيك من الترب ،
فإنك في محل القرب ، فتفطّن لما رمزناه ، وفك المعمى الذي ألغزناه ، واعلم أنك معصوم في سجودك من الشيطان ، فإنه قهارة فليس له عليك سلطان ، إذا عاين هذه الحال اشتغل بنفسه ، واحترق في برج نحسه ، وصار شاهدا لك عند ربك بالطاعة ، ومشاهدا لما يؤول إليه من الخسران يوم قيام الساعة ، ويكفيك هذا القدر في سجودك ، فإنه حجابك في استمرار وجودك ، جعلنا الله وإياكم ممن سجد فوجد ، وتهجد فتمجد ، بمنه وكرمه .

(97) سورة القدر مكيّة

[سورة القدر (97) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1)

قوله تعالى« إِنَّا أَنْزَلْناهُ »بنون الجمع والعظمة ، فجمع في إنزاله فيها جميع الأسماء الإلهية« فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ »

[ليلة القدر]

اعلم أن الله أنزل الكتاب فرقانا في ليلة القدر ليلة النصف من شعبان ، وأنزله قرآنا في شهر رمضان ، كل ذلك إلى السماء الدنيا ، ومن هناك نزل في ثلاث وعشرين سنة فرقانا نجوما ذا آيات وسور ، لتعلم المنازل وتتبين المراتب ،
فمن نزوله إلى الأرض في شهر شعبان يتلى فرقانا ، ومن نزوله في شهر رمضان يتلى قرآنا،
واختلف الناس في ليلة القدر أعني في زمانها ، فهي عندنا تدور في السنة كلها ، وقد جعلها الله دائرة متنقلة في الشهور وفي أيام

---

(1)ينظر إليه قوله صلّى الله عليه وسلّم في الحديث القدسي [إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أردها عليكم]
- راجع قول أبي يزيد البسطامي : سبحاني - في كتابنا شرح كلمات الصوفية.

ص 525

الأسبوع ، حتى يأخذ كل شهر من الشهور قسطه منها ، وكذلك كل يوم من أيام الأسبوع ، كما جعل رمضان يدور في الشهور الشمسية ، حتى يأخذ كل شهر من الشهور الشمسية فضيلة رمضان فيعمّ فضل رمضان فصول السنة كلها ، وعلامتها محو الأنوار بنورها ، فيمحو نور ليلة القدر شعاع الشمس حتى تعلو قيد رمح أو أقل من ذلك ، فحينئذ يرجع إليها نورها ، فترى الشمس تطلع في صبيحتها صبيحة ليلة القدر كأنها طاس ليس لها شعاع ، من وجود الضوء ، مثل طلوع القمر لا شعاع له.

[سورة القدر (97) : آية 2]
وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2)

التي أمرنا بالتماسها لعظم قدرها وعظم قدر من أنزلها ، وحقارة من التمسها عند نفسه بالتماسها ، فإنه شاهد بالتماس هذا الخير العظيم القدر على نفسه بافتقار عظيم يقابله ، لأن العبد كلما أراد أن يتحقق بعبوديته حقّر قدره ، إلى أن يلحق نفسه بالعدم ، فسميت ليلة القدر لمعرفة أهل الحضور فيها بأقدارهم ، أعني بحقارة أقدارهم .

[سورة القدر (97) : آية 3]
لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3)

[كونها خير من ألف شهر :]

-الوجه الأول - إن ليلة القدر إذا صادفها الإنسان هي خير له فيما ينعم الله به عليه من ألف شهر ، أن لو لم تكن إلا واحدة في ألف شهر ، فكيف وهي في كل اثني عشر شهرا في كل سنة ؟

- الوجه الثاني - ما أراد بألف شهر توقيتا ، بل أراد أنها خير على الإطلاق من جميع ليالي الزمان ، في أي وجود كان ، وفيه زمان رمضان ويوم الجمعة ويوم عاشوراء ويوم عرفة وليلة القدر ،

فكأنه قال : تضاعف خيرها ثلاثا وثمانين ضعفا وثلث ضعف ، لأنها ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، قد تكون الأربعة أشهر مما يكون فيها ليلة القدر ،

فيكون التضعيف في كل ليلة قدر أربعة وثمانين ضعفا ، فانظر ما في هذا الزمان من الخير ، فهي خير من ألف شهر من غير تحديد ،

وإن كان الزائد على ألف شهر غير محدود ، فلا يدري حيث ينتهي ، فما جعلها الله أنها تقاوم ألف شهر ، بل جعلها خيرا من ذلك ،

أي أفضل من ذلك من غير توقيت ، فإذا نالها العبد كان كمن عاش في عبادة ربه مخلصا أكثر من

ص 526

ألف شهر ، من غير توقيت ، كمن يتعدى العمر الطبيعي يقع في العمر المجهول ، وإن كان لا بدّ له من الموت ولكن لا يدري ، هل يعد تعديه العمر الطبيعي بنفس واحد ، أو بآلاف من السنين ؟

فهكذا ليلة القدر إذ لم تكن محصورة كما قدمنا ، وجعل سبحانه إضافة الليل إلى القدر دون النهار لأن الليل شبيه بالغيب ، والتقدير لا يكون إلا غيبا ، فهي ليلة المقادير مقادير الأشياء ، والمقادير ما تطلب سوانا ، فلهذا أمرنا بطلب ليلة القدر ،

وهو قوله صلّى الله عليه وسلّم [التمسوها] لنستقبلها ، وكان نزول القرآن في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، فأتى بغاية أسماء العدد البسيط الذي لا اسم بعده بسيط إلا ما يتركب ، كما كان القرآن آخر كتاب أنزل من الله ،

كما كان من أنزل عليه آخر الرسل وخاتمهم ، ثم أضاف ذلك الاسم الذي هو ألف إلى شهر بالتنكير ، فيدخل الفصول فيه ، والشهر العربي قدر قطع منازل درجات الفلك كله لسير القمر الذي به يظهر الشهر ، فلو قال : أزيد من ذلك لكرر ،

ولا تكرار في الوجود ، بل هو خلق جديد ، ولو نقص بذكر الأيام أو الجمع لما استوفى قطع درجات الفلك ، فلم تكن تعم رسالته ،

ولم يكن القرآن يعم جميع الكتب قبله ، لأنه ما ثمّ سير لكوكب يقطع الدرجات كلها في أصغر دورة إلا القمر ، الذي له الشهر العربي ،

فلذلك نزل في ليلة هي خير من ألف شهر ، أي أفضل من ألف شهر ، والأفضل زيادة ، والزيادة عيّنها ، وجعل الأفضلية في القدر وهي المنزلة عند الله لذلك المذكور ،

وكانت تلك الليلة المنزل فيها التي هي ليلة القدر موافقة ليلة النصف من شعبان ، فإنها« لَيْلَةِ الْقَدْرِ »تدور في السنة كلها ،

فأي ليلة شاء الله أي يجعلها محلا من ليالي السنة ، للقدر الذي به تسمى ليلة القدر جعل ذلك ، فإن كان ذلك من ليالي السنة ليلة لها خصوص فضل على غيرها من ليالي السنة ، كليلة الجمعة وليلة عرفة وليلة النصف من شعبان وغير تلك من الليالي المعروفة ، فينضاف خير تلك الليلة إلى فضل القدر ، فتكون ليلة القدر تفضل ليلة القدر في السنة التي لا ينضاف إليها فضل غيرها .

[سورة القدر (97) : آية 4]
تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4)

« تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ »ما نزل فيها واحد« وَالرُّوحُ «القائم فيهم مقام الإمام في الجماعة« فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ »وكل يقتضي جميع الأمور التي يريد الحق تنفيذها في خلقه.

ص 527

[سورة القدر (97) : آية 5]
سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)
حتى نهاية غاية ، فإنها تتضمن حرف إلى التي للغاية ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [من قام ليلة القدر فيوافقها إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر] فألحقت من قامها برسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المغفرة ، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [من حرم خيرها فقد حرم] .
[إشارة : في قيام ليلة القدر :]
-إشارة - من قام ليلة القدر من أجل ليلة القدر فقد قام لنفسه ، وإن كان قيامه لترغيب الحق في التماسها ، ومن قام لأجل الاسم الذي أقامه ، رمضان أو غيره ، فقيامه لله لا لنفسه ، وهو أتم ، والكل شرع ، فمن الناس عبيد ومنهم أجراء ، ولأجل الإجارة نزلت الكتب الإلهية بها بين الأجير والمستأجر ، فلو كانوا عبيدا ما كتب الحق كتابا لهم على نفسه ، فإن العبد لا يوقّت على سيده ، إنما هو عامل في ملكه ، ومتناول ما يحتاج إليه ، فها أولئك لهم أجرهم ، والعبيد لهم نورهم ، وهو سيدهم ،
وقد قال صلّى الله عليه وسلّم [التمسوها] لنستقبلها كما يستقبل القادم إذا جاء من سفره ، والمسافر إذا جاء من سفره فلا بد له إذا كان له موجود من هدية لأهله الذين يستقبلونه ، فإذا استقبلوه واجتمعوا به دفع إليهم ما كان قد استعده به لهم ، فتلك المقادير فيهم ،
وبذلك فليفرحوا ، فمنهم من تكون هديته لقاء ربه ، ومنهم من تكون هديته التوفيق الإلهي والاعتصام ، وكل على حسب ما أراد المقدّر أن يهبه ويعطيه ، لا تحجير عليه في ذلك ،
وجاء في حديث الترمذي عن أبي ذر ،
وفيه يقول [فقام بنا حتى تخوفنا أن يفوت الفلاح ، قيل : وما الفلاح ؟ قال : السحور] ينبه بذلك على أن الإنسان إنما هو في الصوم بالعرض ، فإنه لا بقاء له ، فإن الصوم لله ، فالإنسان في بقائه آكل لا صائم ، فهو متغذ بالذات صائم بالعرض ، والفلاح البقاء ،
لهذا قال الصاحب لما اتصف في ليلته بالقيوم ،
قال : تخوفنا أن يفوتنا الفلاح ، وهو أن ينقضي زمان الليل وما عرفنا نفوسنا ، إذ في معرفتنا بها معرفة ربنا ، لكنهم ما فاتهم الفلاح بحمد الله ، بل أشهدهم الله نفوسهم بالغذاء ، ليشهدوا أن القيومية له ذاتية ، وقيومية العبد إنما هي بإمداد ما يتغذى به ،
فالتماسنا لليلة القدر لم يغننا عن حظوظ نفوسنا التي بها بقاؤنا ، وهو التغذي ، فإن التماسنا لها إنما هو لما ينالنا من خيرها في دار البقاء ، فما التمسناها بالعبادة إلا لحظ نفسي نبقى به في الدار الآخرة ، وأما التماسها في الجماعة فلمناسبة الجمعية في الإنسان ،
فإنه لا أعرف بالله منه ، لجمعيته وعقله ومعرفته بنفسه.

ص 528

(98) سورة البيّنة مدنيّة

[سورة البينة (98) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (2) فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3) وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4) وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5)

« وَما أُمِرُوا »وهؤلاء هم أهل المكابدة والمجاهدة في استخلاص الدين ممن أمرهم الله أن يستخلصوه منه ، من شيطان أو باعث من خوف ورغبة وجنّة ونار ، وليس على الحقيقة إلا هوى أنفسهم« إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ »

[إخلاص الدين لله تعالى :]

الإخلاص النية ، ولهذا قيدها بقوله« لَهُ »لا لغيره ولا لحكم الشركة ، وفي النية نقول :

الروح للجسم والنيات للعمل *** تحيا بها كحياة الأرض بالمطر
فتبصر الزهر والأشجار بارزة *** وكل ما تخرج الأشجار من ثمر
كذاك تخرج من أعمالنا صور *** لها روائح من نتن ومن عطر
لولا الشريعة كان المسك يخجل من *** أعرافها هكذا يقضي به نظر
يإذا كان مستند التكوين أجمعه *** له فلا فرق بين النفع والضرر
فالزم شريعته تنعم بها سورا *** تحلها صور تزهو على سرر
مثل الملوك تراها في أسرّتها *** أو كالعرائس معشوقين للبصر

ص 529

روينا من حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال [إنما الأعمال بالنيات وإنما لامرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه]
فالنية لجميع الحركات والسكنات من المكلفين للأعمال كالمطر لما تنبته الأرض ، فالنية من حيث ذاتها واحدة وتختلف بالمتعلق وهو المنوي ،
فتكون النتيجة بحسب المتعلق به لا بحسبها ، فإن حظ النية إنما هو القصد للفعل أو تركه ، وكون ذلك الفعل حسنا أو قبيحا وخيرا أو شرا ما هو أثر النية ،
وإنما هو أمر عارض ميّزه الشارع وعيّنه للمكلف ، فليس للنية أثر البتة من هذا الوجه خاصة ، وإنما النية سبب في ظهور الأعمال الصالحة وغير الصالحة ،
وليس لها إلا الإمداد ، وحقيقتها تعطي تعلقها بالمنوي ، وكون ذلك المنوي حسنا أو قبيحا ليس لها ، وإنما ذلك لصاحب الحكم فيه بالحسن والقبح ، فالمخاطب المكلف إن نوى الخير أثمر خيرا ، وإن نوى الشر أثمر شرا ،
وما أتي عليه إلا من المحل من طيبه وخبثه ، فالإخلاص هو النية ، فإن فاتتك النية فاتك الخير كله ، فكثير ما بين فاعل بنية القربة إلى الله وبين فاعل بغير هذه النية ، والعبادة عمل وترك ، فالإخلاص مأمور به شرعا« الدِّينَ »وهو ما تعبدهم به« حُنَفاءَ »« وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ »فيجب تأخر العبد عن رتبة سيده ،
وتخليص عبوديته لله من غيره ، كما أقر له بذلك في قبضة الذرية ، يريد الحق أن يستصحبه ذلك الإقرار في حياته الدنيا موضع الحجاب والستر ، فإن الحق له التقدم على الخلق بالوجود من جميع الوجوه وبالمكانة والرتبة ، فكان ولا مخلوق ،
هذا تقدم الوجود ، وقدّر وقضى وحكم وأمضى إمضاء لا يردّ ولا يقضى عليه ، فهذا تقدم الرتبة ، فلا يجتمع الخلق والحق أبدا في وجه من الوجوه ، فالعبد عبد لنفسه ، والرب رب لنفسه ، فأوجب على عباده التأخر عن ربوبيته ، فشرع له الصلاة ليسميه بالمصلي ، وهو المتأخر عن رتبة ربه ، فقال تعالى من باب الإشارة« وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ »فمن لزم رتبته منا فما جنى .
على نفسه بل أعطى الأمر حقه« وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ».

[سورة البينة (98) : آية 6]
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6)

ص 530

اعلم أن كل مشرك كافر ، فإن المشرك باتباع هواه فيمن أشرك واتخذه إلها وعدوله عن أحدية الإله ، يسترها عن النظر في الأدلة والآيات المؤدية إلى توحيد الإله فسمي كافرا لذلك الستر ظاهرا وباطنا ، وسمي مشركا لكونه نسب الألوهية إلى غير الله مع الله ، فجعل لها نسبتين فأشرك ، فهذا الفرق بين المشرك والكافر ،

وأما الكافر الذي ليس بمشرك فهو موحد غير أنه كافر بالرسول وببعض كتابه ،

وكفره على وجهين :

الوجه الواحد أن يكون كفره بما جاء من عند الله مثل كفر المشرك في توحيد الله ،

والوجه الآخر أن يكون عالما برسول الله وبما جاء من عند الله أنه من عند الله ويستر ذلك عن العامة والمقلدة من أتباعه رغبة في الرئاسة ، وهو الذي أراد عليه السلام بقوله في كتابه إلى قيصر [فإن توليت فعليك إثم الأريسيين] أي الأتباع .

[سورة البينة (98) : الآيات 7 إلى 8]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7) جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8)

متعلق الرضا القليل ، فإن الإنعام لا يتناهى بالبرهان الواضح والدليل ، فلا بد من الرضى ، بذا حكم الدليل وقضى ، وبهذا المعنى رضاه سبحانه عنك بما أعطيته منك« رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ »لما كانت مواهب الله لا نهاية لها ، فما لها آخر ترجع إليه فتنقضي ، والعبد ما وفى فيما كلفه الله وسعه ولا حق استطاعته ، فصح وثبت« رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ »فيما أتوا به من الأعمال« وَرَضُوا عَنْهُ »ورضوا بما وهبهم مما عنده مما لا يتناهى كثرة ،

فالرضا من صفات الحق والرضا من صفات الخلق بما ينبغي للحق وبما يليق بالمخلوق ، ورد في بعض الأخبار النبوية أن الناس في الجنة إذا أخذوا منازلهم فيها ، ناداهم الحق جل جلاله بالكلام الذي ينبغي أن ينسب إليه من غير تكييف ولا تشبيه

[يا عبادي هل بقي لكم شيء]

فيقولون : [يا ربنا ما بقي لنا شيء ، نجيتنا من النار وأدخلتنا الجنة وكسوتنا وأطعمتنا وسقيتنا وفعلت وصنعت ، فيقول جل جلاله : وبقي لكم شيء ،

فيقولون : يا ربنا وما بقي لنا ؟

فيقول : أن أعلمكم برضائي عنكم فلا أسخط عليكم أبدا ، هل رضيتم ؟

فيقولون : رضينا عنك]

ص 531

فما يسر أهل الجنة بشيء أعظم من سرورهم بهذا الخطاب ، وهؤلاء المخاطبون بهذا الخطاب هم أهل الجنة الذين هم أهلها ، العاملون لها والمتعشقون بها ، الذين ما طلبوا من الحق سواها ، وأما العارفون أهل الله وخاصته فليس لهم في هذا الخطاب مدخل ،
إذ قد نالوه في الدنيا ، وأولئك في الآخرة ، فالعارفون في الجنة بحكم العرض لا بحكم الذات وهم مع الله بالذات ،
فقيل فيهم : أهل الله وخاصته ، ولم ينسبوا إلى الجنة لكن الجنة تنسب إليهم ، وأما أهل الجنة الذين هم أهلها فهم مع الجنة بالذات ومع الله بالعرض ، فرؤيتهم لله تعالى في أوقات مخصوصة ، وكلهم في الجنان مع الحور والولدان»
ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ »بطلب الحق المشروع ليتصف به ، بالعمل ليرضي الله بذلك ، فيكون ممن رضي الله عنهم في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، فهم على ما شرع لهم رقيقة
- خشية الفؤاد من قلة الزاد وهول المعاد ،
بل هو من سوء المعاملة مع طلب المواصلة ، بل هو من الدعوى مع التعدي في التقوى .

(99) سورة الزّلزلة مدنيّة
بسم الله الرّحمن الرّحيم

سورة إذا زلزلت تقوم مقام أو تعدل نصف القرآن إذا قسم قسمين .

[سورة الزلزلة (99) : الآيات 1 إلى 6]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها (2) وَقالَ الْإِنْسانُ ما لَها (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ (6)
لا تخدعنك دار لا بقاء لها *** بالله يا صاح كن منها على حذر
إن زلزلت راح ذاك المزج وانفصلت *** هذي إلى الخلد والأخرى إلى سقر
فلا يغرنك شيء أنت تاركه *** فإنما الناس في الدنيا على سفر
وإنما هي أعمالكم ترد عليكم ، ولا يبرز لكم إلا ما عملتم بيديكم ، فما للنفوس جنى

إلا ما غرسته في حياتها الدنيا من خير أو شر ، فمن بذر حنطة ، حصد حنطة كانت له فيها غبطة ، ومن بذر ما بذر ، حصد مثل الذي بذر ، فقال تعالى :

ص 532

[سورة الزلزلة (99) : آية 7]
فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7)
[وزن الأعمال :]
الأعمال معان عرضية تعرض للعامل ، ألحقها الله بالموزون فقال« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ »فأدخل العمل في الميزان ، فكان موزونا في الحضرة المثالية التي لا تدرك المعاني إلا في صورة المحسوس ، والحق تعالى يحفظ الأعمال إما للعبد أو عليه ،
فيكسو الله الأعمال التي هي أعراض لا تقوم بنفسها صور القائمين بأنفسهم ، ويجعل ذلك خلعا عليها ،
ولذلك جاء وزن الأعمال وشبّهها بمثاقيل الذر ، فمن عمل خيرا على أي وجه كان فإنه يراه ويجازى به ، ومن عمل شرا فلا بد أن يراه وقد يجازى به ،
وقد يعفى عنه ويبدل له بخير إن كان في الدنيا قد تاب ، وإن مات عن غير توبة فلا بد أن يبدل بما يقابله بما تقتضيه ندامته يوم يبعثون . قال صلّى الله عليه وسلّم [إنما هي أعمالكم ترد عليكم ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر] .

[سورة الزلزلة : (99) آية 8]
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)
وأقله العتاب الإلهي والتقرير عند السؤال على ما وقع منه ، فلا بد أن يقف على ما عمل ، فالمؤمن يرهب من هذا التوبيخ برؤية العمل القبيح الذي لا بد له من رؤيته ، ولم يتعرض الحق في هذه الآية للمؤاخذة به ، فالرؤية لا بد منها ،
فإن كان ممن غفر له يرى عظيم ما جنى وعظيم نعمة الله عليه بالمغفرة ، هذا يعطيه الخبر الإلهي الصدق الذي لا يدخله الكذب ، فإنه محال على الجناب الإلهي ، فإن نظر العالم إلى أن خطاب الحق لعباده إنما يكون بحسب ما تواطئوا عليه ،
وهذا خطاب عربي لسائر العرب بلسان ما اصطلحوا عليه ، من الأمور التي يتمدحون بها في عرفهم ومن الأمور التي يذمونها في عرفهم ، فعند العرب من مكارم الأخلاق أن الكريم إذا وعد وفا وإذا أوعد تجاوز وعفا ، وهي من مكارم أخلاقهم ومما يمدحون بها الكريم ،
ونزول الوعيد عليهم بما هو في عرفهم ، لم يتعرض في ذلك لما تعطيه الأدلة العقلية من عدم النسخ لبعض الأخبار ولاستحالة الكذب ، بل المقصود إتيان مكارم الأخلاق ، قال شاعرهم:

ص 533

وإني إذا أوعدته أو وعدته *** لمخلف إيعادي ومنجز موعدي
مدح نفسه بالعفو والتجاوز عمن جنى عليه ، بما أوعد على ذلك من العقوبة بالعفو والصفح ، ومدح نفسه بإنجاز ما وعد به من الخير ،
يقال في اللسان : وعدته في الخير والشر ، ولا يقال : أوعدته بالهمز إلا في الشر خاصة ،
والله يقول(وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ)
أي بما تواطئوا عليه ، والتجاوز والعفو عند العرب مما تواطئوا على الثناء به على من ظهر منه ، فالله أولى بهذه الصفة ، وقد عرفنا الله أن وعيده ينفذه فيمن شاء ويغفر لمن شاء.

[إشارة : إذا زلزلت أرض الجسوم زلزالها :]
-**إشارة** - إذا بلغت النفس التراق ، وقيل : من راق ، والتفت الساق بالساق ، وزلزلت أرض الجسوم زلزالها ، وبان للنفس ما عليها وما لها ، وزلت بها القدم ، حينئذ تندم ولا ينفعها الندم.

(100) سورة العاديات مكيّة

[سورة العاديات (100) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْعادِياتِ ضَبْحاً (1) فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (2) فَالْمُغِيرات صُبْحاً (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (5) إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8)

[النفس مجبولة على حب المال وجمعه :]
الخير يعني المال ، فالنفس مجبولة على حب المال وجمعه ، فجعل الكرم في الإنسان تخلقا لا خلقا ، ولهذا سمى الزكاة صدقة أي كلفة شديدة على النفس لخروجها عن طبعها في ذلك .

[سورة العاديات (100) : الآيات 9 إلى 10]

أَ فَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ (10)

إذا بعثت الأجسام من قبورها ، وحصل للعرض عليها ما في صدورها ، صدق الخبر الخبر ، وما بقي للريب في ذلك أثر.

[سورة العاديات (100) : آية 11]
إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)
فاكتفى بالخبرة عن العلم ، إذ كانت كل خبرة علما .

(101) سورة القارعة مكيّة

[سورة القارعة (101) : الآيات 1 إلى 4]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الْقارِعَةُ (1) مَا الْقارِعَةُ (2) وَما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ (3 (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ (4)
[العالم كله يطلب الرحمة]
لما كانت رحمة الله واسعة ، ونعمته سابغة جامعة ، حشر العالم يوم القيامة كالفراش المبثوث ، لأن الرحمة منبثة في المواطن كلها ، فانبث العالم في طلبها لكون العالم على أحوال مختلفة ، وصور متنوعة الوجوه ، فتطلب بذلك الانبثاث من الله الرحمة التي تذهب منه تلك الصورة التي تؤديه إلى الشقاء ، فهذا سبب انبثاثهم في ذلك اليوم .

[سورة القارعة (101) : آية 5]
وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5)
كذلك الجبال الصلبة تكون كالعهن المنفوش ، لما خرجت عنه من القساوة إلى اللين ، الذي يعطي الرحمة بالعباد .

[سورة القارعة (101) : الآيات 6 إلى 7]
فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (7)
فإذا رفع ميزان العدل ، في قبة الفصل ، فاز بالثقل أهل الفضل.

ص 535

[سورة القارعة (101) : الآيات 8 إلى 11]
وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ (9) وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ (10) نارٌ حامِيَةٌ (11)
[وزن الأعمال :]
-الوجه الأول - اعلم أن الميزان الذي يوزن به الأعمال على شكل القبان ، ولهذا وصف بالثقل والخفة ، ليجمع بين الميزان العددي وهو قوله تعالى)بِحُسْبانٍ) وبين ما يوزن بالرطل ، وذلك لا يكون إلا في القبان ،
فلذلك لم يعين الكفتين بل قال :« فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ »في حق السعداء« وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ » في حق الأشقياء ، ولو كان ميزان الكفتين
لقال : وأما من ثقلت كفة حسناته فهو كذا ، وأما من ثقلت كفة سيئاته فهو كذا ؛
وإنما جعل ميزان الثقل هو عين ميزان الخفة كصورة القبان ، ولو كان ذا كفتين لوصف كفة السيئات بالثقل أيضا إذا رجحت على الحسنات ، وما وصفها قط إلا بالخفة ، فعرفنا أن الميزان على شكل القبان . - راجع الأعراف آية 9 –
الوجه الثاني - الوزن وزنان :
وزن الأعمال بعضها ببعض ويعتبر في ذلك كفة الحسنات ،
ووزن الأعمال بعاملها ويعتبر فيها كفة العمل .
لما كان الحشر يوم القيامة والنشور في الأجسام الطبيعية ، ظهر الميزان بصورة نشأتهم من الثقل ، فإذا ثقلت موازينهم وهم الذين أسعدهم الله فأرادوا حسنا ، وفعلوا في ظاهر أبدانهم حسنا ، فثقلت موازينهم ، فإن الحسنة بعشر أمثالها إلى مائة ألف مما دون ذلك وما فوقه ، وأما القبيح السيّئ فواحدة بواحدة ، فيخف ميزانه أعني ميزان الشقي بالنسبة إلى ثقل السعيد .
واعلم أن الحق تعالى ما اعتبر في الوزن إلا كفة الخير ، لا كفة الشر ، فهي الثقيلة في حق السعيد ، الخفيفة في حق الشقي ، مع كون السيئة غير مضاعفة ، ومع هذا فقد خفت كفة خيره ، فانظر ما أشقاه ، فالكفة الثقيلة للسعيد هي بعينها الخفيفة للشقي لقلة ما فيها من الخير أو لعدمه بالجملة ، مثل الذي يخرجه سبحانه من النار وما عمل خيرا قط ، فميزان مثل هذا ما في كفة اليمين منه شيء أصلا ، وليس عنده إلا ما في قلبه من العلم الضروري بتوحيد الله ، وليس له في ذلك تعمل ، مثل سائر الضروريات ؛ فلو اعتبر الحق بالثقل والخفة الكفتين ، كفة الخير والشر لكان يزيد بيانا في ذلك ، فإن إحدى الكفتين إذا ثقلت خفت الأخرى بلا شك ، خيرا كان أو شرا ؛ وأما إذا وقع الوزن به فيكون هو في إحدى الكفتين ، وعمله في الأخرى ، فذلك وزن آخر ، فمن ثقل ميزانه نزل عمله إلى

ص 536

أسفل ، فإن الأعمال في الدنيا من مشاق النفوس ، والمشاق محلها النار ، فتنزل كفة عمله تطلب النار ، وترتفع الكفة التي هو فيها لخفتها فيدخل الجنة ، لأن لها العلو . والشقي تثقل كفة الميزان التي هو فيها ، وتخف كفة عمله ، فيهوي في النار ، وهو قوله« فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ »فكفة ميزان العمل هي المعتبرة في هذا النوع من الوزن ، الموصوفة بالثقل في السعيد لرفعة صاحبها ، والموصوفة بالخفة في حق الشقي لثقل صاحبها ، وهو قوله تعالى): يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ)وليس إلا ما يعطيهم من الثقل الذي يهوون به في نار جهنم

(102) سورة التكاثر مكيّة

[سورة التكاثر : (102) آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (1)

تفسير من باب الإشارة : [لا تكثر مما لا تحتاج إليه]

من حصل له العلم بالأحكام التي يحتاج إليها فلا يكثر مما لا يحتاج إليه ، فإن التكثير مما لا حاجة فيه سبب في تضييع الوقت عما هو أهم ، فعلى الإنسان أن يربط نفسه بما فيه سعادته ونجاته ، ولا يكون ممن قال سبحانه وتعالى فيهم« أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ »

ليقال - الحديث إنك عالم - فقد ذم الله ذلك في كثير العلم وقليله ، وليعمر العبد أوقاته بما هو أولى به .

[سورة التكاثر (102) : الآيات 2 إلى 7]

حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (2) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (7)

[اليقين :]

اليقين هو كل ما ثبت واستقر ولم يتزلزل ، فله علم وعين وحق ، أي وجوب حكمه ، فلا يضاف إلى اليقين إلا ما يقبله ، فإن كان مما تدل عليه علامة أضيف إليه العلم ، وإن لم يكن فلا يضاف إليه ، وإن كان مما يشهد أضيف إليه العين ، وإن لم يكن فلا تضاف

ص 537

إليه ، وإن كان ممن له في نفس الأمر حكم واجب على أحد من المخلوقين أضيف إليه الحق ، فقيل : حق اليقين لوجوبه ، فلو كان علم اليقين وعينه وحقه نفس اليقين ما صحت الإضافة ، لأن الشيء الواحد لا يضاف إلى نفسه ، لأن الإضافة لا تكون إلا بين مضاف ومضاف إليه ، فتطلب الكثرة حتى يصح وجودها ، ومن أخذ الأشياء عن عين اليقين اتصف بالعلم اليقيني ، فإن الجاهل قد يتصف بالعلم فيما جهله ولا يتصف باليقين ، ولهذا جاز أن يضاف العلم إلى اليقين ، وليس من إضافة الشيء إلى نفسه ، لا لفظا ولا معنى ، فأما اللفظ فإن لفظة اليقين ، ما هي لفظة العلم ، فجازت الإضافة . ومن طريق المعنى ، إن اليقين عبارة عن استقرار العلم في النفس ، والاستقرار ما هو عين المستقر ، بل الاستقرار صفة للمستقر ، وهي حقيقة معنوية لا نفسية ، فليست عين نفس العلم فجازت الإضاقة ، وإنما قلنا : إن الجاهل قد يتصف بالعلم فيما هو جاهل به ، فهو قوله تعالى :(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى)فذكر أعلم في الصنفين ، ومن لم يفرق بين اليقين والعلم ويقول : إن العلم هو اليقين ، وقد ورد في كتاب الله مضافا ، احتاج إلى طلب وجه في ذلك تصح له به الإضافة ليؤمن بما جاء من عند الله ، فقال : قد يكون المعنى واحدا ويدل عليه لفظان مختلفان ، فيضاف أحد اللفظين إلى الآخر ، فإنهما غيران بلا شك في الصورة ، مع أحدية العين ، هكذا قال أصحاب اللسان ، وهو قول صحيح ، غير أن الإضافة هنا قد تقع في الصورة ، والصورة صورتان ، فإن في ذكر لفظين مختلفين صحة الإضافة لحق اليقين وعلم اليقين وعين اليقين . وإنما احتال من احتال هذه الحيلة لقصور فهمه عما تدل عليه الألفاظ من الموضوعات من المعاني ؛ فلو علم ذلك لعلم أن مدلول لفظة العلم غير مدلول لفظة اليقين ، فقد علمنا علما يقينيا أن في العالم بيتا يسمّى الكعبة ، ببلدة تسمى مكة ، لا يتمكن لأحد الجهل بهذا ، ولا أن يدخله شبهة ، ولا يقدح في دليله دخل ، فاستقر العلم بذلك ، فأضيف إلى اليقين الذي هو الاستقرار أن لله بيتا يسمى الكعبة ، بقرية تسمى مكة ، تحج الناس إليه في كل سنة ، ويطوفون به ، ثم شوهد هذا البيت عند الوصول إليه بالعين المحسوسة ، فاستقر عند النفس بطريق العين كيفيته وهيئته وحاله ، فكان ذلك عين اليقين الذي كان قبل الشهود علم يقين ، وحصل في النفس برؤيته ما لم يكن عندها قبل

ص 538

رؤيته ذوقا ، ثم فتح الله عين بصيرته في كون ذلك البيت مضافا إلى الله مطافا به ، مقصودا دون غيره من البيوت المضافة إلى الله ، فعلم علة ذلك وسببه ، بإعلام الله لا بنظره واجتهاده ، فكان علمه بذلك حقا يقينا مقررا عنده لا يتزلزل ، فما كل حق له قرار ،
ولا كل علم ، ولا كل عين ،
فلذلك صحت الإضافة ، فإذا تقرر هذا فقد علمت معنى علم اليقين وعينه وحقه .
فكل ما ثبت له القرار بعلامة مخصوصة به ولا تكون علامة إلا عليه فذلك هو علم اليقين ،
ولا بد من شهود تلك العلامة وتعلقها بالعين واختصاصها به فذلك هو عين اليقين ،
ولا بد من وجود حكمه في هذه العين وفي هذا العلم ، فلا يتصرف العلم إلا فيما يجب له التصرف فيه ، ولا تنظر العين إلا فيما يجب لها النظر إليه وفيه ، فذلك هو حق اليقين الذي أوجبه على العلم والعين .

[سورة التكاثر (102) : آية 8]
ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)
الإنسان يوم القيامة الكبرى ، وهي قيامة البعث والحشر الأعظم ، الذي يجمع الناس فيه ما بين مسؤول ومحاسب ومناقش في حسابه وغير مناقش ، وهو الحساب اليسير ، وهو عرض الأعمال على العبد من غير مناقشة ، والمناقشة السؤال عن العلل في الأعمال ، فالسؤال عام في الجميع حتى الرسل ،
والسؤال على نوعين : سؤال على تقرير النعم على طريق مباسطة الحق للمسئول ، فهو ملتذ بالسؤال ، وسؤال على طريق التوبيخ أيضا لتقرير النعم فهو في شدة .
قال صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه وقد أكلوا تمرا وماء عن جوع
[إنكم لتسألون عن نعيم هذا اليوم]
وهذا السؤال موجه للإنذار والبشارة في قوم مخصوصين ، وهم أهل ذلك المجلس ، وهو تنبيه بما هو عليه الأمر في حق الجميع للتقليل من الحلال ، إما للنشاط في الطاعات ، وإما لخفة الحساب.

ص 539

(103) سورة العصر مكيّة

[سورة العصر (103) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ (3)

[« . . . وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ » الآية]
فينبغي للمؤمن أن يقبل من أخيه النصح والوصية ، فإن المؤمنين أهل إنصاف ، مطلبهم واحد ، مأمورون بذلك بقوله تعالى :« وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ »وقد أمرنا بالتعاون على البر والتقوى ، ونهانا عن التعاون على الإثم والعدوان ، بقوله« وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ »لذلك عليك بالنصيحة على الإطلاق ، فإنها الدين ، خرج مسلم في الصحيح عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال] الدين النصيحة ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟
قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم] واعلم أن النصاح الخيط ، والمنصحة الإبرة ، والناصح الخائط . والخائط هو الذي يؤلف أجزاء الثوب حتى يصير قميصا أو ما كان ، فينتفع به بتأليفه إياها ، وما ألفه إلا بنصحه .
والناصح في دين الله ، هو الذي يؤلف بين عباد الله وبين ما فيه سعادتهم عند الله ، ويؤلف بين الله وبين خلقه ، وهو قوله : النصيحة لله ،
وفيه تنبيه في الشفاعة عند الله إذا رأى العبد الناصح أن الله يريد مؤاخذة العبد على جريمته ، فيقول لله : يا رب إنك ندبت إلى العفو عن عبادك ، وجعلت ذلك من مكارم الأخلاق ، وهو أولى من جزاء المسئ بما يسوءه ؛ وذكرت للعبد أن أجر العافين عن الناس فيما أساءوا إليهم فيه ، مما توجهت عليهم به الحقوق ، على الله ؛
فأنت أحق بهذه الصفة لما أنت عليه من الجود ، والكرم ، والامتنان ، ولا مكره لك ؛ فأنت أهل العفو والتكرم والتجاوز عن هذا العبد المسئ المتعدي حدودك عن إساءته ،
وإسبال ذيل الكرم عليه ؛ وأما النصيحة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ففي زمانه إذا رأى منه الصاحب أمرا قد قرر خلافه - والإنسان صاحب غفلات - فينبّه الصاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على ذلك ، مثل سهوه صلّى الله عليه وسلّم في الصلاة ، ولهذا أمر الله عزّ وجل نبيه صلّى الله عليه وسلّم

ص 540

بمشاورة أصحابه فيما لم يوح إليه فيه ، فإذا شاورهم تعين عليهم أن ينصحوه فيما شاورهم فيه على قدر علمهم ، وما يقتضيه نظرهم في ذلك أنه مصلحة ، كنزوله يوم بدر على غير ماء ، فنصحوه وأمروه أن يكون الماء في حيّزه صلّى الله عليه وسلّم ففعل ، ونصحه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قتل أسارى بدر حين أشار بذلك ، وكحديث تأبير النخل .
وأما بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم تبق له نصيحة ، ولكن إذا كانت هذه اللام لام الأجلية بقيت النصيحة ، وأما النصيحة لأئمة المسلمين وهم ولاة الأمور منا ، القائمون بمصالح عباد الله الدينية ، والحكام وأهل الفتاوى في الدين من العلماء يدخلون في أئمة المسلمين أيضا ، فإن كان الحاكم عالما كان ،
وإن لم يكن من العلماء بالمسألة سأل من يعلم عن الحكم فيها ، فيتعين على المفتي أن ينصح ويفتيه بما يراه أنه حق عنده ، ويذكر له دليله على ما أفتاه به ، فيخلصه عند الله ، فهذه النصيحة لأئمة المسلمين ،
ولما لم تفرض العصمة لأئمة المسلمين ، وعلم أنهم قد يخطئون ويتبعون أهواءهم ، تعين على أهل الدين من العلماء بالدين أن ينصحوا أئمة المسلمين ، ويردوهم عن اتباع أهوائهم في الناس ، فيؤلفون بين ما هو الدين عليه وبينهم ،
فيعود على الناس نفع ذلك ؛ وأما النصيحة لعامتهم فمعلومة ، وهي أن يشير عليهم بما لهم فيه المصلحة التي لا تضرهم في دينهم ولا دنياهم ، فإن كان ولا بد من ضرر يقوم من ذلك إما في الدين أو في الدنيا ، فيرجحوا في النصيحة ضرر الدنيا على ضرر الدين ، فيشيرون عليهم بما يسلم لهم فيه دينهم ؛ ومهما قدروا على دفع الضرر في الدين والدنيا معا بوجه من الوجوه وعرفوه تعين عليهم في الدين أن ينصحوه في ذلك ويبينوه ،
والمستفتي بالخيار في ذلك ، بحسب ما يوفقه الله إليه ، فالنصيحة تعم إذ هي عين الدين ، وهي صفة الناصح ، فتسري منفعتها في جميع العالم كله من الناصح الذي يستبرئ لدينه ، ويطلب معالي الأمور ، فيرى حيوانا قد أضر به العطش ، وقد حاد ذلك الحيوان عن طريق الماء ، فيتعين عليه أن يرده إلى طريق الماء ويسقيه إن قدر على ذلك ،
وكذلك لو رأى من ليس على ملة الإسلام يفعل فعلا من سفساف الأخلاق تعين على الناصح أن يرده عن ذلك مهما قدر إلى مكارم الأخلاق ، وإن لم يقدر عليه تعين عليه أن يبين له عيب ذلك ، فربما انتفع بتلك النصيحة الشخص ، بما له في ذلك من الثناء الحسن ،
وينتفع بتلك النصيحة من اندفع عنه ضرر هذا الذي أراد أن يضره ، وإن لم يكن مسلما ، ويحتاج الناصح إلى علم كثير من علم الشريعة ،

ص 541

لأنه العلم العام الذي يعم جميع أحوال الناس ، وعلم زمانه ومكانه ، وما ثمّ إلا الحال والزمان والمكان ، وبقي للناصح علم الترجيح إذا تقابلت هذه الأمور ، فيكون ما يصلح الزمان يفسد الحال أو المكان ؛
وكذلك كل واحد منها ، فينظر في الترجيح فيفعل بحسب ما يترجح عنده ، وذلك على قدر إيمانه ، فإن الناصح في دين الله يحتاج إلى علم كثير ، وعقل وفكر صحيح ، وروية حسنة ، واعتدال مزاج وتؤدة ، وإن لم تكن فيه هذه الخصال كان الخطأ أسرع إليه من الإصابة . وما في مكارم الأخلاق أدق ولا أخفى ولا أعظم من النصيحة ، وكل إنسان يقبل النصح من غيره لا من نفسه ، والمؤمن مرآة أخيه ، لأن النفس عمياء عن عيوبها ، بصيرة بعيوب غيرها ، ولذلك يحتاج المؤمن إلى الإخوان لتبيين آفات نفسه ، فلسان حال الأخ في عقد الأخوة ، كل واحد منا بصير في عيوب أخيه لعماه عن عيوب نفسه ، واستيلاء رمسه ، فأخوك من صدقك لا من صدّقك ، ومن جرحك لا من مدحك ،
وإليه ننظر قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [من أرضى الناس بسخط الله صار مادحه منهم ذاما ، ومن أرضى الله بسخط الناس أرضى الله عنه الناس ويهبه العين الصحيحة] يرى الطالب معاديه بالعرف العام وليا ، والمسئ إليه محسنا ، إذ هو إنما يعادي عدوه ، فهو وليه من حيث لا يدري ، قال الشاعر :
ذهب الرجال المقتدى بفعالهم *** والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت في خلف يزكي بعضهم *** بعضا ليدفع معور
عن معورفمادحك إنما يتولى عدوك ، فاحذره ولا تأنس إليه ، فتميل في كل أحوالك إليه ، واعلم أنه من التزم النصح قل أولياؤه ، فإن الغالب على الناس اتباع الأهواء ، ولذلك يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : [ما ترك الحق لعمر من صديق] وكذلك قال أويس القرني : إن الموت وذكره لم يتركا لمؤمن فرحا ،
وإن علم المؤمن بحقوق الله لم يترك في ماله فضة ولا ذهبا ، وإن قيامه لله بالحق لم يترك له صديقا ولنا في ذلك :
لما لزمت النصح والتحقيقا *** لم يتركا لي في الوجود صديقا
أما من استشهد بقول القائل :
وعين الرضا عن كل عيب كليلة *** كما أن عين السخط تبدي المساويا

ص 542

فذلك مقام من أحبك لنفسه ، وأما من أحبك لك فلا سبيل ، ولما كان حب الله إيانا لنا لا لنفسه نبهنا على معايبنا ، وأظهر لنا نقائصنا ، ودلنا على مكارم الأخلاق ، ومحامد الأفعال ، وأوضح لنا مناهجها ، ورفع لنا معارجها ، ولما أحببناه لأنفسنا ولم يتمكن في الحقيقة أن نحبه له تعالى عن ذلك ، رضينا بما يصدر منه مما لا يوافق أغراضنا ، وتمجه نفوسنا ، وتكرهه طباعنا ، والسعيد هو الذي رضي بذلك منه تعالى ، ومن سواه يضجر ويسخط ، فنسأل الله تعالى العفو والعافية في ذلك لنا وللمسلمين :

قسما بسورة العصر *** إن الإنسان في خسر
غير من أوصوا نفوسهمو *** بينهم بالحق والصبر
فهمو القوم الذين نجوا *** من عذاب الله في القبر
ثم في يوم النشور إذا *** جمعوا للعرض في الحشر

(104)سورة الهمزة مكيّة

[سورة الهمزة (104) : الآيات 1 إلى 2]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ (2)
الاستكثار من المال هو الداء العضال .

[سورة الهمزة (104) : آية 3]
يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ (3)
فوصف الحق أهل الحطمة الداخلون فيها .

[سورة الهمزة (104) : آية 4]
كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4)
فيدخل جهنم من باب الحطمة ، وهو أحد الأبواب السبعة التي لجهنم .

[سورة الهمزة (104) : آية 5]
وَما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ (5)
فوصف الحق تعالى ما أعدت له فقال:

ص 543

[سورة الهمزة (104) : آية 6]
نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6)
النار ناران نار كلها لهب *** ونار معنى على الأرواح تطلع
وهي التي ما لها سفع ولا لهب *** لكن لها ألم في القلب ينطبع

[سورة الهمزة (104) : آية 7]
الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7)

[« نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ » :]
فالنار ناران : نار تظهر حكمها في ظاهر الإنسان ، مثل قوله تعالى): فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها)ونار لها حكم في الباطن وهي قوله تعالى : « نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ »والأفئدة باطن الإنسان ، فهي تظهر في فؤاد الإنسان ، والعبد منشئ النارين في الحالين ، فلو لا المكلف أنشأ صورة النارين بعمله الظاهر والباطن ما تعذب بنار :
فالنار منك وبالأعمال توقدها *** كما بصالحها في الحال تطفيها
فأنت بالطبع منها هارب أبدا *** وأنت في كل حال فيك تنشيها
فنار جهنم لها نضج الجلود ، وحرق الأجسام ، ونار الله نار ممثلة مجسدة ، لأنها نتائج أعمال باطنة ، ونار جهنم نتائج أعمال حسية ظاهرة ، ليجمع من هذه صفته بين العذابين ، ولذلك فإن أبواب جهنم سبعة بحسب أعضاء التكليف الظاهرة ، لأن باب القلب مطبوع عليه لا يفتح من حين طبع الله عليه ، عندما أقر له بالربوبية ، وعلى نفسه بالعبودية ، فللنار على الأفئدة اطلاع لا دخول ، لغلق ذلك الباب ، والمنافق معذب بالنار التي تطلع على الأفئدة إذ أتى في الدنيا بصورة ظاهر الحكم المشروع من التلفظ بالشهادة ، وإظهار تصديق الرسل والأعمال الظاهرة ، والمنافقون ما عندهم في بواطنهم من الإيمان مثقال ذرة ، فبهذا القدر تميزوا من الكفار ، والمؤمن ليس للنار اطلاع على محل إيمانه البتة ، فما له نصيب في النار التي تطلع على الأفئدة .

[سورة الهمزة (104) : آية 8]
إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8)

ص 544

أي مسلطة ، ولا يقبل التسليط إلا من يعقل ، وأنها محرقة بالطبع ، فإنه لو لم تحرق بالطبع ما قبلت الإرسال على الكفار ، وهكذا كل جماد ونبات وحيوان خوطب ، لا بد أن يكون حيا عاقلا قابلا لما يخاطب به ، من شأنه أن يعقل ما قيل له افعل قبولا ذاتيا تابعا لوجود عينه .

[سورة الهمزة (104) : آية 9]
فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)

(105) سورة الفيل مكيّة

[سورة الفيل (105) : الآيات 1 إلى 5]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (1) أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)
[كل ما حدث كان عن وحي إلهي :]
انظر أيها العاقل إلى الفيل وحبسه ، وامتناعه من القدوم على خراب بيت الله ، وانظر إلى ما فعلت الطير بأصحاب الفيل ، وما رمتهم به من الحجارة التي لها خاصية في القتل دون غيرها من الأحجار ، أترى يصدر ذلك منها من غير وحي إلهي إليها بذلك ! ! !
فكم من فيل كان في العالم ، وكمن من أصحاب غزاة كانوا في العالم لما ظهر مثل هذا الأمر في هؤلاء ، وما ظهر في غيرهم ؟ وهل يوحي الله إلى من لا يعقل عنه ؟ تعلم منها أنه ما من حيوان أو شيء من غير الحيوان عصى أمر الله ، أو لم يقبل وحي الله.

ص 545

(106) سورة قريش مكيّة

[سورة قريش (106) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (1)

التقرش التقبض والاجتماع ، ولما كانت هذه القبيلة جمعت قبائل سميت قريشا ، أي مجموع قبائل ، ولما كان الغالب على قريش التجارة فإنهم كانوا تجارا دون غيرهم من الأعراب ، خاطبهم الله تعالى بقوله« لِإِيلافِ قُرَيْشٍ »« إِيلافِهِمْ ».

[سورة قريش (106) : الآيات 2 إلى 4]

إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)

[الإنسان إذا أكل الطعام حتى يشبع فذلك ليس بغذاء]

اعلم أن الإنسان إذا أكل الطعام حتى يشبع فذلك ليس بغذاء ، ولا بأكل على الحقيقة ، وإنما هو كالجابي الجامع للمال في خزانته ، والمعدة خزانة لما جمعه هذا الآكل من الأطعمة والأشربة ، فإذا جعل فيها أعني في خزانة معدته ما اختزنه فيها ورفع يده ،

حينئذ تتولاه الطبيعة بالتدبير ، وينتقل ذلك الطعام من حال إلى حال ،

ويغذيه بها في كل نفس يخرج عنه دائما ، فهو لا يزال في غذاء دائم ، ولولا ذلك لبطلت الحكمة في ترتيب نشأة كل متغذ ، والله حكيم فإذا خلت الخزانة حرك الطبع الجابي إلى تحصيل ما يملؤها به ، فلا يزال الأمر هكذا دائما أبدا ،

قال صلّى الله عليه وسلّم [الجوع بئس الضجيع]

وكان صلّى الله عليه وسلّم يتعوذ من الجوع ، وهو الجوع الذي يؤثر خبلا.

ص 546

(107) سورة الماعون مكيّة

[سورة الماعون (107) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ (5)

[السهو في الصلاة والسهو عن الصلاة :]

من شرف الصلاة أن الله علّق الوعيد بمن سها عنها لا فيها ، لأنه ربما يسترسل المصلي بالتدبر في التلاوة فيؤثر ذلك شكا له في صلاته ، فلا يدري ما مضى من صلاته ، فشرع أن يسجد سجدتي سهو يرغم بهما الشيطان ، ويجبر بهما النقصان ، ويشفع بها الرجحان فتتضاعف صلاته ، فيتضاعف الأجر ،

وذلك في النفل والفرض سواء ، وما توعد الله بمكروه من سها في صلاته ، وأما حديث ما يقبل الله من صلاة عبده إلا ما عقل ، عشرها تسعها ، ثمنها سبعها ، سدسها خمسها ، ربعها ثلثها نصفها ، فجعل أكثره النصف وأقله العشر ، وما ذكر النصف إلا في الفاتحة ، يريد أداء حق الله تعالى ، والفاتحة تسعة أقسام :

القسم الأول بسم الله الرحمن الرحيم ،

والثاني الحمد لله رب العالمين ،

الثالث الرحمن الرحيم ،

الرابع ملك يوم الدين ،

الخامس إياك نعبد ،

السادس إياك نستعين ،

السابع اهدنا الصراط المستقيم ،

الثامن صراط الذين أنعمت عليهم ،

التاسع غير المغضوب عليهم ولا الضالين ،

فالخاسر الساهي عن صلاته من لم يحضر مع الله في قسم واحد من هذه الأقسام التي ذكرناها في الفاتحة ، وهي التي ذكر الله في القبول من العشر إلى النصف ، وما زاد على التسعة فعقله في التلاوة حروف الكلمة ،

فقد يعقل المصلي حرفا من حروف الكلمة ثم يغفل عن الباقي ، فهذا معنى قوله صلّى الله عليه وسلّم العام إنه لا يقبل إلا ما عقل منها ،

فالعاقل من أتى بها كاملة ليقبلها الله كاملة ، ومن انتقص شيئا من صلاته جبرت له في قراءة الفاتحة في نوافله من الصلاة ،

ص 547

فليكثر من النوافل ، فإن لم تف قراءتها في النوافل بما نقصه من قراءة الفاتحة في الفريضة ، أكملت له من تلاوته بحضور في غير الصلاة المعينة ،
وأما بالنسبة للخاصة فإن العبد في صلاته بين مناج ومشاهد ، فقد يسهو عن مناجاته لاستغراقه في مشاهدته ، وقد يسهو عن مشاهدته لاستغراقه في مناجاته مما يناجيه به من كلامه ، ولما كان كلامه سبحانه مخبرا عما يجب له من صفات التنزيه والثناء ،
ومخبرا عما يتعلق بالأكوان من أحكام وقصص وحكايات ووعد ووعيد ، جال الخاطر في الأكوان لدلالة الكلام عليها ، وهو مأمور بالتدبر في التلاوة ،
فربما استرسل في ذلك الكون لمشاهدته إياه ، فيخرج من كون ذلك الكون مذكورا في القرآن إلى عينه خاصة ، لا من كونه مذكورا للّه على الحد الذي أخبر به عنه ، فإذا أثر مثل هذا شكا له في صلاته فيسجد سجدتي السهو يرغم بهما الشيطان .

[سورة الماعون (107) : آية 6]
الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ (6)

فهم في بواطنهم على خلاف ما يبدو للناس ، فعلم اللّه ذلك منهم ، ومن الأمراض الفعلية ترك العمل من أجل الناس ، وهو الرياء عند الجماعة ، وأما العمل من أجل الناس فذلك شرك ، ما هو رياء عند السادة من أهل اللّه ، ودواؤه(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ)وما أشبه هذه الآية.

[سورة الماعون (107) : آية 7]
وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ (7)

(108) سورة الكوثر مكيّة

[سورة الكوثر (108) : الآيات 1 إلى 3]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)

[الأبتر من لا عقب له]
يقول اللّه تعالى لمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم : إن الذي ألحق بك الشين هو الأبتر ، فلم يعقب أي لا عقب له ، أي لا يترك عقبا ينتفع به بعد موته ، كما قال عليه السلام [أو ولد صالح يدعو له].

ضص 548

(109)سورة الكافرون مكيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

هذه السورة تقوم مقام أول تعدل ربع القرآن إذا قسم أرباعا .

[سورة الكافرون (109) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (1) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (2) وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (3) وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ (4) وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

[كل مشرك كافر]

اعلم أن كل مشرك كافر ، فإن المشرك باتباع هواه فيمن أشرك واتخذه إلها ، وعدوله عن أحدية الإله ، يستر نفسه عن النظر في الأدلة والآيات المؤدية إلى التوحيد ، فسمي كافرا لذلك الستر ظاهرا وباطنا ، وسمي مشركا لكونه نسب الألوهية إلى غير الله ، فجعل لها نسبتين ، فأشرك ،

وأما الكافر الذي ليس بمشرك فهو موحد غير أنه كافر بالرسول وببعض كتابه ،

وكفره على وجهين

: **الوجه الواحد** أن يكون كفره بما جاء من عند الله ، مثل كفر المشرك في توحيد الله ،

والوجه الآخر : أن يكون عالما برسول الله ، وبما جاء من عند الله أنه من عند الله ، ويستر ذلك عن العامة والمقلدة من أتباعه ، رغبة في الرئاسة ، فهذا هو الفرق بين المشرك والكافر .

(110) سورة النصر مدنيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

هذه السورة تقوم مقام أو تعدل ثلث القرآن ، قال تعالى آمرا لمحمد صلّى الله عليه وسلّم عند انقضاء رسالته وما شرع له أن يشرع من الثناء عليه ، فإنه لما أكمل الله سبحانه الدين نعى إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نفسه في هذه الآية التي أنزلها عليه ، وأمره بقوله:

549

[سورة النصر (110) : الآيات 1 إلى 3]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً (3)
هذا أمر ، أي اشغل نفسك بتنزيه ربك والثناء عليه بما هو أهله ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم :
[لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك] هذا هو التسبيح بحمده ،
فإذا قام فضول بالإنسان واستنبط له ثناء لم يجئ بذلك اللفظ خطاب إلهي فما سبحه بحمده ،
بل بما استنبطه من عنده ، فينقص عن درجة ما ينبغي ،
فقل ما قاله عن نفسه ولا تزد في الرقم وإن كان حسنا ، فإذا عملت به كنت من أهل الحق ،
قال تعالى لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم« فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ »
[« فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً » الآية]
فاقتطعه بهذا الأمر من العالم لمّا كمّل ما أريد منه من تبليغ الرسالة ، وقال له تعالى« وَاسْتَغْفِرْهُ » من أيام التبليغ ،
فطلب بالاستغفار أن يستره عن خلقه في حجاب صونه ، لينفرد به دون خلقه دائما ،
فإنه كان في زمان التبليغ والإرشاد وشغله بأداء الرسالة ، فإن له وقتا لا يسعه فيه غير ربه ، وسائر أوقاته فيما أمر به من النظر في أمور الخلق ، فرده إلى ذلك الوقت الواحد الذي كان يختلسه من أوقات شغله بالخلق ،
وإن كان عن أمر الحق »إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً »أي يرجع الحق إليك الرجوع الخاص الذي يربو على مقام التبليغ ، وهو المحادثة برفع الوسائط ، رجوعا مستصحبا لا يكون للخلق عندك فيه دخول بوجه من الوجوه ، ولما تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم هذه السورة ، بكى أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه وحده دون من كان في ذلك المجلس ،
وعلم أن اللّه تعالى نعى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم نفسه ، وهو كان أعلم الناس به ،
وأخذ الحاضرون يتعجبون من بكائه ولا يعرفون سبب ذلك :
إذا رأيت وفود اللّه قد وصلوا *** يأتون دين الإله الحق أفواجا
فاستغفر اللّه واطلب عفوه كرما *** وكن فقيرا إلى الرحمن محتاجا
معاشر الناس إن اللّه أنبتكم *** من أرضه نطفا في النشء أمشاجا
وثم أولجكم لما أماتكمو *** فيها لأمر أراد الحق إيلاجا
وقد علمت بأن اللّه يخرجكم *** بعد الممات من الأجداث إخراجا
من بعد إنزاله من أجل نشأتكم *** ماء كمثل منيّ الناس ثجاجا

ص 550

وصير الناس أقساما منوعة *** ثلاثة في كتاب اللّه أزواجا
لو أن ما عندنا من علم صانعنا *** يكون في رهج الأسواق ماراجا

(111) سورة المسد مكيّة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

وقف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم منذرا عشيرته الأقربين من فوق الصفا ، وكان أبو لهب حاضرا ، فنفخ في يده وقال : ما حصل بأيدينا مما قاله شيء ؛
وصدق أبو لهب فإنه ما نفعه اللّه بإنذاره ولا أدخل قلبه منه شيئا ، لما أراد به من الشقاء ، فأنزل اللّه فيه .

[سورة المسد (111) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ (2)

[من اعتمد على غير اللّه في أموره خسر :]

فإنه كان معتمدا على ماله ، فمن اعتمد على غير اللّه في أموره خسر :
التب من صفة اليدين لأنها *** جادت على الكفار بالإنفاق
وكلاهما عين الهلاك ونفسه *** فالهلك في الأملاك والإرفاق

[سورة المسد (111) : الآيات 3 إلى 5]

سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)

« فِي جِيدِها »أي عنقها« حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ».

(112) سورة الإخلاص مكيّة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

هذه السورة تقوم مقام أو تعدل ثلث القرآن إذا قسّم أثلاثا ، والحسيب ذو الحسب الكريم والنسب الشريف ، ولا نسب أتم وأكمل في الشرف من شرف الشيء بذاته لذاته ،

ص 551

ولهذا لما قالت اليهود لمحمد صلّى الله عليه وسلّم : انسب لنا ربك ؛ ما نسب الحق نفسه فيما أوحى إليه به إلا لنفسه ، وتبرأ أن يكون له نسب من غيره ،
فأنزل عليه سورة الإخلاص نسبا له ، فعدد ومجد ، فكانت له عواقب الثناء بما له من التحميد ، ولم يقم لليهود من أدلة النظر دليلا واحدا ،
فقال :

[سورة الإخلاص (112) : آية 1]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1)
قال تعالى في أول سورة الإخلاص لنبيه عليه السلام« قُلْ هُوَ اللَّهُ »
[« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » الآية :]
فابتدأ بالضمير ، ولم يجر له ذكر متقدم يعود عليه في نفس القرآن ، لأنه ما ثمّ موجود يصح أن يضمر قبل الذكر إلا من يستحق الغيب المطلق ، الذي لا يمكن أن يشهد بحال من الأحوال ، فيكون ضمير الغيب له كالاسم الجامد العلم للمسمى ، يدل عليه بأول وهلة ، من غير أن يحتاج إلى ذكر متقدم مقرر في نفس السامع يعود عليه هذا الضمير ، فلا يصح أن يقال هو إلا في الله خاصة ، فإذا أطلق على غير الله فلا يطلق إلا بعد ذكر متقدم معروف بأي وجه كان مما يعرف به ،
ويصح الإضمار قبل الذكر في ضرورة الشعر مثل قول الشاعر [جزى ربه عني عدي بن حاتم] وإن كانت اليهود قد قالت لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم : انسب لنا ربك ؛ فربما يتوهم صاحب اللسان أن هذا الضمير يعود على الرب الذي ذكرته اليهود ، ولتعلم أن هذا الضمير لا يراد به الرب الذي ذكرته اليهود ،
لأن الله يتعالى أن يدرك معرفة ذاته خلقه ، ولذلك قال »قُلْ هُوَ اللَّهُ »فاختار الحق الاسم الله لنفسه ، وأقامه في الكلمات مقامه ،
فهو الاسم الذي ينعت ولا ينعت به ، فجميع الأسماء نعته ، وهو لا يكون نعتا ، ولهذا يتكلف فيه الاشتقاق ، فهو اسم جامد علم ، موضوع للذات في عالم الكلمات والحروف ،
لم يتسم به غيره جل وعلا ، فعصمه من الاشتراك ، كما دل أن لا يكون ثمّ إله غيره ،
وما ذكر في السورة كلها شيئا يدل على الخلق ، بل أودع تلك السورة التبري من الخلق ، فلم يجعل المعرفة به نتيجة عن الخلق ،
فقال تعالى« وَلَمْ يُولَدْ »ولم يجعل الخلق في وجوده نتيجة عنه كما يزعم بعضهم بأي نسبة كانت فقال تعالى (لَمْ يَلِدْ) ونفى التشبيه بأحدية كل أحد بقوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ) وأثبت له أحدية لا تكون لغيره ، وأثبت

ص 552

له الصمدانية ، وهي صفة تنزيه وتبرئة ، فارتفع أن يكون الضمير يعود على الرب المذكور المضاف إلى الخلق في قولهم له صلّى الله عليه وسلّم : انسب لنا ربك ؛
فأضافوه إليه لا إليهم ، ولما نسبه صلّى الله عليه وسلّم بما أنزل عليه لم يضفه لا إليه ولا إليهم بل ذكره بما يستحقه جلاله ، فإذا ليس الضمير في« هُوَ اللَّهُ »يعود على من ذكر ،
فإذا عرفت ما ذكرناه عرفت أن الإضمار قبل الذكر لا يصح إلا على الله ، وبعد الذكر تقع فيه المشاركة ، قال تعالى(اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ) فأعاد الضمير على الله المذكور في أول الآية ،
وهنا قال تعالى« قُلْ هُوَ اللَّهُ » فأثبت الوجود« أَحَدٌ «فنفى العدد وأثبت الأحدية لله سبحانه ، أي لا يشارك في هذه الصفة ، صفة الأحدية ، فالأحدية لا تثبت إلا لله مطلقا ، وأما ما سوى الله فلا أحدية له مطلقا ، قال تعالى(وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) أما الواحد فإنا نظرنا في القرآن ، هل أطلقه الحق على غيره كما أطلق الأحدية ؟
فلم أجده ، وما أنا منه على يقين ، فإن كان لم يطلقه فهو أخص من الأحدية ، ويكون اسما للذات علما ، لا يكون صفة كالأحدية ، فإن الصفة محل الاشتراك ،
ولهذا أطلقت الأحدية على كل ما سوى الله في القرآن ، ولا يعتبر كلام الناس واصطلاحهم ، وإنما ينظر ما ورد في القرآن الذي هو كلام الله ، فإن وجد في كلام الله لفظ الواحد ، كان حكمه حكم الأحدية ، للاشتراك اللفظي فيه ،
وإن كان لا يوجد في كلام الله لفظ الواحد يطلق على الغير ، فيلحقه بخصائص ما تستحقه الذات ، ويكون كالاسم الله الذي لم يتسم به أحد سواه ، واعلم أن مشيئة الله تعالى وإرادته وعلمه وقدرته ذاته ، تعالى الله أن يتكثر في ذاته ، بل له الوحدة المطلقة ، وهو الواحد الأحد ، إذ العين واحدة لا متحدة ، وفي العبد متحدة لا واحدة ،
فالأحدية لله ، والاتحاد للعبد لا الأحدية ، فإنه لا يعقل العبد إلا بغيره لا بنفسه ، فلا رائحة له في الأحدية أبدا ، والحق قد تعقل له الأحدية ، وقد تعقل بالإضافة ، لأن الكل له ، بل هو عين الكل ، لا كلية جمع ، بل حقيقة أحدية تكون عنها الكثرة ،
ولا يصح هذا إلا في جناب الحق خاصة ، فلا يصدر عن الواحد أبدا في قضية العقل إلا واحد ، إلا أحدية الحق فإن الكثرة تصدر عنها ، لأن أحديته خارجة عن حكم العقل وطوره ،
فأحدية حكم العقل هي التي لا يصدر عنها إلا واحد ، وأحدية الحق لا تدخل تحت حكم ، كيف يدخل تحت الحكم من خلق الحكم والحاكم ؟
لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، فليس للحق من الصفات النفسية سوى واحدة لأحديته ، وهي عين ذاته ، فليس له فصل مقوم يتميز به عما وقع

ص 553

له من الاشتراك فيه مع غيره ، بل له الأحدية الذاتية التي لا تعلل ولا تكون علة ، فهي الوجود ، فهو سبحانه من حيث نفسه له أحدية الأحد ، ومن حيث أسماؤه له أحدية الكثرة .

[سورة الإخلاص (112) : آية 2]
اللَّهُ الصَّمَدُ (2)
[« اللَّهُ الصَّمَدُ » الآية :]
-الوجه الأول - نفى الجسم ، ولما كان الصوم صفة الصمدانية ، وهو التنزه عن التغذي ، وحقيقة المخلوق التغذي ، قال تعالى في الحديث القدسي [كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به]
- الوجه الثاني - لما كان الاضطرار يردك إلى الله ، لهذا تسمى تعالى لنا بالصمد ، لأن الكون يلجأ إليه في جميع الأمور ، وهي الصمدية المقيدة ، وهي من صفة الكرم .
- الوجه الثالث - الصمدية المطلقة عن التقييد هي التي تستحق أن تكون صفة تنزيه ، إذ لا تعلق لها بكون ، فبها يتعلق المتوكلون في حال توكلهم ، والحق تعالى لا يسلم من توكل عليه وفوض أمره إليه ، فإن الأسباب قد تخون من اعتمد عليها ولجأ إليها في أوقات ، فإن الجاهل يصمد إلى الأسباب صمدا ،
ومن الغيرة الإلهية ما قال لك على لسان رسوله في الشيء الذي تستتر به عند الصلاة في قبلتك ، أن تميل به نحو اليمين أو الشمال قليلا ولا تصمد إليه صمدا ،
فهذا من الغيرة الإلهية أن يصمد إلى غيره صمدا ، وفيه إثبات للصمدية في الكون بوجه ما ، فذلك القدر الذي أشار إليه الشارع يكون حظ المؤمن من الصمدية ، فما لا يظهر إلا بك ، فأنت الصمد فيما لا يظهر إلا بك ، والجاهل يصمد إلى الأسباب صمدا ،
ويجعل حكم الميل إلى اليمين أو الشمال لصمدية الحق عكس القضية ، وإنما شرع النبي صلّى الله عليه وسلّم في السترة الميل إلى اليمين أو الشمال ينبه على السبب القوي باليمين ، وعلى السبب الضعيف بالشمال الخارج ، فالخارج عن الله بالكلية هو صاحب اليمين ، والذي لاح له بارقة من الحق ضعف اعتماده على السبب فجعله من الجانب الأضعف ، إذ لا بد من إثبات السبب ، ولا يصمد إلا إلى الله صمدا .

[سورة الإخلاص (112) : آية 3]
لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3)

ص 554

[" لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ " الآية :]
- **الوجه الأول** - فنفى الوالد والولد
- **الوجه الثاني** - من قوله تعالى« لَمْ يَلِدْ »فيه تنزيه الذات ، فلا يصح أن يكون علة لمعلول ، ولا شرطا لمشروط ، ولا حقيقة لمحقق ، ولا دليلا لمدلول ، ولا سيما وقد قال سبحانه« لَمْ يَلِدْ »مطلقا وما قيد ، فلو كان حقيقة لولد محققا ،
ولو كان دليلا لولد مدلولا ، ولو كان علة لولد معلولا ، ولو كان شرطا لولد مشروطا« وَلَمْ يُولَدْ »فهو تعالى منزه عن أن يكون وجوده معلولا لعلة تتقدمه في الرتبة ، أو مشروطا بشرط متقدم ، أو محققا لحقيقة حاكمة ، أو مدلولا لدليل يربطه به وجه الدليل ،
فهو تعالى عن المناسبة ، فالمناسبة بين الخلق والحق غير معقولة ولا موجودة ، فلا يكون عنه شيء من حيث ذاته ، ولا يكون عن شيء من حيث ذاته ، وكل ما دل عليه الشرع أو اتخذه العقل دليلا إنما متعلقة الألوهة لا الذات ،
والله من كونه إلها هو الذي يستند إليه الممكن لإمكانه ، فهو سبحانه المستند المجهول ، الذي لا تدركه العقول ، ولا تفصل إجماله الفصول ،
ولو وقف العاقل من المؤمنين على معنى قوله تعالى في كتابه« وَلَمْ يُولَدْ »وعلم أن ما أنتجه العقل من فكره بتركيب مقدمتيه أن تلك النتيجة للعقل عليها ولادة ،
وأنها مولودة عنه ، وهو قد نفى أن يولد ، فأين الإيمان ؟
وليس المولود إلا عينه ، بخلاف ما إذا أنتج العقل نسبة الأحدية له ، فما معقولية الأحدية للواحد عين من نسبت إليه الأحدية ، فللعقل على الأحدية ولادة ، وعلى الاستناد إليه ولادة ، وعلى كل لا يكون له على عينه ولادة ، فأما هويته وحقيقته فما للعقل عليها ولادة ، وقد نفى ذلك بقوله« وَلَمْ يُولَدْ »ومن هنا تعرف أن كل عاقل له في ذات الله مقالة إنما عبد ما ولده عقله ، فإن كان مؤمنا كان طعنا في إيمانه ، وإن لم يكن مؤمنا فيكفيه أنه ليس بمؤمن ، ولا سيما بعد بعثة محمد صلّى الله عليه وسلّم العامة ، وبلوغها إلى جميع الآفاق :
إنما الله إله واحد *** ودليلي قل هو الله أحد
فإذا ما تهت في أسمائه *** فاعلم أن التيه من أجل العدد
يرجع الكل إليه كلما *** قرأ القارئ الله الصمد
لم يلد حقا ولم يولد ولم *** يك كفوا للإله من أحد
فيحار العقل فيه عندما *** يغلب الوهم عليه بالمدد
ثم يأتيه مشدا أزل *** جاء في الشرع ويتلوه أبد

ص 555

وبنا كان له الحكم به *** فإذا زلنا فكون ينفرد

فالحق تعالى له الوحدة المطلقة ، وهو الواحد الأحد ، الله الصمد ، لم يلد فيكون مقدمة ، ولم يولد فيكون نتيجة ، فإنه لو أن العقل يدرك الحق حقيقة بنظره ودليله ويعرف ذاته لكان مولدا عن عقله بنظره ، فلم يولد سبحانه للعقول كما لم يولد في الوجود ، ولم يلد بإيجاده الخلق لأن وجود الخلق لا مناسبة بينه وبين وجود الحق ، والمناسبة تعقل بين الوالد والولد ، إذ كل مقدمة لا تنتج غير مناسبها ، ولا مناسبة بين الله وبين خلقه إلا افتقار الخلق إليه في إيجادهم ، وهو الغني عن العالمين .

لذا منع الرحمن في وحيه على *** لسان رسول الله في ذاته النظر

فقال ولا تقف الذي لست عالما *** به فيكون الناظرون على خطر

فلم يولد الرحمن علما ولم يلد *** وجودا فحقق من نهاك ومن أمر

فقوله تعالى« لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ »تنزيه الذات ، فلا تتعلق ولا يتعلق بها ، ولذلك قال تعالى :

[سورة الإخلاص (112) : آية 4]

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)

[« وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » الآية :]

فيكون به وجود العالم نتيجة عن مقدمتين ، عن الحق والكفوء ، تعالى الله ، وبهذا وصف نفسه سبحانه في كتابه لما سئل النبي صلّى الله عليه وسلّم عن صفة ربه ، فنزلت سورة الإخلاص تخلصت من الاشتراك مع غيره تعالى الله في تلك النعوت المقدسة والأوصاف

- الوجه الثاني - « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ »فنفى الصاحبة كما نفى الشريك بقوله (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا)فنفى المماثل الذي لو ثبت صح أن يكون العالم بينهما ، فما هو لنا أب ولا نحن أبناء له ، بل هو الرب ونحن العبيد ، فيطلبنا عبيدا ونطلبه سيدا ، وربما يتوهم من لا معرفة له بالحقائق أنه لو وجدت الكفاءة جاز وقوع الولد بوجود الصاحبة التي هي كفؤ ، فليعلم أن الكفاءة مشروعة لا معقولة ،

والشرع إنما لزمها من الطرف الواحد لا من الطرفين ، فمنع المرأة أن تنكح ما ليس لها بكفء ، ولم يمنع الرجل أن ينكح ما ليس بكفء له ، ولهذا له أن ينكح أمته بملك اليمين ، وليس للمرأة أن ينكحها عبدها ، والحق ليس

ص556

بمخلوق ، وهو الوالد لو كان له ولد ، والكفاءة من جهة الصاحبة لا تلزم ، فارتفع المانع لوجود الولد لعدم الكفاءة ، بل لما تستحقه الذات من ارتفاع النسب والنسب ، ولما تستحقه أحدية الألوهية ، إذ الولد شبيه بأبيه ، وبهذا يبطل مفهوم من حمل (مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً)على جواز ذلك إذا كان متخذا ، وكان المفهوم منه نفي الكفء والمثل ما ذكرناه ،

وهذه السورة اختارها الحق تعالى لأنها مخصوصة به ، ليس فيها ذكر كون من الأكوان ، إلا أحدية كل أحد أنها لا تشبه أحديته تعالى خاصة ، فافتتح السورة بأحديته وختمها بأحدية المخلوقين ،

فأعلم أن الكائنات مرتبطة به ارتباط الآخر بالأول لا ارتباط الأول بالآخر ، فإن الآخر يطلب الأول والأول لا يطلب الآخر ، فهو الغني عن العالمين من ذاته ، ويطلب الآخر من مسمى الله المنعوت بالأحدية ،

وهذه هي الأحدية المتأخرة التي هي مع ارتباطها بالأول لا تماثلها ، لكونها تطلبه ولا يطلبها(أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) ولذلك سميت هذه السورة بسورة الإخلاص ، فإنها كلها نسب الله وصفته ، وهي عين مجموع العالم ،

وإن العالم مع كونه هو الحق المبين من حيث مجموعه لا من حيث جزء جزء منه ، تخلص النسب لله من حيث ذاته ، فهذا المجموع هو في الحق عين واحدة ، وهو في العالم عين الحق المبين ، فهذه السورة خلصت الحق من التشبيه كما خلصته من التنزيه ،

فإن سر الإخلاص هو سر القدر الذي أخفى الله علمه عن العالم ، لا بل عن أكثر العالم ، فميز الأشياء بحدودها ، فهذا معنى سر القدر ، فإنه التوقيف عينه ، وبه تميزت الأشياء ، وبه تميز الخالق من المخلوق ، والمحدث من القديم ، فتميز المحدث بنعت ثابت يعلم ويشهد ، وما تميز القديم من المحدث بنعت ثبوتي يعلم ، بل تميز بسلب ما تميز به المحدث عنه لا غير ، فهو المعلوم سبحانه المجهول ، فلا يعلم إلا هو ، ولا يجهل إلا هو ، فسبحان من كان العلم به عين الجهل به ، وكان الجهل به عين العلم به ، وأعظم من هذا التمييز لا يكون ،

ولا أوضح منه لمن عقل واستبصر ، ولذلك لما قالت طائفة من الأمة اليهودية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم [انسب لنا ربك] فنسبه لمجموع العالم بما نزل عليه من الله تعالى في ذلك ،

فقيل له « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ »فنعته بالأحدية ، ولكل جزء من العالم أحدية تخصه لا يشارك فيها ، بها يتميز ويتعين عن كل ما سواه مع ما له من صفات الاشتراك ، ثم قيل له« اللَّهُ الصَّمَدُ »وهو الذي يصمد إليه في الأمور : أي يلجأ ، والأسباب الموضوعة كلها في العالم يلجأ إليها ، ولهذا سميت

ص 557

أسبابا لتوصل مسبباتها إلى الصمد الأول الذي إليه تلجأ الأسباب« لَمْ يَلِدْ »إذ العقيم الذي لا يولد له ، وبهذه الصفة نعت الريح العقيم ، لأنه من الرياح ما هي لواقح ومنها ما هي عقيم« وَلَمْ يُولَدْ »آدم عليه السلام ، فإن الولادة معلومة عند السائلين ، فخوطبوا بما هو معلوم عندهم« وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » أراد بالكفو هنا الصاحبة ،

لأجل مقال من قال إن)الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ) و(عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ) والكفاءة المثل ،

والمرأة لا تماثل الرجل أبدا ، فإن الله يقول(وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)فليست له بكفو ، فإن المنفعل ما هو كفو لفاعله ،

والعالم منفعل عن الله فما هو كفو لله ، وحواء منفعلة عن آدم ، فله عليها درجة الفاعلية فليست له بكفو من هذا الوجه ، ولذلك سميت هذه السورة سورة الإخلاص ،

أي خلص الحق للعالم من التنزيه الذي يبرهن عليه العقل ، وخلصه من العالم بمجموع هذه الصفات في عين واحدة ، وهي أعني هذه الصفات مفرقة في العالم لا يجمعها عين واحد ،

فإن آدم عليه السلام أكمل صورة ظهرت في العالم ومع هذا نقصه« لَمْ يَلِدْ »فإنه أحد صمد لم يولد ولم تكن له حواء كفوا ،

فخلصت هذه السورة الحق من التشبيه كما خلصته من التنزيه ، فالحمد لله العظيم جلاله لظهور جماله ، القريب في دنوه ، الرقيب في سموه ، ذو العزة والسناء ، والعظمة والكبرياء ، الذي جلت ذاته أن تشبه الذوات ، وتعالت عن الحركات والسكنات ، والحيرة والالتفات ، وعن درك الإشارات والعبارات ، كما جلت عن التكييف والحدود ، وعن النزول بالحركة والصعود ، وعن الاستواء المماس للمستوى عليه والقعود ، وعن الهرولة لطلب المقصود ، وعن التبشش المعهود ، للقاء المفقود ، إذا صح منه المقصود ، كما جلت أن تفصّل أو تجمل ، أو يقوم بها ملل ، أو تتغير باختلاف الملل ، أو تلتذ أو تتألم بالعمل ، أو توصف بغير الأزل ، كما جلت عن التحيز والانقسام ، أو يجوز عليها ما تتصف به الأجسام ، أو تحيط بكنه حقيقتها الأفهام ، أو تكون كما تكيّفها الأوهام ،

أو تدرك على ما هي عليه في اليقظة أو المنام ، أو تتقيد بالأماكن والأيام ، أو يكون استمرار وجودها بمرور الشهور عليها أو الأعوام ، أو يكون لها الفوق أو التحت أو اليمين أو الشمال أو الخلف أو الأمام ، أو تضبط جلالها النهى أو الأحلام ، كما جلت أن تدركها العقول بأفكارها ، أو أرباب المكاشفات بأذكارها ، أو حقائق العارفين بأسرارها ، والوجوه بأبصارها ، على ما يعطيه جلال مقدارها ، لأنها جلّت عن القصر خلف حجبها وأستارها ، فهي لا تدرك في

ص 558

غير أنوارها ، كما جلت أن تكون على صورة الإنسان ، أو تفقد من وجود الأعيان ، أو ترجع إليها حالة لم تكن عليها من خلقها الأكوان ، أو تكون في تقييد ظرفية السوداء الخرساء وإن ثبت لها بها الإيمان ، أو تتحيز بكونها تتجلى في العيان ، أو ينطلق عليها الماضي أو المستقبل أو الآن ، كما جلت أن تقوم بها الحواس ، أو يقوم بها الشك والالتباس ، أو تدرك بالمثال أو القياس ، أو تتنوع كالأجناس ، أو يوجد العالم طلبا للإيناس ، أو يكون ثالث ثلاثة للجلّاس ، كما جلت عن الصاحبة والولد ، أو يكون لها كفؤا أحد ، أو يسبق وجودها عدم ، أو توصف بجارحة اليد الذراع والقدم ، أو يكون معها غيرها في القدم ، كما جلت عن الضحك والفرح المعهودين بتوبة العباد ، وعن الغضب والتعجب المعتاد ، وعن التحول في الصور ، كما يكون في البشر ، فسبحانه من عزيز في كبريائه ، وعظيم في بهائه ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

(113)سورة الفلق مكيّة

[سورة الفلق (113) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (4)

[إبطال السحر] :

وهو السحر له وجه إلى الحق فيشبه الحق ، وله وجه إلى غير الحق فيشبه الباطل ، مشتق من السحر وهو اختلاط الضوء والظلمة ، فلا يتخلص لأحد الجانبين ، ولفظ السحر يطلق على الرئة ، وهي التي تعطي الهواء الحار الخارج والهواء البارد الداخل ، فسميت سحرا لقبولها النفس الحار والبارد ، وبها ينفث الساحر في العقد ،

ولا يكون النفث إلا ريحا بريق ، لا بد من ذلك حتى يعم ، فبما في الرئة من الرطوبة لا تحترق بقبول النفس الحار ،

ولهذا يخرج النفس وفيه نداوة ، فذلك مثل الريق الذي يكون في النفث الذي ينفثه الساحر في العقدة ، وإذا أراد من أراد إبطال السحر ، ينظر إلى ما عقد الساحر فيعطي لكل عقدة كلمة يحلها

ص 559

بها ، كانت ما كانت ، فإن نقص عنها بالكلمات بقي الأمر عليه ، فإنه ما يزول عنه إلا بحل الكل .

[سورة الفلق (113) : آية 5]

وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (5)

الحاسد يطلب زوال الأمر من صاحبه ، ولا يتعرض في طلبه لنيله جملة واحدة ، وليس الشر في طلب نيل مثله ، وإنما الشر في طلب زواله ممن هو عنده ، والحسد وصف جبلي في الإنس والجان ، لا يزول بالمجاهدة ولا بالرياضة ، فاصرفه في الخير كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [لا حسد إلا في اثنتين]

وإياك والحسد فإنه يخلق الحسنات ويأكلها كما تأكل النار الحطب ، وأول ما يعود وباله على صاحبه .

(114) سورة النّاس مكيّة

[سورة الناس (114) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2)

من باب التحقيق لما سماهم الناس ، ولم يسمهم باسم يقتضي أن يكونوا حقا ، أضاف نفسه إليهم باسم الملك ، فإن عبوديتهم يستحيل رفعها وعتقها ، فإنها صفة ذاتية .

[سورة الناس (114) : الآيات 3 إلى 4]

إِلهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ (4)

- إشارة - صلاة الخائف عند المسايفة -

حال المسايفة هو حال العبد مع الشيطان في وسواسه ، وحين توسوس إليه نفسه ، والله في تلك الحالة أقرب إليه من حبل الوريد ، فهو مع قربه في حرب عظيم ، فإذا نظر العبد في هذه الحال إلى هذا القرب الإلهي منه ، فإنه يصلي ولا بد من هذه حالته ، ولو قطع الصلاة كلها في محاربته ، فإنه إنما يحاربه بالله ، فإنه يؤدي الأركان المشروعة كما شرعت ، بالقدر الذي هو فيه من الحضور مع الله في باطنه في

ص 560

صلاته ، كما يؤدي المجاهد الصلاة حال المسايفة بباطنه كما شرعت ، بالقدر الذي يستطيعه من الإيماء بعينيه والتكبير بلسانه في جهاد عدوه في ظاهره ، فإن وسوسة الشيطان في ذلك الوقت لم تخرجه عما كلفه الله من أداء ما افترضه عليه ،
وإن أخطر له الشيطان إذا رأى عزمه في الجهاد في الله ، أن يقاتل ليقال ، رغبة منه وحرصا أن يحبط عمل هذا العبد ، وكان قد أخلص النية أولا عند شروعه في القتال ، أنه يقاتل ذابا عن دين الله ، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، فلا يبالي بهذا الخاطر ، فإن الأصل الذي بنى عليه صحيح ، والأساس قوي ، وهو النية في أول الشروع ، فإن عرض الشيطان له بترك ذلك العمل الذي قد شرع فيه على صحة ، ووسوس إليه أنه فاسد بما خطر له من الرياء ،
فيرد عليه بقوله تعالى (وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ) فتدفع بهذه الآية الشبهة التي ألقاها إليك من ترك العمل.

[سورة الناس (114) : آية 5]
الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5)
اعلم أن النفس وإن كانت مقيدة ، فهي لا تشتهي التقييد بذاتها ، وتطلب السراح والتصرف بما يخطر لها من غير تحجير ، فإذا رأيت النفس قد حبّب إليها التحجير فقامت به طيبة ، وكره إليها تحجير فقامت به وإن قامت غير طيبة مكرهة ،
فتعلم قطعا أن ذلك التحجير مما ألقي إليها من غير ذاتها ، كان التحجير ما كان ، فإذا حبب إلى نفوس العامة القيام بتحجير خاص ، فتعلم قطعا أن ذلك التحجير هو الباطل ، الذي يؤدي العامل به إلى شقاوة العامل به والواقف عنده ، فإن الشيطان الذي يوسوس في صدره يوسوس إليه دائما ويحببه إليه ، لأن غرضه أن يشقيه ، وإذا رأيته يكره ذلك التحجير ويطلب تأويلا في ترك العمل به ، فتعلم أن ذلك تحجير الحق الذي يحصل للعامل به السعادة ، ولهذا نرى من ليس بمسلم يثابر على دينه وملازمته - كأكثر اليهود والنصارى - أكثر مما يثابر المسلم في إقامة جزئيات دينه ،
ومثابرته على ذلك دليل على أنه على طريق يشقى بسلوكه عليها .

[سورة الناس (114) : آية 6]
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ(6)

ص 561

" الْجِنَّةِ " يعني بهاهنا الشياطين ، ولولا تنبيه الشارع على لمة الشيطان ووسوسته في صدور الناس ، ما علم غير أهل الكشف أن ثمّ شيطانا " وَالنَّاسِ " شياطين الإنس
قال تعالى (شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ) فشرّك بينهما في الشيطنة ، فإن شياطين الإنس لهم سلطان على ظاهر الإنسان وباطنه ، وشياطين الجن هم نواب شياطين الإنس في بواطن الناس ، وشياطين الجن هم الذين يدخلون الآراء على شياطين الإنس ويدبرون دولتهم ، فيفصلون لهم ما يظهرون فيها من الأحكام :

إذا عذت بالرحمن في كل حالة *** تعوذ بما جاء في سورة الفلق
وفي سورة الناس التي جاء ذكرها *** إلى جنبها تتلى كما عاذ من سبق
وإن عذت عذ بالرب إن كنت مؤمنا *** بما جاء في القرآن فانظر تعذ بحق
فما ذكر التعويذ إلا بربنا *** فكن تابعا لا تتبع غير من صدق

انتهت النسخة الأولى في يوم الأحد الحادي عشر من ربيع الأول عام 1387 الموافق الثامن عشر من حزيران عام 1967 بدمشق وانتهى التصحيح للنسخة الثانية المعدلة في يوم السبت التاسع عشر من ربيع الأول عام 1396 الموافق العشرين من آذار عام 1976 بدمشق .
وانتهت المراجعة الثالثة والأخيرة يوم الجمعة العاشر من شعبان عام 1409 هـ الموافق للسابع عشر من آذار عام 1989 بدمشق
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .
محمود محمود الغراب

المراجع

1 -كتاب الفتوحات المكية - طبعة الميمنية .
2 -كتاب فصوص الحكم .
3 -كتاب تلقيح الأذهان .
4 -كتاب ذخائر الأعلاق ترجمان الأشواق .
5 -كتاب الشاهد .
6 -كتاب التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية .
7 -كتاب الشأن .
8 -كتاب رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات .
9 -إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن .
10 -كتاب عقلة المستوفز .
11 -كتاب التراجم .
12 -كتاب القسم الإلهي .
13 -كتاب الإسرا إلى مقام الأسرى .
14 -كتاب النجاة من حجب الاشتباه .
15 -كتاب منزل القطب .
16 -كتاب مواقع النجوم .
17 -كتاب التنزلات الموصلية .
18 -كتاب المشاهد القدسية .
19 -كتاب نقش الفصوص .
20 -كتاب مسامرة الأبرار ومحاضرة الأخيار.

563

21 -الديوان للشيخ الأكبر .
22 -كتاب المسائل .
23 -كتاب أوراد الأسبوع .
24 -كتاب روح القدس في محاسبة النفس .
25 -كتاب شعب الإيمان .
26 -كتاب الجلال والجمال .
27 -كتاب الألف .
28 -كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار .
29 -كتاب إنشاء الجداول والدوائر .
30 -كتاب الأمر المحكم المربوط لما يلزم أهل طريق الله من الشروط .
31 -كتاب الكتب .
32 -كتاب الفناء .
33 -كتاب تاج الرسائل.

ص 564

مراجع جمع آيات رحمة من الرحمن

<u>سورة غافر</u>

(3)ف ح 4 / 322 - ح 2 / 32 ، 418 - ح 4 / 315 (7) ف ح 2 / 250 - ح 1 - 540 /ح 2 / 250 - ح 3 / 166 - ح 4 / 256 - ح 3 / 166 - ح 1 / 504 - ح 2 - 250 /ح 3 / 120 - ح 4 / 200 - ح 3 / 127 ، 120 - ح 2 / 250 - ح 3 / 166 -ح 2 / 250 ، 96 (8) ف ح 2 / 250 (9) ف ح 3 / 179 ، 166 ، 179 - ح 1 - 540 /ح 3 / 166 (11) ف ح 3 / 24 - ح 1 / 346 (15) ف ح 4 / 227 - ح 2 - 469 / ح 3 / 178 - ح 4 / 227 - ح 2 / 469 ، 90 - ح 3 / 356 - ح 2 / 376 ، - 253ح 3 / 356 - ح 2 / 376 ، 637 ، 569 ، 258 (16) ف ح 2 / 293 - ح 1 - 626 / ح 4 / 199 (19) ف ح 2 / 611 (27) ف ح 4 / 427 (32) ف ح 1 (33) 308 / ف ح 4 / 493 (35) ف ح 2 / 328 - ح 3 / 514 - ح 1 / 436 - ح 4 - 230 / ح 3 / 220 - ح 4 / 230 - ح 2 / 342 - ح 3 / 514 - ح 2 / 342 ، 244 - ح 3 / 358 - الديوان 152 - إيجاز البيان آية 43 - الديوان / 202 (37) ف ح (38) 414 / 2ف ح 3 / 233 (40) ف ح 3 / 9 (42) ف ح 3 / 233 (44) ف ح 4 / 98 - كتاب المسائل - ف ح 4 / 259 ، 400 ، 416 (46) ف ح 1 / 307 ، 299 ، 546 - إيجاز البيان آية 50 (57) ف ح 1 / 216 - ح 4 / 415 - ح 3 - 87 / ح 4 / 8 - ح 3 / 87 - ح 2 / 496 - ح 1 / 216 - ح 3 / 266 ، 326 - ح 2 419 / -ح 1 / 163 - ح 2 / 279 - ح 1 / 125 ، 163 - ح 2 / 419 ، 150 - ح 3 - 2 / ح 2 / 421 - ح 1 / 126 (58) ف ح 4 / 412 (60) ف ح 1 / 182 - ح 4 / 445 ، 245 - ح 1 / 507 - ح 4 / 445 - ح 1 / 507 - ح 4 / 20 ، 445 - ح 1 / 749 ، 436 (61) ف ح 4 / 350 (62) ف ح 2 / 418 - ح 3 / 499 (65) ف ح 2 (67) 419 /ف ح 3 / 248 (85) ف ح 3 / 383 ، 318 ، 383 ، 318 ، 533 ، - 165ح 2 / 276 - ح 3 / 383.

ص 565

سورة فصلت

(3)ف ح 3 / 173 (5) ف ح 4 / 25 - ح 1 / 91 - ح 4 / 163 ، 25 - ح 3 / 214ح 1 / 91 (7) ف ح 1 / 553 (9) ف ح 2 / 453 (10) ف ح 3 / 102 - ح 218 / 4 ، 248 ، 218 - كتاب عقلة المستوفز - إيجاز البيان آية 30 (11) كتاب الإسفار - ف ح 1 / 98 - ح 3 / 203 - ح 1 / 123 ، 131 - ح 3 / 393 - ح 4 / 207ح 1 / 123 - ح 3 / 2 - ح 2 / 421 - ح 1 / 269 (12) ف ح 1 / 131 - ح 2 / 453 - ح 1 / 146 - ح 2 / 678 ، 236 - ح 1 / 324 - ح 2 / 456 ، 457 ، 423ح 3 / 22 - ح 1 / 145 ، 146 - ح 2 / 444 ، 445 - كتاب الإسفار - ف ح 582 / 2ح 3 / 438 - كتاب الإسفار (13) ف ح 1 / 512 - ح 2 / 194 (17) ف ح 3 / 351 (20) ف ح 2 / 150 - ح 1 / 334 (21) ف ح 3 / 394 - إيجاز البيان - ف ح 4 / 151 - ح 3 / 259 - ح 2 / 77 - ح 3 / 535 ، 545 ، 259 - ح 4 (22) 151 /ف ح 3 / 259 ، 3 ، 258 ، 491 ، 259 - ح 1 / 315 (23) ف ح 3 - 259 /ح 2 / 526 - ح 3 / 259 - ح 1 / 597 - ح 2 / 526 (26) ف ح 4 / 25 (30)ف ح 2 / 217 - ح 3 / 316 - كتاب التنزلات الموصلية (31) ف ح 2 / 217ح 3 / 489 ، 104 - ح 1 / 734 (32) ف ح 2 / 217 (33) ف ح 1 / 753 (34) ف ح 4 / 465 ، 24 (35) ف ح 4 / 24 ، 466 - الديوان / 152 (37) ف ح (38) 514 / 1ف ح 2 / 328 ، 308 - ح 1 / 123 - ح 2 / 89 - ح 1 / 514 (40) ف ح 2 / 79 (42) ف ح 3 / 227 - ح 4 / 262 - ح 1 / 280 - ح 4 / 325 (44) كتاب الأعلاق - ف ح 4 / 275 - ح 3 / 94 (46) ف ح 2 / 287 (53) ف ح - 286 / 3ح 2 / 298 - ح 3 / 264 - ح 2 / 150 - ح 3 / 189 - ح 2 / 150 ، 556 ، 151 ، 305 - ح 4 / 307 - ح 3 / 264 ، 449 - ح 4 / 416 - ح 2 / 16 - ح - 275 / 3ح 4 / 68 - ح 3 / 275 ، 189 - ح 2 / 224 - ح 3 / 189 ، 281 ، 465 ، 246 ، 281 ، 282 - ح 1 / 279 ، 120 - ح 2 / 344 - ح 3 / 449 (54) ف ح 4 / 68 - ح 1 / 406 - ح 2 / 151 - ح 3 / 300 .

سورة الشورى

(5)ف ح 2 / 251 - ح 3 / 167 - كتاب التراجم - ح 2 / 251 (7) ف ح 3 / 154ح 4 / 26 - كتاب التنزلات الموصلية (9) ف ح 3 / 154 - ح 2 / 249 - ح (10) 401 / 4ف ح 3 / 167 (11) ف ح 2 / 219 - ح 1 / 290 ، 405 ، 609 -ح

ص 566

588 / 2 ، 291 ، 290 - ح 2 / 661 ، 291 ، 290 - ح 3 / 165 ، 453 ، 165 ،
325 -ح 2 / 141 ، 537 - ح 1 / 271 ، 351 - ح 3 / 35 ، 125 - ح 2 / 692 ،
662 ، 174 ، 662 - ح 3 / 534 - ح 2 / 470 - ح 4 / 135 - ح 3 / 109 ، 298
- ح 1 - 97 / ح 4 / 350 - ح 3 / 149 ، 312 ، 290 - ح 2 / 167 - ح 3 / 371 -
ح 1 - 366 / ح 3 / 371 - ح 2 / 516 - ح 3 / 378 ، 371 - ح 1 / 194 ، 90 -
ح 2 - 211 / ح 4 / 411 - ح 1 / 220 - ح 3 / 535 ، 555 - ح 1 / 43 ، 626 -
ح 934 / ، 94 ، 95 - ح 1 / 64 - ح 3 / 384 - كتاب الأعلاق (13) ف ح 4 /
445 - ح - 404 / 1ح 2 / 414 - إيجاز البيان الفاتحة 7 - ف ح 3 / 413 - ح 2 /
414 - ح 4 / 444 - ح 3 / 368 ، 369 ، 81 (15) ف ح 2 / 219 (19) ف ح 2
/ 542 - ح 3 / 547 (20) ف ح 1 / 751 - ح 4 / 180 - ح 1 / 751 - ح 3 /
353 - كتاب التدبيرات الإلهية (21) ف ح 1 / 326 - ح 2 / 58 - ح 3 / 502 - ح 2
/ 190 (23)ف ح 3 / 168 - ح 1 / 197 ، 196 ، 402 ، 280 (25) ف ح 4 /
302 (27) ف ح 1 / 586 - ح 4 / 426 - ح 3 / 112 ، 229 - كتاب الأعلاق -
إيجاز البيان - ف ح 4 / 224 - ح 3 / 529 ، 112 ، 529 ، 102 - ح 4 / 351 - ح
2 - 511 / كتاب التدبيرات الإلهية (28) ف ح 2 / 511 (30) ف ح 4 / 261 - ح 3
(32) 76 /ف ح 2 / 450 (33) ف ح 3 / 564 ، 344 (36) ف ح 4 / 494)
(38ف ح 4 / 398 (40) ف ح 4 / 104 ، 171 ، 104 ، 171 - ح 1 / 379 - ح
1044 / ، 171 - ح 1 / 379 - ح 4 / 171 - ح 1 / 379 - ح 3 / 407 ، 168 - ح
4 - 24 / ح 3 / 168 ، 478 ، 407 ، 478 - ح 4 / 68 ، 24 ، 47 (41) ف ح 3
(45) 478 /ف ح 2 / 193 - ح 4 / 354 - ح 2 / 681 - ح 4 / 354 - كتاب
التراجم - ف ح 2 / 681 (48) ف ح 1 / 394 - ح 3 / 334 (49) ف ح 2 / 58 -
ح 3 / 289 (50) ف ح 2 / 689 ، 58 (51) ف ح 1 / 258 - ح 2 / 375 ، 70
-ح 3 / 332 ، 525 - ح 2 / 78 ، 375 - ح 3 / 524 - ح 4 / 412 - ح 3 / 332 -
ح 21 / 2 ، 70 - ح 3 / 332 - ح 4 / 412 - ح 2 / 375 - ح 3 / 332 - ح 4 / 19
-ح 2 / 70 - ح 3 / 524 - ح 2 / 375 ، 70 - ح 4 / 412 - ح 2 / 375 - ح 3 /
- 524ح 2 / 70 - ح 3 / 524 - ح 2 / 375 ، 70 ، 601 - ح 3 / 332 - ح 2 /
70 ، 554 ، 601 - ح 3 / 213 - ح 4 / 369 (52) ف ح 2 / 70 ، 646 ، 59 ،
646 ، 424 ، 59 - ح 4 / 83 - ح 2 / 646 ، 374 ، 646 (53) ف ح 2 / 646 -
ح 3 - 410 / ح 2 / 166 ،

ص 567

646 ، 166 - ح 3 / 411 .
سورة الزخرف
(3)ف ح 3 / 160 (4) ف ح 3 / 112 (12) ف ح 3 / 162 (13) ف ح 3 / (17) 490ف ح 3 / 357 (19) كتاب الأعلاق (23) ف ح 3 / 160 (31) ف ح 514 / 1 ، 513 (32) ف ح 4 / 351 - ح 3 / 442 ، 405 ، 287 ، 405 - ح 2 - 465 / ح 4 / 227 (48) ف ح 3 / 165 (53) ف ح 3 / 163 (54) ف ح 3 / 163 ، 355 - ح 1 / 399 - ح 4 / 136 - ح 3 / 355 - كتاب فصوص الحكم فص 25 - ف ح (55) 533 / 3ف ح 3 / 163 ، 164 (56) ف ح 3 / 164 (62) ف ح 3 / 504 (67) ف ح 2 / 22 (71) ف ح 2 / 193 - ح 1 / 259 - ح 4 / 224 - ح 3 / 345 - ح 4 / 115 (74) ف ح 2 / 281 (75) ف ح 2 / 281 - ح 1 / 290 (77) ف ح 4 - 26 /كتاب عقلة المستوفز (84) ف ح 2 / 68 - كتاب عقلة المستوفز - ف ح 4 258 / ، 264 - ح 2 / 523 (87) ف ح 3 / 310 - ح 2 / 591 .
سورة الدخان
ف ح 3 / 154 (1 - 3) ف ح 1 / 64 - ح 3 / 94 - ح 2 / 419 - ح 1 / 83 (4) ف ح 1 / 659 - ح 2 / 419 - كتاب الإسراء - كتاب النجاة (8) ف ح 2 / 419 19) (ف ح 2 / 519 (29) ف ح 1 / 547 (32) كتاب الأعلاق (38) ف ح 2 415 / (39)ف ح 3 / 301 - ح 4 / 236 - ح 2 / 60 ، 415 (49) ف ح 4 / 229 - ح 3 / 408 - ح 4 / 229 - ح 1 / 367 ، 221 - ح 2 / 33 (54) ف ح 3 / 300 ، (56) 360إيجاز البيان آية 56 - ف ح 3 / 223 (57) ف ح 3 / 223 .
سورة الجاثية
(5)ف ح 4 / 411 - ح 1 / 346 ، 206 (13) إيجاز البيان آية 30 - ف ح 2 / - 465ح 3 / 390 ، 151 - ح 4 / 317 - إيجاز البيان - ف ح 3 / 416 - كتاب روح القدس (18) ف ح 4 / 338 (19) إيجاز البيان آية 49 - ف ح 3 / 154 (21) ف ح 3 / 478 - ح 4 / 114 (23) ف ح 3 / 305 ، 117 ، 243 ، 117 ، 243 - ح 1 / 478 - ح 2 / 306 (24) ف ح 4 / 265 - ح 3 / 377 - ح 4 / 265 - ح 3 / 547 ، 503 - ح 4 / 265 - ح 4 / 374 (28) ف ح 4 / 401 (29) ف ح 2 / 400 (36)ف ح 1 / 433 - ح 3 / 537 (37) ف ح 3 / 537 ، 538.

ص 568

سورة الأحقاف

(4)ف ح 3 / 149 (9) ف ح 2 / 341 - ح 4 / 405 - ح 2 / 99 ، 241 - كتاب التراجم - ف ح 2 / 341 - ح 4 / 493 (15) إيجاز البيان آية 233 - ف ح 4 282 / (24)ف ح 2 / 505 - إيجاز البيان آية 21 - كتاب فصوص الحكم فص 10 (25) ف ح 4 / 340 - كتاب المسامرات (29) ف ح 2 / 467 (30) ف ح 3 / 48 (31) ف ح 1 / 698 (32) ف ح 2 / 467 - ح 3 / 143 (35) ف ح 4 / 347 - كتاب تلقيح الأذهان .

سورة محمد

(2)كتاب المسامرات (3) ف ح 3 / 185 (6) ف ح 2 / 442 - ح 1 / 530 (7 (ف ح 3 / 483 - ح 4 / 311 ، 147 ، 345 ، 362 (11) ف ح 4 / 284 - إيجاز البيان آية 49 (14) إيجاز البيان آية 6 (15) ف ح 1 / 350 - ح 2 / 544 ، - 550 ح 4 / 381 - ح 2 / 550 - كتاب النجاة - ف ح 2 / 550 - ح 2 / 441 - كتاب الأعلاق - ف ح 2 / 441 (16) إيجاز البيان آية 8 (17) إيجاز البيان آية 17 (19) كتاب الأعلاق - ف ح 1 / 476 - ح 3 / 90 - ح 1 / 271 ، 612 ، 328 ، 92 ، 93 ، 95 ، 118 - ح 2 / 580 ، 579 - ح 3 / 310 - ح 1 / 92 - ح 3 - 81 /ح 1 / 681 - ح 4 / 294 - ح 1 / 271 - ح 3 / 90 - ح 2 / 419 - ح 1 - 328 / ح 4 / 89 (21) ف ح 2 / 222 (22) ف ح 3 / 532 ، 531 (24) ف ح 2 (28) 230 /ف ح 1 / 727 - ح 4 / 319 (30) ف ح 1 / 657 (31) ف ح 2 - 537 / إيجاز البيان آية 22 - ف ح 2 / 146 - ح 1 / 657 - ح 2 / 534 - ح 3 - 111 / ح 2 / 423 - ح 3 / 249 - ح 2 / 146 - ح 4 / 52 - ح 3 / 334 ، 134 - كتاب الكتب (33) ف ح 1 / 488 - ح 4 / 103 (35) ف ح 2 / 39 - كتاب فصوص الحكم (38) ف ح 1 / 734 - ح 2 / 534 - ح 1 / 586 - كتاب الإسفار - كتاب الشاهد .

سورة الفتح

(1)ف ح 3 / 153 (2) ف ح 4 / 491 - ح 3 / 153 - ح 2 / 138 - ح 3 / 153 ، - 152ح 4 / 454 - ح 1 / 503 - ح 3 / 152 - ح 1 / 636 (3) ف ح 1 / 153 (4)ف ح 2 / 60 - ح 4 / 50 - ح 2 / 60 - ح 1 / 709 - ح 4 / 50 ، 51 - إيجاز البيان آية 17 - ف ح 3 / 140 ، 40 ، 252 (7) ف ح 3 / 522 (9) ف ح / 1 (10) 245ف ح 3 / 136 - ح 1 / 333 - ح 4 / 255 - كتاب عنقاء مغرب - ف ح 4 / 445 - ح

ص 569

- 446 / 1ح 2 / 37 - ح 4 / 405 - ح 3 / 138 ، 478 - ح 4 / 103 (15) ف ح
2 (27) 400 /ف ح 1 / 755 ، 721 (29) كتاب تلقيح الأذهان - ف ح 1 / 430
-ح 4 / 193 ، 366 - ح 1 / 229 - كتاب التنزلات الموصلية .

سورة الحجرات

(2)ف ح 2 / 13 - ح 1 / 298 (5) ف ح 4 / 184 (7) رسالة ابن سودكين (9
(ف ح 4 / 235 (10) كتاب الشاهد - ف ح 4 / 236 ، 344 ، 460 - ح 3 / 135 ،
- 132ح 2 / 97 - ح 3 / 370 - كتاب تلقيح الأذهان (12) ف ح 4 / 153 - ح 3 /
- 563ح 4 / 462 - ح 1 / 324 - ح 2 / 196 ، 197 - ح 1 / 648 - ح 2 / 197
(13)ف ح 1 / 124 - ح 4 / 84 - ح 1 / 124 ، ح 1 / 124 ، 125 ، 627 - ح 4
69 / ، 415 ، 69 ، 237 ، 68 - ح 3 / 351 - الديوان / 221 - ف ح 3 / 351)
(14ف ح 1 / 361 (17) ف ح 4 / 256 - ح 2 / 232 ، 221 ، 651 - ح 4 /
256 - ح 2 / 221 ، 74 ، 256 ، 221 - إيجاز البيان آية 41 .

سورة ق

(1)ف ح 3 / 130 (6) ف ح 3 / 185 (10) ف ح 2 / 217 (15) ف ح 4 /
439 ، 320 - ح 1 / 461 - ح 3 / 362 ، 506 ، 395 - ح 4 / 280 - ح 3 / 253
- ح - 22 / 4ح 3 / 288 - ح 4 / 279 - ح 2 / 427 (16) ف ح 1 / 448 - ح 4
- 67 /ح 3 / 531 - كتاب فصوص الحكم فص 10 - ف ح 2 / 558 - ح 4 / 272 - ح
1 - 574 / ح 3 / 376 - ح 4 / 272 - كتاب تلقيح الأذهان - ح 2 / 52 (18) ف ح
1 - 302 /ح 4 / 388 ، 431 ، 24 ، 187 ، 232 ، 24 ، 450 ، 24 (21) ف ح
3 - 204 / كتاب الأعلاق (22) ف ح 4 / 339 ، 343 - كتاب الشاهد - ف ح 2 /
313 -ح 3 / 287 ، 388 - ح 2 / 295 - ح 1 / 520 - ح 4 / 120 - ح 3 / 541 -
ح 1 - 520 /ح 3 / 115 ، 318 - ح 4 / 354 - ح 1 / 706 - ح 4 / 404 (23)
ف ح 2 (29) 688 /ف ح 1 / 591 - ح 4 / 103 - ح 1 / 591 - ح 2 / 411 - ح
3 / 37 -ح 2 / 334 - ح 3 / 365 - ح 4 / 15 - ح 3 / 48 - ح 4 / 15 - كتاب
فصوص الحكم فص 13 - ف ح 4 / 182 ، 15 ، 258 - ف ح 3 / 156 ، 217 (30
) ف ح 763 / ، 386 (35) ف ح 4 / 405 (37) ف ح 1 / 287 - ح 3 / 471 -
ح 4 / 85 - ح - 198 / 3ح 1 / 287 - كتاب التدبيرات الإلهية - ف ح 1 / 287 - ح

ص 570

- 198 / 3ح 1 / 287 - ح 4 / 85 - كتاب فصوص الحكم فص 12 - ف ح 3 / 484 ،
- 471ح 1 / 239 - ح 4 / 221 - ح 1 / 239 ، 627 - كتاب فصوص الحكم فص 12
- ف ح 3 / 484 ، 471 - ح 4 / 85 - ح 3 / 564 ، 351 - كتاب تلقيح الأذهان 38)
(ف ح 2 / 379 - كتاب الشأن - ف ح 2 / 379 - ح 1 / 639 (41) كتاب رد الآيات
المتشابهات (45) إيجاز البيان آية 120 .

سورة الذاريات

ف ح 3 / 446 (1) كتاب عقلة المستوفز (2) ف ح 1 / 453 ، 515 (4) ف ح 3
- 422 /كتاب عقلة المستوفز (7) ف ح 3 / 416 (10) ف ح 1 / 597 (19) ف
ح 1 / 584 (21) ف ح 1 / 331 - كتاب التراجم - ف ح 2 / 78 - ح 3 / 458)
(22ف ح 4 / 218 (23) كتاب القسم الإلهي - ف ح 2 / 477 - ح 1 / 521 - ح 4
(42) 114 /ف ح 4 / 340 - كتاب الإسراء - كتاب النجاة (47) ف ح 2) 468 /
(49ف ح 3 / 535 - ح 1 / 721 - ح 2 / 78 - ح 3 / 462 (50) كتاب الأعلاق -
ف ح 4 / 431 ، 183 - ح 2 / 155 (51) ف ح 3 / 124 - ح 3 / 264 ،) 265
(55ف ح 2 / 39 - ح 4 / 67 - ح 3 / 242 - ح 4 / 67 ، 452 - ح 3) 242 /
(56ف ح 3 / 74 - ح 2 / 58 - ح 4 / 317 - ح 2 / 107 - ح 4 / 16 - ح 2 /
- 530ح 4 / 101 - ح 1 / 120 - ح 4 / 95 - ح 3 / 301 ، 120 - ح 1 / 120 -
ح 3 / 253 ، 372 - ح 2 / 214 - ح 3 / 301 ، 354 - ح 1 / 268 ، 269 ، 265
-ح 2 / 465 - ح 1 / 269 ، 265 - ح 3 / 123 ، 120 - ح 1 / 265 - ح 3 /
354 - ح 4 / 54 - ح 3 / 354 ، 301 - ح 2 / 16 - كتاب منزل القطب - ف ح 2 /
265 - ح 3 / 74 ، 410 - ح 2 / 214 - ح 4 / 260 (57) ف ح 3 / 74 ، 124 -
ح 2 - 462 / ح 4 / 218 (58) ف ح 3 / 124 - ح 2 / 462 - ح 4 / 281 - ح 1 /
241 - ح 4 / 283 ، 218 ، 283 - ح 3 / 256 (60) ف ح 3 / 124 .

سورة الطور

(1)كتاب النجاة (2) ف ح 4 / 424 - ح 2 / 473 (3) ف ح 2 / 473 ، 443 - ح
3 / 455 - كتاب مواقع النجوم - ف ح 2 / 443 - كتاب مواقع النجوم - ف ح 3 455 /
(4)ف ح 2 / 443 - كتاب التنزلات الموصلية - ف ح 2 / 171 - ح 3 - 29 / ح 2 /
443 ، 278 (5) ف ح 2 / 443 - ح 3 / 526 - كتاب الإسراء - كتاب النجاة (11)
كتاب المشاهد - كتاب النجاة (16) ف ح 3 / 123 (21) ف ح 1 - 670 /ح 3 /

ص 571

(28)ف ح 3 / 122 - ح 1 / 686 - ح 4 / 274 ، 314 (48) كتاب القسم الإلهي -ف ح 3 / 120 - ح 4 / 200 - ح 2 / 182 - ح 4 / 37 ، 439 ، 144 ، 143 .

سورة النجم

(1)ف ح 2 / 335 ، 673 - كتاب النجاة (2) ف ح 4 / 259 - كتاب نقش الفصوص (3) كتاب الإسراء - كتاب النجاة - ف ح 3 / 557 ، 93 (4) ف ح 2301 / ، 383 ، 416 - ح 2 / 166 - ح 3 / 184 (7) ف ح 3 / 116 ، 543 ، 117 - ح 4 / 40 (9) ف ح 2 / 84 ، 132 - ح 3 / 117 - ح 4 / 40 ، 409 - كتاب النجاة - ف ح 3 / 117 ، 543 - ح 4 / 40 - ح 1 / 88 - كتاب الإسراء - كتاب النجاة (11) ف ح 3 / 55 (10) ف ح 2 / 117 - ح 4 / 40 - كتاب الإسراء - كتاب النجاة (11) ف ح 3 / 55 (12) ف ح 4 / 407 - ح 2 / 443 (14) كتاب النجاة - ف ح 2 / 171 - ح 4 / 419 - ح 2 / 443 - ح 3 / 105 - ح 2 / 280 - ح - 29 / 3ح 2 / 443 (15) كتاب الأعلاق - كتاب تلقيح الأذهان (16) كتاب النجاة - ف ح 2 / 171 ، 443 ، 171 ، 280 ، 443 (17) كتاب التنزلات الموصلية (19) كتاب المسامرات (20) كتاب المسامرات (23) ف ح 2 / 418 ، 412 ، 418 (26) ف ح 3 / 461 (28) ف ح 2 / 612 (29) ف ح 4 / 440 - ح 2 - 534 /ح 4 / 440 (30) ف ح 1 / 728 - ح 2 / 629 - ح 3 / 111 ، 242 ، 90 -ح 2 / 629 - ح 4 / 189 (32) ف ح 2 / 513 ، 76 - ح 4 / 256 ، 379 - إيجاز البيان - ف ح 4 / 478 - ح 1 / 550 ، 502 - كتاب النجاة - ف ح 2 / 76 - ح 4 / 257 ، 214 (37) ف ح 1 / 722 (38) ف ح 2 / 160 (39) ف ح 3 - 120 / ح 1 / 577 (42) ف ح 4 / 14 - كتاب التراجم - كتاب الشاهد (43) ف ح (44) 225 / 4ف ح 4 / 384 (48) ف ح 4 / 308 (49) ف ح 1 / 183 (50) كتاب المسامرات (53) كتاب المسامرات (59 - 62) ف ح 1 / 514 .

سورة القمر

(3 - 1)ف ح 3 / 111 (8) ف ح 1 / 747 (14) ف ح 1 / 254 - ح 4 / 246 -ح 3 / 120 - ح 4 / 246 - ح 3 / 120 - ح 4 / 246 (49) ف ح 1 / 296 - ح 2 - 64 / ح 3 / 112 - ح 4 / 17 - ح 3 / 112 - ح 4 / 17 - ح 2 / 63 ، 64)
(50ف ح 3 / 143 - ح 1 / 702 - ح 2 / 402 - ح 1 / 702 - ح 3 / 525 - ح 1 / 702 -ح 2 / 82 (53) ف ح 1 / 296 (54) ف ح 4 / 380 - ح 1 / 449 (55) ف ح - 380 / 4

ص 572

ح 1 / 158 - ح 2 / 98 - ح 4 / 409 ، 296 - ح 3 / 114 .

سورة الرحمن

(1)ف ح 3 / 505 (2) ف ح 3 / 108 - ح 4 / 360 - ح 1 / 582 - كتاب التراجم (3) ف ح 3 / 6 - ح 1 / 119 ، 125 - ح 2 / 441 - كتاب فصوص الحكم - ف ح 2 / 441 - ح 3 / 417 - ح 2 / 106 - ح 1 / 120 ، 121 (4) ف ح 3 / 154 -ح 4 / 481 - ح 3 / 108 - ح 4 / 481 - ح 1 / 582 - ح 3 / 108 - ح 4 / 481 -ح 3 / 108 ، 417 - ح 1 / 725 ، 418 - ح 3 / 6 - ح 4 / 360 ، 481 - ح 1) 399 / (5ف ح 4 / 360 - ح 3 / 6 (6) ف ح 4 / 360 - ح 3 / 6 - ح 4 / 463 (7)ف ح 3 / 6 - ح 4 / 360 ، 33 - ح 3 / 475 ، 219 ، 98 - ح 4 / 360 (8 (ف ح 3 / 6 (9) ف ح 3 / 529 - ح 4 / 360 - ح 1 / 614 ، 404 - ح 3 / 6 - ح 4 / 360 - ح 3 / 529 - ح 3 / 6 ، 9 ، 6 ، 8 (10 - 12) ف ح 4 / 360 (13) ف ح 4 / 360 - ح 2 / 106 - ح 3 / 3 - ح 2 / 106 - ح 3 / 3 (15) ف ح 4 - 360 /ح 1 / 131 - ح 3 / 296 - ح 1 / 131 - ح 3 / 367 - ح 1 / 132 - ح 3 - 367 /ح 1 / 132 - ح 2 / 466 - ح 1 / 132 - ح 2 / 466 - ح 1 / 132 - ح 2 16) 466 / (ف ح 4 / 354 (17) كتاب المشاهد - كتاب النجاة - ف ح 4 (18) 360 / ف ح 4 / 360 (20) ف ح 1 / 304 - ح 3 / 47 - كتاب الأعلاق (22 (ف ح 1 / 188 - ح 3 / 109 (26) ف ح 2 / 448 - ح 3 / 107 (27) ف ح 2524 / ، 471 (29) ف ح 1 / 295 - ح 2 / 287 ، 171 ، 431 ، 206 ، 384 ، 520 - ح 1 / 292 - ح 3 / 295 - ح 4 / 424 - ح 3 / 199 ، 198 - ح 4 / 424 - ح 2953 / ، 198 ، 254 - ح 2 / 284 ، 539 ، 267 - ح 3 / 303 - ح 2 / 446 - ح 1983 / ، 395 -ح 4 / 374 - ح 1 / 401 - ح 3 / 287 ، 344 - ح 2 / 77 - ح 3 - 224 / ح 4 / 426 - ح 3 / 314 - كتاب الشأن (31) ف ح 1 / 426 - ح 3 / 391 ، 404 ، 315 -ح 4 / 35 - ح 3 / 315 ، 55 ، 342 - ح 4 / 12 - ح 3 / 495 - ح 4 - 12 /ح 1 / 677 - ح 2 / 518 - ح 3 / 315 ، 55 (37) ف ح 2 / 689 - ح 3 54) 419 / (ف ح 1 / 641 (55) ف ح 1 / 641 (56) ف ح 1 / 530 - كتاب الأعلاق (60) ف ح 4 / 73 ، 74 ، 265 (70) ف ح 2 / 36 (72) ف ح 2 - 643 / كتاب الأعلاق - ف ح 4 / 356 - ح 3 / 211 - ح 4 / 74 - ح 1 / 181 (75 (ف ح 3 / 286 (77) ف ح 4 / 408 (78) ف ح 2 / 541 - ح 4 / 252 ، 344.

ص 573

سورة الواقعة
(5)ف ح 4 / 330 (6) ف ح 4 / 330 (8) ف ح 3 / 346 (11) ف ح 3 /
103 -ح 1 / 181 - ح 2 / 39 - ح 3 / 485 (22) كتاب الأعلاق (33) ف ح 2 /
183 ، 312 - ح 3 / 360 (40) ف ح 1 / 238 (43) كتاب عقلة المستوفز (46)
ف ح 4 / 372 (59) ف ح 2 / 511 (61) ف ح 2 / 46 - ح 4 / 316 - ح 3 /
41 ، 419 ، 244 ، 223 (62) ف ح 3 / 419 - ح 2 / 160 - ح 3 / 316 - ح 2
184 / ، 469 - ح 3 / 419 (73) ف ح 2 / 462 (74) ف ح 4 / 241 - ح 2 /
641 - ح 1 / 416 ، 426 (85) ف ح 3 / 130 (78) ف ح 4 / 478 (80) ف
ح 3 (83) 130 / كتاب الأعلاق (85) ف ح 1 / 706 - كتاب فصوص الحكم فص
10 - ف ح - 706 / 1ح 4 / 120 - كتاب فصوص الحكم فص 10 - ف ح 1 / 720 -
ح 2 / 559 ، 597 ، 159 - ح 1 / 520 (89) كتاب النجاة - ف ح 4 / 409 (90)
ف ح 1 (91) 749 / كتاب النجاة (95) ف ح 2 / 569 ، 570 .
سورة الحديد
(1)ف ح 2 / 95 - ح 3 / 28 - ح 2 / 95 (2) ف ح 2 / 95 (3) ف ح 1973 /
، 198 - ح 2 / 95 - ح 1 / 175 ، 46 - ح 4 / 299 - ح 2 / 31 - ح 1 / 189 ،
291 ، 261 ، 262 - ح 3 / 178 - الديوان / 181 - ح 2 / 95 - ح 4 / 299 ، 301
-ح 3 / 547 ، 197 - ح 2 / 390 - ح 1 / 166 - ح 3 / 161 - ح 1 / 161 - ح 3
484 / ، 440 - ح 2 / 556 - ح 3 / 541 ، 321 - كتاب التراجم - ف ح 4 - 411 /
ح 2 / 95 - الديوان / 182 - ح 2 / 40 ، 476 ، 114 - ح 4 / 70 ، 407 - ح 2 /
39 - كتاب المسائل - كتاب أوراد الأسبوع (4) ف ح 3 / 534 - ح 2 - 310 / كتاب
التراجم - ح 3 / 370 - ح 2 / 118 ، 480 ، 542 - ح 4 / 62 - ح 1 - 264 / ح 4 /
411 - ح 1 / 752 - ح 4 / 267 - ح 2 / 582 ، 287 - ح 3 / 376 - ح 1 / 183 -
ح 3 / 149 - ح 1 / 183 - ح 2 / 478 - ح 3 / 499 - ح 4 / 277 - ح 1 / 63 - ح
3 / 148 ، 457 - ح 4 / 424 (7) ف ح 2 / 200 - ح 1 / 671 ، - 737ح 2 /
200 - ح 1 / 672 ، 737 - ح 2 / 39 - ح 3 / 166 ، 200 - ح 1 (10) 549 /
ف ح 3 / 135 ، 100 (11) ف ح 3 / 210 (13) إيجاز البيان آية - 145ف ح 2 /
144 - ح 4 / 14 - ح 3 / 439 - ح 4 / 405 ، 14 ، 405 ، 14 - ح - 207 / 3ح
4 / 405 - ح 3 / 207 - كتاب النجاة (14) كتاب روح القدس - ف ح 4 / 427

ص 574

(16)ف ح 3 / 554 - ح 2 / 447 (19) ف ح 2 / 41 - ح 3 / 33 - ح 2 / 24 ، - 92ح 1 / 658 - كتاب مواقع النجوم - ف ح 3 / 63 (21) ف ح 1 / 391 (25) ف ح 2 / 461 ، 460 (27) ف ح 2 / 533 - كتاب فصوص الحكم فص 8 - ف ح 4 - 315 /فصوص الحكم - ف ح 2 / 96 ، 533 ، 117 ، 96 - فصوص الحكم - ف ح 2 - 533 / فصوص الحكم - ف ح 2 / 477 ، 533 ، 562 - ح 4 / 450 - ح 2 / 562 ، 96 ، - 533ح 1 / 329 (28) كتاب التدبيرات الإلهية (29) ف ح 4 / 5 .

سورة المجادلة

(1)ف ح 1 / 453 (2) ف ح 2 / 34 (3) ف ح 4 / 400 (7) ف ح 4 / 232 -ح 3 / 295 - ح 4 / 306 - ح 2 / 215 ، 582 - ح 3 / 295 - ح 2 / 582 - ح 4 - 306 /ح 3 / 295 - ح 4 / 306 - ح 2 / 215 - ح 4 / 232 - ح 3 / 499 - ح 2 - 582 /ح 4 / 402 - ح 3 / 361 ، 243 (9) ف ح 4 / 232 (11) ف ح 4 / 227 - ح 3 / 184 - ح 1 / 144 - ح 4 / 227 - ح 1 / 319 ، 475 ، 483 ، 698 (12) ف ح 4 / 482 - ح 1 / 492 - ح 2 / 47 (22) ف ح 3 / 169 - ح 4 / 59 ، 449 - ح - 166 / 2ح 1 / 233 - كتاب شعب الإيمان - ف ح 1 / 359 - ح 3 / 337 .

سورة الحشر

(1)ف ح 3 / 91 (2) ف ح 4 / 338 - ح 2 / 39 - ح 4 / 357 - ح 1 / 347 ، 551 ، 189 ، 551 - ح 2 / 379 - ح 4 / 434 - ح 3 / 111 - ح 2 / 523 (5) ف ح 142 / 2 ، 143 (7) ف ح 4 / 186 - ح 1 / 392 - ح 2 / 165 (9) ف ح 5861 / ، 257 ، 587 - ح 4 / 462 - كتاب الإسراء (16) ف ح 3 / 301 ، 143 ، - 522ح 4 / 161 - ح 3 / 368 ، 382 ، 368 - ح 2 / 642 (17) كتاب التنزلات الموصلية - ف ح 3 / 143 - ح 4 / 161 - ح 3 / 143 - ح 1 / 232 (19) ف ح 3 (21) 552 /ف ح 3 / 490 - ح 1 / 529 - ح 3 / 3 ، 166 - كتاب الأعلاق - ف ح 3 / 3 ، 93 (22) ف ح 3 / 514 - ح 4 / 149 - ح 2 / 174 - ح 1 / 715 ، - 716ح 2 / 420 - ح 3 / 303 - ح 1 / 538 - ح 3 / 78 ، 10 ، 42 (23) ف ح 1 - 183 /ح 4 / 322 - ح 2 / 42 - ح 1 / 51 - ح 2 / 109 - ح 4 / 201 ، 202 - ح 1 / 707 ، 382 ، 707 - ح 4 / 322 - ح 3 / 218 - ح 4 / 322 - ح 2 / 92 - ح - 455 / 1ح 2 / 92 - ح 1 / 597 - ح 4 / 262 ، 205 ، 322 - ح 1 / 98 - ح 4 209 / ، -208

ص 575

ح - 229 / 3ح 4 / 209 ، 226 ، 322 ، 91 ، 42 ، 209 - ح 2 / 420 (24) ف
ح 4 - 323 /ح 1 / 423 - ح 4 / 323 - ح 1 / 715 - ح 4 / 213 - ح 1 / 305 -
ديوان / 160 - ف ح 1 / 268 ، 269 - ح 3 / 310 .

سورة الممتحنة

(1)ف ح 3 / 270 - ح 1 / 417 - ح 3 / 270 ، 271 - ح 4 / 449 - ح 3 / 271
-ح 2 / 692 (6) ف ح 1 / 711 (10) ف ح 2 / 692 - إيجاز البيان آية 221)
(12ف ح 4 / 68 ، 496 .

سورة الصف

(1)ف ح 3 / 100 (2) ف ح 4 / 127 - ح 3 / 85 - ح 4 / 127 (3) ف ح 1 /
- 542ح 4 / 127 (4) ف ح 2 / 344 (6) كتاب تلقيح الأذهان (10) ف ح 3 /
- 259ح 1 / 541 ، 505 - ح 3 / 477 - إيجاز البيان - ف ح 3 / 259 (11) ف ح
1 / 505 - ح 3 / 259 - ح 1 / 541 - ح 3 / 230 (14) ف ح 4 / 467 - ح 2 /
36 ، 248 .

سورة الجمعة

(1)ف ح 2 / 42 - ح 4 / 322 - ح 1 / 358 - ح 4 / 422 - كتاب الإسراء (2)
ف ح 2 / 644 (9) ف ح 1 / 645 ، 646 ، 457 ، 467 (10) ف ح 4 / 378 .

سورة المنافقون

(1)ف ح 1 / 283 - إيجاز البيان آية 76 (6) إيجاز البيان آية 7 (8) ف ح 3 / 20
- ح 4 / 15 ، 229 - ح 2 / 265 - ح 3 / 20 - ح 4 / 207 ، 230 - كتاب التراجم (
11) ف ح 3 / 440 .

سورة التغابن

(7)ديوان / 162 (9) ف ح 1 / 300 - ح 3 / 466 - ح 1 / 641 - ح 4 / 49 -
إيجاز البيان آية 245 - ف ح 2 / 681 (13) ف ح 2 / 420 (14) ف ح 1 642 /
(15)ف ح 4 / 341 (16) ف ح 2 / 157 ، 212 ، 158 - ح 3 / 229 - ح 1 /
741 ، 374 - ح 4 / 383 .

سورة الطلاق

(1)إيجاز البيان آية 228 - ف ح 4 / 168 - ح 2 / 160 - ح 4 / 309 ، 168 (2)
إيجاز

ص 576

البيان آية 144 - ف ح 4 / 134 (3) ف ح 2 / 503 - ح 4 / 134 ، 458 ، 249 - ح 4 - 153 / كتاب المسامرات (4) إيجاز البيان آية 228 (6) إيجاز البيان آية) 233 (7ف ح 3 / 359 - ح 1 / 340 ، 475 - ح 3 / 229 (12) ف ح 2 / 455 - ح 1 / 156 - ح 2 / 455 - ح 1 / 141 - ح 3 / 28 - ح 1 / 156 ، 141 ، 156 ، 141 -ح 4 / 397 - ح 3 / 382 ، 398 - كتاب الجلال والجمال .

سورة التحريم

(3)ف ح 2 / 112 (4) ف ح 2 / 466 - ح 1 / 180 - ح 4 / 85 - ح 2 / 466 -ح 4 / 85 - ح 2 / 466 - ح 4 / 386 - ح 2 / 466 - الديوان / 162 - كتاب الألف (5) ف ح 2 / 466 (6) إيجاز البيان آية 40 - ح 2 / 30 - ح 3 / 489 -ح 4 / 306 - ح 2 / 30 ، 308 ، 30 - ح 3 / 379 ، 268 ، 217 ، 352 ، 254 (8) ف ح 2 / 62 ، 27 - ح 1 / 316 (9) كتاب الإسراء - كتاب النجاة (11 (ف ح 3 / 11 - ح 4 / 341 - ح 3 / 460 ، 11 (12) ف ح 4 / 199 - ح 3 / 283 ، 11 .

سورة الملك

ف ح 1 / 461 - ح 4 / 187 - الديوان / 164 (1) ف ح 1 / 420 - ح 4 / 201 (2 (ف ح 3 / 457 - كتاب عقلة المستوفز - ف ح 2 / 24 - ح 4 / 454 - ح 2 / 351 - ح 3 / 65 ، 66 ، 171 ، 65 ، 66 - إيجاز البيان آية 29 - ف ح 3 / 66 ، 3) 457 (ف ح 2 / 268 - ح 4 / 87 - كتاب الإسفار - ف ح 2 / 268 (4) ف ح 4 - 87 / كتاب الإسفار (5) ف ح 2 / 678 - ح 4 / 361 - ح 1 / 421 - ح 2 - 450 / ح 4 / 336 - ح 1 / 303 (7) ف ح 1 / 335 (8) ف ح 1 / 335 (14) ف ح 3 / 53 - ح 4 / 60 ، 425 ، 60 - ح 2 / 412 (15) ف ح 1 / 527 - ح 2 - 340 / ح 1 / 338 - ح 1 / 751 - ح 2 / 213 - ح 1 / 410 ، 751 - الديوان (16) 201 / ف ح 1 / 5 (19) ف ح 2 / 341 (22) ف ح 3 / 319 (30) الديوان / 164 .

سورة القلم

ف ح 4 / 178 - ح 1 / 3 (1) ف ح 1 / 294 - ح 2 / 422 ، 427 - ح 3 / 399 - ح - 53 / 1الديوان / 164 - ف ح 3 / 221 (3) ف ح 2 / 616 (4) ف ح 2 / 266 ، 50 - ح 3 / 36 - ح 4 / 60 - ح 1 / 33 - كتاب تلقيح الأذهان - ح 4 - 178 / كتاب إنشاء الدوائر (9) ف ح 2 / 536 (11) ف ح 4 / 477 (14 - 13) ف ح

ص 577

(35) 282 / 3ف ح 1 / 552 (42) كتاب الاعلاق - ف ح 1 / 509 - ح 4 / 367 - ح 3 / 439 - ح 1 / 314 ، 733 - ح 2 / 211 - ح 1 / 751 (45) ف ح 2 / 530 .

سورة الحاقة

(10)ف ح 2 / 33 - ح 3 / 115 (11) ف ح 3 / 57 - ح 4 / 136 - ح 3 / 57 (12)كتاب مواقع النجوم - ف ح 3 / 4 - ح 4 / 394 (13) ف ح 4 / 360 (14) ف ح 4 / 486 (16) ف ح 3 / 419 ، 438 ، 419 (17) ف ح 3 / 184 - ح 1 / 667 ، 148 - ح 3 / 432 - ح 1 / 226 - ح 3 / 432 - الديوان / 164 (19) ف ح (20) 314 / 1ف ح 4 / 386 (23) ف ح 1 / 660 (24) ف ح 1 / 660 ، 639 (25) ف ح 1 / 314 - كتاب عقلة المستوفز (33) ف ح 1 / 314 (37) ف ح 3 - 438 / كتاب الشاهد (38) ف ح 3 / 108 (39) ف ح 3 / 108 - ح 4 / 390 - ح - 176 / 1ح 3 / 299 - ح 2 / 673 - ح 1 / 176 - ح 2 / 672 (40) ف ح 3963 / ، 394 (45) ف ح 1 / 753 (46) ف ح 1 / 369 (51) ف ح 2 / 569 .

سورة المعارج

(4)ف ح 2 / 415 - ح 3 / 54 (19) ف ح 4 / 482 - ح 1 / 257 - إيجاز البيان - ف ح 1 / 275 ، 339 ، 641 (20) ف ح 4 / 278 (21) كتاب الأمر المحكم المربوط (22) ف ح 1 / 641 - ح 2 / 576 (23) ف ح 1 / 344 ، 385 - ح 3 / 479 ، 222 - ح 1 / 389 - كتاب مواقع النجوم - كتاب التنزلات الموصلية (24) ف ح 1 / 548 ، 551 (27) ف ح 2 / 37 (28) ف ح 2 / 37 (40) ف ح 4 / 348 (41) كتاب القسم الإلهي .

سورة نوح

(1)ف ح 2 / 10 - ح 3 / 50 (6) ف ح 2 / 270 - ح 3 / 51 (14) ف ح 3 / 119 ، 490 - ح 4 / 352 - ح 1 / 279 - ح 2 / 218 (16) ف ح 1 / 642 - ف ح 2 (17) 679 /ف ح 3 / 142 - ح 4 / 415 - ح 3 / 297 ، 137 ، 139 - ح 1 / (18) 265ف ح 3 / 152 ، 438 (19) ف ح 3 / 459 (22) ف ح 1 / 638) (26ف ح 2 / 93 (28) ف ح 4 / 475 - ح 3 / 166 - الديوان / 165 .

سورة الجن

(3)ف ح 2 / 580 ، 579 ، 580 (6) ف ح 1 / 273 (8) كتاب عقلة المستوفز) (9ف ح 2 / 450 - ح 4 / 398 - عقلة المستوفز (14) ف ح 4 / 235 (16) ف ح 2 / 218(17)

ص 578

ف ح 2 / 218 (18) ف ح 3 / 376 (19) ف ح 2 / 6 ، 126 - ح 1 / 430 - ح 4 (26) 420 / ف ح 3 / 79 ، 407 (27) ف ح 3 / 79 - كتاب الأعلاق - كتاب عقلة المستوفز - ف ح 2 / 174 (28) ف ح 3 / 79 ، 407 ، 79 - ح 4 / 128 ، 287 - ح 2 / 445 - ح 4 / 325 - كتاب الجلال والجمال .

سورة المزمل

(1)ف ح 1 / 248 (2) ف ح 1 / 237 ، 238 - إيجاز البيان آية 124 (6) ف ح 1 / 657 - ح 4 / 61 - ح 2 / 218 - ح 4 / 171 ، 351 ، 60 ، 61 (7) ف ح 4 (8) 419 /كتاب الإسراء - كتاب النجاة (9) ف ح 3 / 287 - ح 4 / 280 - ح / 3 166 - ح 2 / 420 - ح 1 / 671 - ح 2 / 294 ، 199 - ح 1 / 488 - ح 4 395 / -ح 3 / 478 - ح 4 / 408 - الديوان / 165 ، 166 - ف ح 2 / 371 (11) ف ح 1 / 215 (20) ف ح 3 / 548 - ح 1 / 413 ، 492 ، 551 ، 554 - ح 4 / 455 ، 321 - ح 1 / 549 ، 579 ، 546 ، 547 ، 587 ، 547 ، 600 ، 546 .

سورة المدثر

(3)كتاب التنزلات الموصلية (4) ف ح 1 / 416 - كتاب التنزلات الموصلية (6) إيجاز البيان آية 41 (8) ف ح 3 / 462 - ح 1 / 305 (18) ف ح 6282 / ، 590 (23)ف ح 3 / 35 - ح 2 / 290 (24) ف ح 1 / 235 (30) ف ح 1713 / ، 172 ، 204 (31) ف ح 2 / 35 - ح 1 / 180 - ح 3 / 522 (34) كتاب الإسفار (38) ف ح 3 / 284 - ح 1 / 627 - كتاب النجاة (39) ف ح 1 / 749 (41) ف ح 1 / 303 (46) ف ح 1 / 303 (48) إيجاز البيان آية 49 (51 (كتاب النجاة .

سورة القيامة

(1)ف ح 3 / 492 ، 25 (2) ف ح 1 / 287 (8) ف ح 1 / 498 ، 492 - ح 4 - 391 /ح 1 / 492 ، 498 ، 492 (11) كتاب التدبيرات - كتاب الكتب (12) ف ح 4 / 339 - كتاب الإسراء - كتاب النجاة (15) ف ح 4 / 16 (16) ف ح 3) 400 / (19ف ح 2 / 88 - ح 3 / 400 - إيجاز البيان آية 24 (22) ف ح 2 (23) 266 / ف ح 3 / 35 - ح 2 / 173 - ح 3 / 324 - ح 2 / 106 - ح 4 / 54 - كتاب الجلال والجمال - ف ح 3 / 442 - ح 1 / 320 - ح 3 / 4 - كتاب الأعلاق (24) ف ح 1 / 339 (25) ف ح 2 / 266 (29) ف ح 1 / 754 ، 314 - كتاب الأعلاق - ف ح

ص 579

(30) 66 / 4ف ح 3 / 382 - ح 4 / 66 - ح 3 / 382 (31) ف ح 3 / 378 (32 (34 - ف ح 3 / 379 (36) ف ح 1 / 332 - ح 4 / 356 ، 29 .

سورة الإنسان

(1)ف ح 3 / 32 - ح 2 / 201 - ح 4 / 167 - ح 2 / 201 - ح 3 / 32 - ح 2 / 201 - ح 4 / 315 ، 340 (3) ف ح 3 / 410 ، 381 ، 84 - ح 1 / 209 - ح 4 / 318 - ح 3 / 239 - ح 1 / 209 - ح 2 / 179 - ح 3 / 123 - ح 4 / 380 - ح 3 / 239 (5) ف ح 2 / 550 (6) ف ح 4 / 380 (7) ف ح 3 / 230 - ح 4 / 423 (17)ف ح 2 / 550 (24) ف ح 1 / 347 (27) الديوان / 166 (30) ف ح 3 / 84 ، 457 ، 303 ، 84 ، 464 - ح 1 / 434 (31) ف ح 3 / 463 .

سورة المرسلات

ف ح 2 / 507 (1) ف ح 3 / 446 - ح 2 / 257 (3) كتاب عقلة المستوفز (4) كتاب عقلة المستوفز (5) ف ح 3 / 446 - ح 2 / 256 (8) ف ح 3 / 419 ، 565 -ح 4 / 398 (20) ف ح 3 / 345 (25 - 26) ف ح 3 / 143 .

سورة النبأ

(6)ف ح 4 / 396 (7) ف ح 2 / 7 ، 455 - ح 4 / 330 - كتاب روح القدس (9 (ف ح 2 / 46 - ح 4 / 404 - ح 2 / 46 ، 378 - ح 1 / 337 ، 237 (10) ف ح 1 (11) 337 /ف ح 1 / 337 - ح 4 / 388 ، 387 (14) ف ح 3 / 115 (18) كتاب التنزلات الموصلية (22) ف ح 4 / 136 (23) ف ح 1 / 301 - ح 2 / 439 -ح 1 / 301 (26) ف ح 3 / 182 (33) كتاب الأعلاق (36) ف ح 4 / 419) (38ف ح 3 / 439 ، 194 ، 209 ، 479 .

سورة النازعات

(1 - 2)ف ح 3 / 446 (3 - 5) كتاب عقلة المستوفز (12) ف ح 4 / 352 14) (ف ح 3 / 439 - كتاب عقلة المستوفز - ف ح 1 / 308 (24) ف ح 1 / 301 ، (25) 685ف ح 1 / 436 - ح 3 / 533 (26) ف ح 3 / 533 - ح 1 / 436 - ح 2 (30 - 27) 276 /ف ح 3 / 87 (40) ف ح 4 / 165 ، 428 - ح 3 / 138 ، 139 -ح 1 / 379 - ح 3 / 415 - ح 4 / 428 - كتاب تلقيح الأذهان - ف ح 2 / 194 ، (41) 195ف ح 4 / 420 ، 165 - ح 1 / 738 (44) ف ح 2 / 43.

ص 580

سورة عبس

ف ح 4 / 170 (1) ف ح 2 / 149 - ح 4 / 170 - ح 2 / 265 - ح 4 / 170 - ح 3 (3) 219 / ف ح 2 / 149 - ح 3 / 219 - ح 4 / 309 - ح 3 / 219 - ح 2 / 265 ، - 149ح 4 / 170 (5) ف ح 4 / 309 - ح 2 / 265 ، 149 - ح 4 / 309 (6) ف ح 1 / 563 - ح 4 / 441 - ح 1 / 563 (7) ف ح 3 / 219 (10) ف ح 3 / 219 - ح 4 / 309 ، 191 (13) ف ح 4 / 26 (14) ف ح 2 / 259 - ح 4 / 26 (15) ف ح 2 / 259 (16) ف ح 4 / 26 - ح 2 / 259 - ح 3 / 438 - كتاب التراجم (17 (كتاب التدبيرات (22) ف ح 3 / 42 - ح 4 / 289 - ح 2 / 472 - ح 3 / 346 ، . 438

سورة التكوير

(1)ف ح 3 / 565 ، 437 ، 565 (2) ف ح 3 / 565 - ح 4 / 398 (5) ف ح 4913 / ، 441 (6) ف ح 1 / 299 (7) ف ح 1 / 313 ، 99 (10) ف ح 4 / 338 (15) ف ح 1 / 643 (16) ف ح 1 / 302 - ح 2 / 422 (17) ف ح 4 / 444 (18 (ف ح 1 / 395 (19) ف ح 1 / 395 (21) ف ح 3 / 13 ، 14 (22) ف ح 3 (23) 13 / كتاب الإسراء - كتاب النجاة (24) كتاب نقش الفصوص (26) ف ح 1 (27) 411 /ف ح 3 / 349 (29) ف ح 2 / 288 - ح 3 / 509 - ح 4 / 30 .

سورة الانفطار

(1)ف ح 4 / 398 (2) ف ح 3 / 419 - ح 2 / 280 - ح 1 / 294 (5) ف ح 2 (6) 485 /ف ح 1 / 250 - ح 3 / 402 - ح 2 / 643 - ح 4 / 68 ، 137 - ح 2 / - 139ح 3 / 534 - ح 2 / 139 - ح 4 / 4 ، 366 - إيجاز البيان الفاتحة آية 3 -ف ح 2 / 139 - ح 1 / 528 (7) ف ح 1 / 331 - ح 3 / 44 - ح 1 / 286 - ح 2 / - 426ح 3 / 297 (8) ف ح 1 / 331 - ح 4 / 19 - ح 3 / 44 - ح 4 / 166 - ح 3 / 44 ، 297 ، 12 - ح 1 / 331 (10) ف ح 3 / 221 (11) ف ح 4 / 447 ، - 504ح 3 / 228 (12) ف ح 4 / 187 (13) ف ح 2 / 39 (18 - 19) كتاب الفصوص فص 8 .

سورة المطففين

ف ح 3 / 9 (6) ف ح 1 / 308 - ح 3 / 25 - ح 1 / 308 ، 713 (7) كتاب التدبيرات - ف ح 1 / 290 (8) ف ح 2 / 138 - ح 1 / 290 (9) ف ح 4 / 419 (12)ف ح 1 / 303 (14) ف ح 4 / 25 (15) ف ح 2 / 184 ، 669 - ح 1 / 532 -ح

ص 581

- 669 / 2ح 3 / 442 - ح 1 / 532 - ح 3 / 442 ، 119 ، 349 - ح 4 / 411 - ح 3 - 435 /إيجاز البيان آية 47 (16) ف ح 1 / 303 (18) كتاب التدبيرات - ف ح 1 / 290 (21) ف ح 3 / 6 (22) ف ح 2 / 39 (24) ف ح 1 / 301 (26) ف ح 4 / 418 (27) ف ح 4 / 352 (28) ف ح 2 / 3 (34) ف ح 2 / 81 (36) ف ح 2 / 682 - ح 1 / 417 .

سورة الانشقاق

(3)ف ح 1 / 308 - ح 3 / 486 (7) كتاب عقلة المستوفز (8) ف ح 3 / 389) (10ف ح 4 / 393 - ح 3 / 439 - ح 4 / 393 - ح 1 / 314 - كتاب عقلة المستوفز (14) ف ح 1 / 315 - كتاب الأعلاق (19) ف ح 4 / 347 (21) ف ح 1 / 514 (24)ف ح 3 / 85 ، 5 - ح 4 / 410 .

سورة البروج

(1)ف ح 3 / 433 - ح 1 / 388 ، 122 - ح 2 / 434 - ح 1 / 294 - ح 2 / 434 -ح 1 / 146 ، 195 - ح 3 / 298 - ح 1 / 122 - ح 3 / 433 - ح 1 / 388 (3) ف ح 2 / 484 - ح 4 / 372 (4) ف ح 2 / 121 - كتاب المسامرات ح 2 (11) ف ح (12) 379 / 3ف ح 2 / 412 - ح 3 / 281 - ح 2 / 412 (13) ف ح 4 / 289 (14) ف ح 4 / 260 (15) ف ح 2 / 436 - ح 4 / 260 (16) ف ح 4 / 260 - ح 2 - 476 /ح 3 / 441 ، 468 - ح 4 / 182 (20) ف ح 4 / 193 ، 14 - ح 2 / 436 -ح 4 / 14 (21) ف ح 4 / 193 ، 359 (22) ف ح 3 / 526 ، 260 - كتاب عقلة المستوفز - ف ح 2 / 283 ، 422 - ح 3 / 61 .

سورة الطارق

(6 - 5)ف ح 1 / 374 (9) ف ح 1 / 385 - ح 3 / 334 (10) ف ح 4 / 352 (14) ف ح 1 / 483 (15) ف ح 2 / 576 ، 530 .

سورة الأعلى

(1)ف ح 1 / 346 - كتاب فصوص الحكم فص 9 - ف ح 1 / 426 ، 416 ، 426 ، 436 -الديوان / 171 (2) ف ح 2 / 426 - ح 3 / 297 (11) ف ح 4 / 290) (13ف ح 4 / 290 - ح 1 / 290 (15) ف ح 3 / 378 ، 411 (17) ف ح 3 / 405.

ص 582

سورة الغاشية
(17)ف ح 1 / 399 ، 195 - ح 2 / 402 (20) ف ح 1 / 195 (21) ف ح 2 / 388 (22) كتاب التراجم .
سورة الفجر
(1)ف ح 4 / 277 (2) ف ح 1 / 504 (3) ف ح 4 / 361 - ح 1 / 489 - كتاب التدبيرات - ف ح 4 / 276 - ح 3 / 462 - ح 2 / 291 - ح 4 / 276 (4) كتاب الألف (14 - 15) ف ح 1 / 311 (17) ف ح 3 / 480 (18) ف ح 3 / 481 (20 (ف ح 1 / 584 (21) ف ح 3 / 486 (22) ف ح 1 / 267 - ح 2 / 566 (23) ف ح 4 / 207 (24) ف ح 3 / 466 (28) ف ح 2 / 369 - ح 4 / 216) (30 - 29ف ح 2 / 396 - كتاب التدبيرات .
سورة البلد
(3)ف ح 4 / 415 (4) ف ح 4 / 394 (8) ف ح 4 / 231 ، 201 - ح 3 / 407 - ح 2 / 304 - ح 3 / 151 (9) كتاب مواقع النجوم (10) ف ح 3 / 239 ، 470 - ح 4 / 375 - ح 3 / 418 - ح 2 / 303 .
سورة الشمس
ف ح 2 / 672 ، 673 (1) ف ح 4 / 383 (2) ف ح 4 / 396 (3 - 4) ف ح 4 (5) 383 /ف ح 4 / 383 ، 201 (6) ف ح 4 / 383 - ح 2 / 673 (7) ف ح 4 - 383 / ح 2 / 58 - ح 1 / 285 - كتاب التدبيرات (8) كتاب التدبيرات - ف ح 2 / - 58ح 3 / 238 ، 239 - ح 4 / 363 - ح 2 / 58 - ح 1 / 285 - ح 3 / 239 - ح 1 / 280 - ح 4 / 18 ، 346 - ح 3 / 521 ، 211 ، 239 - ح 1 / 285 - ح 2 / - 465ح 1 / 285 ، 96 - ح 2 / 412 (9) ف ح 1 / 387 ، 549 - ح 4 / 478 - ح (10) 239 / 3ف ح 1 / 551 - ح 2 / 631 - ح 1 / 550 ، 551 - ح 4 / 119 -كتاب روح القدس - ف ح 2 / 315 - ح 3 / 239 (15) ف ح 4 / 428 .
سورة الليل
(3)ف ح 3 / 185 (6) كتاب مواقع النجوم - ف ح 4 / 119 (7) كتاب مواقع النجوم - ف ح 4 / 119 (8 - 9) ف ح 4 / 119 (10) ف ح 4 / 119 - كتاب الإسراء - كتاب النجاة (15) ف ح 4 / 290.

ص 583

سورة الضحى
(2)ف ح 4 / 39 (4) ف ح 4 / 299 - ح 1 / 122 - ح 4 / 299 ، 410 - ح 3 / 405 (5) ف ح 4 / 410 - ح 3 / 240 - ح 4 / 299 - كتاب الفناء - ف ح 4 / 345 - إيجاز البيان آية 146 (6) ف ح 2 / 655 (7) إيجاز البيان آية 156 - ف ح 1 / 418 (8) ف ح 4 / 308 (9) ف ح 2 / 655 - ح 3 / 406 (10) ف ح 4 / 452 - ح 1 / 576 - ح 2 / 655 - ح 3 / 406 ، 90 - ح 1 / 90 ، 91 ، 582 - إيجاز البيان آية 153 (11) ف ح 4 / 256 - ح 2 / 202 - ح 3 / 406 - ح 2 / 202 - ح 4 / 104 - ح 3 / 406 ، 455 - ح 4 / 401 .

سورة الشرح
ف ح 4 / 361 (4) ف ح 4 / 361 ، 347 (6) كتاب تلقيح الأذهان - ف ح 6291 / ، 620 ، 112 - ح 3 / 551 - ح 4 / 347 (7) ف ح 3 / 431 (8) ف ح 4 / 350 - ح 1 / 629 - كتاب التنزلات الموصلية .

سورة التين
(3)ف ح 2 / 647 (4) ف ح 2 / 683 ، 616 - ح 1 / 57 - ح 4 / 361 - ح 2 / 616 - كتاب عقلة المستوفز - كتاب إنشاء الدوائر - كتاب الإسراء - كتاب النجاة (5) ف ح 3 / 33 ، 534 ، 509 - كتاب مواقع النجوم (6) ف ح 3 / 33 -كتاب تلقيح الأذهان - كتاب مواقع النجوم .

سورة العلق
(3)ف ح 1 / 725 (6) ف ح 3 / 18 (7) ف ح 4 / 148 (8) كتاب الشاهد) (14ف ح 2 / 159 - ح 4 / 145 - ح 1 / 254 - ح 2 / 159 (19) ف ح 1 / 515 -ح 3 / 379 - ح 1 / 264 - ح 4 / 431 ، 189 - ح 2 / 34 ، 102 - ح 1 / 515 - ح 3 / 303 - كتاب التنزلات الموصلية - كتاب الشاهد .

سورة القدر
(1)ف ح 1 / 658 - ح 3 / 94 - ح 1 / 661 ، 659 (2) ف ح 1 / 661 (3) ف ح 4 / 180 - ح 1 / 208 ، 658 - ح 3 / 159 (4 - 5) ف ح 1 / 658 ، 661 .

سورة البينة
(5)ف ح 4 / 57 - ح 1 / 209 - ح 4 / 479 - ح 3 / 468 ، 378 (6) ف ح 2 / 592

ص 584

(8)ف ح 4 / 351 - كتاب الإسفار - كتاب عقلة المستوفز - ف ح 2 / 522 - كتاب مواقع النجوم .

سورة الزلزلة

ف ح 2 / 693 - ح 4 / 169 - ح 1 / 464 (6) كتاب التنزلات الموصلية - ح 4 / 347- ح 1 / 175 - ح 4 / 347 (7) ف ح 1 / 592 - ح 3 / 406 - ح 4 / 240 -ح 3 / 441 - كتاب النجاة (8) ف ح 2 / 533 - كتاب تاج الرسائل .

سورة العاديات

(8)ف ح 1 / 547 (10) ف ح 4 / 338 (11) ف ح 3 / 319 .

سورة القارعة

(5 - 4)ف ح 3 / 391 (7) ف ح 4 / 337 (11) ف ح 3 / 6 - ح 4 / 35 .

سورة التكاثر

(1)كتاب مواقع النجوم (7) ف ح 2 / 570 ، 628 - ح 3 / 570 - ح 3 / 267 - ح 2 / 570 (8) ف ح 3 / 389 - ح 2 / 188 .

سورة العصر

(3)ف ح 1 / 522 - كتاب روح القدس - كتاب تلقيح الأذهان - ف ح 1 / 470 - كتاب روح القدس - الديوان / 440 .

سورة الهمزة

(2)ف ح 4 / 394 (3 - 4) ف ح 1 / 303 (5 - 6) ف ح 1 / 322 (7) ف ح 3 / 385 ، 387 - ح 1 / 441 - ح 2 / 335 - ح 1 / 613 - ح 1 / 238 .

سورة الفيل

(5)ف ح 3 / 490 .

سورة قريش

(1)ف ح 3 / 81 (4) ف ح 3 / 81 - ح 2 / 188 ، 187 .

سورة الماعون

(5)ف ح 1 / 544 - ح 3 / 478 - ح 1 / 544 (6) ف ح 2 / 535 ، 315.

ص 585

سورة الكوثر

سورة الكافرون

ف ح 4 / 169 - ح 1 / 464 - ح 2 / 693 (6) ف ح 2 / 363 ، 592 .

سورة النصر

ف ح 1 / 464 - ح 3 / 148 - ح 2 / 693 - ح 1 / 181 (3) ف ح 2 / 403 - ح 1 - 181 / ح 3 / 148 ، 385 - ح 2 / 119 - ح 1 / 181 - ح 2 / 119 - ح 1 / 181 - الديوان / 473 .

سورة المسد

ف ح 2 / 611 (2) ف ح 2 / 611 - الديوان / 178 - كتاب الأعلاق .

سورة الإخلاص

ف ح 2 / 693 - ح 1 / 464 - ح 4 / 169 ، 250 ، 322 (1) ف ح 2 / 579 ، 174 ، - 579ح 3 / 34 - ح 2 / 581 - ح 1 / 291 - ح 2 / 31 - ح 3 / 465 (2) ف ح - 34 / 3ح 1 / 258 - ح 4 / 45 - ح 2 / 581 - ح 4 / 295 (3) ف ح 3 / 34 - ح 2 / 580 - ح 3 / 310 ، 465 - ح 1 / 291 ، 415 - ح 3 / 371 - ح 1 / 415 (4) ف ح 2 / 597 - ح 1 / 291 - ح 3 / 34 ، 371 - ح 2 / 580 ، 172 - ح 3 - 181 / كتاب الجلال والجمال .

سورة الفلق

(4)ف ح 3 / 370 (5) ف ح 2 / 577 ، 196 - ح 3 / 230 - ح 4 / 509 .

سورة الناس

(2)ف ح 1 / 618 (4) ف ح 1 / 474 (5) ف ح 3 / 368 (6) ف ح 3 / 367 - ح 2 / 446 - إيجاز البيان آية 37 - ف ح 3 / 522 - ح 4 / 148.

الفهرس

الموضوع الصفحة

ص 587

ص 588

ص 589

ص 591

ص 592

ص 593

ص 594

ص 595

ص 596

ص 597

ص 598

ص 599

ص 600

ص 601

<u>سورة الليل</u>

<u>سورة الشرح</u>

<u>سورة العلق</u>

<u>سورة القدر</u>

603

أشرف على التصحيح والتدقيق كل من السادة :
ماجد الحناوي ، وخالد البستاني ، وسعيد الناشي
( )

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
المبعوث رحمة للعالمين
أخي العارئ
تحية طيبة مباركة من عند الله تعالى وبعد هذا الجهد هو ما يسره الله تعالى ووفق إليه ، فلعله يعطي صورة واضحة جلية لفهم الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي للقرآن ، ولمستنده إلى ما ذهب إليه وأتى به من توحيد وأحكام وعلوم عرفانية ، وتحقيق وإشارات صوفية ، فأرجو ممن وجد تقصيرا أن يغفره ، أو وجد خطأ أن يصححه ، أو وجد نقصاً أن يكمله ، والحمد لله تعالى على ما أنعم وأسبغ
والله يقول الحق وهو يهدي السبيل
أبو عبد الله
محمود محمود الغراب
دمشق
في التاسع والعشرين من المحرم عام 1410
الموافق 31 آب عام 1989

605

للمؤلف

1 -الفقه عند الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي صدر
2 -الإنسان الكامل صدر
3 -القطب الغوث صدر
4 -الرد على ابن تيمية صدر
5 -شرح كلمات الصوفية صدر
6 -الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي - ترجمة حياته صدر
7 -الحب والمحبة الإلهية صدر
8 -الخيال عالم البرزخ والمثال صدر
9 -الرؤيا والمبشرات صدر
10 -شرح فصوص الحكم صدر
11 -شرح رسالة روح القدس صدر
12 -الطريق إلى الله تعالى - الشيخ والمريد صدر
13 -الاعتبار وهو الفقه الباطن مخطوط
14 -علماء وأمراء مخطوط
15 -الرسائل والمقالات مخطوط
16 -الحديث في شرح الحديث مخطوط

....

تطلب كتب المؤلف التي صدرت من :

*** دار الفكر - دمشق - ساحة الحجاز - سوريا

*** دار قتيبة - دمشق - شارع مسلم البارودي - سوريا

*** المؤلف - دمشق - ص . ب 333 - سوريا